كتاب رائع.. أي شخص مهتم بعلم النفس
سوف يجده في قمة التشويق

مجلة فوكس

غسيل الدماغ

علم التحكم بالتفكير



كاثلين تيلر

نقله إلى العربية
سامر عبد المحسن الأيوبي
عبد القادر مصطفى عيسى



كتاب رائع.. أي شخص مهتم بعلم النفس سوف يجده في قمة التشويق

مجلة فوكَس

غسيل الدماغ

علم التحكم بالتفكير

كاثلين تيلر

نقله إلى العربية

سامر عبدالمحسن الأيوبي

عبدالقادر مصطفى عيسى



Original Title
Brainwashing
the Science of thought control

Author:
Kathleen Taylor

ISBN-13: 978-0-19-280496-9

ح شركة العبيكان للتعليم، 1437هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

تيلر، كاثلين

غسيل الدماغ علم التحكم بالتفكير./ كاثلين تيلر؛ عبد القادر مصطفى عيسى، سامر عبد المحسن الأيوبي

- الرياض **1437هـ**

416 ص؛ 16.5×24 سم

ردمك: 6 - 911 - 503 - 603 - 978

1 - التفكير أ.عيسى، عبد القادر، الأيوبي، سامر (مترجم)
ب. العنوان

ديوي: 168 رقم الإيداع: 3613 / 1437

الطبعة العربية الأولى 1438هـ - 2017م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023 ص. ب: 62807 الرياض 11595

قائمة المحتويات

قائمة الأشكال 5

المقدمة 9

الجزء الأول: التعذيب والإغواء 15

الفصل الأول: ولادة كلمة 17

الفصل الثاني: الرب أو المجموعة؟ 47

الفصل الثالث: قوة الإقناع 77

الفصل الرابع: أمل تحقيق الشفاء 101

الفصل الخامس: أنا أقترح، أنت تُقنع، وهو يغسل الدماغ 117

الفصل السادس: غسيل الدماغ والتأثير 135

الجزء الثاني: الخائن الموجود في جمجمتك 145

الفصل السابع: أدمغتنا المتغيرة باستمرار 147

الفصل الثامن: الشبكات وعوالم جديدة 173

الفصل التاسع: جُرف بعيدًا 197

الفصل العاشر: قفْ وفكِّر 221

الفصل الحادي عشر: أمر الحرية ذاك 245

الجزء الثالث: الحرية والسيطرة 269

الفصل الثاني عشر: الضحايا والمفترسات 271

الفصل الثالث عشر: مصانع العقل 287

الفصل الرابع عشر: العلم والكوابيس 305

الفصل الخامس عشر: اتخاذ موقف 323

ملاحظات 351

المراجع 379

قراءات إضافية 401

مسرد المصطلحات 403

قائمة الأشكال

الشكل 1–1 (غسيل الدماغ) 19

الشكل 1–2 (إصلاح التفكير) 19

الشكل 7–1 خليتان عصبيتان متصلتان بمشبك 151

الشكل 7–2 الخلية وعالمها 152, 153

الشكل 7–3 النقل المشبكي 155

الشكل 7–4 صورة عامة للدماغ البشري 158

الشكل 9–1 العمليات المرتبطة بالعاطفة في الدماغ 210

الشكل 9–2 الارتباطات بين مناطق معالجة العواطف 217

الشكل 10–1 قشرة الفص الجبهي والقشرة الحزامية الأمامية 222

الشكل 10–2 مناطق الدماغ المرتبطة بعملية حركة العين 227

الشكل 10–3 خريطة حركة العين في الأكيمة العلوية 227

الشكل 10–4 المثيرات البصرية البسيطة والمركبة 229

الشكل 10–5 تحكم الدماغ في حركات العين الاهتزازية 235

الشكل 10–6 تأثير المدخلات التاريخية في حركات العين 236

الشكل 10–7 نشاط القشرة الأمام جبهية مع مرور الوقت 238

الشكل 11–1 وهم مكعب نيكر 255

المقدمة

أصبح واضحًا وأنا أكتب هذا الكتاب أن ردود فعل الناس على فكرة وجود كتاب يتحدث عن غسيل الدماغ تقع دائمًا تقريبًا في أحد نوعين؛ يقول أصحاب النوع الأول، وهو أكثرهما عددًا: «ما أروعها من فكرة!»، ويسأل أصحابه كثيرًا من الأسئلة، ويَردُّ أصحاب النوع الثاني بسخرية: «غسيل الدماغ! أنت تعلم أن ذلك مجرد هراء، أليس كذلك؟».

بالتأكيد أنا لا أعتقد ذلك؛ وإلا لما كتبت هذا الكتاب، ولكن من الإنصاف القول إن غسيل الدماغ تكتنفه روابط تثير الشك، بل حتى الريبة؛ وقد عُدَّ حتى وقت قريب -شأنه شأن الوعي والعاطفة- أنه لا يستحق أي اهتمام علمي، أو أنه من صنع واضعي نظريات المؤامرة المختلين، أو أنه -في أحسن الأحوال- نتاج ظروف سياسية غريبة، ولكن غسيل الدماغ أكبر وأكبر بكثير من ذلك، وتكمن في جوهره فكرة خبيثة، هي حلم التحكم التام في عقل بشري، وهو ما يؤثر فينا جميعًا بطريقة ما.

يمثل غسيل الدماغ أقصى غزو للخصوصية؛ إنه لا يسعى للتحكم في كيفية تصرف الناس فحسب، بل أيضًا فيما يفكرون فيه، إنه يثير أعمق مخاوفنا، مهددًا بفقداننا للحرية، بل لهويتنا، ومع ذلك فمن المذهل قلة ما نعرفه عنه. وبالنظر إلى التطورات التي حصلت في فهمنا العلمي للأدمغة وسلوكاتها منذ عنفوان الدراسات عن غسيل الدماغ التي جرت في خمسينيات القرن العشرين، فقد حان الوقت فعلًا لإلقاء نظرة ثانية على هذه الظاهرة الغامضة والمرعبة.

قُسِّم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء؛ يركز الجزء الأول: التعذيب والإغواء (الفصول 1-6)، في تاريخ غسيل الدماغ وعلم النفس الاجتماعي المرتبط به؛ حيث يشير المصطلح نفسه في الأصل إلى برامج سياسية في الصين وكوريا الشيوعيتين، لكن المفهوم كان أجود من أن يُهدر، ولم يمضِ وقت طويل حتى صارت مزاعم غسيل الدماغ تلصق بأي نشاط ينطوي على تغيير العقول، هل من المسوغ إطلاق مثل هذه الادعاءات؟ يدخل غسيل الدماغ في عدد من المجالات: الدين، والسياسة، والإعلانات ووسائل الإعلام، والتربية، والصحة العقلية، والجيش، ونظام القضاء

الجنائي، والعنف الأسري والتعذيب. سوف نرى أن غسيل الدماغ شكل متطرف من أشكال التأثير الاجتماعي، يستخدم آليات يدرسها علماء علم النفس الاجتماعي ويفهمونها فهمًا ودراسة متزايدين، وأن مثل هذا التأثير يمكن أن يتفاوت في شدته تفاوتًا كبيرًا.

وسوف نبحث في طيف من الحالات التي تتضمن أفرادًا ومجموعات صغيرة ومجتمعات بأكملها يتميز فيها جميعًا التأثير الذي نسميه (غسيل الدماغ) باستخدام القوة أو التسلل أو كلٍّ منهما معًا، وسنرى أيضًا أن الذعر من غسيل الدماغ؛ أي الخوف من تعطيل عقل شخص ما، ثم إعادة تشكيله وفق مواصفات يضعها شخص آخر، يستمد قوته من نظرتنا التي نفضلها لأنفسنا بوصفنا أحرارًا ومنطقيين وأصحاب قرار، فنحن نحب أن نعتقد أن عقولنا قوية ومتينة، تشكل كيانات نقية غير متغيرة، وتشابه كثيرًا المفهوم الديني للروح الخالدة، ونفضل أن تكون عقولنا مثل الألماس، تحافظ على شكلها مع ازدياد الضغط عليها إلى أن تتهشم إلى أجزاء (تحت تأثير قوة غسيل الدماغ)، وكذلك فنحن نميل إلى الاعتقاد أن القوة العقلية مستمدة من المنطق؛ لذا ننظر إلى العواطف على أنها ضعف، ونظن في أنفسنا أن لدينا إرادة حرة؛ فنختار أن نتأثر أو لا نتأثر بالآخرين، وإذا أردنا أن نفهم هل مخاوفنا من غسيل الدماغ مبررة أم لا، فيجب علينا أن ننظر في هذه الاعتقادات.

هذا يعني فهم المزيد عن الدماغ البشري؛ لذلك فإن الجزء الثاني: الخائن الموجود في جمجمتك (الفصول 7–11) يتناول باهتمام العلوم العصبية، وأنبِّهكم أن هذا هو أصعب جزء في الكتاب. ما من طريقة للحديث عن الجملة العصبية من دون الخوض في التفاصيل؛ فالأدمغة ترفض أن تختزل في مجرد اصطلاحات. لقد ضمَّنت دليلًا للمبتدئين (علم الأعصاب باختصار)، وأشكالًا، وأقل قدر ممكن من الأمور التقنية، ولكنني استخدمت عديدًا من الأمثلة، قد لا تبدو جميعًا متعلقة بغسيل الدماغ، ولذلك أسبابه فأمهلوني.

بداية لا توجد أدلة علمية حديثة مباشرة على ما يحصل في الدماغ في أثناء غسيل الدماغ؛ إذ تمنع الاعتراضات الأخلاقية إجراء مثل هذه البحوث، وثانيًا نحن بحاجة إلى فهم كيف يعمل الدماغ في الحالة الطبيعية قبل أن نستطيع فهم العمليات غير الطبيعية التي تحصل عند غسيل الدماغ. إن موضوعات الجزء الثاني (التغير في الدماغ، والاعتقادات، والعواطف، وكيف تُحدِث الأدمغة الأفعال، والتحكم الذاتي، والإرادة الحرة) أمور جميعها معقدة جدًّا بحيث إنها تتطلب شرحًا وافيًا؛ لذا خاطرت في أن ألاحق السراب سعيًا إلى التوضيح.

يُظهر الجزء الثاني أن تصوير العقول بأنها صلبة وكامنة صورة مضللة؛ فالعقول أشبه بالطين اللين منه بالألماس؛ لسنا نحن البشر أشخاصًا مستقلين استقلالًا حازمًا يمكن بناءً على عقلانيتنا التي لا يمسها خلل تقرير كثير من العواقب (مثل مبدأ المسؤولية الجنائية الذي يتوقع من الذين يحكم عليهم بأن يكونوا قد تصرفوا بحرية واختاروا بعقلانية). بدلًا من ذلك، فإن البشر يولدون ثم يُصنعون؛ بنماذج خاصة طبعًا، لكنهم أيضًا يُشكَّلون إلى درجة كبيرة بفعل الظروف الاجتماعية، خاصة الأفكار التي نستمدها من مجتمعاتنا والمشاعر التي نحيطها بها؛ نحن نقلل من أهمية مدى التغيير الذي تحدثه حتى الصور البسيطة من التأثير في طريقة تفكيرنا وتصرفنا.

يأخذ الجزء الثالث: الحرية والتحكم هذا المفهوم الجديد، ويستقصي تأثيره في عملية غسيل الدماغ، فيتناول الفصل 12 الأفراد متسائلًا: ما الذي يجعل الناس؛ ضحايا ومفترسين، عرضة لعملية غسيل الدماغ أو منجذبين إلى قدرتها الكامنة الخبيثة؟ يسأل الفصل 13 السؤال نفسه حول المجتمعات.

إن مفهوم غسيل الدماغ الذي ارتبط منذ بداياته الباكرة بالدول الشمولية، مفهوم سياسي عميق، فما هي إذًا العوامل الاجتماعية للتحكم في التفكير؟ ينتقل الفصل 14 من الحاضر إلى المستقبل ليسأل: ما التأثير الذي قد تؤثر به التطورات العلمية في تقنيات غسيل الدماغ؟ أخيرًا، أرى أن أهم الأسئلة جميعها ربما كان: هل يمكننا مقاومة غسيل الدماغ؟ ومن منطق أن أفضل أشكال الدفاع هو اتخاذ الاحتياطات المسبقة، فإنني أناقش الطرق التي يمكن أن يعزز بها كلٌّ منا الحمايةَ الشخصية ضد محاولات التأثير غير المرغوب فيها.

لكن لا يستطيع الأفراد كلٌّ على انفراد أن يفعلوا إلا القليل؛ غسيل الدماغ ليس رصاصة سحرية، وطريقة مختصرة للتحكم في التفكير؛ إنه -على خلاف ذلك- ظاهرة معقدة تستخدم عمليات نفسية يتزايد فهمها باستمرار لتعيث الخراب، وفي حين أن ذلك يبدو مطمئنًا، فإن العواقب هي أنه لا توجد بالمقابل رصاصة سحرية (مضادة لغسيل الدماغ)؛ إن غسيل الدماغ قبل كل شيء ظاهرة اجتماعية وسياسية، وأفضل دفاعاتنا ستكون أيضًا على مستوى المجتمع: هي التي تستطيع أن ترفع الحماية إلى الحد الأقصى. للدفاع عن أنفسنا نحتاج إلى تفضيل أنواع معينة من التوجهات السياسية -تلك التي تؤكد أهمية الحريات الشخصية- وتجنب الأنظمة

العقائدية التي تعطي قيمة أعلى للثقافات أو المنظمات أو المجتمعات من القيمة التي تعطيها للكائن البشري المنفرد؛ لذا ربما يبلغ غسيل الدماغ أَوْجَهُ في مناقشة سياسية.

حاولت في جميع أجزاء هذا الكتاب الإجابة عن بعض أسئلة كثير من الناس الذين تفاعلوا إيجابيًّا عندما سمعوا العنوان المقترح للكتاب: ما الذي يحصل في أثناء غسيل الدماغ؟ هل هو حقيقي؟ وكيف يعمل؟ أما زال مستمرًّا؟ كيف يمكننا إيقافه؟

يجب أن أضيف ثلاث ملحوظات فنية: أولًا، وهذه ملحوظة مهمة فقط في النسخة الإنجليزية للكتاب، استخدمت نظام erat scriptum (من اللاتينية [sic] أي (هكذا كُتِبَتْ)) الذي يعني أن الجملة المقتبسة تكتب كما هي وإن خالفت قواعد التهجئة، لتأكيد التهجئة الغريبة في الاقتباسات الحديثة فقط؛ فمثلًا: جون ملتون John Milton كتب في عصر سبق توحيد التهجئة في اللغة الإنجليزية؛ لذا تركت كلماته كما قدمها محرروه. ثانيًا، الاقتباسات المكتوبة بالحروف المائلة أصلية ما لم يذكر خلاف ذلك. ثالثًا، تشكل اللغة الإنجليزية مشكلة لأولئك الذين يحاولون الكتابة بصورة محايدة للجنسين: إن كتابة (هو أو هي) كل مرة نتكلم فيها عن مفرد غائب أمر ثقيل، وكتابة (هو/هي) كل مرة أمر مقيت، ومن ثم استخدمت (هو أو هي) أحيانًا، لكن عندما يند ذلك عن سلاسة الأسلوب إلى حد مزعج ألجأ إلى ضمير المذكر المفرد في معظم الحالات؛ ويرجع ذلك جزئيًّا إلى أنه أسهل، لكنه يعود أكثر لأسباب تاريخية؛ فقد ظهر غسيل الدماغ أولًا سلاحًا في الحرب، ومعظم المشاركين فيها -معظم الجناة والضحايا والباحثين- كانوا من الرجال.

وإذ لا بد من الشكر فإنني أود أن أشكر كل شخص أسهم، مهما كانت مساهمته غير مباشرة، في هذا الكتاب، ومن بينهم العلماء الذين استشهدت بهم في نص الكتاب، والذين أخذت من المصادر التي سردوها من دون الرجوع إليهم، لهدف نبيل حسبما آمل. إن الأخطاء التي بقيت مسؤوليتي أنا، أقل بكثير مما كانت عليه في البداية بفضل المساعدات التي قدمت لي. أتقدم بشكر خاص إلى البروفيسور كوينتين سكينر Quentin Skinner، والدكتور هيلين سوثرلاند Dr Helen Sutherland على لطفهم وصبرهم في قراءة أجزاء الكتاب وإبداء النصيحة حولها، ولتزويدي بالمصادر، وكذلك فإن الدكتور بيتر هانسن Dr Peter Hansen قد علق على بعض الفصول، وقدَّم د. زوجوانج ليو Dr Xuguang Liu الأشكال الرمزية المستعملة في الفصل الأول، وقدَّم السيد ألان تايلور Taylor Mr. Alan صورة استعملت في الفصل 10، وقدَّمت أندي بينيت Andy Bennett صورة جبال استعملت في الشكل 3–10، وساعد المجلس الأوروبي على الإجابة عن استفسار.

كانت الدكتورة كاثي ويليكس Dr Kathy Wilkes كريمة في الوقت والنصيحة؛ وكانت وفاتها المفاجئة عام 2003م خسارة عظيمة لي ولكثير من الناس. أقدم خالص الشكر أيضًا إلى د. تيم ليتل وود Dr Tim Littlewood وزملائه، فمن دونهم ما كان لهذا الكتاب أن يكتب أبدًا.

وقدمت لي دار نشر جامعة أكسفورد فرصة عظيمة، وشكري الخاص موصول إلى مايكل رودجرز Michael Rodgers، ومارشا فيليون Michael Rodgers؛ على تشجيعهم وإلهامهم الهائلين دونما كلل، وعلى المساعدة (عند الحاجة)، وكذلك النقد (أيضًا عند الحاجة). وقد ساعدني آبي هيدون Abbie Headon، وديبي ساتكليف Debbie Sutcliffe، ومايكل تيرنان Michael Tiernan، أيضًا مساعدة كبيرة. وقدَّم المراجعون الثلاثة للمسوَّدة الأصلية للكتاب، الأستاذ الجامعي إليوت أرونسون Professor Elliot Aronson، والأستاذ الجامعي مايلز هويستون Prof. Miles Hewstone، و(المُراجع B)، تقارير دقيقة وبنَّاءة كانت مفيدة جدًّا في رسم شكل الكتاب؛ فأنا أقدر ما قدموه تقديرًا كبيرًا. وكان البروفيسور هويستون قرأ المسودة الأولى كاملة؛ وكانت ملاحظاته نفيسة جدًّا. يستحق البروفيسور جون ستاين Prof. John Stein الشكر على مساعدتي في المقام الأول في دراسة علم الأعصاب، كذلك أنا مدين بالشكر لدور جامعة أكسفورد، وهي مؤسسة علمتني كثيرًا (ليس علم الأعصاب فحسب)، ووفرت لي كثيرًا من التحفيز لكتابة هذا الكتاب.

أخيرًا، فإنني مدين بما تعجز عنه الكلمات لليسون تايلور، وديفيد تايلور، وجيليان رايت على مساعدتهم وصبرهم الذي لا ينضب في رسم شكل كتاب غسيل الدماغ- وعقل مؤلفه- نحو الأفضل، وإلى هؤلاء الثلاثة المؤثرين العظماء، أهدي هذا الكتاب.

يقول المؤلفون غالبًا عند هذه النقطة: «كانت كتابة هذا الكتاب رحلة استكتشاف»، ولا يسعني إلا أن آمل أن رحلتي هذه هي البداية فقط؛ لكن كتابة غسيل الدماغ علمتني حقًّا كثيرًا، وآمل أن تستمع بالرحلة، كما استمتعت أنا.

• • • • •

الجزء الأول

التعذيب والإغواء

ولادة كلمة

«تعد عملية الإلغاء الممنهج، وغالبًا القسري، لأكثر الأفكار رسوخًا في عقل الشخص، خاصة السياسية منها، حتى تحل محلها مجموعة أخرى من الأفكار؛ نوعًا من التحويل القسري الذي تمارسه دول شمولية معينة على المعارضين السياسيين».

تعريف (غسيل الدماغ) في قاموس أكسفورد للإنجليزية.

Definition of ‹brainwashing› in the Oxford English Dictionary

«القصد هو تغيير العقل بصورة جذرية بحيث يصبح صاحبه دمية حية (إنسانًا آليًا) من دون أن يلاحظ هذا العمل الشرير من الخارج. الهدف هو إنشاء آلية في اللحم والدم، بمعتقدات جديدة وآليات تفكير جديدة تولَج في جسمٍ أسير. ما ترمي إليه هو البحث عن عِرق مستعبد يمكن الوثوق به، على عكس عبيد الأزمنة الغابرة، بألَّا يثور أبدًا، وأن يكون خاضعًا دائمًا للأوامر، مثل حشرة تسيرها غرائزها».

إدوارد هنتر، غسيل الدماغ

Edward Hunter, Brainwashing

وُلد مصطلح (غسيل الدماغ) في أتون الحرب، وبخلاف ما يتوقع بعضهم من أنها الحرب العالمية الثانية -على الرغم من أنه أطلق بأثر رجعي على الوسائل النازية- فقد كانت في الواقع الحرب الكورية. انفجر هذا الصراع عام 1950م عندما غزت كوريا الشماليةُ، مدعومة بالنظام الصيني الشيوعي، كوريا الجنوبيةَ التي أرسلت لها الأمم المتحدة الناشئة حديثًا قوة متعددة الجنسيات، وسرعان ما لاحظت الولايات المتحدة الأمريكية، وهي المشاركُ الرئيسُ في هذا التحالف المشترك، شيئًا غريبًا يحدث لأفراد قواتها الذين يقعون أسرى في أيدي العدو؛ إذ خرج بعضهم من معسكرات أسرى الحرب، وقد تحولوا على ما يبدو إلى الشيوعية، مستعدين لنبذ موطنهم الذي وُلدوا فيه، والتغني بالطريقة الماوية في الحياة، ومع أن ظاهرة إجبار السجناء على تمجيد سجَّانيهم لم تكن أمرًا جديدًا، فإن بعض السجناء استمروا في عدم ولائهم الغريب -والحماسي- حتى بعد تحررهم من قبضة الشيوعيين. وبدافع عدم الارتياح من سلوكهم، والقلق من التأثيرات المحتملة في الروح المعنوية، بدأت الولايات المتحدة بدراسة ما أطلق عليه عميلٌ

المخابرات المركزية الأمريكية إدوارد هنتر Edward Hunter على الملأ عام 1950م مصطلح (غسيل الدماغ). عبر هنتر نفسه عن ردود فعله السلبية تعبيرًا واضحًا جدًّا عندما وصف ضحية من ضحايا هذه الظاهرة الجديدة الغريبة.

> **لم يكن أولئك الذين أجروا معه المقابلات متحيرين ومذعورين مما قاله فحسب، بل أيضًا بالطريقة التي تكلم بها، لقد بدا كلامه وكأنه كلام مسجل على قرص أسطواني يجب سماعه من بدايته إلى نهايته، من دون تعديل أو توقُّف، حتى بدا وكأنه تحت إكراه عجيب غير طبيعي بأن يسترسل في سلسلة من الأفكار من بدايتها إلى نهايتها، حتى لو كانت تعدُّ سخيفة؛ فعلى سبيل المثال، تحدث أنه لم يواجه أي عنف حتى بعد أن أشار أحدهم إلى أنه شوهد مقيدًا بالأغلال، إنه لم يعد قادرًا على استخدام إرادته الحرة أو تكييف نفسه مع موقف لم يعد فيه مأمورًا من أحد؛ كان عليه الاستمرار وكأن الغرائز وحدها تتلاعب به. كان ذلك انضباطًا حزبيًّا امتد إلى عقله؛ وفيه عنصر نشوة، لقد جعلني ذلك أشعر شعورًا مقززًا.**
>
> هنتر، **غسيل الدماغ**، الصفحات 14-15.
>
> Hunter, Brainwashing, 14-15

عُرف منذ قرون من الزمن أن الحرب -شأنها شأن المواقف الشديدة الأخرى- تسبب حدوث أشياء غريبة لدى الإنسان، وقد أشار وليم شكسبير إلى جنون الحرب، وأشار الإنجيل إلى ذلك أيضًا. وفي الآونة الأخيرة، وصف وليام سارجانت William Sargant في كتابه **معركة من أجل العقل** الذي نشره عام 1957م عمله عندما كان طبيبًا عامًا وطبيبًا نفسيًّا يعالج المحاربين القدامى في الحرب العالمية الثانية؛ كان كثير من هؤلاء الرجال يعاني ما كان يسمى صدمة القذيفة أو الشدة الناتجة من القتال، ويعرف الآن باضطراب الشدة بعد الرضوض post-traumatic stress disorder. لاحظ سارجانت تغيرات تفوق العادة في الشخصية، وتقلبات شديدة في المزاج والسلوك، وزيادة مثيرة للقلق في القابلية للإيحاء، وفقدان التحكم في الذات ظهرت لدى الجنود والمدنيين الذين تأثروا بتجارب رضيَّة، وبدا واضحًا أن ضغوط الحرب يمكن أن يكون لها تأثير كارثي في أدمغة البشر.

لكن غسيل الدماغ أكثر من مجرد عُصاب أو نفاس؛ يمكن تحريض مثل هذه الحالات لتكون جزءًا من عملية غسيل الدماغ، لكنها مجرد خطوة على طريق الهدف المتمثل بإجبار الضحية على الخضوع للحملات الدعائية لغاسلي الدماغ. يؤكد إدوارد هنتر في كتابيه **غسيل الدماغ في الصين الحمراء** و**غسيل الدماغ**، وكل منهما في حد ذاته قطعة فنية من الحملات الدعائية،

الخبث المتعمد والمنظم للعدو الشيوعي. يوصف غسيل الدماغ بعبارات سلبية بالكامل على أنه نوع من الاغتصاب العقلي: إنه يُفرض على الضحية من قبل عدو يهدف إلى تدمير إيمان الضحية بمعتقداته السابقة، ومسح لوح الذاكرة مسحًا كاملًا حتى يمكن تبني معتقدات جديدة.

الأصول والكلمات المشتركة

الكلمة نفسها -وفقًا لهنت- هي ترجمة للمفهوم الصيني هكسي تاي ناوxi naw كسي ناو أو هنشي ناو hsi naw (الصور الرمزية الصينية موضحة في الشكل 1-1)، واستخدم هذا المصطلح باللغة العامية للتعبير عن مصطلح شن-شان تا ششيا هاي تاو شي szu- hsiang kai-tsao (التي تعني (إصلاح التفكير)؛ انظر الشكل 1-2)، وهو المصطلح الرسمي الذي يطلقه الشيوعيون الصينيون على عملياتهم، لكن مفهوم هنشي ناو hsi-nao الذي يعني (غسيل القلب) أو (تنظيف العقل) باستخدام التأمل، أقدم بكثير من الشيوعية.

洗脑

الشكل 1-1 الصور الرمزية الصينية التي تمثل مفهوم هكسي تاي ناو xi-nao، المترجمة (غسيل الدماغ).

思想改造

الشكل 1-2 الصور الرمزية الصينية التي تمثل مفهوم شن-شان تا ششيا هاي تاو شيszu-hsiang-kai-tsao، المترجم (إصلاح التفكير).

يدعي هنتر أنها تعود تاريخيًّا إلى زمن مينج كاو Meng K"o (يعرف في الغرب بِاسم منسيوس)، وهو مفكر كونفوشيوسي من القرن الرابع قبل الميلاد، وإذا كان الأمر كذلك فهو مثال مبكر على تراث قديم في تطبيق أشكال من غسيل عقول وأرواحٍ وأنفسٍ بشرية وتنظيفها.

وفي الإنجليزية، تقدم لوسي هتشنسون Lucy Hutchinson الشاعرة من القرن السابع عشر مثالًا جيدًا على هذا التقليد؛ إذ كتبت بعد منسيوس بزمن طويل، ولكن قبل إدوارد هنتر بثلاثة قرون تقريبًا؛ كتبت هذه المرأة المخلصة للمسيحية، بعد أن كانت قد ترجمت أعمال الفيلسوف كريتيوس Lucretius ووجدت أنها أعمال (كافرة بالله)، بأنها «وجدت أن من الضروري الوصولَ إلى ينبوع الحقيقة، لغسل جميع الانطباعات البشعة والشاذة، وتحصين العقل بترياق قوي ضد كامل سم فطنة وحكمة الإنسان التي تعرضت لها»[1].

لم تذكر هتشنسون Hutchinson كلمة (غسيل الدماغ) بل كلمة قريبة جدًّا منها، ولكنها استخدمت مفهومها بمعنى إيجابي؛ ينبوع الحقيقة (المسيحية) يغسل دماغها وينظفه من الفساد الناجم عن ترجمة عمل كريتيوس الوثني. نظر كثير من أتباع الزعيم ماو إلى طرائقهم في (إعادة التربية) أو (إصلاح التفكير) نظرة إيجابية مماثلة، وكان هدفهم هو التخلص من سموم الأفكار الاستعمارية والرجعية، ووَفق ما يقول الطبيب النفسي روبرت جاي ليفتون Robert Jay Lifton في عمله المتميز حول الموضوع: «من المهم جدًّا أن ندرك أن ما نراه مجموعةً من مناورات قسرية، يراه الصينيون الشيوعيون تقدميًّا ومنسَّقًا وعملية علاجية علمية»[2]، جاء هذا التحقير الذي نربطه الآن بإعادة التربية، وإصلاح التفكير، وغسيل الدماغ من أعداء ماو في ذلك الزمن؛ أي الولايات المتحدة الأمريكية، وشوَّه المعنى الأصلي.

عكست ولادة مصطلح (غسيل الدماغ) الحاجة إلى تسمية ما كان يرى أنها أخطار جديدة مرعبة، وأصبحت هذه الحاجة ملحة بصورة متزايدة مع المحاكمات الصورية السوفييتية في ثلاثينيات القرن العشرين، التي تخلى فيها القادة السابقون للحزب الشيوعي الذين فقدوا مصداقيتهم، علانية عن كامل مسيرتهم المهنية وسياساتهم ومعتقداتهم فيما بدا وكأنه إخلاص لا شك فيه، وعندما بدأ الأمريكيون في الصين وكوريا إظهار سلوك مشابه أصبحت الحاجة ملحة إلى تفسير كيفية حصول ذلك؛ كانت تسمية إدوارد هنتر قادرة على تغطية الفجوة المفاهيمية إن لم يكن ردمها: هدَّأ واقع وجود كلمة تصف أيَّ أمور غامضة تجري في مخيمات السجون الصينية مخاوف الرأي العام الأمريكي من المجهول، وقد قيل إن مفهوم غسيل الدماغ أتاح للأمريكيين تجنب مواجهة فكرة الخطيئة الأصلية الكامنة في العقيدة المسيحية (وعواقب قنبلتي هيروشيما وناجازاكي)؛ لأن هؤلاء أنفسهم يمارسون أعمالًا شريرة، وقد لاحظ شيفلين وأبتون Scheflin and Opton في كتابهما المتلاعبون بالعقل، «يبدو غسيل الدماغ وكأنه تفسير»، يبدو أن نقل المسؤولية

إلى مكان آخر وإلغاء الحاجة إلى النظر من كثب في أنفسنا؛ يجعل هذه القدرة على الطمأنة «فكرة جذابة جاذبية غريبة».

في البداية، كان مفهوم غسيل الدماغ يعني أنه آلية تسيطر عليها الدولة، وتديرها أنظمة شمولية ضد المنشقين، سواء كانوا مواطنين أو أجانب، وكان مثل هذا المصطلح مفيدًا إلى حد أنه لا يجدر أن يبقى محصورًا في نطاقه السياسي الأصلي، ثم سرعان ما طبق تعبيرًا عن الإساءة إلى مجموعات أصغر، بل وإلى الأفراد.

تطرح الطبيعة السياسية المفرطة لمصطلح (غسيل الدماغ) أحد الأسئلة المحورية حول غسيل الدماغ؛ أهو موجود في الحقيقة، أم إنه خيال شمولي جامح، حلم به صحفي أمريكي ليصف تهديدًا تشكله ثقافة غريبة؟ لا شك أن هذا المصطلح يستعمل اليوم في تحوير عفوي ليعني أيَّ محاولة للتأثير في عقول الآخرين. اُتهم العاملون في الإعلانات ووسائل الإعلام، والتعليم، والدين، والصحة العقلية -كما سنرى لاحقًا- بغسيل الدماغ، وهو ما يوسع المصطلح ويقلل من قيمته مقارنة باستعمال هنتر Hunter's له، وقد أسِف روبرت ليفتون «للاستعمال غير المسؤول للمصطلح من قبل المعارضين لإضافة الفلور إلى الماء، ومعارضي قوانين الصحة العقلية، أو أي مجموعات معارضة لأي أمر كان في خلافهم مع خصومهم الحقيقيين أو الوهميين»[3]، مع أنه نشر كتابه أول مرة عام 1961م، بعد أحد عشر عامًا فقط من دخول مصطلح (غسيل الدماغ) إلى اللغة، وفي أيامنا هذه لم يعد غسيل الدماغ أكثر من مجرد مصطلح عرضي للإساءة، كثيرًا مايكون تهكميًّا[4].

لكن في هوس مناهضة الشيوعية الذي انتاب أمريكا في خمسينيات القرن العشرين، لم يكن غسيل الدماغ مفهومًا عرضيًّا على الإطلاق، بل كان -خلافًا لذلك- مرعبًا؛ إذ كان يعني الخوف من فقدان السيطرة، والإرادة الحرة، وحتى الهوية[5]. وبصفته مكروهًا لأنه مظهر آخر فتاك للتهديد الأحمر، استخدم في تأجيج نيران الغضب الشعبي؛ وهو يشبه في ذلك مفهوم الشر -الذي ما زال شائعًا في الاستعمال بصفته تفسيرًا سهلًا للأمور- والمفاهيم القديمة عن السحر والمس الشيطاني التي لازمت أمريكا منذ محاكمات ساحرة مدينة سالم، وأبكر من ذلك[6]، وعلى الرغم من أن فكرة المس الشيطاني قد تراجعت بعد أن أصبح المجتمع أكثر علمانية، فإنه يمكن القول إن غسيل الدماغ هو في الواقع النظير العلماني له، إذا ما عُدَّ المسُّ الشيطاني غسيلَ دماغ بوساطة عامل خارق للطبيعة وليس بتأثير الإنسان.

مـن المؤكـد، أن مفهوم غسـيل الدماغ قد تجدد ظهوره بين النـاس على مراحل منذ ولادته، ويكون ذلك عادة استجابة لأحداث بارزة خاصة تبدو وكأنها لا تقبل أي تفسير آخر: مفهوم الملاذ الأخير، قناع يغطي إحدى الفجوات العديدة في فهمنا لأنفسنا.

وفـق مـا ذكرنـا آنفًا، فـإن مفهوم هنتـر Hunter لـم يظهر من العـدم؛ فقد حاول البشـر أن يغير بعضهم عقول بعض منذ اكتشـافهم أول مرة أن لديهم عقولًا، وكان ذلك يحدث غالبًا بنيات حسـنة: اشـتق من المصطلـح اليونانـي (يووانجيليون) -الذي يعني الرسـالة الجيـدة- مصطلح (التبشير الملائكي، إيفانجيلزم) في حين اشتق من مصطلح بورباغو propago في اللغة اللاتينية -الذي يعني التوسع أو الزرع- اسم مجمع يدعى (جماعة نشر الإيمان) باللاتينية congregatio de propaganda fide) وهو مجمع للكرادلة أنشـأته الكنيسـة الكاثوليكية الرومانية للإشـراف على البعثـات الأجنبيـة. واشـتقت كلمة التربيـة بالإنجليزيـة إيديوكاشـن (Education) مـن اللاتينية إيديوكيري educere التي تعني بدقة: يستخلص؛ أما إعادة التربية (re-education) فهي ببساطة محاولـة ثانية للاسـتخلاص. وبصورة مشـابهة، يحمل مصطلح (إصـلاح التفكير) معه إيحاءات إيجابيـة علـى تحسـين الإدراك، أمـا كلمـة التلقيـن (Indoctrination) بالإنجليزية التي اكتسـبت دلالات سـلبية متزايـدة منـذ إدخالهـا إلى اللغة الإنجليزية في القرن السـابع عشـر، فقد اشـتقت مـن الكلمـة اللاتينيـة دوكترينـا doctrina التـي تعني (مقدارًا مـن المعرفة أو التعلـم)، وأما كلمة المنعكـس الشَّـرطي (conditioning) التـي اشـتهرت من خلال أعمال إيفان بافلـوف Ivan Pavlov في تدريبه الكلاب على إفراز اللعاب عند سماع صوت الجرس[7]، فقد اشتقت من الكلمة اللاتينية كونديكيـري condicere التـي تعني يعين أو يسـتقر، أو يرتـب. إذًا، ما الذي يمكن أن يكون أبعد عن التلف من نشر الأخبار الطيبة، وإبراز أفضل ما لدى الناس، والتعلم، وإجراء الترتيبات؟ لكن مع ذلـك فـإن مصطلح الإقنـاع القسـري (coercive persuation)، وهو المـرادف القريب من إصلاح التفكير الذي اسـتخدمه الطبيب النفسـي إدجار شـين Edgar Schein في كتابه الذي يحمل عنوانه الاسم نفسه، يشير إلى الجانب المظلم من طرائق التأثير[8].

إذا خالفك شخص ما، فيمكنك بالتأكيد أن تقتله، لكن هذا محفوف بالأخطار، ومن ثم فقد طورت المجموعات البشـرية الأولى أسـاليب بديلة، وحدد ليفتون Lifton أربعة من هذه الأساليب: الإكـراه، والموعظـة، والمعالجة، والإدراك؛ فيقول الإكراه: «عليـك أن تتغير بالطريقة التي نقولها لـك، وإلا...»؛ وقـد يتضمـن ذلك الموت عقوبةً قصوى، وتسـتدعي الموعظة سـلطة أخلاقية أعلى

تقول: «يتعين عليك أن تتغير، بالطريقة التي نقترحها، لتصبح شخصًا أفضل»، وتقول المعالجة: «يمكنك أن تتغير، تحت إشرافنا، لتتمتع بصحة جيدة وتتخلص من المعاناة»، وأخيرًا، يقول الإدراك: «يمكنك أن تتغير، وتستطيع أن تعبر عن كامل إمكاناتك، إذا كنت مستعدًّا لتقبل أفكار وتوجهات جديدة».

مثل كثير من أساليب الإقناع، يستخدم إصلاح التفكير بالطريقة التي مارسها الشيوعيون الصينيون عناصر من الفئات الأربع كلها، لكن ما أسماه ليفتون (الشمولية الفكرية) -وهي نزعة نحو التطرف، وأنماط من الفكر على مبدأ الكل أو لا شيء تميز الأنظمة الشمولية- (تستند في معظمها إلى الفئتين الأولَيَين)؛ الإكراه والموعظة.

في الوقت الذي بدأت فيه قبائل تغزو قبائل أخرى، حظيت فنون الإقناع المختلفة بالاحترام، فقد ورد في سفر الخروج من العهد القديم (الفصل الرابع، الآيات 10-16) أن موسى عليه السلام توسل إلى الرب حين أمره بما يريد منه أن يعفيه، على أساس «أني بطيء في الكلام، ولساني ثقيل»، وفي سورة طه من القرآن الكريم: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ [طه: 27-28]، وفي العهد القديم أجابه الرب: «أليس هارون اللاوي أخاك؟ أعلم أنه يمكنه التحدث بصورة جيدة... سيكون المتحدث باسمك إلى الناس»*، وفي الوصف الإنجيلي لوقت أبكر عندما يتحدث عن إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء، يجادل النبيُّ إبراهيم عليه السلام الله حول مصير مدينة سدوم بلدة لوط عليه السلام، ووعده الله تعالى أنه إذا وُجد فيها حتى عشرة رجال صالحين فلن تدمَّر، وقد مر هذا الموقف الجدلي من دون عقاب، لكن لسوء حظ سدوم أنه لم يكن فيها إلا رجل صالح واحد هو لوط عليه السلام ابن أخت النبي إبراهيم**، ومع ذلك، وحسب العهد القديم؛ «ما حصل هو، أنه عندما دمَّر الله مدن السهل، تذكر الله إبراهيم وأرسل لوطًا» (سفر التكوين 19: 29)، وقد يبدو سطحيًّا أن إبراهيم عليه السلام يحاول إقناع الله بعدم تدمير قوم لوط في مجادلته عنهم***. (ومن الملاحظ أنه كما هي الحال في إصلاح التفكير يكون العثور على أمثلة عن الإكراه والموعظة في العهد القديم أسهل من العثور على أمثلة المعالجة والإدراك).

---

* في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص: 34-35]

** في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 32]

*** في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ۝٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ [هود: 74-76]

مع تنامي الإمبراطوريات واتساع أعبائها الإدارية تعاظمت الحاجة إلى السيطرة على مواطنيها، وكان عنف الجيوش هو التهديد الأقصى؛ لكن الجيوش لا يمكن أن تكون حاضرة في كل مكان، وقد وجدت الإمبراطورية الرومانية، عندما واجهت اليهود، أن تقديم كثير من الشهداء قد تكون له نتائج عكسية. تبنَّت بعض الأنظمة، مثل الإمبراطورية الفارسية (330–550 قبل الميلاد)، نهجًا عمليًّا تحرريًّا: ادفع الضرائب وحافظ على السلام تكن آلهتك وعاداتك أمورًا خاصة بك، في حين كانت غيرها من الإمبراطوريات أكثر دكتاتورية. طوَّرت كل ثقافة أشكالًا خاصة بها للتحكم المتزايد التعقيد: كشبكات من الجواسيس، والتسلسل الإداري الهرمي لضمان تدفق الإيرادات، وإكراه أو رشوة القادة المحليين، والمؤسسات القانونية والاجتماعية، واعتمد كثير منها اعتمادًا كبيرًا على أساليب الإكراه مثل التعذيب الذي يمكن أن يكون جسديًّا وحشيًّا بوضوح أو نفسيًّا أكثر خفاء، ومن هذا التراث الغني من الإكراه انبثق عديد من الطرائق المرتبطة بغسيل الدماغ، وفي الواقع، فإن الخط الفاصل بين غسيل الدماغ والتعذيب النفسي قد يكون دقيقًا جدًّا بحيث إنه لا يستحق الرسم، بل بحيث لا يمكن رسمه. (سوف أبحث هذا أكثر في الفصل الخامس).

مظاهر غسيل الدماغ

ثمة نقاط عدة تتعلق بمصطلح (غسيل الدماغ) لا بد من بحثها؛ فأولًا؛ إذا أردنا التفكير في غسيل الدماغ فلا يمكننا تجنب مناقشة السياسة؛ فكلاهما متشابكان معًا. يختلف مفهوم غسيل الدماغ -مثله مثل مفهوم الإله أو الحب أو الحرية- وتتعدد معانيه بحسب خلفيات من يتداولونه وطموحاتهم، وهذا بذاتِه لا يُفقد المصطلح مصداقيته. إذا استطعنا تفسير الآليات المختلفة التي يغير بوساطتها الناس بعضهم عقول بعض، فهل نحن بحاجة إلى كلمة هنتر Hunter؟ أعتقد ذلك؛ قد يوجد ملحدون قادرون على تجنب الكلمة (الرب)، وحتميون مقتنعون أن الإرادة الحرة هي محض خيال ولا يقولون أبدًا «أنا أختار»، وعلماء في وظائف الأعضاء يستبدلون الإفصاح عن العواطف بقولهم: «حبيبتي، لدي تدفق هرموني»، لكن معظمنا لايزال يستخدم لغة الحب، والاختيار، والدين (مهما خففنا من حدتها)، وبطريقة مماثلة، هناك استعمال أكثر لمصطلح غسيل الدماغ من العمليات التي قد تشرحه أو لا تشرحه.

ثانيًا، يتميز غسيل الدماغ بمظاهر متنوعة يمكن فصل بعضها عن بعض؛ ففضلًا عن وظيفته السياسية للتعبير عن الإساءة، يمكن استخدامه وصفًا وظيفيًّا لآلية أو آليات علمية لتحقيق مثل

هـذه السـيطرة. يناقش أولئك المتشـككون الذيـن يقولون: «إن الأمـر كله محض هـراء» مؤكدين رفضهـم فكـرة أن مثـل هذه الآليـات العلمية موجـودة؛ أي إن الأدمغة لم تخضع قـط بصورة تامة للسـيطرة بالطريقة التي اقترحها كتاب المرشـح المنشـوري The Manchurian Candidate الذي يرتكب فيه بطل الرواية المغسول دماغه جريمة القتل عندما يؤمر بذلك، حتى عندما كان الهدف هو الفتاة التي يريد أن يتزوجها[9]. وسوف أعود إلى المتشككين فيما بعد، لكن أكتفي الآن بالإشارة إلـى أن هـذه الاعتراضات تهمل جميع مظاهر غسـيل الدماغ عدا أكثـر مظاهره الميكانيكية، لكن غسيل الدماغ ليس مجرد مجموعة من التقنيات؛ بل هو أيضًا حلم، ورؤية للسيطرة القصوى ليس على السـلوك فحسـب بل أيضًا على التفكير، لامتلاك المهارات السـرية التي يمتلكها غجر ماثيو آرنولد Matthew Arnold:

«... فنون ليحكموا كما يرغبون

عمليات أدمغة الرجال،

ويستطيعون ربطها بأي أفكار يشاؤون».

آرنولد، الباحث-الغجري، السطور 7: 45.

Arnold, *The Scholar-Gipsy*, lines 45–7

إن غسيل الدماغ أكثر طموحًا وأكثر قسرًا من الإقناع البسيط، وبخلاف الكلمات المشتركة القديمـة مثـل التلقين، أصبح أكثـر ارتباطًا بتقنية آليـة حديثة[10]، إنه آلية لتعديل الأشـخاص غير المتجاوبيـن وهـي إن نجحت يمكنها إعادة تشـكيل هوياتهـم الذاتية. يعد هذا الترابط بين التقنية الهائلة وطمس البشر، نفسيًّا أو جسديًّا، أحد أكثر مواريث القرن العشرين شرًّا (ألقت معسكرات الاعتقـال فـي أوشـفيتز، والقنبلـة النوويـة التـي ألقيت علـى هيروشـيما Hiroshima، ظـلالًا ثقيلة على سـنوات ما بعد الحرب). يمكن أن تكون أحلام السـيطرة كالتي سـببت هذه الأفعال الشـنيعة محددات قوية لأنماط الأفعال؛ لذلك يجب ألَّا نستخف بها.

أخيـرًا، تأخـذ فكـرة غسـيل الدماغ هيئـة يظهر فيها مفهـومُ الملاذ الأخير، سـتارة تسـدل لإخفاء هاوية جهلنا. نسـتحضره عندما لا يكون لدينا تفسـير آخر، أو عندما لا يكون لدينا الحافز للبحث عن تفسير آخر[11]، عندما نُواجه بشيء غير عادي، مثل ما يبدو أنه انتحار جماعي طوعي، أو تعاطف بعض ضحايا الاختطاف مع خاطفيهم، فإن أول ما يخطر لنا عند وصف تصرف أموات جونز تـاون Jonestown الذيـن أقدمـوا على الانتحار الجماعي، أو باتي هيرسـت Patty Hearst التي تعاطفت مع خاطفيها، على أنه غسـيل دماغ؛ يتعين علينا تسـميته بشـيء ما، ولا نعرف شـيئًا آخر

نسميه به. سوف أعود لجونزتاون في الفصل القادم، لكن الآن تقدم لنا قصة باتي هيرست أول حالة من خمس من دراسات الحالات التي تظهر بعض الطرائق التي استخدم فيها مفهوم غسيل الدماغ في نصف القرن الذي تلا ولادته[12].

حالة دراسية: باتي هيرست

في 4 شباط من عام 1974م، اُختطفت باتريشيا هيرست، وريثة وحفيدة وليام راندولف هيرست William Randolph Hearst أحد عمالقة وسائل الإعلام الأمريكية قوي النفوذ، من قبل منظمة تطلق على نفسها اسم جيش التحرير التكافلي(SLA) Symbionese Liberation Army. وقد احتجزت في خزانة مقيدةً ومعصوبة العينين أسابيع عدة، تعرضت خلالها للاعتداء الجسدي، في أثناء ذلك طالب جيش التحرير مؤسسة هيرست بفدية، لم تقتصر على طلبات المال، بل تضمنت الحصول على منحة غذائية بقيمة ملايين الدولارات، وإطلاق سراح اثنين من أعضاء جيش التحرير مسجونين بتهمة القتل.

في 14 نيسان من العام نفسه تسببت باتي هيرست Hearst بضجة إعلامية بمشاركتها جيش التحرير في عملية سرقة مصرف في سان فرانسيسكو، أعلنت على أثرها على الملأ شجبها لعائلتها وأبدت التزامها بجيش التحرير. بعد اعتقالها في نهاية المطاف في أيلول 1975م، بعد عملية سطو أخرى على الأقل، ومعركة بالأسلحة النارية مع الشرطة قتل فيها ستة من أعضاء جيش التحرير، وصَفت عملها بأنه «حرب عصابات في المدن»، وأعلنت معتقداتها الثورية؛ كانت القضية المركزية خلال محاكمتها تدور حول كونها تعمل بملء إرادتها في أثناء عملية السطو. وضع جدالا الدفاع المطوَّلان -حول أنها كانت مكرهة، وأنها كانت مغسولة الدماغ- غسيل الدماغ في ساحة المسرح. جادل الادعاء بقوة أنها إذا كانت مكرهة على التصرف في عملية سرقة المصرف، فإنها لم تكن مغسولة الدماغ؛ ولو كانت مغسولة الدماغ لما كان إكراهها ضروريًا؛ ركّز الادعاء أيضًا على حقائق ملحوظة: أن باتي عاشت أشهرًا منفصلة عن أي من أعضاء جيش التحرير؛ وأنه قد أتيحت لها فرص عدة للهرب، وكان معها بندقية؛ وأظهر شريط فيديو عملية سرقة مصرف سان فرانسيسكو أنها تعرف تمامًا ما تقوم به؛ وأنها استخدمت التعديل الخامس للدستور (وهو الحق في عدم الإجابة عن سؤال إذا كانت الإجابة تدينها أو كانت تشكل خطرًا

عليهـا) اثنيـن وأربعيـن مـرة، وفي النهاية وقفـت هيئة المحلفين مـع الادعاء العام وأرسـلت باتي هيرست Hearst إلى السجن[13].

هل كانت باتي هيرسـت Hearst مغسـولة الدماغ؟ تعرض حالتها أربعة مظاهر مهمة لمفهوم غسـيل الدمـاغ: طبيعته الهادفة، و(الفارق المعرفي) بين المعتقـدات التي تؤمن بها الضحية قبل غسـيل الدماغ المزعوم وبعده، والمقياس الزمني الذي يحدث فيه التغير في المعتقد، واستخدام غسيل الدماغ، كما ذكرنا سابقًا، بفكرة (مفهوم الملاذ الأخير).

الهدف

غسـيل الدمـاغ عمـل متعمد؛ أي إن السـلوك المقصود من قِبَل من يحاول غسـيل الدماغ هو جـزء جوهـري مـن تلك العمليـة. قد لا يكون الهـدف خبيثًا -فقد يعتقد غاسـل الدمـاغ بصدق أن الضحية سـوف تسـتفيد من (إعادة التعليم)- ولكن الحكم على عمل بأنه خبيث يعتمد بقوة على المنظور؛ لذلك فإن العمل العدواني ليس نقطة جوهرية، وما يهم هو أن العمل مقصود وينفذ من أجل تغيير الضحية.

لكـن المحـاولات الهادفـة لتغيير دماغ شـخص ما لا تشـكل بحد ذاتها غسـيلًا للدمـاغ، وإلَّا لاعتقلت السلطات الأمريكية في خمسينيات القرن العشرين كل محام في البلاد (في نظام العدل الخصومـي كمـا هي الحال في أمريـكا أو بريطانيا، حيث إن لتغيير عقول المحلفين والقضاة دورًا رئيسًـا)، إذن: مـاذا نحتاج إضافـة إلى ذلك؟ يمكننا أن نميز ثلاثة مكونـات أخرى مهمة لمفهوم غسيل الدماغ.

الفارق المعرفي

ويعني غرابة المعتقدات الجديدة مقارنة بالقديمة، فلو أن مشـجع كرة قدم متعصبًا يدعي أن دماغـه قـد غُسـل للاعتقـاد بـأن قائـد فريقه هو فعـلًا أفضل لاعب كـرة قدم فـي العالم، فمن المحتمـل أنـه لن يحصـل على كثير من التعاطـف أو الاهتمام، لكن قصة وريثة أمريكية شـابة قد اُختطِفـت ثم ألقي القبض عليها متلبسـة بسـطو مسلح قصـة مختلفة؛ بدا التناقض بين التنشـئة

المترفة لباتي هيرست Patty Hearst والمثل العليا لجيش التحرير التكافلي هائلًا بحيث أصبح غسيل الدماغ تفسيرًا رائجًا في زمن محاكمتها.

تجدر ملاحظة أن المعتقدات الجديدة التي تكتسبها ضحية غسيل الدماغ قد تكون (معقولة) للتمسك بها في البيئة الحالية أو لا تكون؛ فمثلًا بالنسبة إلى سجناء معسكرات إصلاح التفكير الصينية، كان تبني نظام المعتقد السائد (الشيوعي) هو المخرج الوحيد من الحرمان والتعذيب الشديدين، ومع ذلك واصل بعضهم التمسك علنًا بمعتقدات (العدو) هذه حتى بعد عودتهم إلى الولايات المتحدة.

ونظرًا إلى شدة المشاعر المعادية لأي شيء يتعلق بالشيوعية في ذلك الوقت، فإن ذلك لم يكن تصرفًا حكيمًا؛ قد لا تكون المعتقدات المكتسبة بوساطة غسيل الدماغ -شأنها شأن المعتقدات المكتسبة بالأساليب الأكثر روتينية- مفيدة في الواقع لحاملها، وقد تكون في بعض الحالات ضارة كثيرًا.

المقياس الزمني

تتغير المعتقدات والشخصيات باستمرار مع نمو الأشخاص؛ فاعتقادي بوجود بابا نويل يتعارض تعارضًا بيّنًا مع اعتقادي به عندما كنت صغيرًا، فهل كان دماغي مغسولًا من قبل عالم الكبار؟ لا، ولكنني ببساطة كبرت، وتقبلت تدريجيًّا مع تقدمي في العمر أنه لا وجود لشخص مثل بابا نويل، لكن لننظر في اعتقاد صديقي كيث القوي جدًّا بالمسيحية؛ فإذا اختفى كيث شهرًا ثم رأيته وقد أصبح ملحدًا محتدًّا، فقد أشك بأن شخصًا ما قد مارس عليه تأثيرًا مفرطًا، في حين أنني لو لم أرَ كيث عشر سنوات، فالأكثر احتمالًا هو أنني سأعزو هذا التغير لأسباب طبيعية، بمعنى آخر؛ كلما كان زمن التحول أقصر- بين المعتقدات القديمة والجديدة- زاد الاحتمال بأن شكلًا من أشكال غسيل الدماغ قد حصل.

الملاذ الأخير

أخيرًا، كما عرفت سابقًا، يكون غسيل الدماغ غالبًا (مفهوم الملاذ الأخير)، وعادة يكون التذرع به فقط عندما لا يكون هناك تفسير آخر واضح. (عندما لا يستخدم إهانةً عرضية).

وفي حالة باتي هيرست Patty Hearst –على سبيل المثال– كانت الحجة بأنها تعرضت لغسيل الدماغ طريقةً لردم الفجوة بين نشأتها بوصفها سليلة سلالة رأسمالية مثالية، ومشاركتها التطوعية في مجموعة يسارية عنيفة ومتطرفة.

مظهران آخران من مظاهر غسيل الدماغ يتعين أخذهما بالحسبان؛ الأول هو قوة الاعتقادات التي يتضمنها وارتباطها بالعاطفة، خلال غسيل الدماغ نفسه وبعده، وفي رد فعل الضحية على الهجمات على معتقداته الجديدة؛ فمثلًا يلاحظ الأشخاص العاملون مع ضحايا الطوائف الدينية أن المعتقدات الجديدة ترتبط بحالات عاطفية قوية جدًّا. تحدي مثل هذا الاعتقاد يعد منطقيًّا أمرًا صعبًا إن لم يكن مستحيلًا؛ فلا يقتصر الأمر على أن الضحية يفهم أن هذا التحدي هو عمل عدائي، لكنه يرفض الانخراط في أي مناقشة عقلانية؛ تعد المعتقدات الجديدة (مقدسة) وبعيدة عن متناول العقل. هذا الأمر نفعله جميعًا إلى حد ما، لكن المقاومة العدائية للضحية المزعومة لغسيل الدماغ يمكن أن تكون مبالغًا فيها، ويمكن أن يكون محتوى المعتقدات الجديدة صادمًا للآخرين كونه عجيبًا، إلا أنه مرة أخرى مسألة وجهة نظر.

يفترض غالبًا أن غسيل الدماغ يتضمن تغيرًا من مجموعة قوية من المعتقدات إلى أخرى، لكن قد لا يكون الأمر بالضرورة هكذا؛ فقد صُدم الأمريكيون بمواطنيهم الذين غسلت أدمغتهم مفترضين أن الاعتقاد المبدئي في طريقة الحياة الأمريكية كان قويًّا مثل الاعتقاد في الشيوعية التي تبناها هؤلاء الرجال فيما بعد، قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون. كان الأمريكيون أبطال الحرب العالمية الثانية؛ فبدأت تسيطر طريقتهم في الحياة. لا يحتاج مجتمع حر نسبيًّا خرج للتو منتصرًا في الحرب ويحمل معتقدات تكون فيها الحرية والفردية مُثلًا عليا مهمة، إلى الاقتناع بالمعتقدات التي يحملها مجتمع سلطوي يرى نفسه مهددًا من العالم الخارجي، كما هم الشيوعيون الصينيون، ويجب ملاحظة أنه حتى بالنسبة إلى الأقلية التي تحولت إلى الشيوعية وعادت إلى الولايات المتحدة، فقد اتجهت آراؤهم التي تمسكوا بها بقوة إلى التلاشي مع مرور الزمن، وغالبًا ما رافق ذلك ارتباك متزايد ومرض عقلي في بعض الحالات.

المظهر الثاني هو استخدام القوة والرعب: الإكراه في الإقناع القسري. في غسيل الدماغ من النوع الذي زُعم تنفيذه على السجناء الأمريكيين في كوريا، كانت القوة جوهرية جدًّا؛ إذ كان الحراس يعملون على أن ينهار أسراهم؛ فطُبِّق كلٌّ من التعذيب العقلي والجسدي لتحقيق ذلك،

لكن على الرغم من استخدام القوة غالبًا، فإنها ليست أساسية؛ فكثير من الطوائف الدينية تتودد إلى ضحاياها بالحب بدلًا من الوحشية، ثم إن من الصعب جدًّا تعريف ما هو قوة وما هو ليس قوة، كما تظهرها حالة باتي هيرست Patty Hearst. أكثر الأشياء إثارة للقلق حول بعض الضحايا المزعومين في غسيل الدماغ هو الحدة التي يتمثلونها حين يدَّعون أنه كانت لديهم الإرادة الحرة لاختيار مصيرهم ولم يُرغموا على ذلك. تظهر الحالة التالية بوضوح هذين المظهرين من غسيل الدماغ، وهي تشير كذلك إلى أن العديد من الطرائق التي ارتبطت بمصطلح إدوارد هنتر Edward Hunter تنطبق على الأساليب الأكثر قدمًا، وخاصة تلك المستخدمة في التعذيب.

إنها حالة منقوصة من غسيل الدماغ يعود تاريخها إلى أربعة قرون قبل ولادة الكلمة،كان ضحيتها مطران البروتستانت الإنجليزي وعالم اللاهوت توماس كرنمر Thomas Cranmer[14].

توماس كرنمر Thomas Cranmer: حالة دراسية

كان المطران كرينمر Cranmer عالمًا رائدًا ومصلحًا بروتستانتيًّا إبان حكم الملك هنري Henry الثامن، وبعد جلوس ماري Mary الكاثوليكية ابنة هنري Henry على العرش الإنجليزي بصورة عنيفة جدًّا، أرسل كرينمر Cranmer إلى سجن برج لندن في 14 سبتمبر عام 1553م، وهو في العقد السادس من عمره، إذ ولد في 1489م، ووفق معايير ذلك الزمان فهو يعد رجلًا عجوزًا. حوكم بتهمة الخيانة من دون محامي دفاع، وصدر بحقه حكم بالإعدام في 13 نوفمبر، لكن أهميته الرمزية للبروتستانت، وهشاشة سلطة ماري، منعت إعدامه على الفور، وعوضًا عن ذلك، أصبح كرينمر Cranmer هدفًا لمحاولات منهجية لإجباره الإعلان على الملأ تخليه عن آرائه وتأييده للكاثوليكية.

في مارس عام 1554م نُقل كرينمر Cranmer وزميليه المسجونين لاتيمر Latimer وريدلي Ridley إلى أكسفورد، وبين هذا الحدث ووفاته بعد عامين، عانى كرينمر Cranmer الشكوك حول مستقبله وأهميته، والتغير غير المرغوب في نوعية حياته؛ كان في قبضة سلطة أناس آخرين لا يحرمونه الحرية فقط، وإنما حرموه امتيازاته الثمينة مثل الكتب، وقد أزيلت دائرته المقربة من الأصدقاء الذين اعتمد عليهم دائمًا؛ كان وحيدًا وذليلًا وخائفًا، وتعرض لضغوط نفسية شديدة، من ضمنها الاتهامات العامة، ومحاولات الإقناع الخاصة، والمناظرات في علم اللاهوت التي هاجمت ثقته العقلية والروحية، وقد انفجر في مرة من المرات هذا الضغط إلى إرهاب سافرٍ

عندما أجبر كرينمر Cranmer على مشاهدة الموت المؤلم المتمثل بحرق لاتيمر وريدلي Latimer and Ridley، وأرعبه المشهد وجعله يتردد، ثم بدأ بتوقيع الوثائق اللازمة، ولكنه بعد ذلك علم أن خطوته التصالحية ذهبت هباء، وأن توقعه الرأفة من الملكة كان فارغًا، واقتنع أن قسوة الملكة ماري تعكس عدم كفاية محاولاته لنيل رضاها، فانهار وارتد تمامًا، وكانت النتيجة القبول والترحيب الحار به في الكنيسة الكاثوليكية، ولكونه مضطهدًا، بدأ الكهنة المحيطون بكرينمر Cranmer يظهرون له المودة بوصفه آثمًا تم إنقاذه.

على الرغم من أنه كان عرضة للموت، فقد أنقذت روحه، لكن ذلك لم يكن كافيًا، فلم يحرم كرينمر Cranmer طريقة للهرب من موته الوشيك الحدوث فحسب، (ما زال احتمالًا مؤلمًا ومخيفًا، رغم اعتقاده القوي بخلود الروح) وإنما يبدو أن سجَّانيه قد ارتكبوا خطأين قاتلين؛ الأول أنهم سمحوا له بالاتصال بشقيقته الناشطة البروتستانتية، ولم يعرف ما قالت له، لكنها من غير المحتمل أنها عززت احترامه لذاته في ديانته الجديدة. أما الخطأ الثاني فكان رد الفعل الشديد لأحد الكهنة عندما بكى كرينمر Cranmer على ذكرى ابنه. (أب) يسخر عند حزن أب آخر؛ هل رأى كرينمر Cranmer السخرية من خلال ألمه؟ لا بد أن الترحيب الحار الذي استُقبل به تحول كرينمر Cranmer الذي يعني الكثير إلى رجل عجوز يائس ووحيد، ظهر فجأة ككذبة كبيرة. ربما كسب القليل من الرحمة، لكن الاحتقار القاسي لحزنه قوض الإكراه السابق جميعه. لابد أن استياء كرينمر Cranmer من تشوهاته النفسية قد ازداد، وحيث إنه لم يكن هناك عرض رأفة مقدم له، فلم يكن هناك شيء يخسره. أرعب سجانيه بتوجيهه خطاب ما قبل تنفيذ الإعدام استنكر فيه ارتداده، ومات بشجاعة وهو غير نادم.

خضع كرنمر Cranmer أشهرًا لما يمكن أن نسميه التعذيب النفسي؛ فقد حرم الامتيازات، والأصدقاء، وحتى الأمل، وهوجمت أسسه الفكرية، وهويته الذاتية بوصفه بروتستانتيًّا، وشاهد بأم عينيه النهاية البشعة لزملائه التي هُدد بها. الخوف، الحزن، والوحدة – الدور الأساسي للعاطفة والإكراه واضح جدًّا. يبدو أن الهجمات الفكرية على معتقدات كرينمر Cranmer قد هزته، لكنها لم تكن وحدها مسؤولة عن الإذعان لسجانيه؛ بل كان ذلك الإذعان نتيجة الضغوط المرعبة التي عاناها: الشك المستمر في مصيره، فقدان كتبه وأصدقائه الذين يحبهم، الخوف والرعب عند مشاهدة زملائه وهم يحرقون أحياء. كان للعاطفة الإيجابية أيضًا دور، فما زال كرينمر Cranmer يأمل أنه باستسلامه فقد يسترضي الملكة ماري ويتجنب الموت حرقًا، وبعد أن سحقته وأنهكته هذه المشاعر القوية جميعها، لجأ إلى المخرج الوحيد المتاح أمامه للهروب

من هذه الدوامة: الخضوع. وبصورة مشابهة، فيما بعد، يبدو أن مؤثرين عاطفيين كبيرين -هما لقاؤه مع شقيقته، وازدراء الكاهن له عند بكائه على ابنه- قد أسهما أكثر من غيرهما في إخفاق تحوله القسري.

يبين مثال كرينمر Cranmer أن طرائق غسيل الدماغ لم تظهر فجأة إلى حيز الوجود في الحرب الكورية، بل كانت جزءًا من مسيرة طويلة من الإقناع القسري الذي كثيرًا ما تضمن التعذيب الجسدي والعقلي، وكما سنرى في الفصل الخامس فإن كثيرًا من الأساليب المستخدمة في غسيل الدماغ قد شُذِّبت عبر القرون، وأصبحت متطورة كثيرًا في زمن كرينمر Cranmer. استخدام الشك سلاحًا نفسيًّا؛ ووَضْعُ الشخص مع مجموعة من الناس يؤمنون بالمعتقدات التي ستتحول الضحية إليها؛ وانتزاع الضحية من بيئته السابقة ومن أي فرصة لتعزيز معتقداته القديمة عن طريق التحدث مع الأصدقاء على سبيل المثال؛ والتهديد بالموت أو بالآلام الجسدية المبرحة، أو كلاهما؛ والوحدة وانعدام الخصوصية والإحساس بعدم القدرة على التحكم في المصير؛ هذه الوسائل كلها استخدمها الكهنة المسؤولون عن توماس كرنمر Thomas Cranmer براحة تامة، وكان الموقف في معسكرات الإصلاح الصينية، على بعد نصف الكرة الأرضية وبعد مضي أربعة قرون، مشابهًا جدًّا؛ إذ عُزل السجناء عن بيوتهم وأصدقائهم، وعزلوا أحيانًا حتى عن السجناء الآخرين، وكانوا يُهددون أحيانًا بالموت أو المعاملة الجسدية السيئة، وغالبًا ما كان مصيرهم غير واضح بالنسبة إليهم، مثلما كان مصير كرينمر Cranmer مجهولًا بالنسبة إليه في معظم وقته في السجن.

كان الأفراد يوضعون عادة مع مجموعات صغيرة من (المؤمنين)، ويخضعون لِلقاءات نقاشية مطولة، يُطلب فيها نقد ذاتي مفصل بشدة، ونقد من قبل الأعضاء الآخرين في المجموعة؛ كان الهدف من هذا النقد الذي استُعمل مع المواطنين الصينيين إضافة إلى سجناء الحرب، هو «إبراز وجهات النظر السياسية والأيدولوجية»، و«التغلب على الأفكار غير الصحيحة، وتصحيح الأخطاء المذهبية الفكرية المختلفة، ورفع الوعي الحزبي لدى أعضاء الحزب، ومساعدة الرفاق»[15]. كانت المذكرات اليومية -إذا كتبت- تعد وثائق عامة، وتفحص في الاجتماعات لتقييم التقدم الفكري المذهبي؛ وكانت ظروف المعيشة المزدحمة تجعل الخصوصية أمرًا مستحيلًا، وأخيرًا -وفق ما أكد العديد من الباحثين- فإن نتيجة الكم الهائل من التكرار الذي يتعرض له الخاضعون لإصلاح التفكير هي تأنيب الضمير أو الندم. على مدى ساعات عدة يوميًّا وأحيانًا لأشهر وربما سنوات، عزز جهاز الحزب بوساطة المحاضرات أو الملصقات أو البث الإذاعي أو اجتماعات النقاش

رسائله الفكرية المذهبية. لا شك أن الإنهاك المطلق أسهم في استسلام الضحية نفسيًّا، ولا بد أن كرينمر Cranmer قد شعر بإنهاك مشابه في أثناء مساجلاته الكلامية الطويلة والمرهقة مع علماء اللاهوت الكاثوليك.

الضحايا والبيئات

«الإنسان ليس حيوانًا منعزلًا».

برتراند رسل Bertrand Russel، تاريخ الفلسفة الغربية.

Bertrand Russell, *History of Western Philosophy*

أحد الاستنتاجات الواضحة التي يمكن استخلاصها من الأدبيات المكتوبة عن غسيل الدماغ هو أن حالته المزعومة بوصفه عملية سحر شرير ومرعب يحوِّل المواطنين الأحرار إلى أموات عادوا للحياة وقد فقدوا إرادتهم، هي عملية اجتماعية في جوهرها، تتطلب اثنين من المشاركين على الأقل. تتغير الأدمغة مع تلقي الإشارات من العالم المحيط بها طوال الوقت، لكننا لا نسمي سماع تغريد العصافير، أو رائحة الخبز الطازج، أو صوت سيارة مارة (غسيل الدماغ). يتطلب هذا المصطلح عاملًا أو عوامل قسرية، ومهما كانت الأشياء التي تحدث في غسيل الدماغ، فإنها تتضمن مثل أي شكل من أشكال الإقناع، تفاعلًا اجتماعيًّا بين من يقوم بغسيل الدماغ وبين الضحية.

حيث إننا نحن البشر لم نكن قادرين حتى الآن على تغيير الدماغ مباشرة (باستثناء الأساليب الفظة مثل استعمال السكاكين والرصاصات والمخدرات، وجراحة خزع الفص الجبهي الغريبة)[16]، فإنه يتعين علينا الاعتماد على الأساليب غير المباشرة؛ أي تغيير الإشارات التي يتلقاها الدماغ؛ يمكن تنفيذ ذلك فقط بوساطة التلاعب في البيئة المادية أو الاجتماعية للضحية. بالتأكيد، فإن تغيير بيئات الناس الآخرين شيء نقوم به جميعًا؛ إننا جميعًا فنِّيو تأثير، لكن هناك درجات تفاوت، وغسيل الدماغ هو درجة قصوى: يهدف غاسل الدماغ إلى السيطرة الكلية على عالم الضحية، من أجل أن يسيطر في نهاية المطاف على عقل الضحية.

إن الأشخاص الذين يتبعون أحلامهم عن السيطرة أكثر ميلًا للجوء إلى وسائل متطرفة ليس فيها تراض في الإقناع، والأمر نفسه صحيح بالنسبة إلى الحكومات، ونَصِفُ الفرد في هذه الحالة

بأنـه مضطرب نفسـيًّا، ونصف الحكومة بالشـمولية، لكنهما يشـتركان في كثيـر من الخصائص؛ فكلاهمـا يفضـل الأمـور المطلقـة ويميلان إلى رؤيـة العالم من منظـور أبيض أو أسـود، وكلاهما يعتنق المذهب القائل إن الغاية تبرر الوسيلة، وكلاهما يمكن أن يظهر استخفافًا قاتلًا بضحيته. ظهر مصطلح (غسيل الدماغ) للمرة الأولى لوصف حكومة شمولية، ثم شمل الأفراد، كما سنرى عندما نناقش الطوائف الدينية في الفصل الثاني، حيث كانت مسرحًا لمعظم استعمالاته.

إذًا، كيف تحاول الدول الشمولية أو الأفراد تحقيق أحلامهم في السيطرة؟

بالنسـبة إلى الحكومات، يحدد روبرت ليفتون Robert Lifton [17] ثمانية عناوين نفسـية تميِّز إصلاح التفكير، وحسـبما يناقش تميز الأفكار المذهبية الشـمولية بصورة عامة (انظر الجدول 1)[18]. السـيطرة على المحيط هي محاولة للهيمنة «ليس اتصال الفرد مع الخارج فحسب (كل ما يرى ويسمع، ويقرأ ويكتب، ويشعر به ويعبر عنه)، وإنما أيضًا -في اختراقها لحياته الداخلية- ما يمكـن أن نقول إنه تواصله مع نفسـه». يتضمن التلاعب الغيبـي mystical manipulatiton التلاعب بشـخص من أجل «تحريض أنماط معينة من السـلوك والعاطفة بطريقة يظهران فيها وكأنهما قد ظهرا بصورة عفوية من ضمن البيئة». يشـير التلاعب الغيبي غالبًا إلى أهداف أسـمى أو سلطات خارقـة للطبيعـة مثل القدر، أو يـد التاريخ، أو أن يكون المرء قد اختير، أو المنزلة الإلهية أو شـبه الإلهيـة للمنظمـات المسـيطرة بوصفهـا ممثلة لسـلطة خارج الطبيعـة. توجد كذلـك الحاجة إلى النقـاء تنبـع مـن الثنائيات المتعارضـة الكامنة في الفكر الشـمولي؛ مثـل: الحزبي/غير الحزبي؛ الشـيوعي/ الرأسـمالي؛ الشـخصي/غير الشخصي؛ الخير/ الشـر. تمامًا كما في رواية (مزرعة الحيوانات) للكاتب جورج أورويل George Orwel، حيث أصبح شعار «أربعة أرجل أمر جيد، رجلان أمر سيئ»، هو (المبدأ الأساسـي) الموجه للحيوانات، كذلك أدت الثنائية النمطية للخير والشـر في المذاهب الفكرية الأخرى إلى المطالبة السامة (وغير الواقعية) بإلغاء العناصر الخارجة عن الوسط المختار خشية أن تلوث الأشخاص الذين كتبت لهم النجاة.

العنـوان الرابـع عنـد ليفتون هو عقيدة الاعتـراف التي ترفض الخصوصيـة الفردية وتمجد الاعتراف بوصفه غاية بحد ذاته، مسـتعملًا في الاسـتغلال والسـيطرة بدلًا من المواساة، وكذلك أدرج العلـم المقدس -الـذي يحتوي مثل التلاعب الغيبـي على ألغـاز أخلاقية/روحية- تُطبق في هـذه الحالة على المبادئ الأساسـية للفكر المذهبي. ولأنه علم مقدس فهـو يعد غير قابل للطعن أخلاقيًّا؛ إذ يمكـن أن يحـوِّل التحـدي نفسـه المتحدي إلى (لا شـخص)، وكذلك فهـو يعد دقيقًا

علميًّا؛ وهكذا تصبح الرؤية الأخلاقية المطلقة علمًا مطلقًا. إن عملية تحميل اللغة هي عملية تخدير للعقل التي تُضغَط من خلالها «أكثر مشكلات الإنسان شمولًا وتعقيدًا إلى عبارات قصيرة ومختصرة جدًّا تبدو حازمة، يسهل حفظها والتعبير عنها»، وهدفها هو إيقاف التفكير المستقل. تعني «كليشيهات إنهاء التفكير» هذه وحدة المجموع، وتحكم الجماعة باللغة، وفي النهاية بالتفكير.

أخيرًا، يدرج ليفتون ضمن صفات الأنظمة الشمولية صدارة العقيدة على الفرد، وفكرة أن العقيدة أكثر حقًّا وواقعية من أي شيء يختبره أي فرد كان، وسلب الوجود: الحق الممنوح للحزب، بتقرير مصير ليس أتباعه فحسب، وإنما أيضًا مصير اللا-بشر أي الأشخاص خارج محيطه.

الجدول 1 العناوين الشمولية الثمانية عند روبرت ليفتون

1	السيطرة على المحيط	السيطرة على اتصال الفرد مع العالم الخارجي، ومن ثم إدراكه للواقع.
2	التلاعب الغيبي	استدعاء أنماط معينة من السلوك والعاطفة بطريقة تبدو فيها بأنها تلقائية.
3	الحاجة إلى النقاء	الاعتقاد أن العناصر الموجودة خارج المجموعة المختارة يتعين حذفها لمنعها من تلويث عقول أعضاء المجموعة.
4	عقيدة الاعتراف	استخدام الإصرار على الاعتراف لتقليل خصوصية الفرد.
5	العلم المقدس	تصوير العقائد الأساسية للمذهب الفكري بكونها غير قابلة للطعن أخلاقيًّا ودقيقة علميًّا، وهو ما يزيد في سلطتها الظاهرة.
6	تحميل اللغة	ضغط الأفكار المعقدة في عبارات مختصرة تبدو حازمة، (كليشيهات إنهاء التفكير).
7	صدارة العقيدة على الفرد	فكرة أن العقيدة أكثر حقًّا وواقعية من أي شيء اختبره أي فرد من البشر.
8	سلب الوجود	الحق في السيطرة على نوعية الحياة والمصير النهائي لكل من أعضاء المجموعة وغير الأعضاء.

ينبع هذا الحق من اعتقاد الحزب أنه يوجد مسار واحد إلى الحقيقة، «أنا الطريق، والحقيقة، والحياة؛ لا أحد يصل إلى الرب، إلا من خلالي» (يوحنا، 14:6)، وأنه هو الوحيد الذي يعرف الطريق، وأنه يجب حذف المسارات غير الصحيحة. مثل معظم المذاهب المسيحية (عدا مذهب الكالفنية الذي يؤمن بالقضاء والقدر)، يُعتَقد في إصلاح التفكير أنه يمكن تحويل اللا-أشخاص إلى أشخاص؛ لذلك فإن ممارسيه لم يتجاوزوا إلى الافتراض الأبعد الذي ينص على أنه ليس فقط يجب تدمير الطرق غير الصحيحة، وإنما أيضًا أولئك الذين يتبعونها، وهي بهذا تختلف عن بعض المذاهب الفكرية الأخرى التي أشنعها النازية: كما يجادل المؤرخ دانيال جولدهاجن Daniel Goldhagen[19]، كانت إحدى أكثر عناصر المذهب الفكري النازي سُمِّية هي الاعتقاد أن البنية البيولوجية لليهود جعلتهم غير قابلين للإصلاح.

حالة دراسية: الأب لوكا Luca

تظهر عناوين ليفتون الثمانية بصورة جلية من خلال مناقشته لحالة الأب فرانسيس لوكا Francis Luca؛ وهو راهب إيطالي عاش في الصين سنوات عدة ثم اعتقل وخضع لإصلاح التفكير؛ وجد لوكا Luca نفسه في عالم يُسيطَر فيه على كل مظهر من مظاهره، حيث كان يُعَدُّ المذهب الشيوعي أمرًا جيدًا لا يمكن تقبل الطعن فيه، والإمبريالية الغربية ببساطة سيئة، وكان مصيره في أيدي أناس طالبوه بتنقية نفسه من أي فكر غير مرغوب فيه. وصف ليفتون حالته هذه بالتفصيل، وسوف ألخص هنا النقاط الرئيسة:

كان الأب لوكا Luca يدرك أن هناك إمكانية لاعتقاله؛ نظرًا إلى صداقته مع راهب آخر هو الأب سي، الذي انخرط في أنشطة معادية للشيوعية؛ ولذلك خطَّط مقدَّمًا لدفاعه عن نفسه؛ كان في التحقيق الأولي متحديًا ومنتقدًا لآسريه، فكان رد فعلهم منعه من النوم والألم، فأخضعوه لتحقيقات ليلية وقدماه مقيدتان بسلاسل مثبتة بها أثقال تزن عشرة كيلوغرامات، ويداه مكبلتان بالأصفاد، وكان يجبَر على الجلوس على الأرض وساقاه ممدودتان؛ وعندما يعود غير قادر على البقاء في هذا الوضع، «كان يميل إلى الخلف؛ ويقع وزنه على معصميه المقيدين وراء ظهره. ومع إحساسه بالألم الناتج من الأصفاد التي تحفر في جلده ووضعه غير المريح، بدأت تتوارد عليه لأول مرة أفكار الاستسلام والتنازل».

كان لـوكا Luca يوضـع فـي الأوقات التي لا يخضع فيها للتحقيق في زنزانة صغيرة مكشـوفة مع سـجناء آخرين اختيروا لأنهم مذعنون، وأُخبروا أن مسـاعدتهم على إصلاح تفكير لوكا Luca ستعجِّل من إطلاق سـراحهم، فكان واجبهم الذي يقومون به بحماس سـاعات عدة كل مرة، هو (إرهاقـه) بوابـل مـن الأسـئلة والاتهامات حـول أنشـطته ومعتقداتـه، مطالبين إيـاه بالاعتراف، ومنتقديـن لأي شـيء يقولـه. كان يُجبـر علـى البقـاء واقفًـا حتى تتورم رجـلاه بالسـوائل وتصاب بالإنتـان، وأن يظل مسـتيقظًا بصورة مسـتمرة تقريبًا (في إحدى المرات سـمح لـه بالنوم بعد أن أغمـي عليـه). تحمَّـل هذه المعاملة شـهرًا، أدلى خلالـه باعترافات عدة مزيفـة بالكامل حتى إنه أصبـح يجـد صعوبـة كبيـرة فـي تذكر ما اعتـرف به. عند هـذه المرحلـة، وفقًا لما ذكـره لروبرت ليفتون لاحقًا، «كنت سأقول تقريبًا أي شيء يريدون مني أن أقوله».

أمر القاضي بإزالة قيود لوكا Luca بعد شـهر، وطلب منه النوم مدة يومين، معبرًا عن أمله بـأن يسـاعده هـذا على الإدلاء باعتـراف أفضل، وعندما أخفق في ذلك ضُـرب ضربًا مبرحًا على ظهره بحيث تُرك عاجزًا جسـديًّا، وقد أخبره الطبيب الذي فحصه بأن عموده الفقري قد كُسـر، لكنـه سيشـفى مـع مرور الوقت. كان زملاؤه فـي الزنزانة –على أقل تقدير– غيـر متعاطفين معه، وعلـى الرغـم من أنه تلقى بعض العلاج الطبي لتقرحات السـرير، فإنه لم يتمكن من المشـي قبل مضـي عـام، عند ذلك اُسـتؤنف (الإرهاق) والاعتداء الجسـدي الذي كان قد أوقف مباشـرة بعد إصابتـه، ورفضـت اعترافاتـه الأصلية، أخيرًا سـلك المخـرج الوحيد الذي اسـتطاع أن يفكر فيه: عرض الأحداث التي حدثت في الواقع على أنها أكثر إدانة مما كانت عليه في الواقع.

رحب خاطفوه بالمبالغات الناتجة موافقين عليها، وهو ما شجع لوكا Luca على كتابة المزيد والمزيد عن نفسـه. اسـتُبدِل بزملائه في الزنزانة آخرون جدد، واسـتُبدل بالنظام القديم القائم علـى التعذيـب الجسـدي الضغطُ النفسـيُّ للاعتراف بأي (أفكار سـيئة)، وخاصة إدانة الكنيسـة الكاثوليكيـة، وهـو ما ظل لوكا يرفضه حتـى الآن. بدأ يخترع (أفكارًا سـيئة)، مدعيًا –مثلًا– ولعًا بالرئيس الأمريكي السابق هاري ترومان Harry Truman، لم يكن موجودًا لديه في الحقيقة أبدًا.

أنتج هذا موقفًا أكثر ودية مع محققيه، فصاروا يتبادلون النقد الدائم لسـلوك الكنيسـة، إلا أن ذلك سـبب عذابًا نفسـيًّا للوكا Luca، لكنه «أكثر فأكثر كبت أي اعتراض داخلي كان يشـعر به، وبدأ بالتعبير عن نفسه بحذر، تعبيرًا ينسجم مع وجهة النظر الشيوعية كلما أمكن ذلك»، واستمر أيضًـا فـي مراجعة اعترافه. كوفئ ببرنامج أكثر حرية، وبأمل بإطلاق سـراحه، لكنهم توقعوا منه

بالمقابل كتابة رسالة يشجب فيها أنشطته السابقة، ومساعدة السجناء الجدد على الاعتراف، وقد فعل ذلك. في نهاية المطاف بعد أن صُوِّر مع التسجيل وهو يقرأ اعترافه بصوت عال، أطلق سراحه وطرد من الصين، بعد ثلاث سنوات ونصف قضاها في السجن. تُرك يشعر بالضعف، والخزي، ويصارع لفهم محنته، وأكثر انتقادًا من قبل للإرسالية التبشيرية للكنيسة الكاثوليكية في الصين، آسفًا على ما ضاع من حياته هناك، مدركًا أنه قد تعرض لتحول مهم في شخصيته.

وجد الأب لوكا Luca أن آفاقه قد اتسعت بتجربته في إصلاح التفكير، وأصبح قادرًا، وإن كان ذلك بمشقة عميقة، أن يقبل ويندمج مع كثير من النقد الشيوعي لكنيسته الكاثوليكية المحبوبة؛ ومن ذلك -على سبيل المثال- انتقاده للرهبان بأنهم يعيشون في بذخ نسبي، وأنهم قد حملوا السلاح ضد الشيوعيين في بعض الحالات. حقق ذلك بصورة أساسية بتوضيح الفارق بين مبادئه الدينية الأساسية التي نجت من إصلاح التفكير، وسلوك الكنيسة ورهبانها، الذي لم يخرج من الإصلاح سليمًا. أتاح تحمُّله للأفكار الجديدة لعقله أن يتغير، لكن ليس أن ينكسر، بتأثير صدمة إصلاح التفكير؛ لذا كان قادرًا على الخروج معافى نسبيًّا، لكن كما تبين دراسة الحالة التالية، لم يكن ضحايا إصلاح التفكير جميعًا محظوظين بالقدر نفسه.

حالة دراسية: الأب سيمون Simon

كان الأب سيمون Simon راهبًا كاثوليكيًّا، أمضى عشرين عامًا في الصين يدرِّس العلوم قبل اعتقاله وإخضاعه لإصلاح التفكير[20]. كان قد انتقد الشيوعية علنًا، وكان في البداية شديد التحدي في أثناء التحقيق، لكنه أحب الصين حبًّا عميقًا، وأفزعته فكرة مغادرتها، وكان كذلك يتمتع بضمير قوي حي، وهو ما حدا به إلى الشعور بالذنب تجاه أحداث قد يراها الآخرون تافهة، كالمناسبة التي تحدث فيها إلى ضابط مخابرات في الجيش الأمريكي على سبيل المثال، كذلك أتاحت بيئة السجن له العيش بين المواطنين الصينيين بطريقة لم يكن يظن أبدًا أنه كان قادرًا عليها؛ كان المزيج بين العواطف الإيجابية والسلبية القوية غامرًا-وفاعلًا. بعد أن وجد أنه يستطيع التخلص من ندمه، وفي الوقت نفسه أن يبقى قريبًا من الصين التي عشقها، إذا اعترف بخطاياه التي اقترفها بحق الشيوعيين، ومن ثم تبني معتقداتهم؛ أصبح مطاوعًا لهم، لكن بخلاف الأب لوكا Luca فإن مطاوعة الأب سيمون كانت بعيدة كل البعد عن السطحية، فعندما أجرى روبرت ليفتون Robert Lifton لقاء معه بعد إطلاق سراحه، كان شديد الانتقاد لزملائه الكاثوليكيين بسبب

(تحريفاتهم) المعادية للشيوعية، وكذلك أنكر أنه لقي وحشية في السجن (على الرغم من التقارير المناقضة التي قدمها السجناء الآخرون)، وأشاد بالشيوعية بحماس شديد.

حافظ الأب سيمون Simon مثل الأب لوكا Luca، على أعمق مبادئه الدينية، ولكنه -بخلاف الأب لوكا- كان حزينًا لقناعة الشيوعيين بأنه لا يمكن أن يكون الشخص شيوعيًّا وكاثوليكيًّا في آن معًا، واعتقد أيضًا أن الكاثوليكية يمكنها تعلم كثير من طرائق الشيوعية. وغني عن القول إن أفكاره قد أفزعت زملاءه السابقين، ومع ذلك فقد أعادوه إليهم على أمل أن يعود تدريجيًّا بمرور الوقت إلى قناعاته السابقة، ولكن يبدو أن هذا الأمل كان تفاؤليًّا؛ فقد أجرى ليفتون معه مقابلة بعد ثلاث سنوات ونصف من تعرضه لإصلاح التفكير، وفي ذلك الوقت لم يظهر تمسك سيمون Simon بالشيوعية أي علامات على التراجع.

الدور الذي يكون لشخصية الفرد تُظْهِر مقارنة قصتي الأب لوكا Luca والأب سيمون Simon أن الفروق بين شخصيات الأفراد لها دور في جعله قابلًا لغسيل الدماغ، فقد كانا كلاهما شديد التدين، مغرمًا بالصين والصينيين، وذا ثقافة جيدة، لكن شخصية الأب سيمون Simon كانت أقل مرونة وأكثر عاطفية من شخصية الأب لوكا Simon، وقد رسم روبرت ليفتون Robert Lifton صورة لرجل متوتر غاضب، عرضة للمشاعر القوية وللتفكير على نمط الكل أو لا شيء؛ كانت تلك هي نقاط الضعف التي أثر من خلالها إصلاح التفكير تأثيرًا عظيمًا.

المثال الأخير الذي اخترته لتوضيح غسيل الدماغ مثال خيالي، وقد أُخذ من رواية كُتبت في العام 1948م؛ أي قبل سنتين من دخول الكلمة رسميًّا إلى اللغة الإنجليزية، ومع ذلك فقد أصبحت معروفة في العالم الناطق بالإنجليزية بوصفها رواية رائعة وتحذيرًا مرعبًا من أخطار الشمولية. من خلال التحدث بضمير الغائب، تجنبت الرواية مشكلات السرد الذي لا يمكن الاعتماد عليه، وهي المشكلات التي تنشأ عندما يوصف غسيل الدماغ من قبل ضحاياه أو من قبل مروجي الدعاية الأمريكيين الذين راقبوا الضحايا؛ إنه وصف جيد للمفهوم مثلما قد تجده في مكان آخر.

حالة دراسية: أربع وثمانون وتسع مئة وألف Nineteen Eighty Four

يعيش ونستون سميث Winston Smith؛ بطل رواية جورج أورويل George Orwell، في عالم تسيطر عليه ثلاث قوى عظمى متحاربة: أوسيانيا، أوراسيا، وإيستاسيا. يقع منزله في لندن،

أوسيانيا، ويعمل في المستويات الدنيا من الحزب الشمولي الحاكم. كانت وظيفته تزوير سجلات الماضي بحيث تظهر سياسات الحزب، حتى لو كانت تناقض مباشرة السياسات السابقة، ثابتة على الدوام؛ إنه جزء من مجهود ضخم للسيطرة على التاريخ نفسه، وهو لازم لأن الحزب يقدم نفسه بوصفه معصومًا عن الخطأ: «لا يمكن الاعتراف بأي تغيير في العقيدة أو الانتظام السياسي؛ لأن تغيير الشخص لرأيه، أو حتى تغيير سياسته، هو اعتراف بالضعف»[21].

لكن الحزب لا يقتصر على التلاعب بالتاريخ. عناوين ليفتون الثمانية (انظر الجدول1، صفحة 35) ذات صلة واضحة بالموضوع؛ هذه المنظمة مثال قوي على الفكر المذهبي الشمولي. تؤكد السيطرة على المحيط أن أعضاء الحزب يخضعون لانضباط صارم في التحكم في التفكير في كل لحظة من اللحظات، إذ يوجد في كل بيت شاشة عرض تعرض المحطة التي يسيطر عليها الحزب والتي تقدم المعلومات كلها عن العالم الخارجي، والقناة تبث بالاتجاهين؛ ولذلك فهي بوابة تجسس ممكنة للسلطات، ويمكن أن تراقب شرطةُ التفكير شاشة عرض أي شخص في أي وقت من الأوقات. تُشجَّع الهبَّات العاطفية الجماعية المنتظمة (دقيقتان من الكراهية)، وتسلط فيها نوبة من الكراهية والخوف ضد أعداء الحزب. «يتوقع من عضو الحزب أن يكون مجردًا من العواطف الخاصة من دون هوادة في الحماس الحزبي، ويفترض أنه يعيش في نوبة كراهية مستمرة للأعداء الأجانب والخونة الداخليين، ويبتهج بالانتصارات، ويحتقر ذاته أمام سلطة الحزب وحكمته». يحوَّل الاستياء الناتج من حياته غير المرضية بصورة مقصودة إلى الخارج، ويبدده بوسائل مثل (دقيقتان من الكراهية)، وأما التخمينات التي يحتمل أن تشتمل على مواقف تشككية أو تمردية فيقضي عليها سلفًا باكتسابه الانضباط الداخلي في وقت مبكر.

تظهر الأحداث المنسقة مثل (دقيقتان من الكراهية) تلك (العفوية) المخطط لها التي تميز التلاعب الغيبي وجلد الذات المحموم في عقيدة الاعتراف، أما طلب النقاء فيتردد صداه في الوقت نفسه خلال رواية أربع وثمانون وتسع مئة وألف Nineteen Eighty Four. وظيفة ونستون هي تنقية التاريخ. يمجد الحزب قائده، وهو الأخ الأكبر Big Brother ، ولا يمكن تحدي علمه المقدس، وحتى إذا وُجد تناقض بين العقائد نفسها من يوم إلى آخر، فسيظل لها الأسبقية على التجربة الشخصية؛ فمثلًا، تتطلب وظيفة ونستون منه أن يقبل، بل ويعزز عقيدة أن أوسيانيا هي في حالة حرب مع أوراسيا eurasia، وأنها كانت دائمًا في حالة حرب معها، على الرغم من أنه يتذكر الزمن الذي كانت فيه أستاسيا هي العدو، وعلاوة على ذلك فالحزب يمنح -من دون أدنى شك- الحق في الحياة أو الموت.

ونستون هو ثائر تعذبه الذاكرة، فهو يربط من منظوره بين العمليات التي يمارسها الحزب في سيطرته على التفكير، وإحدى هذه العمليات هي تعديل اللغة؛ إذ يطبق الحزب تدريجيًّا لغة جديدة، نسخة مشذَّبة من اللغة الإنجليزية تختفي منها الكلمات (الخطيرة) مثل (الحرية)، وذلك بناءً على أنه من دون الكلمات التي تعبر عن مفهوم معين سوف تتلاشى المفاهيم نفسها وتموت: «صُمِّمت اللغة الجديدة لتقليص مدى الفكر وليس توسيعه»، والكلمات التي بقيت محملةٌ بالمذهب الفكري، وهي أمثلة واضحة على كليشيهات إنهاء التفكير عند ليفتون.

لكن قوة الحزب الحقيقية وإرهابه يكمنان في الشك؛ فلا يعرف ونستون أبدًا من هو إلى جانبه؛ فكل شخص مُخبِرٌ محتمل. الأسوأ، أنه لا توجد قوانين، فليس هناك ما هو إجرامي بالمعنى الحرفي للكلمة؛ ومع ذلك فإن أي ابتداع سيعاقب، والعقاب هو في الإزالة: يختفي الناس ببساطة. لا أحد يعرف ما هو خطِر أو غير خطِر، من هم شرطة التفكير، أو حتى كيف يدافعون عن أنفسهم ضد الادعاءات الكاذبة؛ لذا يعيشون في رعب دائم، وهم في جهل مطبق؛ لأن المعلومات تحت سيطرة الحزب، يتوق ونستون الذي يتذكر بصورة غامضة أن الأشياء كانت مختلفة إلى صديقٍ، شخصٍ يمكنه التحدث معه، شخصٍ متفهم؛ يعد هذا بحد ذاته جريمة تفكير، ومعرفة ذلك تدفعه إلى سلوك متهور على نحو متزايد.

تنقضُّ السلطات في الوقت المناسب، ويُعرَّض ونستون للتعذيب، وينكسر، و(يعاد تعليمه)، ويتحول من كراهية الأخ الأكبر والخوف منه إلى محبته.

> **لكن كان ذلك صحيحًا، كل شيء كان على ما يرام، انتهى الصراع؛ انتصر على نفسه، وأحب الأخ الأكبر.**
>
> أورويل، Orwell, Nineteen Eight–Four, p.240.
>
> Orwell, *Nineteen Eighty-Four*, p. 240

غسيل الدماغ بوصفه آلية

أخذتنا كتابات أورويل Orwell إلى عوالم كل من ضحايا وسائل التعذيب والإداريين القائمين عليها، وأوضحت الطبيعةَ الهادفةَ لأساليب الحزب في السيطرة، والاختلافَ المعرفي بين المعتقدات التي تمسك بها ونستون Winston قبل تحوله وتلك التي تمسك بها بعد التحول،

والجـدولَ الزمنـيَّ القصيـر نسـبيًّا الـذي حدث فيـه تحوُّله. من الواضـح أنه قد اسـتعملت كل من القوة، والعواطف القوية، والتكرار، والتعذيب النفسي والجسدي ضد ونستون Winston، كما كانت قـد اسـتعملت ضـد كرينمـر Cranmer، وباتـي هيرسـت Hearst، والأب لـوكا Luca، والأب سـيمون Simon. وصل تعذيب ونسـتون Winston إلى ذروته (إلى أسـوأ شـيء في العالم)، عندما أُخذ إلى الغرفـة 101 التـي كانت آنذاك غرفة تعذيب شـهيرة، وهُدد فيها بأقصـى ما كان يخاف منه -كان هذا الشـيء بالنسـبة إلى ونسـتون Winston فكرة جرذ يقضم في وجه ونسـتون Winston- هو ما حقق خضوعه التام.

تضمن إصلاح التفكير الشـيوعي أيضًا ضغطًـا عاطفيًا كبيرًا؛ فقد وجد الطلاب الصينيون الذين أُرسـلوا إلى الجامعات لإعادة تعليمهم، وجدوا أنفسَـهم منغمسـين في مجموعة تواجَه فيها الأفكار المخالفة بالهجوم بصورة دائمة؛ كان كل مظهر من مظاهر السلوك عرضة للنقد الدائم من قبل الطلاب الآخرين، وكان التشـجيع على النقد الذاتي، وهو أحد المظاهر الرئيسـة لإصلاح التفكيـر، يجـري بصورة متزايدة؛ لـم يكن هناك وجـود للخصوصية؛ كانت المحاضرات تسـتمر سـاعات عـدة؛ وفـي أيام التدريب الطويلـة التي تتكون في معظمها من محاضـرات ولقاءات النقد الذاتـي، كانـت العواطـف تتأجـج كثيـرًا. ذكر أحد الطـلاب السـابقين الذي أجـرى هنتر Hunter مقابلـة معـه، المعـدلَ المرتفـع للانتحار في معاهـد إصلاح التفكيـر. يصف ليفتـون Lifton الذي قابل أربعين شـخصًـا من الصينيين والغربيين، بالتفصيل الاسـتخدام المتكرر للتهديد بالتعذيب الجسـدي واسـتخدامه الفعلي لتحطيم مقاومتهم بمفردات شبيهة جدًّا بتلك التي وصفها أورويل، كما أظهرتها الحالة الدراسية للأب لوكا Luca.

توضح الحالة Nineteen Eighty Four أيضًا بعض الصفات التي تقود الناس إلى زعم حصول غسيل الدماغ، بدلًا من مجرد الإقناع.

الصفـة الأولـى هـي نـوع المعتقـدات التـي تتبناهـا الضحيـة المزعومـة؛ إذ لا تختلـف هذه المعتقـدات فـي الحالة النموذجيـة عن المعتقدات السـابقة اختلافًا كبيرًا فحسـب، بل إنها قد لا تمـت بصلـة للواقـع أو لمعتقدات الأغلبية، أو قـد تكون في غير مصلحة الضحيـة (كما هي الحال عندما يُضطهد المؤمنون بدين ما). يبني الحزب واقعه الخاص به الذي قد تكون صلته بما يحدث فعليًّـا فـي العالـم قليلة جدًّا أو معدومة، وهذا ما يبدو جليًّا في كامـل رواية Nineteen Eighty Four مـن خـلال توصيفـات الحصص التموينية التي لا معنى لها، والانتصارات التي تقود إلى لا شـيء، والحرب التي لا نهاية لها ضد أعداء يغيرهم الحزب اعتباطيًّا.

الصفة الثانية لضحايا غسيل الدماغ المزعوم هي عاطفيتهم؛ فقد يظهرون مرتبكين عند تعاملهم مع الأقرباء أو الغرباء، أو قد يرتكسون بعدائية قوية لأي تحدٍّ لمعتقداتهم الجديدة. يتذكر ونستون Winston في نهاية الكتاب، مواقفه السابقة، ويصفها بأنها: «فظة، وسيئة الفهم بصورة غير مسوَّغة!»، وأن طبيعته السابقة كانت (العناد) و(التشبث بالرأي). ويقتبس إدوارد هنتر Hunter من مسرحية دعائية شيوعية يصرح فيها طالب بغضب: «لم أستطع رؤية الشفرة القاتلة التي تقف خلف أقنعة المعلمين والأساتذة الجامعيين الأمريكيين؛ لم أستطع سماع البنادق والقنابل في خلفية أفلامهم الموسيقية. الآن أعرف تمامًا وأفهم الوضع برمته»[22]. قد يظهر التغير في السلوك متطرفًا جدًّا، بحيث إن أقارب أعضاء الطائفة الدينية -على سبيل المثال- كثيرًا ما يشكون من أن الشخص الذي يحبونه «لم يعد الشخص نفسه أبدًا». وفي نهاية رواية Nineteen Eighty Four يبدو ونستون شخصًا مختلفًا تمامًا عن بطل الرواية المضطرب في بدايتها؛ فقد ذهبت النيران التي اكتوى بها إبان وجوده في المعارضة، وتقلصت اهتماماته إلى الحياة اليومية المباشرة؛ ما خرج هو الحقيقة، والذاكرة والتاريخ؛ وما دخل كان شاشة العرض اللانهائية وحجم فاتورة المشروبات.

غسيل الدماغ بوصفه فكرة

«... سكن الإنسان دائمًا عالمًا يشبه الحاضر حيث يرتبك حب النظام برغبة في الاضطهاد».

دي توكفيل De Tocqueville، الديموقراطية في أمريكا.

De Tocqueville, *Democracy in America*

كثيرًا ما يستخدم (غسيل الدماغ) على أنه فكرة مفهوم الملاذ الأخير، لكن التفسيرات الجديدة قد تقوِّض الحاجة إلى مثل هذه المفاهيم، وهو ما يجعل هذا الاستخدام (لغسيل الدماغ) على نحو متزايد أمرًا لا لزوم له. سوف ننظر في بقية هذا الكتاب في عدد من التفسيرات البديلة لمواقف مختلفة كانت تسمى (غسيل الدماغ)، ظهرت بعد أن وضع هذا المصطلح، وسوف نرى أن علم النفس- خاصة علم النفس الاجتماعي- وعلم الأعصاب يمكن أن يقدِّما بصيرة واسعة حول كيفية تأثير الناس بعضهم في بعض، تراوح بين التأثيرات العرضية قصيرة المدى للمحادثات اليومية والعواقب التي تغير الحياة بتأثير التعذيب والإكراه. لم تقدم الحالات الدراسية أي دليل على وجود عملية (سحرية) تسمى (غسيل الدماغ)، على الرغم من أن عديدًا من الباحثين

(ومنهم حكومة الولايات المتحدة) قد أنفقوا المال والوقت بحثًا عن مثل هذه العملية، وعوضًا عن ذلك، تقترح الدراسات أن غسيل الدماغ، من حيث عَدُّه عملية، من الأفضل أن يعد اسمًا جامعًا لطرائق متنوعة يتزايد فهمها لتغير العقل دونما تراض.

لكن هناك جانب آخر لغسيل الدماغ لا علاقة لهذه التفسيرات به: أي طبيعته المفاهيمية بوصفه تهديدًا شموليًّا كامنًا. ونعود مرة أخرى إلى أورويل Orwell، ففي أثناء تحول ونستون Winston's الموجع، أعطى جلاده أوبراين O'Brien تصريحًا حاسمًا وله سمة إنجيلية واضحة، عن الرابط بين غسيل الدماغ والشمولية:

> **«عندما تستسلم في النهاية لنا، يجب أن يكون ذلك عن إرادتك الحرة، فنحن لا ندمر المنشق لأنه يقاومنا؛ فما دام يقاومنا فلن ندمره أبدًا؛ نحن نحوّله، ونستولي على عقله الداخلي، نحن نعيد تشكيله. إننا نحرق جميع الشرور والأوهام من عقله؛ نأتي به إلى جانبنا، ليس ظاهريًّا ولكن جوهريًّا، في القلب والروح، نجعله واحدًا منا قبل أن نقتله؛ لا نستطيع أن نتحمل وجود فكرة غير صائبة في أي مكان في العالم، مهما كانت سرية وضعيفة».**
>
> أورويل Orwell, Nineteen Eighty–Four,P. 205

يمثل هذا التصريح الذي يعيد ذكريات تثير القشعريرة بما حدث مع ثوماس كرينمر Thomas Cranmer، أقصى جموح شمولي: أن يتطابق ليس السلوك فقط بل كل فكرة مفردة في كل دماغ منفرد في العالم كله، في قالب فكري مذهبي واحد؛ إنه التوق إلى أن تصبح فعلًا فوق البشر، ليس أن تكون الرب الذي يعبده المسيحيون، والله الرحيم الذي يسبِّحه أيضًا المسلمون، بل دكتاتورًا مجنونًا يعد نفسه إلهًا. إنه حاجة ملحة إلى الكمال، يخنق أي إمكانية للحرية، أو الانحراف، أو التغيير. لا يمكن تخيل فكرة أكثر رعبًا من هذه، عدا التدمير الكامل بالطبع؛ حتى إن هذه الفكرة تثير قشعريرة في البدن لا يثيرها حتى التدمير.

الخلاصة والاستنتاجات

«ربما تساعد إزالة الغموض عن غسيل الدماغ، وهي عملية التغير القصوى، على إلقاء المزيد من الضوء على كيفية عمل دماغ الإنسان العادي؛ لأن العوامل التي يمكن دمجها لفرض هذا التغيير

المفاجئ قد تكون مسؤولة بصورة مماثلة، بأشكالها المختلفة وبصورة خفية مع مرور الوقت، عن تشكيل شخصياتنا في المقام الأول؛ قد تجعلنا نتساءل عن الأسس بدلًا من الواجهة».

دينيس وين Denise Winn، العقل المتلاعب به The Manipulated Mind

Denise Winn, *The Manipulated Mind*

قدَّم هذا الفصل مفهوم غسيل الدماغ، واستكشف تاريخه وتأثيره الضار، ومفهوم الملاذ الأخير فيه، وقدم وصفًا لآليةٍ أو أكثرَ من آلياته، وعَدَّه فكرة خطِرة. وفي الفصول القادمة سوف نسأل: هل تحقق هذا الجموح الأقصى؟ وسنسأل: هل سيتحقق بصورة مطلقة؟ وسوف نبحث في فكرة غسيل الدماغ، حلم التحكم الكلية. ما الذي تقوله عنا وعن إرادتنا الحرة؟ وكيف يمكننا الحد إلى أقصى ما يمكن من العواقب الوخيمة التي تحدث عندما يحاول الناس ملاحقة هذا الحلم؟

الفصل الثاني

الرب أو المجموعة؟

«إذا كان الرب معنا، فمن يمكنه أن يكون ضدنا؟».

(الرومان: 8:31)

Romans 8:31

منذ ظهر مصطلح غسيل الدماغ عام 1950م، أصبح مفهومه ينمو خفيًّا في الثقافة الشعبية، فظل مندسًّا في الأفلام وقصص الإثارة، وقد استخفت به الأوساط الأكاديمية على نحو متزايد، وكان يطفو على السطح في الوعي الشعبي عادة في ردٍّ على بعض الصدمات الشديدة، أو ملاذًا أخيرًا للمعلقين لتفسير ما تعذَّر تفسيره، ولا تكون مثل هذه الصدمات عرضية؛ بل يسببها شخص أو أشخاص، تقودهم عادة دوافع سياسية أو دينية، وفي هذا الفصل سوف أسأل عن مثل هذه الدوافع، وسياقها الاجتماعي والنفسي الذي تزدهر فيه، ما يجعلها خطرة جدًّا.

القوة الملعونة

بالنسبة إلى الغرب، فإن أسوأ هذه الصدمات حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية في 11 أيلول عام 2001م، عندما ضربت طائرة نفاثة محملة بالركاب أحد برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك؛ افترض العالم في الدقائق القليلة الأولى أن ما حدث هو حادث مروع، إلى أن اصطدمت طائرة أخرى بالبرج الثاني، ثم ضربت طائرة ثالثة مبنى وزارة الدفاع الأمريكية؛ البنتاجون، وأسقطت طائرة رابعة في بنسلفانيا، عندما حاول الركاب الذين سمعوا من خلال الهواتف الجوالة عن الهجمات الباكرة، التغلب على خاطفيهم.

انهار برجا مركز التجارة العالمي كلاهما، ووصل عدد القتلى إلى الآلاف. لن ينسى الذين سمعوا القصة مثلي، وشاهدوها تتوالى أحداثها أمام أعيننا في بث مباشر على التلفاز، بسهولة أصوات المراسلين المرتجفة التي تعبر عن عدم تصديق ما يشاهدونه وهم يسعون لفهم ما يحدث. تركت أحداث 9/11 بالنسبة إلى المعنيين بما حدث، وإلى المواطنين الأمريكيين، ندوبًا مروِّعة.

في الأيام الأولى التي تلت المأساة، إلى جانب البحث عن الجثث وعن أناس يُلقى عليهم اللوم، وصفت بعض الأصوات أحداث 9/11 بأنه عمل شرير فريد من نوعه، لكنه بالتأكيد -كما أشار آخرون سريعًا- لم يكن كذلك؛ لم يقتصر الأمر على أنه قد جرت محاولة سابقة لتدمير مركز التجارة العالمي (ارتبطت بالقاعدة، وهي المجموعة الإسلامية المتطرفة نفسها التي ألقي عليها اللوم في حادثة 9/11)، بل أن أمريكا عانت سابقًا الإرهاب على أرضها، ومن قِبَل مواطنيها أنفسهم. قتل التفجير الذي قام به تيموثي ماكفي Timothy McVeigh بدوافع سياسية لمبنى حكومي في أوكلاهوما في 19 أبريل 1995م، 168 من الموظفين الحكوميين والمدنيين، وأدى إلى إصابة ما يزيد على 500. وكان هجوم ماكفي الأحدث فقط في سلسلة الإرهاب الذي تدفعه دوافع سياسية و/أو دينية، وهي سلسلة قد امتدت في أنحاء العالم إلى ما قبل عام 1950م؛ أثارت عناصر هذه السلسلة المظلمة مجددًا في كل مرة النقاش حول غسيل الدماغ منذ أن أصبح هذا المصطلح متاحًا؛ ولم يكن 9/11 استثناء.

الدين والسياسة

> **«ما يعوض ذلك هو فقط الفكرة واعتقاد غير أناني بالفكرة؛ شيء يمكنك نصبه، والانحناء أمامه، وتقديم القرابين له».**
>
> جوزيف كونراد Joseph Conrad، قلب الظلام
>
> Joseph Conrad, *Heart of Darkness*

بعد مرحلة ما بعد الإصلاح في الغرب، أصبحت السياسة والدين تميلان إلى الانفصال بعضهما عن بعض بصورة متزايدة (على الأقل من حيث المبدأ) كما هو منصوص عليه؛ على سبيل المثال، في دستور الولايات المتحدة والسياسة الفرنسية في فصل الكنيسة عن الدولة[1]، لكن تنظيم القاعدة أظهر أن الأمر ليس كذلك في عديد من الدول. توصف هذه المنظمة المختلفة، التي رأسها أسامة بن لادن، بأنها (إسلامية متطرفة)، لكن فضلًا عن هدفها في نشر تصورها الخاص عن الإسلام، فقد صرحت أيضًا عن أهداف سياسية ترتبط بالحد من السيطرة الغربية وخاصة سيطرة الولايات المتحدة. فمثلًا، يعد إعلان بن لادن عن هدفه المتمثل في إخراج القوات الأمريكية من المنطقة العربية هدفًا سياسيًّا، تدفعه جزئيًّا على الأقل أسباب دينية بكون الأمريكيين يدنسون أرضًا مقدسة. يتشابك الدين والسياسة كثيرًا في هذا الصراع وغيره من الصراعات الأخرى بحيث يصبح من المستحيل الفصل بينهما.

كثيرًا ما يعلق المعلقون العلمانيون في بريطانيا الذين اعتادوا على شكل مسالم من الدين، على الوحشية الغريبة للصراعات الدينية، لكن الأمر موضع خلاف إذا كان الدين وحده هو الملام في هذه الحالة، حتى إن التمييز بين الدوافع الدينية وغيرها من الدوافع يمكن أن يكون صعبًا؛ فمثلًا في إيرلندا الشمالية التي ما تزال تضرب مثلًا على الصراع الديني التوراتي، الطائفتان الرئيستان متنافرتان بفعل مجموعة معقدة من القوى الدافعة التي تشمل اهتمامات حول المكانة، وحقوق الإنسان، والالتزامات الديموقراطية، إضافة إلى مخاوف قديمة من القمع أو السيطرة أو حتى الاستئصال.

لكن يبدو أنه لا يمكن إنكار أن هناك دوافع معينة، ومنها المثل الدينية والسياسية التي يمكنها أن تدفع البشر لارتكاب فظائع مروعة بعضهم ضد بعض.يبدو أن هذه الدوافع، على الرغم من أنها ظاهريًّا مختلفة جدًّا (قارن القتال من أجل الحرية في الثورة الفرنسية مع القومية الباسكية أو قتال القاعدة في سبيل الله)، تشترك بملامح معينة؛ إذ إنهم يستخدمون أفكارًا مجردة، وغامضة، ومحمَّلة بالقيم، ويربطونها بعواطف قوية، ويستعملون التركيبة الناتجة لتبرير تشويه سمعة الناس الذين لا يتفقون معهم.

الأفكار

يستحضر كل من السياسة والدين أفكارًا مركزية معينة (الحرية، الدولة، الله)، تكون مجردة للغاية، وسوف أشير إليها على أنها (مقدسة وتجريدية). تكون الأفكار المقدسة غامضة جدًّا بحيث إنها غالبًا ما تُفسَّر بطريقة مختلفة جدًّا من قبل الأفراد المختلفين (يصف المنظرون السياسيون الأفكار السياسية المقدسة، مثل الحرية والمساواة، بأنها (متنازع عليها أساسًا))[2]، وهذا الغموض يجعل تحديها أمرًا صعبًا في المناقشات المنطقية؛ قد يكون المشاركون في مثل هذه المناظرات يتحدثون في الواقع بأهداف متقاطعة. كثيرًا ما يستخدم المتحدثون (تعميمات براقة)[3] لإخفاء اللاواقعية، أو المفاهيم الخفية أو الشياطين الأخرى الكامنة في تفاصيل أهدافهم وغاياتهم، أو لأنهم يأملون في استثارة استجابة عاطفية من مستمعيهم، وهو ما سيزيد من مستوى الالتزام ببرامجهم. علاوة على كونها مجردة وغامضة، فإن الأفكار التجريدية المقدسى محمَّلة بالقيم (انظر الفصل التاسع للمزيد حول هذا الموضوع). وحيث يُنظر لها

علـى أنهـا مهمة جدًّا في حد ذاتها، فإنها تأتي محملـة بمجموعة ضخمة من العواطف المتراكمة، وتشجِّع الشعور بالتفوق عند المؤمنين.

العواطف

فـي حين أن الطبيعة المجردة للأفـكار التجريدية الغيبية تتيح لأتباعها تجنب التركيز على النواحي التطبيقية الصعبة (مثل كيف تتأكد مما يريده الله، أو متى بالضبط ستتحقق الحرية)، فـإن هـذه المفاهيـم لا تنفصل كليًّا عن الواقع، بل هي على العكـس من ذلك؛ إذ تسـتمد قوتها من كونهـا مرتبطـة بأمثلة محددة مثيرة للعاطفة بصورة كبيرة. يميل دماغ الإنسـان إلى ربط منبهين يشـعر بهمـا في الوقت نفسـه، وسـوف يسـتفيد المتحـدث الماهر مـن ذلك، فيحاول -على سـبيل المثال- الربط بين ظلم متخيل أو حقيقي مع فكرة تجريدية؛ ها هو جون ملتون John Milton بُعَيْد الحرب الأهلية الإنجليزية يربط بين سؤال دستوري مجرد نوعًا ما -هل للبرلمان الحق في إعدام الملك شارلز الأول- مع صور تذكارية للحرب، والدمار، والذبح:

> **«مـا الـذي يملكه ملـك وطنـي ليدافـع عـن نفسـه، وهـو ملـزم بالعديـد مـن المواثيـق والمزايـا وكلمـات الشـرف برفاهيـة شعبه؛ لمـاذا من خـلال احتقاره للقوانيـن جميعًـا وللبرلمانات بعد سبع سـنوات مـن الحـرب وقتـل أفضـل مواطنيـه، وبعـد أن قُهر وسـجن، يظـن أنه سـينجو دون حسـاب لأنه شـيء مقدس؟ يجب احترامًا له أن يترك آلاف من المسـيحيين الذين قتلوا غير محسـوبين، وقد لوَّثوا بجثثهم المذبوحة جميع أرجاء الأرض، مطالبين بالثأر من الشـخص الحي الذي كان يجب أن يكون قد أعطاهم حقوقهم؟».**
>
> ملتون، Milton, *The Tenure of Kings and Magistrates*, p. 285.

العواقب

الأفكار المقدسـة ملطخة عامة بالدم، ومع كونها تُحسَـب بأنها أثمن من حياة الإنسان، فهي أيضًا تسهل العمليات التي بوساطتها تُبرِّر أولًا الغايةُ الوسيلةَ، وثانيًا، يمكن النظر إلى الأشخاص الذيـن لا يقبلـون سـيادة الأفكار بأنهم أحط من البشـر[4]، بعبارة أخرى، تشـجع الأفكار المقدسـة التفكيـر الشـمولي، كما وصفه روبـرت ليفتون (انظر الفصـل الأول)؛ لذا يمكن اسـتخدامها -بل

كثيرًا ما تستخدم- لتبرير الأعمال الإرهابية. بالنسبة إلى الضحية، أو إلينا نحن المشاهدين، قد لا يمكن تخيُّل أن البشر يمكن أن يقوموا بأشياء مثل هذه للآخرين؛ فكيف يمكنهم الطيران بطائرة والدخول بها عمدًا ببرود في ناطحة سحاب، أو تفجير فندق، أو النظر مباشرة في عيني طفل ثم إطلاق الرصاص في رأسه؟

تلمُّسًا للتفسيرات نستعمل عبارات مثل شرير، أو مجنون، أو مغسول الدماغ؛ إذا شعرنا بوجود عامل متحكم. وإن رد فعلنا يكون عدائيًّا، وأحيانًا قمعيًّا، ونرمي بتهديدات خارجية واضحة تعزز بدورها تقوية الالتزام العاطفي لدى الإرهابيين.

من الملاحظ أنه في إنجلترا، وهي أمة تضمنت نظرتها إلى نفسها (التي قد تكون دقيقة أو غير دقيقة) منذ أمد بعيد التسامح، وكذلك النفور من المشاعر الجياشة، ابتعد الدين الأساسي بصورة متزايدة عن ذلك النوع من الصخب الإنجيلي المرتبط بالرؤى العظيمة. ومن هذا المعنى، خدم انعدام الثقة بالأفكار الكبيرة إنجلترا خدمة جيدة؛ إذ كان آخر صراع فكري مذهبي واسع النطاق كان فيه للمثل الدينية المجردة دور أساسي في العام 1688م، عندما اشتبك وليام من أورانج البروتستانتي مع الملك الكاثوليكي جيمس James السابع (في أسكتلندا) والثاني (في إنجلترا). كنيسة إنجلترا غارقة اليوم بالتفاصيل؛ فهي تعمل جنبًا إلى جنب مع الخدمات الاجتماعية والمبادرات الحكومية لدعم المجتمعات المحلية بمجموعة هائلة من الأساليب المبتكرة، بدءًا بإنشاء مراكز في المناطق المحرومة لتعليم مهارات الحاسوب والمهارات الأخرى المرتبطة بالمهن، إلى زيارة السجون ومساعدة الأكثر فقرًا في المجتمع، فما النتيجة؟ تقوم كنيسة إنجلترا الأساسية التي يزدريها كثيرون لافتقارها إلى العاطفة بكثير من أفعال الخير (أكثر مما يقوم به عديد من منتقديها)، ومن النادر جدًّا أن يقتل شخص في إنجلترا بسبب معتقده.

وكما في الدين، كذلك الأمر في السياسة؛ فبريطانيا -زمن كتابة هذا الكتاب- تعيش مرحلة تشهد القليل من الاختلافات المذهبية الفكرية الرئيسة بين السياسيين في التيارات السياسية الرئيسة، ويبدو قادة الدولة أقل اهتمامًا بالرؤى العظيمة من اهتمامهم بالطرائق المعقدة لإدارة الحياة اليومية. يشكو كثير من الناس أن ذلك يجعل السياسة أمرًا مملًّا والمواطنين غير مبالين، بحيث يجد الشباب على وجه الخصوص منافذ أخرى لتصريف طاقاتهم؛ هل هذا أمر سيئ؟ ربما، ولكن عندما تصبح السياسة أمرًا مثيرًا، تكون النتيجة غالبًا دموية. عندما ينجرف الناس منفعلين في اتباع قضية نبيلة، يسهل ارتكابهم أنواعًا من الأعمال الوحشية التي تدفع المراقبين

إلى القول: «لا بد أنهم تعرضوا لغسيل الدماغ!». انظر إلى آخر مرة أصبحت فيها السياسة مثيرة حقًّا إنكلترا؛ تلك كانت الحروب الأهلية في القرن السابع عشر التي قتلت الآلاف؛ يفضل عديد من الناس اللامبالاة في أي وقت كان على ذلك النوع من التورط السياسي.

من سوء الطالع، السلام حلم كاذب في تلك الأجزاء العديدة جدًّا من العالم التي تسبب فيها المجموعات المحفَّزة بدوافع دينية أو سياسية الموت والإصابات والإرهاب للآخرين، وأحيانًا لأعضاء مجموعتهم نفسها. للبحث بتفصيل أكبر في الآليات التي من خلالها تستمد تلك المجموعات قوتها (التي كثيرًا ما تكون كبيرة جدًّا)، نحتاج إلى النظر في أمثلة محددة، وقد اخترت حالتين من الطوائف الدينية التوراتية الشهيرة؛ مجموعتان كان فيهما للدوافع الدينية والسياسية دور رئيس، وإن لم تكن القوة الدافعة الوحيدة. كلتا المجموعتين بدأت بمُثل نبيلة، بل حتى وكأنها مُثُل المدينة الفاضلة، وكانت أصولهما في الولايات المتحدة الأمريكية، أرض الأحرار والفخورين مؤيدي الحقوق الفردية؛ ليست قصصًا يمكن أن نلوم بها شياطين آخرين من ثقافات غريبة. انتهت كلتاهما بالقتل، وتحلل الطائفة، وفوضى من المعاناة والدمار لأقارب الضحايا. كلتاهما معروفة تمامًا بحيث إنني سأصفهما هنا بصورة موجزة فقط، لقد اعتمدت كثيرًا على وصف شيفلن وأبتون Scheflin and Opton لعائلة مانسون في كتابهما المتلاعبون بالعقل، وعلى كتاب شيفا نايبول Shiva Naipaul أسود وأبيض الذي يتعامل مع مذبحة جونزتاون Jonestown.

طوائف دينية صغيرة الحجم: عائلة مانسون Manson

عانى تشارلز ميلز مانسون Charles Milles Manson ما يوصف مجازًا بطفولة مضطربة؛ فقد كانت أمه في السادسة عشرة من عمرها عندما ولدته، ولم تُعِرْه أي اهتمام حتى عندما كانت معه خارج السجن، وقد انتقل بين مجموعة من أقاربه غير الراغبين فيه، وقضى معظم وقته بين سن التاسعة والثانية والثلاثين في مدارس الإصلاح أو السجون التي وفَّرت –على الرغم من عنفها– نظامًا مفقودًا في الحياة خارجها. طوَّر الصلابة اللازمة من أجل البقاء، واكتسب أيضًا مهارات أخرى؛ أبرزها شكل متطرف من الميل الذي على معظمنا أن يتمثل به في التلون الاجتماعي؛ أي التصرف على وفق ما يريده الناس الذين نتفاعل معهم (من منا، عندما ينظر إلى الوراء، لا يستغرب تغير تصرفه حين يكون أمام رئيسه، أو إمكاناته غير المتوقعة بأن يكون كَفِيًّا،

عندما يتطلب الأمر أن يكون كذلك؟)، علاوة على هذا الانسياب في العلاقة بين الأشخاص، طوَّر مانسون Manson أيضًا اهتمامات في الأديان والفلسفة التي لا تنتمي للتيار العام: المجموعات الدينية، التصوف الشرقي، وديانة (المعرفة).

أُطلق سراح مانسون Manson عام 1967م على الرغم من مناشداته للبقاء داخل السجن، فوجد مانسون Manson نفسه في الثانية والثلاثين، وسط الثقافة المضادة التي ميزت الستينيات من القرن العشرين؛ إذ كان هناك فجأة أناس على استعداد لأن يحبوه، ويرحبوا به، ويتشبثوا بكل كلمة يقولها (وقد مكنته دراساته من أن يحاضر بصورة مثيرة للإعجاب في الموضوعات التي يودون سماعها). منحته مهاراته في فهم ما يريده الناس وإعطائهم ما يريدون، التي شحذت في السجن بالضغوط من أجل البقاء والابتعاد عن المتاعب، السيادة السريعة على (أطفال الزهور)، وبدت قدرته على قراءة أفكارهم وكأنها خارقة للطبيعة. أنشأ (العائلة) بعد أن جمع حوله مجموعة معظمها من الإناث، ووقفت هذه العائلة نفسها للعبادة العمياء لقائدها، بل جعل أيضًا رضى مانسون Manson عنهن مهمًّا جدًّا بالنسبة إليهن، فقد وفر لهن ما يفتقرن إليه.

استمر الحلم 30 عامًا حاول خلاله مانسون Manson اتخاذ مهنة له في الموسيقى الشعبية، لكن محاولته أخفقت. لقد حقق في نهاية المطاف، ولو إلى حين، هدفه في شهرةٍ توازي شهرة فرقة الخنافس Beatles، لكنه بدأ يدرك أن ذلك لن يكون في المجال نفسه، ولا يُعرف إذا أسهم ذلك في تعميق رؤيته المظلمة، ولكن ما هو واضح أنه اتصل بمجموعات من المختلين، وأنه بدأ بالحديث عن نهاية العالم الوشيكة، وأنه بدأ باستخدام وسائل سيطرة أكثر عنفًا داخل العائلة. تقبَّل أفراد العائلة، وقد انعزلوا عن العالم الخارجي، وأصبحوا يعتمدون على مانسون Manson في ملء عواطفهم، سلطته على كل مظهر من مظاهر حياتهم. استخدم المخدرات، والاستجواب العنيف، والتكرار المستمر لتعاليمه؛ لتعزيز تلك السلطة، وبدأ بتعريف نفسه صراحة برموز دينية؛ المسيح، والرب، والشيطان، وقيادة العائلة في طقوس غريبة قيل إنها تضمنت قتل الحيوانات وشرب دمها، ومحاكاة القتل والعنف.

يبدو أن مانسون Manson قرر في مرحلة ما أن نهاية العالم القادمة تقترب بسرعة كافية، وأنها تحتاج إلى مد يد العون لها، فمن ثَمَّ وُلِد مفهوم (الهرج والمرج)؛ أي الثورة الدموية التي اعتقد أنها ستنتج نظامًا عالميًّا جديدًا، وأوكل مانسون Manson إلى عائلته مهمة تنفيذها. وخلال

ليلتين في آب عام 1969م بدأن حملتهن العنيفة بجرائم قتل شرسة لسبعة من السكان الأثرياء في لوس أنجلوس، ومن بينهم امرأة في أواخر حملها، هي الممثلة شارون تيت Sharon Tate.

مع مواجهة الأجساد المطعونة والمضروبة، وكلمات (خنزير)، و(الحرب)، وبالطبع (الهرج والمرج) مكتوبة بالدم، ووجود أدلة على أن القتلة استحممن وتناولن الطعام قبل أن يغادرن مسرح الجريمة، اتسم رد فعل الجمهور بالصدمة والرعب وعدم الفهم، وبعد الاعتقالات، جعل انعدام أي علاقة بين القتلة والضحايا ما حدث أكثر غرابة. جعل مشهد النساء الصغيرات وهنَّ يروينَ بهدوء كيف ذبحن شارون تيت Sharon Tate وجنينها، يتشبثن بأي قشة في البحث عن تفسيرات. علاوة على ذلك، واجه الادعاء العام مشكلة أن مانسون Manson لم يكن موجودًا في الواقع في أثناء عمليات القتل. بدا أن القول بأنه غسل أدمغة المخلصات له من الإناث اليافعات لقبول (فلسفة الموت) حلًّا واضحًا، ولكن تبني الادعاء العام حجة غسيل الدماغ قاده إلى معضلة؛ إذ كان هدف الادعاء هو توريط مانسون Manson بجرائم القتل، جنبًا إلى جنب مع أتباعه، من خلال الاحتجاج بأن غسيل الدماغ الذي أجراه لأتباعه كان مسؤولًا عما اقترفنه، لكن إن كانت أدمغة فتيات مانسون Manson مغسولة، فكيف يمكن تحميلهن مسؤولية جرائم القتل التي من الواضح أنهن قد اقترفنها؟ عند ذلك راوغ الادعاء العام حول القضية وساعده على ذلك إخفاق الدفاع في تأكيد هذه المعضلة، وكون المتهمات لم يظهرن أي دليل على أنهن يعانين الجنون أو نقصان المسؤولية.

أخذت محكمة الاستئناف في كاليفورنيا التي حكمت بالقضية، وجهة النظر نفسها التي أخذت بها سابقًا المحكمة في نورمبيرغ، وقالت إن ضغط الأقران، أو كون الشخص من أتباع طائفة دينية، أو الوقوع تحت تأثير قائد ذي شخصية نافذة، لا يعد كافيًا لإعفاء الشخص من مسؤوليته الجنائية، ووافقت على تحميل القائد المسؤولية، من ثم أُيِّدت إدانة المتهمين بتهمة القتل من الدرجة الأولى، وأرسل مانسون Manson إلى السجن، هذه المرة مدى الحياة.

شُحِذت مهارات مانسون Manson في التعامل مع الآخرين إلى مستوى عال جدًّا، لكن من المشكوك فيه أنه كان قادرًا على تحقيق هذه الشهرة السيئة من دون المجموعة التي التفت حوله؛ إن وجود المجموعات والآليات داخل المجموعة أمور مركزية في الأديان والسياسة، وسوف نستكشف الآليات النفسية التي تبطِّن تشكيل مثل هذه المجموعات وتطورها، لكن دعونا أولًا نتحول إلى الحالة الثانية من حالاتنا الدراسية.

الطوائف الدينية واسعة النطاق: مجزرة جونز تاون Jonestown

أُسس مجتمع جونز تاون Jonestown في العام 1977م على يد القس جيم جونز Jim Jones في أدغال جوايانا المنعزلة، وظهرت الحركة استجابة لتدهور العلاقات بين معبد الشعب الذي أسسه في العام 1956م، ومجتمع سان فرانسيسكو حيث كان مقره. كان جيم جونز Jim Jones -مثله مثل تشارلز مانسون Charles Manson- يتمتع بشخصية نافذة على الأقل في البداية؛ حيث كان أتباعه يرونه مليئًا بالحب إلى درجة تفوق ما لدى البشر. بشَّر معبد الشعب بالأخوة، والحياة المشتركة، وتقديم الدعم الاجتماعي، والشعور بالانتماء للمحتاجين، وطبَّقوا في أيامهم الأولى كثيرًا من مثلهم العليا، ونفَّذوا عددًا مثيرًا للإعجاب من مشاريع الرعاية الاجتماعية، لكن في أمريكا الواثقة بنفسها زمن الحرب الباردة، ربما يكون هذا السلوك الاشتراكي قد أسهم في خلق الشك الذي أحيطت به منظمة جونز.

لكن بالنسبة إلى أتباعه كان جونز Jones هو المسيح المنتظر الذي أرسله الرب لبناء المدينة الفاضلة. وبالفعل، فإن كثيرًا من الغرباء الذين زاروا جونز تاون Jonestown عقب تأسيسها في صيف عام 1977م، وصلوا إلى قناعة بأنهم قد شاهدوا جنة على الأرض، حتى إن بعض الذين انشقوا وتركوا جونز تاون Jonestown أشادوا بالمعايير الأخلاقية للسلوك التي عاينوها. كانت الحياة شاقة حين كان الواعظ المسيحي يكافح لبناء بلدته الزراعية، لكن جونز Jones اختار موقعه جيدًا؛ فنظرًا إلى أن هذه البلدة كانت منعزلة ويصعب الوصول إليها، فقد كان من السهل السيطرة عليها، ودَفَع الشعورُ بالعداء الخارجي، الجسدي والاجتماعي، المقيمين فيها إلى التماسك. كانت جوايانا Guyana في ذلك الوقت مكانًا مواتيًا لإجراء مثل هذه التجارب؛ إذ إنها كانت محكومة من قبل فوربس بورنهام Forbes Burnham الذي كان يزداد في دكتاتوريته،

فقد تبنت مُثلًا شبيهة بتلك التي تبناها معبد الشعب، لكن على الواقع- كما يشير شيفا نايبول Shiva Naipaul في كتابه الأسود والأبيض- أظهرت حكومة جوايانا «نوعًا غريبًا من نظام العصابات يتضمن فسادًا على أعلى المستويات وتحفيزًا فكريًّا مذهبيًّا»، وتمحورت حول شخصية بورنهام Burnham، حتى إن الحكومة أصبحت مجرد مؤسسة «لهوسه، وأوهامه وإسقاطًا لنزواته»، وكان وسواس الاضطهاد أحد هذه الأوهام: كانت الميزانية العسكرية لجوايانا وقت حصول المجزرة أربعة أضعاف ميزانية الصحة. رحَّب بورنهام Burnham بمعبد الشعب في بلده، وبالمقابل دعمه جيم جونز Jim Jones علنًا.

لكن كان هناك آخرون لم ينظروا نظرة إيجابية إلى المشروع الجديد؛ ففعليًّا، كانت إحدى السمات الرئيسة لقصة جونز تاون Jonestown هي كم أصبح النقاش واسعًا شعبيًّا. من ناحية هناك جنة، ومن ناحية أخرى نوع مرعب من الجحيم. تجمع المنشقون وأقارب أتباع جونز لتشكيل مجموعة سميت الأقارب القلقين.

يناقش شيفا نايبول Shiva Naipaul بصورة مقنعة أن التكلف في سلوك هذه المجموعة، وهوسهم في تشويه سمعة جونز كان لها دور فاعل في تصاعد الشعور بالاضطهاد داخل جونز تاون Jonestown؛ شعر المنشقون على وجه الخصوص بالاطمئنان لأنهم يملكون أساسًا أخلاقيًّا أعلى، وقوَّى ذلك معرفتهم أنهم، وقد غسلت أدمغتهم، لا يتحملون أي مسؤولية عن أي شيء فعلوه هم أو أي شخص آخر في جونز تاون Jonestown (يتساءل المرء كيف استطاعوا الانشقاق في الأساس). انتشرت الشائعات حول البلدة انتشار النار في الهشيم؛ قالوا إن جونز بارع في الخداع والتلاعب، وإنه يملك قوى شيطانية للسيطرة على العقل؛ وإنه عذَّب أتباعه، بل وإنه امتلك قنبلة ذرية ويخطط للاستيلاء على العالم.

في تشرين الثاني من عام 1978م، وبعد شهور من تنامي وسواس الاضطهاد وتصاعد المعاناة الجسدية، وصل جونز تاون Jonestown إلى طريق مسدود. مرض جونز Jones مرضًا خطرًا، وصار الحديث في البلدة عن الموت، وعن الفظائع التي ارتكبها المجتمع الأمريكي ضد السود والفقراء، وعن الاستغلال والعنصرية والفاشية وسط دعاوى قضائية ودعاوى مضادة لها، وتحذيرات من المنشقين أن جونز مسلح تسليحًا قويًّا وأنه يخطط لانتحار جماعي.

رَأَس عضو الكونجرس ليو رايان Leo Ryan وفدًا من مجموعة الأقارب المهتمين، ومن الصحفيين، في زيارة لجونز تاون Jonestown. وفي 14 تشرين الثاني هبطت طائرة الوفد في جوايانا Guyana، فنصبت شاحنة مليئة بالمسلحين كمينًا له؛ وكان عضو الكونجرس رايان أحد القتلى. بعد مضي أربعة أيام، نفَّذ جونز خطة كان التدريب عليها جيدًا للتدمير الذاتي. ربما شعر أعضاء الطائفة المنهكون نتيجة التغذية السيئة، والمرض، والعمل الجسدي الشاق، أن المدينة الفاضلة تنزلق من قبضتهم، ومن المؤكد أن بعضهم قد ثار ضد قرار جونز القيام بانتحار جماعي بوساطة شراب السيانيد المنكه بطعم حلو؛ مات ما يزيد على تسع مئة من الناس.

علم نفس الجماعات الدينية

«المتعصبون لهم أحلامهم، ينسجون منها فردوسًا لطائفة».

جون كيتس John Keats، سقوط هايبريون.

John Keats, *The Fall of Hyperion*

تعد كل طائفة سياسية أو دينية، (بقدر ما يمكن تمييزها)، فريدة في نوعها؛ وعلى الرغم من أن الديانات الرئيسة في العالم التي بدأت طوائف دينية صغيرة قابلة للنقاش، فإن معظمها أصبح ذا طابع مؤسسي ثابت بحيث فقدت العديد من خصائصها الطائفية[5]، لكن ووفق ما أوضحت حالتانا الدراسيتان توجد بعض الظواهر المشتركة بين كل من الطوائف الدينية والديانات (على الأقل في أيامها الأولى)؛ فمن ذلك التمايز الواضح بين القائد والأتباع، والثورة ضد السلطة القائمة، والشعور بالعظمة مع سعي الحركة الجديدة لتأسيس نفسها، وتفكير الثنائيات المبسط مثل الذي لاحظه روبرت ليفتون Robert Lifton في الفكر المذهبي الشيوعي (الخير/الشر، المؤمن/الملحد، الناجي/الملعون)؛ والميل نحو التفكير في المدينة الفاضلة، وأخيرًا، تختلف الطوائف عن الديانات والمجموعات الأخرى في تكرار حدوث تدميرها لنفسها وعنفه.

القادة والأتباع

كان جون Jones -شأنه شأن مانسون Manson- قائدًا ذا شخصية نافذة يرى- ليس من دون مبرر- أنه تعرض للاضطهاد، وخلفيته مضطربة؛ أي إنه عانى الفقر، وبيئةً عائليةً مضطربة، وتعرض للتمييز، والمساوئ الاجتماعية الأخرى[6]، وبمرور الوقت بدا أن القائدين قد اقتربا أكثر فأكثر من حافة الإصابة بمرض عقلي؛ تحافظ الطوائف عادة على بيئة انفعالية، ومعزولة، ويظهر فيها وسواس الاضطهاد على نحو متزايد، تغذيها المخدرات وقوى اجتماعية قوية، ويعانون الضغوط المتزايدة الناتجة من التناقضات بين عالم الطائفة الدينية (حيث القائد هو الإله وكل شيء على ما يرام) وبين العالم الخارجي (حيث لا قيمة للقائد وكل شخص عدو)، مع ابتعاد القائد وأتباعه أبعد وأبعد عن الواقع. يَعُدُّ عادة أتباع الطائفة قادتهم آلهة، أو على الأقل مفوضين من قبل سلطة عليا (اللّه، القدر، قوى التاريخ، أو أي أفكار غيبية تجريدية تناسب نظرتهم إلى العالم) لتغيير الكون.

يعد العمر، الجسدي أو النفسي، عاملًا آخر يرتبط بالطوائف الدينية؛ إذ يميل كثير من الأتباع إلى الانضمام في مرحلة المراهقة أو في بداية العشرينيات، في الوقت الذي لا يكونون فيه قد أصبحوا بالغين راشدين، وإنما أشخاص غير مرتاحين تمامًا (داخل جلودهم)، ويبحثون عن الإحساس بالهوية والأمن الذي يمكن أن توفره الطائفة لهم، وكثيرًا ما يوصفون بأنهم تائهون، ويجدون صعوبة حتى في التعبير بوضوح عن احتياجاتهم، فضلًا عن تحقيقها. علاوة على ذلك، يكون عديد من احتياجاتهم محرِجًا للأفراد الأكبر سنًّا في مجتمع التيار العام الذي ترفضه الطائفة. وكما ظهر في جونز تاون Jonestown، يكون عديد من أتباع الطائفة مثاليين، لا يسعون بصدق وقوة إلى التنوير الروحاني فحسب، بل إلى مساعدة الناس الآخرين أيضًا. الطائفة ليست محض طريق للخلاص؛ وإنما هي فرصة للتعبير عن الخير في مجتمع معاد وتهكمي، وبخلاف الديانات السائدة، تكون الطائفة الدينية مفعمة بالإثارة الناتجة من رفض المجتمع للجماعة، وكذلك تختلف الطوائف الدينية الحديثة عن الأديان السائدة بطريقتين أُخريين: الأولى، كثيرًا ما يبدو أن الطوائف الدينية تتجه نحو الشباب، وهو ما يؤكد حداثتها وتطرفها، قد يتعلق هذا الأمر جزئيًّا بكون أعضائها عادة من الشباب، ويتعلق جزئيًّا بتقديمها قدوة عصرية للشباب، مع أنه يوجد تراث طويل من مناشدة الشباب يعود تاريخه على الأقل إلى قائد الطائفة التوراتية عازف مزمار هاملين (تعود أصول الأسطورة إلى القرون الوسطى). ثانيًا، تتحكم الطوائف تحكمًا أكثر صرامة في المعلومات، «ففي حين أن الأديان تطبق سياسة الموافقة الحرة والمستنيرة مع الذين ينضمون إليها، يكون الأشخاص الذين ينضمون إلى طوائف معينة أحرارًا عندما ينضمون، لكنهم لا يعطون معلومات عنها، وحالما يعطون المعلومات لا يبقون أحرارًا»[7].

التمرد ووسواس الاضطهاد

تتضمن الطوائف عادة رفض التعلم والسلطة القائمين (كتركيز مانسون Manson على الديانات البديلة من دين المعرفة إلى عبادة الشيطان، ونبذ جونز للرأسمالية الأمريكية). ونظرًا إلى أن هذا الرفض مرتبط بعواطف قوية، (قد يصف المفكر الفرويدي ذلك على أنه صراع أوديب، جزء من آلية حسبان الشخص نفسه شخصًا مختلفًا) يبدو أن أعضاء الطائفة الدينية يفترضون أن العالم الخارجي المرفوض سوف يشعر تجاههم بشعور مناهض قوي مماثل، وأنه سيهاجمهم،

وذلك يولد شعورًا بالاضطهاد وثيقًا جدًّا، ويمكن أن يكون مسوَّغًا في حالات كثيرة (كما في حالة جونز تاون Jonestown)[8]. جاهدت أسر الأعضاء -على سبيل المثال- طويلًا من أجل استرداد أبنائهم التائهين، سواء أكان الأبناء يُعَدون بالغين قانونيًّا أم لا. تطورت في سبعينيات القرن العشرين عملية إعادة برمجة أعضاء الطائفة المختطفين إلى صناعة مزدهرة، لكنها انتقدت بشدة من قبل المراقبين؛ لكونها أكثر شبهًا بغسيل الدماغ من إجراءات الطوائف نفسها[9].

البساطة والنقاء

يميل أعضاء الطائفة إلى شيطنة كل شيء خارج الطائفة؛ لذا يبررون العنف بل ويعدونه ضروريًّا، وينظرون نظرة رهيبة إلى المجتمع بوصفه شريرًا وفاسدًا، يعدونه عالمًا يجب أن يدمَّر قبل أن يتمكن المستقبل الذي يحلمون فيه من القدوم. كان أتباع جونز قلقين من كل شيء؛ ابتداءً من الاستنساخ إلى التعقيم إلى الجراحة النفسية؛ ويعتقدون أنها جميعها أسلحة محتملة في أيدي الفاشيين العنصريين الذين سيسيطرون على أمريكا في وقت قريب، وبنظرهم فالعالم المحكوم عليه بالفناء يشمل كل شخص لا يشاطرهم معتقداتهم؛ إذ إن جميع هؤلاء الناس بالنسبة إلى الطائفة ليسوا أنقياء؛ ولهذا ففي عام 1972م، ردت صحيفة معبد جيم جونز Jim Jones على مقالة لصحيفة معادية بقولهم: «سيضرب الانتقام أولئك الذين تجرؤوا على عبور المعبد»[10]، أما أعضاء الطائفة فهم -على العكس من ذلك- ناجون وطاهرون ما بقوا أعضاء في الطائفة. التقط الأديب الساخر توم لهرر Tom Lehrer، الذي يستهدف المغنين الشعبيين الذين يكتبون أغاني احتجاجية، جيدًا هذا الموقف الذي يدين فيه المعتد بنفسه الآخرين:

«نحن جيش الأغنية الشعبية

كل واحد منا مهتم

جميعنا يكره الفقر، والحرب، والظلم

بخلافكم يا ساذجون».

لهرر Lehrer، جيش الأغنية الشعبية.

Lehrer, 'The Folk Song Army'

التفكير المستقبلي المنحرف

تعطي الطوائف عادة، مثلها مثل الديانات، وعدًا: فكرة مدينة مثالية تصر على أن الحاضر غير مهم مقارنة بمستقبل مجيد متاح لشعب الله المختار. ومثل كثير من الأفكار المجردة، ليست رؤى الطائفة غامضة فحسب بل إنها أيضًا غير قابلة للاختبار اختبارًا مجديًا، مالم تحدد الطائفة بالطبع تاريخًا دقيقًا لنهاية العالم[11]. وبمعنى آخر، يجعل التفكير بالمدينة الفاضلة الأفكار المقدسة أكثر قداسة، ومن ثم أكثر خطورة[12]، وقد أشارت هانا أرندت Hannah Arendt إلى ذلك بالقول: «لا تكاد توجد طريقة أفضل لتجنب النقاش من تحرير النقاش من سيطرة الحاضر حجة السيطرة على الحاضر والقول إن المستقبل فقط يمكنه أن يكشف مزايانا»[13].

أصبحت نهاية العالم القادمة بالنسبة إلى ماسون Manson -كما هي الحال بالنسبة إلى جونز Jones- هاجسًا مستمرًا، وشعر بأنه قد اُختير لبدء الثورة التي من شأنها جلب النهاية، لكن مفهومه عن الهرج والمرج لم يكن غير مسبوق؛ إذ كثيرًا ما يؤكد قادة الطوائف أسبقيةً مفترضةً؛ لكن في الحقيقة فإن الأفكار نفسها تطفو إلى السطح مرة تلو المرة، وفي الواقع عندما تقارن جرائم القتل التي ارتكبها مانسون Manson بالقالب الأساسي الغربي لنهاية العالم؛ وهو سفر الرؤيا من الكتاب المقدس (الذي تأثر مانسون Manson به كثيرًا)، فإنها تبدو محاولة صغيرة بائسة تدعو للشفقة لأداء دور الإله. في الرؤية الأصلية (من سفر الرؤيا 16)، التي أَمَل مانسون Manson أن تستهل بالهرج والمرج، هناك وعد بآلام (مثيرة للاشمئزاز ومحزنة)، وأن البحار والأنهار ستصبح «مثل دم رجل ميت»، وبالنيران، والألم والظلام، والجفاف، والرعد والبرق، وبزلازل تهز العالم، ووابل عظيم من البرد؛ تلك فعلًا نهاية عالم.

نهايات عنيفة

أخيرًا، يعد الميل إلى تدمير الذات أحد أكثر الجوانب المثيرة للقلق لدى الطوائف الدينية، فإذ يتدرج عديد من المجموعات الإنسانية من الولادة إلى النمو، فالثبات، والانحدار التدريجي؛ فإن بعض الطوائف الدينية لا تظهر ذلك النمط، وتنتهي بدلًا من ذلك بكارثة؛ إنهم معروفون أكثر من غيرهم؛ لأن هول موتهم يضعهم أمام أعين الجمهور. جرائم القتل التي قامت بها عائلة مانسون Manson، والانتحار الجماعي والجرائم في جونز تاون Jonestown، و(حركة استعادة

وصايا الله العشر) الأوغندية، وأحداث مدينة واكو في تكساس حيث احترق بناء طائفة دينية عندما هاجمتها السلطات الفدرالية والمحلية، ونظام المعبد الشمسي؛ جميعها شغلت العناوين الرئيسة في صحف العالم؛ وجميعها كانت غير معروفة خارج المجتمعات التي تتأثر بها مباشرة إلى أن اشتعلت أخبارها، وفي حالة مدينة واكو فذلك ما حدث بالضبط لا بمجاز العبارة.

تمخض القرن العشرون عن كثير من الأهوال، وكذلك فقد قدم لنا أيضًا محاولات علمية حديثة لفهمها، ومع تطور علم النفس جاءت البحوث التي طَبقت للمرة الأولى الأساليب النفسية في دراسة المجموعات البشرية، وتعلم علماء علم النفس الاجتماعي منذ ذلك الحين، الكثير حول كيفية إنشاء المجموعات والحفاظ عليها، والضغوط التي تربط الأفراد معًا أو تبعد بعضهم عن بعض. ليس هذا كتابًا مقررًا في علم النفس الاجتماعي، ولن أحاول القيام بأكثر من تلخيص لبعض جوانب الأدبيات الهائلة المكتوبة حول الموضوع[14]. وعلى الرغم من أن علم النفس الاجتماعي، لم يأخذ بالحسبان غسيل الدماغ حتى الآن، فلا يبدو هذا أوضح في أي مكان مثلما هو واضح في دراسة مجموعات مثل الطوائف الدينية.

لماذا تعد المجموعات مهمة جدًّا؟

الفردية عقيدة فاعلة كان لها دور مؤثر جدًّا في تطور الحضارة الغربية. تثير رؤية الشخص لذاته في مرآته الإعجاب بكائن مستقل فخور باستقلاله، ذاتٍ صلبة كالصخر. مع هذا التأكيد، وبالنظر إلى حجم ما سأقوله عن التأثيرات السلبية لبعض المجموعات، من الجدير طرح السؤال: لماذا تعد المجموعات أساسية فضلًا عن كونها مُهمَّة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع الأفكار الالغيبية التجريدية؟ تأتي الإجابة من واحدة من أكثر الحجج المؤثرة في الفلسفة الحديثة؛ نقد لودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein لفكرة اللغة الخاصة[15]:

> **دعنا نتخيل الحالة الآتية: أود أن أحتفظ بمذكرات يومية عن تكرار إحساس معين، ولتحقيق هذه الغاية سأربطه بالإشارة (S)، وأكتب هذه الإشارة في التقويم لكل يوم أحس فيه بهذا الإحساس.**

الإشـارة S فـي لغتـي الخاصة كلمة تصف (شـعورًا معينًـا)، أنا فقط أعرف مـا تعنيه. لكن، كيف أعرف ما تعنيه؟

> **هل يمكن أن أشير إلى الإحساس؟ ليس بالمعنى العادي. لكنني ألفظ، أو أكتب الإشارة، وفي الوقت نفسه أركز انتباهي على الإحساس، وهكذا ـبأي حال ـ أشير إليها داخليًا، لكن: لماذا هذه المراسم؟ لأن هذا هو كل ما يبدو عليه الأمر! من المؤكد أن تعريفًا ما يساعد على تأسيس معنى للإشارة. حسنًا، هذا ما يحدث بالضبط بتركيز انتباهي؛ لأنه بهذه الطريقة طبع في ذهني ارتباطًا بين الإشارة والإحساس.ـ لكن أن (أطبعها في ذهني) يمكن فقط أن يعني: تفترض هذه الآلية أن أتذكر الارتباط بصورة صحيحة في المستقبل.**

أعرف ما يعنيه S لأنني أستخدمه بالطريقة نفسها التي استخدمته فيها سابقًا؛ أي للإشارة إلى إحساس أشعر به، لكن كيف يمكنني التأكد من أن الإحساس هو نفسه في كل من المرتين؟ يصعب جدًّا تحديد الأحاسيس، خاصة عندما يكون التحديد لقيمته، فهل من المنطقي القول إن بهجة أخي عندما يحمل ابنته بين ذراعيه هي نفسها في يومين متتاليين؟ فضلًا عن مقارنة قيمتها بقيمة بهجة أبي عندما يحتضنني؟

لا يعني تسمية الحالات الثلاث بلغتنا العامة (بهجة) أن شعور والدي يطابق تمامًا شعور أخي، وبالصورة نفسها؛ لا يمكنني التأكد من أنني أتذكر الإحساس بصورة صحيحة، ولا أستخدم S بطريقة مختلفة في كل مرة؛ بمعنى آخر:

> **ليس لدي في الحالة الراهنة معيار للصحة. يمكن من خلاله أن أقول إن كل ما سيبدو لي صحيحًا فهو صحيح، وهذا يعني فقط أننا لا نستطيع أن نتحدث عن (الصحيح).**

لا يمكنني الاعتماد على حكمي الخاص للتحقق من أنني أستخدم S بالطريقة نفسها كل مرة؛ لأن ذلك المعيار قد يتغير من دون أن أنتبه، ومن ثم يمكنني أن أجد معيارًا مستقلًّا فقط من خلال مقارنة استخدامي باستخدام الآخرين، والمعنى ليس شيئًا غريبًا مفروضًا من الخارج؛ إذ تعني الكلمات المعنى الذي نستخدمها من أجله. يجب أن تكون اللغة تشاركية، ومشروعًا عامًّا، يكون الآخرون فيه نقطة مرجعية بالنسبة إلى كل مشارك، والأمر نفسه يصح عندما نود أن نقرر ما نشعر به حول الأفكار التجريدية الغيبية التي يعبر عنها لغويًّا قبل كل شيء؛ إذ نحتاج إلى الرجوع إلى ما قاله الناس الآخرون عنها ورأيهم فيها، ليس فقط لأن أي إنسان بمفرده لا يمكنه أن يجمع أو حتى يتأمل في المعرفة التي جمعتها المجتمعات عبر قرون من المناقشة الأخلاقية

(لماذا إعادة اختراع الدولاب؟)، بل أيضًا لأننا لا نثق بأنفسنا في تذكر أحاسيسنا (المقوَّمة كمًّا) بدقة؛ لهذا السبب يعد حلم التحكم أمرًا قاتلًا -بالنسبة إلى أولئك الذين تستحوذ عليهم وإلى ضحاياهم- عندما يصل إلى حد التطرف. نحتاج إلى أشياء (وأناس) حولنا يكونون خارج سيطرتنا؛ لأن استقلاليتهم هي السبيل الوحيد للتأكد من بقائنا على اتصال مع الواقع، وللتحقق -كما يقول فيتجنشتاين Wittgenstein- من أن أفكارنا والكلمات التي نستخدمها لتشكيلها لا تزال (صحيحة).

نحتاج إلى مجموعات من أنفسنا لكي نكون قادرين على الثقة بلغتنا، لتقويم وتذكر تقديراتنا للأفكار التي تبادلناها باستخدام تلك اللغة، لكن- وفق ما ذكرنا سابقًا- تنشأ المشكلة بالنسبة إلى أقوى أفكارنا الالتجريدية عندما تصل المجموعات إلى استنتاجات متضاربة بشأن ما تعنيه هذه المفاهيم (المتنازع عليها أساسًا)، ولسنا بحاجة إلى دخول العالم الخيالي لرواية أربع وثمانون وتسع مئة وألف للعثور على موقف تكون فيه (الحرب هي السلام) أو (الحرية هي العبودية)؛ فعالمنا مليء بها. تحاول بعض المجموعات المعنية أحيانًا التلاعب بالرأي العام بصورة متعمدة؛ لكنهم أحيانًا يصدقون بصورة حماسية لا هوادة فيها توصيفاتهم الخاصة بهم، وكثيرًا ما نطلق تعبير (طائفة دينية)، عندما نواجه مثل هذا الشغف.

تركيب الطائفة الدينية

كما ذكرنا سابقًا، فإن الطائفة مجموعة هرمية؛ ففيها عادة قائد واحد، وعدد من الأتباع (الذين قد يكون لهم أنفسهم مكانات مختلفة؛ مثلًا، يوجد المبتدئ، والماهر، والمفضل لدى القائد، وهكذا).

يقدِّم القائد والأتباع حاجات مختلفة جدًّا للمجموعة، ويستمدون منها إشباعاتهم. بلغة علم النفس، تتعلق بالقادة مسألة الشخصية الكارزمية، في حين يتعلق بالأتباع مسألة الاعتماد على شخص ما؛ كلاهما مرتبط داخل المجموعة (بأرضية معرفية مشتركة): ثروة مشتركة تجمع الأفكار، والمعتقدات، والمواقف، والمشاعر. سوف ننظر في القادة والأتباع بمزيد من التفصيل في الفصول القادمة، ولكن توجد بعض الآليات النفسية التي يبدو أنها تعمل في أنواع المجموعات،

مهمـا كان تعريفهـا اعتباطيًّـا. هنـاك بعض الآليات المشـتركة بين العديد مـن الطوائف الدينية، ونحتاج إلى النظر في الطرائق التي تستخدمها مجموعات الطوائف الدينية في فرض التطابق في المعتقدات بين أعضائها، ومقارنتها بطرائق الشموليين المستخدمة في غسيل الدماغ.

المجموعات الداخلية والمجموعات الخارجية

«الشرق شرق، والغرب غرب، والاثنان لن يلتقيا أبدًا».

روديارد كبلنغ Rudyard Kipling، أغنية الشرق والغرب.

بدءًا بأبسـط مسـتويات العمليات الحسـية إلى تعاملنا مع أفراد البشر الآخرين، فإن تجميع الأشـياء هـو أحـد الأنشـطة الأساسـية لأدمغة البشـر؛ قد تكفـي المصادفـة الزمانيـة أو التقارب المكاني، كما يُظهر عديد من الخدع البصرية، فإذا سـمعنا صوتًا في الوقت الذي نرى فيه شـيئًا، فإننا نفترض أن الجسم قد أنتج الصوت، إلا إذا عرفنا خلاف ذلك. نحن نجمِّع، ونصنف، وبمرور العمـر نكتسـب مفاهيـم تصنيفيـة لا حصر لهـا، ونسـتخدم هذه التصنيفات لتسـريع تفسـيراتنا للعالـم؛ فـإذا تمكنـتُ من الحكم على جسـم جديد بأنـه عضو في صنف (القط)، فإنني أسـتطيع على الفور الوصول إلى جميع أنواع المعلومات المخزنة حول الشيء الجديد: (يأكل اللحوم)، (قد يخدش)، (لا يمكن أرجحته بسـهولة في مطبخي) من دون الحاجة إلى دراسة صفاته من جديد، وهذا يمنحني توفيرًا مهمًّا في الوقت والطاقة، وهامشًا أكيدًا للبقاء.

افتح أي كتاب رائج في علم الأعصاب، وستجد غالبًا صيغة لعبارة تفرط في إطراء التعقيد الهائل للدماغ البشـري، وهذا التعقيد يجعل الإنسـان من بين أكثر الأشـياء تعقيدًا التي يتعين على البشـر الآخريـن التعامـل معها. إذا لم نرغب فـي أن نتعثر إلى أن نتوقـف متلعثمين في تفاعلاتنا الاجتماعيـة، فنحـن بحاجـة إلـى طرائق أخرى مختصرة. سـوف نعـود إلى هذه الاسـتدلالات في الفصـل القادم، عندما نرى كيف اسـتخدمها أصحاب الإعلانات لسـلب مدخراتنـا، ونكتفي الآن بملاحظـة أن التصنيـف هـو أحد الإسـتراتيجيات التي نطمـح إليها، فإذا عرَّفت شـخصًا بوصفه عضوًا في مجموعة، فإن معرفتي عن هذه المجموعة ستصبغ رد فعلي نحوه.

ووفق ما أشار فيتجنشتاين Wittgenstein، فإن المفهوم الذي ليس له حدود مفاهيمية، وليس له مثال مضاد محتمل، ينتشر بصورة ضئيلة بحيث يصبح بلا معنى[16]. والكلمة (محتمل) حيوية

جدًّا؛ إذ إن المثال المضاد قد يوجد وقد لا يوجد، فيمكنني أن أعرِّفك بأنك عضو في مجموعة (الأشخاص الذين يطرحون الفضلات) على الرغم من أنني أعرف أنه من الناحية العملية ليس لهذه المجموعة مثال مضاد؛ لأن كل إنسان يطرح الفضلات.

مفهوم (الأشخاص الذين يطرحون الفضلات) ذو معنى؛ لأنني أستطيع بسهولة (من دون تقييد نفسي بعقد المنطق) تصور إنسان لم يطرح الفضلات قط: الأفلام مليئة بهم. وبطريقة مشابهة بالنسبة إلى المجموعات، فإن فعل تعريف مجموعة (نحن) بذاته يتضمن إمكانية، وعادة الوجود الفعلي، للشيء الذي ليست -المجموعة- هو (هم). تبدو هذه النزعة في تعريف المجموعات الداخلية (نحن) والخارجية (هم) التي يعتقد علماء النفس الاجتماعي أنها في صميم التحيز، أساسية جدًّا للعنصر البشري، بحيث إنهم يصنفون الأشخاص بوصفهم ينتمون إلى (الداخل) أو (الخارج) وفق معايير زائفة بصورة مدهشة؛ ليس فقط الجنس، والعمر، والمظهر، أو المعتقدات، بل حتى وفق تعيينات عشوائية أنتجها علماء النفس التجريبيون في مختبراتهم[17].

بصورة عامة، يبدو أن المجموعات الطبيعية (تلك التي لم تُشكل تشكيلًا لأسباب بحثية مثل تلك في تجارب علم النفس الاجتماعي) تشجع بصورة عامة الجاذبية بين أعضائها، ولا تقتصر هذه الجاذبية على الرومانسية؛ فنحن نفضل الأشخاص الذين (يمنحوننا المكافآت)[18]، والذين (يشبهوننا في جوانب أساسية جدًّا مثل المعتقدات، والاهتمامات، والخلفية الشخصية، والقيم)[19]، ونميل أيضًا إلى الانجذاب إلى الأشخاص (أو الأشياء) القريبين منا ماديًّا أو وظيفيًّا (كما في الفضاء الإلكتروني)، ويبدو أن مجرد واقع اللقاءات المتكررة معهم تزيد محبتنا لهم[20]. يميل البشر الذين ينخرطون في تفاعلات اجتماعية إلى مزامنة وضعياتهم، وحركاتهم، ونطقهم، وتعبيرات وجوههم، وعادة من دون أن يدركوا ذلك، وهذا يقود إلى تلاقي كل من سلوكهم ومزاجهم، وهي عملية سمَّتها إلين هاتفيلد Elaine Hatfield وزملاؤها (العدوى العاطفية) في كتابهم الذي يحمل الاسم نفسه[21]، إذ تزيد العدوى من التشابه الذي يشعرون به ومن ثم تزيد من التجاذب المتبادل.

لذلك نتوقع أن نجد في الطوائف الدينية أن الأعضاء يشاركون الآخرين الحديث ليس فقط عن معتقداتهم واهتماماتهم، ولكن أيضًا عن خلفياتهم وقيمهم الأساسية، ونتوقع أيضًا أن نجد أن كون المرء عضوًا في طائفة، سيلبي الحاجات (يقدم مكافأة) لكل من القائد والأتباع، وتفترض

التحليـلات المفصلـة للطوائـف الدينيـة، مثل كتـاب إيليـن باركـر Eileen Barker The Making of Monie، (الموني عضو في كنيسة التوحيد الأمريكية). أن هذا هو الواقع.

سواء تكونت المجموعة بصورة طبيعية أم لا، فيمكن أن يكون لها تأثيرات كبيرة في التفكير والسلوك. يبدو أن الناس يفكرون عند الانضمام لعضوية مجموعة من منظور نسبة التكاليف إلى الأرباح، ويزنون المكافآت التي يتلقونها من العضوية بالجهود التي يبذلونها في أنشطة المجموعة، ويمكن أن يقودهم ذلك إلى بذل جهود هائلة للانضمام إلى مجموعة ما أو إلى الهروب من أخرى. (يمكـن أن تؤثـر مثـل هذه الجهـود في كيفية تقييـم عضوية المجموعة: المجموعـات التي يصعب الانضمـام إليهـا تتطلب التزامًا أكثر، وهذا سـبب وجود بعض الطقوس الاسـتهلالية المخيفة في بعض المجموعات)[22]. عندما يصبح الأشـخاص أعضاء فإنهم يستمرون في التأثر في المجموعة عبر معاييرها وأدوارها. وقد أشـار باركـس وسـانا Parks and Sanna في كتابهما أداء المجموعة وتفاعلهـا إلـى الآتـي: «تخبرنـا معاييـر السـلوك مـا الأفعـال التـي يتحملهـا أو لا يتحملهـا أعضاء المجموعة الآخرين». يعيَّن عادة لأعضاء المجموعة أدوار أيضًا

تحدد مجموعات من السلوكات التي يتوقع منهم تنفيذها؛ من ذلك -على سبيل المثال- أن يصبح أمين صندوق لجمعية خيرية. تخدم معايير السـلوك والأدوار الوظيفة الاسـتدلالية نفسها، مثل عملية التصنيف التي وصفت سـابقًا: إنها تسـرِّع وتذلل العلاقات داخل المجموعة، ما يجعل المجموعة أكثر فاعلية وأكثر راحة للبقاء فيها.

كل كائـن بشـري عضـو فـي مجموعات عديـدة متميزة، وتختلـف المجموعات فـي مقدار ما يشـغله أعضاؤهـا من المشـهد المعرفـي؛ أي الأهمية التـي يعطونها لكل عضو. ينظـر إلى عضوية فريـق واحـد لكـرة قدم من الهـواة بطريقة مختلفة جدًّا مـن قبل لاعب له طموحـات بعيدة المدى وزميلـه الـذي يـود فقـط القليل مـن تدريبـات اللياقة، وكذلـك قد تعنـي العضوية فـي مجموعتين مختلفتين شـيئين مختلفين عند الفرد نفسـه، فشـقيقة زوجي قد تعرف نفسـها بأنها (محاسبة) و(مقيمة في بيرمنجهام)، لكن تعريفها الأول يمثل هويتها أكثر من الثاني. تشـغل الطوائف وقت أعضائها وطاقتهم أكثر بكثير مما تفعله كثير من المجموعات التي نراها كل يوم: يبدو أنها تشغل كثيرًا من المشهد المعرفي للمشاركين فيها، بل وتستولي عليه.

الذات وعالمها

«لكن الرجل، الرجل الفخور

المزهو بسلطته القصيرة القليلة،

أجهل ما يكون بأكثر ما أكد له

جوهره الزجاجي».

وليم شكسبير William Shakespeare، مسرحية الصاع بالصاع Measure for Measure.

ترتبط فكرة المشهد المعرفي- الفضاء النفسي الذي يسكنه كل واحد منا- ارتباطًا وثيقًا بفكرة (أنفسنا)، ومثلما أننا أعضاء في مجموعات مختلفة عديدة، فإننا نعرِّف ذاتنا بأساليب مختلفة. بقي سؤالُ ما هي الذات حقيقة سؤالًا فلسفيًا مهمًّا لقرون عدة، وقد تصورها رينيه ديكارت René Descartes في التراث المسيحي على أنها ذات عقلية وحدوية، وهي وجهة نظر سميتها مجازيًّا (العقول الألماسية)[23]. تنظر الأفكار الحديثة إلى الذوات على أنها أكثر تعددية وقابلية للتغيير، وسوف أعود إلى هذا الموضوع، لكنني أكتفي الآن بالقول إن النظرة إلى الذات التي تبنيتها في هذا الكتاب تتماشى مع الخط التعددي: سأعرِّفها على أنها المجموعة الكاملة للمعتقدات كلها التي يحملها دماغ منفرد، وهذا يعني أننا نعرِّف أنفسنا جزئيًّا فقط (كعالم) أو (مواطن بريطاني)، أو أي شيء آخر، وهذا أمر مقصود؛ لأنه فضلًا عن الوقت الذي يستغرقه سرد معتقداتنا كافة، فإننا لا نريد أن ننظر إلى أنفسنا على أننا أفراد (يطرحون فضلاتهم) مثلًا، لكن العضوية في مجموعة، سواء أدركت أم لم تدرك، تكوِّن جزءًا كبيرًا من مشهدنا المعرفي، وتكوِّن المعتقدات حولها كثيرًا من ذاتنا، ولهذا مضمون مهم؛ فكلما ازدادت قيمة المجموعة بالنسبة إلينا، ازداد احتمال أن نتصرف وكأن المجموعة مكافِئة (لذاتنا)، بافتراض أن المكافآت أو الأخطار التي تواجه المجموعة تفيدنا أو تهددنا.

من بين أفضل النتائج التي توصل إليها علم النفس الاجتماعي النتائج المتعلقة (بالتحيزات التي تخدم الذات)، فنحن نُؤْثِر أنفسنا بصورة واعية عندما نعتقد أننا نستطيع النجاة من دون محاسبة، وفي كثير من الأحيان من دون وعي، سواء كنا نتشارك في الموارد أو نشرح أفعالًا، وينطبق ذلك على ما نَعُدُّه امتدادًا لنا؛ أي مجموعاتنا الداخلية المحببة لنا؛ فمثلًا نميل إلى أن نعزو نجاحنا الخاص (أو نجاح أعضاء المجموعات الداخلية) إلى عوامل داخلية (مهارتي جعلتني أحصل على الوظيفة)، في حين نعزو نجاح عضو في مجموعة خارجية إلى عوامل خارجية

(الـذي أجـرى المقابلة معـه يلعب الجولف مـع والده) ، أما حيـن يتعلق الأمر بالإخفـاق، فالقصة تكون معكوسة ((كان من أجرى المقابلة متحيزًا ضدي) ، في حين (لم يحصل هو على الوظيفة لأنـه كسـول)) . يتبـدَّى هـذا التفضيـل للمجموعة الداخلية وتشـويه سـمعة المجموعـة الخارجية بصورة واضحة جدًّا في القوة القاتلة لبعض الأحكام المسـبقة التي يمكن أن تأخذ شـكلًا متطرفًا فـي الطوائف الدينية، مع تمجيد المجموعة الداخلية بوصفها (أطفال الرب الناجين) ، وشَـيْطنةِ المجموعة الخارجية ولَعْنِها خارج نطاق الطائفة، بحيث يصبح المخالف مذنبًا يستحق الموت.

مـن الناحيـة التطورية، تعد هذه الآليات منطقية؛ إذ تقدم المجموعة جزءًا كبيرًا من البيئة المباشـرة للشـخص؛ ويشـجع تفضيـل أعضـاء المجموعـة بذلك النيات الحسـنة ويعزز تماسـك المجموعـة، وهـو مـا يعـرف بأنه «نتيجـة تضافر جميع القـوى التي تعمـل على الأعضـاء لإبقائهم منخرطيـن فـي المجموعـة»[24]. الأعضـاء الآخرون أكثـر احتمالًا أن يسـاعدوك في المسـتقبل إذا كنت قد سـاعدتهم في الماضي؛ لذلك من المنطقي تفضيلهم على أعضاء المجموعة الخارجية. بالنسـبة إلـى طائفة جيم جونز Jim Jones، كانـت المجموعة الخارجية معادية للطائفة منذ الأيام الأولـى لتطـور الطائفة، ووهب أتباع جونز Jones حياتهم له؛ ولم يكن منطقيًّا بالنسـبة إليهم هدر الوقـت والطاقـة فـي بناء جسـور مع عالم يسـعى -حسـبما كانوا يـرون- إلى تدميرهـم. كثيرًا ما يعادي النـاس الأشـخاص الذين يختلفـون معهم في أفكارهم؛ كما يبين المثـال الخيالي في رواية روبـرت هاينلايـن Robert Heinlein غريـب في أرض غريبة Stranger in a Strange Land، حيث إن اختلافات قائد الطائفة بدت مقبولة في البداية، إلا أن عدم التحمل سرعان ما انفجر.

ضغوط المجموعة

يرتبـط أفـراد المجموعـات بعضهم ببعـض بعوامل متنوعـة، من ضمن ذلك نجـاح متصور للمجموعـة فـي تحقيـق أي أهداف قد تكون وضعتها (أو أحيانًا الإخفاق في ذلك، كما يشـهد كثير من مشـجعي كرة القدم) ، هذه العوامل هي قيمة المجموعة بالنسـبة إلى أعضائها، والمدى الذي تتسـق فيـه أهـداف المجموعة مع أهداف الفـرد، والحب المتبـادل بين الأعضـاء، وقوى خارجية (المـدى الذي تتحقق فيه الأهداف الشـخصية بسـهولة أكبر خارج المجموعـة أو داخلها) [25]. بعد أن يلتزم الأعضاء بالمجموعة، يعدِّلون معتقداتهم وقيمهم لتصبح أكثر مشابهة لما لدى الأعضاء

الآخرين؛ فالخلافات تضغط على الأعصاب وتهدد فكرة التضامن، وهذا ما يؤدي من ثم إلى إحدى أكثر المشكلات شيوعًا في تفكير الطوائف الدينية: الانسلاخ عن الواقع.

يميل أعضاء الطائفة الأدنى مستوى إلى حرف معتقداتهم باتجاه معتقدات الأعضاء الأعلى مستوى، وخاصة قائد الطائفة؛ ولا يحدث العكس. إذا كانت معتقدات القائد متطابقة إلى حد بعيد مع ما هو عليه العالم في الواقع، فسوف يفيد ذلك الأعضاء الآخرين؛ إذ سيمثل مشهدهم المعرفي الواقع بصورة أكثر دقة، غير أن القادة -لسوء الطالع- كثيرًا ما يؤمنون بمعتقدات بعيدة جدًّا عن مطابقة الواقع، وتصبح أكثر تطرفًا مع تشجيع الأتباع لها. إن ولع عديد من القادة بالأفكار المجردة والغامضة، ومن ثم غير قابلة للنقض، يمكن أن يقلل كثيرًا من احتمال نجاحها في اختبار الواقع، في حين تعني السيطرة المحكمة على المحيط الذي تحيط به الطوائف أفرادها أن معظم عناصر الواقع المتاح للاختبار تقدمه بيئة المجموعة. يشاهد ذلك في ظاهرة التفكير مثل الجماعة الذي يُزعم أنه قد حدث عند إخفاق عملية خليج الخنازير المعروفة؛ إذ أدت سلسلة القرارات الكارثية التي اتخذتها حكومة الولايات المتحدة إلى تصاعد التوتر بين الولايات المتحدة وكوبا، وهو ما قاد إلى شفير حرب نووية، فقد أسهم كل من: الشخصية الكارزمية للرئيس الأمريكي جون ف. كنيدي John F. Kennedy، والطبيعة المغلقة للاجتماعات الحاسمة، والإدانات القوية المضادة لروسيا لدى صناع القرار، وأهمية الأفكار المجردة مثل (مستقبل العالم الحر)، أسهمت جميعها في وضع تقويم للحالة السياسية كان بعيدًا جدًّا عن الواقعية وعلى وشك أن يكون قاتلًا[26].

تكون الطوائف عادة متماسكة جدًّا، ويشترك أعضاؤها في عديد من المعتقدات، ويؤدون الأعمال الرتيبة والطقوس نفسها، حتى إنهم يرتدون أحيانًا اللباس نفسه. تجعل العواطف الناتجة من وضع الطائفة، والطبيعة المبسطة لكثير من عقائدها، معتقدات الطائفة بسيطة بصورة مغرية، وتجعل الضغوط قوية جدًّا للاحتفاظ بها. عندما يلتزم شخص بمعتقد ما، لا يكون التخلي عنه مريحًا في أي من الحالات؛ لأنه تخلٍّ عن جزء من هوية الشخص الخاصة، وبمواجهة عدم قبول الأصدقاء المقربين والقادة المحترمين، يمكن أن يكون الابتعاد عن الجماعة أمرًا مستحيلًا. عندما تصبح المجموعة أكثر تماسكًا، وتصبح أهميتها في حياة أعضائها أعظم، يزداد أيضًا الاختلاف بين المجموعة والعالم الخارجي، وتميل المجموعة لممارسة سيطرة حدودية مشددة على نحو متزايد لحماية نفسها من اختراق الآخرين، ويمكن أن يتضمن ذلك سلوكًا منحرفًا -مثل

تعليقـات بـاردة، أو كراهيـة الغرباء، أو العدوانيـة- تجاه أي غريب ينظر إليه على أنه تهديد، وهذا بدوره يثير عداء المجموعة الخارجية، وهو ما يعزز أكثر تماسك المجموعة نفسها.

يمكن أن تقدم العضوية في مجموعةٍ إحساسين مطمئنين: أن العضو ليس وحيدًا، وأنه ليس مسـؤولًا. يمكن في المجموعات شـديدة التماسك أن تصبح المجموعة كيانًا قائمًا بذاته له قدرته الخاصـة علـى الفعـل، التي كثيرًا ما يجسـدها القائد الـذي يتولى دور الحامـي ذي القوة الخارقة للطبيعة ويريح الفرد من الحاجة إلى اتخاذ قراراته الخاصة، يمكن أن يكون انتشار المسؤولية خلال المجموعـة واحـدًا من أخطر الظواهر في المجموعـات القوية؛ لأنه يمكن أن يخفض عتبة الأفعال العنيفـة بتخفيض القيـود الاجتماعية العاديـة (مثل الخوف من اللـوم والعقاب) التي من شـأنها عادة ردع معظم الأشـخاص. إن المعرفة النظرية بأنه يوجد أشـخاص بعيدون قد لا يوافقون على ما يعتزم المرء القيام به، مختلف تمامًا عن العيش بين أشـخاص يظهرون عدم قبولهم بوضوح. عزلت الطبيعة المغلقة لعائلة مانسون عضواتها في الواقع عن الأحاسيس المباشرة لعدم القبول، التي كنَّ يعرفن نظريًّا أنهن يمكن أن يتوقَّعن مواجهتها إذا ارتكبن جرائم. تفوقت الرسـالة الآتية من بيئتهن الخاصة على معلوماتهن المختزنة عن نظرة المجتمع إليهن بصفتهن قتلة: رسـالة أن الجرائم ستكسـبهن مصداقية اجتماعية ومكاسـب ضمن المجموعـة، وأن الضحايا المفروضين ليسوا بشرًا (وليسوا منا)، وأنهن لم يكنَّ فعليًّا، بصفتهن أفرادًا، مسؤولات عن الجرائم.

هل الطوائف الدينية شمولية؟

ناقش الفصـل الأول المعاييـر التـي وضعها الطبيب النفسـي روبرت ليفتـون Robert Lifton لتقويم كون نظامِ اعتقادٍ ما شموليًّا أم لا (انظر الجدول 1، صفحة 35)، يمكننا بوساطة استخدام هذه المعايير رؤية أن عديدًا من أخطر الطوائف الدينية يمكن وصفها بالشـمولية. السـيطرة على المحيط والتلاعب الغيبي مظهران نموذجيان، تسهلهما طقوس الطائفة، وأيضًا خاصية الانعزال الفعلـي المميـز لعديد مـن الطوائف الدينية (تعد بلدة جونز تـاون Jonestown التي تقع في أعماق أدغـال جوايانـا Guyanan jungle مثـالًا واضحًـا). تظهـر الحاجة إلـى النقاء نفسـها في عديد من الطقوس، مثـل طقوس القبـول، والانقسـام الثنائي الحـاد بين المجموعـة الداخليـة والمجموعة الخارجيـة، وتشـغل عبـادة الاعتـراف جزءًا كبيرًا مـن حياة أعضـاء طوائف دينية عـدة، ويتوافق ذلك مع الطبيعة غير القابلة للتحدي لعقائد الطوائف الدينية: العلم المقدس لدى ليفتون Lifton.

يحدث تحميل اللغة في كثير من الأحيان، كما يظهر في لمحة سريعة على أدبيات الطوائف الدينية، وكثيرًا ما يتوقع من أعضاء الطائفة أن يهبوا حياتهم إن دعت الضرورة للحفاظ على الطائفة. تترافق صدارة العقيدة عند الشخص مع سلب الوجود؛ الحق الممنوح لعديد من قادة الطوائف الدينية في تقرير مصير أتباعهم.

هل أعضاء الطوائف الدينية مغسولو الدماغ؟

تبيَّن في الفصل الأول أن لغسيل الدماغ عددًا من المظاهر: الإهانة، ووجود آلية، والرمز (فكرة تجريدية مقدسة)، أو مفهوم الملاذ الأخير. تُغوينا الطوائف الدينية التي يعرِّفها معظمنا بسهولة على أنها مجموعات خارجية، بأن نهينهم، وغالبًا ما نبحث عن التفسير السهل والكسول عندما نواجههم، مستخدمين اصطلاحًا مثل (غسيل الدماغ) الذي يدل على أنهم مختلفون، ولكننا في الحقيقة لا نفهمهم. اكتسب المصطلح نفسه (طائفة دينية) دلالات سلبية، في حين أنه توجد في الواقع أدلة على أن بعض الطوائف على الأقل توفر عضويُتها فوائد كثيرة: كتخفيض المعاناة النفسية، وتحسين الرفاهية العاطفية، وتعاطٍ أقلَّ للعقاقير، ووجبات غذائية أكثر صحية، وأنماط حياة أقل توترًا[27].

يزيد كثير من الطوائف توتر أعضائها بالمطالبة المتطرفة بتغيير نمط الحياة -كالتخلي عن متاع الحياة الدنيا على سبيل المثال- لكن الطوائف توفر أيضًا آليات تخفف الكرب؛ مثل التغذية الراجعة الإيجابية القوية من الأعضاء للآخرين في المجموعة. لوحظت في الفصل الأول أيضًا ميزات عدة كثيرًا ما توجد في حالات غسيل الدماغ المزعومة، من ضمنها استخدام العواطف، والطبيعة الغريبة للمعتقدات التي قد تُتَبَنَّى، ومن الشائع في الطوائف الدينية وجود أنظمة عقائدية لا ترتبط بالواقع، أو ليست في مصلحة المؤمن؛ فقد انتهى أتباع مانسون Manson في السجن، وأتباع جونز Jones بالانتحار، وكثيرًا ما يبدو التغيير الذي يحدث ضخمًا (قد نقرأ مثلًا عن رأسماليين ملتزمين تخلوا عن ممتلكاتهم جميعها من أجل رؤية اشتراكية فاضلة)، على الرغم من أن هذا الانطباع قد يكون سطحيًّا إذا كانت هناك حاجات أعمق غير مشبعة ترضيها عضوية الطائفة.

كثيرًا ما يزعم من هم خارج الطائفة وجود تغير في الشخصية، خلال مدة زمنية قصيرة بصورة مذهلة، وكذلك وجود صعوبات في التواصل مع الأعضاء الذين هم إما عدائيون أو لا

يقبلون الحجج. تستخدم العواطف القوية في كثير من الطوائف الدينية لزيادة التزام الأعضاء بمجموعتهم، وبعد أن تؤسس الطائفة، قد تطبق طرائق قسرية للحفاظ على الأعضاء في المجموعة (مثلما ادعى الأقارب القلقون أنه قد حصل في جونز تاون Jonestown). ولكن أعضاء الطائفة -وفق ما يرى مارك جالانتر Marc Galanter- لا يتبنون دائمًا وجهات نظر الطائفة المخالفة لإرادتهم: في الواقع، «يجب إبقاء الاتصال في التحولات الطوعية بطرائق خفية (أو مخادعة)، من دون إكراه الفرد على الالتزام بوجهات نظر المجموعة»، وكما لوحظ سابقًا، تختلف الطوائف الدينية بعضها عن بعض اختلافًا كبيرًا، فيستخدم بعضها الإكراه، وبعضها الخداع، ويستخدم بعضها الآخر ببساطة تلبية احتياجات أناس معينين، ويعكس معظمها شخصيات قادتها إلى حد ما، ويزيد القائد المصاب أكثر بوسواس الاضطهاد -على سبيل المثال- من خطر أن تصبح الطائفة الدينية خطِرة.

ماذا عن الأمور التقنية: غسيل الدماغ بوصفه آلية؟ لقد رأينا أن كثيرًا من المظاهر الأكثر رعبًا للطوائف الدينية يمكن دراستها بالبحوث النفسية الاجتماعية على تماسك المجموعة، والترابط العاطفي، وانتشار المسؤولية. يبدو أنه لا توجد آلية معينة تسمى (غسيل الدماغ) منفصلة عن تلك العمليات النفسية الأخرى، وهذا يعني أن أنماط القوى التي تعمل في الطوائف الدينية المتطرفة، مثل عائلة مانسون Manson وجونز تاون Jonestown، أشد من تلك التي يمكن أن توجد في كثير من المجموعات البشرية الأخرى. إن المعتقدات بالمجموعات جزء من معتقدات الشخص عن نفسه، فكلما زادت أهمية المجموعة، فإنها تشغل مساحة أكبر في المشهد المعرفي للشخص. إن أمثال هذه المشاهد المعرفية موارد محدودة؛ فحتى أكثر النفوس عريكة (صلابة) وجودة في التطوير تبقى ثروة محدودة، وهذا يعني أنه مع سيطرة المجموعة أكثر فأكثر على الذات، يقل تمييز الأعضاء لأنفسهم شيئًا فشيئًا على أنهم كائنات مستقلة، وعندما تصبح المجموعة هي كل ما يهم، وعندما تنتثر المسؤولية الشخصية في المجموعة، يمكن أن يحقق القائد عندئذ مستوى من السيطرة الشمولية جديرًا بلقب الأخ الكبير، فلا شيء سحري حول كيفية حدوث ذلك؛ وُصف الهجوم النووي على هيروشيما بمصطلحات مرعبة وحتى دينية من قبل أولئك المعنيين (رد الفعل الشهير لروبرت أوبنهايمر Robert Oppenheimer -«لقد أصبح الموت، مدمر العالم»- مقتبس من الباهاجافاد جيتا Bhagavad Gita - أغنية المبارك، وهو نص مقدس في الديانة الهندوسية)[28]، مع ذلك كانت التأثيرات قابلة للتوقع -وقد توقَّعها العلماء- من قبل علماء الفيزياء الذين قدموا لنا الطاقة الذرية، فليس هناك سحر في قنبلة

هيروشيما Hiroshima؛ فهي تتبع قوانين الفيزياء، كما أنه لم يكن هناك سحر في الهواء في جونز تاون Jonestown.

أما فيما يتعلق بالجانب الرمزي لغسيل الدماغ؛ حلم التحكم، فإننا بالتأكيد نرى ذلك ماثلًا في عديد من الطوائف؛ فعندما تحين نهاية العالم فالطائفة هي من سيبقى ويرث التوزيع الجديد؛ وسيموت باقي العالم، أو يستعبد في أحسن الأحوال، وأما فيما يتعلق بالحاضر، فإن قائد الطائفة يصر عادة على السيطرة الشديدة المتزايدة على حياة أعضائها، مشجعًا إياهم في كثير من الأحيان على الإشارة إليه بوصفه إلهًا أو ممثل الإله على الأرض، وبالفعل تعد هذه النزعة نحو (زحف السيطرة) خاصة مميزة للأنظمة الدينية والسياسية، وكذلك لأكثر الطوائف الدينية عنفًا وتدميرًا لذاتها[29]. باختصار، إن غسيل الدماغ بوصفه طريقة نفسية غامضة أمر فائض عن المطلوب عندما نريد أن نوضح أمر الطوائف الدينية، ومن ناحية أخرى يصبح لغسيل الدماغ صلة إذا تحدثنا عن وهم التحكم.

ما الذي يُحوِّل بعض المجموعات إلى مجموعات شريرة؟

«أنا لا أثق بمن لا يمكن التواصل معه؛ فهو مصدر العنف جميعه».

جان بول سارتر Jean–Paul Sartre، ما الأدب؟

تشير الأمثلة التي نوقشت سابقًا إلى عدد من العوامل التي تسهم في أن تصبح مجموعة ما خطِرة على نفسها وعلى الآخرين، وأحد هذه العوامل هو الانعزال؛ النفسي أو المادي. لا يجعل الافتقار إلى التغذية الراجعة من العالم الخارجي أعضاء المجموعة يجنحون إلى الانحراف في معاييرهم الأخلاقية صعبًا فحسب، بل يزيد أيضًا إحساسهم بالتهديد؛ فكما يعلم أي طفل، ملء فراغ غرفة مظلمة بالرعب أسهل من ملئها به عندما يكون الضوء منيرًا وجميع محتوياتها مرئية. بالنسبة إلى المجموعات الخطرة، يمكن أن يبدو التهديد من قبل العالم الخارجي للجماعة ذاتها مجتمعة هائلًا، وكما تظهر حالة جونز تاون Jonestown، فوسواس الاضطهاد هذا ليس دائمًا من دون مسوغ بالكامل؛ فقد يكون أعداء الجماعة المفترضين أحيانًا قادمين فعلًا للنيل منها.

حجم المجموعة مهم أيضًا؛ فبالنسبة إلى البشر يبدو أن استحواذ المجموعة على أكثر من 150 عضوًا هو نقطة تحول، ويشير روبن دنبار Robin Dunbar إلى أنه «عند هذا الحجم يمكن

تطبيق القوانين والسيطرة على السلوك الجامح على أساس من الولاءات الشخصية والاتصالات المباشرة وجهًا لوجه، ولكن يصبح هذا الأمر مستحيلًا في المجموعات الكبيرة»[30]. يبدو أنه «عندما يزيد المجتمع على 150 شخصًا، فإنه يصبح من الأصعب بصورة متزايدة التحكم في أعضائه بوساطة ضغط الأقران فقط»، وبدلًا من ذلك، يجب تطبيق نظام إدارة هرمي رسمي، وإلا فإن المجموعة ستنقسم إلى مجموعات فرعية متنافسة، وتفقد تماسكها الكلي، ومن ثَم فإن المجموعات الصغيرة أكثر احتمالًا لأن تتصرف في معتقداتها بطرائق ضارة، كما عرف الإرهابيون من شتى الاتجاهات السياسية منذ سنوات. بُني كثير من الحركات الدينية والسياسية على شكل (نيازك اجتماعية): مجموعة لبية صغيرة من المؤمنين المخلصين يسحبون خلفهم غمامة من الأتباع الأقل التزامًا (حملات حقوق الحيوان والرفق به مثال على ذلك). يدل ذلك على أن الترياق لسم المجموعة الصغيرة هو ببساطة زيادة أعدادها، والأمل في أن يحل الاقتتال الداخلي المشكلة، غير أنه لسوء الطالع، ما يحصل عادة هو أن المجموعة تنقسم فعلًا، ولكن إلى مجموعات فرعية وأحيانًا أكثر سمِّيَّة.

العامل الآخر المهم هو نوع الأفكار التي تتبناها مثل هذه الجماعات في كثير من الأحيان، إذ تميل أهدافها وشياطينها إلى أن تكون تجريدية مقدسة، ومن ثم مثقلة بالقيم، وبارتباطها بعواطف قوية فإنها تسهِّل الالتزام، وكذلك فهي تدعم إحساس المجموعة بالتفوق، حيث إنها ناجية في حين أن جميع من حولها ملعونون، ومع ذلك يترافق هذا الشعور بالامتياز مع إدراك حي بالتهديد الكامن في كونها نقطة ضوء صغيرة وسط بحر من الظلمات (في الفصل الخامس سيظهر مرة أخرى هذا المزيج الخطِر من التقدير العالي والتهديد لهذا التقدير، عندما نبحث خصائص المجرمين الذين يلجؤون بسهولة إلى الاعتداء الجسدي)، ويساعد هذا الإحساس بالتهديد على ترابط المجموعة أكثر.

نعود إلى الدين والسياسة، حيث كثير من مفاهيمهما الجوهرية مقدسة، مصممة مثاليًّا لرفع الحرارة العاطفية للمؤمنين بها، تتكيف العديد من المجموعات التي تكون مفاهيمها المحورية مقدسة، لرفع درجة حرارة العواطف لدى المؤمنين بها، وربما يكون هذا هو السبب في ارتباط الأعمال الوحشية في كثير من الأحيان بدوافع دينية أو سياسية، لكن الخطورة تكمن في الطبيعة المجردة والغامضة، وليس في محتواها المعين. كثيرًا ما يدين الملحدون الملتزمون الدينَ لأنه السبب في قتل أعداد كبيرة من الناس، ويستشهدون بالحروب الدينية والإرهاب الأصول[31]، لكن

أسوأ جرائم القتل في تاريخ الإنسان التي ألحقت العار بالقرن العشرين، قد غذَّتها معتقدات اشتهرت بمحتواها الإلحادي؛ فقد شهد عهد جوزيف ستالين Joseph Stalin المرعب قمعًا على نطاق واسع للمؤسسات الدينية، فضلًا عن مقتل الملايين، والثورة الثقافية التي قدِّر عدد قتلاها بعشرات الملايين، قادها ملحد هو ماو تسي تونغ Mao Tse-Tung؛ ويتذكر الناس الخمير الحمر في كمبوديا Khmer Rouge بسبب حقول القتل التي كانت لديهم، وليس بسبب عقيدتهم.[32] أي دين يحمل في وجدانه هذا الكم من الدماء؟ كانت هذه المذاهب الفكرية النازية، والسوفييتية، والصينية، والشيوعية الكمبودية، قاتلة على الأقل جزئيًّا، لأن أفكارها كانت تجريدية مقدسة، وليس لأن هذه الأفكار كانت (إلحادية) أو (دينية)[33]، وينطبق هذا الجدل نفسه على السياسة، فتلك المذاهب الفكرية (مجموعات، أفرادًا) التي تعتمد على الأفكار الغيبية المجردة، ومن ثم تسهِّل التفكير الشمولي، أكثر خطورة من تلك التي لا تعتمد على مثل هذه الأفكار.

الخلاصة والاستنتاجات

المجموعات مظهر أساسي للوجود الإنساني، وكثيرًا ما تفيد أعضاءها وتريحهم؛ فيمكن أحيانًا أن تقدم العضوية في طائفة دينية ما في الغرب، على الرغم من تبنيها طريقة حياة مختلفة تمامًا عن المحيط الرأسمالي، فوائد كبيرة لكل من الصحة النفسية والصحة الجسمية، بحيث تكاد تبدو اختيارًا منطقيًّا، وترياقًا صالحًا للرأسمالية.

لكن حقيقة تبني الطوائف الدينية روايات مختلفة عن المجتمعات التي تعيش فيها تتحدى افتراضات تلك المجتمعات، وتحرِّض ما يمكن أن يكون عدائية متطرفة، خاصة لدى أقارب أعضاء الطائفة الدينية. أوجدت الحركة المضادة للطوائف مصطلح غسيل الدماغ، وبتلويثه منذ ولادته بنتانة دعائية، صار عصا نافعة لضرب أعدائها.

لا تخلو مخاوف الحركات المضادة للطوائف الدينية من بعض المسوغات؛ إذ يمكن أن تصبح المجموعات أحيانًا، خاصة الصغيرة منها، خطِرة جدًّا، ويمكن أن يحدث ذلك خاصة عندما تكون متماسكة جدًّا، وعندما تكون عضوية المجموعة مهمة جدًّا للأعضاء الأفراد (ربما بسبب اضطهاد تخيلي أو فعلي من قبل المجموعة الخارجية)، وعندما تقترن الأفكار المجردة، غير القابلة للطعن، بالعواطف القوية جدًّا. ولما كانت الأفكار المجردة الغامضة، والعواطف

القويـة، تميز أنظمة الاعتقاد الدينية والسياسـية، فإنهـا ترتبط غالبًا بالمجموعات الخطرة؛ تلك التي يكون أعضاؤها مستعدين لمهاجمة أعضاء المجموعات الخارجية أو قتلهم.

كثيـرًا مـا تُظهِـر مثل هـذه المجموعات فكرًا شـموليًّا، وتسـتخدم عـددًا مـن الآليات لجذب أعضـاء جـدد والحفاظ عليهـم، ويمكن أن يكون بعض هذه الآليات قسـريًّا بوضوح شـديد، بحيث تستجذب تسمية غسيل الدماغ، لكنها كلها تبدو قابلة للتفسير بمفردات نفسية اجتماعية. وتكشف النظرة الفاحصة في كثير من الأحيان وجود آليات عمل مميزة للمجموعة، وتوضح الطريقة التي من خلالها تلبي العضوية في مثل هذه الطوائف الدينية أعمق احتياجات كل من القادة والأتباع.

سـوف ننظـر فـي الفصول اللاحقة إلـى الطرائق التـي يمكن من خلالها تقليـل أخطار هذه المجموعـات، وسـوف نبحـث بالتفصيل الخصائص التي تجعل من بعض الأشـخاص قادة وتجعل الآخريـن أتباعًـا؛ وسـوف نعـود إلى حلم التحكـم، لكن سـننظر أولًا في مزاعم غسـيل الدماغ في حالتين أكثر شيوعًا في الواقع: الإعلانات ووسائل الإعلام، والتعليم.

الفصل الثالث

قوة الإقناع

«لا يوجد شيء غير قابل أبدًا للتصديق لا يمكن أن يجعله فن الخطابة مقبولًا».

ماركوس توليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero، المفارقات الرواقية، The Stoic Paradoxes.

رأينا في الفصل الأول كيف يمكن أن يكون غسيل الدماغ مكثفًا، وشخصيًّا، ومؤلمًا، ومرعبًا عندما تستخدم القوة في السعي إلى السية على الفكر، كما يحصل مثلًا في بعض الطوائف الدينية، ولكن يُزعَم أن غسيل الدماغ يحصل في مجالين مختلفين تمامًا من النشاط الإنساني: الإعلان ووسائل الإعلام، والتعليم.

كلا هذين المجالين يسعى لتغيير العقول، ولكن لأسباب مختلفة، ويعتقد أن كلًّا منهما يستخدم قوة كبيرة، ولكنهما- خلافًا لغسيل الدماغ بالقوة- يطبقان أساليب أقل قسرية، معتمدين بدلًا من ذلك على أشكال أكثر خفية من الإقناع، وكلاهما مؤطر ضمن مجموعة، ويبث مجموعة من الاعتقادات عن العالم؛ أي إنه فكر مذهبي، ويحدد ذلك الفكر المذهبي الأدوار الاجتماعية للأفراد بوصفهم تابعين للدولة، وتعلِّمهم أماكنهم المناسبة في الوضع الراهن. قد لا يُذكر هذا الفكر المذهبي نفسه صراحة، وقد لا يعي الأفراد الذين يقدمون الإعلانات أو يعطون الدروس على الإطلاق أنهم يعززون اعتقادات معينة، لكن الرسالة الضمنية أقوى بكثير لأنها خفية.

بعبارة أخرى، إن التعليم ووسائل الإعلام جزء مما أسماه الفيلسوف الماركسي لويس ألثوسير Louis Althusser (الجهاز الفكري المذهبي) للدولة؛ فهما يحافظان ويعيدان إنتاج (يغرسان في الأعضاء الأصغر سنًّا) اعتقادات أولئك الذين يسيطرون على الدولة. قد تستخدم أجهزة الفكر المذهبي القوة، أو التسلل، أو كلًّا منهما في فرض رسائلها؛ لا تتوافر للإعلان والتعليم -على سبيل المثال- موارد للإكراه مقارنة بغسيل الدماغ بالقوة، فهل يغسلان الأدمغة بالانسلال، أم أنهما لا يغسلان الأدمغة على الإطلاق؟ للإجابة عن هذه التهمة يتعين علينا النظر إلى كل منهما على حدة.

الإعلانات ووسائل الإعلام

«يمكن وصف الإعلان بأنه علم احتجاز ذكاء الإنسان مدة تكفي للحصول منه على المال».

ستيفن ليكوك Stephen Leacock، حديقة الحماقة، (موظف المبيعات المثالي).

لـم تعـد السـلالات الحاكمـة رائجـة في الغـرب، ويفترض أن القرن العشـرين كان سـيؤكد المساواة والجدارة بدل الوراثة، وقوةَ الجماهير، ولكن حتى في الوقت الذي كانت تنهار فيه بعض السلالات الحاكمة القديمة كانت هناك سلالات جديدة قيد التشكل، وقد حدد اثنان من أعضائها بينهما كثيرًا من صورة ذلك القرن، ويستمر تأثيرهما في القرن التالي. قدم لنا سيغموند فرويد Sigmund Freud نظريـة الجنـس الحديـث، فـي حين قدم لنـا ابن شـقيقته إدوارد بارنيز Edward Bernays الإعلان الحديث. لن أقدم في هذا الكتاب تاريخ الإعلانات، ولا تحليلًا مفصلًا للتقنيات التي يسـتخدمها المعلنون لإغوائنا بشـراء منتجاتهم[1]، وعوضًا عن ذلك، سوف أنظر إلى أساليب الإقناع التي يسـتخدمها موظفو المبيعات، والحكومات، ومحترفو المطاوعة -وهو ما أسـماه عالم علم النفس الاجتماعي روبرت شـيالديني Robert Cialdini (أسـلحة التأثير)- لإلقاء الضوء على مزاعم غسيل الدماغ.

صنَّف شـيالديني في كتابه التأثير Influence خطط الإقناع في سـتة أنواع من أسلحة التأثير (فضلًا عن التوسل المكشوف لتحقيق المصلحة الذاتية الذي يعده بديهيًّا).

السـلاح الأول: تسـتفيد مصائـد الالتزام والثبـات على الأمر من حقيقة أننـا نفضل الظهور بمظهـر الثابـت تجاه أنفسـنا؛ لـذا فإذا أمكن إقناعنـا بتقديم التزام صغيـر، فالاحتمال كبير بأن نتبعه بالتزام أكبر، قد لا نود حقيقة أن نلتزمه، إذا كان الالتزام الأكبر متسقًا مع سابقه الأصغر. يعطـي شـيالديني مثالًا عن ذلك بالمكالمات الهاتفية التي تُلتَمس للجمعيـات الخيرية، حيث يبدأ المتحدث مكالمته بالسـؤال عن صحتك، وهو لا يقصد من هذه المقدمة مجرد الظهور بأنه ودود ومهتـم؛ بـل يريد الحصول على اسـتجابتك المهذبة والسـطحية-كما تسـتجيب عادة مع مثل هذه الأسـئلة المهذبـة والسـطحية-: «أنـا بخيـر»، أو «حقيقة بخيـر»، أو «أنا بأفضل حال، شـكرًا لك»، وحالما تصرح علنًا أن كل شيء على ما يرام، يصبح من الأسهل بكثير على الملتمس أن يحرجك لمساعدة أولئك الذين ليست أمورهم على ما يرام، «أظهرت الاختبارات على النظرية المتضمَّنة،

أن الأشـخاص الذين يقرون بحالتهم الجيدة يجدون أنه من الصعب أن يظهروا بُخَلاءَ في سـياق ظروفهم المفضلة التي أقروا بها»، إن هذه الطريقة فاعلة جدًّا.

يَسـتخدم السـلاح الثاني من أسـلحة التأثير مبدأ التبادلية: ميلنا إلى الشعور بأننا شاكرون للشـخص الـذي يقـدم لنـا شـيئًا، مهمـا كانـت الهدية تافهـة أو غيـر مرغـوب فيهـا. يتركنا ذلك عرضـة للاقتنـاع من قبل المانح، وللتخلص من شـعور الالتزام هـذا، قد نوافق على إعطائه هدية أكبـر بكثيـر مـن تلك التي تلقيناهـا. هنـاك مثال ناقشـه أيضًا عالمان في علم النفس الاجتماعي همـا أنتونـي براتكانيس Anthony Pratkanis وإليوت آرونسـون Elliot Aronson فـي كتابهما **عصر الدعاية** The Age of Propaganda هـو حركـة هير كريشـنا Hare Krishna، (هي حركة دينية تعبد الإلـه الهندوسـي كريشـنا)، التي نجحـت في زيادة الإيـرادات المتراجعة من خـلال جعل أتباعها يقدمون أولًا زهرة لأي شخص يطلبون منه التبرع.

يعتمد سـلاحان آخران من أسـلحة التأثير المستخدمان على نطاق واسع على سلطة المُقنِع ومحبوبيتـه. المثال على اسـتخدام السـلطة هو اسـتعمال ممثلي التلفاز الذين يـؤدون دور الأطباء (من دون أن تكون لديهم مؤهلات طبية) لينصحوا باستخدام منتجات طبية، إن سلطتهم وهمية لكنهم ينشـطون المبيعات (سـوف أعود إلى موضوع السـلطة في الفصل الرابع). أما المثال على المحبوبية فهو استخدام نجوم السينما، والرياضيين، والابتسامات الكبيرة لترويج أي منتج كان.

يطبـق السـلاحان الأخيران من أسـلحة تأثيـر شـيالديني Cialdini مبدأَي النـدرة و«الدليل الاجتماعي»، يسـتفيد المبدأ الأول من شـعورنا الغريزي بأنه إذا كان الشـيء نادرًا فيجب أن يكون ثمينًـا بالحـد المصطنـع من وفرته، أو تأكيـد ندرة المنتج (طبعة محدودة، اشـترِ الآن والمخزون لا يزال موجودًا،...إلخ)، ويعني مبدأ الدليل الاجتماعي أننا بدلًا من التفكير في الأمور بأنفسـنا، نتبـع الجمهور فحسـب، انطلاقًا من الافتراض بأن الأشـخاص المندفعيـن الكثيرين جدًّا لا يمكن أن يكونوا مخطئين، وعلى الرغم من بعض حالات الإخفاق الكارثية (تاريخ أسـواق تبادل الأوراق الماليـة الغربيـة غنـي بالأمثلة) فـإن هذا الافتراض كثيـرًا ما يعمل جيدًا، كما هـو واقع الحال في الافتراضات التي تتضمنها أسـلحة التأثير الخمس الأخرى، لقد طُوِّرت لهذا السبب: للاستدلال، وهـو مـا يوفـر علينا الوقت والجهد فـي التفكير. في بعض الأحيان، عندما نكـون محفزين بصورة كافية، نتوقف ونفكر في التأثيرات التي واجهتنا، وعندما لا نفعل ذلك نكون عرضة للاستغلال.

يعطي قاموس مريام -وبستر Merriam–Webster Dictionary تعريفين لغسيل الدماغ؛ الأول يشبه تعريف قاموس أكسفورد الإنجليزي Oxford English Dictionary الذي ذُكر في الفصل الأول، وهو: «التلقين القسري لحث شخص ما على التخلي عن معتقدات ومواقف أساسية سياسية، أو اجتماعية، أو دينية، وقبول أفكار مضادة ممنهجة بصرامة». أما التعريف الثاني فهو: «الإقناع من خلال الدعاية أو فن البيع». الشيء المشترك مع التعريف الأول هو استخدام الضغوط لإبطال قدرة الضحية على التفكير المنطقي في موقفه أو معتقداته، وهذا الإلغاء للمنطق هو ما يهدف إليه الإعلان الجيد. الإخفاق هو إعطاء الشخص الوقت والحيز لأن يفكر «نعم، إنه جميل جدًّا، لكني لا أريد ذلك المنتج، أو لا أحتاجه»، لذلك سيحاول الإعلان الوصول مباشرة إلى العواطف، على أمل تجاوز هذا النهج الأكثر منطقية للرسالة المقدَّمة. كثيرًا ما تكون المقاربة هي إثارة مشاعر سلبية (الشعور بالذنب، القلق) وبعدها تقديم شراء المنتج على أنه الطريقة الوحيدة، أو الأكثر سهولة، للتخلص من ذلك الشعور. بدلًا عن ذلك، قد يرتبط المنتج بعاطفة إيجابية، بتشجيع الافتراض بأن شراءه سيقود إلى مشاعر لطيفة، وقد تستخدم الموسيقى العالية، والألوان الزاهية، والإيقاع السريع لتثني عن التحليل الناقد للإعلان بصرف انتباه المشاهد عن حقيقة أن ما يشاهده هو مجرد إعلان، طريقة لبيع منتج. تَستخدم الإعلانات الأكثر تطورًا الفكاهة معززًا إيجابيًّا: إضحاك الناس طريقة رائعة لجعلهم يتعاطفون مع موقفك. بصرف النظر عن الطريقة، فالهدف هو نفسه: لا تفكر في منتجنا (وإلا فقد تقرر أنك لا تريده)، فقط استوعب الرسالة بأن الحصول على منتجنا سيحسن نمط حياتك.

هل يشكل استغلال عواطفنا، وكسلنا، غسيلَ دماغ؟ كما ذكرت سابقًا، فالقوة ليست دائمًا خيارًا في الإعلان، وأقرب ما يستطيع معظم المُعلنون استخدامه من القوة هو التغطية الشاملة لمنتجاتهم، لكن ذلك يختلف عن وجود جمهور مأسور، فالمشاهد- مبدئيًّا على الأقل- حر في تغيير القناة، أو تجاهل المنشور، أو النهوض وتحضير كوب من الشاي، وهو ما يفعله كثير من الناس، وقد تنخفض درجة الحرية حسب الوسط الإعلامي المستخدم (فمثلًا من الصعب تجنب اللوحات الإعلانية على الطرقات)، لكنه لا يوجد إكراه علني سواء للنظر أو الشراء.

كثيرًا ما يصوَّر غسيل الدماغ في الروايات على أنه تعذيب قسري، لكن مفهومه الجوهري، وهو التغيير التلاعبي المقصود للتغيير، لا يتطلب بالضرورة القوة، فالإعلان ليس قسريًّا، لكنه محاولة مقصودة لتغيير العقول. لا تشجع الشركات منتجاتها بطريق المصادفة، وهدفها

المبدئـي هـو زيادة أرباحها بأخذ الأموال من الزبائن. تدعي الشـركات في كثير من الأحيان أنها قد حددت احتياجات لمنتجاتها، وهي ببسـاطة تسـد هذه الاحتياجات، ومن ينكر أنه يجب تحقيق هذه الاحتياجات؟

لكـن يجـب أن نشـكك فـي انفجـار الاحتياجات هـذا؛ إن قـدرة أدمغتنا على ربـط العواطف القوية بالأفكار المجردة تعني أنه من السهل نسبيًّا ربط منتج ما مع رغبة أساسية. الحاجة ليست إلى المنتج خاصة، وإنما إلى تحقيق هذه الرغبة الأساسية؛ لكننا نتقبل المنتج بوصفه وسيطًا في ذلك. (ثم نتسـاءل لماذا، عندما نعود بالمنتج إلى بيوتنا، قد نشـعر بخيبة أمل غامضة). هناك مثال تقليدي، وهو أكثر ندرة في الإعلانات السـائدة حاليًّا، يتمثل في طريقة المبيعات التي تروج لبعض السـيارات برسـم صور فاضحة على غطاء محرك السيارة (حيث كان يفترض أن الجمهور المسـتهدف من الذكور الطبيعيين جنسـيًّا). إن السـيارات آلات لنقل الأشـخاص بصورة مريحة وملائمة من النقطة أ إلى ب؛ ومعظمها متشابهة إلى حد كبير في تصميمها وبنائها، ووجود صور فاضحة على مقدمة السـيارة قد يخدش الدهان ولن يفيد في شـيء النظام الديناميكي الهوائي للسـيارة، بالطبـع ليس من المحتمل أن يجد المشـتري التـوَّاق فعلًا مثل هذه النسـخة التي عليها الصـور من السـيارة في صالـة العرض المحلية، إلا أن المعلنين يفترضون أن زبائنهم سـيربطون بيـن قطعـة معينة مـن المعدن والبلاسـتيك مـع بالرغبـة، فالمضمون واضح: شـراء هـذا المنتج سيشبع تلك الرغبة ويحسن حياتك العاطفية. يجتمع فرويد وبيرنيس -في عناق شيطاني، كما قد يقول بعضهم- في مثل هذا الإعلان التجاري.

لا يقتصـر الربـط بيـن الإعلانـات وتحقيـق الرغبـات الموعـودة، بالتأكيـد، علـى الرغبات الأساسية، فيمكن اختلاق احتياجات جديدة، خلافًا للمنتجات الوسيطة. وفي الواقع، يجعلنا عدد الاحتياجـات الجديـدة للإنسـان التي يبدو أنها حددت في القرن العشـرين نطمئـن على الأقل إلى أن إبـداع الإنسـان لايـزال حيًّا وبحالة جيدة. أحـد الأمثلة الذي وجدته شـركات معينة مفيدًا جدًّا عبر السنوات، هو الرغبة البيولوجية: الإدمان، إذ لا يولد البشر، ما لم يكونوا سيئي الحظ للغاية، باحتياجـات بيولوجيـة إلى النيكوتين، أو الأفيون، أو مواد الإدمـان الأخرى، لكن تناول هذه المواد يمكن أن يفقد كيمياء الجسم الحيوية توازنها، فتنتج حاجة (لإعادة التوازن) لم تكن موجودة من قبل، وفي هذه الحالة لا تعد المنتجات المبيعة وسـائط؛ إنها تشـبع مباشـرة احتياجات المدمن،

وقد ساعدت قوة هذه الاحتياجات والسهولة التي يتطور بها الإدمان على جعل هذه المنتجات مربحة جدًّا.

تهدف الإعلانات بالتأكيد إلى تغيير المعتقد؛ إذ يريد المعلن تغيير مشهدك المعرفي بحيث تستبدل باللامبالاة، أو بالفتور، أو بالجهل الكلي بالعلامة التجارية (س)، موقفًا أكثر إيجابية تجاهها. في الحالة المثالية، سوف تهرع خارجًا وتشتري ذلك الشيء بأسرع وقت ممكن، أما واقعيًّا فربما تكون أكثر قبولًا لشرائه في المرة القادمة التي تراه فيها في المتجر؛ ربما تختاره بدلًا من المنتج (ع)، أو ربما (تعطيه فرصة محاولة). نظريًّا، يغير الإعلان الناجح المعتقد خلال مدة زمنية قصيرة جدًّا، وهو ما يجعلك تتبنى بوعي أو من دون وعي وجهة النظر بأن الحصول على المنتج سيشبع حاجة لديك، وقد لا يكون لهذا الاعتقاد صلة بالواقع (كم حسَّن فعلًا شراء تلك السيارة الجديدة حياتك العاطفية؟) ويكون مضرًّا جدًّا برصيد حسابك المصرفي، لكن من النادر لإعلان، حتى لو كان ناجحًا، أن يغير أكثر من عدد قليل من المعتقدات، وليس هناك -على ما أعلم- حالة مسجلة بأن شخصًا ما شاهد إعلانًا فانبثق عنه بشخصية مختلفة؛ لذلك فإن التأثيرات العالمية في المشهد المعرفي التي وصفت في حالات غسيل الدماغ لا تجاريها قوة الإعلان: نحن نتحدث عن تآكل وليس عن زلزال.

لكن الذين يصفون الإعلان بأنه غسيل دماغ، لا ينوون عادة الاستفراد بإعلانات معينة، وبدلًا من ذلك يستنكرون التأثير التراكمي لعدد كبير من الإعلانات في بيئتنا الثقافية على طول مدة زمنية. تساق الحجة نفسها حول العنف في التلفاز، والسينما، ووسائل الإعلام الإخبارية، فلا توجد جريمة قتل ملطخة بالدماء وحدها يمكن أن تكون مسؤولة عن إضعاف مشاعر الشباب الحديث، ولا يوجد إعلان واحد عن السكاكر مسؤول عن زيادة الوزن، ولكن يمكن أن يكون الأثر الكلي للعنف المرئي كبيرًا، فهل هذا الادعاء صحيح؟

توجد في الواقع أدلة كثيرة على أن نماذج وسائل الإعلام الواسعة عن العالم الذي نعيش فيه لها تأثير كبير فينا، وهذه التصاوير للحياة الواقعية التي يمكن -شأنها شأن نظرة الطوائف الدينية للواقع- ألا تشبه إلا قليلًا الواقع الحقيقي، قد ترسم شكل سلوكنا بطرائق قد لا ندركها، فقد أظهرت الدراسات في بريطانيا والولايات المتحدة باستمرار -على سبيل المثال- خوفًا من الجريمة لا يتناسب مع الأخطار الحقيقية لكون المرء ضحية، لكنه يعكس نسبة الاهتمام التي تخصصها وسائل الإعلام للجريمة. تقدِّم برامج التلفاز صورًا مشوهة جدًّا عن الواقع، ووفق ما

أشار براتكانيس وأرونسون Pratkanis and Aronson في كتابهما عصر الدعاية، فإن عدد الأشخاص المتصفين بالجمال في عالم التلفاز أكثر بكثير منهم في الحياة الحقيقية، وكذلك الأطباء والمحامين، في حين أن نماذج القدوة الإيجابية من العلماء، أو المسنين، أو المعاقين، أو الأقليات العرقية، أقل شيوعًا بكثير. نظن جميعًا أننا نعرف أن ذلك ليس حقيقيًّا، لكن الدراسات الأمريكية أظهرت بوضوح أن الأشخاص الذين يشاهدون التلفاز أكثر، يكون لديهم نظرة إلى العالم أكثر تشويهًا وعنصرية من أولئك الذين يشاهدون التلفاز أقل، ومن ثم فيمكن أن يؤثر التلفاز في السلوك وكذلك في المواقف[2].

يعيدنا هذا مرة أخرى إلى المناقشة في الفصل الأول حول غسيل الدماغ بوصفه طريقة لتغيير المعتقد، وعلى وجه التحديد ملاحظة أن خبراء التأثير يعتمدون حتى اليوم على الأساليب غير المباشرة في تغيير المعتقدات؛ عن طريق تغيير بيئات الضحايا، وقد لا يكون نقاد الإعلان مهتمين كثيرًا بالقوة الغامضة -والوهمية- لإعلان واحد، فلا توجد آلية ساحرة يمكنها أن تجعل كل من يشاهد إطراء إعلانيًّا للعلامة التجارية (س) يطوف الأرض غير راض إلى أن يحصل عليها، ولا تُعزى حقيقةُ تصرف بعض الأشخاص أحيانًا وكأن منتجًا معينًا فقط هو الذي سيحول حياتهم كاملة (زر متجر ألعاب مباشرة قبل أعياد الميلاد إن كنت تشك بهذا) إلى السحر، وإنما إلى قوة أحد أسلحة التأثير التي ذكرها شيالديني Cialdini (في حالة محلات الألعاب تكون الندرةَ المحققة بالتقليل المتعمد للمخزون). ولا يبدو أن ما يزعج النقاد هو فكرة أن التأثيرات البيئية للإعلان ووسائل الإعلام تشكل عقولنا بطرائق خفية لا نستطيع إدراكها، فيمكننا اختيار أي من مئات المجلات من المتجر المحلي، لكننا نادرًا ما نتوقف لنتساءل: لماذا تحوي هذه المجلات الكثير عن الجاذبية الجسدية؟ لماذا لا تمثل الوجوه التي تغطي أغلفتها أبدًا القراء؟ لماذا تغطى موضوعات معينة بالتفصيل وتُتجاهل موضوعات أخرى بالكامل؟ ثمة شخص ما يتخذ هذه القرارات، ويتخذها وهو يفكر بالفوائد، لكنه بالتأكيد ليس نحن.

بمعنى آخر، يتخوف النقاد من أنه قد تكون الإعلانات ووسائل الإعلام مساهمةً في انغماسنا في بيئة أصبحت في الواقع محط تلاعب على نحو متزايد. ثمة شخص ما (أو أشخاص) -وسائل الإعلام، الحكومة، مصدر القلق الذي تختاره[3]- يضع لنا جدول أعمالنا، ولا يملي علينا كيف نفكر فحسب، بل أيضًا ما نفكر فيه. لنقتبس مرة أخرى من براتكانيس وأرونسون Pratkanis and Aronson:

«انظر في شخص ما يشاهد التلفاز ويرى مرارًا إعلانات تجارية متنافسة تمتدح فضائل سيارات الفورد وفضائل سيارات الشيفروليه؛ من غير المرجح (في معظم الحالات) أن أي إعلان سيجعله يتحول في تفضيله سيارةً إلى أخرى، لكنه من المرجح جدًّا أن هذه الجرعة الثقيلة من إعلانات السيارات ستقود ذلك الشخص إلى الرغبة في سيارة، وأن يعطي أهمية قليلة لوسائل النقل البديلة». تشحن مثل هذه الجرعات الشخص بنوع من المعايير من المرجح أن يحتكم إليها عندما يريد شراء سيارة، وتنطبق مثل هذه المعايير جيدًا على الطرق المفتوحة غير الواقعية التي تظهر في عديد من إعلانات السيارات، لكن قد لا يكون لها تطبيق مشابه لدى الازدحام المروري الذي يواجهه على الأغلب سائقو السيارات. يضيف كل من أمثال هذه الإعلانات طبقة من التحيز ضد النقل العام، وتتراكم هذه الطبقات مع مرور الوقت، فتساعد على تسمُّر المستهلكين بشدة في مقاعد سياراتهم.

عالم السوما

كثيرًا ما نجد عند استقصاء الآراء المتقدة خوفًا كامنًا في جذورها؛ أعتقد أن الخوف الذي يقع في صميم الانتقادات للإعلانات ووسائل الإعلام بوصفهما (غسيل الدماغ) هو من العائلة نفسها التي تحرك غسيل الدماغ نفسه: الرعب من فقدان السيطرة، وحتى الهوية، وقد شاهدنا بالفعل في الفصل الأول كيف صوَّر جورج أورويل هذا الخوف. أعطت رواية شهيرة أخرى من القرن العشرين تسللت إلى أعماقنا بخفاء اسمًا لمخاوف نقاد الإعلانات، هذا الاسم هو عالم جديد شجاع.

بصورة مشابهة لرواية أربع وثمانون وتسع مئة وألف، كان الواقع المرير الذي صوَّره ألدوس هكسلي Aldous Huxley في روايته عام 1932م هو الشمولية، لكن طبيعته الشمولية لم تكن بارزة كما في عالم أورويل، وعوضًا عن ذلك، تنكرت بقناع حرية الاختيار. قُمعت احتياجات مواطني أورويل Orwell أو غُيِّر مسارها، أما عند هكسلي Huxley فقد لُبِّيت، فهم مثل ملائكة السماء لا يريدون شيئًا، يمكنهم اختيار متى يتناولون السوما، وهي أقراص السعادة المثالية؛ ويمكنهم إلى حد ما اختيار أصدقائهم وأنشطتهم، لكن مستقبلهم، ووضعهم في المجتمع، قد حدده علم الوراثة حتى قبل ولادتهم، وهم ينفذون ما يطلب منهم المجتمع، وفقد معظمهم القدرة حتى على تخيل القيام بغير ذلك.

انعكست هـذه الفكـرة القوية -بأنـه إذا كان عامل ما يلبي حاجاتنا فإننـا نصبح عبيدًا له- فـي أحـد مظاهـر ما يرعـب كثيرًا غيـرَ المنتمين لطوائف دينية مـن تلك الطوائف، كمـا رأينا في الفصل الثاني. إن جزءًا من السـلطة التي يمارسـها قادة الطوائف على أتباعهم هي سـلطة تلبية احتياجاتهم: فالأشخاص ينضمون إلى الطوائف الدينية لأنهم يجدون فيها شيئًا لا يجدونه في أي مكان آخر. يمكن أن نجد الخوف نفسـه -من أننا نقترب من (عالم السـوما) المسـالم في رواية هكسـلي Huxley- لدى منتقدي الإعلانات، وفق ما قال هكسـلي Huxley نفسـه في مقدمة كتابه: «الدولـة الشـمولية الفاعلـة حقًّا هي التي تسـيطر فيها السـلطة التنفيذية القوية جـدًّا، من القادة السياسـيين وجيشـهم من الإداريين، على سـكان من العبيد الذين لا يلزم إكراههم؛ لأنهم يحبون عبوديتهـم، ولكـن جَعْلَهم يحبونها، هو المهمة الملقاة على عاتق وزارات الإعلام، ورؤسـاء تحرير الصحف، ومعلمي المدارس، في الدول الشمولية في عصرنا الحاضر، لكن أساليبهم لا تزال فظة وغير علمية».

هذه إذًا هي الأسـئلة التي تطرحها مزاعم غسـيل الدماغ الموجهة ضد وسـائل الإعلام. هل نعيش، أو يمكـن أن نعيش قريبًـا فـي عالم السـوما؟ هـل نحن في خطر بـأن نضاهـي المواطنين الرومـان الذيـن اسـتخف بهـم جوفينـال Juvenal الكاتب السـاخر الـذي عاصرهـم، بالتخلي عن قوتنـا واتباع أي شـخص يمنحنا (الخبز ومسـارح العروض)[4]؟ هل يمكـن تلبية احتياجاتنا (أو ما يكفي منها لبقائنا منصاعين) بوسـاطة أقراص السـعادة، أو توجيهها -إذا لم تتحقق مباشـرة- إلـى الاسـتهلاك المربح؟ هل يمكن أن يغسـل التحكم في المعلومات حتـى أدمغتنا ليجعلنا نلاحق رغبـات معينـة (سـيارة جديـدة، أحـدث الأزيـاء، أو غيـر ذلـك)، وننسـى الاحتياجـات الأخـرى (للتفكير بعيد المدى واستقلال العقل)؟ إذا عشنا في عالم كهذا، فهل سنكون أحرارًا مثاليين أم عبيدًا مثاليين؟

أول ما يقال عن هذا التخوف هو أنه ليس جديدًا، إذ نجده في نهاية القرن التاسع عشر في البسطاء المتمتعين بالجمال الذين سماهم هـ. ج. ويلز H.G. Wells إلوي Eloi، وهم أحفاد بعيدون للبشـر، يعيشـون في جنة تُوفِّر فيها جميع احتياجاتهم. يجد بطل رواية ويلز Wells الذي يزورهم بآلة الزمن، وذلك اسـم الرواية، صورة أرعبته؛ هي أن ملحمتهم ملحمة مسـمومة: إن أفراد إلوي Eloi يُحصَـدون مـن قبـل المورلوك Morlocks، وهـم جنـس يعيـش تحـت الأرض انحـدر أيضًـا من

البشـر، غذاءً لهم. نجد الأمر المقزز نفسـه عند فريدريش نيتشـه Friedrich Nietzsche قبل نحو عقد من الزمن في وصف زرادشت Zarathustra الشهير لمستقبل نوعنا:

«انظر! سأريك يا أيها الرجل الأخير.

ما الحب؟ ما الخلق؟ ما الرغبة ؟ ما النجم؟ سأل الرجل الأخير، وغمز بعينه!

بعدها ستصبح الأرض صغيرة، وسيقفز الرجل الأخير مما يجعل الأشياء جميعها صغيرة.

نوعه لا يمكن القضاء عليه مثل براغيث الأرض؛ يعيش الرجل الأخير أطول من الجميع».

قال آخر الرجال وغمز بعينه: «لقد اكتشفنا السعادة»،

«المرض وعدم الثقة يحملان الخطيئة... قليل من السم الآن وفيما بعد:

لأن ذلك يعطي أحلامًا سعيدة... وكثير من السم في النهاية من أجل موت سهل.

لا يزالون يعملون، لأن العمل يصرف الوقت، لكنهم حذرون، حتى لا يضرهم مرور الوقت.

لقد اكتشفنا السعادة». يقول آخر الرجال ويغمزون بأعينهم.

نيتشه Nietzsche، هكذا تكلم زرادشت Zarathustra.

الشـيء الثانـي الـذي يجب أن يقال عن الخوف من عالم السـوما هو أنه يـدور حول الحرية؛ فالناس في عالم السـوما، مثل آخر الرجال عند نيتشـه Nietzsche، حققوا السـعادة. وقد قيل لنا باسـتمرار هـذه الأيـام إن السـعادة هي الهـدف العظيم الذي يجـب أن نكون جميعًا سـاعين إليه، فلماذا إذًا يشـعرنا هذا التعبير عن الواقع المرير بالغثيان؟ ولماذا نتعاطف عندما يعلن شـيطان ملتـون: «الأفضـل أن تحكـم فـي الجحيـم من أن تخـدم في الجنة»[5]؟ يبـدو أننا نميـل إلى تصنيف الحرية على أنها هدف أسـمى من السـعادة، على الرغم من محاولات السـلطات الحديثة إقناعنا بخـلاف ذلـك. (الحيـاة، الحريـة، المُلكيـة)، (الحرية، المسـاواة، الإخـاء)، (الحيـاة، الحرية، والسـعي نحـو السـعادة): هذه المذاهـب الكبرى التي لمّت صرخـات الثوار في إنجلترا، وفرنسـا، وأمريـكا على التوالي، رسـمت شـكل الغـرب، وكانت الحرية فيهـا جميعًا هي المركـز. يقول إريك فروم Erich Fromm في كتابه الخوف من الحرية The Fear of Freedom إننا نرهب الحرية تمامًا كما نتوق إليها (يمكن أن تتطلب الحرية جهدًا أو حتى ألمًا)، لكن هذا الموقف المتردد لا ينتقص من أهمية ما ننسبه إلى هذه القيمة الإنسانية الخاصة.

هل يوجد أسـاس لخوفنا من عالم السـوما في وقائع اليوم؟ هل نقترب من نوع من الشمولية الخفية ذاك الذي يفزعنا كثيرًا والموجود في عالم شجاع جديد؟ بحثت في الفصل الأول تحديد

روبرت ليفتون للعناوين الثمانية -السيطرة على المحيط، والتلاعب الغيبي، والحاجة إلى النقاء، وعقيدة الاعتراف، والعلم المقدس، وتحميل اللغة، وأصالة العقيدة على الفرد، وسلب الوجود- التي من المتوقع وجودها في البيئة الشمولية (انظر الجدول 1)، ولكن بالنسبة إلى الإعلانات تعترضنا فورًا مشكلة؛ يمكن أن يشير الأمريكيون إلى النظام الشيوعي الصيني، وفي النهاية للرئيس ماو Mao، بوصفه مصدرًا لمتاعبهم، ولكن مَن العامل الخاص بنا، غاسل دماغنا، رئيسنا من جماعة مورلوك؟

السيطرة على التفكير من دون مسيطر

إنّ تخيلنا أن مصادرنا الإعلانية جميعها تخضع لدماغ مسيطر واحد، فإن ذلك سيبدو خيالًا واسعًا. إن السيطرة على الفكر أمر بعيد المنال[6]، بدلًا من ذلك، يبدو أننا في موقف قريب من التطور: يبدو مصمَّمًا، ولكن من دون مصمم (بالنسبة إلى القراء الذين يؤمنون بفكرة الخلق، لا تنص نظرية التطور بصرامة على غياب المصمم، بل إنها تنص أنه لا حاجة إلى وجوده في أثناء حدوث عمليات الانتخاب الطبيعي). قاد هذا التشابه مع التطور عالمَ الأحياء ريتشارد دوكينز Richard Dawkins إلى إدخال مفهوم علم التطور الثقافي memetics، وهو استعارة (جينية) للانتقال الثقافي، تظهر الأفكار بوصفها وحدات (ميميات) memes يمكنها مضاعفة نفسها والانتقال عن طريق التقليد من دماغ إلى آخر[7]. تبنَّى عدد من الأشخاص وجهة نظر تطورية للثقافات والأفكار الثقافية من دون إشارة محددة إلى بعض ادعاءات علم التطور الثقافي الأكثر إثارة للجدل، لكن وحدة (الميمي) اختصار مفيد لا يقاوم؛ لذا سوف أستخدمها بهذا المعنى الأضعف للتشابه التطوري. ما يدعيه هذا التشابه هو أن الأفكار يمكن أن تنتشر، أو تتقارب، أو تتباعد، من غير الحاجة إلى وكالة مهيمنة. كيف أثر غياب المصمم -للعميل- في عناوين ليفتون Lifton الثمانية؟

إن التأثير قليل جدًّا؛ فقد أصبحت السيطرة على المحيط بتوحيد مقاييس له؛ فبدلًا من فرض السيطرة من قبل الحزب، نرى ضغوطًا انتقائية على المنتجات الثقافية (الصحف، والإعلانات، وغيرها) تتجه نحو دفعها لتصبح أكثر تشابهًا مع مرور الوقت. إن حقيقة أن كثيرًا من وسائل إعلامنا أصبحت عالمية على نحو متزايد، ويسيطر عليها في نهاية المطاف أقلية مسيطرة من الأقطاب الذين لديهم كثير من القواسم المشتركة، لا يؤدي إلا إلى تسريع هذه

العملية. جعلت الحاجة إلى البيع من وسائل الإعلام أتباعًا عريقين للسائد، وأدى ميل الأشخاص المشغولين إلى (المعلومات السهلة)، وفي الأخبار إلى التصاريح المسجلة أو العناوين الرئيسة، إلى الطلب على التبسيط الذي يمكن أن يكون قريب الشبه بصورة مرعبة إلى أيديولوجية الحاجة إلى النقاء، فالمجرمون، إذا أخذنا مثالًا موضوعيًّا، هم دائمًا أشرار وضحاياهم دائمًا أبرياء، ومن النادر أن تجد صحيفة شعبية تتناول على محمل الجد فكرة أن الأشخاص الذين يقتلون ضحاياهم قد تأثروا، مثل الأشخاص (العاديين)، بتاريخهم وبيئاتهم. وماذا عن لوليتا Lolita، طفلة نابوكوف Nabokov الاستفزازية؟ قد لا يشاهدها أحد، نظريًّا؛ لكنها في الواقع تجوب شوارع الأسواق وصفحات مجلات الأزياء. عقيدة الاعتراف هي أيضًا شائعة، بوجود أشخاص (حقيقيين) يعرضون حياتهم على وسائل الإعلام، ويدفع لهم بسخاء لفعل ذلك. لقد فقدنا بصورة كبيرة حقنا في البقاء صامتين، سواء عندما نواجه الشرطة أو عند مواجهة الكاميرات على حد سواء. تحميل اللغة أمر شائع خاصة في الإعلانات، حيث تحمل كلمات مثل (جديد) و(ضروري) وزنًا أكبر بكثير من معانيها الأصلية، (كثيرًا ما أرى إعلانات المنتجات (الضرورية)، لكنني لم أشعر يومًا بافتقاد أي منها).

نرى أيضًا عناصر العلم المقدس في تلك العقائد الحديثة التي نادرًا ما تسعى الثقافة الجماهيرية إلى تحديها، مثل فكرة أن البريطانيين متسامحون، وكذلك فإن التلاعب الغيبي يظهر عند الحديث عن المثل العليا المجردة التي يفترض فيها أن تجعلنا نقفز في طارة عاطفية بمجرد سماعها (المصطلحات مثل الماهية الجنسية، والتعددية الثقافية أمثلة على ذلك).

أخيرًا، لدينا حكومات لها تحكُّمٌ كبير في سلب الوجود (يمكن أن يشهد مواطنو الولايات المتحدة الموضوعون على قائمة الإعدام، أو الرعايا الأجانب المحتجزون دونما محاكمة بعد 9/11، على ذلك، لو كان يسمح لهم بالشهادة)، ووسائل إعلام عامة لها قدرة كبيرة على السلب، إن لم يكن سلب الوجود، فعلى الأقل سلب السمعة، والاستثناء الوحيد الممكن هو العنوان السابع عند ليفتون Lifton، وهو أصالة العقيدة على الفرد؛ وذلك لأن الفردية في الغرب هي بحد ذاتها عقيدة راسخة.

ما نراه باختصار هو فرق في الدرجة وليس في النوع؛ هي ميول نحو التفكير الشمولي، لكنها في الوقت الحاضر ليست متطرفة إلى الحد الذي كان يمكن أن تكون عليه. ربما نكون في الطريق إلى عالم سوما، لكننا لم نصل إليه بعد، فلا تزال هناك أصوات تتحدى المعتقدات

الشائعة وتعترض على التعميم الفكري، ويقاوم كثير من الناس الحلم الاستهلاكي أو يتعاملون معه على أنه مجرد جزء من حياة جديرة بالعيش، وينظرون إلى الإعلانات بريبة صحيَّة، ويُصغون بعناية إلى المناقشات السياسية، ولا يثقون بمعظم ما يقرؤونه في الصحف، يبقى الوعي بدوافع المتلاعب في خلفية عقولهم ويبقيهم حذرين، وربما لم يقرؤوا عن روبرت شيالديني Lifton، لكنهم على أي حال متحفزون للتوقف والتفكير، وهذا هو أساس مقاومة الإقناع كما سنرى في الفصول القادمة.

أحد القيود المفروضة على قوة الإعلانات المعاصرة هو أن وسائل الاتصال العامة غير قادرة على استهداف الأشخاص على انفراد؛ لسبب بسيط هو أنهم لا يعرفون كثيرًا عن زبائنهم. ويعتمد كون شخص ما سيقع فريسة لثرثرة مندوب المبيعات أم لا على عدد من العوامل؛ أوضحها هو ما يباع له؛ إذ يختلف رد فعلي على محاولة مسيحي إنجيلي إقناعي بالذهاب معه إلى الكنيسة، عن رد فعلي على مندوب مبيعات يتصل بي هاتفيًّا ليقدم عروضًا عن مطابخ جديدة، على الرغم من أن محاولَتَي التأثير ستبوءان على الأغلب بالإخفاق؛ فبالنسبة إلى المتصل ذي الدم البارد، كل ما يجب علي فعله لإنهاء محاولة التأثير هو القول إنني أستأجر الشقة ولا أملكها، لكن المبشر سيُستقبل بقائمة مطولة من الأسباب لعدم ذهابي إلى الكنيسة، لأنني فكرت في الماضي في الدين تفكيرًا عميقًا. فلا يعد شراء مطبخ جديد موضوعًا ذا أهمية على الإطلاق لحياة تقضيها في بيوت أناس آخرين، بحيث إنني نادرًا ما أفكر فيه فضلًا عن التعمق في التفكير فيه. يعتمد نجاح أسلوب التأثير على ما سيباع، ليس بحد ذاته، ولكن بقدر ما يكون مهمًّا بالنسبة إلي، فحتى السلع التي تبدو عالمية مثل المال تختلف درجة أهميتها -ومن ثم نجاح أسلوب التأثير- من شخص إلى آخر، فليس كل شخص -حتى في الغرب المولع بالكسب- سيقبل عرضًا نقديًّا من دون شروط خفية.

سوف تؤثر شخصية الفرد المستهدف وتاريخه في استجاباته لأسلوب التأثير المستخدم؛ فمثلًا يستجيب بعض الأفراد سلبيًّا لاستخدام عبارات مثل «يجب عليك» أو «ضروري» في إعلان المبيعات، ويفضلون المقاربات التي تؤكد حريتهم في الاختيار، وبعضهم أكثر احتمالًا لأن يستجيب إلى المقاربة المبنية على السلطة (اشترِ هذا، إنه جيد بالنسبة إليك)، وبعضهم إلى مندوب مبيعات لطيف (اشترِ هذا لتسعدني؛ أنت تريد أن تسعدني، أليس كذلك؟)، وبعضهم إلى تهديد ضمني (اشترِ هذا أو ستتدهور صحتك)، وهكذا دواليك، في الواقع إن شخصية البائع مهمة جدًّا

في نجاح محاولة التأثير، فقد نتبرع بسرعة لامرأة لطيفة كبيرة في السن تهتم بحقوق الحيوانات، في حين أنك قد تمر من دون مبالاة بشاب يافع لا يبتسم غير حليق اللحية يجمع مساعدات لأفريقيا، على الرغم من أن أموالها قد تموِّل قنابل مسمارية، في حين أن أمواله قد تنقذ حياة الأطفال، فكما لاحظ شيالديني Cialdini وآخرون، المحبوبية سلاح مهم جدًّا في التأثير.

حالة دراسية: إقناع نصي

يتفاعل ما يباع لتطبيق التأثير، بعبارة أخرى مع شخصية الفرد المستهدف وتاريخه (سواء نجح البيع أم لا). يعتمد كوننا سنتوقف ونفكر على سياق شخصي متميز لا يتضمن المحرضات الحالية فقط، ولكن أيضًا الذكريات التي يسهل الوصول إليها، ما يسمح لنا باستخدام الماضي في تفسير الحاضر. انظر إلى النص الآتي مثالًا على ذلك:

> **«لا ينظر إلى فعل امرأة تقود طفلها إلى المدرسة وتعود به على أنه رعاية أمومية، بل هو مظهر فريد للأنانية. يتعين إقناع هذه الأم التي تهرول إلى المدرسة بتغيير سلوكها لخير المجتمع، والاقتصاد، وطفلها».**

يحاول هذا الاقتباس أعلاه أن يبيعني مجموعة من الأفكار، لكنني لا أستطيع البدء بتفسير رسالته من دون أن يكون لدي كثير من الخلفية المعرفية، فأحتاج إلى معرفة المعنى اللغوي لكلمات مثل (تقود)، وأحتاج إلى فهم أن هذه الكلمة تعني استخدام سيارة وليس استخدام سوط لقيادة عربة يجرها حصان. يمكنني أيضًا استرجاع ذكريات نصوص أخرى، أو برامج إخبارية، أو مناقشات مع الأصدقاء، أو أي شيء آخر يخبرني أن في بريطانيا حاليًّا جدلًا حول أن على الأمهات اللواتي يأخذن أطفالهن بالسيارة إلى المدرسة التقليل من الازدحام المروري وتحسين صحة أطفالهن بجعلهم يذهبون إلى المدرسة مشيًا على الأقدام أو باستخدام دراجة. قبل قراءة هذا المقتطف لم أواجه عبارة (الإسراع إلى المدرسة)، لكن سياق المقتطف جعل معناها واضحًا تمامًا. بعد إجراء التفسير الأساسي، يمكنني الآن البدء بتقييم الحجج وفق ما أفكر فيه حول المسألة.

سوف يتأثر ذلك التقييم بعوامل تنبع من خبرتي الشخصية: مواقفي من الأطفال وحركة المرور، وكوني أعيش بالقرب من مدرسة أو لا، وكيف شعرت عند قراءتي للنص، لكن النص

نفسه يؤثر فيَّ، على الرغم من أنني قد لا أدرك ذلك دائمًا. أحد الأمثلة في هذا الاقتباس هو التباين بين دفء التعبير الجيد (رعاية أمومية) من ناحية، ومن ناحية أخرى القشعريرة من كلمة (فريد) وصفير (الأنانية) الذي يدفعني بخفاء إلى الانحياز إلى الأم المستغلَّة، وبعيدًا عن أولئك الذين يضعون قيودًا على حقها في قيادة السيارة. مثال آخر هو تأكيد تعميمات مكررة (خير الـ...)، (المجتمع)، (الاقتصاد)، (الأم التي تهرع إلى المدرسة). قد يستمتع شخص مولع بالأسماء المجردة بجملة مليئة بها؛ بينما يشعر بقيتنا بوجود بعد، ومحو للشخصية.

أخيرًا، لا تكون النصوص عادة معزولة كهذا المثال، فهو مأخوذ من مقالة في صحيفة المراقب (أوبزيرفر) observer[8] تنتقد بوضوح الموقف المعلن في الاقتباس. لقد قرأت مقالات أخرى كتبها ديفيد أرونوفيتش David Aaronovitch، وقد قرأت الأوبزرفر Observer في أحيان كثيرة بما يكفي لمعرفة توجهها التحرري. كُتِبَت المقالة في قسم التعليقات من الصحيفة، وأنا أعرف أن هذا يعد ترخيصًا لكتابات نثرية أكثر تشبثًا بالرأي؛ لذا أتوقع كتابة تدافع عن موقف تحرري. علاوة على ذلك، يحوي مشهدي المعرفي على معتقدات، كما وصفها جاكوب تالمون Jacob Talmon في كتابه أصول الديموقراطية الشمولية، تقول بأن التفكير التحرري «يفترض أن السياسة هي مسألة محاولة وخطأ، ويعد الأنظمة السياسية مخترعات عملية لإبداع الإنسان وعفويته». قارن تالمون Talmon -كما فعل روبرت ليفتون Robert Lifton (انظر الفصل الأول وغيره)- بين ولع النظرة العملية التحررية والشمولية في المجردات والمطلق؛ لذلك فأنا لا أفسر إسراف الاقتباس في الأسماء المجردة على أنه إشارة إلى موقف أرونوفيتش Aaronovitch (التحرري)، بل كونه اُستخدم في عرض (وتشويه خفي لسمعة) وجهة نظر معارضة. تتوافر لي هذه الخلفية من المعلومات جميعها، وأكثر، وأنا أقرأ مقالة أرونوفيتش Aaronovitch، أو أي نص آخر. لديك أنت خلفية مختلفة لكنها ثرية بالقدر نفسه، تنفرد بها عن غيرك، لكن إدراك قواعد البيانات المعرفية هذه وتفسيرها حالة استثنائية لكل منًّا: الحياة قصيرة جدًّا، والوقوف للتفكير أمر مجهد جدًّا، وهذا لا يجعلنا نتعود على قراءة الدلالات الضمنية في الكلمات. لا تلاحظ الروابط في كثير من الأحيان عدا إحساس عام بلهجة النص أو نكهته، مما يضيف مسحة عاطفية -بالقبول أو عدم القبول به- للسجل المودع في رؤوسنا ضمن عواطف أرونوفيتش Aaronovitch، وبمعنى آخر تعمل العواطف بوصفها طرائق مختصرة، تلخص قواعد بياناتنا المعرفية من دون أن نحتاج إلى البحث عنها بإسهاب. ولنا عودة إلى هذه النقطة المهمة في الفصل التاسع.

الرسالة من خبراء علم نفس الإقناع هي أنه إذا حُفِّزَ البالغون، فإنهم على الأقل سيستطيعون مقاومة أسلحة التأثير. نستطيع تفادي مصائد الالتزام، ورفض المبادلة، وإهمال تأثيرات السلطة والمحبوبية التي يملكها أولئك الذين يريدوننا أن نشتري منهم، وأن نقرر عدم الحصول على منتج لمجرد أن أي شخص آخر قد حصل عليه أو لأن وفرة المنتج قد قلصت بصورة مصطنعة لتحفيز الطلب عليه. جزء من الخوف الملازم لمصطلح غسيل الدماغ، إضافة إلى الرعب من فقدان السيطرة وفقدان الفرد لهويته نفسها، يأتي من أن الآليات، مهما كانت، تعد ساحقة؛ بحيث إنه لا يوجد أحد في مأمن، أما من ناحية محاولات الإقناع الفردية، فنحن جميعًا عرضة لإقناع الإعلانات، إلا أن هذه القوة ليست منيعة على المقاومة بأي حال من الأحوال.

لكن هذا الاستنتاج المريح لا ينطبق- للأسف- على الجهاز الفكري المذهبي الأوسع الذي تعد الإعلانات (وسائل الإعلام) جزءًا صغيرًا منه، إذ تخبرنا الإعلانات عن المنتجات، ومعظمها صادق نسبيًّا فيما تهدف إليه. للحصول على معلومات حول بقية العالم، الأبعد من الأجزاء الدقيقة التي ندركها مباشرة، فإننا نعتمد بصورة حاسمة على أنظمة الاتصال الجماهيري المتنوعة التي تشكل أجهزة الإعلام المعاصرة القوية على نحو غير عادي، وهنا تبدأ قوة غسيل الدماغ بالتأثير. تذكَّر عناوين ليفتون Lifton الثمانية. تكون السيطرة على المحيط ماثلة للعيان أكثر ما تكون بعد أخبار الأحداث الضخمة؛ مثل تدمير مركز التجارة العالمي التي تتخم الصحف، والمذياع، والتلفاز، والإنترنت؛ لكنها موجودة بخفاء أكبر في التكرار اليومي اللانهائي لموضوعات مبتذلة وقوالب متشابهة مخدرة للعقل، (مجلات أنماط الحياة أمثلة جيدة على ذلك). الحاجة إلى النقاء وتبسيط الحجج المعقدة، وعقيدة الاعتراف، وتحميل اللغة سمات واضحة لأي صحيفة شعبية، وليست بأي حال من الأحوال حصرية لها. أما عن العلم المقدس، والتلاعب الغيبي، وأصالة العقيدة على الشخص، وسلب الوجود، فما على المرء لرؤيتها إلا أن ينظر إلى كيفية تعامل وسائل الإعلام مع أولئك الذين يتساءلون عن هيمنتها وسطوتها. ترفع شعارات (حرية الصحافة)، و(المصلحة العامة) على أنها حقائق غير قابلة للطعن بها، تدمِّر الخصوصية الفردية في أثناء البحث عن قصة، وتمزق سمعة كثيرين إلى أشلاء. وكما سنرى في الفصل الثالث عشر، يمكن أن تكون وسائل الإعلام سلاحًا فاعلًا للسيطرة الجماعية.

التعليم

«لسنا بحاجة إلى أي تعليم، لسنا بحاجة إلى أي سيطرة على الفكر».

بينك فلويد Pink Floyd, The Wall Pink Floyd.

نصل الآن إلى التعليم، تلك العملية التي ترسخ فيها الدولة قبضتها على عقول الصغار. بالتأكيد أن التعليم الرسمي جزء فقط من المؤثرات التي تشكِّل الطفل إلى أن يصبح بالغًا، فالرسائل من الآباء، وبالأخص من الأقران، ووسائل الإعلام والإعلانات، وتراثهم الجيني الخاص، تسهم جميعًا في تكوين الشخص الذي سينتج، لكن التعليم -نظريًّا في الأحوال كلها- خبرة معيارية متاحة لكل طفل، وهو كذلك آلية عامة، وله عواقب على المجتمع كله، ومن ضمنه أولئك المشاركون في التعليم بأدنى حد.

حديثي عن التعليم سيكون أقل من حديثي عن الإعلان؛ لأنني أعتقد أنهما متشابهان في نواح كثيرة؛ فالمخاوف من غسيل الدماغ، أو (السيطرة على التفكير) كما سماها بينك فلويد Pink Floyd، لها الأساس نفسه، على الرغم من أن العامل المسيطر (الدولة) يمكن تمييزه بصورة أكثر وضوحًا في التعليم، ويعد كل من التعليم والإعلان عمليات تشكيل للمعتقدات الجماهيرية، قابلة للتطبيق عبر مدى واسع من الأعمار، تستفيد بغزارة من ميلنا إلى استخدام الإرشادات في جعل حياتنا أسهل. نناقش في كليهما الدوافع والأساليب لأولئك الذين يقومون بعملية التشكيل.

يختلف التعليم عن الدعاية في ثلاثة جوانب مهمة: تطورية، وبنيوية، وتحفيزية، وربما يكون الأول مسألة عرض أكثر منه مسألة فعل، يستهدف التعليم الأطفال في المقام الأول، في حين يركز الإعلان على البالغين، وتوجد بعض القيود على الإعلان الموجه للأطفال، على الرغم من أنها ليست صارمة إلى الحد الذي يوده كثيرون؛ والمثال الحالي الذي يزعج الخبراء هو التأثير القوي لإعلانات الأغذية السكرية والدهنية في الأطفال الذين هم أصلًا مهددون بخطر السمنة، وبصورة مماثلة نال تعليم البالغين (المستمر مدى الحياة) حديثًا كثيرًا من التأكيد، لكن مع ذلك معظم التعليم يقدَّم للأطفال، وغالبية الإعلانات تستهدف البالغين: سائقي السيارات، مالكي البيوت، وأصحاب المحافظ المالية.

كذلك يختلف التعليم عن الدعاية ووسائل الإعلام في المستوى البنيوي؛ فكما رأينا سابقًا كثيرًا ما تبدو الإعلانات موحَّدة؛ (سيارات على طرق فارغة، نساء في منازل مرتبة بصورة مهولة، وهكذا)، لكن هذا التوحيد قد تحقق بآلية تطورية استخدمت المحاولة والخطأ، وليس بتصميم دقيق؛ فلا تزال الإعلانات الكارثية تظهر بين الفينة والأخرى، فتتعرض لسخرية لاذعة من زوايا أخرى في وسائل الإعلام. يخضع التعليم للسيطرة أكثر بكثير، وكثيرًا ما يشكو المعلمون من مدى هذه السيطرة، ومن الوقت الذي يقضونه في الأعمال الكتابية لتلبية البيروقراطية الحكومية[9]، والهدف هو المساواة؛ فيجب أن يحصل جميع الأطفال على أرضية تعليمية مشابهة لإعدادهم للحياة وهم كبار.

الفرق الثالث بين التعليم والدعاية الذي يُعد أنه الأكثر أهمية لأولئك الذين يخضعون لهما كليهما: دوافعهما؛ فالهدف الرئيس من الدعاية هو بيع منتجات، ولا يهتم المُعلِن أساسًا بالفوائد التي يجنيها المستهلك الذي يشتري المنتج، إلا بالقدر الذي يؤكد أن الفوائد تزيد المبيعات. أما الهدف الرئيس من التعليم فهو آلية إنشاء الأطفال ليكونوا مواطنين، وإعطاؤهم على الأقل من ناحية المبدأ المهارات التي يحتاجونها لتحقيق الرفاهية والمساهمة في المجتمع ((توفير الفرص، وإطلاق الإمكانات، وتحقيق الامتياز)، كما وردت في شعار حديث للحكومة البريطانية)[10]. جادل لويس ألثوسير Louis Althusser، وتلميذه ميشال فوكو Michel Foucault، وكثير غيرهم، في أن المدارس -مثلها مثل السجون- بيئات شمولية[11] (يبدو أن هذا يصح بصفة خاصة على المدارس الداخلية). وعلى الرغم من أنه من المغري إطلاق تعليقات ساخرة، فإن مثل هذه الانتقادات مسوَّغة جزئيًّا فقط. يمكن أن تُظهِر البيئة الاجتماعية في المدرسة بالفعل أن الأطفال يمكن أن يكونوا شموليين ممتازين، وماهرين بدهاء في السيطرة على اللغة والسلوك. إن تلك الوحشية النفسية التي قززتنا في رواية وليام غولدنغ William Golding رب الذباب التي يعيش فيها أطفال من غير كهول في منطقة نائية، ويتحول سلوكهم تدريجيًّا إلى سلوك وحشي بدائي، ويحدث تنافس في النهاية على نظارات فتاة تسمى بيغي Piggy لاستخدامها بإشعال حريق، ومن ثم تقتل بيغي بإلقاء حجر عليها من شاهق؛ هذه الوحشية التي يمكن أن تدفع ضحاياها سيئي الحظ إلى انتحار نهائي مثلما هي جريمة قتل بيغي نهائية، يمكن أن تشاهد في باحات لعب الأطفال في جميع أنحاء العالم، لكن أي مدرسة هي فقط جزء من الحياة. وبالفعل، لم يكن لأطفال جولديج Golding مدارس، ولم توجد عقائد كبار تتحكم في سلوكهم، وكل ما تطلَّب هو أن يكونوا أعضاء في مجموعة مرهقة ومرعوبة.

يتعلق التعليم في تعلم الحقائق وتعلم المبادئ. تبني الحقائق جسمًا من المعرفة التي ستكون ذات فائدة إلى حد ما في حياة الكبار. لكن المبادئ تعطي التعليم سلطته الحقيقية؛ ذلك لأن المبادئ -خلافًا للحقائق- يمكن تعميمها، بمعنى أنها يمكن أن تطبق في مواقف جديدة. يبدو أن أفضل طريقة لتعلم المبادئ هي رؤية كيفية عملها في الواقع، وذلك بتعلم عدد من الحقائق في البدء، ومن هنا يأتي التصور التقليدي للمدرسة بأنها مكان ممل يغرق فيه الطلاب بالحقائق.

التعليم والتفكير الناقد

لكن التعليم في أفضل حالاته، يعلِّم أكثر من مجرد المعلومات؛ إنه يعلِّم التفكير الناقد: القدرة على التوقف والتفكير قبل الفعل، لتجنب الخضوع لضغوط عاطفية. ليس هذا سيطرة على الفكر، بل هو على العكس من ذلك تمامًا؛ إنه التحرر العقلي. حتى أكثر المثقفين تقدمًا سيكون منقوصًا في هذه المهارة، لكن حتى امتلاك هذه المهارة بصورة منقوصة سيحرر صاحبها من أن يكون (مسوقًا بالتحريض)، يتفاعل باستمرار مع البيئة المباشرة، أو الألوان الساطعة، أو الأصوات الأكثر علوًّا أو الإعلانات الأشد جاذبية. الانقياد لردود الفعل الاستكشافية، والعيش بالغريزة والعاطفة طوال الوقت، طريقة سهلة جدًّا للحياة من نواح عدة؛ ذلك أن التفكير عملية شاقة، وخاصة لعديمي الخبرة، لكن العواطف أيضًا مرهقة، وردود الفعل قصيرة المدى قد لا تكون -على المدى الطويل- الأكثر فائدة للصحة والبقاء، وكما أن تناولنا للبرغر لأجل الراحة، مخزنين الدهون في الشرايين مما قد يقتلنا يومًا ما، فإن اعتمادنا على مشاعرنا يمكن أن يسبب لنا أيضًا ضررًا بالغًا.

تهدف البيئة الفكرية في الغرب -نظريًّا على الأقل- إلى تقليل سلطة هذا الطغيان الاجتماعي (وسوف أعود إلى هذه الفكرة في الفصل الخامس عشر)، أهدافها أساسًا مضادة للشمولية: إعطاء الطفل المهارات التي يحتاجها للازدهار، وتسهيل استقلاله المتنامي، وتمكينه من تقييم الادعاءات المتنافسة لجذب اهتمامه، وإعطاؤه القدرة على التوقف والتفكير. يمجد المسيحيون الرب الذي تعني «خدمته حرية مثالية»[12]، ويجب -مثاليًّا- أن نستطيع النظر إلى التعليم تحت ضوء مشابه، بوصفه خدمة ذاتية تمنحنا المزيد من الحرية للفهم والعمل في العالم. تتطلب المناهج الوطنية في المملكة المتحدة -على سبيل المثال- من طلاب التاريخ الأكثر تقدمًا ألّا

يقتصر تعليمهم على التاريخ البريطاني فقط (تلزم ثلاث دراسات)، بل يشمل التاريخ الأوروبي (دراسة واحدة من قبل الحرب العالمية الأولى)، وتاريخ العالم (واحدة من قبل 1900، وأخرى بعده). تتضمن الاختيارات الأبكر لتاريخ العالم:

> **الحضارات الإسلامية (القرن السابع إلى القرن السادس عشر)؛ سلالة تشين في الصين؛ الإمبراطورية الصينية من أول إمبراطور إلى قوبلاي خان Kublai Khan؛ غزو المانشو وسقوط سلالة مينج؛ الهند من إمبراطورية المغول إلى مجيء البريطانيين؛ حضارات البيرو؛ السكان الأصليين لأمريكا الشمالية؛ السكان السود في الأمريكيتين؛ إمبراطوريات غرب إفريقيا؛ اليابان تحت حكم الشوغون؛ توكوغاوا اليابان؛ الفينيقيين؛ الماوري؛ النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ومكة المكرمة؛ إمبراطوريات الإسلام في إفريقيا؛ السيخ والماهراتا؛ ممالك الزولو[13].**

وبحسب المنهج، يتوقع من الطلاب أن «يظهروا فهمهم من خلال الربط بين الأحداث والتغيرات في الأزمان والمناطق المختلفة التي دُرست، ومقارنة بنية المجتمعات والتطورات الاقتصادية والثقافية والسياسية، وأن يقوِّموا مصادر المعلومات ويستخدموها، ويستخدموا خلفيتهم التاريخية في تحليل الماضي، ويوضحوا كيف يمكن تمثيله وتفسيره بطرائق مختلفة». عند النظر في طيف الحالات الدراسية المقدمة، والتفكير الناقد الذي يتضمنه التعلم عن التفسيرات المتعددة للماضي، يبدو أن بريطانيا الحديثة قد نمت بدرجة كافية لإدراك أن التلاعب بالتعليم لأسباب فكرية مذهبية قد يكون له نتائج عكسية؛ فعالمنا ما بعد الحداثة السريع التغير يجعل الأنماط غير المرنة من التفكير الشمولي مكشوفة بصفتها غير قابلة للتأقلم. هل كانت فرقة بينك فلويد الموسيقية على خطأ، أم أنهم لم يكونوا محظوظين في طفولتهم؟

تختلف المثل العليا للتعليم تمامًا عن دوافع ربح وسائل الإعلام؛ فالتعليم يهدف إلى زيادة حريتنا، ليس مجرد حرية وهمية لاختيار مجموعة أوسع من السيارات، لكنها حرية طرح تلك الأسئلة التي لا يود المعلن أن يُسأل عنها: عن بدائل النقل العام، صحة السائقين على المدى البعيد، التأثيرات في البيئة. يتعين أن يكون لنا خيار التفكير، أو عدم التفكير، وهذا يعني ليس فقط توفير المعلومات التي نحتاج إليها لامتلاك ذلك الخيار، وإنما أيضًا المهارات التي نحتاجها إلى التفكير بالخيار. تلك المهارات هي الأكثر فاعلية في مقاومة تقنيات التأثير، بدءًا بأخف الإعلانات إلى أشد حالات التحكم في التفكير خبثًا وقسرية، وهذه هي المهارات التي يجب أن نبحث عنها في التعليم.

التعليم والمذهب الفكري

«ما يجب أن نبحث عنه هنا هو، أولًا: المبادئ الدينية والأخلاقية؛ وثانيًا: السلوك المهذب؛ وثالثًا: القدرة الفكرية».

ثوماس أرنولد Thomas Arnold، خطاب إلى أساتذته في رجبي Adress to His Scholars at Rugby.

من سوء الطالع أن التعليم يقصر في أحيان كثيرة عن هذه النيات الحسنة، ليس فقط لأنه غالبًا ما يكون غير فاعل في تعليم مهارات التفكير والتحليل الناقد، بل لأنه كثيرًا ما يكون عرضة للتعسف الفكري المذهبي بصورة لا مفر منها، مدفوعًا بإغراء قولبة عقول مواطني المستقبل. يأتي المثال الصارخ على ذلك من جمهورية روسيا البيضاء السوفييتية سابقًا، كما ورد في صحيفة التايمز الإيرلندية Irish Times (14 آب عام 2003م)، إذا كنت ما تزال تنقب في المقتطفات من المنهج الوطني البريطاني الوارد أعلاه، باحثًا عن دليل على التحميل الفكري المذهبي، فيجب أن تضع بحثك هذا في منظوره:

أمر الرئيس ألكسندر لوكاشينكو Alexander Lukashenko أمس بأن يكون اختيار معلمي (الفكر المذهبي) من مؤسسات روسيا البيضاء كلها لتعليم العاملين في الدولة، في خطوة اُنتقدت لكونها تمثل تلقينًا على النمط السوفييتي.

قال السيد لوكاشينكو Lukashenko في اجتماع حكومي حول الفكر المذهبي: «إن اختراق روح وعقل كل شخص هو بالطبع أصعب أشكال الفن، يتطلب هذا العمل شبكة معقدة جدًا من العمل والأشخاص (العاملين في هذه المؤسسات) يجب أن تكون مؤهلة أعلى درجات التأهيل».

لا يقتصر هذا التوجه الشمولي الواضح للعيان على الرئيس لوكاشينكو Lukashenko؛ فبعض المدارس الدينية المتشددة تدرب الفتيان المسلمين على الاستشهاد بتفجير انتحاري، وبعض العنصريين يعلمون أطفالهم أن السكان السود يتعين إزالتهم من بريطانيا، وبالقوة إذا لزم الأمر، وتعترض بعض المدارس في الولايات المتحدة على تدريس نظرية التطور لأنها تتعارض وقصة الخلق في الكتاب المقدس. إن العلاقة بين التعليم والدين مصدر للجدل في كثير من الأحيان، لكن الدين هو فقط حالة واحدة واضحة خاصة للفكر المذهبي، وتوجد حالات عديدة أخرى، ولكن لأسباب تتعلق بالحيز المتاح في الكتاب، سأعطي مثالًا واحدًا آخر فقط وهو الحالة المثيرة للقلق لمعلم ينتمي للنازية الجديدة.

حدثت القصة في مدرسة في ألبرتا بكندا، ويعد هذا بحد ذاته مفاجأة؛ لأني إذا سألت عينة عشوائية من زملائي من المواطنين بأن يسموا الأمة التي يعتقدون أنها أكثر احتمالًا بأن يكون لديها نظام تعليمي شمولي، فمن غير المحتمل أن أحصل على كثير من الأصوات لكندا، ومع ذلك كان المعلم المسيحي ذو الشخصية الكارزمية الذي يدعى جيم كيجسترا Jim Keegstra قادرًا على دس معتقداته المتطرفة المعادية للسامية لطلابه في المرحلة الثانوية بصورة ناجحة جدًّا؛ بحيث إنهم تبنوا بالجملة المذهب الفكري النازي. كتب أحد الطلاب: «قاد قطاع الطرق الذين يسيطر عليهم اليهود سياراتهم، يتجلون في عصابات، يسحقون رؤوس الأطفال، ويغتصبون النساء ويغرقونهن، ويشكون بطون الرجال فينزفون حتى الموت»[14]، قبل أن يطرح الحل النازي: الإبادة الجماعية. في كندا، عندما أبعد كيجسترا Keegstra عقب شكاوى من الآباء، عرض الأستاذ الذي حل محله على الطلاب صورًا من معسكرات الموت النازية، ليجد فقط أن أي أدلة قدمها افتُرض تلقائيًّا أنها مزورة، فاضطروا إلى أخذ أحد الطلاب في رحلة إلى داخاو Dachau حتى يغير رأيه. لم يكن كيجسترا Keegstra يعمل حتى في ثلاثينيات القرن العشرين؛ حين لم تكن الصورة الكاملة للفظائع النازية قد اتضحت، بل بعد عقود عدة من انتهاء الحرب العالمية الثانية. تعد حالته توضيحًا حيًّا لأخطار التعليم عندما يستخدم في أغراض شمولية.

الخلاصة والاستنتاجات

غسيل الدماغ مصطلح كثيرًا ما يطبق على الإعلانات والتعليم، وكلاهما يهتم بتغيير المعتقد. بالطبع ليس هناك إعلان واحد ينقل الشخص من فرد ذي تفكير حر إلى مستهلك شره جدًّا، لكن تراكم ثقافة المستهلك تغمرها افتراضات غير مفحوصة كثيرًا ما تكون نمطية للغاية، وقد نعتقد أننا محصنون ضد هذا النوع من التحيز، لكن توجد ثروة من الأدلة من علم النفس الاجتماعي تقترح أننا لسنا كذلك، ولا يعني مجرد كون الافتراض يميل إلى الهروب من الفحص الدقيق أنه يجب علينا الاستمرار في تجاهله.

أصبحت الافتراضات الأساسية لثقافة المستهلك -أن الثروة تجلب السعادة، وأن أي حاجة يتعين تلبيتها في الحال، وأن الكمال الجسمي حق بل هو واجب- مقبولة على نطاق واسع في الغرب، ومع ذلك لا يوجد أدنى دليل على أننا أكثر سعادة وأمنًا مما كنا عليه.

في حين تسعى الإعلانات إلى جعلنا مستهلكين صالحين، يسعى التعليم إلى جعلنا مواطنين صالحين، ولأن سيطرته هي على العقول الصغيرة بصفة خاصة، فقد جعلت منه هدفًا سهلًا لاتهامه بعملية غسيل الدماغ، ولا يوجد أدنى شك أن المبادئ الفكرية المذهبية للمجتمع تأتي من خلال التعليم، تمامًا كما هي الحال في الإعلانات، ومع ذلك وعلى الرغم من أن التعليم كثيرًا ما يقصِّر في الممارسة، فإن أهدافه هي زيادة حريات الفرد، ومن الممكن أن يقوم شراء الأشياء بذلك إلى حد ما، لكن الدعاية ومن خلال تشجيعها لحلم مستحيل، يمكنها أيضًا أن ترهقنا بتوقعات عالية جدًّا، فالرسالة هي: «شراؤك هذا سيجعلك سعيدًا»؛ فنعمد إلى الشراء، ونجد أننا لا نزال غير سعداء كما كنا من قبل، وعلى العكس من ذلك؛ لا يعدك التعليم بالسعادة بصورة صريحة، لكنه يهدف لتقديم المزيد من القدرة على الكسب، ومن ثم المزيد من الوصول إلى ملعب المستهلك. في أسوأ حالاته قد يشوِّه العقول الصغيرة ويتلفها؛ وفي أفضل حالاته يقدم مهارة ضرورية؛ هي القدرة على الوقوف والتفكير، وفحص الافتراضات. نحن غارقون في المعلومات، ولكن من دون القدرة على الفهم، والاختيار، والتحليل، فلن يمكننا استخدام المعلومات جيدًا.

في الفصل القادم سوف أنظر في مجال آخر كانت فيه تهمة غسيل الدماغ ذات صدى قوي: العالم الغريب والمقلق لعلم النفس والطب النفسي.

أمل تحقيق الشفاء

«إطلاق التسميات الوصفية لا يقدِّم الفهم السببي».

روبرت ل. تايلور Robert L. Taylor، العقل أو الجسم Mind or Boedy.

رأينا في الفصل الأول الاستعارة في صميم المعنى الحرفي لمصطلح غسيل الدماغ: استخدام الماء في التطهير والتنقية، ونأتي الآن على معنى مجازي آخر وثيق الصلة، ألا وهو الشفاء؛ فمنذ أن ولدت الكلمة أطلقت تشبيهات بين غسيل الدماغ ومعالجة العقول المريضة؛ فعلى سبيل المثال، أجرى إدوارد هنتر Edward Hunter مقارنة في وقت مبكر في كتابه **غسيل الدماغ في الصين الشيوعية** Brain-Washing in Red China، عندما قابل الطالب الصيني تشي سزي شين Chi Sze-chen الذي خضع لعملية إصلاح التفكير، إذ حفَّزت توصيفات تشي Chi ذكريات هنتر Hunter عن (أحد أحدث المصحَّات) في أمريكا، حيث زار هنتر Hunter صديقًا مريضًا فيها، فيتذكر بصفة خاصة قول أحد الأطباء النفسيين:

> **« لقد حقق للتو نصرًا مجيدًا (الصراع على دماغ إنسان)، وشعر أنه أصبح قادرًا على التوصية بتخريج مريضه. فقد كان ثمة مشهد عائلي مؤلم في طفولة هذا الرجل، وقد عرف عنه الطبيب، ولكن ليس عن طريق المريض نفسه. وما لم يكن الرجل قادرًا على وضع حادثته غير السعيدة في إطارها الصحيح، لتتطابق هذه الأجزاء الفسيفسائية العقلية معًا، وتتجمع في كل موحد، فلا يمكن عَدُّ شفائه آمنًا، ولا يمكن أن يفعل أحد آخر ذلك بدلًا عنه؛ فمن ثم كان عليه فعل ذلك بصورة تطوعية، مع أنه لم يكن هناك سبب وجيه لتكتُّم المريض؛ فقد ذكر تفاصيل أكثر كشفًا بكثير. يتأتى (شفاؤه) فقط بالاعتراف الصريح بالحقائق: أي بأن (يكون صريحًا)، بعملية «إعادة رسم شكل العقل». كانت هذه كلها مصطلحات استخدمها أيضًا الطالب الصيني في أثناء مقابلتنا، فقد كانت المشاعر التي سيطرت علي عندما كنت أتحدث مع الطبيب النفسي في تلك المؤسسة الأكثر حداثة، هي نفسها التي شعرت بها حين كنت أصغي إلى قصة تشي Chi: الشعور المزعج نفسه عند الخوض في حقول خطرة. كانت تجارب**

تشي Chi في شمال الصين مشابهة لتجارب المرضى في المؤسسة الأمريكية، وبدا الأمر كما لو أن أكثر مستشفيات الأمراض العقلية تقدمًا مع فريقها من الأطباء النفسيين قد توقفت عن معالجة المجانين، وبدأت بمعالجة العقلاء فقط، من دون تغيير المعالجة».

الأطباء والشياطين

سلط العديد من المعلقين الضوء على هذا الرابط بين طرائق (الشفاء النفسي) في علم النفس، والعلاج النفسي، والطب النفسي والطرائق القسرية في غسيل الدماغ وسلفه، التعذيب. يحدث هذا الترابط أيضًا بالطريق المعاكس: قد يعمد أولئك الذين يطبقون الإقناع القسري إلى تسويغ تصرفاتهم باستعمال نموذج طبي، يصفون فيه الإكراه الذي يقومون به بأنه مفيد (للمريض) (أي الضحية). قد تختلط لغة (الشفاء) و(الصحة) في نماذج أخرى، وأحد النماذج الشائعة هي لغة (التوبة) و(الخطيئة) في التحول الديني الإنجيلي، حيث يكون الهدف هو إنقاذ روح المريض/الضحية. نموذج آخر هو لغة المعركة الممثلة في الاقتباس أعلاه، التي يقاتل فيها المعالِج/غاسل الدماغ قوى العدو (الأفكارَ المذهبية المنافسة) التي سيطرت على المريض/الضحية أو أفسدته. الهدف هنا هو تحرير الشخص من تلك العقائد الباطلة، وفي الواقع اتباع قول سانت جون St John: «ستعلمون الحقيقة، وستجعلكم الحقيقة أحرارًا» (يوحنا 8: 32). وغني عن القول، أن الحقيقة مورد يتولى غاسل الدماغ احتكاره.

يقدِّم جورج أورويل George Orwell الذي يدرك على الدوام إدراكًا فائقًا قوة اللغة، حالات واضحة عن الكيفية التي يبين فيها كيف يمكن تحييد هذه النماذج (الفاضلة) (الشفاء، الإنقاذ، التحرير) من قبل مسيء استخدام السلطة؛ فمثلًا في رواية أربع وثمانون وتسع مئة وألف يستخدم رجل التعذيب أوبرين O'Brien مع ونستون سميث Winston Smith نموذجًا طبيًّا صريحًا في وصف أهداف الحزب تجاه ونستون Winston؛ «هل أخبرك لماذا جئنا بك إلى هنا؟ كي نعالجك! لنجعلك عاقلًا! هل ستفهم، يا ونستون Winston، أنه ما من أحد حضر إلى هذا المكان وغادره من دون أن يشفى؟ لسنا مهتمين بتلك الجرائم الغبية التي ارتكبتها. الحزب ليس مهتمًّا بالتصرف العلني: التفكير هو كل ما يهمنا، ليس مسعانا فقط تدمير أعدائنا؛ نحن نغيرهم».

يستخدم النموذج الطبي نفسه بصورة صريحة في الشيوعية الصينية التي انبثق منها مصطلح (غسيل الدماغ) للمرة الأولى، فيصف إدوارد هنتر Edward Hunter مسرحية أطلق عليها

مسألة تفكير، أنتجت أولًا للجمهور الصيني عام 1949م، ولم تكن موجهة للمستمعين الأجانب، ينقل فيها إصلاح التفكير إلى الحياة بصورة مسرحية. يختلط في هذه المسرحية النموذج الطبي للمذاهب الفكرية البديلة التي تعد سمومًا عقلية، مع النموذج الإنجيلي لإصلاح التفكير بوصفهما آلية تحوُّل؛ فمثلًا تعطي الآنسة تساو قائدة مجموعة بعض الملاحظات:

> **«لقد هُزم الرجعيون، ويحصل الأشخاص المرضى الآن على العلاج؛ وإذا لم يعترفوا على الرغم من ذلك، وإذا ظلوا غير صريحين حول ماضيهم خلال مدة العلاج هذه، وإذا استمروا لا يريدون إنقاذ أنفسهم، والندم على أخطائهم، فلا يمكنهم لوم أي شخص آخر».**
>
> هنتر Hunter، غسيل الدماغ في الصين الشيوعية.

قد يرغب أولئك الذي يستخدمون طرائق التأثير الشمولي في تعزيز مصداقيتهم بتبني واحد أو أكثر من هذه النماذج الفاضلة؛ لكن، قد يجادل أحدهم أن هذا بالتأكيد مختلف عن الشفاء الحقيقي (أو الإنقاذ، أو التحرير). يأخذ اختصاصيو الصحة العقلية -في الغالبية العظمى من الحالات- واجبهم في تقديم العناية على محمل كبير من الجد، ويبذلون قصارى جهدهم لمساعدة مرضاهم مستخدمين أفضل العلاجات المتوافرة، لكن يمكن أن يكون للنظام الاجتماعي الذي يتعامل مع المرضى عقليًّا سلطة هائلة عليهم؛ إن هذه القدرة على الإكراه هي التي قادت إلى المزاعم بغسيل الدماغ.

تحدي الأطباء النفسيين

يواجه الأطباء دائمًا نقدًا من زملائهم في المهنة؛ هناك بعض الأعضاء في مهن الصحة العقلية الذين عندما يواجهون بسؤال مايكل فوكولت Michel Foucault البلاغي: «هل من المفاجئ أن تشبه السجون المصانع، والمدارس، والثكنات، والمستشفيات التي تشبه جميعها السجون؟»[1]، يجيبون: «على الإطلاق». بالنسبة إلى فوكولت Foucault والمناهضين للأطباء النفسيين في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين مثل ر.د. لينج R.D. Laing وتوماس زاز Thomas Szasz، فإن آليات تعريف الشخص على أنه مريض عقليًّا لا تتعلق في المقام الأول بالشفاء؛ بل هي بالسلطة التي تمارسها الدولة ضد أولئك الأفراد الذين يتصرفون بطرائق منحرفة اجتماعيًّا[2]، وحجة هؤلاء النقاد هي أن العيش في المجتمع يفرض ضغوطًا على بعض الأشخاص ولا يستطيعون التكيف معها، وهو ما يؤدي بهم إلى التصرف بطرائق مفجعة بالنسبة إليهم وإلى الآخرين.

يذهب لينج Laing بعيدًا حتى إلى تعريف السلوك الانفصامي بأنه «إستراتيجية خاصة يخترعها الشخص لكي يعيش في ظرف غير قابل للعيش فيه»[3]. من الناحية المثالية، قد يعني (شفاء) مثل هؤلاء الأشخاص إصلاح المجتمع لإزالة الضغوط المؤذية؛ لكن من الأسهل تعريف المصابين بأنهم منحرفون، أو مجانين، أو مرضى. إن هذه اللغة تصفهم بأنهم (لا أناس)، وهذا -كما تعلمنا من روبرت ليفتون Robert Lifton (في الفصل الأول)- يعد خطوة خطِرة، ولا يقتصر الأمر على إمكانية حرمان هؤلاء (اللا أناس) حقوقهم، ووضعهم في مصحات و/أو معاملتهم بقسوة (نظريًّا لمصلحتهم الخاصة، لكن أساسًا لراحة المجتمع)، بل إن الحاجة إلى النقاء في المجموعة الكبرى من الأشخاص (الطبيعيين) تجبر على إزالتهم، ويصوغها توماس زاز Thomas Szasz بقوله:

> **«يعتقد اليوم على نطاق واسع أنه كما يعاني بعض الناس أمراضَ الكبد أو الكلى، يعاني آخرون أمراضَ العقل أو الشخصية؛ هؤلاء الأشخاص المبتلون بهذه (الأمراض العقلية) أدنى نفسيًّا واجتماعيًّا من أولئك غير المبتلين بها؛ و(المرضى عقليًّا) نظرًا إلى أن عجزهم المفترض عن (معرفة ما هو في أفضل مصلحتهم)، يجب أن يُعتنى بهم من قبل أسرهم أو الدولة، حتى لو تطلبت هذه الرعاية تدخلات تفرض عليهم ضد رغبتهم أو حبسهم في مستشفى الأمراض العقلية. عُدَّ هذا النظام الكلي من المفاهيم المتشابكة والمعتقدات والممارسات، باطلًا وغير أخلاقي».**
>
> زاز، **صناعة الجنون**، Szaz, The Manufacturing of Madness.

لا يقول زاز Szasz إن السلوك (الغريب) غير موجود، ولا يقول حتى إن الناس ذوي السلوك الغريب قد لا يريدون أو يحتاجون إلى المساعدة، أو يسعون كما فعل ماكبث Macbeth في مسرحية شكسبير Shakespeare، «ننتزع من الذاكرة الحزن المتجذر، ونمحي المشكلات المكتوبة للدماغ»[4]، بل كان حريصًا على توضيح أن نقده ليس موجهًا إلى العلاج النفسي أو (الطب النفسي التعاقدي) الذي يدخل فيه المريض بحريته في عقد، ويدفع إلى المعالج مباشرة لقاء خدمات الصحة العقلية، وحيث يوجد عقوبات على المعالج الذي يستخدم القوة أو الخداع، بل يستهدف زاز Szasz بدلًا من ذلك ما أسماه (الطب النفسي المؤسسي) الذي يكون فيه الطبيب النفسي المؤسسي موظفًا بيروقراطيًّا، يتقاضى لقاء خدماته من مؤسسة خاصة أو حكومية (وليس من الفرد الذي هو عميله ظاهريًّا)؛ أهم خاصية اجتماعية لها هي استخدام القوة والاحتيال. إنه يعترض أساسًا على الإكراه، والافتراض بأن السلوك غير العادي للأشخاص مسوغ بما يكفي لانتزاع حرياتهم.

وعلَّق لينج Laing: «قد يشكل طيار قاذفة القنابل العاقل تمامًا تهديدًا أعظم على بقاء الأنواع من مريض مصاب بالانفصام أدخل إلى المستشفى وهو يتوهم أن القنبلة بداخله».

أثار روبن دوز Robin Dawes الذي كتب بعد ربع قرن مخاوف مماثلة في كتابه **بيت من ورق** الذي يجادل فيه أن أكثر مما يجب من علم النفس والعلاج النفسي تعتمد على أسس مشكوك فيها علميًّا. ناقش الآلية التي تمنح من خلالها جمعية علم النفس الأمريكية التراخيص لأطبائها الممارسين، ولاحظ أن:

> **«الأساتذة وعلماء النفس (التنظيميين) أو (الصناعيين) الذين يعملون لمصلحة منظمات تجارية أو وحدات حكومية مستثنون، والأساس المنطقي لذلك هو أن هؤلاء الناس لا يعملون لمصلحة عملاء منفردين بصفتهم الخاصة. يتعارض هذا التصور مع النظام الأخلاقي لجمعية علم النفس الأمريكية التي تنص على أن عالم النفس يجب أن يعمل لمصلحة الفرد الذي يقوِّم أو يعالج».**
>
> دوز Dawes، **بيت من ورق** House of Cards

مثل زاز، يشير دوز إلى أن موظفي الدولة هؤلاء يمكن أن تكون لهم سلطة قوية على أولئك الذين يقوِّمونهم إلى حدود، وحتى إلى سلب وجودهم، كما هي الحال على سبيل المثال عندما يقوِّمون القتلة المدانين. ولاحظ دوز أنه «لا يكاد يمكن وصف علماء النفس الذين يقررون أن القتلة يجب أن يعدموا لأنهم (غير قابلين للإصلاح)، بأنهم يعملون لأجل أفضل مصلحة لهؤلاء الناس»، فهم يعملون لمصلحة مجتمع يفضل الاستئصال (ماديًّا بعقوبة الإعدام أو اجتماعيًّا عن طريق السجن) على إعادة تأهيل هؤلاء الأفراد الذين ينكرون- كما أنكر هتلر Hitler على اليهود- أي إمكانية بأنه يمكن إصلاحهم، وهذا يذكرنا بالمواقف الشمولية التي نوقشت في الفصل الأول.

يقع على الطرف المقابل من الطيف مقابل نظريات (القوة الاجتماعية) لمعارضي الأطباء النفسيين النموذج الأحيائي/الطبي للطب النفسي الذي يتمتع بقوة هذه الأيام، والذي يقول إن الأمراض العقلية هي فرع من الأمراض الجسمية[5]. هذا صحيح دون شك في أكثر من 300 حالة حدَّدها الكتيب الرسمي للمتخصصين في الطب النفسي الأمريكيين، المنتَقَد بشدة، الدليل التشخيصي والإحصائي، والدليل الأوروبي المكافئ في الطب النفسي، والتصنيف الإحصائي الدولي للأمراض والمشكلات الصحية المتعلقة بها، لمنظمة الصحة العالمية[6]. ووفق ما يلاحظ

دوز Dawes، فمثل الأمراض الطبية، بعض الحالات الواردة في الدليل التشخيصي والإحصائي لها سبب مفهوم جدًّا نسبيًّا، وطبيعة فيزيولوجية، ومجموعة من السلوكات (الأعراض) المرافقة، ومسار محدد مع مرور الوقت. إن الأعراض الفصامية التي ترافق أحيانًا اضطراب الذئبة الحُمامية المناعي هي من هذا النوع.

لكن النسخة الحالية من الدليل التشخيصي والإحصائي يتضمن تشخيصات تراوح بين المألوفة (مثل الاكتئاب، والفصام) والحالات الغريبة بصورة صريحة (مثل اضطراب الجسم المشوَّه الذي يطالب فيه المريض بالجراحة لإزالة الأجزاء المعافاة من جسمه). ثبت أن بعض (الاضطرابات) - مثل اضطراب القراءة، واضطراب التصرف، واضطرابات الشخصية- مثيرة للجدل بصورة كبيرة. قد يعترض كثير من آباء الأطفال المصابين بعسر القراءة بشدة على فكرة أن أبناءهم يجب أن يشخصوا تشخيصًا نفسيًّا، وكثير من المعلقين على اضطرابات الشخصية قلقون من عدِّ شخصية كاملة مرضًا؛ فعلى سبيل المثال في اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع (ونسخته عند اليافعين: اضطراب التصرف)، من الصعب تصور ما الذي سيكون الشخص عليه من دون وجود (الاضطراب)؛ لكن الحالة ليست كذلك في هلوسات الفصام على سبيل المثال. تتضمن معايير تشخيص اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع الخداع، والإخفاق في التخطيط المسبق، والعدوانية، وانعدام المسؤولية، وانعدام تأنيب الضمير. على الرغم من أن اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع يُشخص بناءً على السلوك، وهذه المصطلحات تقنيًّا هي توصيفات للسلوك، إلا أنها تبدو لكثير من الناس أشبه بصفات شخصية، وهي صفات بغيضة جدًّا. يوسم الشخص الذي يعاني اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع أحيانًا بأنه معتل نفسيًّا (كثيرًا ما يبدو أنهم لا يعانون شيئًا، إلى أن يلاحقهم القانون)، على الرغم من أن الاعتلال النفسي مصطلح «يعرِّف بمجموعة من كل من الصفات الشخصية والسلوكات المنحرفة اجتماعيًّا»[7]، بمعنى آخر يمكن تعريف ذي الاعتلال النفسي بأنه ذو شخصية فظة، لا ترحم، ومخادعة، وهو كذلك يتصرف تصرفًا سيئًا. ليس واضحًا على الإطلاق إلى أي مدى يمكن أن ترتبط الفظاظة وانعدام الرحمة والخداع بمشكلات في وظيفة الدماغ، أو أن تعالج بالأدوية أو الأساليب الأخرى، مثلما يتضمنه النموذج الطبي الحيوي. إن معالجة شخص مصاب باضطراب الشخصية من دون موافقته (بالقوة أو الاحتيال)، يقترب في خطورته من تغيير الشخصية بالإكراه المترافق مع غسيل الدماغ.

يعترض بعض المعلقين على التمييز الصارم بين السلامة العقلية والجنون، المتضمنَين في كل من نموذج القوة الاجتماعية والنموذج الطبي الحيوي للمرض العقلي[8]، وتحدى آخرون جدوى الاستخدام القسري في المعالجة مثل خزغ الفص الجبهي lobotomy[9]، أو فاعلية العلاج الدوائي (المعالجة بالأدوية)[10]، أو العلاج النفسي[11]، ثمة مجموعة من النقاد في صفوف حركة الصحة العقلية الحديثة، لكنها تزدهر أكثر من أي وقت مضى، فما سبب ذلك؟ يضع كثير من الناس اللوم بقوة على (السلطة)، وهي أحد أسلحة التأثير عند روبرت شيالديني Robert Cialdini التي وصفت في الفصل الثالث، وهذا لا يعني القول بأن محترفي الصحة العقلية يريدون الضغط على عملائهم أو أن يخدعوهم، فإن كانت قلة منهم محتالين، فإن الغالبية العظمى منهم ذوو نوايا حسنة.

ولكن، لا يلزم أن تمارس تقنيات التأثير بإضمار الخداع: فقد تكون السلطات صادقة (طبيب يصادق على حبوب دوائية)، وقد تكون كاذبة (ممثل يكون له دور طبيب في مسلسل تلفازي شهير يصادق على حبوب دوائية). ينظر المتخصصون في الصحة العقلية إلى سلطتهم على أنها أصيلة، توافق عليها الدولة وتدعمها سنوات من التدريب، ونحن نقبل سلطتهم- ونقتبس من دوز Dawes مرة أخرى- لأننا «كنا نسمع باستمرار أنهم خبراء، لأننا عرضة لقبول ما يقول الأشخاص الذين يدعون أنهم سلطات»، يتطلب منا فهم السبب في أن السلطة سلاح تأثير قوي أن نزور مرة أخرى علم النفس الاجتماعي.

قوة السلطة

«هذه رغبتي، وأمري، وإرادتي سبب كاف».

جوفينال Juvenal, Satire.

بدأت دراسة السلطة في علم النفس الاجتماعي في وقت مبكر، لأسباب ليس أقلها أن كثيرًا من الأسماء الكبيرة في هذا الفرع المعرفي قد انتقلت إلى أمريكا هربًا من نظام سلطوي-ألمانيا النازية. اقترح ثيودور أدورنو Theodor Adorno وزملاؤه فكرة (الشخصية السلطوية) (التي تقاس بمقياس أدورنو Adorno للفاشية واختصارًا F): ويمثلها الشخص الذي يحابي بصورة مفرطة أولئك الموجودين في السلطة ويعادي على نحو غير عادي أي شخص ليس في المجموعة نفسها، ويحاجُّون بأن الانضباط الصارم المفرط من قبل الآباء يجعل بعض الأطفال يوجهون العدوانية الطبيعية نحو أهداف أضعف بدلًا من إظهارها مباشرة بوجه الآباء. عند نمو هؤلاء

الأطفال، يصبحون نفسيًّا عرضة للخضوع للسلطة التي يرونها ممثلة عن الآباء، ويحتاجون إلى أن يكونوا ضمن نظام تراتبي هرمي، ويستمتعون بممارسة السلطة على الآخرين. على الرغم من أن البحوث اللاحقة ألقت ظلالًا من الشك حول ما الذي يقيسه مقياس الفاشية F في الواقع[12]، فإن مفهوم السلطوية ظل مؤثرًا.

وسعت بحوث ملتون روكيش Milton Rokeach أنواع الشخصية إلى مدى أبعد من أتباع المذاهب الفكرية للجناح اليميني (الحرف F في المقياس يشير إلى الفاشية fascism)، ليس فقط أن الأفراد السلطويين بصورة كبيرة يميلون إلى تسجيل درجات عالية في تصنيفات الحزم والتحيز، بل إنهم أيضًا يفعلون ذلك بصرف النظر عن مذهبهم الفكري، علمانيًّا كان أو دينيًّا. الأب سيمون Simon الذي تكلمنا عن تحوله إلى الشيوعية في الفصل الأول، وصفه روبرت ليفتون Robert Lifton بأنه شخصية سلطوية، ويقول روكيش Rokeach إن المهم هو نوع المعتقد وبنيته، وليس محتواه المحدد[13].

ما لبثت نظرية الشخصية السلطوية للسلطويين أن قُوبلت بالتحدي، ويحاجج النقاد أنه بربطها التحيز «بديناميكيات الشخصية الفردية، فإنها تقوض من أهمية المواقف الاجتماعية السائدة في تشكيل مواقف الناس»[14]، وأنها تتجاهل العوامل الاجتماعية الثقافية والتاريخية التي توثر في التحيز، وأنها- بوصفها نظرية في الفروق الفردية- قد أخفقت في تفسير الانتشار الكبير للاستبداد في مجتمعات مثل ألمانيا النازية. علاوة على ذلك، إذا كانت بعض الشخصيات فقط عرضة للطاعة العمياء، فإن أي شخص محظوظ بما يكفي للعيش في بلد حر حرية صحيحة، والذي يشجع الآباء المتحررين، يمكنه- على ما يفترض- أن ينحي أي تهديد للطغاة في منطقته.

وهذا ما اعتقد به كثير من الناس فعلًا، إلى أن وصل ستانلي ميلغرام Stanley Milgram إلى قاعة الشهرة في علم النفس، فقد تحدى في سلسلة من التجارب الشهيرة الفكرة القائلة أن أشخاصًا معينين فقط عرضة للسلطة، ناقلًا التركيز من الشخصية إلى السلوك، ومبينًا أنه حتى الطلاب الأمريكيون المتعلمون على مستوى رفيع ذوو العقول المتحررة (المناقضون التقليديون للألمان المحبين للسلطة) قد يوافقون على تطبيق مستويات خطِرة من الصدمات الكهربائية على الناس، إذا أعطاهم عالم النفس التعليمات لفعل ذلك، وقد تضمنت هذه التجارب التي كانت ظاهريًّا عن التعلم خداع شخص ليعتقد أنه يسبب صدمات كهربائية لمتطوع آخر، هو (المتعلم) (هو في الواقع شريك في التجربة يتظاهر بأنه تلقى الصدمات). يقدم الشخص

اختبار تعلم للشريك، وتُعطى الصدمات عندما يرتكب الشريك خطأً (مرتبًا له مسبقًا)، فإذا تردد الأشخاص، يعطي الباحث أوامره لهم بالاستمرار.

وفق أسلحة التأثير عند روبرت شيالديني Robert Cialdini التي نوقشت في الفصل الثالث، يمكننا ملاحظة أن ميلغرام Milgram لم يكن يستخدم السلطة فقط، ولكن الالتزام والثبات كذلك. مستوى الصدمة الكهربائية المفترضة كان في البداية منخفضًا جدًّا؛ وازداد بدرجات إلى مستويات خطِرة مع تقدم التجربة؛ لذا فالالتزام المبدئي بالمشاركة في التجربة، وحتى التقدم في المستويات الأولى القليلة من الصدمة كان أمرًا سهلًا نسبيًّا، لكن في كل مرة يوافق فيها المشارك على زيادة مستوى الصدمة، فإنه يسقط بصورة أعمق في مصيدة الالتزام والثبات، وهو ما يزيد من صعوبة الرفض. يعد هذا النوع من التَّصيُّد طريقة محببة لخبراء التأثير، لهذا السبب كثيرًا ما يدرَّب الجنود المعرَّضون لتهديد الوقوع في الأسر والاستجواب على إعطاء أسمائهم، ورتبهم، وأرقامهم المتسلسلة، ولا شيء آخر.

طلب ميلغرام Milgram من الأطباء النفسيين، وطلاب الدراسات العليا، والهيئة التدريسية في العلوم السلوكية، وطلاب السنة الثانية، والبالغين من الطبقة المتوسطة[15]، أن يتوقعوا عدد الأشخاص الذين سيطيعون تمامًا ويعطون أعلى صدمة ممكنة يحتمل أن تكون قاتلة، فكانت الإجابات جميعها حول 1–2 في المئة، وهو تخمين ليس سيئًا لعدد الساديين في عموم السكان. لسوء الطالع، لم يكن ميلغرام يدرس السادية. في الدراسة الفعلية، كان ما يصل إلى ثلثي الأشخاص مطيعين تمامًا، وبدلًا من أن تكون مشكلات الطاعة العمياء مقتصرة على أقلية ذات نوع (خطأ) من الشخصية، فإن ميلغرام Milgram يحاجج:

> **«ربما يكون هذا هو الدرس الأكثر جوهرية في دراستنا: الناس العاديون الذين يقومون ببساطة بوظائفهم، ومن دون أي عدائية خاصة من جانبهم، يمكن أن يصبحوا عملاء في عملية تدمير مرعبة. علاوة على ذلك، حتى عندما تصبح التأثيرات المدمرة لأعمالهم واضحة بجلاء، ويطلب منهم القيام بأعمال متنافرة مع المعايير الأساسية للأخلاق، فإن عددًا قليلًا نسبيًّا من الناس لديهم الموارد اللازمة لمقاومة السلطة».**
>
> ميلغرام، **الخضوع للسلطة** Milgram, Obedience to Authority.

يدور تفسير ميلغرام Milgram لنتائجه حول ما أسماه (التحول العاملي). تصور الإنسان (والعضويات الأخرى) على أنه قادر على العمل في حالتين: (استقلالي) و(عملائي)، فعندما

يعمل البشر باستقلالية، يكونون أنانيين وأحرارًا؛ أفعالهم تحت سيطرتهم ويخدمون حاجاتهم، وإذا كان المجتمع يتكون كليًّا من مثل هذه الوحدات المستقلة، فلربما تقترب الحياة من رؤية توماس هوبز Thomas Hobbes الشهيرة لدولة الطبيعة: «انعزالية، وفقيرة، ومقرفة، وبهيمية، وقصيرة»[16]. يجادل ميلغرام Milgram أن فعل التعايش ذاته في المنطقة نفسها يتطلب من مثل هذه الوحدات أن تحد من سلوكها الأناني الذاتي؛ يجب عليها أن تتعلم -على سبيل المثال- ألا يهاجم بعضها بعضًا، ويعتقد أن هذا الكبت يكمن وراءه الضمير الفردي.

يعيش البشر في مجموعات معقدة جدًّا، يستمدون منها فوائد مهمة للبقاء، وحالما يصبحون جزءًا من نظام اجتماعي معقد، يمكنهم مجتمعين تحقيق أكثر بكثير مما يحققونه منفردين. تميل الأنظمة الاجتماعية إلى تنظيم نفسها في تسلسل هرمي؛ لأن ذلك يسمح لعدد من الأعضاء بتنسيق أعمالهم من قبل عضو أعلى في التسلسل الهرمي، لكن لا يمكن أن يكون هذا التنسيق (السيطرة) فاعلًا فقط إلا إذا ضحى كل عضو بجزء من استقلاله الشخصي؛ لأنه بخلاف ذلك قد يتعارض التحكم الفردي مع السيطرة النظامية. سيكون ذلك غير مريح للفرد، وسيُضرُّ بكفاءة المجموعة، لذلك فإن التحول في السلوك والموقف- التحول العاملي- أمر مطلوب، كما بيَّنه ميلغرام Milgram بالتحديد؛ فالشخص الذي يدخل في نظام سلطة لا يعود ينظر إلى نفسه متصرفًا بناءً على أهدافه الخاصة، بل يصبح يرى نفسه عاملًا في تنفيذ رغبات شخص آخر. يأتي مثال على التفكير العاملي من عالم الصواريخ فيرنر فون براون Wernher von Braun، وهو واحد من عدة علماء نازيين ذهبوا للعمل لحساب الأمريكيين بعد الحرب العالمية الثانية، كما يسخر توم لهرر Tom Lehrer:

> **«بعد أن تصبح الصواريخ في الأعلى، من يهمه مكان سقوطها؟»**.
>
> **«هذا ليس قسمي»، يقول فيرنر فون براون Wernher von Braun.**
>
> لهرر Lehrer، فيرنر فون براون Wernher von Braun.

شهدت الدول الغربية في العقود القليلة السابقة ميلًا نحو تحدي السلطات التقليدية، فالأطباء، والكهنة، وعمال القطاع العام، والسياسيون، قد رأوا جميعًا أن أرصدتهم قد هبطت إلى حد ما. مع انكماش مجالي الدين والقطاع العام، وامتداد مخالب حركة العصر الجديد إلى الطب، تضاءلت قوة السلطات التقليدية، ومع ذلك فإن السلطة، مع كونها مفيدة جدًّا لغاسلي العقول، تستمر في كونها واسعة الانتشار وسمة ضرورية للمجتمعات عبر العالم.

الطاعة للسلطة مغروسة (وأستعير من لويس ألثوسير Louis Althusser، كما فعلت في الفصل السابق) بوساطة مجموعة واسعة من أجهزة الدولة الفكرية المذهبية والقمعية، من ضمنها وسائل الإعلام، والمؤسسات الدينية والسياسية، والتعليم وأنظمة العدالة الجنائية.

ولما كانت الطاعة أساسية للحفاظ على المذاهب الفكرية جميعها، فإنه يمكن أن ينظر إليها على أنها (ما وراء المذهبية الفكرية)؛ أي إنها أعلى وأبعد من أي مذهب فكري معين. تُكافأ المطاوعة، وكثيرًا ما يكون ذلك بالترقية إلى رتبة أعلى في النظام الاجتماعي، «مما يحقق في آن واحد تحفيز الشخص وإدامة الكيان»، والمعارضة مرفوضة وربما تُعاقب. لاحظ ميلغرام Milgram أنه إذا كنا سنطيع فيجب علينا أن نعُدَّ السلطة شرعية وثيقة: هذه أحكام تعتمد على السياق، وأوامر السلطة هي أيضًا تعتمد على السياق، «وهكذا، ففي الحالة العسكرية يستطيع النقيب أن يأمر مرؤوسًا بتنفيذ عمل خطِر جدًّا، لكنه لا يستطيع أن يأمره بتوزيع نقوده». وفي نهاية المطاف ستكون السلطة مقبولة فقط إذا قُبل «التبرير الفكري المذهبي الشامل» (بالنسبة إلى تجارب مليغرام Milgram فوجهة النظر بأن العلم (مشروع اجتماعي شرعي)). وهكذا، فالطاعة للسلطة ليست طاعة عمياء: إنها تعتمد بصورة كبيرة على السياق النفسي والاجتماعي ومعتقدات الشخص المعني.

يلخص ميلغرام Milgram عمله بوضع قائمة بعدد من الموضوعات المتكررة التي تميز (الحالة العاملية) للشخص المطيع. الأول هو الميل إلى التركيز في التفاصيل الإدارية والفنية بدلًا من الصورة الكبرى، أو وجهة نظر أخلاقية، فتصبح الأخلاقية متمركزة حول الطاعة التي تعرَّف بأنها جيدة بحد ذاتها، ويميل الفرد إلى إضفاء قيمة عالية على الانضباط، والواجب، والولاء، والتنافس، وهذه الفضائل «ببساطة هي الشروط الفنية للحفاظ على النظام الأكبر»، وتتغير اللغة؛ فتختفي العبارات المنمقة للتأثيرات الأخلاقية للأفعال. وتنتثر المسؤوليات صعودًا في التسلسل الهرمي، وكثيرًا ما تقسِّم المنظمات مكونات الأفعال المشكوك فيها أخلاقيًّا بين الأفراد؛ فقد حرص النازيون على أن يكون الرجال الذين يختارون ضحايا معسكر الموت بعيدين كل البعد عن أولئك الذين يشغِّلون غرف الغاز. يميل الناس إلى أن يعاملوا على أنهم وسائل لتحقيق الغاية، وهي خطوة يسوغها إرضاء (بعض الأهداف المذهبية الفكرية السامية)، ولا تُشجِّع المعارضة ولا حتى التعليق.

هـل يبـدو الأمـر مألوفًـا؟ تحاكي هـذه الموضوعات مناقشـة روبـرت ليفتـون Robert Lifton للشـمولية (انظـر الجدول 1، صفحـة 35): تحميل اللغة بالعبارات المنمقـة، وأصالة العقيدة على الفـرد مـع قمع اسـتقلالية الفـرد لمصلحـة النظام، والعلـم المقدس للمذهب الفكـري، والقبول دون مناقشـة، وسـلب الوجـود حيث يمكن إعطاء صدمـات كهربائية قاتلة (على مـا يبدو) لغرباء أبريـاء. يبـدو أن (الحالة العاملية) التي حرضتها طاعة السـلطة الشـرعية الوثيقة، عامل مسـهِّل للفاعلية الشـمولية. بعبارة أخرى، ليسـت الشمولية انحرافًا غريبًا، بل إنها خطر مستمر ينشأ من الآليات النفسـية نفسـها التي تسـمح لنا بإنشـاء مجتمعات بالأساس. على حد سـواء، يقود تطبيق هـذا الاسـتنتاج علـى الموضوع المركزي لهـذا الفصل إلى الحكـم الآتي: بالقدر الـذي يعتمد فيه المتخصصـون بالصحـة العقليـة على السـلطة لتقديـم تأثيرهـم، يكونون عرضة لخطـر التفكير الشمولي؛ عملهم هو تغيير العقول، فهل هم بذلك عرضة لتهمة غسيل الدماغ؟

الشمولية وغسيل الدماغ

الخـوف مـن غسـيل الدماغ هـو الخوف من فقدان السـيطرة، بـل ومن فقدان المـرء لهويته نفسـها، ويعبر عن هذا الخوف بطرائق مختلفة في كل من مجالات حياة الإنسـان التي يُزعَم فيها حصـول غسـيل الدمـاغ. قدَّمـت الثقافـة الغربية نصبًا رمزية: المرشـح المنشـوري (سياسـية)، أربـع وثمانـون وتسـع مئـة وألف (وسـائل إعلام)، عالم شـجاع جديـد (دوائية)، والجـدار لبينك فلويـد Pink Floyd (تعليميـة). تقـدِّم مهن الصحـة العقلية، بما تشـمله من التسـميات، والتحكم، وشـفاء المنحرفيـن، نصبًـا رمزيًّا آخر: فيلم سـتانلي كوبريـك Stanley Kubrick المبدع من رواية أنتونـي برجـس Anthony Burgess برتقالـة آلية، الذي يعذَّب فيه البطل الشـاب العنيف بالمعالجة المقيتة. كما رأينا سـابقًا، حاججت الحركة المضادة للطب النفسـي في السـتينيات والسبعينيات بأن الطب النفسـي المؤسسـي كان على أقل تقدير شـموليًّا: ليس فقط أنه خدم في نشـر المذهب الفكري لمن هم في السـلطة والحفاظ عليه، بل إنه فعل ذلك بأسـاليب قمعية تتسـم بالشراسـة، هل هذا حق؟

يحاجـج روبـن دوز Robin Dawes، مثل آخرين قبلـه، أن مهن الصحة العقلية تعتمد اعتمادًا زائـدًا علـى قوة السـلطة، وهذا مع ولعنا بتحديد المجموعات الداخليـة والخارجية، يمكن أن ينتج قوة اجتماعية سـامة حقًّا، لكن قد يكون ذلك نتيجة طبيعية لطبيعة الإنسـان أكثر من كونه حقيقة مبرمة عن الطب النفسي والعلاج النفسي. تستثنى المعالجة الخاصة التي يحصل عليها المريض

ملء إرادته مقابل أجر من انتقادات توماس زاز Thomas Szasz: فقط عندما يتأصل الإكراه فإنه يقرع ناقوس الخطر، يمكن أن يبدو الطب النفسي المؤسسي بأنه ذو سمات شمولية، ولكن مرة أخرى، الشمولية هي مسألة تتعلق بالدرجة، وليس بتصنيفها بنعم أو لا. ومهن الصحة النفسية هي حزمة متفاوتة على نطاق واسع، تمتد من العلاج الخفيف على المدى القصير بالمواد الكيميائية أو من دونها، وصولًا إلى الإدخال في المصحات والجراحة القسرية، لا يمكن أن يجادل أحد ببساطة أن جميع العلاجات شمولية؛ بعضها أكثر شمولية من الآخر.

فيما يتعلق بالتعليم، فقد حاججت في الفصل الثالث أنه على الرغم من أن الواقع يعجز غالبًا عن تحقيق الوضع المثالي، فإن الوضع المثالي في التعليم هو المضاد للشمولية: يسعى إلى زيادة الاستقلالية الشخصية والحرية الفكرية وليس إلى تقليلها. يجري عالم النفس روبرت ليفتون Robert Lifton في كتابه **إصلاح التفكير وعلم نفس الشمولية** مناقشة مماثلة حول العلاج النفسي، في حين يعترف أن «التحليل النفسي، في جوانبه التنظيمية- مثل أي حركة ثورية سواء أكانت علمية، أم سياسية، أم دينية- قد وجد صعوبة في الحفاظ على روحه التحررية الأولية»، ويحاجج بأن «روح التحليل النفسي والعلاجات النفسية المستمدة منه تعارض مباشرة روح الشمولية. وفي الواقع، فإن بحوثها المضنية، والمتعاطفة مع عقول الإنسان منفردة، قد وضعتها ضمن التراث المباشر للتيارات الفكرية الغربية التي قامت تاريخيًّا أكثر من غيرها بمواجهة الشمولية مثل: الإنسانية، والفردية، والبحث العلمي الحر». تشديد العلاج النفسي على فردية الإنسان هو بالتأكيد مناقض تمامًا للتعميمات النمطية التي يوظفها التفكير الشمولي.

بالتأكيد، من الصعوبة بمكان التفكير بهذه الطريقة بصورة مستمرة؛ فالقوالب النمطية، على كل حال، وجدت لتجعل حياة أدمغتنا أسهل؛ لذا فليس من المستغرب أن يعجز المعالجون النفسيون، مثل التربويين، في تحقيق مثلهم العليا.

تقدم تقنية العلاج السلوكي المعرفي (CBT) Cognitive Behavioral Therapy مثالًا أحدث من التحليل النفسي، وهي طريقة تهدف إلى تعليم المريض طرائق فعالة في فحص الأفكار غير المرغوب فيها وتغييرها، مثل (الأفكار التلقائية) التي تصيب الأشخاص الذين يعانون الاكتئاب. هذه الأفكار، التي سميت بهذا الاسم لأنها تبدو وكأنها تقفز فجأة إلى العقل، في غالبيتها الساحقة سلبية، تبدي الشعور بالذنب، واللاأهمية، وكراهية الذات، بل والانتحار. تساعد طريقة العلاج السلوكي المعرفي المريض على التوقف والتفكير، فعوضًا عن قبول الأفكار السلبية دون نزاع (ومن ثم تركها تؤثر في المزاج والسلوك) يتعلم المريض أن يعدها مظهرًا من مظاهر الاكتئاب

لا يتعين أخذها بالجدية نفسها للأفكار (الطبيعية)، وهكذا فإن تأثيراتها في المزاج والسلوك يمكن أن تُقلَّل بصورة تدريجية. كما سنرى لاحقًا، فإن القدرة على الوقوف والتفكير تميز جميع (التيارات الفكرية) المضادة للشمولية وتميز المعارضة لأنظمة الحكم الشمولية؛ يهدف العلاج السلوكي المعرفي إلى تعزيز هذه القدرة، ومن ثم دعم إحساس المريض بالتحكم.

الخلاصة والاستنتاجات

تحدثنا مهن الصحة العقلية عما نحاول تجاهله: الهشاشة المخيفة لتراكم الأفكار الملتحمة الذي نسميه الذات. إن قوة المخاوف التي تثيرها تفسر لماذا جوبهت تهمة غسيل الدماغ بتلك الشراسة على أرض المعركة هذه. ولكن غسيل الدماغ- كما رأينا في الفصل الأول- له مظاهر عديدة بوصفه آلية، أو رمزًا، أو مفهوم الملاذ الخير، وقد رأينا في هذا الفصل أنه فيما يتعلق بمهن الصحة العقلية، فقد وضح علم النفس الاجتماعي الشيء الكثير، مقوضًا الحاجة إلى مفهوم الملاذ الأخير. إنَّ فهمنا أكثر لأسلحة التأثير، خاصة السلطة، وللظواهر النفسية الاجتماعية مثل انتشار المسؤولية، يعني أننا نستطيع أن نستبدل بعملية غسيل الدماغ السحرية مجموعةً من مفاهيم أكثر علمية، تحمل -وإن كانت لا تزال غير مفهومة بالكامل- قوة تفسيرية وتنبؤيه كبيرة.

لكن فهم غسيل الدماغ هو أكثر من مجرد تفسير عقلاني. لم يكن الرعب في لب برتقالة آلية ناجمًا عن العنف المجمَّل جدًّا الذي تمارسه العصابات، بل عمَّا تعرض له أحدهم باسم المعالجة. نحن لا نفهم أنفسنا، وكلما قل فهمنا ازداد خوفنا من قدرتنا على الحفاظ على حريتنا في مواجهة أولئك الذين قد يسعون إلى الحد منها. يرمز غسيل الدماغ إلى عجزنا في عالم عقولنا التي نعتز بها، إنه يهاجم شعورنا أن الذوات فوق كل شيء آخر مقدسة، ويهاجم أدمغتنا التي هي المكان الوحيد الذي نستطيع أن نرقد فيه بسلام، إنه يمثل الرهبة التي تعترينا جميعًا من التصرف دون أسلوب أو دون سيطرة، أو من الاستيقاظ لنجد أننا فعلنا شيئًا مروعًا، مثلما استيقظ الألمان المخلصون بعد كابوس النازية. يمثل غسيل الدماغ الجانب المظلم من الطاعة، وبينما تستمر مهن الصحة النفسية بالاعتماد بصورة كبيرة جدًّا على السلطة فلا يمكن أن يهدئ الخوف من غسيل الدماغ. وبالفعل، ربما يكون من الأفضل عدم استبعاد هذا الخوف: إنه يؤدي إلى تشكيك صحي يشجعنا على مساءلة السلطة، وتقليل استخدام القوة في الطب النفسي ومساءلة الحوافز والأساليب عندما تستخدم القوة، وتقييد المساعدة بأولئك الذين يريدونها أو يحتاجونها،

وترك البقية للقوانين التي تربطنا جميعًا. وبقدر ما يساعدنا الطب النفسي والعلاجات النفسية على زيادة فهمنا لأنفسنا، فَهُما مضادان للشمولية، وأعتقد أن هذه الروح التحررية حافز صادق لعديد من ممارسيهما. كما في التعليم الذي يشترك في العديد من الأهداف نفسها، فإن المثل العليا للعلاج العقلي نبيلة، على الرغم من أن الواقع قد يخفق في مجاراتها.

الفصل الخامس

أنا أقترح، أنت تُقنع، وهو يغسل الدماغ

«تركت الطبيعة هذه الصبغة في الدم

أن جميع الرجال يصبحون مستبدين إن استطاعوا».

دانيال ديفو Daniel Defoe، **تاريخ عريضة كنتيش** The History of the Kentish Petition

بحثت في الفصول السابقة في مزاعم غسيل الدماغ الموجهة ضد مجموعة من الممارسات الاجتماعية: الدين، والسياسة، والإعلان، والتعليم، والطب النفسي، والعلاج النفسي. إن جميع المؤسسات التي تجسد هذه الممارسات تعمل على تغيير عقول الناس، وجميعها مما يمكن أن يسميها لويس ألثوسير Louis Althusser بأجهزة فكر مذهبي وقمع لمصلحة الدولة ؛ فهي تحاول أن تنشر بالقوة، أو الخفاء، أو الإقناع، مجموعة من الأفكار التي تؤثر في السلوك (مذهب فكري). في هذا الفصل، وباختصار نسبي، وبالاعتماد على أفكار من الفصول السابقة، سوف أبحث في مؤسستين اجتماعيتين أخرَيين: الجيش ونظام العدالة الجنائية. وبعمق أكثر نسبيًّا سأبحث أبسط الوحدات اجتماعية، هي الأسرة، مستخدمًا مثالًا عن العلاقات المتعسفة لدى الكهول لمعالجة قضية غسيل الدماغ بين فرد-إلى-فرد، وأخيرًا، سوف أبحث في إحدى أكثر الممارسات الاجتماعية خبثًا: التعذيب.

الجيش

«يُهرم الجيش الرجال أسرع من القانون والفلسفة؛ إنه يعرضهم أكثر للجراثيم التي تُضعف وتُدمِّر، وتحجبهم كليًّا عن التفكير، الذي يحفز ويحافظ».

هـ.ج. ويلز H.G. Wells، Bealby

توفر القوات المسلحة للدولة الوسائل الأساسية للدفاع والهجوم ضد أولئك الذين يحددهم المذهب الفكري للدولة على أنهم أعداء، سواء في الداخل أو الخارج. والوظيفة الفكرية المذهبية الخاصة للجيش هي تحويل المواطنين -الذين يتعلمون عادة منذ الطفولة أن القتل خطأ- إلى

عناصر مستعدة للقتل، ولتحقيق ذلك، يؤكد الجيش أهمية طاعة السلطة. ووفق ما بينت تجارب مليغرام Milgram، فإن إقناع الناس الاجتماعيين بدرجة عالية، والمتحررين، واللطفاء عادة بأذية الآخرين لسبب ما أمر سهل بصورة مفزعة إذا قُبلت السلطة التي تعطي الأوامر. يعلّق إلياس كانيتي Elias Canetti أن هذا «النظام من الأوامر ربما يكون أوضح ما يكون في الجيوش، ولكن لا يكاد يوجد أي حقل في الحياة المتحضرة لا تصل إليه الأوامر ولا يوجد أحد منا لا تؤثر فيه»[1].

يسهِّل الدور الاجتماعي الأساسي للسلطة الممنوحة للجيش بحكم دوره في الدفاع عن الدولة، من قبولها، وتقدم الدولة المسوِّغ الطاغي لذلك وليس الجيش نفسه. حسب الموقف، قد يكون هذا المسوغ واضحًا وراسخًا، كأن يكون –على سبيل المثال– الحاجة إلى الدفاع عن الأرض، أو المواطنين، أو مواطني القوى الحليفة، وإذا لم توجد مسوغات راسخة، تقدَّم مسوغات أكثر تجريدًا؛ مثل تهديد الحريات، أو القيم، أو (طريقتنا في الحياة). وعندما تكون المسوغات قابلة للتحدي، وذلك حين تكون سلطة السياسيين التي تدافع عن المسوغات غير مقبولة بالضرورة؛ عندها تكون أفضل كلما كانت أكثر رسوخًا، أما عندما تكون السلطة السياسية قوية، فإن الأفكار الأثيرية المجردة تفي بالغرض.

إن معرفة أن الإجراءات مطلوبة وموافق عليها من قبل الدولة يمكن أن تساعد على زيادة الطاعة وتقليل التوتر الناتج من تنفيذ هذه الإجراءات، وعندما تسوء الأمور فيمكن استعمال مسوغٍ مجرد اتباع الأوامر، كما حدث مع الجنود النازيين بعد الحرب العالمية الثانية. يعمل جنود الدولة عادة في بيئة يستطيعون أن يفترضوا فيها أن الأوامر قد أصدرت ضمن إطار قانوني وسياسي تحظى قوانينه بقبول واسع، ولكن الإجراءات المتطرفة مثل القتل، حتى في الحرب التي تلتزم باتفاقية جنيف، يمكن أن تسبب توترًا شديدًا لأولئك الذين يقدمون على القتل.

لذلك طوَّر التدريب العسكري عددًا من طرائق تقليل التوتر، وكما يمكن أن نتوقع، يؤكد مثل هذا التدريب الطاعة، والولاء، والانضباط، وهي فضائل تساعد على الحفاظ المذهب الفكري السائد ونشره، وتتيح انتشار المسؤولية من خلال التسلسلات الهرمية العسكرية والسياسية. تستخدم أيضًا مستويات عالية من النشاط الجسدي في أثناء التدريب، تثبط التفكير المستقل، وتقيد الحرية الشخصية. إن استعمال التقنيات والتأكيد عليها في الحروب الحديثة بالخاصة، يمكن أن يساعد على جعل المعتدي الذي يسحب الزناد أو يلقي قنبلة، بعيدًا عن الضحية التي تطلق عليها النيران أو تفجر إلى أشلاء، وكلما كبرت المسافة، كان المعتدي أكثر تعطشًا للدماء.

وبالفعل، ووفق ما كتبت المؤرخة جوانا بورك Joanna Bourke، فإن دراسة مسحية واسعة الأطياف لجنود المشاة الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية وجدت أن «الجنود الذين لم يغادروا أمريكا هم الأشد كراهية للعدو، وأن الرجال الذين خدموا في أوروبا يكرهون اليابانيين أكثر من الرجال الذين كانوا يقتلون الجنود اليابانيين في المحيط الهادئ»[2]، أو كما عبر عنها الروائي جون بوشان John Buchan قبل ذلك بثمانين عامًا، «تجد الكراهية أكثر بين الصحافيين والسياسيين في وطنهم منها بين الرجال المحاربين»[3].

تقدم التقنية أيضًا أنشطة معقدة تتطلب انتباهًا ومهارة، ويؤدي ذلك إلى نشوء ما أسماه عالم النفس الاجتماعي روي باوميستير Roy Baumeister (التفكير منخفض المستوى)، الذي يصفه بأنه: «طريقة تفكير صارمة جدًّا، وضيقة، وجامدة، مع التركيز على هنا والآن، على تفاصيل ما يقوم به المرء»[4]. كل شخص ينغمس بعمق في نشاط ما يمر بهذه التجربة؛ إن وصف باوميستير Baumeister هذا يذكرنا (بالحالة العاملية) عند ستانلي ميلغرام Stanley Milgram التي نوقشت في الفصل الرابع. أعطى وليام هاملتون William Hamilton الفيلسوف من القرن التاسع عشر عددًا من الأمثلة في كتابه **ما وراء الطبيعة** Metaphysics، تضمنت عالم رياضيات إغريقيًّا كان من سوء طالعه أن كان موجودا في مدينة سيراكيوز في عام 212 قبل الميلاد، عندما هاجم الرومان المدينة واقتحموها.

> **كان أرخميدس Archimedes، كما هو معروف، مستغرقًا في التأمل الهندسي، إلى درجة أن أول ما لفت انتباهه لاقتحام سيراكيوز circulos كان جرحه الذي قتله، وكان صراخه عند دخول الجنود الرومان: «الرجاء عدم الإزعاج»، على الأقل لعلماء الهندسة[5].**

وضع عالما النفس روبن فالشير Robin Vallacher ودانيال واجنر Daniel Wegner التفكير منخفض المستوى ضمن إطار أوسع أسمياه نظرية تحديد الفعل. تبدأ هذه النظرية بملاحظة أن معظم الأفعال غير قطعية؛ أي إنها يمكن أن توصف بأساليب متعددة، باستخدام مستويات مختلفة من الوصف بمصطلحات مختلفة؛ فمثلًا يمكنني التحدث عن حركة إصبعي بلغة المفاصل وتقلص العضلات (وصف آلي، أتعامل به مع إصبعي كما لو أنه آلة)، أو يمكنني وصف الحركة بأنها نقرة على فأرة الحاسوب (وصف وظيفي للحركة يشير إلى غرضها الآني؛ التفاعل مع فأرة الحاسوب)، أو يمكنني القول إنني نقلت المؤشر إلى نص أود أن أجعله بالخط المائل (وصف مقصود، يشير إلى حالتي الذهنية)؛ هذه الأوصاف الثلاثة مختلفة تمامًا، لكنها جميعًا تصف النشاط نفسه.

يرى فالشير وواجنر Vallacher and Wegner أنه «في حين أن الناس قد يفكرون في أي فعل بطرائق عديدة، إلا أنهم يفكرون عادة في فعل ما بطريقة واحدة فقط»[6]، وهذا يعني أنني قد أكون من حيث المبدأ مدركًا للطرائق العديدة التي يمكنني أن أصف فيها حركة أصبعي، ويمكنني إذا ضغطت أن أضع قائمة بها، ولكن في أي لحظة محددة سيكون وصف محدد واحد فقط نشيطًا في أفكاري، وذلك الوصف المحدد فقط ذو صلة بالأسباب التي تدفعني للتصرف على الصورة التي أتصرف بها، فعندما أحرك أصبعي، فأنا أفكر أين أريد أن يكون المؤشر؛ التفكير في العضلات والمفاصل لا يخطر لي.

هناك حركات أصابع محددة -عند تصويب بندقية نحو شخص ما مثلًا- ترتبط بأوصاف ذات مفردات أخلاقية (قتل الناس خطأ)، وتعتمد هذه الأوصاف على نظرةٍ إلى الناس على أنهم غايات بذاتهم، وكيانات مستقلة ذات قيمة، وليسوا مجرد وسائل يمكن من خلالها تحقيق المرء لأهدافه. إذا كان الوصف الأخلاقي نشطًا عندما أكون على وشك تحريك أصبعي، فسيقلل ذلك بصورة كبيرة من فرصة أن أقوم بالفعل؛ إذ إن موانعي الأخلاقية قوية عندما يتعلق الأمر بالقتل، لكن إذا أردت قتل الشخص الذي أوجه إليه البندقية، فسيكون من الضروري تنشيط وصف آخر بدلًا من الوصف الأخلاقي، ومن ثم فالتركيز على تفصيلات المستوى المنخفض للفعل، بدلًا من مضامينه على المستوى العالي، يجعل من السهل سحب الزناد. يعطي واجنر Wegner مثالًا للص عصبي فاجأه صاحب المنزل:

> **«وهكذا، فإن الفعل الذي بدأ في المراحل الباكرة من التخطيط على أنه (حماية نفسي) (حمل مسدس) قد يترجم في خضم اللحظة بمجرد (سحب الزناد)، ولا يفهم إلا لاحقًا فقط من حيث معناه الأكبر ومدلولاته الأخلاقية بوصفه (إزهاق حياة)، على الرغم من أن اللص قد يكون فعل جميع الأشياء التي من شأنها أن تجعل سلوكه يُنظر إليه فيما بعد على أنه مقصود. (حمل المسدس، سحب الزناد)، فإن النية الصريحة (إزهاق حياة) قد لا تكون واردة في عقله سابقًا أو عند تنفيذ الفعل».**
>
> واجنر Wegner، **وهم الإرادة الواعية**، صفحة 160.

يتيح هذا التركيز على التفاصيل للقاتل تجنب التفكير في الحالة الإنسانية للضحية، كما صاغها الباوميستير Baumeister: «ليس فقط أن هذه الطريقة من التفكير تساعدهم على الأداء بفاعلية أكبر، لكنها أيضًا تمنع أي شعور بالذنب» من التدخل في التنفيذ. من هنا يأتي، في جملة هانا أرندت

Hannah Arendt الشهيرة، تفاهة الشر. يمكن أن يجعل الاهتمام الهوسي بالتقنيات والبيروقراطية إرسال الناس إلى حتفهم أسهل بكثير، والأمر نفسه صحيح بالنسبة إلى القتل الذي يرتكب في الحروب.

وتقول جوانا بورك Joanna Bourke، إن قصة التدريب العسكري ليست مجرد قصة طاعة طائشة، إذ يتدرب الجنود فعلًا على أن يطيعوا، لكن كثيرًا منهم يصرون على مسؤوليتهم الشخصية عن أفعالهم، ويتصورون حتى أعداءهم غير المرئيين من منظور شخصي وإنساني. ولمعرفة السبب، يحتاج المرء إلى تذكر أن المشاركة في الجيش ليست دائمًا تجربة قسرية وسلبية، خاصة عندما تكون الخدمة تطوعية وليست إلزامية. بالنسبة إلى الجندي الناجح، تتضمن الفوائد اللياقة البدنية، والمهارات الفنية، والمكانة، والشعور بهوية المجموعة ودعمها الذي يمكن أن يكون بقوة أو أقوى مما تقدمه الطوائف الدينية. في وحدات النخبة بصفة خاصة، يتدرب الأعضاء على النظر إلى أنفسهم بوصفهم كائنات متفوقة، وإلى وحداتهم على أنها عائلاتهم (تقدم الوحدات أحيانًا دعمًا عاطفيًا أكثر مما قدمته عائلاتهم الحقيقية طوال ما مضى). تجادل بورك Bourke في مراجعتها التفصيلية للحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الفيتنامية، أن المشاعر السلبية مثل الكراهية عُدَّت أقل فاعلية في إنتاج جنود جيدين من المشاعر الإيجابية للحب والصداقة التي شُجِّعت ضمن مجموعات الجيش. أضعفت الكراهية ضبط النفس والكفاءة، حيث كانت «مسؤولة عن جعل أيدي الرجال ترتجف عند إطلاق النار على الأعداء»؛ كما تجعل أيضًا الجنود أقل يقينًا بعدالة قضيتهم، وهو ما يزيد بدوره من عدم اليقين والصراع النفسي. وفي المقابل، لاحظت بورك أن حب رفاق السلاح كان محفزًا ممتازًا، «وهو يعد على نطاق واسع أقوى حافز لهجوم قاتل على عدو يُحدَّد أنه يهدد تلك العلاقة». استخدمت تشبيهات من الحب الأخوي، والأبوي، في وصف (نظام الرفاق) بين الجنود. يمكن أن تكون هذه المشاعر الإيجابية قوية جدًا، وكما هي الحال في الطوائف الدينية القاتلة مثل عائلة مانسون Manson، تقدِّم البيئة الجماعية القوية مع وجود عدو خارجي واضح حوافز ومسوغات قوية للقتل.

هل يعد التدريب العسكري غسيل دماغ؟ مرة أخرى هنا، كما في الفصول السابقة، الاستخدامات المختلفة لمصطلح غسيل الدماغ واضحة: كإهانة، كآلية أو آليات، كمفهوم الملاذ الأخير، أو المثل العليا للشمولية. نقاد الطرائق العسكرية إما أن يكون لهم برنامج قوي رافض للحرب، أو أنهم يبحثون عن نقل السلطة بعيدًا من الجيش. يستخدم مثل هؤلاء النقاد غسيل الدماغ على أنه إهانة عندما يطبق على الجنود غير المجندين إلزاميًّا؛ لأن غسيل الدماغ يتضمن إنكار

الخيار التطوعي (يمكن نظريًّا أن يتطوع المرء لأن يغسل دماغه، لكن غسيل الدماغ الناجح يلغي الحرية، ويضع الاختيار تحت سيطرة غاسل الدماغ)، على الرغم من أن التدريب العسكري قد يغير الناس، فإنه لا يحولهم إلى رجال آليين؛ في الواقع كثيرًا ما يكون دور الاستقلالية الشخصية والدرجة المتاحة للجنود لاتخاذ القرارات فرديًّا كبيرين. من ناحية وظيفية، فقد دُرست دراسة مكثفة الآلية التي يتحول بوساطتها المدنيون إلى جنود، ويزداد فهمها بصورة متزايدة من قبل علماء علم النفس الاجتماعي، وهي تدين بكثير من تمويلها في أمريكا على الأقل للجيش، ويتقلص تبعًا لذلك استخدام غسيل الدماغ كمفهوم الملاذ الأخير.

أما بالنسبة إلى الاستخدام المفاهيمي لغسيل الدماغ بوصفه أعلى مثل للشمولية، فيمكن أن يستحضر بمنزلة تحذير لأولئك الذين يريدون توسيع القوى العسكرية لتشمل المجال المدني، مع تقليل الحريات المدنية وزيادة سيطرة الدولة. ما دام أنه لا يبالغ في هذا الاستخدام، يمكنه أن يقدِّم دافعًا للناس على البقاء متأهبين لأي قمع محتمل. في الغرب، إن كثرة الأصوات التي ترمي إلى أن تكون حراسًا لحريتنا كثيرًا ما تكون ظاهرية أكثر منها حقيقية؛ وكما رأينا في مناقشة الإعلانات في الفصل الثالث، فإن رأي وسائل الإعلام كثيرًا ما يكون متجانسًا بصورة مدهشة، خاصة في أوقات الأزمات. ربما لا يكون إبقاؤنا متيقظين لزحف مذهب فكري أمرًا سيئًا. مع ذلك هناك أساليب عديدة مهمة الدول الغربية فيها ليست شمولية.

العدالة الجنائية

«لتأخذ العدالة مجراها، على الرغم من أن العالم فانٍ».

فرديناند Ferdinand الأول، الإمبراطور الروماني المقدس.

المجال الآخر الذي كثيرًا ما تبدو فيه الدولة زاحفة على حريات مواطنيها هو نظام العدالة الجنائية؛ لا يقتصر تعريف القوانين للجريمة على المفردات مقبولة على نطاق واسع (القتل، والاغتصاب، والاختلاس) بل يعرفها أحيانًا بطرائق أكثر تحديدًا وإثارة للجدل؛ فالمثال المعاصر تقدمه قوانين المخدرات البريطانية المحيرة التي -لأسباب تاريخية إلى حد كبير- تحظر الحشيش وأدوية النشوة المستخدمة على نطاق واسع، في حين تتسامح مع الكحول والتبغ. بالطبع، من السخرية أن تجادل بأن الحشيش يجعلك محبًّا وعقار النشوة يجعلك

تحدق في السقف، في حين أن الكحول يجعلك عدوانيًّا والتبغ يجعلك مريضًا، ولكن المقاييس الموضوعية لإحصائيات الوفيات تشير إلى نقطة مماثلة، كما أوضح ريتشارد دافنبورت-هاينز Richard Davenport-Hines في نقده البليغ للسياسة الغربية المتعلقة بالمخدرات، في كتابه **السعي إلى النسيان**. ففي انتقاده لمجموعة الضغط المعارضة للمخدرات لتصريحها عام 1996م أن «مئات من الأسكتلنديين قد ماتوا من المخدرات في العام الماضي»[7]، لاحظ دافنبورت-هاينز Davenport-Hines أن «الرقم الحقيقي في العام 1995م كان 251، منها 155 جرعات مفرطة من الأفيون، و96 حالة انتحار باستخدام مسكنات مثل الباراسيتامول، يقارن ذلك بموت 20.000 من الأسكتلنديين نتيجة الأمراض المرتبطة بالتبغ، و4000 بسبب الأمراض المرتبطة بالكحول». إذًا، في عام 1995م كان عدد الوفيات بسبب الأدوية (من ضمنها الأدوية المسموح بها قانونيًّا) أقل من 2 في المئة من عدد الوفيات الناتجة بسبب الدخان، وأقل من 7 في المئة من العدد الذي قتله الكحول. لا يمكن عَدُّ السنة أو البلد غير ممثلة هذا التباين:

> **«تحصل في بريطانيا نحو 100.000 حالة وفاة سنويًا بسبب الأمراض المرتبطة بالتبغ، و30 ألفًا إلى 40 ألف وفاة بسبب الأمراض المرتبطة بالكحول والحوادث، و500 من الباراسيتامول. وفي المتوسط، يسبب الهيروين وتعاطي المذيبات وفاة نحو 150 شخصًا كل عام، في حين يبلغ عدد الوفيات الناجمة عن منشط الأمفيتامين نحو خمسة وعشرين. في السنوات العشر الأولى من الهياج البريطاني، التي تناول في أوجها 500.000 من السكان الأدوية المنعشة في نهاية كل أسبوع، تسبب ذلك في ستين حالة وفاة: بمعدل ست وفيات سنويًا».**
>
> دافنبورت-هاينز Davenport-Hines، **السعي إلى النسيان**، صفحة 391.

تقود هذه الأرقام إلى الشكوك بأن الهستيريا حول العقاقير غير القانونية تعود إلى عوامل لا صلة لها بالتقدير المنطقي للإحصائيات. إن مثل هذه العقاقير مخيفة ليس فقط لأنها تذهب بالعقل (الكحول يغير العقل)، بل لأنها ترتبط بالعديد من الصفات غير المرغوب فيها: كالفقر، والقذارة، والإقصاء الاجتماعي، والعنف، والجريمة، وتوصف في أحيان كثيرة بنمط لغة الصحف الشعبية المخصصة عادة للأعداء المكروهين، السفاحين، أو الالتهابات القاتلة، وتوسم بالطريقة نفسها التي كثيرًا ما نصم فيها المرض العقلي. يُصوَّر مستخدمو المخدرات على أنهم خطيرون وقذرون؛ يفتقرون إلى القيود الاجتماعية العادية لأنهم (منتشون) أو (مدمون)، لا يمكن

التنبؤ بسلوكهم، ولذلك فهم مرعبون، والوسائل الوحيدة للتعامل معهم هي الإقصاء، والعزل، أو ربما إعادة التأهيل (حتمًا ليس جعل تناول المخدرات قانونيًّا). تتضمن جميع هذه الوسائل فقدان الحرية، والافتراض أنه لا يمكن الوثوق بمستخدمي المخدرات ليعملوا بما يناسب أفضل مصالحهم الخاصة. هذه هي خصائص المعرف مذهبيًّا فكريًّا على أنه لا-شخص، الشخص الخارجي الذي يناسب لأن يكون نقطة تركيز معقولة للكراهية الجماعية.

بُذِلت جهود ضخمة لتعزيز وجهة النظر هذه؛ التي تقول إن العقاقير غير القانونية شريرة، في حين أن الأدوية القانونية ليست كذلك، فهل يرجع ذلك جزئيًّا إلى أن مستخدمي العقاقير الذين يسببون المشكلات أغلبيتهم الساحقة من أقل مجموعات المجتمع قوة، ومن ثم فهم هدف سهل للمذهب الفكري للدولة؟ إن المجتمعات -مثل أي مجموعة أخرى- تكون أكثر تماسكًا، وأتباعها أكثر طاعة، والقادة أكثر أمنًا، عندما يكون لديهم معارضون محددون جيدًا ليمقتوهم. وقوانين المخدرات أحد مظاهر نظام العدالة الجنائية، حيث تبدو وظائف الحماية، والردع، وتقليل الضرر غير مقنعة. يضعف نقص الإقناع دعم نظام العدالة الجنائية بصورة عامة؛ لأنه يترك مجالًا للحجة القائلة إن الوظيفة الرئيسة للنظام هي زيادة سيطرة الدولة على مواطنيها. يدعي ميشال فوكو Michel Foucault أن «النقطة المثالية في العقاب اليوم ستكون انضباطًا لا محدودًا: استجواب بلا نهاية، واستقصاء يمتد بلا حدود إلى ملاحظة دقيقة وتحليلية أكثر فأكثر، وحكم يكون في الوقت نفسه فتحًا لملف لن يغلق أبدًا»[8]، فكلما نظَّمت الدولة تصرفات الفرد بصورة وثيقة، أمكن التنبؤ بسلوك ذلك الفرد بصورة أكثر دقة، وازدادت كفاءة الدولة في تسيير مصالحها.

هل يعد مثل هذا التحكُّم غسيل دماغ؟ كما أشير في فصول سابقة، فالخوف في لب غسيل الدماغ، هو الخوف من فقدان التحكم؛ ليس كون أفعال المرء فحسب بل حتى أفكاره في تلاعب على يد وكالة خارجية ما. الأفكار بحد ذاتها زلقة بما يكفي؛ كلما تفحصناها بصورة أقرب ازداد عدم التأكد من سيادتنا على ما نسميه ذاتنا، لكننا نتوق لأن نكون قادرين على أن نعكس تلك الصورة من العصر الفكتوري للثقة بالنفس في قصيدة و. إي. هينلي W.E. Henley لم تقهر Invictus:

«أنا سيد مصيري

أنا قائد روحي».

لا نريد أن نفكر في أنفسنا وكأننا قش في مهب رياح السببية، بل على أننا عوامل عقلانية توجه مسارًا دقيقًا؛ قد لا يكون العالم قابلًا للتنبؤ بصورة كاملة؛ قد لا تكون تصرفاتنا قابلة للتنبؤ بصورة كاملة حتى من قبل أنفسنا، لكن هذا أفضل من أن يكون كل ما نقوم به قابلًا للتنبؤ من قبل الآخرين، خاصة أن الآخرين قد يستخدمون التنبؤ في تطبيق السيطرة، بما يخالف أفضل مصالحنا. ربما يكون البشر قد تشكلوا اجتماعيًّا منذ سن مبكرة على فكرة الطاعة، لكنهم إذا جُعِلوا يشعرون بأن تصرفاتهم يتوقعها أو يسيطر عليها أشخاص آخرون (خاصة إذا كان الآخرون سلطة غير مقبولة) فإنهم كثيرًا ما يرتكسون بصورة سلبية جدًّا، وهي ظاهرة سميت (المفاعلة) من قبل عالم النفس الاجتماعي جاك بريم Jack Brehm[9]، لكن لحدوث المفاعلة، يجب أن يشعر (المتفاعل) أن بعضًا من المقاومة أمر ممكن؛ وإلا سيحدث تبني مجموعة من المواقف والسلوكات الانقيادية والمحبطة (العجز المكتسب).

يمكن رؤية هذه الاستجابات -المعارضة أو العجز المكتسب- في العقائد المسيحية المختلفة التي تتعلق بالقدر؛ فكرة أن الله، المسيطر الأقصى (القادر على كل شيء)، يعلم مصير كل واحد منا منذ الأزل، ويمكن العثور عليها أيضًا في العقائد العلمانية المكافئة، عقيدة الحتمية الشديدة (القدر بالنسبة إلى الملحدين) التي تدَّعي أن كل شيء نفعله مقرر بأحداث حدثت قبل ولادتنا بوقت طويل، تعود في نهاية المطاف إلى بداية الكون. يؤكد بعض المسيحيين لطف الله المحب: «حسنًا، الله يمسك بالخيوط جميعها، لكنه يحبك ويضع أفضل مصالحك في قلبه، وكونه عالمًا بكل شيء، فهو يعرف ما هو خير بالنسبة إليك أكثر كثيرًا منك، فلماذا تقلق؟»، ويضع آخرون أهمية أكبر لفكرة واجبنا في طاعة الله بوصفه سلطة (ليس بالمعنى الذي طبقه واستمتع به فيليب بولمان في ثلاثية مواده المظلمة، ولكن بوصفه حقيقيًّا ومصدرًا فريدًا لجميع القوى)، تطلب في الواقع العجز المكتسب. أما الملحدون -(يقولون لا أحد يمسك بالخيوط، لكننا لا نزال دمى)- فيجدون صعوبة في أن يجادلوا في مدح الإحسان؛ لأن الأسباب والفرص لا يمكن نسبها لشخص، وقد لجؤوا تقليديًّا إما إلى القدرية أو إلى بعض أشكال التوفيقية، وهو الاسم الشامل للمناقشات التي تهدف إلى التوفيق بين الإرادة الحرة والحتمية (سوف أعود إلى هذا الموضوع في الفصل الحادي عشر). هذه العقائد كلها مهما اختلفت هي استجابات لخوفنا من فقدان السيطرة، الرعب في لب غسيل الدماغ.

العنف المنزلي

حتى الآن، تضمنت المواقف التي تناولناها في هذا الفصل مؤسسات اجتماعية وعلاقاتها مع الأفراد، ولكنّ كثيرًا ما يشمل المنظرون الذين يناقشون المذهب الفكري العائلة، (مدرسة الاستبداد) تلك كما وصفها جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill)، في قائمتهم الخاصة بالأجهزة المذهبية الفكرية[10]. يمكن أن تختزل الأنواع المختلفة من العنف التي قد توجد في العائلات، علاقة السلطة إلى أبسط حالاتها: سلطة يفرضها إنسان على إنسان آخر.

وقد يكون هذا التفاعل الاجتماعي الأساسي واحدًا من أشدها حدة وضررًا[11]، ويمكن أن يستخدم المسيء الماهر كل خدعة في ذخيرة فن التأثير؛ من السلطة إلى مصائد الالتزام إلى القوة الوحشية الكاملة، محولًا حتى المقدار المبدئي الضئيل من عدم التساوي في القوة إلى عدم توازن هائل، بحيث إن الشريك المساء له يصبح في حقيقة الأمر عبدًا. يحقق هؤلاء المسيئون درجة من السيطرة على ضحاياهم هي أقرب إلى الفكرة التقليدية لغسيل الدماغ من أي حالة ذكرت حتى الآن، مع استثناء ممكن للطوائف الأشد تطرفًا، وكل ما هو مطلوب هو عدم توازن في الحاجة حيث تقدِّر الضحية معدل (حب) شريكها لها أكثر مما يقدِّر هو معدل حبها له، وتكون مستعدة لتقديم تنازلات من أجل بقائه سعيدًا[12]، وقد تكون معتادة على تفاعلات اجتماعية يقابل فيها التنازل من أحد الشريكين بتنازل من قبل الآخر؛ وقد تكون مكونة اجتماعيًّا للتصرف باحترام أكبر لذوي المكانة أعلى اجتماعيًّا. سوف يحرص المسيء على التصرف كما لو أنه متفوق في أي مجال تحترمه: إذا كانت فخورة بذكائها، فسيكون أذكى منها؛ أو براتبها، فسيكون راتبه أكبر (وإلا فسيجد سببًا وجيهًا لكونه ليس كذلك). سوف يستغل بلا رحمة ميلها إلى القبول بتسوية، حاطًّا من قيمة مساهماتها، ومضخمًا لأي تنازلات يقدمها.

يظهر العنف بوضوح الطبيعة المتدرجة لطرائق السيطرة النفسية، فأدمغة البشر أدوات استكشاف جيدة لما هو جديد، لكن لها عتبات شدة لا يمكن تحتها اكتشاف التغيير، ويجب عليها أن تبذل جهودًا خاصة عند تتبع الملاحظات عبر مُدد زمنية طويلة، وهذا يعني أن الأدمغة رديئة في اكتشاف التغير التراكمي بعيد المدى، إذا كانت كل خطوة من خطوات التغير صغيرة جدًّا. من هنا؛ فقد يستغل المسيء منذ البداية هذا الضعف باختبار تسامح شريكه بطرائق صغيرة؛ ربما

بملاحظة ساخرة هنا أو هناك، وقد ترى ضحية الإساءة، مبدئيًّا، كلَّ إذلال منفرد على أنه شيء تافه (كان متعبًا، كان يومه سيئًا، إنه لا يقصد ذلك)، وما لم تبذل الضحية ذلك الجهد الخاص وتصوِّر الملاحظات على أنها جزء من كل (كحملة مدبرة، سواء كان مخططًا لها أم لا، من قبل المسيء) فإنها لن تضع سجلًّا لها أو لتأثيرها التراكمي على احترامها للذات. تذكَّر أسطورة غلي الضفدع: إذا كان ارتفاع الحرارة بطيئًا بما يكفي فلن تقفز الضفدع أبدًا إلى الخارج، وستغلي حتى الموت، وبطريقة مماثلة يصعِّد المسيء من سيطرته بدرجات بطيئة؛ وفي كل مرة لا تعترض فيها الضحية، ولا تضع حدودًا لتسامحها وتلتزم بها، فستكون الخطوة التالية الضئيلة مؤذية أكثر بقليل، ما يخفض ببطء إيمان الضحية بكِفايَتها، في حين يتزايد إدراكها لقدرات المسيء، فإذا كان أقوى جسديًّا، فقد تتبنى العجز المكتسب. تعزز الإساءة اللفظية المتكررة التي تركز في ضعفها، وتفاهتها، وانعزالها، هذا السلوك، وقد تصل أيضًا إلى الاعتماد على المسيء في كل شيء، خاصة إذا طلب منها -كما تفعل بعض الطوائف الدينية- التخلي عن علاقاتها مع الأصدقاء والعائلة.

أما إذا اعترضت الضحية فسيعتذر المسيء ويصبح لطيفًا، وبعدها بمدة وجيزة سيحاول مرة أخرى، أو ربما يستخدم التهديد: الهجران، الفقر، الإذلال، العنف معها أو مع أطفالها، أما إذا هددته، فسيعرف كيف يلعب بشعورها بالذنب؛ وتصرُّف الولد الصغير العاجز كثيرًا ما يكون فاعلًا جدًّا، لكن مع تقدم العلاقة سوف تقل فرص كونها تحمي نفسها، فالانتقاص المستمر من قدراتها الذي يصدر من شخص أحبته سابقًا، أو لا تزال تحبه لكنها أصبحت تخافه، سوف يغير من صورتها الذاتية، إلى أن تصل إلى التفكير في أنها غير قادرة على التهديد، إذ إننا نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون؛ فإخبار شخص ما بأنه عديم الفائدة في عمله -على سبيل المثال- طريقة فاعلة في تقليل أدائه.

مع مرور الوقت، يمكن أن يحوِّل المسيء شريكته من فرد عامل إلى مخلوق محاصر ومذعور تقلصت آفاقه المعرفية كثيرًا بحيث لا يمكنها تخيل إمكانية هربها من محنتها. لا يقتصر المسيئون على بسط سيطرتهم باستخدام الإساءة اللفظية أو العاطفية و/أو القوة الجسدية، لكنهم أيضًا ينشئون بيئة تكون فيها نظرة الضحية الوحيدة إلى نفسها هي أنها مخلوق عاجز. قد يُدهَش الغرباء إزاء ما ستتحمله الضحية، لكن ذلك لا يعني أنه يوجد شيء غير عادي حول كيفية تحول المرأة، أو الطفل، أو الرجل، إلى ضحية. من البديهي ملاحظة أننا كثيرًا ما نعتقد

أن الأشياء غير عادية عندما لا نفهم الآليات التي شكلتها. الطاووس أو الشعاب المرجانية أمور مدهشة، لكننا إذا عرفنا تاريخها وتاريخ أنواعها فإننا نقبل كل خطوة من هذا التاريخ التطوري الطويل على أنه شيء غير استثنائي، على الرغم من أنه يتركنا -هنا والآن- محدقين في ظاهرة طبيعية رفيعة، وما يصح في الطاووس والشعاب المرجانية يصح أيضًا في المسيئين وضحاياهم.

العنف وغسيل الدماغ

كما أشرت سابقًا في سياقات أخرى، يمكن تفسير الآليات التي تكمن وراء غسيل الدماغ على نحو متزايد من قبل علماء النفس الاجتماعيين. بدأت الحاجة إلى مفهوم الملاذ الأخير تتقلص؛ فأصبحت العملية الغامضة مجموعة من آليات أقل غموضًا، فلا نزال نستخدم غسيل الدماغ على أنه مصطلح ازدرائي، يشير إلى رفضنا لسيطرة المسيء على ضحيته، مشيرًا أيضًا ربما إلى عدم فهمنا للتقلبات والمنعطفات المحددة التي تتطور من خلالها العلاقة القمعية، لكننا نقبل أن تلك الخطوات يمكن من حيث المبدأ فهمها؛ لا تتدخل أي آلية سحرية من غسيل الدماغ هنا.

نلاحظ أيضًا أوجه التشابه بين سلوك المسيء وسلوك النظام الشمولي، كما وصفه الطبيب النفسي روبرت ليفتون Robert Lifton (انظر الجدول 1)، فبالسيطرة على المحيط، يسعى المسيء إلى السيطرة على بيئة الضحية، والتنبيهات التي تصل إلى دماغها، ومن ثم محتوى أفكارها، وكثيرًا ما يستخدم المسيئون عقيدة الاعتراف التي لا يسمح فيها للضحية بأي خصوصية، ويتعين عليها تقديم تقارير مفصلة عن تصرفاتها وأفكارها.

وتتميز الأنظمة الشمولية بمذهب فكري محدد وراسخ بقوة، ويمارسون التلاعب الغيبي وتحميل اللغة، ويصرون على مطالبهم في النقاء، وعلى علومهم المقدسة وأصالة العقيدة على الشخص، فالمذهب الفكري جيد، وما يعارضه سيئ، ما هو إذًا المذهب الفكري للمسيء؟ مثل المذاهب الفكرية جميعًا، هي مجموعة من المعتقدات، تدور في هذه الحالة حول تفوق المسيء. سيعمل المسيء على تعزيز هذه المعتقدات، جزئيًّا بتعظيم التباين بين قوته وعجز ضحيته، وجزئيًّا بإظهار سيطرته عليها، بالقوة إذا لزم الأمر.

حاجج روي باوميستر Roy Baumeister أن احتمال أن يكون الأفراد عنيفين إذا كانت نظرتهم لأنفسهم شامخة، وكانت هذه النظرة مهددة، أكبر منه إذا كانت نظرتهم لأنفسهم وضيعة (ناقش

كتابه **الشر** هذه الفرضية بالتفصيل، وهي تخالف بديهيات كثير من الناس)، بمعنى آخر، العنف هو استجابة لتهديد الأنا الذي يقدَّم فيه لشخص نظرة إلى شخصه تتباين مع صورته هو عن ذاته. بالنسبة إلى الناس الذين ينظرون إلى أنفسهم بشموخ، والذين تكون إنجازاتهم متوسطة، فإن فرص مواجهة مثل هذا التهديد للأنا تكون عظيمة؛ العظيم الحقيقي، ومتوسط الأداء الذي يقبل أن أداءه متوسط، لن يكون مهددًا مثل ذلك. تعني هذه الفرضية أن أعدادًا غير متناسبة من جرائم العنف سوف ترتكب من قبل أفراد وصل تقديرهم لذاتهم إلى مستويات نفسية مرضية، وأقتبس من روبرت هير Robert Hare في كتابه **دون ضمير**: لديهم «وجهة نظر نرجسية ومنتفخة جدًّا عن قيمة ذواتهم وأهميتها، وأنانية مذهلة حقًّا، وشعور بالاستحقاق، ويرون أنهم مركز الكون، وكائنات متفوقة يحق لهم العيش وفق قواعدهم الخاصة بهم». هذا التوريط صحيح، ويقدر الخبراء أن المضطربين نفسيًّا يشكلون واحدًا إلى اثنين في المئة من سكان أمريكا الشمالية، ويرتكبون نحو نصف الجرائم الخطِرة، وقد علَّق هير Hare أن: «انتشار الاضطراب النفسي في مجتمعنا هو نفسه تقريبًا للذهان، وهو اضطراب عقلي مدمر يسبب كربًا يعتصر القلب ألمًا للمريض وعائلته على حد سواء. ولكن حجم الألم والكرب الشخصي المترافق مع الفصام صغير مقارنة بالمجزرة الشخصية، والاجتماعية، والاقتصادية، الواسعة التي يسببها المضطربون نفسيًّا، إنهم يُلْقون شبكة واسعة ويعلق الجميع فيها تقريبًا بطريقة أو أخرى».

يظل الاضطراب النفسي حالة غير مفهومة تمامًا، لكن ما يبدو واضحًا هو أن الصفات الكامنة التي تشكل المتلازمة يمكن أن توجد أيضًا بدرجات متفاوتة في عموم السكان، ومن بينهم المسيئون. ليس جميع المسيئين مضطربين نفسيًّا (على الرغم من أن بعضهم كذلك)، لكن كثيرًا منهم لديه التقدير العالي، لكنه هش، للذات الذي لاحظه باوميستر Baumeister، الميل نحو السلوك الاستغلالي (معاملة الناس الآخرين على أنهم غايات وليسوا وسائل)، وانعدام التعاطف.

بالعودة إلى التشابه بين الأنظمة الشمولية والمسيئين، نستطيع أن نرى أن المسيئين –مثل الأنظمة– يمارسون أشكالًا من التلاعب الغيبي، والعلم المقدس، وتحميل اللغة، ويصرون على طلبهم في النقاء ويقدمون أصالة العقيدة على الشخص، ويكون الحد من تهديدات الأنا التي هي في نهاية الأمر تعبيرات عن مذاهب فكرية بديلة إلى أقصى حد (الحاجة إلى النقاء). تستنكر المذاهب الفكرية الشمولية أي شيء عدا نفسها، وغالبًا ما يحمِّل المسيء لغته بملاحظات سطحية ازدرائية، كثيرًا ما تعتمد على معرفة حقيقة ضئيلة، لا تشوه سمعة الضحية فحسب بل أيضًا

أسرتها، وأصدقاءها، وخلفيتها، وآراءها. الصحة النفسية والجسمية للضحية أقل أهمية من المحافظة على الأنا الهشة للمسيء (أصالة العقيدة على الشخص)، ولا يسمح للضحية بتحدي هذا الوضع على الرغم من أن المسيء قد لا يقدم أي مسوِّغ منطقي لسلوكه. ومثل العلم المقدس، يعد تفوقه أمرًا مفروغًا منه، من قبله أولًا ولاحقًا من قبل ضحيته، ويستخدم التلاعب الغيبي لتأسيس مكانة ضمن العلاقة أقرب ما تكون قدر الإمكان إلى الكائن الأقوى والخارق، أخيرًا لا يحتاج سلب الحياة إلى التشبيه: يمكن أن يستخدم المسيئون العنف القاتل ضد ضحاياهم، الكبار والأطفال على حد سواء، ففي إنجلترا وويلز England and Wales -على سبيل المثال- تظهر الإحصائيات الحكومية أن قرابة 79 طفلًا يقتلون سنويًا نتيجة العنف، وتنتج معظم هذه الجرائم عن العنف المنزلي[13].

لا يعني قبول هذه الحجج -بالطبع- إنكار أن أسباب السلوك العنيف عديدة ومتنوعة[14]. وبطريقة مشابهة، فإن براعة البشر في محاولات سيطرة بعضهم على بعض لا تقل إدهاشًا عن الطاووس أو الشعاب المرجانية، وإن كانت مشاهدتها أقل إمتاعًا، لكن قضايا الذات وصورة الذات، مثل قضايا الحرية، توجد في لب أي مناقشة لتقنيات التحكم في العقل. لفهم احتمالات التحكم في العقل، من الضروري النظر بدقة إلى هذه الموضوعات، وسوف أقوم بذلك في الجزء الثاني، ولكن أولًا، إلى الحالة الأخيرة الباقية.

التعذيب

أظهرت حالة توماس كرنمر Thomas Cranmer في الفصل الأول كيف تطورت التقنيات المرتبطة بغسيل الدماغ من تلك التي طُوِّرت من أجل استخدامها في التعذيب، في حين أظهرت تجربة الأب لوكا الاستخدام المستمر لتقنيات التعذيب جزءًا من غسيل الدماغ. ووفق ما أشار بيتر سيوفلد Peter Suedfeld في كتابه **التعذيب**، فإن لهذه التقنيات تاريخًا طويلًا: «على الرغم من أنها ليست بكل الأحوال شاملة، فإن لاستخدام التعذيب في انتزاع اعترافات من المجرمين المشتبه بهم تاريخًا يرجع على الأقل إلى المصريين القدماء، ويشمل الحضارتين اليونانية والرومانية والقانون الأوروبي في العصور الوسطى. وكتاب **مطرقة فاعلي الشر** Hammer of Evil-doers، الذي نشر عام 1486م أو نحوه، والذي يعد أفضل دليل موجود من العصور الوسطى لاصطياد الساحرات، زاخر بتقنيات التعذيب. بحلول منتصف القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع

عشر، انخفض بصورة عامة التعذيب القضائي (العلني)، والإذلال العلني (يصف كتاب فوكولت **الانضباط والعقاب** هذه التغيرات). بدءًا من 9 ديسمبر عام 2002م، أعلن الموقع الإلكتروني للأمم المتحدة أن ثلاثة أرباع قائمة الدول الـ 193 دولة طرفًا في اتفاقية الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب وقعت عليها[15]. وفي عام 2002م ذكر بيان صحفي صادر عن منظمة العفو الدولية، وهي من أعرق المنظمات التي تقود حملة ضد التعذيب وانتهاك أخرى لحقوق الإنسان، أن «تقرير منظمة العفو الدولية لعام 2002م (الذي يغطي أحداث 2001م) قد وثّق إعدامات خارج القضاء في 47 بلدًا، وإعدامات قضائية في 31 بلدًا، و(حالات اختفاء) في 35 بلدًا، وحالات تعذيب وسوء معاملة في 111 بلدًا، وسجناء الرأي في 56 بلدًا على الأقل»، وتعتقد منظمة العفو «أن الأعداد الحقيقية أعلى بكثير»[16]، تجب أيضًا ملاحظة أن التعذيب مفهوم مائع نوعًا ما، فعلى الرغم من أنه يوجد إجماع عام أن سمته المميزة هي الإحداث المتعمد للألم أو الإزعاج، غالبًا من قبل عملاء الدولة، فإن تصنيف الحالات الفردية قد يختلف إلى حد كبير بحسب وجهة النظر. وجدت دراسة لتقنيات الاستجواب الشيوعي خلال الحرب الكورية أن كثيرًا من الأسرى الأمريكيين لدى الشيوعيين الصينيين عَدُّوا النظام الغذائي في السجن، وكذلك بالخاصة حقيقةُ أنه كان متوقعًا منهم أن يعبروا عن أنفسهم في أثناء الاجتماعات، وأوقات معينة، «تعذيبًا وحشيًا». ولكن، وفق ما أشار هينكل Hinkle وولف Wolff في كتابهما **الاستجواب والتلقين الشيوعيان (لأعداء الحكومات)**: «المراحيض المكشوفة، والتغوط العلني، هي العادات السائدة في المناطق الريفية من الصين، ولا يبدو أن الصينيين يعدونها أمرًا كريهًا»، وكذلك «ينوي الصينيون الشيوعيون تقديم وجبة غذائية في سجونهم تعادل وجبة فلاح صيني متوسط أو جندي».

توصيفات النموذج (التقليدي) لغسيل الدماغ، مثل تلك التي قدمها مخترع الكلمة، إدوارد هنتر Edward Hunter، تجعل التشابه مع التعذيب واضحًا. كانت هناك أساليب شائعة متنوعة من التعذيب النفسي والجسدي، بالرغم من حقيقة أنه، كما يلاحظ هينكل وولف Hinkle and Wolff، «نادرًا ما كانت المخابرات السوفييتية KGB تستخدم الأغلال، ونادرًا ما كانوا يلجؤون إلى الضرب الجسدي. الضرب الجسدي نفسه -بالطبع- بغيض في المبادئ الشيوعية المعلنة، ويخالف أيضًا تعليمات المخابرات السوفييتية. السبب الظاهري لهذه التعليمات هو أن الضرب يخالف المبادئ الشيوعية، أما السبب العملي بالنسبة إليهم فهو حقيقة أن المخابرات السوفييتية ترى أن القسوة الجسدية المباشرة طريقة غير فاعلة في الحصول على إذعان السجين».

ولكن الضرب الجسدي مظهر واحد فقط للتعذيب الجسدي، و«أحد الأنماط المستخدمة على نطاق واسع هو أمر السجين بالوقوف طوال مدة الاستجواب، أو البقاء في وضع جسمي آخر يصبح مؤلمًا بمرور الوقت»[17]، قد يستخدم كذلك الحرمان من النوم، والعزل، وتحديد الرؤية والحركة والطعام والتبول/التغوط. تمحو مثل هذه الممارسات الخط الفاصل بين التعذيب الجسدي والنفسي، ويمكن أن تكون تأثيراتها كارثية، كما بيَّن آرثر كوستلر Arthur Koestler في كتابه **ظلام عند الظهيرة**. أشار هينكل و وولف Hinkle and Wolff إلى أن «الخصائص الرئيسة لأسلوب العزل في الصين هي نفسها في الاتحاد السوفييتي: العزل الشامل، والملل المطلق، والقلق، وعدم اليقين، والإعياء، وعدم النوم؛ والرفض، والمعاملة العدائية، والضغط الذي لا يحتمل؛ والمكافأة والاستحسان للإذعان»، وهي قائمة تخلط العناصر الجسدية والنفسية، وبالتأكيد لا تتضمن بعض تقنيات التلاعب النفسي تعذيبًا جسديًّا، لكن التعذيب الجسدي له تأثير نفسي لا شك فيه.

التعذيب شموليٌّ مثلُ غسيل الدماغ، هدفه العام هو الهيمنة على الضحية. أورد جون كونروي John Conroy في كتابه عن التعذيب في ثلاث ديموقراطيات غربية (بريطانيا، والولايات المتحدة، وإسرائيل)، قائمة بالأهداف المحددة للتعذيب على النحو الآتي: «الحصول على معلومات، والعقاب، وإجبار فرد ما على تغيير معتقداته أو ولاءاته، وترويع مجتمع»[18]، إن الهدف الثالث هو أكثر ما يذكر بغسيل الدماغ. يذكر عالم النفس إرفين ستاوب Ervin Staub أن الدوافع للتعذيب يمكن أن تكون واقعية، مثل الترهيب لتعزيز السيطرة السياسية، أو (نفسية أكثر)، مثل «الانتقام من ضرر حقيقي أو خيالي أو الرغبة في تحقيق تفوق المرء ورفعة ذاته»[19]. مرة أخرى، هذا التأكيد على السيطرة يذكِّر بالرغبة في الاحتلال الشامل الذي يميز حلم التحكم في العقل.

التعذيب، مثل باقي الأشكال المتطرفة لإيقاع الأذى، يمكن -كما يقول ستاوب Staub- «أن يحلل على ثلاثة مستويات؛ يقع في المستوى الأول علم نفس الجناة منفردين، وعلى المستوى الثاني يمكن دراسة الجناة وصانعي القرار كمجموعة، والمستوى الثالث من التحليل هو استكشاف خصائص الثقافة والآليات التاريخية ضمن مجتمع ما، التي تؤدي إلى الآليات النفسية والدوافع التي تقود على الأغلب إلى فعل ضار جدًّا». يستمر ستاوب Staub في مناقشة العوامل النفسية الاجتماعية: طاعة السلطة، والتمييز بين المجموعات الداخلية والمجموعات الدخيلة، ودور المذهب الفكري، وانتشار المسؤولية، والطبيعة التطورية المتدرجة في التحول إلى جلاد.

يؤكد كونروي Conroy أيضًا الجوانب الاجتماعية للجلاد؛ فمثلًا يناقش ما أسماه (صف المعذبين): مجموعة من أفراد المجتمع الذين يُحكَم بأن تعذيبهم مقبول اجتماعيًّا. نظريًّا، إذا سُئلنا، فقد نقول جميعًا إنه يجب ألا يُعذَّب أحد؛ ولكن الناس عمليًّا أكثر مرونة. يحاجج كونروي Conroy أنه «من السهل إدانة التعذيب عندما يطبق على شخص ليس من أعدائك»، وأن التعذيب «يثير احتجاجًا قليلًا ما دام أن تعريف صف المعذبين يقتصر على أفراد الرتب الأدنى؛ وأنه كلما اقترب التعذيب من عتبة بيت المرء، أصبح أكثر إثارة للاحتجاج»، وأن «صف الناس الذين يقبل المجتمع أنه يمكن تعذيبهم له قابلية للتوسع»، وأنه «في الأماكن التي يشيع فيها التعذيب، يكون التعاطف القانوني عادة مع الجناة، وليس مع الضحايا»؛ بمعنى آخر، يحدث كثير من عمليات التعذيب في ظروف يعرف فيها الجناة أن المجتمع الأوسع الذي يعملون فيه إما يوافق صراحة على أفعالهم، أو يغض الطرف عنهم، إذ كثيرًا ما يدخل تفكير (العالم العادل): فيفترض المتفرجون أن السلطات المعذِّبة تعرف بالتأكيد ما تفعله، ومن غير المحتمل أنهم ساديون؛ أي إن سلوكهم منطقي وعادل، لذلك يستنتج المتفرجون- بوعي أو من غير وعي- أن ضحية التعذيب لا بد أنها كانت تستحق مثل هذه المعاملة؛ ومن ثم تستحق الازدراء. يمكن أن يؤدي هذا الاستنتاج إلى عدائية شديدة نحو الضحية، كما يبين رحَّال الشاعر روبرت براونينغ Robert Browning:

«لم أشاهد أبدًا غاشمًا أكرهه كثيرًا؛

لا بد أنه شرير ليستحق هذا العذاب».

براوننج، تشايلد رولاند إلى برج الظلام جاء

Browning, Child Ronqaald to the Dark Tower Came

هذه الاستهانة بالأبرياء أمر شائع، جانب مأساوي من التعذيب.

الخلاصة والاستنتاجات

يتضمن غسيل الدماغ التسلل أو الإكراه بدلًا من الإقناع المنطقي، وهو يشترك بأوجه عدة مع التعذيب، الذي كان قد تطور منه، ويتضمن كثيرٌ من توصيفات غسيل الدماغ المزعومة تعذيبًا نفسيًّا أو جسديًّا. يسعى كل من غسيل الدماغ والتعذيب إلى الهيمنة على الضحية، وقد يكون التعذيب أقل اهتمامًا بمصلحة الضحية من غسيل الدماغ، عندما يعرف مثلًا الجلاد مسبقًا

أن الضحيــة ســوف تمـوت، لكنهما كليهما يشــتركان في العقلية الشـمولية، معتبريـن الضحية من الناحيــة البيروقراطية، بدلًا من ناحية شـخصية، أداة يمكن التلاعـب بها، ويهدف كلاهما أيضًا إلى إلغاء الهوية المسـتقلة للضحية، مثل هذه الاسـتقلالية لا تتوافق مع السيطرة الشمولية، سواء للجسم أو للعقل.

سوف أستكشف في الفصل القادم الدرجات المختلفة من التأثير، والإقناع، والإكراه، ممعنًا في الوسائل التي يمكن أن تتفاوت بها تقنيات التحكم العقلي.

الفصل السادس

غسيل الدماغ والتأثير

«حب الحرية هو حب الآخرين؛ حب السلطة هو حب أنفسنا».

وليام هازلت William Hazlitt، مقالات سياسية، صحيفة التايمز.

William Hazlitt, Political Essays, 'The Times Newspaper'

بحثت في الفصول السابقة تاريخ مصطلح غسيل الدماغ وتطوُّره وعلاقته بعدد من الحالات التي تُغيَّر فيها العقول: المجموعات الدينية والسياسية (الفصل الثاني)، الإعلانات والتعليم (الفصل الثالث)، معالجات الأمراض العقلية (الفصل الرابع)، وأشكال السيطرة الاجتماعية التي يمكن أن تشاهد في الجيش، ونظام العدالة الجنائية، وحتى في العلاقات الشخصية (الفصل الخامس). وفي هذا الفصل سأحاول استخلاص بعض الاستنتاجات من هذه الأمثلة حول طبيعة غسيل الدماغ.

ميَّز الفصل الأول أربع طرائق يبدو أن مصطلح غسيل الدماغ قد استخدم فيها في نصف القرن الذي وجد فيه. لوحظ استخدامه السياسي الواسع كإهانة منذ الستينيات وأُنتِقد، وهو لا يزال مستخدمًا بوضوح اليوم. كان استخدامه بوصفه مفهوم الملاذ الأخير سائدًا جدًّا في البداية، لكنه انحسر مع تقديم علم النفس الاجتماعي نظريات محددة لشرح سلوكات الإنسان تلك التي حيرت إدوارد هنتر Edward Hunter كثيرًا. لا تزال وسائل الإعلام تستخدم مصطلح غسيل الدماغ في بعض المواقف؛ كالتقارير عن الطوائف الدينية مثلًا، لاقتراح وجود نشاط مثير مُرضٍ شرير وخفي؛ لكن معظم علماء النفس ربما سيقولون إن غسيل الدماغ ليس تفسيرًا بحد ذاته؛ أي إنه لا توجد آلية سحرية محددة تسمى (غسيل الدماغ)، وبدلًا من ذلك، فالمصطلح تجمعي، مختصر لمجموعة من آليات نفسية اجتماعية محددة، قد تكون بعضها أو جميعها فاعلة عند تطبيق (التلاعب بالعقل) للتأثير في شخص أو أشخاص.

أنواع غسيل الدماغ

كما بيَّنت الفصول (2–5)، لا يمكن القول إن حالات تغيير العقل جميعها هي نفسها. الطوائف الدينية والأحزاب السياسية عادة ذات تراتبية هرمية، ولها قائد وأتباع كثيرًا ما تكون

احتياجاتهم متكاملة. تعتمد هذه المؤسسات الاجتماعية بصورة كبيرة على قوة المجموعة في نجاحها؛ وقد تكون قسرية جدًّا، ويمكنها الهيمنة على المشاهد المعرفية للقادة والأتباع على حد سواء؛ إنهم يستخدمون ما أشرت إليه على أنه غسيل دماغ بالقوة، تكون فيه التفاعلات بين غاسل الدماغ والضحية شخصية وقسرية جدًّا، سواء كان غاسل الدماغ يتبع أجندته الخاصة (كما هي الحال في الإساءة للشريك والطفل)، أو يتصرف بصفته جزءًا من نظام اجتماعي أكبر (كما هي الحال في إصلاح التفكير الشيوعي).

ارتباط الإعلان بالإكراه قليل جدًّا، ففي حين تحاول طائفة دينية ما أن تفرض نظامًا فكريًّا مذهبيًّا شاملًا على أتباعها، فإن أي إعلان يهدف فقط إلى تغيير معتقدات قليلة محددة (ذات صلة بالمنتج)، وتعكس الإعلانات أيضًا عامة المذهب الفكري المقبول حاليًّا وتعمل ضمنه، فمعظم الإعلانات على التلفاز البريطاني تفترض خلفية عن الرأسمالية، والنمط الاستهلاكي، والحرية الفردية. إن التركيب الاجتماعي للإعلان على أساس واحد إلى كثيرين، شكل من أشكال التأثير، وضعه عدد قليل من الأشخاص ويستهدف -حتى في الإعلانات المعقدة المتخصصة- جمهورًا كبيرًا غير متمايز نسبيًّا، وهو مختلف تمامًا عن الطوائف الدينية. هذا هو غسيل الدماغ من خلال التسلل، حيث تكون محاولات التأثير بصورة فردية ضعيفة، لكنها تتراكم بأعداد هائلة عبر الزمن؛ لتكوين خلفية غير قابلة إلى حد كبير للنقاش؛ على سبيل المثال، لا يوجد إعلان واحد يمكن أن يكون مسؤولًا عن ثقافة المستهلك، وخاصة عندما تواجهنا مئات منها يوميًّا، لكن إذا أخذناها جميعًا معًا، يكون للرسائل الكامنة تأثيرات قوية في تفكيرنا وسلوكنا.

إن غسيل الدماغ سواء بالتسلل أو بالإكراه، جزء من مجموعة أكبر من تقنيات التأثير، من التلفاز إلى الإرهاب. وبالعودة إلى الاستعارة المجازية للمشهد المعرفي، يمكننا القول إن محاولة التأثير قد تغير العالم الداخلي بطرائق عديدة، من أخف درجات الإقناع؛ كنسيم يحرك الأعشاب، إلى الإكراه الكارثي لغسيل الدماغ بالقوة؛ كزلزال أو بركان. يطبق كثير من أجهزة المذاهب الفكرية كلًّا من تقنيات التسلل والإكراه؛ والعنف المنزلي مثال على ذلك. وكما أوضحت الفصول السابقة، يؤثر كثير من العوامل الشخصية والاجتماعية في طبيعة أي محاولة تأثير ونجاحها، ويتضمن ذلك شخصية الفرد المستهدف، ومواقفه، وسلوكاته والفروق بينها وبين أهداف فني التأثير؛ الزمن والجهد، المبذولين في تقنية التأثير، والخلفية الفكرية المذهبية التي تحدث ضمنها محاولة التأثير، والبنى الاجتماعية المستخدمة في نقل التأثير. كمية الإكراه

ونوعه يحدثان فارقًا في النجاح، كذلك القوة الاجتماعية النسبية للهدف وفني التأثير. أجرى علماء النفس الاجتماعي كمًّا هائلًا من البحوث عن التأثير والقوة الاجتماعية.

أحد أنظمة التصنيف المعروفة جيدًا هو أسلحة التأثير عند روبرت شيالديني Robert Cialdini (التبادلية، والالتزام والثبات، والدليل الاجتماعي، والمحبوبية، والسلطة، والندرة) التي نوقشت في الفصل الثالث، التي اشتقت أساسًا من مجال التسويق والإعلانات. التصنيف الآخر اقترحه جون فرينش John French وبيرترام ريفين Bertram Raven (أسس القوة الاجتماعية)، الذي يستخدم على نطاق واسع في علم النفس التنظيمي/مكان العمل. ميَّز فرينش وريفين French and Raven ستة مصادر للقوة الاجتماعية: المكافأة، والإكراه، والشرعية، والخبرة، والمرجعية، والمعلومات، يشرحها ريفين Raven على النحو الآتي:

> **«خذ بالحسبان أسس القوة التي قد يستخدمها المشرف لتصحيح الطريقة التي يؤدي فيها المرؤوس عمله: المكافأة (تقديم ترقية أو زيادة الراتب للمطاوعة)؛ الإكراه (التهديد بنوع من العقاب مثل عدم الدفع لقاء عدم الامتثال)؛ الشرعية (التأكيد أن للمشرف الحق في أن يأمر بمثل هذا السلوك وأن من واجب المرؤوس الامتثال)؛ الخبرة (يعرف المشرف ما الأفضل في هذه الحالة)؛ المرجعية (مناشدة الشعور بالانتماء المتبادل بحيث إن المرؤوس يشكل سلوكه وفقًا للمشرف)؛ والمعلومات (يشرح بعناية للمرؤوس لماذا يعد تغيير السلوك أمرًا محببًا في نهاية المطاف)».**
>
> ريفين Raven، **القوة/التفاعل المتبادل والتأثير بين الأشخاص**، صفحة 218.

قد تستهدف صناعة العقل المعتقدات، والعواطف، أو السلوكات؛ قد تعتمد على القوة، والانسلال، أو الإقناع المنطقي؛ قد تغوي أو تجبر، تترك الهدف مشمئزًا، مستاء، عاجزًا، أو جزلًا، شاكرًا، ومتمكنًا. ما تفعله دائمًا هو تغيير دماغ المستهدف، كما يفعل كل منبه.

يعتمد غسيل الدماغ بالقوة، كما وصفه إدوارد هنتر Edward Hunter، وجورج أورويل George Orwell، وآخرون، اعتمادًا كبيرًا على الإكراه والعواطف، وعلى عدم تكافؤ القوى، وعلى التفاعلات المتبادلة المكثفة التي يمكن أن تنشأ في المجموعات، خاصة المجموعات الصغيرة. يستغرق ذلك وقتًا طويلًا واستهلاكًا مكثفًا للموارد؛ لهذا السبب، مثلما هو سبب أو أكثر من تأنيب الضمير الأخلاقي، فإن الحكومات الغربية لم تستعمله على نطاق واسع، لكن المجموعات الصغيرة

مثل الطوائف الدينية والخلايا الإرهابية قادرة على استخدام تقنيات قاسية لأنها قادرة على السيطرة بإحكام أكبر على بيئة الضحية. يمكنهم أيضًا استخدام العالم الخارجي بوصفه تهديدًا كبيرًا ومستمرًّا لإثارة الخوف والقلق في عقل الضحية (يتعين على الديموقراطيات التحررية، المسالمة والآمنة العمل بجهد أكبر لجعل مثل هذه الآليات مقنعة). يهدف غسيل الدماغ إلى تحقيق تغير سلوكي، لكن السلوك يعد أمرًا ثانويًّا؛ إذ إن هدفهم الرئيس تغيير أفكار الضحية لتناسب مذهبهم الفكري المفضل. يجب أن يكون التغيير ممكنًا مهما كانت مقاومة الضحية ومهما اختلفت معتقداتها السابقة. مثاليًّا، يكون التغيير في المشهد المعرفي للضحية هائلًا جدًّا بحيث إن تأثيرها لا يقتصر على المعتقدات ذات الصلة المباشرة بالمذهب الفكري المفروض بل جميع المعتقدات، مهما كانت تافهة، بحيث إن كل فعل أو إدراك يمكن أن يعاد تفسيره في ضوء القناعات الجديدة.

الأفكار وراء غسيل الدماغ

مفهوم غسيل الدماغ -كما يقول علماء النفس- معرفي ووجداني معًا؛ أي إنه ينسحب على العقل والعاطفة معًا (ثنائية -كما سنرى في الجزء الثاني- ليست بأي حال مطلقة)، والعواطف مهمة، ويمكن أن تكون قوية جدًّا. يثير غسيل الدماغ مخاوف من فقدان السيطرة على الذات، وأن يُستخدَم المرء ويُسيطَر عليه من قبل شخص آخر، وفقدان المرء لهويته الذاتية، وهو في هذا يشبه الهذيانات الآمرة، تلك الأصوات الداخلية المتنمرة التي يمكن أن تروع المرضى المصابين بالفصام. وهو اجتماعيًّا، يشترك مع حالة السُّكر في إمكانية توجيه اللوم إلى المستهدف بسبب أفعال كانت السيطرة عليها سيئة جدًّا (مع أن المخمور قد يعتقد وقت سكره أنه يعلم ماذا يفعل). وبخلاف حالة السُّكر، لا يهاجم غسيل الدماغ إحساس الضحية بالسيطرة فحسب، بل أيضًا هويته الذاتية، فأمر التصرف خارجي، ولكن الضحية التي ينجح معها غسيل الدماغ لا تشعر أنه كذلك، وستقبل الضحية المسؤولية عن الأفعال الناتجة، وذلك يخالف ما يحصل في مرض الفصام، حيث يشعر المريض بالأصوات الآمرة على أنها قادمة من مصادر خارجية (سكان الفضاء، أو المخابرات المركزية الأمريكية، أو الشيطان، أو أي كان).

لغسيل الدماغ أيضًا مكون معرفي؛ أي إنه ينسحب على عدد من الأفكار التي نراها عن أنفسنا. طافت هذه الأفكار على السطح بين الفينة والأخرى عبر الفصول الخمسة السابقة، لكني

أعتقد أن من المهم أن نجمعها هنا؛ لأنها تعد مركزية لفهمنا للسيطرة على العقل والمشكلات التي يطرحها.

فكرة القوة

تُعرَّف القوة تعريفات مختلفة، لكن التعريفات تدور عادة حول قدرة العامل المنفرد على التصرف بطريقة معينة؛ لذا فالقوة محدودة ضمن نطاق، عدا قوة الإله. يمكن أن يقوم البشر ببعض الأشياء دون أخرى. يرتبط مفهوم القوة ارتباطًا وثيقًا بمفهومي السيطرة والتأثير، وكما ناقشنا سابقًا في سياق القوة الاجتماعية، فهي تنشأ من مجموعة متنوعة من المصادر. حاجج عالم النفس ذو النفوذ ديفيد ماكليلاند David McClelland أن محفز القوة الذي عرَّفه على أنه «الحاجة أو النزعة الداخلية للسعي إلى القوة أو الرغبة في امتلاك تأثير قوي في الآخرين»، هو أحد ثلاثة حوافز تكمن وراء السلوك الاجتماعي (الحافزان الآخران هما الحاجة إلى تحقيق النجاح، والانتماء، وهو الرغبة في أن يكون الفرد اجتماعيًّا وله أصدقاء)[1].

فكرة التغيير

لا تعتمد قوة الفرد فقط على ما يفعله، وإنما تعتمد أيضًا على كيفية استقبال تصرفاته وتفسيرها من قبل الأفراد الآخرين. القوة الاجتماعية هي القدرة على التأثير في الآخرين؛ أي تغيير معتقداتهم، ومواقفهم، وسلوكاتهم. تتضمن عمليات التحكم في العقل أساسًا التغيير؛ لأن عالم البشر ليس متعاونًا بالقدر الذي يتمناه المرء.

فكرة السببية

وفق ما بيَّن الفيلسوف الشهير ديفيد هيوم David Hume، فإن السببية هي أحد تلك المفاهيم التي نعتقد أننا نفهمها جيدًا ولكننا عمومًا لا نفهمها؛ قال هيوم Hume إنه ليست قوتنا في المنطق بل مجرد التعرض الفعلي (لاقتران ثابت ومنتظم) هو الذي يجعلنا نضع استدلالات تربط السبب بالتأثير[2]، ينطبق ذلك خاصة على التنبؤ:

«الافتراضان الآتيان أبعد ما يكون عن أن يكونا الشيء نفسه، لقد وجدت أن مثل هذا الشيء يترافق دائمًا بمثل هذا الأثر، وأنا أتنبأ بأن الأشياء الأخرى، التي هي في المظهر مماثلة، سوف تترافق مع تأثيرات مشابهة. سوف أسمح -إن كان يرضيك- أنه يمكن حقًّا الاستدلال على أحد الافتراضين من الآخر: أنا أعلم، في الواقع، أنه دائمًا يُستدل، لكن إن أصررت على أن التأثير يأتي بسلسلة من الأشياء المنطقية، فإنني أرغب منك أن تعرض هذه الأشياء المنطقية».

هيوم Hume، **تساؤلات**، صفحة 34.

Hume, Enquiries, p. 34

ميَّز دانيال دينيت Daniel Dennett، الذي كتب بعد ما يزيد بكثير على ثلاثة قرون[3]، عددًا من العوامل التي نستخدمها في دعم ادعاءات حول السببية (مثل جملة: بيل Bill يتعثر، آرثر Arthur كان السبب في سقوطه). تتضمن هذه الادعاءات ضرورة سببية (لو لم يُعثِّر آرثر بيل Arthur Bill، لما سقط)، وكفاية سببية (سقوط آرثر Arthur كان حصيلة حتمية لتعثير بيل Bill له)، والاستقلالية (من الممكن تخيل سقوط آرثر Arthur منفصلًا عن تعثير بيل Bill له، بحيث يمكن وجود أحدهما من دون الآخر)، والأولوية الزمنية (إحدى الطرائق التي يمكن الاعتماد عليها في التمييز بين الأسباب والنتائج هي ملاحظة أن الأسباب تحدث أبكر). لاحظ دينيت Dennett أيضًا أن عوامل أخرى، مثل الاتصال المادي بين السبب والنتيجة، أو اعتقادنا أن السبب هو عامل، (قد يزيد ثقتنا عندما نصدر أحكاما سببية). قد نكون أقل اقتناعًا بهذه الأحكام -على سبيل المثال- عندما يكون لحدث ما أسباب متعددة، لكننا ما زلنا نعتمد على مفهوم السببية. تعتمد محاولات التأثير في فكرة أن سلوك الشخص الذي يقوم بالمحاولة سيسبب تغيرًا في المستهدف.

فكرة المسؤولية

إن القدرة على أن يعرف المرء بأنه صاحب الفعل أو مصدره حيويةٌ وأساسية لتفاعلاتنا المشتركة الاجتماعية. يأتي جنبًا إلى جنب مع إحساس العمالة هذا مفهوم المسؤولية التي من خلالها يمكن أن يحمَّل الإنسان المسؤولية على تصرفاته، والمسؤولية جوهرية في التحديد الدقيق للإطراء أو اللوم، والثواب أو العقاب.

إن أكثر المعالجات التحليلية للمسؤولية التي قد تواجهنا في حياتنا اليومية هي تلك التي يستخدمها نظام العدالة الجنائية لتقرير كون القيام بعمل ما (أو إغفاله) جريمة جنائية يكون

المدعى عليه مسؤولًا عنها، ومن ثم مسؤولًا قانونيًّا (يمكن أن يحاسب). يحدد القانون الإنجليزي مكونين للجريمة: الفعل الجرمي والقصد الجنائي، وإذا تكلمنا بصورة عامة، يتضمن الفعل الجرمي عناصر (خارجية) مثل سلوك المدعى عليه وحالة الوضع الناشئة عن هذا السلوك، في حين يشير القصد الجنائي إلى عناصر (داخلية)؛ مثل نوايا المدعى عليه وحالته العقلية وليس من السهل دائمًا فصل هذين المكونين بعضهما عن بعض، ومن ذلك على سبيل المثال عندما يتهم المدعى عليه بحمل سلاح هجومي؛ فالسلاح عنصر خارجي، ومن ثم فهو جزء من الفعل الجرمي، لكن (سلاح الجريمة) يُعرَّف قانونيًّا على أنه «أي مادة ينوي الشخص الذي يحملها معه أن يسبب أذى لشخص آخر»[4]، وبعبارة أخرى، النية (القصد الجنائي) أساسية، ولكن على الرغم من أن الفعل الجرمي والقصد الجنائي قد يكونان أحيانًا معتمِدَين أحدهما على الآخر، فإن كلاهما يكون مطلوبًا لتحديد أن جريمة قد ارتكبت. لا توجد مسؤولية جنائية لمجرد الكون في حالة معينة من العقل)، ليس في القانون البريطاني، أو على الأقل ليس حتى الآن، على الرغم من أن زيادة استعمال التشخيص الطبي بمشكلات الشخصية (كما نوقشت في الفصل الرابع) قد شجع ميلًا نحو هذا الاتجاه.

فكرة الذات

تتطلب المسؤولية والوكالة عميلًا مسؤولًا، ويثير ذلك مشكلة كيفية تعريف هذا العميل. تَعُدُّ الوكالة الإنسانية فكرة الذات أمرًا مسلَّمًا به، حيث إنها تقليديًّا هي مستقبِل الأحاسيس ومصدر كل من الأفكار والأفعال، وقد عرَّف الفيلسوف رينيه ديكارت René Descartes في القرن السابع عشر الوعيَ بأنه جانب أساسي من الذات: نقية، وغير مجسدة، ومستقلة عن العالم المادي، هذه هي نظرة أن عقولنا نقية ومتبلورة، كالألماس. جادل الفلاسفة والعلماء حديثًا أنه أيًّا كانت الذات فهي أشبه بالطين منها بالألماس؛ فهي مطاوعة، ومترابطة، وتعتمد على الواقع المادي، خاصة الواقع المادي للدماغ البشري. وفي الوقت نفسه، جادل علماء الاجتماع أننا نعرِّف أنفسنا إلى حد كبير اعتمادًا على أدوارنا في المجتمع الذي نعيش فيه وتفاعلاتنا مع البشر الآخرين. الطريقة التي تكوَّنت بها النفس لها تأثير كبير في الطريقة التي ينظر فيها إلى محاولات تغيير تلك النفس؛ العقول الألماسية أقل قابلية للتغيير بكثير من العقول الطينية؛ ولذا فإن مفهوم الذات أمر مهم في غسيل الدماغ.

فكرة الإرادة الحرة

تدور فكرة الفعل الجرمي على ضرورة أن يكون المدعي عليه تمتع بالإرادة الحرة عند تنفيذ أفعاله، أو إبراز حالة الوضع التي تشكل الفعل الجرمي. لاحظ جوناثان هيرينج Jonathan Herring في القانون الجنائي أن «المبدأ الأساسي هو أن مثل هذا الفعل يجب أن يحدُث بإرادة حرة أو تطوعًا»، وهذا يعني «أن المدعى عليها كان يجب أن تكون قادرة على منع نفسها من التصرف بالطريقة التي تصرفت بها». يستبعد هذا الشرطُ السلوكَ غير المقصود، أو الإكراه الجسدي من قبل الآخرين (بالمفهوم المادي الحرفي لكونه مدفوعًا جسديًّا، وليس بأن يكون مهدَّدًا بالموت)، ويستبعد كذلك الفعل الآلي والجنون، ويشير الفعل الآلي إلى التصرفات التي تحدث خارج الوعي و/ أو التحكم في العقل: من الأمثلة على ذلك التشنجات العضلية الانعكاسية التي يسببها حدث مفاجئ، والتصرفات الناجمة عن ارتجاجها.

لا تعد الأفعال الآلية التي يسببها المرء لنفسه (مثل تلك الناتجة من الثمالة) دفاعًا مقبولًا، والجنون يشبه الأفعال الآلية غير أن العوامل المسببة تكون داخلية (مثل المرض) بدلًا من كونها خارجية (مثل ضجيج مفاجئ أو ضربة على الرأس)، والأمر الذي لم يستبعد هو الاستفزاز، وهو رد فعل لعواطف قوية مرتبطة بما يسمى جرائم الشرف على سبيل المثال، وسوف أتحدث أكثر عن العواطف القوية في الفصل التاسع.

كما هي الحال بالنسبة إلى النظام القانوني، فالأمر كذلك بالنسبة إلى بقية العالم الاجتماعي. إن الحرية، كما سنرى في الفصل الحادي عشر، قيمة إنسانية أساسية، وقد علق الفلاسفة ذوو العقلية التاريخية على الدخول الحديث نسبيًّا لمصطلح (الوعي) إلى اللغة الإنجليزية في القرن السابع عشر؛ بأن تعابير الحرية كانت جزءًا من تلك اللغة على الأقل منذ القرن التاسع، ومفهوم الحرية أقدم بكثير من تعبيره الإنجليزي. لا يزال موضوع الإرادة الحرة يخضع حتى اليوم لمناقشات حامية، ويكمن في صميم نظريات السلوك الإنساني مثل الوحدة الجبرية في معادلة حسابية؛ فمثلما أن التقسيم على صفر يعطي قيمًا محتملة لا نهائية، فإن الخوض في مرجل الإرادة الحرة يشعر المرء أنه ينجرف بلا هدى في بحر من الاحتمالات الفلسفية المربكة، ومع ذلك فإن الإرادة الحرة تعد مركزية في إدراكنا لذاتنا، خاصة في العالم الغربي الحديث، وهي مركزية، وفي الحقيقة جوهرية، في قضية غسيل الدماغ؛ لأننا فقط إذا امتلكنا الإرادة الحرة، تسبب الصور الخطيرة من التأثير تهديدًا محتملًا، وبخلاف ذلك سنبدو

مثل حبات الخرز التي تنزلق على خيط لا ينتهي من الأسباب، وأي صورة من صور التأثير لا تعدو أن تكون سببًا آخر من بين أسباب عديدة في عالم تحدده الأسباب.

الخلاصة والاستنتاجات

لا يمكن تجنب المفاهيم التي وصفت أعلاه عند مناقشة التحكم في العقل التي يبدو بعضها -مثل فكرة التغيير- غير مشكل نسبيًّا؛ وبعضها الآخر- مثل الإرادة الحرة- قد حيَّر كبار المفكرين لقرون عدة، ولكن المفكرين في الوقت الحاضر يتميزون على أسلافهم بميزة أعتقد أنها مهمة؛ هي زيادة الفهم العلمي لدماغ الإنسان والسلوكات التي خلَّفها لنا القرن العشرون. وصف الجزء الأول من هذا الكتاب أمثلة عديدة حول كيفية تحسين علم النفس الاجتماعي لفهمنا للسلوك، وخاصة سلوك المجموعات، وسينتقل الجزء الثاني إلى علم الأعصاب، وروائع الدماغ البشري.

الجزء الثاني

الخائن الموجود في جمجمتك

الفصل السابع

أدمغتنا المتغيرة باستمرار

«لا يوجد مخلوق تكوينه الداخلي قوي جدًا إلى درجة أنه لا يتحدد كثيرًا بما يوجد خارجه».

جورج إليوت George Eliot،

ميدل مارش (Middlemarch اسم مدينة خيالية في منطقة الميدلاند في إنكلترا).

سيضع هذا الجزء الأسس العلمية المطلوبة لوضع (الدماغ) في آلية غسيل الدماغ، خاصة أن الجزء الأكبر من هذا الفصل سيخصص للآلية المركزية التي تدخل في تقنيات التأثير -تغير الدماغ- التي تتطلب معرفة بنتائج علم الأعصاب الحديث.

علم محير

علم الأعصاب ودراسة الأدمغة هو وليد حركة التنوير التي ولدت من الاعتقاد أنه لا يوجد شيء خارج حدود العلم[1]، ومثله مثل شقيقه علم الوراثة، فقد نما علم الأعصاب في القرن العشرين، وقد ألقى أخوهما الأكبر علم الفيزياء بظلاله عليه، وغيَّر حياتنا جميعًا، وقدَّم الدماء على مذبحه لإثبات ذلك. يَعِد علم الوراثة بإنجازات أكبر، متفاخرًا بأنه سيسود العالم يومًا ما، وبالمقارنة بهؤلاء المراهقين المتبرجين، يعد علم الأعصاب سندريلا Cinderella هادئة، لكن بعضهم يقول إنه سيتفوق على أشقائه من العلوم، مغيرًا ليس فقط العالم الذي نعيش فيه، وليس فقط أجسامنا التي ولدنا فيه، وإنما أيضًا الأفكار والذوات والثقافات التي نبنيها.

بدأ علم الأعصاب حقًّا يخبرنا أننا لسنا ذلك النوع من المخلوقات الذي كنا نعتقد أننا نكونُه، وأن بعض الافتراضات اليومية الأكثر شعبية لدينا عن أنفسنا في غير محلها. يعتمد كثير من تفاعلاتنا الاجتماعية على اثنين من هذه المفاهيم التي نعتز بها؛ المفهوم الأول هو الصلابة: أي فكرة أننا نملك عقولًا ألماسية، وأن شخصياتنا وذكرياتنا حالما تتشكل تتغير ببطء شديد، والثاني هو الإرادة الحرة: أي فكرة أننا نسيطر، ومن ثم نتحمل المسؤولية عن بعض أفعالنا، على

الأقل (تلك التي نسميها حرة). بطبيعة الحال، لم تمر هذه الافتراضات من دون أن يتحداها علماء العالم،

وفلاسفته، وكتّابه، وحتى في هذا الكتاب وجدنا كثيرًا من الأدلة على كيفية تغير الناس، وكيف يمكن أن يُسَيطر عليهم، مع ذلك فإن أفكار الصلابة والإرادة الحرة لها تأثير هائل، وخاصة في الغرب، فنظام العدالة الجنائية البريطاني -على سبيل المثال- يعتمد على مفهوم الإرادة الحرة عند تحديد المسؤولية وإيقاع العقوبة، وهو يفترض أيضًا الصلابة؛ فيتوقع أن يكون الأشخاص المسجونون بسبب جرائم هم (الأشخاص أنفسهم) الذي مارسوا القتل، من حيث إن شخصياتهم لم تتغير جذريًّا منذ ذلك الوقت. غسيل الدماغ الذي يؤثر تأثيرًا هائلًا في الشخصية، يمحو حرية ضحاياه في التصرف، لكنه يدعهم وهم لا يزالون يعتقدون أنهم يتصرفون بحرية. لفهم ما يحدث في غسيل الدماغ، نحتاج إلى النظر إليه من كثب.

الإرادة الحرة هي موضوع الفصل الحادي عشر، وسنستكشف افتراض الصلابة لاحقًا في هذا الفصل، لكن قبل ذلك لنا حديث عن عالم الأعصاب.

علم الأعصاب في قوقعة

عندما تفتح كتابًا شائعًا في علم الأعصاب، وقبل أن تتوغل فيه فإنك ستجد غالبًا بالتأكيد جملة تخبرك عن بلايين الخلايا العصبية التي توجد في دماغ الإنسان، يوازي تشبيه شائع بين عدد الارتباطات الممكنة بين هذه العصبونات وبين عدد الذرات في الكون المعروف، ونظرًا إلى صعوبة تصور مثل هذه الأعداد الضخمة من قبل معظم الناس، فلن أذكر العدد في أي من طرفي التشبيه، وعوضًا عن ذلك سأحاول طريقة مختلفة في إيصال فكرة التعقيدات المفرطة في جماجمنا: التشبيه المجازي بكوكب الأرض.

ساعدتنا العلوم ورسومات الحاسوب على تخيل كيف بدأ كوكبنا الذي اندمج غباره في صخرة عارية تدور حول نفسها ولها لب مكون من حديد مصهور؛ كانت الأرض الوليدة مخلوقًا معذَّبًا، تعصف بها الزلازل والبراكين، وصدمات النيازك، وهي تتشكل بفعل تغيرات هائلة، ولكن بعد أن بردت انحسر عنف الولادة واستقرت جغرافيتها كما نراها اليوم، وفي أثناء ذلك ظهرت

كتلة من المواد الكيميائية، سواء جاءت من الفضاء أو تكونت في أعماق البحار، ذات قدرة فريدة على استنساخ نفسها، وتماسكت الحياة منذ ذلك الحين، وحافظت على بقائها على الرغم من المذنبات، والعصور الجليدية، وغير ذلك مما ألقاه الكون عليها حتى الآن.

ما حدث لكوكبنا حدث لكل دماغ إنساني؛ فالتغيرات الباكرة ضخمة، وتشكل مشاهدنا المعرفية التي لا تزال مائعة، وتحدد الأنماط الرئيسة لشخصياتنا، وقد يكون لنيزك في هذه المرحلة تأثيرات كارثية في التطور المستقبلي، ثم تستقر الأشياء بصورة تدريجية، ويبرد عنف العواطف الباكرة، ويقل معدل التغيير. وكما ترسخت الحياة على الأرض الفتية، ونحَتَ كل نوع ركنه الخاص به، استقرت حمى الثقافة في مشاهدنا، فشكلتها بأساليب لا تحصى. وازدهرت الأفكار، سكان عالم الأعصاب، بملايينها، بعضها يترك -مثل الأحافير- علامة، ومعظمها يموت بصمت، ومثل الأشياء الحية، يمكن تمييزها بوضوح في أنواع، لكن كلًّا فريد في نوعه. ومثل الأفكار الأشياء الحية، يمكن أن تتكاثر الأفكار، منتشرة من دماغ إلى آخر كما سننتقل يومًا من عالم إلى آخر.

ذهبت بعض أشكال الحياة بعيدًا في تطوير أجسام معقدة، وأدمغة، وتفاعلات اجتماعية، وشكلٌ واحد فقط -حسب معلوماتنا- اخترع لغة وثقافة متطورة بصورة كبيرة، لكن أنواعًا أخرى عديدة كانت تفتقر إلى هذه القدرات أحدثت مع ذلك تأثيرًا ضخمًا في العالم من حولها. غير أن كوكب الأرض نفسه، على الرغم من أن تشكله تأثر كثيرًا بوجود الحياة، فإنه ليس بحاجة إليها. إذا كان الأمر كما تنبأه دعاة النهاية المحتومة منذ أدرك البشر مفهوم الموت، فإننا سنفنى ونأخذ كل شيء حي معنا، ولن تستسلم الأرض يأسًا وتنهار، بل ستستمر ببساطة في دورانها حول محورها كما كانت دائمًا تفعل، وفق ما عبر عن ذلك الكاتب سلمان رشدي Salman Rushdie:

> **«ننظر إلى الأعلى ونأمل أن تنظر النجوم إلى الأسفل، نصلي من أجل أن تكون هناك نجوم نتبعها، تتحرك عبر السماوات وتقودنا إلى مصيرنا، ولكن ذلك ليس سوى غرورنا. ننظر إلى المجرة ونقع في حبها، لكن الكون يبدي اهتمامًا بنا أقل مما نهتم به، وتستمر النجوم في مساراتها مهما رغبنا أن تفعل خلاف ذلك».**

رشدي، **التنهيدة الأخيرة للمستنقع** .Rushdie, The Last Moor's Sigh

Rushdie, The Moor's Last Sigh, p. 62

الشيء نفسه صحيح بالنسبة إلى الأدمغة؛ فهي لن تزول من الوجود إذا أزيل قاطنوها العقليون، إذا انقرضت الأفكار والثقافة، أو لم تتثبت، تفقد ببساطة كل ما يجعلها مثيرة للاهتمام. كل ما يتبقى هو الرسالة الكئيبة نفسها التي نتلقاها من كوكب المريخ المقفر شقيق الأرض: تذكير بما كان، أو ربما كان، وما سيكون عندما يصل ازدهارنا إلى نهايته.

تخيل مهمة استكشاف كوكب جديد؛ ليس فقط فهم القوى التي شكلت اليابسة والبحر والمناخ، بل تسجيل الأنواع وتفسير كيف نشأت، يصبح لديك فكرة عن المهمة التي تواجه علماء الأعصاب. فبصورة مشابهة لرواد الرحلات بين الكواكب، يصطحب مستكشفو الدماغ معهم أدوات ومعرفة: علماء التشريح العصبي لرسم جغرافية الدماغ، وعلماء الأدوية العصبية، وعلماء علم الوظائف العصبية، وعلماء علم حياة الخلية، وعلماء الوراثة العصبية لدراسة الآليات؛ وباحثي التصوير العصبي لأخذ صور جميلة من الفضاء؛ وعددًا لا يحصى من المختصين الآخرين لدراسة كل شيء. أدى الانفجار في البحث إلى تجزؤ لا مفر منه، مما جعل تلخيص كامل علم الأعصاب أمرًا مستحيلًا، ولكن توجد أسس محددة متفق عليها بصورة عامة، وهي ما سنتناوله الآن.

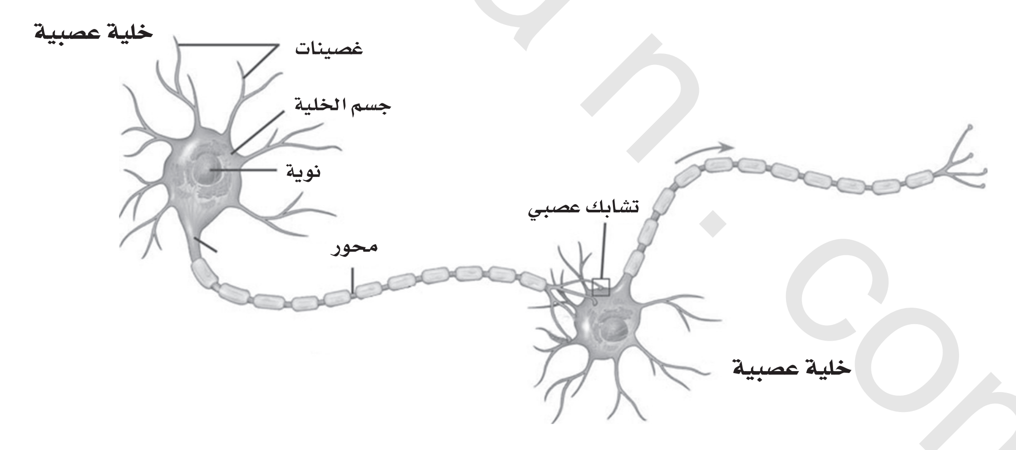
مم تتكون الأدمغة؟

يتكون الدماغ، مثل الأعصاب في أجسامنا، من خلايا تسمى الخلايا العصبية (العصبونات) neurons، مختصة في نقل الإشارات فيما بينها. تحتوي الخلية العصبية على سائل الهيولى (cytoplasm) المليء بجزيئات متنوعة، إضافة إلى منطقة مركزية (النواة nucleus) تحوي آلية أساسية مثل جزيئات) الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين) التي تتكون منها مورثات الخلية genes. يمكن أن ترسل كل خلية عصبية إشارات من خلال استطالة طويلة تسمى المحور axon، في حين تستقبل الإشارات من الخلايا العصبية الأخرى عبر استطالات أقصر تسمى الغصينات dentrities. يكون للخلية العصبية عادة محور واحد والعديد من الغصينات؛ لذا يمكنها استقبال آلاف الإشارات من الخلايا الأخرى، لكنها تستطيع إرسال إشارة واحدة فقط كل مرة. يمتد محور كل خلية عصبية ليصل إلى خلية عصبية أخرى (الأعصاب التي تخبرنا بأن أصابع أقدامنا باردة لها محاور تمتد على طول متر أو يزيد، من القدم إلى النخاع الشوكي)، لكن

المحور لا يلامس الخلية المستقبِلة. توجد فجوة دقيقة بينهما تسمى التشابك العصبي synapse (انظر الشكل 1-7)[2].

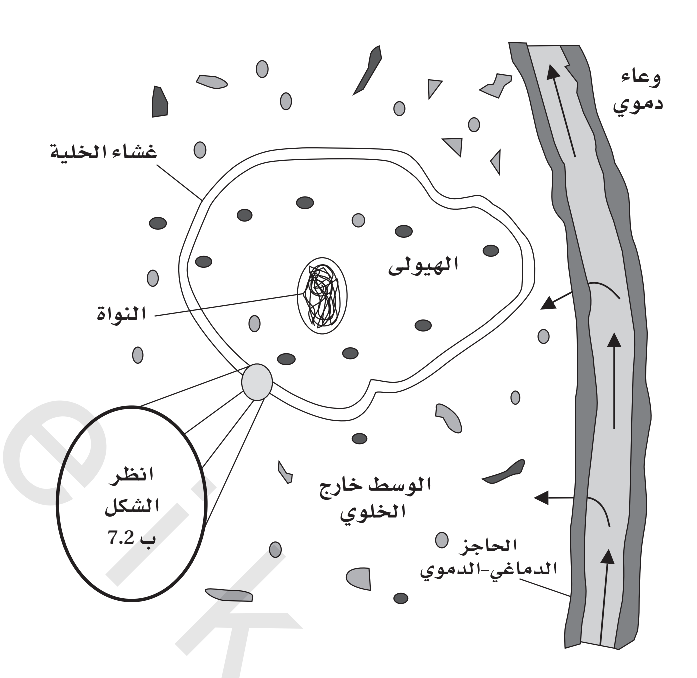
أين تعيش الخلايا العصبية؟

يمكن أن تعمل الخلايا العصبية فقط لأن كل خلية منها تعيش وتتنفس ولها كيانها الخاص في حساء يعج بالجسيمات، السائل المخي الشوكي Cerebrospinal fluid (CSF). بعض هذه الجزيئات معتدلة كهربائيًّا، وبعضها -وتسمى الشوارد Ions- تحمل شحنات كهربائية موجبة أو سالبة. تختلف الجسيمات في حجومها، من الأصغر والأبسط (الشوارد مثل الصوديوم، البوتاسيوم أو الكلور) إلى الأكبر والأكثر تعقيدًا (مثل البروتينات، الدهون، العقاقير، أو الفيروسات). يستقبل الدماغ المواد الغذائية اللازمة للعمل (مثل الجلوكوز والأكسجين) من الأوعية الدموية المبطنة بنوع متخصص من الخلايا، وتشكل هذه البطانة حاجزًا بين الدماغ والدم يشكل حماية حيوية تتحكم فيما يسمح له بدخول الدماغ أو لا. (انظر الشكل 2-7 أ).



الشكل 1-7 تتكون الخلية العصبية من جسم الخلية- الذي يحتوي على محرك الخلية اللازم كي تقوم بعلمها، الذي يبرز منه غصينات عصبية عدة ومحور واحد.

تستقبل الغصينات الإشارات من الخلايا الأخرى، ويتيح المحور الذي قد يبلغ طوله مترًا أو أكثر، للخلية إرسال إشارات إلى الخلايا الأخرى. توجد فجوة دقيقة بين نهاية المحور والخلية المجاورة (مبالغ فيها في الرسم) تسمى التشابك العصبي الذي تعبر المعلومات من خلاله من خلية إلى أخرى.



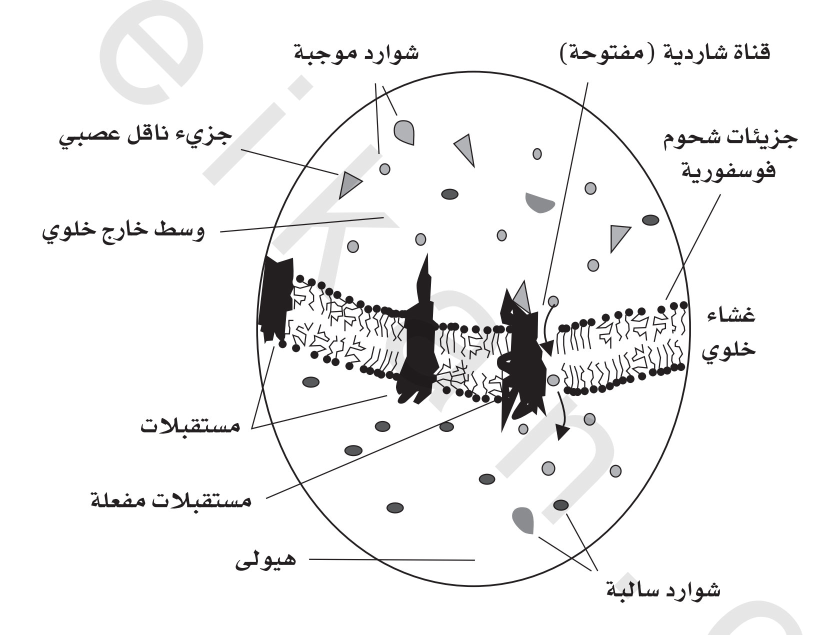
الشكل 2_7 أ تمثيل بالرسم لخلية عصبية (لم يرسم المحور والغصينات العصبية من أجل التبسيط).

الخلية العصبية محاطة بغشاء خلوي يحتوي على نواة الخلية وسائل الهيولى. تحتوي النواة على مورثات الخلية، وهي الوصفة التي تبنى على أساسها البروتينات، وتحتوي الهيولى على معظم الآلية التي تدير الخلية، وتنتج الطاقة، وتنقل البروتينات من مكان إنتاجها إلى المكان الذي توجد فيه حاجة إليها، وتصلح الضرر، وتولد الإشارات الكهربائية التي تمر على امتداد المحور إلى التشابك العصبي. تحتوي الهيولى على العديد من الشوارد (وهي جسيمات مشحونة كهربائيًّا: مثِّلت بأشكال صغيرة مملوءة في الرسم)؛ فعندما تكون الخلية العصبية في حالة الراحة (لا توجد إشارات)، فإن الهيولى تحتوي على شوارد سالبة أكثر نسبيًّا مما يحتويه الوسط خارج الخلوي الذي تعيش فيه الخلايا العصبية. تحتوي أي خلية على أصناف عديدة من الشوارد السالبة والموجبة إضافة لجزيئات ليس لها شحنة كهربائية عامة.

الداخل والخارج

المكافئ للجلد في الخلية العصبية هو غشاؤها الخلوي، وهو طبقة مزدوجة من الجزيئات الدهنية تسمى الشحوم الفوسفورية، وهي مثل حدود الدولة، تحدد شكل الخلية وتبقي -نظريًّا على الأقل- الزوار غير المرغوب فيهم خارج الخلية. وإذا كان لمعظم الدول عدد من أساليب

الوصول، بعضها محروس وبعضها غير محروس، فكذلك الحال بالنسبة إلى الخلايا؛ غشاء الشحوم الفوسفورية مملوء بالثقوب، بعضها غير محروس، لكنها تسمح لجزيئات معينة فقط، مثل الماء والبوتاسيوم، بالتسرب من خلالها، وبعضها الآخر محروس بآليات تسمى المستقبلات التي يجب تنشيطها بوساطة إشارة معينة (عادة من خلية عصبية أخرى) قبل أن تفتح البوابة للسماح بدخول الجزيئات إلى الخلية (انظر الشكل 2-7 ب). ثمة حركة سير مستمرة في الاتجاهين من خلال غشاء الخلية، ومثل الدول؛ تملك الخلايا آليات داخلية معقدة للتعامل مع كل من يدخل إليها[3].



الشكل 2-7 ب مقطع في الغشاء الخلوي الذي يتكون من طبقة مزدوجة من جزيئات الشحوم الفوسفورية. تنغمس في الغشاء الخلوي مستقبلات، وهي جزيئات معقدة يمكن تفعيلها عندما يلتصق بها ناقل عصبي. يستجيب كل مستقبل لجزيئات قليلة محددة فقط، ويحدث ذلك بتغيير شكل المستقبل. يمكن أن يحفز هذا عددًا من التغيرات ضمن الخلية، ومنها (كما هو مبين هنا) فتح قناة شاردية. نظرًا إلى أن الخلية العصبية يكون داخلها مشحونًا بشحنة سالبة بالنسبة إلى الوسط خارج الخلوي في حالة الراحة، فإن الشحنات الموجبة تميل إلى المرور عبر قناة شاردية مفتوحة إلى داخل الخلية؛ وذلك لأنها تدفع من قبل شحنات موجبة أخرى، توجد بكثرة في الوسط خارج الخلوي، وتجذب بوساطة الشحنات السالبة، التي توجد بأعداد أكبر في الخلية. يبين الرسم الشوارد الموجبة (أشكال رمادية مملوءة، وتبين الأسهم اتجاه حركتها) تتنقل إلى داخل الخلية عبر قناة شاردية مفتوحة.

كيف تعمل الخلايا العصبية؟

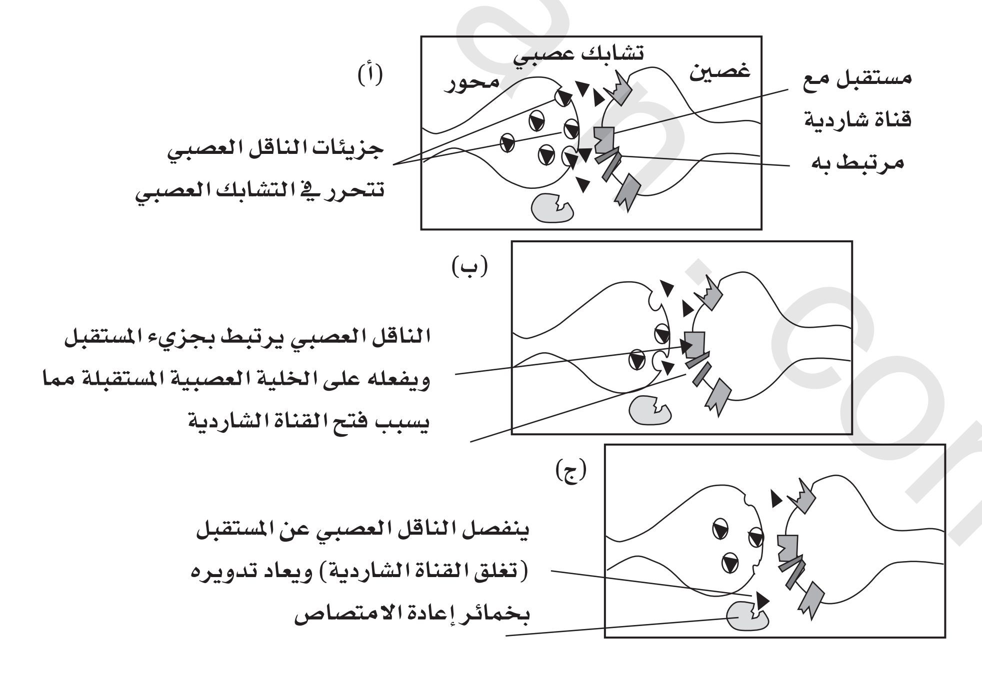
طورت جميع الخلايا آليات تعرف بمضخات الشوارد، وكما تنظم المستقبلات ما يدخل إلى الخلية فكذلك تزيل مضخات الشوارد بعض الشوارد (كما يطرد موظفو الهجرة الأشخاص غير المرغوب فيهم من البلد). أصبحت الخلايا العصبية جيدة بصفة خاصة في انتقالات الشوارد، ونتيجة لذلك يمكنها أن تسيطر بدقة على الفرق في الشحنة الكهربائية بين بيئتها الخارجية (الوسط خارج الخلوي) ووسطها الداخلي (الهيولى). عندما لا تكون الخلايا العصبية مشغولة باستقبال الإشارات، فإن وسطها الداخلي يكون مشحونًا بشحنة سالبة بالنسبة إلى الوسط خارج الخلوي. تُفعّل الإشارات المستقبلات التي تسمح للشوارد الموجبة بالدخول إلى داخل الخلية العصبية، فتجعلها أقل سلبية بالنسبة إلى الوسط خارج الخلوي، وتسبب نشوء موجه كهربائية -إشارة الخلية الذاتية- تنتشر على طول كامل الخلية إلى نهاية المحور. يجعل ضخ الشوارد الموجبة إلى خارج الخلية أكثر سلبية بالنسبة إلى الوسط خارج الخلوي، وهو ما يعيد توازن الشحنات مرة أخرى إلى حالة الراحة السالبة، وترجع الخلية جاهزة لتوليد الإشارة التالية.

كيف تتواصل الخلايا العصبية؟

التشابكات العصبية بتعابير الدماغ هي الأماكن التي يحدث فيها العمل. من خلال هذه الشقوق الدقيقة تتحدث الخلايا بعضها مع بعض، واللغة التي تستعملها هي إشارات من (البصاق)، فعند وصول إشارة كهربائية إلى نهاية المحور، فإنها تحرض على إفراز مكونات أكياس دقيقة من مواد كيميائية، تسمى النواقل العصبية (لأنها تنتقل بين الخلايا العصبية)، تبصق هذه الجزيئات خارج الخلية عبر الشق، ويصل بعضها إلى الخلية العصبية على الجانب الآخر، وهناك تجد مستقبلات على سطح الخلية العصبية (الغشاء الخلوي)، تنتظر الجزيء الصحيح ليأتي إليها، فإذا جاء الشريك المناسب، يكون الارتباط فوريًّا مثل مفتاح في قفل، وينطبق الناقل العصبي في الجزيء المستقبل، فيسبب انطواءه في وضع جديد. مع تغير شكل المستقبل، تفتح بوابات في الغشاء الخلوي، وتدخل منها أي مادة كيميائية تستطيع ذلك، فتتغير الحالة الكهربائية للخلية وتنطلق مجموعة من الإشارات الثانوية (تعرف بالرسائل الثانوية). بعد أن توصل رسالتها، ينفصل الناقل العصبي، ويعاد تدويره بوساطة جزيئات متخصصة (خمائر إعادة الامتصاص) كامنة في التشابك العصبي؛ في حين يعود المستقبل إلى حالته (المنفعلة) بانتظار الاتصال القادم (انظر الشكل 3-7).

التعلم

على الرغم من أن المستقبل قد يستعيد وضعه السابق، فإن الخلية التي يقع على غشائها الخلوي لن تكون الخلية نفسها تمامًا مرة أخرى. يكون التغير أحيانًا ضئيلًا، لكن كثيرًا ما يسبب القصف بالجزيئات الناقلة تغيرات طويلة الأمد، لا تؤثر في الحالة الكهربائية للخلية فحسب (وهو ما قد يؤدي بالخلية إلى توليد إشارتها الخاصة بها)، وإنما في آليتها الوراثية أيضًا. يمكن تشغيل المورثات أو إيقافها؛ يمكن حث الآلة التي تقرأ تلك المورثات وتصنع البروتينات على مضاعفة جهودها أو إخبارها بأن تأخذ الأمر على محمل الراحة. قد تكون هذه البروتينات مزيدًا من المستقبلات، ستشحن إلى غشاء الخلية، أو قد يكون لها وظائف تؤديها داخل الخلية، وهي بدورها ستؤثر في البيئة الداخلية للخلية العصبية، وهو ما قد يجعل مستقبلات أخرى في الغشاء تفتح أو تغلق... وهكذا، في شبكة لامتناهية من الأسباب والنتائج.



الشكل 3-7 العملية التي تتواصل بها خلية عصبية مع خلية عصبية أخرى بوساطة فجوة دقيقة بينهما تسمى التشابك العصبي.

يبين الشكل 3ـ7 (أ) محور الخلية العصبية المتصل (جهة اليسار) وغصينات الخلية العصبية المستقبلة (جهة اليمين). تحتوي نهاية المحور على عدد من الكرات الدقيقة المملوءة بجزيئات النواقل العصبية (المثلثات السوداء). عندما تصل إشارة الخلية العصبية إلى نهاية محورها، تنتقل تلك الكرات إلى غشاء الخلية، وتفرغ محتوياتها في التشابك العصبي. يحتوي الغشاء الخلوي للخلية العصبية المستقبلة على مجموعة من جزيئات الاستقبال (يظهر ثلاثة منها هنا)، بعضها يمتلك قنوات شاردية مرتبطة بها (تظهر واحدة منها هنا).

يبين الشكل 3ـ7 (ب) أحد جزيئات الناقل العصبي (المثلثات السوداء) ملتحمًا مع مستقبِل الخلية المستقبلة، وقد فُتحت القناة الشاردية المرتبطة بها.

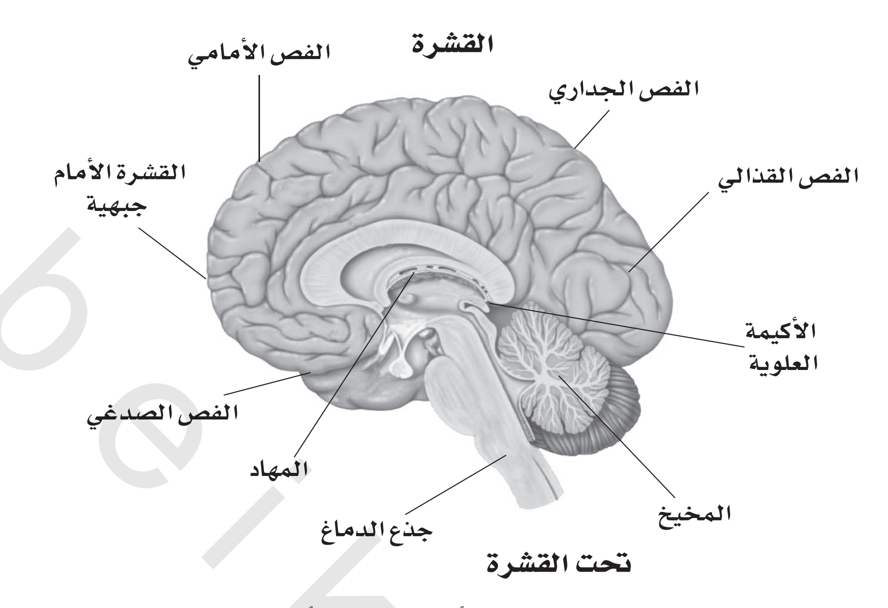
يمثل الشكل 3ـ7 (ج) إعادة تدوير الناقل العصبي. بعد أن ينفصل جزيء الناقل العصبي عن مستقبله، تُغلق القناة الشاردية المرتبطة بذلك المستقبل، وهو ما يسمح للخلية العصبية المستقبلة بإعادة توازن الشحنات الكهربائية داخل الخلية وخارجها، استعدادًا للإشارة الواردة القادمة. في أثناء ذلك، تزيل خمائر إعادة الامتصاص الناقل العصبي من التشابك العصبي وتنقله مرة أخرى إلى الخلية التي أرسلت الإشارة، بحيث يُحافظ باستمرار على قدرة الخلية على التواصل مع جارتها.

لماذا يعد هذا مهمًّا؟ لأن محصلة التأثير كثيرًا ما تكون تغيرًا في استقبالية الخلية للرسائل في المستقبِل. يجعل شحن المزيد من المستقبلات إلى الغشاء الخلوي -على سبيل المثال- الخليةَ أكثر حساسية للنواقل العصبية، ومن ثم أكثر احتمالًا للاستجابة بإصدار إشارة خاصة بها. وعلى العكس؛ فإن (تقاعد) المستقبلات في الغشاء الخلوي سيجعل الخلية العصبية أقل قابلية للتفعيل بوساطة الإشارات الواردة. إن قدرة الخلايا هذه على تغيير قوة التشابكات العصبية فيما بينها هي سر قوة الدماغ في التعلم من الخبرة. عمومًا، عندما تكون خليتان عصبيتان نشيطتين في الوقت نفسه فإن التشابك العصبي الذي يربط بينهما يغلب أن يزداد قوة. وعندما تفعَّل خلية عصبية منهما، فإن وجود تشابك عصبي أقوى بينهما سوف يزيد من فرصة أن الخلية العصبية الأخرى سوف تفعَّل أيضًا. من خلال الربط بين القوى التشابكية، ومقدار نشاط الخلايا العصبية، يرسم الدماغ مشهده المعرفي وفقًا للمؤثرات التي يستقبلها. مثلما يشق الماء المتدفق على الأرض أخدودًا، وبذلك يتدفق بصورة أكثر سهولة مع مرور الوقت، كذلك تقوي الإشارات المتدفقة بين الخلايا العصبية الارتباطات بينها، وتسهِّل تدفق الإشارات المستقبلية، فكلما ازداد تكرار أو شدة الإشارة الواردة إلى بعض الخلايا العصبية، ازدادت قوة الارتباطات بينها، ولهذا السبب يعد التكرار سمة مركزية في تقنيات غسيل الدماغ.

تنسيق الدماغ

ينقسم دماغ الإنسان -مثل القصور الريفية- إلى طوابق علوية وأخرى سفلية؛ فالطبقات السفلية هي المناطق تحت القشرة، مثل المخيخ، المهاد، اللوزة، والأُكيمة العلوية (سيأتي الحديث عنها لاحقًا)، التي يحدث فيها كثير من العمل: نبضان القلب، والتنفس، وتنظيم درجة الحرارة، وكثير من أوجه الحركة، وبعض التعلم، وأشياء كثيرة لا ندركها عادة. وتحت القشرة مناطق عديدة؛ يعالج بعضها المعلومات الواردة (الحسية)، وبعضها يعالج الأوامر الحركية الصادرة، وبعضها معلومات الوضعية الحالية للجسم وحالته (التي تسهم في الحالات التي نسميها العواطف)، وبعضها لها وظائف أكثر تعقيدًا. لن أتحدث كثيرًا عن تحت القشرة، فقد أُلِّفت كُتب عن مناطق تحت القشرة كلًّا على انفراد، وتناول حتى القليل منها يبقى خارج نطاق هذا الكتاب.

الطبقات العلوية هي القشرة، حيث تكمن الروعة؛ فالنفس، والإرادة الحرة، والوعي، يفترض أنها تعيش كلها في هذا العالم. تنقسم القشرة إلى نصفين: نصفا الكرة الأيمن والأيسر، وينقسم كل واحد منهما إلى أربع مناطق أساسية[4]؛ يقع في مؤخرة الرأس الفصان القذاليان، ويقع على جانبي الرأس الفصان الجداريان اللذان نفهمهما فهمًا أقل (يقعان في الأعلى)، والفصان الصدغيان (يقعان في القاع)، في حين أن الجزء الأمامي من الدماغ، المتطور جدًّا لدى الإنسان، يشغله الفصان الجبهيان الأيمن والأيسر (انظر الشكل 4-7). يحتوي كل فص على العديد من المناطق التحتية، ويبدو أن أنواع الإشارات التي تستقبلها الخلايا العصبية تختلف من فص إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى. تدخل الإشارات من العين مثلًا إلى القشرة في مؤخرة الدماغ، في الفصين القذاليين، في حين تدخل الإشارات من الأذنين إلى الفصين الصدغيين، تختلف الخلايا العصبية أيضًا في الإشارات التي ترسلها؛ فترسل الخلايا في المناطق الحسية إشارات بصورة رئيسة إلى المناطق القشرية الأخرى أو المناطق تحت القشرية الحسية، في حين ترسل تلك المناطق في الفصين الجبهيين التي تعنى بإنتاج الحركة إشارات الأوامر إلى مناطق الإصدار تحت القشرة: مجموعات من الخلايا العصبية ذات اتصالات سريعة مع النخاع الشوكي، ومن ثم مع العضلات.



الشكل 4-7 منظر إنسي لدماغ الإنسان، مع تسمية الأجزاء الرئيسة الأربعة من القشرة (الفصوص: الجبهي، الصدغي، الجداري، والقذالي).

يُظهر المنظر الإنسي الدماغ وكأنه قطع من منتصفه، وأزيل أحد النصفين بحيث يمكن رؤية السطح الداخلي للنصف الباقي. (المنظر الجانبي شائع أيضًا، كما في الشكل 1-10(أ)، صفحة 222)، ويرى فيه الدماغ من الجانب، حيث يتجه الجزء الأمامي منه (الفص الجبهي) نحو اليسار، والجزء الخلفي منه (الفص القذالي) نحو اليمين. تشكل القشرة طبقة مجعدة أعلى منطقة تحت القشرة. سُمِّيت أربع مناطق من تحت القشرة: المهاد، المخيخ، الأكيمة العلوية، وجذع الدماغ.

الذات الصلبة

بعد هذه الحلقة الدراسية المكثفة، نعود إلى الموضوع الرئيس في هذا الفصل: افتراض الصلابة. نعجب جميعنا من السرعة التي ينمو فيها الأطفال، وبالفعل، فإن معدل التغير في دماغ الطفل مذهل، لكننا نميل إلى افتراض أنه بعد عمر معين تصبح أدمغتنا ثابتة بصورة أساسية، باستثناء حالات الحوادث والأمراض؛ فمثلًا: عندما يقال إن عسر القراءة حالة أساسها في الدماغ، يرتكس الأشخاص الذين يعانون صعوبة التعلم هذه بيأس: «أنا عالق بها إذًا»، إنها في الدماغ، إنها ثابتة للأبد. يخبرنا العلماء أن الذوات لها علاقة بالدماغ، حسن جدًّا، إذًا لا بد أن

الـذوات ثابتـة أيضًـا، وتتغيـر فقط ببطء (عبر سـنوات)، هـذا إذا تغيرت أصلًا. يمكـن أن يأخذ افتراض الصلابـة إذًا شـكلين: الأول يتعلق بالدمـاغ، والثاني يتعلق بالـذات؛ الأول حديث، الثاني أكثـر قدمًـا. نحـن البالغون نعرف من نحن: مصدر أفعالنا وأصحـاب أفكارنا، ولا يعني كوننا غير قادرين على إعطاء تعريف مثل تعريف الفلاسـفة للذات أننا لا نمتلك شـعورًا قويًّا بهويتنا الذاتية مع مرور الوقت.

إذا كنا محظوظين فلن نشعر قطعًا باهتزاز تلك الأسس العميقة، لأن مثل هذه التجربة يمكن أن تكون إحـدى أكثر التجـارب رعبًا في العالم. الشـعور بالموت الداخلي والفـراغ، في حين يجب أن تكون الـذات تنمـو بصورة صحية، يعطـي الكآبة رعبها الخاص؛ في حين أن التحلل المتشـظي للذات، سـواء أكان بطيئًا في مرض ألزهايمر أو كارثيًّا في الفصام النشـط، يرعب معظم النـاس رعبًـا مخيفًـا. نحن نخاف من أي شـيء قد يهـدد هويتنا: المخدرات، أو المرض، أو تلف الدماغ، أو التقنيـات الجديـدة، ونعترض بصفة خاصة على محاولات النـاس الآخرين لتغييرنا: الهندسـة الاجتماعية، محاولات التأثير (التي تكون على الأقل مؤقتة عادة)، وغسيل الدماغ (الذي قد يدوم تأثيره إلى الأبد). حتى عندما نريد التغيير، مستسلمين للمعالجين والمعلمين، ونحن نجري وراء حلم نمط حياة مشرق ولامع، فإننا نحاول تغيير شيء ما حولنا (نحن)، مع توقع تام أننا (نحن) (نحن) أنفسـنا الذين دخلنا العلاج) سـوف نحصد الفوائد. الصورة التقليدية لغسـيل الدماغ هي أنها آلية تدمر تلك التوقعات؛ وهذا جزء من رعبها.

لكـن فيمـا يتعلق بالدماغ، فإن افتراض الصلابة هو ببسـاطة غير صحيح، إذ تتغير الأدمغة طوال الوقت؛ فكل شـيء تدركه، وكل مؤثر تسـتقبله حواسك، يغيِّر دماغك، ويمكن أن يكون التغير كبيرًا أحيانًا، فبعد بتر طرف -على سبيل المثال- يحصل لدى بعض الأشخاص غير المحظوظين ما يسمى (الطرف الوهمي)، وعلى الرغم من أن هذا الطرف الوهمي متخيل، فإنه يُشعَر به وكأنه حقيقـي جدًّا، حتـى إن صاحبهـا يمكـن أن يتعذب من ألمه، وكثيـرًا ما يقول المرضـى إن الطرف الوهمي متشنج بشدة ولا يستطيعون إرخاءه، فكيف يحدث الألم في الطرف الوهمي؟

إن مـا يبـدو أنـه يحدث عند بتـر طرفٍ (إحدى اليديـن مثلًا)، هو أن الخلايـا العصبية في ذلك الجزء من القشـرة التي اعتادت على التعامل مع الإشـارات القادمة من اليد لم تعد تسـتقبل الـوارد المعتـاد، وعوضًا عن بقاء خلايا (قشـرة اليد) خاملة (للخلايـا العصبية أخلاقيات عمل صارمـة)، فإنهـا تشـترك في نشـاط المجموعات الأخرى المجـاورة من الخلايـا العصبية، وتبدأ

باستقبال الوارد نفسه مثل جيرانها. ونظرًا إلى أن (قشر اليد) مجاور للمنطقة التي تستقبل الوارد من الوجه، فإن الخلايا العصبية السابقة (لليد) تصبح خلايا عصبية (للوجه)، لكن مناطق الدماغ التي تستقبل الإشارات من هذه الخلايا العصبية ليس لديها أي وسيلة لمعرفة التغير في وارد الخلايا العصبية (من اليد إلى الوجه)، فبالنسبة إليها تعني الإشارات الواردة من هذه الخلايا العصبية أن شيئًا ما يحدث في اليد، ويمكن أن يؤدي هذا إلى نتيجة عجيبة؛ أن لمس وجه شخص ما بيد وهمية يمكن أن يحدث شعورًا بأن اليد غير الموجودة قد لُمست[5].

ليست جميع تبدلات الدماغ بغرابة الأطراف الوهمية، فبعض التغيرات صغيرة وقصيرة الأجل، ولا تترك -كما عبَّر عن ذلك الفيلسوف جون لوك John Locke- «أي آثار للخُطا، أو صفات باقية لذواتنا، أكثر من ظلال تحلق فوق حقول القمح»[6]، لكن كثيرًا من التغيرات، مع أنها تكون صغيرة ولا يمكن ملاحظتها بحد ذاتها، فإنها تراكمية وتأثيرها النهائي بعيد المدى. انظر كيف تتكيف العضلات مع التناقص التدريجي في وزنِ -لِنَقُل- زجاجةٍ من الماء المحلى بالتوت الأحمر المركز. تضع محضِّرة المزيج كمية صغيرة جدًّا في كل مرة لتنكِّهَ الماء بحيث إن التغيرات في وزن زجاجة المنكِّه تكون غير محسوسة، وحين تمتد يدها لتأخذ زجاجة جديدة عندها فقط تدرك وهي ترج الزجاجة أن دماغها يتوقع وزن زجاجة (فارغة). لا يعني مجرد إخفاقنا في ملاحظة التغير أن أدمغتنا لا تسجله. في الحقيقة، نحن لا نلاحظ معظم ما يحدث في أدمغتنا في أي لحظة معينة.

هذا العمى الضخم في أساس افتراض الصلابة، يجعلنا متحفظين بصورة غير حكيمة في تقدير ما سيؤثر أو لا يؤثر في أدمغتنا؛ لدينا معلومات عن المخدرات، والمرض، والتلف، لكن هذه أقلية في الإرهاب، ومع ذلك فحتى بالنسبة إليها نحن نتردد بالاعتراف بحصول تغير في هويتنا الذاتية (قد يكون (هو) شخصًا مختلفًا لأن دماغه قد غُسل، لكنني (أنا) أبقى كما أنا حسبما أرى). يفترض أنه لا تأثير لأي عامل آخر في الدماغ- وبالتأكيد في الذوات- حتى يثبت العكس، ويرتبط هذا المبدأ المحافظ مع أحد أكثر الأفكار نفوذًا في الفكر الغربي: الثنائية الديكارتية، وهي العقيدة التي أسميتها العقول الألماسية. الثنائية هي مفهوم الفيلسوف رينيه ديكارت Descartes بأن الذات هي (أشياء تفكيرية)، كيانات غامضة على الجانب الأنيق من التقسيم الصارم بين العقل الراقي والمادة الدنيا. إذا كانت العقول مختلفة عن الأجساد كما اقترح ديكارت Descartes، فإننا نتوقع ألا يكون للتغيرات في الأجساد أي تأثير في العقول.

حتى في القرن السابع عشر ألقيت ظلال من الشك على هذه الثنائية العنيدة، وقد عانت الفيلسوفة آن كونواي Anne Conway (1631–1679م) صداعًا موهنًا، وعرفت تمامًا كيف يؤثر الجسم في العقل، وقالت ذلك في نقد لديكارت Descartes أثار الإعجاب نشر (بعد وفاتها) في 1690م:

> «**علاوة على ذلك، لماذا تعاني الروح أو النفس كثيرًا مع الآلام الجسمية؟ لأنها عندما تتحد مع الجسم لا يكون لها حقيقة جسدية أو طبيعة جسمية، لماذا تجرح أو تحزن عندما يجرح الجسم الذي له طبيعة مختلفة جدًا؟ لكن إذا اعترف المرء بأن الروح لها طبيعة ومادة واحدة مع الجسم، عندها تتلاشى جميع الصعوبات المذكورة أعلاه؛ ويفهم المرء بسهولة كيف تتحد الروح والجسد معًا...**».
>
> كونواي Conway، **مبادئ أقدم وأحدث فلسفة**، صفحة 58.
>
> Conway, The Principles of the Most Ancient and Modern Philosophy, p. 58

توفي ديكارت Descartes في الوقت الذي نشرت فيه مقالة كونواي Conway، لكنه نبَّه على مسألة الألم من قبل امرأة أخرى مثقفة جدًّا، هي الأميرة إليزابيث Elizabeth في بلاط بوهيميا التي تراسل معها. كما لاحظ محررو كونواي Conway: «لم يجب ديكارت Descartes أبدًا عن السؤال؛ نصح إليزابيث Elizabeth بكل بساطة بأن تقضي فقط أيامًا قليلة في السنة في دراسة مسائل ما وراء الطبيعة، وهو شيء لم يقترحه قط لأي من مراسليه الذكور الذين وضعوا علامات استفهام حول جوانب من فلسفته»[7].

لكن حجة الأميرة إليزابيث Elizabeth –أن الألم هو استثناء لمبدأ الثنائية– هي التي صمدت أمام اختبار الزمن. منذ القرن السابع عشر تضمن تاريخ التفكير في الذوات، تلك القوارب الهشة التي يبنيها كل واحد منا للإبحار بها عبر الحياة، عددًا متناميًا لمثل هذه الاستثناءات. لم يظهر فقط علم الأعصاب أن كلًّا من الألم، والعقاقير، والمرض، والتلف يمكنها أن تؤثر في كل من الدماغ والذات، بل أنها أيضًا وسَّعت قائمة العوامل إلى أبعد من هذه[8]؛ المورثات، والهرمونات، والشدة، والمجال المغناطيسي للأرض، ودرجة الحرارة، وضوء الشمس، وأبراج الكهرباء، والطعام الذي نتناوله، وحتى الهواء الذي نتنفَّسه... يا لنا من مخلوقات ضعيفة معرضة للعديد من المؤثرات الخارجية، حتى إننا لا نلاحظ معظمها!

آه، يصرخ الناقد، لكني (أنا) ما أزال أساسًا نفسي أنا. هذا العبث على الأطراف، مواد مغيرة للسلوك هنا، وفوسفات عضوية هناك، لن يؤثر في ماهيتي الأساسية، هذه هي وجهة النظر

الديكارتية بأن لنا عقولًا ألماسية، نقية ومعزولة، لا تشوبها شائبة من العالم القذر من حولنا. مثل الألماس، قد تتحطم عقولنا عند تعرضها لضغط غسيل الدماغ الشديد، لكن القوى الأقل تخفق في تشويه تركيبها. هل الناقد على حق في التشبث بافتراض الصلابة؟ ما النقطة التي يصبح عندها العبث على الأطراف اعتداء على الهوية؟ للإجابة عن هذا السؤال، نحتاج إلى النظر في أمثلة متوسطة.

إطعام الدماغ

تذكَّر الغشاء الخلوي، الموضح في الشكل 2-7 (ب)؛ لم تنل الشحوم الفوسفورية المكونة له ولمدة طويلة سوى اهتمام قليل من قبل علماء الأعصاب الذين كانوا يشعرون بمتعة أكبر وهم يحاولون تصنيف الأنواع المختلفة من النواقل العصبية والمستقبلات التي من خلالها تتواصل الخلايا العصبية فيما بينها، لكن الآن يبدو أن الشحوم الفوسفورية مهمة أيضًا في المحادثات العصبية، والأمر المهم تحديدًا هو أنواع الشحوم الفوسفورية الموجودة في الغشاء الخلوي، فبعض أنواعها طويلة ومستقيمة، وبذا يمكنها أن تتراصف معًا بصورة محكمة؛ وبعضها الآخر يكون متعرجًا ومجعدًا؛ لذلك لا يمكن أن تتراصف معًا إلا بصورة متراخية (أمعن النظر في الشكل 2-7 (ب)). لماذا نهتم بذلك؟ لأن المستقبلات الموجودة في الغشاء تحتاج إلى حيز للتعبير عن نفسها، فإذا كانت مقيدة بجزيئات الشحوم الفوسفورية المتراصة بإحكام، فإنها ستجد صعوبة في تغيير مواضعها عند التحام النواقل العصبية بها، وهذا يقلل من كفاءة الخلية وسرعتها في توليد إشاراتها، ومن ثم فاعلية الدماغ بأكمله.

بعبارة أخرى، يمكن أن يؤثر تغيير أنواع الشحوم الفوسفورية تأثيرًا كبيرًا في مدى جودة عمل الدماغ. المطلوب هو مزيد من الشحوم الفوسفورية المجعدة، وقليل من النوع الطويل والمستقيم، ولكن تحقيق ذلك يبدو مستحيلًا إذا كنت تعتقد حقيقة بأن الدماغ ثابت وغير قابل للتغيير. في الحقيقة، الأمر سهل؛ كل ما عليك عمله هو تناول المزيد من الأسماك التي تحتوي على الزيوت[9].

الجزء الشحمي من جزيء الشحم الفوسفوري هو الذيل (المستقيم أو المتعرج)، ويتكون هذا الجزء من الحموض الدسمة (الشحوم)، التي يمكن أن تكون مشبعة أو غير مشبعة. تُنتج الشحوم المشبعة، الموجودة في الغذاء المعالج وطويل العمر، شحومًا فوسفورية مستقيمة، أما

الشحوم غير المشبعة -التي توجد في الأسماك الزيتية، والمكسرات، والخضراوات الخضراء- فهي تنتج شحومًا فوسفورية مجعدة، وكلما ازدادت الشحوم غير المشبعة في أغذيتنا، قلَّت الشحوم الفوسفورية المتراصة بإحكام في أغشيتنا الخلوية، وهو ما يمكّن خلايانا من نقل الإشارات بصورة أفضل. ولما كانت الأغشية الخلوية تعاني اهتراء الاستعمال، مثل البقية منا؛ فإن الأدمغة تبحث باستمرار عن مواد جديدة لترميم أغشيتها الخلوية؛ وعلى هذا فتغيير النظام الغذائي ليتضمن المزيد من الشحوم غير المشبعة يعد طريقة سهلة لتغيير دماغك.

ويمكن أن يكون التغير كبيرًا؛ فقد تبين أن تناول الشحوم غير المشبعة مفيد للأطفال الذين يعانون مشكلات الانتباه والكبار المصابين بالاكتئاب والفصام[10]، والمستوى العالي للشحوم غير المشبعة في حليب ثدي الأم سبب رئيس في كون الرضاعة الطبيعية جيدة جدًّا لنمو الأطفال[11]. ما تأكله، خاصة وأنت صغير، يمكن أن يكون له تأثير كبير في ما ستكون عليه لاحقًا في الحياة. وحتى في مرحلة الكهولة، يمكن أن يُحدِث اختلاف نوع الطعام فرقًا هائلًا، وفق ما أظهر بحث أجراه بيرنار جش Bernard Gesch وزملاؤه، وإذ ذكَّروا بسيناريو رواية برتقالة آلية التي انعزل فيها الأطفال عن الكهول وتوحشوا، أوضحوا أنه أمكن خفض العنف بين المجرمين البريطانيين المدانين بنسبة 40 في المئة بعد أشهر عدة من المعالجة[12]. خضع بطل رواية بيرجس لعلاج الكراهية، لكن الشبان في هذه الدراسة ببساطة تناولوا المكملات الغذائية.

البرق في الدماغ

المثال الآتي أكثر إثارة للجدل؛ ويتعلق بالفصين الصدغيين، وهما المنطقتان على جانبي الرأس اللتان تتدخلان -من بين أمور أخرى- في معالجة السمع، واللغة، والذكريات. يظهر المصابون بنوع من الصرع يؤثر في تلك المناطق صرع الفص الصدغي (temporal lobe epilepsy، TLE) أحيانًا إبداعًا غير عادي (يُعتقد أن الملحن شوستا كوفيتش Dmitri Shostakovich، والكاتب إدجار ألن بو Edgar Allan Poe، والفنان فنسنت فان جوخ Vincent van Gogh كانوا يعانون صرعَ الفص الصدغي)، أو تجارب دينية شديدة (قد يكون كل من القديس بولس St Paul وجان دارك Joan of Arc مصابين أيضًا بصرع الفص الصدغي)[13]. يحدث الصرع عندما تصبح الخلايا العصبية مفرطة النشاط بحيث إنها تطلق الإشارات بصورة مستمرة، لكن الإبداع والتجارب الدينية يحدثان مع بعض الأفراد من عامة السكان. على الرغم

من أن هؤلاء الأشخاص ليسوا مصابين بالصرع، فإنه يعتقد أن لديهم فصوصًا صدغية خلاياها نشطة بصورة غير عادية، وهي ظاهرة سُميت (تقلقل الفص الصدغي). يعتقد العلماء أن الأشخاص قد يكون لديهم فصوص صدغية قابلة للاستثارة بصورة كبيرة أو صغيرة، تراوح بين قابلية تغير منخفضة (متبلد الإحساس)، ونوب صرع الفص الصدغي المسعورة.

بالمضي قُدمًا، اقترح بعض الباحثين مثل مايكل بيرسنجر Michael Persinger أن التجربة الروحية عمومًا تنتج من نشاط الفص الصدغي[14]، وبطبيعة الحال، تختلف القابلية للتجربة الدينية من شخص إلى آخر؛ فبعض الملحدين -على سبيل المثال- ليس لديهم أي تجربة دينية على الإطلاق (وربما يفضلون رفض أمثال هذه التجارب جميعها، مثل الشخص المولود وهو أعمى الذي يرفض تصديق غروب الشمس). افترض بحث بيرسنجر Persinger أن بعض الناس قد يكونون بكل بساطة (عميانًا عن الله)، وربما لأسباب وراثية قد تكون قابلية التغير في الفص الصدغي عندهم منخفضة جدًّا بحيث إنهم غير قادرين على امتلاك مشاعر دينية أو ضبطها[15].

للبحوث في قابلية التغير في الفص الصدغي تطبيق أبعد؛ فقد أشارت تقارير بيرسنجر Persinger إلى أنه تمكن من توليد تجارب روحية في متطوعين من خلال تطبيق مجالات مغناطيسية معقدة على الفص الصدغي الأيمن، وهذا يشير إلى أن التجربة الدينية قد تعزى إلى التفاعل بين نشاط الدماغ والمجالات المغناطيسية البيئية. ومع مرور الوقت، قد تصبح التقنية اللازمة لتقديم مثل هذه التجربة متوافرة عند الطلب، وهو ما يتيح الفرصة للأشخاص الذين لم يكن لهم أبدًا تجربة دينية بتغيير المظهر الأساسي لذواتهم بالوسائل الفيزيائية. هل يمكن إلا أن يبدوا، بمثل هذا التغيير الذي حصل بمثل هذا الفعل، أمام أصدقائهم وعوائلهم، ضحايا غسيل الدماغ؟ من يدري ما الجوانب الأخرى من ذواتنا التي قد تغيرها التقنية يومًا ما؟

هز الأسس

يتعين على الناقد الذي لا يزال متشبثًا بافتراض الصلابة توضيح الشيء الكثير. تتغير أدمغتنا طوال الوقت، وكذلك نحن، على الرغم من أننا لا نلاحظ دائمًا ذلك. يجادل الناقد الحتمي بالقول إن (جوهري) يبقى نفسه مهما حصل من تغيرات في دماغي، سواء في

المـواد الكيميائيـة، أو المجـالات المغنـاطيسـية، أو أي شـيء آخـر. هـل أنا فعلًا الشـخص نفسـه مـع مشـكلات الانتبـاه أو من دونها؟ ماذا عن وجـود أو عدم وجود الصداع المزمـن، أو الاكتئاب، أو الديـن، أو الوهـم الفصامـي بأننـي الـرب، أو (إذا أصبـت بمتلازمـة كوتـارد Cotard) أي الاعتقـاد بأننـي ميـت؟ مـن الواضـح أن بعض مظاهـر وظائف الدمـاغ أكثر أهمية مـن غيرها في تحديد جوهري.

مـا هـي إذًا، في جوهرهـا، الذات الغامضة؟ يميـل علماء الأعصاب إلـى تحديد موقعها في الفجوات بين الخلايا العصبية[16]. وفق وجهة النظر هذه، فالذات هي تجمع جميع القوى في جميع التشـابكات العصبية في الدماغ، لكن من غير الواضح كم سـيخبرنا ذلك عن جوانب ذواتنا التي نحـن أكثـر اهتمامًـا بها: نحن نشـعر، مع الاعتـذار إلى جـورج أورويـل George Orwell، بأن جميع التشابكات العصبية متساوية لكن بعضها متساو أكثر من غيرها.

يرتبط وجود الذات- كما أشار كثير من علماء النفس- بظواهر معينة؛ تتضمن وجود جسم مادي، والقدرة على إحداث تأثير في هذا الجسم وفي العالم، وكون الشخص اجتماعيًّا (له علاقة بالآخرين)، وعنده إدراك للذات، والقدرة على إدراك ليس الجسـم والعالم فقط، بل أفكار المرء ومشاعره الخاصة كذلك.

وراء هـذه الأساسـيات، تختلـف الدرجـة التـي تعـد فيهـا الـذات كيانًا نفسـيًّا مسـتقلًّا، من شـخص إلـى آخـر ومـن ثقافـة إلى أخـرى، كما بينـت مقالة مميـزة كتبها هـازل ماركوس Hazel Markus وشـينوبو كيتايامـا Shinobu Kitayama[17]، تتضمـن الثقافـات الغربيـة «مفهومًـا للـذات علـى أنها شـخص مسـتقل ذاتـي» (تأكيدًا للفرديـة التي تبدو تطورًا حديثًا نسـبيًّا، كما أشـار روي باومستر Roy Baumeister)[18]؛ فمثلًا، يُتوقع من الأمريكيين أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم أفراد «سـلوكهم منظـم، ويصبح ذو معنى أساسًـا وفق ذخيرة الفـرد الداخلية من الأفكار، والمشـاعر، والأفعال، بدلًا من أن يكون وفق أفكار الآخرين، ومشاعرهم، وأفعالهم».

على النقيض من ذلك، تتصوَّر كثير من الثقافات الآسيوية والإفريقية ذواتًا باعتماد متبادل، «ورؤية الفرد نفسه جزءًا من علاقات اجتماعية شاملة، وإدراك أن سلوك الفرد يتحدد، ويُشترط، وإلى حد كبير يُنظَّم بما يرى الفاعل بأنه أفكار، ومشاعر، وأفعال ضمن العلاقة مع الآخرين».

أهمية الذاكرة

«مرونة الذاكرة تصبح أوضح فأوضح بصورة متزايدة».

إليزابيث لوفتس Elizabeth Loftus، **ذكرياتنا المتغيرة.**

Elizabeth Loftus, Our Changeable Memories

اسأل أي شخص، بصرف النظر عن أصوله، كيف يعرف أنه هو الشخص نفسه الذي كان بالأمس، وقد تشير إجابته إلى الذاكرة (في رواية المرشح المنشوري لم يكن القاتل المبرمج يتذكر أن دماغه قد غُسل). نحن نفترض أننا الذوات الصلبة نفسها مع مرور الوقت؛ لأن ذكرياتنا عن ذواتنا السابقة توحي أنه لم يحدث أي تغير يذكر. نحن نعتمد كثيرًا على الذاكرة، وندرك متألمين بعض جوانب قصورها؛ مثلًا ذلك الوقت الذي نقضيه في البحث عن المفاتيح الضائعة أو النظارات ونحن نلبسها على وجوهنا، والأشخاص الذين نعرفهم وترفض أسماؤهم أن تحضر لأذهاننا. ربما نكون قد قرأنا عن المريض هتش.إم الذي أصبح مشهورًا في دوائر علم الأعصاب بسبب عملية أجريت له لعلاج الصرع فاستؤصل فيها معظم فصيه الصدغيين، وفقد بذلك قدرته على تكوين ذكريات جديدة؛ أو ربما نكون قد شاهدنا الفيلم التذكار، وفيه يحاول فاقد الذاكرة الكشف عن لغز وجوده. مثل هؤلاء الناس لا يتعرَّفون الأطباء الذين رأوهم قبل نصف ساعة، مع أنهم قد يتعرَّفون صديقَ الطفولة؛ فالذكريات التي سبقت تلف الدماغ تبقى سليمة، أما الوقائع الحديثة، حتى الكارثية منها مثل أن يخبروا بوفاة أحد الوالدين، فتغسل من على سطح الدماغ وتختفي. الأشخاص منا الذين تخونهم ذاكرتهم أحيانًا فقط يرتعبون من فكرة فقدانها بالكلية. سواء أخذ فقدان الذاكرة شكلًا غريبًا مثل فقدان المريض هتش.إم ذاكرته، أو اتخذ المسار الألطف والأكثر شيوعًا لمرض ألزهايمر. لقد اعتدنا على التعايش مع عدم الكمال في ذاكرتنا كما هو في أي شيء آخر، على أننا لا ننظر إلى هفواتها التي تحصل من آن لآخر

على أنها تهديد للذات، وكما أشار عالم الأعصاب دانيال شاستر Daniel Schacter، تأخذ هفوات الذاكرة نكهات مختلفة، ويتحدث بالتفصيل عن سبعة (آثام للذاكرة): الزوال الوقتي، وشرود الذهن، والحَجب، والخطأ في العزو، والإيحاء، والتحيز، والإصرار. الثلاثة الأولى، وفقًا لشاستر Schacter (آثام إغفال)، وهي أنماط هفوات الذاكرة التي اعتدنا عليها وكثيرًا ما نتذمر منها، ويشير الزوال الوقتي «إلى ضعف أو فقدان الذاكرة مع مرور الوقت»[19]، أما شرود الذهن فيحدث عندما لا نكون مركزين في معلومات، ومن ثم نخفق في تذكرها عندما نجد لاحقًا أننا نحتاجها، ويتضمن الحجب الشعور المحبط من أن الذاكرة التي نحاول استرجاعها (كامنة في

مكان ما، ومستعدة على ما يبدو للقفز إلى الذهن بالمزيد من الحث، لكنها تبقى بعيدة المنال عندما نحتاجها). والإثم الأخير، وهو الإصرار، عكس الزوال الوقتي؛ إذ ترفض الذكريات التي تكون عادة لأحداث غير سارة أو مرضية أن تتركنا، مع أننا نود كثيرًا لو أنها ترحل، ويمكن في الحالات الشديدة أن تدخل عنوة (كومضات) حسية لذكريات الماضي، وتكون في بعض الأحيان حية جدًّا إلى درجة أن المصاب يشعر بأنه يعيش التلف الأصلي مرة أخرى.

آثام شاستر Schacter الثلاثة الأخرى شائعة أيضًا، لكنها ليست ما نعنيه عادة عندما نتحدث عن إخفاقات الذاكرة. آثام التفويض تعكس بصورة سيئة على افتراض الصلابة، وربما يكون ذلك أحد الأسباب التي تجعلنا نفضل عدم الحديث عنها، ويصفها شاستر على النحو الآتي:

«يتضمن إثم الخطأ في العزو إسناد الذاكرة إلى المصدر الخطأ: كسوء فهم الخيال على أنه واقع، أو التذكر الخطأ أن صديقًا أخبرك بعض التفصيلات التافهة التي كنت في الواقع قد قرأت عنها في إحدى الصحف. الخطأ في العزو أكثر شيوعًا بكثير مما يدركه معظم الناس، وله تأثيرات محتملة عميقة في الظروف القانونية، ويشير إثم الإيحاء المرتبط بالإثم السابق إلى الذكريات التي ترسخت نتيجة أسئلة، أو تعليقات، أو اقتراحات موجِّهة والمرء يحاول استرجاع التجارب السابقة، ومثلَ الخطأ في العزو فإن الإيحاء مهم خاصة في النظام القانوني، ويمكنه أحيانًا أن يعيث فسادًا داخله.

يعكس إثم التحيز التأثيرات القوية لمعرفتنا ومعتقداتنا المعاصرة على كيفية تذكُّر ماضينا؛ غالبًا ما نحرِّر أو نعيد بالكامل كتابة تجاربنا السابقة - دون أن نعرف ودون أن نشعر - على ضوء ما نعرف أو نعتقد به حاليًّا».

شاستر Schacter، **الآثام السبعة**، صفحة 5.

Schacter, Seven Sins, p. 5

يمكن تجاهل آثام الإغفال بوصفها إخفاقات في نظام ذاكرة غير مثالي. نتحدث عن الحجب -على سبيل المثال- كما لو كانت الذاكرة مكتبة أخفق موظفوها إخفاقًا مزعجًا في العثور على الكتاب الذي طلبناه، أما إثم التفويض فمختلف عن ذلك؛ فقد تحدث دون أن ندركها، لكنها ليست أحداثًا ولا حالات إخفاق. الإثم إثمنا؛ لأننا نحن أنفسنا، مثل الحزب في رواية أربع وثمانون وتسع مئة وألف، نعيد كتابة التاريخ، نربط وندخل في بعضها أحداثه أحداثًا كانت في الأصل منفصلة، أو نصنع ذكريات لأشياء لم تحدث قط. إن افتراض أننا قد نكون قادرين على ارتكاب هذه الآثام ينتقد ليس فقط ذاكرتنا، بل أيضًا حكمنا؛ ليس فقط المكتبة بل أيضًا الشخص

الذي طلب الكتاب، وكما ذكر لا روشيهفوكولد La Rochefoucauld ساخرًا: «يشكو كل شخص من ذاكرته، لكن لا أحد يشكو من حكمه»[20]. وبالنظر إلى إثم التحيز فليس من المستغرب أننا نشعر بأننا الشيء نفسه من يوم إلى يوم. تعيد أدمغتنا تشكيل ذكرياتنا بصورة مستمرة لتعظيم هذه القناعة بالضبط.

الذات المرسومة

أبدى علماء النفس أيضًا ملاحظات حول مرونة الذوات المنفردة، واتفقوا مع شخصية جاك في كما تحبها لشكسبير Shakespeare بأن «رجلًا واحدًا في زمنه يؤدي أدوارًا كثيرة»[21]، إذ يبدو أن لدينا مجموعة متنوعة من الشخصيات التي نتخذها في المواقف الاجتماعية المختلفة، وتتضمن هذه الشخصيات التي يشار إليها عادة على أنها أدوار أو رسوم، ليس فقط مجموعة من السلوكات بل أيضًا الأفكار، والمواقف، والمشاعر التي ترافقها[22]. تُكتسب الشخصية المرسومة من خبرة سابقة في بعض المواقف، مثل التحدث مع الرئيس، ويمكن تحفيزها في كل مرة يتكرر فيها الموقف، حيث يفيد كطريق مختصر يوفر علينا الجهد في أن نكتشف مرة أخرى كيف علينا أن نتصرف. يفعِّل البشر الذوات المرسومة المتعلِّمة جيدًا من دون أن يدركوا ذلك. وفي الواقع، يمكن أن يجدوا أنفسهم مرتبكين عندما تنتهي النية الصادقة لكسر القالب (آن الأوان لأخبر رئيسي الحقيقة عن مهاراته الإدارية) بأن تتجاوزها الذات المرسومة (سيبقى الرئيس، حتى إذا كنت سأترك العمل غدًا). المواقف العصيبة جيدة خصوصًا في تحريض ظهور الذوات المرسومة وقمع السلوك الأكثر منطقية.

البشر جيدون جدًّا في التحجير، حيث يُبْقون الذواتِ المرسومةَ المختلفة متباعدة كثيرًا، بحيث -على سبيل المثال- لا تتشابك الذوات المرسومة المتعلقة بالرئيس في العمل مع الذوات المرسومة للحبيب، وذلك يتيح تنفيذ مجموعات مختلفة جدًّا من السلوكات في أوقات مختلفة، وبالحد الأدنى من التضارب؛ وهكذا فقد كان المسؤولون في معسكرات الموت النازية قادرين على تنشيط الذوات المرسومة المتعلقة بالواجب (والدعاية المعادية للسامية) وهم يشاهدون الأطفال يساقون إلى غرف الغاز، ومن ثم يذهبون إلى بيوتهم فينشطون الذوات المرسومة الخاصة بالآباء المحبين، فيحتضنون أطفالهم.

الأكثر من ذلك، أنه يبدو مرجحًا أن هناك فروقًا فردية في القدرة على التحجير؛ إذ يستطيع بعض الناس حفظ ذواتهم المرسومة محجورةً بإحكام، مثل القاتل المتسلسل الذي يقول عنه جاره: «لا يمكنني أن أصدق ذلك! هذا الرجل اللطيف، لا يمكنه إيذاء ذبابة!»، وبعضهم الآخر أكثر مرونة، وذواتهم المرسومة أقل وضوحًا في تمايز بعضها من بعض. إذا اشتركت ذاتان مرسومتان في حجرة واحدة، كما يحصل كثيرًا، فإن تنشيط الأولى يؤدي إلى تنشيط الأخرى، والمثال الشهير من الطب النفسي هو لامرأة مصابة بالفصام، فعندما طلب منها أن تعد أفراد عائلتها، قالت: «الأب...الابن... الروح القدس»؛ فاختلط رسم عائلتها مع رسم ثالوثها المقدس. يكون معظمنا قادرًا على تجاهل مثل هذه الروابط غير المرغوب فيها، لكن مرضها جعلها غير قادرة على فعل ذلك[23].

يمكن أن يحتوي رسمان على معتقدات متعارضة، إذا ارتبطا- مثلًا- بمواقف مختلفة جدًّا، فإذا كان أحدهما نشيطًا ولم يكن الثاني كذلك، فلن يلاحَظ عدم التوافق، وهكذا فقد ينشِّط بيتر Peter ذاتًا مرسومة تتعلق بأهمية حقوق الإنسان في وظيفته بوصفه محاميًا جنائيًّا، لكنه يخفق في تنشيطها عندما يسيء معاملة زوجته في البيت، فإذا لم ينشِّط أمر ما، أو شخص ما، الذاتين المرسومتين معًا في الوقت نفسه فلن يلاحظ بيتر Peter أبدًا النفاق في سلوكه (حتى لو أشير إليه بها فقد يجد طريقة للالتفاف حول المسألة، كأن يقول مثلًا إن زوجته قد خسرت حقوقها الإنسانية بتصرفاتها). نحن نعي فقط، في أي لحظة معينة، مجموعة ضئيلة جدًّا من الذوات المرسومة المتوافرة في ذخيرتنا منها، وحتى أكثر الناس تأملًا لن يكشف جميع الروابط التي بينها، أو يفك جميع العقد التي تتصادم فيها الذوات المرسومة. كما قال الشاعر والت ويتمان Walt Whitman:

> **«هل أناقض نفسي؟**
>
> **حسنًا جدًّا إذًا أنا أناقض نفسي،**
>
> **أنا كبير، وفي داخلي ذوات كثيرة».**

ويتمان Whitman، **أغنية نفسي**، السطور 1325–1327

Whitman, Song of Myself, lines 1325–7

واحسرتاه على افتراض الصلابة! يبدو أن (جوهر ذاتي) قد انتقل من التيار النقي المفرد للوعي عند ديكارت Descartes إلى عدد لا يحصى من ذوات مرسومة متقطرة، مجموعات مكتسبة من الأفكار، والمشاعر، والسلوكات. إحدى هذه المجموعات ستكون فاعلة في أي لحظة معينة،

مشكِّلة (ذاتنا النشيطة). تبقى الذوات المرسومة الأخرى هاجعة، وجاهزة لتحمل المسؤولية عند الحاجة إليها؛ عندما نتغير من محترفين إلى آباء، من رقم منظوم إلى أفراد معبرين. في ضوء هذه المرونة والقدرة على التنوع، حتى التناقض الداخلي، فقد تكون التغيرات المزعومة التي تحدث في غسيل الدماغ ليست تمامًا بالتطرف الذي تبدو عليه؛ إذا كانت أدمغتنا تشبه الألماس، فغسيل الدماغ قوة تحطيم، على نمط كل شيء أو لا شيء: نقاوم، أو يحطمنا إلى أجزاء، لكن إذا كانت أدمغتنا أكثر مرونة، أشبه بالطين منه بالألماس، عندها يصبح غسيل الدماغ مسألة درجات، عند خضوعه للتفسير النفسي مثله مثل أي شكل من أشكال التأثير.

الدماغ الراسم أو التمثيلي

كيف تترجم المخططات أو التمثيلات إلى لغة علم الأعصاب؟ الأمر سهل؛ فالدماغ منظم بحيث إن أي خلية عصبية تفعَّلُ (تطلق إشارات) استجابة للمدخلات التي تتلقاها، لكن هذه المدخلات لا تحمل معلومات عن أشياء كاملة، بل عن مظاهر الأشياء في العالم: اللون، الصوت، الحركة، الشعور المادي. بعبارة أخرى، فالخلية العصبية الواحدة لا تستجيب إلى جسم، وفي لغة الدماغ لا تمثله، وإنما إلى مظهر أو أكثر. وهكذا، في الفص القذالي، تطلق بعض الخلايا العصبية إشارات عندما يتحرك مثير من خلال مجال الرؤية، في حين لا تنشط خلايا أخرى؛ وبعضها تطلق عندما يتحرك المثير نحو اليسار، ولكن ليس إذا تحرك نحو اليمين؛ وبعضها يطلق إذا كان أزرقَ، ولكن بدرجة أقل أو معدومة إذا كان أحمر.

يتطلب تمثيل كائن بأكمله، مثل النمر، التفعيل المتزامني لمجموعة من الخلايا العصبية، كثيرًا ما تكون في مناطق مختلفة من القشرة: بعضها يستجيب للون الحيوان، وبعضها لتخطيطه، وأخرى لأصوات الزئير، وبعضها يستجيب للإشارات من المناطق تحت القشرة في الدماغ التي تشير إلى أن الجسم يتجه نحو حالة تأهب قصوى.

الأشخاص الخبراء بالنمور سيكون لديهم (مخطط نمر) معروف جيدًا. من ناحية النفسية، سيتشكل ذلك من مجموعة من المعتقدات حول النمور (إنها قطط كبيرة مخططة، وهي تزأر، وغير ذلك)، والمواقف (مثل: الخوف!)، والسلوكات (مثل: اهرب!). وبعبارات دماغية، سترتبط مجموعات الخلايا العصبية التي تستجيب لتصورات نوع النمر مع مجموعات أخرى، بعضها

يستجيب لإشارات عاطفية من تحت القشرة، وأخرى ترسل إشارات إلى العضلات المشاركة في الركض. عندما تتقوى الروابط بين جميع هذه الخلايا العصبية، يصبح المرسوم الكلي أكثر وضوحًا في تحديده وأكثر سهولة في تفعيله. هناك أهمية خاصة للارتباطات المعزِّزة بين المناطق الحسية، الموجودة في مؤخر الدماغ، والمناطق في مقدمته حيث تنشأ الحركة. ولهذه الارتباطات فوائد جمة في البقاء بالنسبة إلى الفريسة التي تشكل أجزاء الثانية بالنسبة إليها فارقًا بين الحياة والموت؛ لأن الرسوم القوية لا تحتاج إلى تفعيل كل خلية عصبية منفردة حتى ينتج السلوك، وهكذا يمكن اتخاذ التصرف الوقائي في وقت مبكر. من وجهة نظر تطورية، فإن أخطار الأخطاء (حفيف الشجيرات تؤخذ على أنها اقتراب مفترس) أفضل من أن تُلتَهم، بينما تنتظر أن يتفعِّل كل أعضاء المخطط (إنه كبير، إنه مخطط، لا أسمع أي زئير... أوه أوه، فات الأوان). من الأفضل وجود روابط قوية بين الخلايا العصبية في الذات المرسومة، عندها ستكون تصورات (المخطط) و(الكبير) كافية بذاتها لتنشيط سلوك (اركُض)، ولهذا السبب كثيرًا ما يذكر الناس في حالات الطوارئ حصول رد فعل سريع جدًّا من دون إدراك للخوف، أو الصدمة، أو الألم (أو أحيانًا حتى للمنبه الذي يستجيبون له) إلى حتى ما بعد حدوث رد فعلهم.

لذا، يبدو أن للذوات المرسومة -النماذج المتعلَّمة من الأفكار والسلوكات- تجسيدًا علميًّا عصبيًّا كنماذج للاتصالات بين الخلايا العصبية، وكلما كانت تلك الاتصالات أقوى، كان تحفيز الذوات المرسومة آليًّا أكثر عندما ينشِّط منبه ما واحدًا أو أكثر من أعضاء المرسوم، وأسرع ما يحفَّز هو الأفكار أو السلوكات المترافقة بتلك الذات المرسومة المحددة. كما لاحظنا سابقًا، تتعزز الروابط بين خليتين عصبيتين عندما تكونان نشيطتين معًا في الوقت نفسه: تؤدي المثيرات المنشِّطة الأكثر تكرارًا و/أو شدة إلى ارتباطات أقوى.

تتضمن كل ذات -وهي التي يُنظر إليها وفقًا لتعابير علم الأعصاب على أنها جميع الاتصالات بين الخلايا العصبية- مجموعة متعلَّمة أكثر أو أقل من الذوات المرسومة (نماذج خاصة من الاتصالات التي تُنشِّط في حالات معينة)، وكلما كانت الذوات المرسومة أقوى (متعلَّمة بصورة أفضل)، زادت مساهمتها في إحساسنا العام للذات. لا تستخدم الذوات المرسومة الضعيفة كثيرًا، وقد تنطوي على انتباه واعٍ موجه إليها؛ قوة اتصالاتها ضعيفة، وسهلة التغيير، وحصول تغير في مثل هذه الذوات المرسومة لا يجعلنا نشعر نحن أو أصدقاؤنا أننا أصبحنا أشخاصًا مختلفين.

تستخدم أقوى الذوات المرسومة تكرارًا، وكثيرًا ما يكون ذلك من دون تفكير واعٍ (كثير من الأحكام المسبقة التي بُنيت على مدى سنوات، هي من هذا النوع). ترابطاتها قوية جدًّا ويصعب تغييرها جدًّا، بحيث إنه إذا تغيرت ذات مرسومة قوية بصورة مفاجأة فيمكننا أن نتوقع حصول تغيير في الهوية؛ تغير -أكثر من ذلك- يتحقق بفعل نوع ما من العوامل الخارجية؛ إنها تغيرات يُنظر إلى أنها تؤثر في أقوى الذوات المرسومة للشخص، ومن المحتمل أن تثير مزاعم على غسيل الدماغ.

الخلاصة والاستنتاجات

ها قد عدنا إلى الفرق بين غسيل الدماغ بالقوة وغسيل الدماغ بالتسلل الموصوف في الفصول السابقة. قد تغير أساليب التسلل -مثل إعلانٍ لمسحوق غسيل- قليلًا من المعتقدات الهامشية، وربما تقوي قليلًا المخططات الضعيفة التي تربط بين ذلك النوع المحدد من مسحوق الغسيل وبين أحاسيس مفيدة مبهمة، قد يقوي هذا القليل من التشابكات العصبية في رؤوسنا، لكننا لا نشعر بأنها تغير في الذات (مع أن الإعلانات عمومًا تؤثر فينا بصورة كبيرة). غسيل الدماغ بالقوة -من ناحية أخرى- مخيف لأنه يهدد الذوات المرسومة القوية، والمظاهر الرئيسة التي ترسم مشهدنا المعرفي. يدَّعي غاسل الدماغ أن أقوى معتقداتنا (الأفكار والمواقف التي نعدها أكثر شيء مألوف، والأكثر صعوبة في التغيير) يمكن أن تلوى إلى أشكال جديدة غريبة. إذا كانت الإعلانات تآكلًا، فغسيل الدماغ بالقوة زلزال أو ضربة نيزك؛ إنه تدخل انفجاري في عالمنا الداخلي. سوف نستكشف في الفصل الرابع عشر ما الذي يخبرنا به علم الأعصاب حول كون مثل هذه التغيرات العميقة هي ممكنة حقًّا، لكن يتعين علينا قبل ذلك النظر بتفصيل أكثر إلى المعتقدات، والعواطف، وكيف نغيرها.

• • • • •

الفصل الثامن

الشبكات وعوالم جديدة

«شبكة ذهبية توقع في حبائلها قلوب الرجال

أسرع من وقوع البعوض في خيوط العنكبوت».

وليم شكسبير William Shakespeare، **تاجر البندقية**.

William Shakespeare, The Merchant of Venice

إن هدف غسيل الدماغ هو تغيير المعتقدات، ولذلك ومن أجل فهم غسيل الدماغ، من الضروري فهم ما هي المعتقدات وكيف تتغير؛ عرضت في الفصل السابق الحجة بأن الأنشطة العقلية تتمثَّل بنماذج قابلة جدًّا للتغيير من الارتباطات بين الخلايا العصبية في الدماغ، وأنه مع مرور الوقت يمكن أن تتجمع هذه النماذج في مجموعات، هي الذوات المرسومة، وذلك من خلال تكرار للخلايا العصبية الأعضاء في المرسوم. ما الذي تخبرنا به هذه النظرة لعمل الدماغ عن المعتقدات؟ سوف أبدأ أولًا بالنظر في المعتقدات بالطريقة التقليدية، بوصفها بُنى عقلية (بدلًا من عدِّها عملية عصبية)، متسائلًا عما يقوله علم النفس عن المعتقدات؛ كيف تتكون؟ ما العوامل التي تؤثر فيها؟ وكيف ترتبط بالسلوك؟

ما المعتقدات؟

المعتقد هو أحد تلك المفاهيم عميقة الجذور التي نلتقطها بديهة، ولكننا نجد صعوبة إلى حد ما في تحديدها. تتعلق المعتقدات بأشياء أو مواقف، تتضمن قبول المؤمن صحة العبارات حول تلك الأشياء أو المواقف، فإذا اعتقدت -مثلًا- أن رئيسي يمتلك مهارات إدارية مثل ثعبان البحر الكهربائي، فأنا آخذ هذا التقييم -مهما كان مجازيًّا- على أنه تمثيل صحيح للطريقة التي يتصرف بها رئيسي. يعتمد هذا المعتقد على معتقدات أخرى أحملها عما يشكِّل الإدارة الجيدة، وعن سلوك رئيسي في الماضي، وعن سلوك ثعبان البحر الكهربائي، ثم مع مرور الوقت، واعتمادًا على التجربة، سأكون قد بنيت شبكة معقدة جدًّا من أمثال هذه المعتقدات.

لكن تعقيد تلك الشبكة لا يضمن بالتأكيد أن المعتقدات المكوِّنة لها صحيحة، فقد تتطلب المعلومات الجديدة مني تعديلًا، أو حتى التخلي عن واحد أو أكثر من تلك المعتقدات؛ فعلى سبيل المثال: افتراضي أن ثعبان البحر الكهربائي يتخبط هنا وهناك -الذي يعتمد عليه تشبيهي المجازي لأساليب رئيسي في الإدارة- قد لا يبقى بعد مشاهدة برنامج تاريخ طبيعي يخبرني أن ثعابين البحر الكهربائية هي في الحقيقة مفترسات دقيقة وفاعلة؛ إذ إنني إذا قبلت نتائج البرنامج فيجب عليَّ أن أغيِّر ليس فقط اعتقادي حول ثعابين البحر الكهربائية، بل اعتقادي حول رئيسي أيضًا.

بعبارة أخرى، قد يزيد أي تغير في معتقد واحد من المستوى العام للتضارب في الشبكة التي يشكل المعتقد أحد مكوناتها. يتعارض الآن المعتقد المعدَّل (ثعابين البحر الكهربائية فاعلة) مع المعتقدات الأخرى ذات الصلة (يشبه رئيسي ثعبان البحر الكهربائي)، فينشأ عن ذلك حالة مجهدة أسماها عالم النفس ليون فستنغر Leon Festinger «التنافر المعرفي»[1]. البشر قادرون بالتأكيد على تبني معتقدات متناقضة؛ وإلا فكيف يعارض كثير من الناس الإجهاض في حين أنهم يدعمون عقوبة الإعدام، أو العكس بالعكس؟[2] ومع ذلك، فإننا نميل للانزعاج عندما يُفرض التضارب بالقوة على انتباهنا، خاصة إذا كانت المعتقدات المتضمنة مهمة لنا. يمكن أن يكون التنافر الناتج من التضارب بين المعتقدات القوية قوة محفزة كبيرة قد تتطلب تغيرات في الشبكة إذا ما أريد استعادة الاتساق العام بين مكونات الاعتقاد ضمنها، ويعد الاتساق بضاعة مرغوبة جدًّا. إن الافتراض بأن عالمنا إذا لم يكن منطقيًّا فهو غير متناقض بصورة صارخة، حاجة أساسية خدمت جنس الإنسان العاقل Homo sapiens بصورة جيدة جدًّا على مر القرون؛ لذلك إذا علمنا أن معتقداتنا -التي نعدها على كل حال تمثل الواقع الذي عليه العالم- تحتوي على متناقضات، فيكون لدينا مسوِّغ لافتراض أن هنالك خطأ ما في تمثيلاتنا للواقع. يمكن أن تكون المعتقدات غير الصحيحة خطرة جدًّا للمؤمنين بها، كما اكتشف كثير من أعضاء الطوائف وعائلاتهم بعد الخسائر الكبيرة التي مُنُوا بها، لذلك يذهب البشر بعيدًا في إزالة التناقضات بين أكثر المعتقدات التي يحملونها عمقًا.

أما ما يتعلق بالمعتقدات الأقل قيمة فالجهود المطلوبة لتغيير الشبكة لا تعد مشكلة، إذ يغلب أن يكون لمثل هذه المعتقدات الضعيفة روابط قليلة نسبيًّا مع المعتقدات الأخرى (لا أعرف كثيرًا عن ثعابين البحر الكهربائية، ولا أمضي كثيرًا من الوقت في التفكير برئيسي). تتعلق أكبر

درجات التغيير بالمعتقد المُتأثِّر نفسه (يجب علي أن أعكس رأيي غير المناسب عن ثعابين البحر الكهربائية)، وتلك المرتبطة بها مباشرة (يجب علي إيجاد وصف آخر لرئيسي). مع الابتعاد عن هذه النقطة المركزية فإن درجة التعديل المطلوبة تقل بسرعة (لست مضطرًّا إلى تغيير نظريتي حول ما يشكِّل مهارات الإدارة الناجحة، أو رأيي حول امتلاك رئيسي هذه المهارات)؛ لذا فالمعتقدات الضعيفة خانعة للواقع، بمعنى أنه إذا توافرت معلومات جديدة تتطلب منها التغير، فإنها ستتغير، من دون بذل كثير من الجهد من قبل المؤمن بها.

ولكن، إذا كان المعتقد المهدَّد (مطعون به بمعلومات جديدة) معتقدًا متمسَّكًا به بقوة فإن النتيجة قد تكون مختلفة جدًّا؛ ذلك أن المعتقدات القوية قوية لأنها تعززت في مناسبات عديدة، أو بمنبهات قوية جدًّا أو كلا الأمرين معًا، إنها منغرسة عميقًا في المشهد المعرفي، ومنغمسة في شبكة من الارتباطات مع المعتقدات الأخرى. لا يتمسك المؤمن بالله الورع بهذه القناعة بمعزل عن معتقداته الأخرى؛ بل إنها في الواقع تقدم له الأساس العاطفي لكثير من جوانب وجوده؛ مثل هذه المعتقدات تكون عصية جدًّا على التغيير، وفي الحالات القصوى قد يرفض المؤمنون الحقيقة بشدة إذا فرضَتَ عليهم التغيير، فينكفئون إلى الاضطراب العقلي، إلى عوالم جديدة منسوجة من الأحلام، وقد يكون التشبيه بشبكة الصيد مناسبًا جدًّا هنا؛ إذ يشبه التخلي عن معتقد ضعيف قطعَ خيط عند حافة الشبكة؛ فلا تحدث إلا فارقًا ضئيلًا في جسم الشبكة نفسها أو لا تحدث أي شيء على الإطلاق، ويشبه تغيير معتقد قوي قطعَ أحد الحبال الرئيسة الداعمة؛ فقد يتغير تركيب الشبكة بأكمله أو قد تتدمر.

استطراد: المصطلحات

استخدمت حتى الآن في هذا الفصل ثلاثة مصطلحات في وصف نماذج الاتصال بين المعتقدات: الروابط، وشبكات الاتصال، وشبكات الصيد. لا شك أن القارئ قد لاحظ التشابه بين هذه الأوصاف والذوات المرسومة في الفصل السابق. ترتبط الذوات المرسومة، مثل المعتقدات، بالأشياء والمواقف؛ إنها تمثل مظاهر العالم -أو ذواتنا- التي قد نرغب بالتأثير فيها، إضافة إلى أساليب التأثير (خطط عمل). تنغمس كل من المعتقدات والذوات المرسومة في نماذج من التواصل بين الخلايا العصبية، تشكل في مجملها مشهدنا المعرفي. المطلوب هو مصطلح أكثر عمومية يتضمن كلًّا من الذوات المرسومة والمعتقدات: مصطلح اللاارتباطات

بيـن الأشـياء العقليـة (المعتقـدات، وخطط العمـل، وهكذا). وسـوف أعتمد تعبير شـبكة الصيد مجازًا (ببسـاطة لتفضيل شـخصي: بالنسبة إلي شـبكة الصيد لها حس عضوي أكثر، وأقل تقنية من (شبكة المعلومات)) واستخدام مصطلح (الشبكة المعرفية).

قوة المعتقد

يتطلب فهم أسـباب صعوبة تغير المعتقدات القوية دراسـة ما الذي يجعلها قوية أو ضعيفة. مثـل الـذات المرسـومة؛ تأتي قوة المعتقـد من قوة الروابط بيـن مكوناته، وهـذه المكونات يمثلها نشاطُ إطلاق الإشارات من قبل الخلايا العصبية التي تستقبل الوارد، سواء من الخلايا العصبية الأخـرى أو مـن وسـائط التفاعـلات العديـدة بيـن الدماغ وجسـمه، ومـع العالم الخارجـي. تنتقل الإشـارات العصبية من المسـتقبلات الحسـية عبر دماغنا إلى مراكز تتحكم إشاراتها في سلوك عضلاتنا؛ فالنموذج التقليدي والأكثر دراسـة بالنسـبة إلى علماء الأعصاب، هو التنبيه البصري الذي يحرض رد فعل. تعكس حبة التفاح الضوءَ الذي يسقط على الشبكية في عيني حواء، فتتولد إشـارات ينقلهـا العصـب البصري؛ وتعالج هذه الإشـارات في مناطق في الدماغ وتفسـر على أنها تمثل تفاحة (وليست مجرد شكل ملون)، وترسل إلى المناطق الحركية التي ترسل بدورها إشارات إلى العضلات، وهو ما يؤدي إلى امتداد يد حواء إلى التفاحة.

ولكن، هناك أشياء تتعلق بالإشارات الواردة والصادرة أكثر بكثير مما يوحي به هذا المثال، وقـد تصـل الإشـارات الـواردة إلـى الدماغ مـن أعضاء الحـس الخارجيـة (مثل العينيـن)، أو من حسَّاسـات داخليـة (مثـل تلك التـي تحافظ على التـوازن أو تخبرنا أين وضعنـا أذرعنا وأرجلنا)، أو مـن مصـادر أكثر انتشـارًا مثل مجرى الدم. يمكن أن تصل الهرمونـات، أو العقاقير، أو المواد الغذائية، أو المواد الكيميائية التي يطلقها جهازنا المناعي، إلى الوسط خارج الخلوي الذي تسبح به الخلايا العصبية، وتؤثر من ثَم في نشـاط الدماغ. وبطريقة مماثلة، يمكن أن تنظم الإشـاراتُ الصـادرة عضـلات أطرافنا، أو العضلات العميقة التي تحيط بالأعضاء مثل الأمعاء والرئتين، أو الأعضـاء نفسـها؛ مباشـرة عبر الأعصاب التي تتفـرع في هذه الأعضاء، أو بصورة غير مباشـرة بإطـلاق مـواد كيميائيـة مثل هرمـون النمو من الدمـاغ. بعبارة أخـرى، يمكن أن تتكـون الواردات والصـادرات كلتاهمـا من مواد كيميائية ترتبط بالمسـتقبلات على الخلايا العصبية ومن ثم تؤثر

فيها، أو من إشارات عصبية -هي نفسها مرتبطة بالكيمياء- تحملها النواقل العصبية التي نوقشت في الفصل السابع.

تعني قدرة الخلايا العصبية هذه على التأثُّر ليس بالنواقل العصبية فحسب بل أيضًا بالجزيئات الأخرى في بيئتها، أن الارتباطات بين الخلايا العصبية، ومن ثم الشبكات المعرفية (المعتقدات، وخطط العمل، وغير ذلك)، قد تتغير بناءً على حالة الجسم، فضلًا عن الإشارات من العالم. العواطف -كما سنرى في الفصل التاسع- هي تعابير عن إشارات واردة من الجسم، لكن حالات الجسم الأقل جدارة بأن تلاحظ قد يكون لها تأثير أيضًا، أما المثال على ذلك فهو العلاقة بين هرمونات التوتر والمعرفة؛ إذ تتفاوت معدلات الهرمونات القشرية السكرية- التي تؤثر في إحساسات حالات التوتر والقدرة على أداء المهمات المعقدة- على مدى اليوم بطرائق تختلف بين الأشخاص؛ فيكون بعض الناس (طيور القبرة) في أفضل حالاتهم في الصباح، في حين ينشط بعضهم الآخر (البوم) في وقت متأخر من اليوم، وقد أظهرت التجارب أنه إذا أجبر الأشخاص من نمط (البوم) على إصدار أحكام اجتماعية في الصباح الباكر، فسيكونون أكثر احتمالًا لأن يعتمدوا على صور نمطية وأحكام مسبقة مما لو كانت الأحكام تصدر بعد الظهر أو في المساء، وبالمقابل يصدر الأشخاص من نمط (طيور القبرة) التي تستيقظ باكرًا أحكامًا مدروسة أكثر في الصباح وأحكامًا مسبقة أكثر في المساء[3]، بعبارة أخرى يمكن أن تختلف المعتقدات التي نستدعيها (ومن ثم نعززها) في موقف ما، حسب مستويات الهرمونات في مجاري دمائنا.

تعتمد الروابط بين الخلايا العصبية على توقيت الإشارات الواردة؛ فكما لوحظ سابقًا، يجب تنشيط الخلايا العصبية معًا إذا ما أريد تعزيز الروابط بينها، وتعتمد الروابط أيضًا على تكرار وتمايز الإشارات الواردة التي تستقبلها تلك الخلايا العصبية (أو أهميتها البارزة)، والأهمية البارزة هي أمر نسبي، وليست كمية مطلقة، فلا تطلق الخلايا العصبية التي ترسل إشارات استجابة لضوء ساطع إشارة بالسطوع المطلق للمؤثر بالطريقة نفسها التي يعمل فيها مقياس الضوء الذي يستعمله المصور الفوتوغرافي، وبدلًا من ذلك فإنها تستخدم ارتباطاتها العديدة مع الخلايا العصبية المجاورة لإرسال إشارة عن السطوع النسبي؛ الفارق بين الضوء وخلفيته. كلما كان الفرق أو التباين بينهما أكب؛ كانت الأهمية البارزة للمؤثر أكبر، وهذا ما يتيح لأدمغتنا مرونة كبيرة؛ بحيث يمكننا قراءة نص باهت في مخطوطة قديمة في مكتبة مظلمة، أو تصفح رواية ونحن مستلقون تحت أشعة شمس الظهيرة، ويمكن أيضًا أن نقع فريسة -وعادة

نقع- لمندوبي المبيعات الذين يستغلون التباين. يعطي روبرت شيالديني Robert Cialdini مثالًا من بيع الملابس:

«افترض أن رجلًا دخل محل ملابس رجالية على الطراز الحديث، وقال إنه يريد شراء ثوب من ثلاث قطع وسترة. إذا كنت مندوب مبيعات، فما الذي يمكن أن تعرضه عليه أولًا لتجعله ينفق أكبر قدر من المال؟ تعطي محلات الملابس تعليمات لموظفي المبيعات ببيع القطع الغالية أولًا. قد يقترح المنطق السليم عكس ذلك؛ لأنه إذا أنفق رجل كمية كبيرة من المال لشراء بذلة، فقد يتردد في إنفاق المزيد من المال لشراء السترة؛ لكن تجار الملابس يعرفون أفضل؛ فهم يتصرفون وفقًا لما يوحي به مبدأ التباين: بيع البذلة أولًا؛ لأنه عندما يحين وقت النظر إلى السترات، حتى الغالية منها لن تبدو أسعارها عالية بالمقارنة».

شيالديني Cialdini، **التأثير**، صفحة 13.

Cialdini, Influence, p. 13

يخضع التكرار، والأهمية البارزة، والتوقيت، وما يوجد في الوسط خارج الخلوي... وقوى تشابكاتنا العصبية -مثل ذواتنا- للعديد من التأثيرات، وأحد العوامل الذي لم أذكره بعد هو التقنية؛ أي المحاولات الاصطناعية لتغيير القوى التشابكية. وسوف أعود إلى هذا الموضوع في الفصل الرابع عشر. الأمر الآخر المهم هو القوى الحالية للروابط التشابكية للشبكة المعرفية، لأن الشبكات المعرفية الضعيفة تميل إلى التغير أكثر من تلك التي ترسخت بقوة.

التشابه الآخر بين الشبكات المعرفية والبشر هو أن كليهما يعيش في مجتمعات، وتتأثر الشبكات المعرفية بصورة كبيرة ببيئاتها؛ فيعتمد تنشيطها -بالتنبيهات أو الشبكات المعرفية الأخرى- على ما حولها. (إن هذا الميل النسبي إلى أن يؤثر كل شيء في كل شيء آخر، هو الذي يجعل العلوم عامة، وعلوم الدماغ خاصة، معقدة بصورة شيطانية)، انظرْ إلى عمل فني غير مكتمل، لوحة أو سيمفونية، لترَ بعض المناطق مفصلة بدقة (فيها كثافة عالية من جزيئات الطلاء أو العلامات الموسيقية)، في حين يكون بعضها الآخر قد رسم بمخطط (قليل من الطلاء، أو مجرد قليل من أجزاء الأوركسترا). تحدِّد الكثافة في المشهد المعرفي بعدد المعتقدات ذات الصلة، ففي المناطق عالية الكثافة (مثلًا في دماغي، تلك المرتبطة

بعلم الأعصاب) يكون المشهد محددًا جيدًا، مع شبكات معرفية متجمعة ومتداخلة بكثافة تقدم كثيرًا من التفاصيل، أما في المناطق منخفضة الكثافة (مثل تلك التي تحوي معتقدات حول ثعابين البحر الكهربائية) فقليل فقط من الشبكات المعرفية ترسم خطوطًا عامة في تلك المنطقة.

الكثافة مهمة؛ لأنه عند وصول الإشارات الواردة إلى شبكة معرفية فقد تنشط أيضًا الشبكات المعرفية المجاورة في المشهد المعرفي، وكلما كانت تلك الشبكات المجاورة أقرب، ازداد احتمال تنشيطها، وكلما ازداد عدد مرات التفعيل المشترك للشبكات المعرفية مع جاراتها، ازداد التشابه في قوى الارتباط فيها. وكما هي المشاهد الطبيعية حيث تكون الميول عادة متدرجة (المنحدرات الخفيفة، والتلال المتدرجة، والميول الهادئة، أكثر عددًا من الجروف الصخرية في كوكب أرضنا الممهد)، كذلك في المشهد المعرفي، تتغير الميول في قوة الترابط بدرجات صغيرة. من المرجح وجود فروق كبيرة بين الروابط المتجاورة في المناطق منخفضة الكثافة، حيث لم يُبنَ عدد كبير من المعتقدات. هذه هي الزوايا المظلمة والأقل اكتشافًا في عقولنا، وهي الأماكن التي ليس فيها للتمهيد العقلي أثر كبير.

التمهيد العقلي: النشاط العصبي ودور الوعي

«يمكن التفكير في تكوين عادَةٍ كمثيل لتكوين مجرى مائي».

برتراند راسل Bertrand Russell، **الدين والعلم**.

Bertrand Russell, Religion and Science

السؤال الآتي الذي يفرض نفسه من تشبيه المشهد المعرفي هو: كيف يرسم شكل هذا المشهد؟ ما الأشياء العقلية المكافئة لقوى التمهيد والحت؟ الإجابة بسيطة: ينحت النشاط العقلي عالمنا المعرفي تمامًا كما رسم الماء شكل كوكبنا[4]، لكن لهذه العبارة البسيطة مضامين جديرة بالملاحظة، تتطلب رؤيتها تناول التشابه بين النشاط العصبي وتدفق الماء بصورة أكثر تفصيلًا، باستخدام خمس ملاحظات مألوفة عن الماء وكيفية تدفقه؛ هي: حجم القناة التي يتدفق خلالها الماء، السلاسة التي يتدفق فيها، عدد القنوات المتاحة ليتدفق خلالها، كيف تتغير القنوات المجاورة بمرور الوقت، وشكل القنوات.

حجم القناة

تخيَّل خزانًا مملوءً بالماء وله قناة صرف واحدة (أنبوب أو فتحة في جدار الخزان)؛ فإذا كانت ضيقة (مساحة مقطعها صغيرة)، فسيتدفق الماء بسرعة أكبر مما لو كانت القناة أوسع (تمامًا كما يحصل عند ضغط فوهة خرطوم الحديقة، مما يجعلها أضيق، ويؤدي إلى خروج الماء بسرعة أكبر). تخيل أبعد من ذلك أن القناة مكونة من مادة تتآكل، وجدران القناة تنجرف ببطء مع مرور المزيد والمزيد من الماء عبرها، فمع مرور الوقت ستصبح القناة أوسع، وسينخفض تبعًا لذلك معدل مرور الماء فيها، ولكن مع تدفق الماء بصورة أبطأ، سينخفض أيضًا معدل اتساع القناة (نتيجة تآكل جدرانها) إلى ألَّا يعود الماء في نهاية المطاف يتدفق بسرعة تكفي ليكون له أي تأثير ملحوظ على جدران القناة، أي -بعبارة أخرى- ثمة مقايضة بين الحجم ومعدل التدفق؛ تتغير القنوات الكبيرة بدرجة أقل من القنوات الصغيرة إذا كان معدل التدفق نفسه. إذا خرجت من الخزان قناتان مختلفتان في الحجم، فسوف يتدفق الماء بصورة أقوى عبر القناة الصغيرة (ومن ثم يكون احتمال تآكلها أكبر)، لهذا السبب فإن تعميق الأنهار العميقة (بتنظيف الطمي المتراكم فيها) إستراتيجية شائعة في منع الفيضان.

يقابل القنواتِ في مثال تدفق الماء المجازي الشبكاتُ المعرفية، وحجمَ القنوات قوةُ الشبكات المعرفية، والتآكلَ أساليبُ الدماغ في زيادة قوة التشابك العصبي. عندما تُنشَّط بمنبه، فإن الشبكات المعرفية الأكثر قوة أقل احتمالًا للتغير، وستتغير بدرجة أقل من الشبكات الأكثر ضعفًا. ربما أغير انطباعي كليًّا عن ثعابين البحر الكهربائية بعد برنامج تلفازي قصير، ومن غير بذل مجهود كبير، ومن غير الشعور بحزن كبير، لكن الأمر يتطلب كثيرًا لإقناعي أن رأيي في مهارات رئيسي الإدارية، الذي بني عبر سنوات من الملاحظة، يجب أن ينعكس.

السلاسة

يزيل الماء مع تدفقه فوق الأرض العوائق، جاعلًا تدفقه أكثر سلاسة، والأمر نفسه صحيح بالنسبة إلى النشاط العصبي؛ إذ تغير الخلايا العصبية التي تنشط في الوقت نفسه التشابكات التي بينها، بحيث يمكن أن تتدفق الإشارات بسلاسة من الوارد إلى الصادر، وهذه الآلية التي تُعرَف في اللغة الاصطلاحية في عالم الأعصاب (بالأتمتة)، هي الطريقة التي نكتسب فيها

المهارات من الكتابة إلى قيادة المركبات، وكلما كانت الشبكة المعرفية أقوى- ممارسة أكثر- كان تدفق الإشارات من خلال مسارات مكوناتها أكثر سهولة وسرعة.

كما سنرى في الفصل العاشر، فإن للدماغ آليات محددة لتسهيل السلاسة من خلال توجيه تدفق الإشارات إلى مناطق معينة؛ المكافئ المعرفي لوضع الإبهام على فوهة خرطوم المياه لتفتيت الأوساخ المتراكمة، فتركز البنت الصغيرة التي تتعلم الكتابة انتباهها على التكوين الدقيق والواعي لكل حرف، والطريقة التي تشعر فيها يدها، والعلامات التي تصنعها. أما الشبكات المعرفية الأكثر قوة، فإن التدفق خلالها سريع وسلس، حتى إنها قد تؤدي إلى قلة الانتباه الواعي أو انعدامه؛ فالمرأة البالغة التي تكتب كلمة تفكر في أثناء ذلك في أشياء أخرى؛ تفكر في معنى كامل الجملة وكيف تقدم حجتها، وما الذي تفضل أن تفعله، أو ما الذي تحتاج إلى عمله لاحقًا، فهي ليست مهتمة في الكيفية التي كتبت فيها الكلمة. وفي مثال أكثر تطرفًا، من المعروف عن السائقين المهَرة أنهم قادرون على الاستماع إلى المذياع، وإجراء محادثات، بل والاستغراق في غفوة ثانية أو ثانيتين، كل ذلك في أثناء قيادة هيكل معدني قابل للاشتعال عبر طريق سريع وبسرعة 130 كيلومترًا في الساعة، لقد أُتمتت المهارات المطلوبة للقيادة على الطريق السريع بحيث إن الآليات التي تتضمنها نادرًا ما تتطلب انتباهًا واعيًا، وفي الواقع فإن تركيز الانتباه على ما يقوم به المرء قد يعطل التدفق السلس من الوارد إلى الصادر، ويحول الحركة الماهرة السلسة إلى جهد مفكك غير متقن.

أحد مضامين هذا التشبيه هو أن المثيرات البسيطة والقوية تحفز على الأغلب استجابات أسرع من المثيرات الأكثر ضعفًا والأكثر تعقيدًا، وكما سنرى في الفصل العاشر عندما ننظر في كيفية ربط الدماغ بين التصورات والحركات، فإن أبسط المثيرات يمكنها إثارة رد فعل سريع جدًّا بحيث إنه لا يوجد وقت للمناطق الأخرى في الدماغ حتى لتسجيل أن المثير قد حدث؛ يمكننا إثارة حركة سريعة للعين من دون أن نكون مدركين للمنبه أو الحركة نفسها. التركيز والبساطة يعنيان السرعةَ، والأمر نفسه صحيح بالنسبة إلى المعتقدات؛ المعتقدات الأكثر قوة وبساطة أصعب تحديًا؛ لأن شبكاتها المعرفية غالبًا ما تفعَّل من دون الوصول إلى حد الانتباه الواعي، إنها تشبه القنوات القصيرة المستقيمة التي يتدفق الماء خلالها بسرعة كبيرة جدًّا بحيث إنه ينفد قبل التمكن من إيقاف تدفقه.

نعتمد على قدرة أدمغتنا في الاهتمام بمعظم شؤوننا من دون إزعاج الإدارة العليا؛ نقوم بمعظم ما نقوم به دونما تفكير، إذا كان (التفكير) يعني الوعي. عندما نتعلم مهارة جديدة، أو فكرة جديدة، فإنها تصبح مؤتمتة، ويقل الوقت الذي تستغرقه في التفكير الواعي، لتتفرغ الإدارة العليا في القشرة الأمام جبهية للتحديات الأخرى. مرة أخرى، طوَّر فنيو التأثير كثيرًا من الأساليب لاستغلال التفكير التلقائي، والقواعد التي تعلمناها لتوفر علينا عناء مراجعة كل موقف من جديد. (قد يكون هذا أحد الأسباب التي جعلت قائمة الكلمات الثماني لتعزيز البيع عند برات كانيس وأرونسون Pratkanis and Aronson تتضمن كلمات مثل: (سريع) و(سهل))[5]، نادر= قيِّم؛ محبب= موضع ثقة؛ ما قاله الخبير= حقيقة؛ هذه المصطلحات الاستدلالية تحفظنا من الغرق في تعقيدات عالم اليوم الغني بالمعلومات، لكنها أيضًا تُستغل يوميًّا من قبل تجار التجزئة، والسياسيين، وفنيي التأثير الآخرين الذين يفضلون ألَّا نفكر مليًّا في ادعاءاتهم.

عدد القنوات

إذا كان هناك عدد قليل من القنوات التي تخرج من خزان مياه، فإن كمية الماء التي يمكن نقلها منه في مدة معينة ستكون أقل؛ نظرًا إلى أن سرعة تدفق الماء إلى الخارج عبر القنوات تعتمد على كمية الماء في الخزان، فسيتدفق الماء أسرع عبر القنوات إذا كان عددها قليلًا (لأن كمية أكبر من الماء ستبقى في الخزان مدة أطول) مما إذا كان عددها كبيرًا (لأن عدد القنوات الأكبر يمكِّنها من إخراج كمية أكثر من الماء من الخزان وبصورة أسرع)، لذلك فإن توفير مسارات تدفق بديلة (قنوات أكثر) إستراتيجية شائعة في منع الفيضانات، لذلك ومع مرور الوقت، سوف يصبح معدل تآكل القنوات الذي يعتمد على سرعة تدفق الماء عبرها، أبطأ إذا وجد كثير من القنوات، وأسرع إذا كان عدد القنوات صغيرًا.

مرة أخرى، كما هي الحال في قنوات الماء، فكذلك هو بالنسبة إلى الشبكات المعرفية، فالإشارات التي ترسلها الشبكات المعرفية القوية ستصل إلى متلقياتها بصورة أسرع من الإشارات ذات القوة نفسها التي تمر خلال الشبكات المعرفية الضعيفة (لكن الشبكات الضعيفة ستتغير أكثر)، لكن عدد الشبكات المعرفية في تلك المنطقة من المشهد المعرفي (كثافة الشبكات المعرفية) يعد مهمًّا؛ فكلما ازداد عدد الشبكات المعرفية المتاحة لنقل الإشارة، ضعف تدفق النشاط عبر كل شبكة معرفية، وقلَّ التغير في قوتها. يبدو هذا الأمر معقولًا من الناحية النفسية، فعند تلقي معلومات جديدة فمن المرجح أن أغير معتقداتي في مجالات الموضوع الذي لست

خبيرًا فيه (حيث شبكاتي المعرفية ضعيفة)، وفي المجالات التي تكون فيها معتقداتي الحالية قليلة (أي تكون الشبكات المعرفية المتوافرة كمسارات لتدفق الإشارات قليلة). أما المجالات التي أكون فيها خبيرًا فتحوي كثافة عالية من المعتقدات الراسخة؛ وعند تدفق الإشارات الواردة في تلك المناطق فقد تنشِّط عددًا كبيرًا من الشبكات المعرفية ذات الصلة، لكن التغير الذي تحدثه في كل شبكة سيكون قليلًا نسبيًّا. فيمكن أن يعيد برنامجٌ في التاريخ الطبيعي مدته نصف ساعة حول ثعبان البحر الكهربائي، تشكيلَ تلك المنطقة بأكملها من مشهدي المعرفي، في حين أن قراءة كتاب آخر حول علم الأعصاب، الذي قد يأخذ مني عدة ساعات، من المستبعد جدًّا أن يحدث مثل هذه التأثيرات الزلزالية.

القنوات المجاورة

انظر إلى تدفق الماء من خزان عبر قناتَي تصريف؛ إذا كانت إحداهما أكبر، فسيتدفق الماء بصورة أبطأ من تلك القناة، وبصورة أسرع خلال الأخرى، أي القناة الصغرى، ومن ثم فسوف تتآكل جدران القناة الصغرى بصورة أسرع (فيزداد حجمها)؛ لذا سيبطئ معدل تدفقها عاجلًا، بسبب علاقة المقايضة بين حجم القناة ومعدل التدفق الذي ذكرت سابقًا. بعبارة أخرى، سوف تتوسع القناة الكبيرة ببطء، في حين تتوسع القناة الصغيرة بصورة أسرع، وفي نهاية المطاف ستنتهي القناتان إلى حجم متشابه وبمعدلات تدفق بطيئة جدًّا بحيث لن يحدث تآكل آخر تمكن ملاحظته.

يمكن أن تقترب الشبكات المعرفية من توازن مشابه، حالة راسخة بقوة لا تعود فيها قوى روابطها تتغير كثيرًا، وبمرور الوقت تميل الشبكات المعرفية لتصبح أكثر تشابهًا في قوة ارتباطاتها، وهو ما ينتج منه مشهد معرفي أكثر سلاسة، ويعزز التأمل الواعي في المعتقدات هذه العملية، ويسهل الاتساق العام.

التعقيد

تخيل أن الماء يتدفق من خزان مملوء إلى آخرَ فارغ عبر قناة توصيل واحدة، ستعتمد سرعة انتقال الماء وفاعليته- كما رأينا بالفعل- على حجم القناة، ولكن شكل القناة مهم أيضًا؛ إذ يتيح الخط المستقيم البسيط الذي يمثل أقصر مسافة بين الخزانين، التدفق السريع للماء للانتقال بكفاءة من أحدهما إلى الآخر، فيمتلئ الخزان الثاني سريعًا، وإذا كانت القناة متعرجة

فسيستغرق الماء من الخزان الأول وقتًا أطول لوصوله إلى الخزان الثاني وملئه، وإذا كان للقناة كثير من الفروع أو الشقوق أو الثقوب، فسيتسرب الماء بعيدًا، مسببًا هبوط معدل التدفق، ومرة أخرى سيستغرق الخزان وقتًا طويلًا للامتلاء. بعبارة أخرى، كلما ازداد تعقيد شكل القناة، ازداد ضعف تدفق الماء وبطئه خلالها. تخيل -كما في السابق- أن الماء يؤدي إلى تآكل القنوات التي يتدفق خلالها. ستميل القنوات البسيطة التي يتدفق فيها الماء سريعًا إلى التآكل أكثر من نظيراتها الأكثر تعقيدًا، وبمرور الوقت تصبح أعرض.

مثل القنوات، يمكن أن تختلف الشبكات المعرفية في تعقيداتها؛ فتتطلب الأفكار البسيطة ذات العدد القليل من المكونات وذات الارتباطات القليلة التي تربطها مع الأفكار الأخرى شبكات معرفية بسيطة نسبيًّا؛ فعلى سبيل المثال انظر في اعتقادي النَّشِط الحالي عن أحد الشحوم الفوسفورية المفضلة لدي (تذكَّرأني تدربت بوصفي عالمة- أنه ليست كل صورة نمطية غير صحيحة تمامًا في جميع الحالات). أعتقد أن الاسم المفضل لدي- على الرغم من أنه يشار إليه على أنه العامل المنشط للصفيحات (platelet-activating factor (PAF- يمكن أن يكتب كما يأتي: O-1-ألكيل 2-أستيل-س ن-غليسريل 3-فوسفوريل الكولين. -1-O-alkyl-2-acetyl sn-glyceryl-3-phosphorylcholine. اعتقادي هذا ضعيف جدًّا؛ لأنه ولسبب غريب وجدت أن (O-1-ألكيل2-أستيل-س ن-غليسريل3-فوسفوريل الكولين-1.O.alkyl.2.acetyl. sn.glyceryl 3.phosphorylcholine) يستحيل تقريبًا تذكره. عدد الارتباطات في دماغي التي ترتبط بالشبكة المعرفية التي تشفر (O-1-ألكيل2-أستيل-س ن-غليسريل3-فوسفوريل الكولين) 1.O.alkyl.2.acetyl.sn.glyceryl.3.phosphorylcholine ضئيل بمعايير الدماغ (يمكنني تقديم اثنين في الوقت الحاضر)، والشبكة المعرفية، على الرغم من مظهرها، بسيطة نسبيًّا بحد ذاتها، كما يصبح واضحًا عندما أقارنها؛ مثلًا، بشبكتي المعرفية عن (غسيل الدماغ) التي هي فكرة معقدة، غنية بالمعنى مليئة بالارتباطات. يحفِّز التفكير في غسيل الدماغ عددًا غزيرًا من الشبكات المعرفية الأخرى؛ أما التفكير في O-1-ألكيل2-أستيل-س ن-غليسريل3-فوسفوريل الكولين 1.O.alkyl.2.acetyl.sn. glyceryl.3.phosphorylcholine فيحفز القليل جدًّا ما عدا الإحساس بالإعياء، كذلك فإن هذا النوع من الشبكات المعرفية لا يعيش طويلًا، بمعنى أنه يمكن أن ينشط فقط عندما أنظر فعليًّا إلى الاسم، نظرًا إلى عدم مقدرتي على تذكره، والأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الشبكتين المعرفيتين المرتبطتين به؛ إحداهما شبكتي المعرفية للعامل المنشط للصفيحات، وهي معقدة؛ لأنني درست العامل المنشط للصفيحات بشيء من التفصيل، أما الأخرى فهي وحدة أكثر غموضًا: (ذلك الشيء الطويل بكل تلك الواصلات (-)، تعلم ما أقصد، الاسم الثاني للعامل

المنشط للصفيحات)-الذي يحل محل (O-1-ألكيل2-أستيل-س ن-غليسريل3-فوسفوريل الكولين) 1-O-alkyl-2-acetyl-sn- glyceryl-3-phosphorylcholine كلما كان هذا الاسم غائبًا من أمامي فعلًا.

كلما كان المفهوم أكثر تعقيدًا، كانت الشبكة المعرفية التي تمثله أكثر تعقيدًا، وهو ما يعني أن معتقداتنا الأكثر قوة تميل إلى أن تكون أبسط من قناعاتنا الأكثر ضعفًا، وهذا يتناسب مع الخبرة. الاعتقاد المجرد بأن طالبي اللجوء السياسي جميعًا غير صادقين هو اعتقاد بسيط، ويمكن التمسك فيه بقوة أكثر من الاعتقاد الأكثر تعقيدًا -مع أنه الأكثر دقة وأقل تجريدًا- بأن بعض طالبي اللجوء السياسي كاذبون في حين أن كثيرًا منهم ليسوا كذلك. المعتقدات الأكثر بساطة أسهل في تمثيلها والاحتفاظ بها في الشبكات المعرفية، تمامًا مثلما أن العناوين الرئيسة أسهل في تذكرها من المناقشات الفلسفية، ويمكن في بعض الأحيان أن تتفوق جاذبية البساطة على جاذبية الدقة، وهذا هو السبب الذي جعل الحزب الوطني البريطاني يحرز تقدمًا في الانتخابات الأخيرة للمجالس المحلية في المملكة المتحدة، على الرغم من وجهات نظره المتطرفة (انظر الفصل 9 لمزيد من المناقشة حول الحملة الدعائية للحزب القومي البريطاني)، فالرسائل التي ينشرها بسيطة وجذابة (لبعض الناس)؛ وبساطتها تجعل قبولها أسهل.

الشبكات المعرفية الأكثر قوة، والأكثر سهولة، والأكثر تجريدًا، تميل أيضًا لأن يكون لها تأثير أكبر في السلوك، ولمعرفة السبب فلنتذكر التشبيه المجازي للماء المتدفق بين خزانين عبر قناة تربط بينهما؛ ففي هذا التشبيه يمثل الماء في الخزان الأول المملوء كمية نشاط الدماغ الذي يحفزه مؤثر حسي، مثل ومضة ضوء. ويمثل الخزان الثاني الفارغ مبدئيًّا أنظمة الدماغ التي تتحكم مباشرة في السلوك. يبدأ الفعل استجابةً للمؤثر عندما يصل الماء إلى الوعاء الثاني. إذا وجدت قناتان تصلان بين الخزانين؛ الأولى قصيرة ومستقيمة والثانية معقدة جدًّا، عندها سيحصل الخزان الثاني على الماء (أي سيحدث تحفيز للاستجابة السلوكية) من القناة القصيرة المستقيمة (أي الشبكة المعرفية الأكثر بساطة).

اختبار الفرضية

يقدم استكشاف تشبيه تدفق الماء رؤى حول ما يجعل الشبكات المعرفية عمومًا، والمعتقدات خصوصًا، أقوى أو أضعف. المشهد المعرفي انعكاس للعالم الذي نعيش فيه، ويتشكل

بوساطة البيئة وبأنماط النشاط الوراثي في كل خلية، لكن الدماغ مرآة غريبة جدًّا، فهو يشوه بعض مظاهر العالم، ويتجاهل أخرى، ويرشح كل معلومة يستقبلها بناءً على خبرته السابقة. ليس للمرايا ذاكرة، لكن تاريخ الدماغ منغرس في لب تركيبه، يؤثر باستمرار في تخميناته وتوقعاته، تفسيراته وتكهناته، أفعاله وردود أفعاله، وحتى فيما يراه وما لا يراه.

تبيِّن الأدلة أن أدمغة البشر تبني توقعات -فرضيات- على الدوام عن العالم حولها، اعتمادًا على الخبرة، وهي تستمد هذه التوقعات حول ما سيكون العالم عليه في المستقبل القريب جزئيًّا من معرفة ما حققته أفعالهم في الماضي، فعندما أُسقطُ كأسا أتوقع أن تهوي نحو الأرض، ومثل هذه التوقعات قد تكون بوعي أو من غير وعي، لكن ذلك لا يجعلها أقل تأثيرًا في السلوك، ويجفل جسمي تلقائيًّا، ويستعد للاصطدام قبل أن أسمع صوت تكسر الكأس.

تتولد الفرضيات القشرية عندما ترسل إشارة الأمر الحركي الصادر من القشرة الحركية إلى الحبل الشوكي والعضلات، وفي الوقت نفسه يعاد إرسال الإشارة نفسها إلى المناطق الحسية والمتوسطة في القشرة، وخاصة لتلك التي في الفص الجداري الذي يحفظ رسومًا تمثيلية لموضع الجسم في الفراغ. تستخدم هذه المعلومة عن الفعل الآتي في توليد رسم تمثيلي لموضع الجسم كما لو أن الفعل قد حدث فعليًّا، توقُّع أين سيكون الجسم الذي يمكن بعد ذلك مقارنته بالإشارات القادمة من الجسم نفسه حالما يحدث الفعل. إذا تطابقت الإشارات، فليس هناك مشكلة، أما إذا لم تتطابق فسيطلق الإنذار، وسوف يستحث الدماغ لاستقصاء ما الذي سبب عدم التطابق (المزيد عن ذلك في الفصل 10). كما هي الحال بالنسبة إلى الجسم، فالأمر كذلك بالنسبة إلى العالم. تراقب أدمغتنا وتتوقَّع باستمرار النظر والسمع، وجميع القنوات الأخرى التي من خلالها نستقبل المعلومات حول بيئتنا؛ يبدو أن معظم (اختبار الفرضية) في الدماغ -مقارنة ما يَرِد فعلًا للدماغ بما يَتوقع أن يستقبله- يحدث مبكرًا جدًّا في آلية استقبال الوارد الحسي، قبل حتى أن يصل ذلك الوارد إلى القشرة. تمر المعلومات الحسية بداية من أعيننا، وآذاننا، وأطراف أصابعنا وغير ذلك، من خلال أعصاب إلى الدماغ، وبصورة محددة إلى المهاد، وهو تجمع من نُويات (تجمعات خلوية) في قلب الدماغ وقد اشتق اسمه من الكلمة اليونانية غرفة النوم أو الغرفة الداخلية. تنتقل الإشارات من المهاد إلى مناطق مختلفة من القشرة الحسية لمزيد من المعالجة، وتعيد هذه المناطق بدورها إرسال الإشارات إلى المهاد، مقارِنَة ومعلِّقة على الوارد الذي يصلها[6]. تعمل آلية المقارنة هذه عملَ مصفاة مستمرة في العمل،

فتعدل الأفكار المبلورة المتولدة في القشرة بحيث تندمج مع الإشارات الواردة من المهاد تحت القشرة، وتعدل في الوقت نفسه الإشارات الواردة بحيث تتوافق أفضلَ مع فرضيات منطقة القشرة، ويحدث هذا الصقل والتعديل أيضًا على مستوى القشرة نفسها، حيث تدخل مناطقه العديدة في حوارات لا تتوقف. لا شك أن الإشارات الواردة تغير الدماغ الذي يستقبلها، لكنها نفسها تتغير في العملية، فتعدل بحيث تتوافق بصورة أفضل مع معالم المشهد المعرفي. كما بحثنا سابقًا، الهدف هو التناسق العام: أي التدفق السلس من الوارد إلى الصادر بأقل قدر من الاضطراب.

بالعودة إلى تشبيه تدفق الماء، نرى أن الماء يجري في أسهل مسار، ويتدفق عبر القنوات المتوافرة قبل أن ينحت مسارات جديدة، وكذلك تميل الإشارات الواردة إلى الدماغ إلى التدفق عبر الشبكات المعرفية الموجودة أصلًا، وهذا لا يعني بالتأكيد أن الشبكات المعرفية الجديدة لن تتكون أبدًا، بدلًا من ذلك، هناك تأثير الفائض: إذا كان التطابق بين الإشارات الواردة الجديدة والبنية الحالية للدماغ ضعيفًا، فسيحدث تدفق قليل للمعلومات عبر الشبكات المعرفية المتوافرة، فإما أن تُعدِّل الشبكات المعرفية، أو تتكون شبكات معرفية جديدة لنقل الفائض بعيدًا، أو تعدل الإشارات الواردة (بتعديل المصافي تحت القشرة مثلًا) إلى أن تلائم بصورة أفضل توقعات الدماغ. يعتمد تحديد أي من النواتج سيحدث على قوى الترابط بين الشبكات المعرفية المتوافرة؛ فتميل الشبكات المعرفية الضعيفة إلى التغير استجابة للإشارات الواردة التي تكوِّن التحدي؛ فهي، كما بحثنا سابقًا، تخضع للواقع، وتميل الشبكات الأكثر قوة إلى إحداث مزيد من التغيير في الإشارات الواردة؛ وقد تؤدي إلى تكوين شبكات معرفية جديدة لتفسير المعلومات الجديدة. هنا، يخضع الواقع للتوقعات، ويبدو أن الناس يختلفون في السهولة التي يتقبلون فيها المعلومات التي تشكل التحدي (وتعتمد أيضًا -بالتأكيد- على المتحدَّى)، لكن عمومًا، يبدو أن عتبة التحمل أقل مما نود توقعه، ويبدو أن الجنس البشري لا يحتمل الواقع كثيرًا.

وفق ما أظهر عديد من التجارب النفسية، فالناس كثيرًا ما يرون فعلًا ما يتوقعون أن يروه، يمكنهم أيضًا أن يكونوا بارعين بصورة مدهشة في تفسير الحقائق غير المرغوب فيها؛ هل سبق لك التحدث للخروج من موقف شائك؟ هل سبق لك أن واجهت تحديًا غير متوقع -مثلًا من زميل في العمل- ودُهِشت من الطلاقة التي تكلمتَ بها في القضية، وجئت ببعض

الحجـج الجديـدة والفاعلة، وأفحمت خصمك؟ تعد قدرة الإنسـان على سـرد القصص أساسـية في جميع الثقافات، ويبدو أن الرغبة في بناء روايات متماسـكة -مظهر آخر للثبات- صفة شـاملة للنوع البشري.

مثل الصفات الأخرى، يمكن أن تكون الحجج متطرفة في بعض الحالات، فبعد تلف الدماغ، يبدي بعض المرضى قدرة اسـتثنائية على نسـج القصص، وهي عملية تسـمى (الاختلاق). يشير هـذا المصطلـح الفـظ نسـبيًّا -حيث إن هـؤلاء المرضى لا يكذبـون عمدًا- إلى ما يمكـن أن يكون تفسـيرات معقـدة جـدًّا، وغير قابلـة للتصديق يختلقها المريض عندما يواجَـه بمعلومات صعبة، يمكـن أن يعانـي المرضـى المصابون بأنـواع معينة من الجلطـات الدماغية -على سـبيل المثال- متلازمةا يسمى (الجهل بالمرض)، وفيها يخفق المرضى في إدراك مدى إصاباتهم، حتى عندما تشـمل هذه الأمراض الشـلل. عندما يواجهون موقفًا لا يمكنهم فيه تجنب مواجهة العواقب -كأن يطلب منهم الطبيب المشـي مثلًا- فإنهم يتذرعون مباشـرة بأسباب شتى تفسر لماذا لا يلتزمون بالأمـر. مثـال آخـر عن الاختلاق أوضحـه جيدًا عالم الأعصـاب أوليفر ساكـس Oliver Sacks في وصفـه لرجـل يعاني متلازمة كورسـاكوف Korsakoff's syndrome التي تسـبب تلف الدماغ (تؤثر بصورة خاصة في الذاكرة)[7]؛ فالمريض الذي لم يتذكر الطبيب (الذي كان قد شاهده من قبل)، أخطأ مرارًا وتكرارًا في تعرُّفه، قافزًا إلى مجموعة مدهشة من الاستنتاجات غير الصحيحة حول هوية ساكـس Sacks ووظيفته، وكان لديه لكل اسـتنتاج رواية حكاية جاهزة بسهولة، ولم يتذكر أيًّا من الأخطاء السابقة التي ارتكبها.

لا يقتصر الشكل الحاضر لمشهدنا المعرفي على صنع قالب للإشارات الواردة التي نستقبلها فحسـب، بـل إنـه يؤثر في الطرق التي نتفاعل بهـا مع تلك المعلومات، ولا تبـدأ تصفية المعلومات في محطات الاتصال تحت القشـرية، ولكن قبل ذلك بكثير، بسـلوكات الحماية التي ننخرط فيها جميعًـا للحفـاظ علـى عوالمنا بالصورة التي نحبهـا فيها، وكما يقول الفلاسـفة المعتقدات «تمثل أسبابًا للفعل»[8]. سواء أدركنا الأسباب التي تجعلنا نتصرف أم لم ندركها، فالمعتقدات والشبكات المعرفيـة الأخـرى تقـدم تلك الأسـباب، فنحن نفضل قضاء الوقت مع النـاس الذين يشـاطروننا الفكر نفسه على أولئك الذين تتحدى أفكارهم أفكارنا، ونستمد أخبارنا من مصـادر نقرُّها، ونقرأ بعض الكتـب (ولا يمكـن أن نزعج أنفسـنا) بكتب أخـرى، ونتجاهل أو نتجنـب المعلومات التي قد تظهر ثقوبًا في شبكاتنا المعرفية التي بنيت بعناية.

المعتقدات الضمنية والقناعات القابلة للخطأ

تصوير المعتقدات على أنها شبكات معرفية يمكن أن يلقي الضوء على جوانب مختلفة من وظيفة الدماغ. التمييز الذي أوضح في الفصل السابع الفرق بين الذوات الضمنية (الكامنة) والنشطة -على سبيل المثال- يمكن فهمه الآن على أنه تمييز بين تلك الشبكات المعرفية التي يمر من خلالها النشاط العصبي حاليًّا، والشبكات المعرفية غير النشطة حاليًّا. ينطبق هذا التمييز نشط-ضمني أيضًا على المعتقدات؛ فعندما تتواصل بوساطة الهاتف، تعتقد أن الصوت القادم من سماعة الهاتف هو للشخص الذي تعتقد أنك تتحدث معه: سوف تنشط في دماغك الشبكات المعرفية التي تكونت خلال التجارب السابقة مع ذلك الشخص، وتعتقد أيضًا أن وضع السماعة جانبًا لن يتسبب في إطلاق تنين من منخرك الأيسر، لكن هذا الاعتقاد بقي ضمنيًّا إلى أن جعلتك قراءة هذا الكتاب تقرُّه بالموافقة للمرة الأولى.

إحدى النقاط المهمة هي أن المعتقدات -مثل الشبكات المعرفية الأخرى- يمكن أن تتشكل، وتؤثر في السلوك من دون وعي صاحبها؛ إذ تسعى كثير من محاولات التأثير إلى استغلال هذه الصفة خصوصًا لأدمغة البشر لمحاولة تكوين المعتقدات بوساطة التسلل، والفكرة هي أنه في حين يكون انتباهك مشتتًا بسبب ثرثرة مندوب المبيعات أو الألوان الساطعة لإعلان، يكوِّن دماغك شبكات معرفية جديدة أو يعزز القديمة منها، حيث تمثل الشبكات المعرفية الارتباطات بين المنتج وبعض الخصائص المرغوبة مثل الجمال، الثروة، المكانة، أو الجاذبية. كثير من الأحكام المسبقة تتكون بهذه الطريقة، من التجارب المتكررة حول كيفية تفاعل الأسرة، أو الأصدقاء، أو الزملاء، أو وسائل الإعلام مع المستهدف من التحيز. إذا كانت التلميحات الاجتماعية قوية (مثلًا إذا كان مصدرها يحظى باحترام كبير)، أو كانت مرتبطة بقوة بعواطف قوية، فيمكن عندها أن تصبح الشبكات المعرفية المرافقة راسخة جدًّا. ولكن الشخص المتحيز يفهم على الأرجح مغزى التلميحات، ويدرك من ثم المشاعر السلبية (ربما، بالطبع، يتصورها أو لا، بأنها مشاعر متحيزة، أي بأنها مظهر غير لائق من شخصيته يفضل ألا يوسم به). أما إذا لم تكن التلميحات قوية، لكنها متكررة جدًّا (أو إذا تكوَّن التحيز في عمر مبكر جدًّا)، فقد لا يدرك الشخص (أو يتذكر لاحقًا) التلميحات، ومن ثم لا يدرك وجود التحيز. مثل هذه الصور النمطية يمكن أن تكون صعبة التغيير؛ لأنه ليس من الضروري فقط تغيير المعتقدات الكامنة، وإنما إقناع الشخص المعني أولًا بأنه متحيز.

المضمـون الآخـر لهذه المداخلة هـو أن المعتقدات والذكريات كلاهما أمثلة على الشـبكات المعرفيـة، مكونـة مـن الأشـياء نفسـها: الروابط بيـن الخلايا العصبيـة، من ثم يتعين أن تسـلك المعتقـدات مسـلك الذكريات؛ فمثـلًا يجب أن تكون المعتقدات عرضة (للآثام السـبعة) للذاكرة التـي نوقشـت في الفصل السـابع، وحقًّا هذه هي الحـال؛ إذ تميل المعتقدات إلى التلاشـي بمرور الوقـت إذا لـم تُعزز (الزوال الوقتي، وشـرود الذهـن، والحَجب، والإيحاء، والتحيـز، والإصرار)، لكـن المعتقـدات القوية جـدًّا الناتجة مثلًا عن التجـارب الصادمة، يمكن أن تبقى سـببًا للإعاقة (الإصـرار)؛ فالطفل الذي هاجمه كلب يمكن أن يسـتمر فـي الاعتقاد أن الكلاب خطرة حتى بعد التقائـه بكلاب ودودة لا تشـكل تهديدًا. ويمكن أن يؤثر الخطأ في العـزو، والإيحاء، والتحيز أيضًا في المعتقدات، كما أظهرت مأساة متلازمة الذاكرة الكاذبة: فقد يؤمن الأطفال، وحتى البالغون، بأمور ليسـت صحيحة، ولا يمكن أبدًا أن تكون صحيحة، بناء على اسـتجواب الآخرين. حتى شرود الذهن والحَجب يمكن أن يحدثا في المعتقدات كما يحدثان في الذكريات، ومثال ذلك هو التجربة المثيـرة للحنـق عندمـا تعـرف أن لديك رأيًا حول شـيء ما، لكنـك غير قادر على اسـتحضار هذا الرأي في عقلك. لا يمكن تمييز المعتقد والذاكرة بعضهما من بعض في مواقف كهذه.

قوة الإيمان

قدمـت فـي الفصل الثاني مفهوم الأفكار المقدسـة، المجردة، الغامضـة، الخطرة جدًّا في كثيـر مـن الأحيـان؛ نظرًا إلى إمكانية تفسـيراتها المتعـددة وارتباطها بالعواطـف القوية؛ الأفكار الغيبيـة المقدسـة منخرطـة في الشـبكات المعرفية التـي مهما اختلفـت فيها المفاهيـم المعينة، فإنهـا تشـترك فـي مظهر واحـد. ارتباطاتها المباشـرة مع الإشـارات الـواردة من خارج الجسـم قليلـة أو معدومـة، لكنها تسـتقبل إشـارات قويـة من مصادر داخل الجسـم، يفسـرها الدماغ على أنها عواطف. في الفصل القادم، سـننظر في العواطف بتفصيل أكثر، أما الآن فبيت القصيد أن الأفكار المقدسة المجردة تستمد قوتها من الإشارات التي لا علاقة لها ألبتة بالطريقة التي يسير عليها العالم في ذلك الوقت (قد ترتبط العواطف بالذكريات أو أحلام اليقظة على سبيل المثال)، بدلًا من الإشارات المستمدة مباشرة من العالم الذي يمكن أن يفيد كوسيلة تحقق من الواقع. لما كانت مثل هذه الشـبكات المعرفية لا تعتمد في قوتها على المعلومات الخارجية، فسـيكون للحجج المبنية على تلك المعلومات تأثير ضئيل أو معدوم. إن ميزة هذا النوع من الإيمان الذي تقول «هو

كذلـك، لأنه مسـتحيل»، العصية علـى المنطق والواقع، هي التي تجعل الأفكار المقدسـة المجردة قاتلة جدًّا، ومغرية جدًّا لمن سيكون من غاسلي الدماغ[9].

يفترض المعلقـون العلميون المعاصرون، مثل ريتشـارد دوكينز Richard Dawkins وسـوزان بلاكمـور Susan Blackmore علـى الديـن، أن الإيمـان كمـا وُصف أعلاه مـرادف للدين، وينظرون إلـى الأخيـر علـى أنه صورة خبيثة من صور السـيطرة علـى الفكر؛ مرض عقلي أو فيروس ثقافي سيكون النوع البشري أفضل حالًا من دونه[10]، وتؤكد بلاكمور في كتابها **آلة المقلدات** The Meme Machine أن «تاريخ الحروب إلى حد كبير هو تاريخ قتل الناس بعضهم لأسـباب دينية»، وتقول إن العلـم متفـوق على الدين؛ لأنه «في لـب العلم تكمن طريقة المطالبة باختبـار أي فكرة. يجب على العلمـاء توقـع ما سـيحدث إذا ثبتت صحـة نظرية ثم معرفة هل كان الأمر كذلـك»، بعبارة أخرى، تُمنـع الأفكار في العلم أن تصبح مقدسـة جدًّا، وتعتمـد مصداقيتها على اختبار فرضيتها. خلافًا لذلـك، فالأديـان «تبنـي نظرياتهـا حول العالم، ثـم تمنع اختبارهـا»؛ أي إن أفكارها مقدسـة جدًّا بحيـث إن أي تماس لهـا مـع الواقع يعـد خطرًا محتمـلًا عليها. يعمـل العلم كدماغ منظـم تنظيمًا جيدًا، أما الدينان المذكوران فيشـبهان عمل الشـخص المصاب بالفصام، وهذا اتهام عاطفي، وعنـد النظـر إلى هذه المسـألة، سـوف أضـع جانبًا (كما فعلت سـابقًا في هذا الكتـاب) الأخطار الواضحـة للتعميـم المفـرط، لأن كلًّا مـن العلم والدين يشـتمل على مجموعـة متنوعة ضخمة من الممارسات والمعتقدات، فهل الاتهام عادل؟

لا؛ فكثيـر مـن الممارسـات الدينية غيـر معنيـة بالمجردات، بـل بالحياة الواقعيـة، وتختبر مداخـل جديـدة للمشـكلات الاجتماعيـة، وتجرِّب حلـولًا جديدة، وتتعلـم وتطبق أفكارًا من سـائر أنحاء العالم. الأفكار المحورية فعلًا تجريديًا؛ فكيف يمكننا اختبار فكرة وجود الله في المخابر؟ لكـن هـذه الحاجـة لا تعني أن المؤمـن منفصل عن الواقع، فكما أشـرت في الفصـل الثاني، كثير من المتدينين هم جزء لا يتجزأ من أكثر مناطق العالم خطرًا، يساعدون الضعفاء والمستبعدين اجتماعيًّـا، ويجـد كثير منهم أن قناعاتهم الدينية تتغير مع مـرور الوقت؛ فبعضهم يفقد الإيمان، وبعضهم يكتسـب رؤى جديدة. فإذا كان الإيمان الديني مجردًا ومسـتقلًّا عن الواقع تمامًا، فكيف يمكن أن يتغير -كما يحدث كثيرًا- مع التجربة؟

وانظـر إلـى بعض الأفكار المحورية فـي علم الأعصاب: إن الدماغ يعالـج المعلومات، وينتج كل مظهـر مـن مظاهـر الحياة العقلية؛ ولذلك سـيكون العلم في نهاية المطاف قـادرًا على تقديم المعالجة المادية لأي شيء -وكل شيء- لا نحبه يتعلق بأنفسنا. أي تجربة يمكن أن تدحض فكرة

أن الدماغ يعالج المعلومات، أو توضح جانبًا من ذواتنا لا يستطيع علم الدماغ (من ناحية المبدأ، في الحصيلة) تغييره. إذا توصل شخص ما إلى قدرة عقلية -العملية س- يدعي أنها حدثت مستقلة عن تغيرات الدماغ، فلن يمجَّد على أنه مؤسِّس لنموذج علمي جديد، وفي الحقيقة، نظرًا إلى الطبيعة المحافظة لمعظم المجلات العلمية، فسيكون من غير المحتمل أن ينشر بحثه، وسيخبرونه أنه على خطأ، أو مجنون، أو الاثنان معًا؛ لأن العملية س غير موجودة؛ أو إذا كان لديه دليل قوي جدًّا على حصول العملية س، «فإن تغيرات الدماغ قد حدثت فعليًّا في أثناء العملية س، لكن التقنية المعاصرة لا يمكنها كشفها». لعلم الأعصاب أفكاره الأساسية غير القابلة للطعن، تمامًا كما هي الحال في الدين، يجب عليها التسليم ببعض المفاهيم المقدسة كي تكون قادرة على التطور. فالأفكار المقدسة المجردة توجد في رؤوس آخرين غير الأصوليين المتدينين، حتى الملحدون والعلماء ليسوا بمنأى عن ذلك.

كما أشير في الفصلين الأول والثاني، ما يهمنا هو طبيعة الفكرة (بنية الشبكة المعرفية) وليس محتواها الخاص؛ أخلاقيًّا أو سياسيًّا، دينيًّا أو علميًّا، فلكل معتقد متعصبوه؛ يبدو أن تاريخ الصراع عند بلاكمور Blackmore قد توقف عند مطلع القرن العشرين، لكن منذ ذلك الحين -كما بينت في الفصل الثاني- وُجدت الماوية، والستالينية، والخمير الحمر، من بين آخرين؛ وهي أيديولوجيات لم يعرف عنها حماسها الديني، وحصدت ملايين القتلى. قد يكون برتراند راسل Bertrand Russell قد عرَّف النازية والشيوعية على أنها «أديان جديدة»[11]، لكنه ذهب بعيدًا في دلالاته اللفظية -لتناسب بقوة أجندته الإلحادية- لتشويه كلمة (الأديان) كليًّا وحرفها عن مضمونها؛ فهذه العقائد ليس لها آلهة، ولا أرواح أو أنفس، أو حياة آخرة. لا يقتصر التمسك الشديد بالمذاهب الفكرية على السياسة، فمن المعروف أن بعض العلماء يتمسكون بشدة بنظرياتهم المحببة إليهم، وهو ما يؤدي إلى نوع من القناعة غير مسوَّغة أبدًا بالأدلة المتوافرة. تتضمن أعراض هذه الحالة البشرية بامتياز التقليل من أهمية الأدلة المعارضة بمهاجمة أولئك الذين يقدمونها، والرد بعدوانية على النقد الموجه لهم بدلًا من الرد بالمنطق، والدلالة بتصريحات طنانة حول الموضوعات (مثل الدين) تسيء لوجهة نظر المتحدث (كاشفًا في كثير من الأحيان عن مستوى من الجهل لا يغتفر ضمن تخصص المتحدث). الأفكار المجردة نتيجة شائعة للطريقة التي بنيت بها أدمغة البشر، فإذا كانت خائبة، فستكون أفكارنا نحن جميعًا عرضة لتأثيرها.

قلت (إذا)، لأن التجريد والغموض بذاتهما ليسا دائمًا غير مرغوب فيهما، فيمكن أن يجادل أي عالم رياضيات في مزايا التفكير المجرد؛ أما بالنسبة إلى الغموض فيكمن فيه سحر كثير

من منتجاتنا الثقافية، بدءًا بابتسامة الموناليزا Mona Lisa إلى مباني م. س. إيشر المستحيلة، إلى رواية **دورة البرغي** لهنري جيمس Henry James[12]. الأفكار المقدسة المجردة، ومن ضمنها (ومرة أخرى من دون أن تقتصر عليها) تلك المشتقة من الدين، قدمت كثيرًا مما يعزز الحياة، وكذلك فإنها في حالات كثيرة منحت معتنقيها القوة لمقاومة القهر والتعذيب، والنجاة في ظروف مرعبة، وإعادة البناء عندما تسنح الفرصة، وحتى للمغفرة.

العقيدة، بمعنى القناعة المذهبية الفكرية، والدين، ليسا الشيء نفسه أبدًا؛ فكلا الحزم والتسامح قد يكونان المختبر أو الجامعة كما في الكنيسة أو المسجد أو المعبد اليهودي، وكذلك فإن الطريقة العلمية لا تضمن الحصانة ضد الأفكار الممجردة المقدسة والتجاوزات التي يمكن أن تقودنا إليها. تحدي الآلهة القديمة حين تسبب الأذى شيء جيد، لكن ليس إذا كانت النتيجة أن العلم سينصِّب نفسه إلهًا بديلًا؛ فنظرًا إلى تمجيد العلم للمنطق البشري، فإنه يفرِّق بين الحقائق والقيم (انظر الفصل الثالث عشر)، إذ يدعي العلمُ بوصفه سلطة ادعاءين خطيرين: أن الأخلاق ليست ذات علاقة، وأن العلماء أقوى من يُحِقُّ الحق. من السهل إذًا توسيع نطاق هذه السلطة إلى أي تحيزات يتمسك بها العلماء، لأنه (لما كانت الأخلاق غير ذات علاقة، ولا توجد وجهة نظر أخرى تستحق أن تتحدى وجهات نظرهم)، فليس عليهم بعد الآن أي ضغط لفحص معتقداتهم. من هنا تأتي الآفات مثل العنصرية (العلمية)، والتمييز على أساس الجنس، و(التمييز النفسي)؛ وهو التمييز ضد الأشخاص الذين يعانون مشكلات صحية عقلية. يرتكز العلم على طريقة تعتمد نتائجها على معطياتها، ومعظم التجارب معقدة ومفتوحة جدًّا على التفسيرات، وإذا كانت الأفكار التي تقدم المعطيات (النظرية قيد الاختبار) تحفِّز التزامًا عاطفيًّا قويًّا، فمن المرجح أن يكون التفسير في مصلحتها. العلم بوصفه سلطة، المعبود من دون كابح أخلاقي، معرفة ذاتية، وتواضع، وهي صفات معظم الأديان قديمة وحكيمة بما يكفي لمطالبة أتباعها بها (وإن لم تكن تتلقاها دائمًا)، ن يُعْفى العلماء في المبدأ السقراطي من مسؤولية فحص الذات، ويسمح لهم أن يَعدُّوا تعصبهم الشخصي حقيقة مقبولة.

الفروق الفردية: إيمان رجل ما هو منطق رجل آخر

من وجهة نظر كتاب حول غسيل الدماغ، تعد فكرة الفروق الفردية واحدة من أهم المضامين التي يخبرنا عنها علم الأعصاب وعلم النفس. مثلما أن بعض الناس تكون ذاكرتهم أفضل من غيرهم، كذلك فإن بعض الأفراد قد يشكلون معتقدات جديدة، أو يغيرون

معتقداتهم، بسهولة أكثر من غيرهم؛ فالمعتقدات تشبه الذكريات في أنها تأتي بدرجات مختلفة من الاقتناع، لكن هناك أناس تبدو شخصياتهم عقائدية جدًّا، فهم عرضة للتصديق (بأي شيء) أكثر من غيرهم. يمكن أن تنجم الاختلافات في العقائدية عن الاختلافات في وظائف تشابكات عصبية معينة، ربما بسبب اختلافات وراثية، وإذا كان الأمر كذلك، فهو يثير احتمال التلاعب في الاقتناع مستقبلًا. المورثات تؤثر في قوة المعتقد، تستحضر هذه الفكرة تصورات خيالية لحبة دواء ضد الأصولية، وعلاج للمتطرفين من أي قناعات بل من جميع القناعات.

في العام 1960م، نشر عالم النفس ملتون روكيش Milton Rokeach كتابًا ذا نفوذ سماه **العقل المفتوح والعقل المغلق The Open and Closed Mind**. وتحت العنوان (بحوث في طبيعة أنظمة الاعتقاد وأنظمة الشخصيات) بحث العقائدية أو العقل المنغلق، وقد بين أن الأفراد الذين يسجلون درجات عالية في اختبارات العقائدية مقاومون أو حتى عدائيون للأفكار الجديدة، وأكثر قلقًا حيال المستقبل، وأقل تسامحًا مع الغموض، وأكثر تصلبًا في تفكيرهم، وأقل مرونة في مسلك حل المشكلات من الأفراد الأقل عقائدية، ووجد أن التعصب يظهر تناسبًا قليلًا أو معدومًا مع الذكاء، لكنه يظهر تناسبًا سلبيًّا جدًّا مع الإبداع. الأفراد شديدو العقائدية قادرون في كثير من الأحيان على مقاومة محاولات التأثير؛ لأن شبكاتهم المعرفية قوية جدًّا، وقد لاحظ روبرت ليفتون Robert Lifton أن أحد أكثر الأفراد نجاحًا وأقلهم تأثرًا في مجموعته من الصينيين والغربيين الناجين من إصلاح التفكير، كان الغربي هانز باركر Hans Barker، وهو أسقف كاثوليكي ملتزم[13]، وقد يبدو الأفراد شديدو العقائدية أيضًا ذوي شخصيات نافذة جدًّا للآخرين بسبب إحساسهم القوي بذواتهم. ثقتهم العالية بمعتقداتهم جذابة للآخرين ذوي القناعات الأكثر ضعفًا، خاصة أولئك الذين يسعون بنشاط بحثًا عن الأمن.

على العكس؛ يبدي الأفراد منخفضو العقائدية الإبداع، والانفتاح على الأفكار الجديدة، وأسلوب تفكير حدسي ومرن، وتسامحًا أكبر مع المجموعات الخارجية، ويُبْدون أيضًا زيادة لقابلية الإيحاء ومطاوعة لمحاولات التأثير، ويكون شعورهم بالذات أضعف، وإيمانهم أكثر انفتاحًا للشك والتساؤل، وإذا ما أظهروا شخصيات نافذة، فذلك بسبب الإبداع وليس اليقين، وتألق الأفكار لا بريق الإيمان بالنفس.

من المغري ربط التقييمات بطرفي طيف العقائدية هذين، والاتفاق مع ييتس Yeats أن (الأفضل لا يملك أي قناعات، في حين يملك الأسوأ قوة عاطفية كاملة)[14]، لكن الموقف أكثر تعقيدًا مما تتضمنه هذه العبارات، فقد يُظهِرُ الأشخاص شديدو العقائدية شخصيات نافذة جدًّا، وفي بعض المناسبات، خاصة في أوقات عدم اليقين، تثبت تلك الشخصيات النافذة أنها مفيدة جدًّا (ربما غير ونستون تشرشل Winston Churchill مسار التاريخ في عام 1940م عندما حول الحكومة البريطانية من موقفها المتردد المؤيد للسلام إلى معارضة واضحة لهتلر Hitler، وهو ما أدى إلى رفض العرض الألماني بعقد هدنة)[15]، ومع ذلك فمن السخرية القول إن شديدي العقائدية ينجزون الأمور في حين يفكر قليلو العقائدية في تنفيذها. يعرف كثير من الناس الذين عملوا ضمن فرق عمل الصور النمطية للمفكرين اللامعين، المشبعين بالأفكار الذين يبدو مفهوم (الموعد النهائي) مفهومًا غريبًا جدًّا بالنسبة إليهم؛ إذا أمكن إجبار هؤلاء المفكرين الطائشين على تقديم مساهمة مفيدة فإنه يمكنهم أن يغيروا العالم، لكنهم قد يدفعون زملاءهم إلى الصراخ سخطًا في أثناء العملية. على كلٍّ، يجب ألَّا يُنْظَر إلى العقائدية والإبداع على أنهما مستقلان عن السياق، فهما يشتركان مع الظروف، والسمات الشخصية الأخرى للشخص، لتحقيق النتيجة النهائية: الأستاذ الجامعي شارد الذهن، أو الزعيم ذو الشخصية الكارزمية لطائفة دينية، المدير الحازم أو المهوَّس الممل. كلا النقيضين وما بينهما من أصناف، له مزايا وعيوب.

الخلاصة والاستنتاجات

قدَّم هذا الفصل نظرة على المعتقد (من وجهة نظر عالم الأعصاب) أعتقد أنها مثيرة في البصيرة التي يمكن أن تقدمها، ولكن قد تبدو مثيرة للأعصاب إلى حد ما. هل نحن حقًّا أسرى ماضينا، منجرفون بتاريخنا وتصوراتنا الحالية، كما توحي وجهة النظر هذه؟ ماذا عن الإرادة الحرة، تلك الفردية في صميم نظريات كثيرة جدًّا حول طبيعة الإنسان؟ سوف أعود إلى أقوى هذه الاعتراضات في الفصل الحادي عشر.

يخيفنا غسيل الدماغ لأنه يقترح فكرة أن أقوى معتقداتنا؛ وهي حبال النجاة التي تربط عقولنا معًا، يمكن فتلها أو حتى إتلافها من قبل أناس آخرين من غير موافقتنا. هل مثل هذا التلاعب بالعقل ممكن؟ لمعرفة ذلك، يتعين علينا البحث في مظهرين آخرين من وظائف الدماغ البشري: العواطف، والقدرة على التوقف والتفكير.

الفصل التاسع

جُرف بعيدًا

«ثقل مظلم في الهواء.

إنني أختنق.

قلبي يكابد ويترنح.

دمي قد تجمَّد.

بعض الرعب أصبح قريبًا. بعض الشر

يستقر ببرود على الجلد.

معرفتي به

تضعف جسمي بأكمله.

لا يمكنني أن أجادله ليذهب، أو أهرب منه.

المنطق السليم، السبب العادي

لا يمكنهما تأمين الأكسجين.

محاولًا الاستيقاظ

في كابوس الاستيقاظ، لا أستطيع الاستيقاظ

ما زلت أسير في نومي فيها».

إسخيلوس Aeschylus، أورستيا: آجاممنون Agamemnon

Aeschylus, The Oresteia: Agamemnon

تعد العواطف إحدى أكثر الأدوات فاعلية في ترسانة غسيل الدماغ، وكما رأينا في الفصل الثاني يمكن أن يوحِّد تأجيجُ العواطف القوية أعضاء مجموعة معًا، ويجعل الأفكار الملتبسة مرغوبًا فيها، ويؤدي أحيانًا إلى عواقب مميتة. حتى في أضعف صور التأثير فإن للعواطف دورًا مهمًّا تقوم به، ما الذي جعل العواطف مفيدة جدًّا لفنيي التأثير؟ للإجابة عن هذا السؤال نحتاج إلى بحث ما تفعله العواطف في الأدمغة.

الشعور العالمي

انظر مرة أخرى إلى الاقتباس أعلاه من ملحمة أورستيا Oresteia؛ حتى قبل أن تحذِّر المتنبئة كساندرا Cassandra بأن أحداثًا مروعة على وشك أن تصيب آجاممنون Agamemnon وعائلته، كانت الجوقة تعرف أن هناك خطأ ما. كتب إسخيلوس Aeschylus قطعته الفنية المأساوية قبل نحو 2500 سنة، ومع ذلك نشعر بالعواطف.

بعد مضي ثلاثة وعشرين قرنًا، أصبح إدجار ألن بو Edgar Allan Poe مشهورًا بقصص مثل (الحفرة والبندول) و(سقوط منزل أشر). مرة أخرى لم نجد صعوبة في معرفة ما تشعر به شخصياته:

«بدأت على الفور بقدمي، ترتجفان بصورة متشنجة في كل ليف منها انفجر التعرق من كل المسام، ووقفتْ ببرود حبيبات كبيرة على جبهتي».

بو Poe، (الحفرة والبندول)

الحكايات والقصائد الكاملة لإدجار ألن بو Edgar Allan Poe، صفحة 248.

The Complete Tales and Poems of Edgar Allan Poe, p. 248

«حاولت أن أصرخ لكن لم يصدر أي صوت من الرئتين الكهفيتين، اللتين كانتا مرهقتين كأنه بوزن بعض الجبال الجاثمة، تنهدت وخفقت، مع القلب...».

بو Poe، (الدفن قبل الأوان)، **الحكايات الكاملة**، صفحة 267.

Poe, 'The Premature Burial', Complete Tales, p. 267

«لماذا إذًا انتصبت شعرات رأسي واقفة، وتجمد دم جسمي في عروقي؟».

بو Poe، (برينيكي Berenice)، **الأساطير الكاملة**، صفحة 648.

Poe, 'Berenice', Complete Tales, p. 648

قلب يخفق، قشعريرة على الجلد، شعور بالاختناق بتجمد الدم أو تكثفه؛ هذا هو الخوف الذي وصفه بمفردات مشابهة جدًّا اثنان من البشر على طرفين متقابلين من التاريخ الإنساني. يتطابق الوصفان بصورة لصيقة مع «تسارع القلب، وارتفاع ضغط الدم، وبرودة الأيدي والأقدام» التي لاحظها عالم علم الأعصاب جوزيف لادو Joseph LeDoux الخبير في الخوف (في كتابه **الدماغ العاطفي**). بعبارة أخرى، يرتبط الخوف بأعراض معينة في وظائف الأعضاء (من ضمنها تعبيرات الوجه) التي يبدو أنها مميزة وثابتة، بحيث يمكن تعرف هذه العاطفة في امتدادات هائلة من الزمن والثقافة.

يبدو أيضًا أن العواطف الأخرى مثل الغضب والاشمئزاز تتميز بتأثيرات جسمية معينة. تكون هـذه الأعراض ثابتة جدًّا بحيث اقترح الباحثون من شارلز داروين Charles Darwin وصاعدًا أن بعض العواطف- على الأقل الخوف، والغضب، والاشمئزاز، والفرح، وربما الحزن والدهشة أيضًا- ملامح شاملة في النوع الإنساني. قد تختلف المواقف التي يعبر فيها عن هذه العواطف- فمثلًا يكبت اليابانيون عواطفهم في مواقف لا يظهر فيها الأمريكيون مثل هذا الكبت- لكن الأساليب التي يعبر فيها عن العواطف هي نفسها تقريبًا في جميع الأجناس. في عام 1960م عرض إيكمان Ekman وزملاؤه صورًا لتعبيرات الوجه الغربية لأفراد من قبائل ما قبل التعليم (السادونج في بورنيو والفور في غينيا الجديدة) الذين لهم اتصال سابق محدود فقط مع الغرب. كانوا قادرين على تحديد العواطف الغربية، وعندما طُلب منهم إظهار تعابير في وجوههم وصفية لموقف عاطفي (مثل: (مات طفلك)، (جاء صديقك وأنت سعيد))، كان من السهل على الغربيين تعرف تعبيرات وجوههم[1].

بالنسبة إلى هذه العواطف الأساسية، يبدو أن كثيرًا من الارتكاسات الجسمية المرتبطة بها ليست مشتركة من خلال البشرية فقط، وإنما مع حيوانات أخرى أيضًا، وفق ما اقترح داروين Darwin عام 1872م في كتابه **التعبير عن العواطف في الإنسان والحيوانات**؛ فالكلاب الغاضبة والرجال الغاضبون يزمجرون ويكشرون عن أسنانهم، في حين ينتصب شعر القطة الخائفة واقفًا تمامًا مثل شعر الرأس في وصف بو، نظرًا إلى أوجه التشابه هذه، والسن المبكرة جدًّا التي يبدأ فيها الرضيع بالتعبير عن المشاعر، بدا لداروين أن المظاهر الخارجية للعواطف الأساسية قد تكون ردود فعل فطرية. بعبارة أخرى، ترتبط العواطف ارتباطًا وثيقًا بالتغيرات الجسمية، وقد صاغ الأمر وليم جيمس William James، الأب المؤسس لعلم النفس: «إذا تخيلنا عاطفة ما قوية، ثم حاولنا أن نستخلص من وعينا لها جميع المشاعر المرتبطة بأعراضها الجسمية، فلن نجد شيئًا يبقى»، لا يوجد (مادة عقلية) يمكن أن تتكون منها العاطفة، وكل ما سيبقى هو حالة معتدلة وباردة من التصور الفكري[2].

المشاعر وعلم وظائف الأعضاء

تثير ملاحظة الشمولية في بعض العواطف على الأقل سؤالًا عميقًا طال الجدل فيه؛ هل يأتي الشعور بعاطفة ما أولًا، ويحفز الاستجابات الجسمية، أم أن الأمر على العكس من ذلك

تمامًا؟ وجهة النظر الديكارتية ستكون أن الأحداث في العقل تسبب تأثيرات في الجسم، ولأن الأسباب تسبق التأثيرات، فإن الشعور يأتي أولًا، لكن علم النفس الحديث اتجه نحو وجهة النظر المعاكسة، وكان وليم جيمس واضحًا في هذا الرأي:

«نظريتي- على النقيض- هي أن التغيرات الجسمية تتبع مباشرة تصور الحقيقة المثيرة، وأن شعورنا بالتغيرات نفسها وهي تحدث هو العاطفة؛ يقول المنطق السليم: نخسر حظنا فنتأسف ونبكي؛ ونقابل دبًا فنرتعب ونركض؛ ويهيننا منافس فنغضب ونهاجم، أما الفرضية التي يجب الدفاع عنها هنا فتقول إن هذا النظام من التتابع غير صحيح؛ فنحن نشعر بالأسف لأننا نبكي، وغضبنا لأننا هاجمنا، وخفنا لأننا نرتجف، لا أننا نبكي، ونهاجم، ونرتجف؛ لأننا آسفون، وغاضبون، أو خائفون، حسبما تكون عليه الحال».

جيمس James، **مبادئ علم النفس**، الصفحات 1065-1066.

James, Principles of Psychology, pp. 1065–6

كتب عالم الأعصاب أنطونيو داماسيو Antonio Damasio بصورة واسعة عن العاطفة في ثلاثيته: خطأ ديكارت Descartes، والشعور بما يحدث، والبحث عن سبينوزا Spinoza، وهو يتفق مع جيمس James في أنه عندما يتعلق الأمر بالعواطف فإن التعبيرات الخارجية تسبق الأحداث العقلية[3]. يحتفظ داماسيو Damasio بمصطلح (العاطفة) للتغيرات الجسمية الخارجية، ويستعمل مصطلح (الشعور) للعواقب الداخلية لهذه التغيرات. حاجج بعض المفكرين أن المشاعر الواعية هي مجرد تأثيرات جانبية لنشاط الدماغ، عاجزة عن الوظائف والتأثير كحلزون تزحف في مسار شاحنة.

واعترض داماسيو Damasio بأن العواطف تساعدنا على تقويم العالم من حولنا من خلال التقديم السريع لسمات إيجابية أو سلبية لأفكارنا وتصوراتنا. يسمي داماسيو Damasio هذه السمات (الواسمات الجسدية) -(واسمات من الجسم)- لأنه يجادل أنها تنشأ عندما نربط حالة جسمية معينة بحدث عقلي معين، فمثلما أن الطفل الذي يلسعه دبور يطوِّر مشاعر سلبية عن الدبابير، فإن الشخص الذي غضب عند مواجهته عدم كفاءة زميل في العمل -على سبيل المثال- سيطور شبكة معرفية تربط ذلك الزميل ليس فقط بمفهوم عدم الكفاءة، وإنما أيضًا بالأعراض الجسمية للغضب: ازدياد معدل ضربات القلب، وتوتر الفكين، وغيرها، وفي المرة القادمة التي سيقابل فيها ذلك الزميل، سيعاد تنشيط الشبكة المعرفية، فيزداد معدل ضربات القلب، وتوتر الفكين، ويؤثر في الطريقة التي سيعامل بها الزميل. كثيرًا ما نتكلم عن إعادة عيش

ذاكرتنا، وهذا حريٌّ خاصة بذكريات العاطفة: نتذكر غضبنا، فنجد أنفسنا في حالة غضب من جديد. في حالة الزميل غير الكفيِّ، قد تجعل العاطفة المتذكَّرة الشخص على أهبة الاستعداد ضد عدم الكفاءة في المستقبل، لكنها يمكن أيضًا أن تمنع إقامة علاقة جيدة.

الطرق المختصرة والمذكرات

العواطف، بعبارة أخرى، طرق مختصرة؛ هي في لغة علم النفس الاجتماعي دلالات. إنها تشجع، أو تحذِّر من السلوك، وتذكِّرنا أنه في آخر مرة واجهنا فيها هذا الموقف الخاص شعرت أجسامنا بهذه الطريقة الخاصة. قد نختبر بوعي، أو نفكر، أو نحلل، أو نُغلب بالعواطف؛ أو ربما توجِّهنا معطياتها من دون حتى أن ندرك ذلك. أظهرت التجارب أن الناس يمكن أن يتأثروا بالمثيرات العاطفية حتى لو كانت هذه المؤثرات تُدرك بصورة واعية؛ فمثلًا عندما عرضت بعض الرموز المجردة التي لم تشاهد من قبل، تأثر تقويم الناس لمقدار إعجابهم بهذه الرموز بكون الوجه الذي عرض كوميض قبل تقديم كل رمز سعيدًا أو حزينًا، وعلى الرغم من أن ظهور الوجوه واختفاءها كان أسرع من أن يُدرك بصورة واعية، فإن الناس أحبوا الرموز أكثر عندما تبعت وجوهًا سعيدة[4].

يحدث كثير من حياتنا العاطفية على هذا المستوى المنخفض غير المدرك. تتيح عملية العدوى العاطفية -التي نوقشت في الفصل الثاني- للناس بأن ينسقوا حركاتهم، وتعبيرات وجوههم، والمحادثة بسرعة كبيرة جدًّا وبدرجة عالية من الدقة، ولما كانت هذه التغيرات الجسمية مرتبطة -وبحسب جيمس وداماسيو James and Damasio سابقة- بالشعور بعاطفة ما، فسوف يجد المشاركون في أي تفاعل اجتماعي أن عواطفهم قد تأثرت بعواطف الأشخاص الذين يتواصلون معهم، لكن أكثر الناس لا يدركون إلى أي مدى يلتقطون، ويقلدون، ويعكسون الحالات العاطفية بعضهم لبعض. تشكل مثل هذه المشاركة بالعواطف ضغطًا اجتماعيًّا، مسهِّلًا الانسجام والشعور بالانتماء، كذلك فإن العواطف المشتركة يتغذى بعضها على بعض. التعبير الاجتماعي عن العواطف ليس عشوائيًّا ولا غير منطقي؛ إنه يخدم أغراضًا مفيدة جدًّا[5].

كما هي الحال مع المعتقدات، فالطبيعة المنيعة على الوصول إلى عواطفنا تساعد على أدائنا الفاعل في العالم؛ ليس لدينا الوقت للتأمل في كل شعور، تمامًا مثلما أنه ليس لدينا الوقت لتحليل كل تصور أو معرفة، وتمنعنا الطرق المختصرة من التوقف المفاجئ المربك والمميت،

ولكن التفويض -كما يعرف كل مدير- يمكن أن يحمل المخاطر إضافة للفوائد، وبصورة مشابهة يمكن أن تؤدي الثقة بعواطفنا إلى الحياد عن الواقع، وربما تشكل خطرًا، خاصة مع وجود أناس حولنا يعرفون كيف يتلاعبون بهذه العواطف لمصلحتهم الخاصة، ويمكن رؤية مثال على هذا التلاعب في بيان الالتزام الصادر عن واحد من أقل الأحزاب السياسية البريطانية شعبية:

«في حين أن إلقاء طالبي اللجوء على كاهل مجتمعاتنا هو أساسًا خطأ الحكومة، فإن مجالس الحزب الوطني البريطاني ستعمل بأقصى طاقاتها لمنع أن يلقى طالبو اللجوء على عاتق المناطق الخاصة بنا، وفي حين أننا لا نعتقد أن الموجة الحالية من طالبي اللجوء لها الحق في أن تكون في بريطانيا، ففي أثناء وجودهم هنا سنصر على أن المنافع التي يقدمها المجتمع المحلي يجب تسديد مقابلها من قبل طالبي اللجوء من خلال العمل في تنظيف الشوارع والقيام بمهمات أخرى نيابة عن المجتمع المحلي، ويجب ألا يكون ذلك على حساب وظائف التنظيف التي يقوم بها العمال المحليون في الوقت الحاضر. توجد كثير من القذارة التي يجب أن تنظف وترتب، ويجب ألا يعني هذا التوظيف أن يكون لهم أي أرضية قانونية لوضع إقامة».

الحزب الوطني البريطاني، بيان لانتخابات المجالس المحلية في المملكة المتحدة، مايو 2003م.

British National Party, Manifesto for the UK Council Elections, May 2003

لنضع المشاعر جانبًا وننظر إلى الكلمات في ضوء ما تعلمناه عن الشبكات المعرفية وكيفية تكونها؛ أشار الفصل الثامن إلى أهمية توقيت التحفيز، وشدته، وتكراره، في تقوية هذه الروابط العقلية. في الاقتباس المختصر أعلاه، ظهر مصطلح (طالبو اللجوء) أربع مرات، والكلمات الوحيدة التي تكررت أكثر هي (ال)، (من)، (إلى)، وهي كلمات شائعة نعطيها عادة الحد الأدنى من الاهتمام، وفي الوقت نفسه يتلقى دماغ القارئ بعض المثيرات اللفظية العاطفية. تجذب الكلمات الإيجابية مثل (نحن)، (الخاصة بنا)، (محلي)، (نيابة عن) القارئ نحو المجموعة الداخلية للحزب الوطني البريطاني. أما الكلمات السلبية: (إلقاء)، (قذارة)، (خطأ)، (على حساب)، فتدفع المجموعة الخارجية؛ طالبي اللجوء، بعيدًا. لاحظ كيف كان تأكيد التشبيه بالقذارة، في البداية باستخدام كلمات مثل (إلقاء) و(أن يلقى)، ولاحقًا بإصرار أكثر صراحة أن طالبي اللجوء يجب أن يقوموا بأعمال التنظيف الوضيعة، ويزيلوا القذارة التي أنتجها ما يفترض أنه الشعب البريطاني الأبيض الطيب، ولاحظ أيضًا وجود أفكار مقدسة مجردة: (طاقة)، (مجتمع)، (قانوني)، و(طالبو اللجوء)، وأنه ليس فيها أي محاولة للتمييز بين المحتالين

والأطباء، وبين المهاجرين لأسباب اقتصادية وضحايا التعذيب. لدينا هنا قطعة نثرية تقوم بعمل بغيض، تدس فيك بوساطته شبكة معرفية تتضمن فكرة أن جميع طالبي اللجوء قمامة (قد ترغب في تحليل هذه الفقرة من حيث محاولتي لأقوم العكس)، وتخدم العواطفُ التي حفَّزتها كلمات معينة في تقوية تلك الشبكة المعرفية. بعبارة أخرى، حتى العواطف الضعيفة التي تنشأ بقراءة النص يمكنها أن تفيد كمعززات للشبكة المعرفية، وإذ تكون العواطف المتولدة في أثناء غسيل الدماغ القسري، مثلًا في الطوائف الدينية، أكثر شدة بكثير؛ فإن قدرتها على تعزيز الشبكات المعرفية أكبر بكثير.

تنشأ العواطف من حالات الجسم، كثيرًا ما تتغير هذه الحالات بفعل أحداث مثل إطلاق الهرمونات؛ يطلق هرمون الأدرينالين -على سبيل المثال- استجابة لمواقف التوتر أو التهديد، مهيئًا الجسم لقتال منافس أو للهرب من مفترس. على الرغم من أن الهرمونات يمكن أن تفرز بسرعة كبيرة، فإن لها مدة نصف العمر (الزمن اللازم لاختفاء نصف الكمية الأصلية)، مثل النشاط الإشعاعي، وهو ما يعني أن تأثيراتها لا تختفي فورًا، ولهذا السبب يمكن أن نجد أنفسنا عقب شجار عنيف لا نزال نرتجف ولو بعد مدة طويلة من خروج المشاجر الآخر، وهذه هي أيضًا الكيفية التي تعمل فيها الدعاية. تستمر تأثيرات الكلمات العاطفية متسكعة بعد أن نكون قد انتهينا من قراءتها، ملوِّنة تصوراتنا للكلمات القريبة (مثل الباحثين عن اللجوء) بالطريقة نفسها التي تلوِّن فيها الوجوه الحزينة أو السعيدة تقويم الناس للرموز البصرية المجردة. يمكن أن يؤدي هذا الانزلاق مع الوقت إلى روابط غير صحيحة، فتربط الشبكات المعرفية الأفكار أو التصورات بالكيفية التي كنا نشعر بها في وقت محدد - التي يمكن أن تكون أو لا تكون ناجمة عن أيٍّ مما كان سبب الأفكار أو التصورات. إن أي شبكة معرفية تنشط ونحن لا نزال نشعر بالعاطفة يمكن أن تتخضب بها؛ ومشاعرنا بهذا المعنى غير متمايزة.

ولكن، إذا شعر الناس بعدم الارتياح من العواطف، فعادة لا يكون ذلك بسبب أنهم قلقون من تطوير تصورات سلبية لا مسوِّغ لها عن طالبي اللجوء؛ ما يهمنا بالعواطف هو قوتها، ها قد عدنا إلى الخوف نفسه الذي ينعش شبح غسيل الدماغ: الخوف من فقدان السيطرة، فيمكن أن يقتل الرجل المستشيط غيظًا بسبب الغيرةِ زوجته؛ ويقود يأس الاكتئاب إلى حسرة الانتحار. لا عجب أن اليونانيين صوروا العواطف على أنها حيوانات متوحشة تحاول الهروب من سلاسل العقل، أو إناثًا من أشباح الانتقام اللواتي يقدن الرجال المذنبين إلى هلاكهم. خوفنا هو الخوف

من أن نُجرف بعيدًا، أن نجد أنفسنا في حالة نكون فيها كما تشكو الجوقة في ملحمة أورستيا Oresteia، «منطق السليم، سبب البسيط/ لا نستطيع الحصول على الأكسجين»، نعيث فيها كل أنواع الخراب على مصلحتنا الذاتية المنطقية.

لماذا تبدو بعض العواطف قاهرة جدًّا؟ قد يكون جزء من الإجابة -كما أشار داروين Darwin- هو أن العواطف قديمة من ناحية تطورية، فهي تعمل مفاتيحَ إبطال في حالات الطوارئ، في الأوقات التي لا يسعنا فيها معالجة جميع المعلومات بصورة تامة، وعندما تتجاوز سرعة رد الفعل الفجوة بين الانقراض والبقاء. عندما نكون في قبضة عاطفة قوية فلا يمكننا التفكير في أي شيء آخر، ولا نستطيع أن نقرر ألا نشعر أو ندع العاطفة جانبًا إلى ساعة أكثر ملاءمة. إن العواطف السلبية مثل الخوف، شديدة الإلحاح على وجه الخصوص، وكما أشار عالم النفس ألكسندر باين Alexander Bain، «عندما نكون تحت تأثير عاطفة قوية تبقى جميع الأشياء المتعارضة معها متوارية عن الأنظار، إذ يجرف فيضان العاطفة أحيانًا في تلك اللحظة كل أثر للمعارض فيغيبه، كما لو أنه لم يكن في أي وقت من الأوقات حقيقة واقعة»[6]، وبالعودة إلى التشبيه التمثيلي المستخدم في الفصل السابق، فالعاطفة تشبه تيارًا جارفًا معبأ في رؤوسنا، يحرر التصرف التدفقَ، ويخفف مياه الفيضان، ويقلل عدم الانسجام الذي سببته العواطف القوية.

يمكن أن يكون تخفيف التوتر المصاحب لهذا التنفيس بذاته إحساسًا ممتعًا، وهو أحد أسباب تطور كثير من ثقافتنا بغرض تحفيز عواطفنا. يحدث ذلك غالبًا بأسلوب معتدل تحت السيطرة، وهذا من حسن الطالع؛ فقد صممت التغيرات في وظائف الأعضاء التي تكمن وراء العواطف لتكون مقتضبة. من ناحية تطورية، كانت العواطف من أجل حالات الطوارئ؛ فعلى سبيل المثال يستحق الخروج من موقف خطير المخاطرة بالآثار السلبية لارتفاع مفاجئ في الضغط الدموي، ولكن عندما تصبح الاستجابة العاطفية محفزة بصورة مزمنة، فإنها يمكن أن تسبب ضررًا متراكمًا. الأشخاص الذين يخبرونك أن التوتر يسيء لك هم على حق؛ إذ تزيد المستويات العالية من التوتر من احتمال الإصابة بالاكتئاب والإصابات الإنتانية، وتترافق مع إنذار أسوأ في حالات مثل أمراض القلب الإكليلية. خطر أن نكون عرضة لأن تنال منا الأمراض أقلُّ هذه الأيام، ولكن بسبب قدرتنا على ربط العواطف القوية بالمفاهيم المجردة، يمكننا أن نعاني استجابة توترية لأحداث أو أشياء لم يكن لأسلافنا حتى أن يفهموها.

إجهاد الدماغ

ما الذي يحدث عندما نتوتر؟ التوتر من ناحية وظائف الأعضاء ظاهرة متعددة الأوجه؛ فعندما يواجه شخص ما منبهًا يسبب التوتر يستجيب دماغه بتنشيط الأعصاب في سائر الجسد، يزيد معدل ضربات القلب، ويحفز إطلاق هرموني الأدرينالين والنور أدرينالين؛ هذان الهرمونان يهيئان الجسمَ لحالات (الكر أو الفر)، وذلك بزيادة تدفق الدم إلى العضلات والدماغ، وهو ما يجعل الخلايا العصبية أكثر حساسية للإشارات الواردة، ويوسع الحدقة حتى تستطيع العين أن تكشف الأخطار القادمة بصورة أفضل، وينخفض تدفق الدم إلى مناطق أخرى مثل الجلد والقناة الهضمية التي لا تكون متطلباتها الاستقلابية ملحَّة لترشيد الموارد، ثم يتبع ذلك إطلاق الهرمونات القشرية السكرية (الكورتيزون) الذي يغيِّر الاستقلاب لتحرير مزيد من الطاقة من الشحوم المختزنة، ويسمح بوصول المزيد من سكر العنب إلى الدماغ وتنشيطه. كل هذا التنشيط مفيد جدًّا لتفادي المفترسات، ولكن إذا كان المثير المسبب للتوتر متواصلًا، فيمكن أن تتلف المستويات العالية من الأدرينالين والهرمونات القشرية القلبَ والعضلات، وترفع الضغط الدموي، وتضعف الجهاز المناعي، فتترك الشخص أكثر عرضة للإصابة بالإنتانات.

يزيد التوتر في الدماغ -كما ذكرنا سابقًا- من اليقظة، فتوضع الخلايا العصبية في حالة تأهب قصوى لأي إشارة قادمة، ويصفي الدماغ عادة مقدارًا كبيرًا من المعلومات قبل وصولها إلى قشرة الدماغ، ولكن في أثناء الاستجابة للتوتر تبقى هذه المصافي مفتوحة حتى يتدفق المزيد من الإشارات، غير أن قدرات الخلايا العصبية على المعالجة محدودة، وعندما تواجه حالة مستمرة من التأهب العالي فإنها ترهق، فتستجيب بصورة أقل فأقل إلى الإشارات الواردة (ظاهرة تسمى التعود)، هذا هو الجانب السلبي من شهية دماغنا للتغيير والتجديد؛ أن الخلايا العصبية تميل إلى التهيج بصورة خاصة عند تغيرات الوارد، لكن أبقِ الإشارة ثابتة فتفقد الخلايا الاهتمام، ظهور خبر مثل غناء الرئيس الأمريكي في أوبرا جون آدامز John Adams (نيكسون في الصين)، فيه نوع من الغموض. عرف أصحاب الإعلانات جاذبية الجديد منذ قرون وما زالوا يستخدمونها اليوم، ويشير براتكانيس Pratkanis وآرونسون Aronson في كتابهما **عصر الدعاية** Age of Propaganda إلى أن (الإعلانات التي تحوي الكلمات: جديد، سريع، سهل، محسّن، الآن، فجأة، مدهش، وتقديم؛ تبيع منتجات أكثر). خمس من هذه الكلمات

الثمانـي: (جديد)، (محسَّـن)، (الآن)، (فجأة)، و(تقديـم)؛ تلتقطها أعيننا بتأكيدها الصريح على التغيير.

ولكـن كثيـرًا مـن المعلومات الجديدة تجعلنا نشـعر بأننا مثقلون، خاصـة إذا بقيت موجودة باستمرار، إذ لم تنشأ استجابات الكر أو الفر للتعامل مع التوتر الشديد المزمن، وإنما مع الأخطار قصيـرة المـدى. إن القشـرة الأمـام جبهيـة الذي يعتقـد أن له دورًا كبيـرًا في تنظيم استجابات التوتر، عرضة بصفة خاصة للأحداث التي تسـبب توترًا شـديدًا مثل الإسـاءة، خصوصًا في وقت مبكر من الحياة، وهذا ذو أهمية كبيرة بالنسبة إلى غسيل الدماغ الذي يعتمد على إحداث التوتر؛ لأن المناطـق أمـام الجبهية -كما سـنرى فـي الفصل العاشـر- تقدم دفاعات مهمـة ضد تقنيات التأثير، ويمكن أن يساعد التوتر المحرَّض في غسيل الدماغ على تحطيم هذه الدفاعات.

لاحـظ المعلقون على غسـيل الدماغ أن بعض الضحايا أفضل قدرة في التعامل من غيرهم؛ وسـبب ذلـك أن اسـتجابات التوتـر الفردية تختلـف بصورة كبيرة من شـخص إلى آخـر[7]، وتعزى هـذه الاختلافـات إلـى كل مـن التنـوع الوراثـي والخبـرة الشـخصية؛ إذ تتفاعـل المورثـات مـن وقـت الوجـود فـي الرحـم فصاعـدًا مع العوامـل البيئية لتؤثـر في التطـور. والتوتـر المبكر بصفة خاصـة (حتـى فـي وقـت مبكر جـدًّا كأم تعاني توتـرًا كبيرًا فـي أثنـاء الحمل) يمكـن أن يزيد من الحساسـية التي تسـتجيب فيها مناطق الدماغ مثل القشرة الأمام جبهية للمؤثرات المسببة للتوتر فـي المسـتقبل، فتحدد خط الأسـاس لمسـتويات القلق طوال الحيـاة[8]، يأتي المثـال البيِّن للفروق الفرديـة فـي الحساسـية تجـاه التوتر مـن البحوث فـي اضطـراب الشـخصية المعاديـة للمجتمع (ADP) Antisocial personality disorder. في دراسـة عن صور الدماغ لمتطوعين ذكور مصابين باضطراب الشـخصية المعادية للمجتمع وغيرِ مصابين، عُرِّض المشاركون لعامل توتر اجتماعي (طُلب منهم إعداد خطاب وإلقاؤه في أربع دقائق)، وقاس الباحثون استجابات التوتر الأساسية، مثـل معـدل ضربـات القلـب، وحجم القشـرة الأمـام جبهيـة[9]؛ فكانت القشـرة الأمـام جبهية لدى المشـاركين المصابيـن باضطراب الشـخصية المعادية للمجتمـع أصغر بكثير، وكانـوا أقل توترًا بكثير؛ فكان معدل ضربات قلوبهم في المتوسط أبطأ بثماني نبضات في الدقيقة من أقرانهم غير المصابين باضطراب الشخصية المعادية للمجتمع.

على الرغم من الأذى الذي يمكن أن تسـببه العواطف القوية في وظائف الأعضاء، فقدرتها على غمر التفكير المنطقي قد وجد مفيدًا بذاته في بعض الأحيان، ويمكن أن يشل التفكير الكثير

عملية اتخاذ القرار، ويسبب الاكتئاب في بعض الحالات. تضيِّق العواطف القوية تركيز الوعي إلى ما هو مباشر، فتشجع التفكير القصير المدى وتحجب الأفكار البعيدة المدى التي كثيرًا ما تكون أفكارًا سلبية: أخطار التدخين، والمشكلات التي ستواجهها إذا ضربت فعلًا رئيسك في العمل. إذا لم أرغب في الانزعاج من عواقب أفعالي، فالتصرف بعاطفية طريقة جيدة في تجنب التفكير فيها، ولا يعني ذلك بطبيعة الحال القول إن جميع العواطف لها هذا التأثير الحجابي، قد تعزز العواطف المعتدلة التحيز، لكنها يمكن أيضًا أن توفر إرشادات مفيدة لتلوين المشهد المعرفي وتثقيفه. بُني كتاب داماسيو Damasio **خطأ ديكارت** Descartes على موضوع أن العواطف كثيرًا ما تساعد المنطقية، وأنها أساسية في العمل الاجتماعي الفاعل. كثيرًا ما يشار إلى الرجال الآليين، وأجهزة الحاسوب، وأجهزة الهواتف الذكية، على أنها مثل عليا في الآلية المنطقية، ولكن ليس هناك كثير من الناس يريدون فعلًا أن يكونوا رجالًا آليين، أو حواسيب، أو هواتف ذكية. نعتقد -محقين- أن العواطف مظهر حيوي في حياتنا.

عذر العاطفة

إن النزعة الطبيعية للعواطف في أن تجعلنا نفقد السيطرة ونفعل أشياء لا نود فعلها (أي لا نفعلها في لحظاتنا الأكثر رصانة) معروفة جدًّا، بحيث إنها كثيرًا ما تُستَخدم مسوِّغًا لتصرفات مريبة؛ لكن، هل مثل هذه المسوِّغات مقبولة؟ في هذه النقطة يجدر بنا النظر في دور الالتفات إلى الوراء والتفسيرات في تقويمنا لحالاتنا العاطفية الخاصة بنا؛ فقد ينظر المدير الذي اضطر إلى تسويغ الإساءة اللفظية لأمينة سره إلى الوراء؛ إلى انزعاجه في تلك اللحظة، ويعيد تفسيرها -تحت ضغط عدم الرضى الاجتماعي- على أنها نوبة غضب مشتعل، قد يكون ببساطة كاذبًا، ولكن -لأن تذكر العواطف يمكن أن يقويها في الواقع- فقد يصل بصدق إلى الاعتقاد أنه كان ثائرًا، ويعتمد كونه يعتقد بأن الغضب قد طغى عليه، ومن ثم لم يتمكن من منع نفسه من الإساءة إلى موظفته، على اعتقاده أن العواطف يمكنها -وهي تفعل- أن تطغى على جميع القيود المنطقية.

لدى عالم النفس الاجتماعي روي باوميستير Roy Baumeister ما يقوله عن فكرة (الدافع الذي لا يقاوم) ومرافقها الحديث، المورثة أو المورثات المعيبة التي يمكن أن تجعل المرء سمينًا أو مدمنًا أو مجرمًا.

أصبحت ثقافتنا في الآونة الأخيرة مولعة على نحو متزايد بفكرة (الدوافع التي لا تقاوم) وأن البنية الوراثية تسبب الإدمان، لكن في البحوث على السيطرة على الذات، يبرز استنتاج واحد مرارًا وتكرارًا: إذعان الناس في فقدان السيطرة؛ بعبارة أخرى هم يسمحون لأنفسهم بفقدان السيطرة، ويصبحون مشاركين نشيطين. سواء كانت مسألة كسر حمية غذائية، الذهاب إلى حفلة، أو التخلي عن مهمة غير سارة، عادة يسمح الشخص بحدوثها بطريقة أو أخرى، وينطبق الأمر نفسه على العنف. مفهوم الدافع الذي لا يقاوم مضلل إلى حد ما؛ لأن معظم السلوك العنيف ليس في الحقيقة نتيجة للدوافع التي لا تقاوم. يسمح الناس لأنفسهم بفقدان السيطرة، ويفعلون ذلك جزئيًا لأنهم تعلموا عَدَّ بعض الدوافع لا تقاوم؛ فمثلًا يتحدث الناس كما لو أن حفلات الأكل والشرب الصاخبة هي ببساطة مسألة طغيان دوافع قوية عليهم تجعلهم سلبيين وعاجزين، لكنهم يستمرون خلال هذه الحفلات بجلب الطعام أو الشراب، يحضِّرونها للتناول، يضعونها في أفواههم، ويبتلعونها، وهذه أفعال فاعلة وليست منفعلة. قد تكون مقاومة الدافع صعبة جدًا بالنسبة إليهم، لكن ليس أنهم ببساطة توقفوا عن المقاومة، وإنما أصبحوا شركاء نشطين في إشباع رغباتهم.

باوميستير Baumeister، **الشر**، الصفحات 274–275.

Baumeister, Evil, pp. 274–5

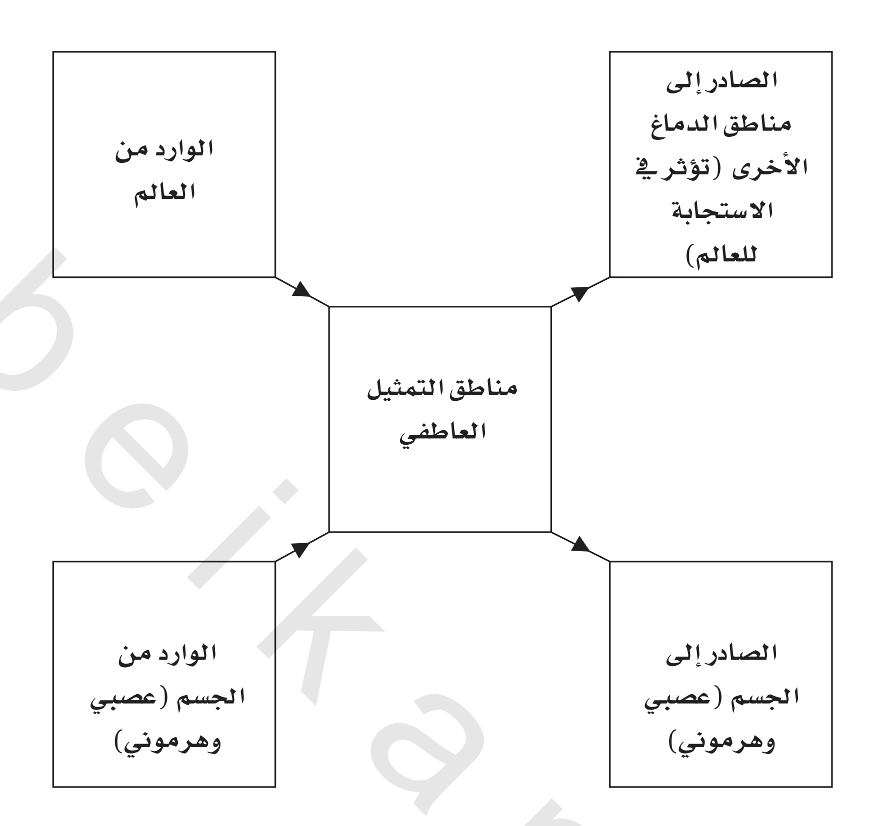
فيما يتعلق بالسيطرة على الذات، يحاجج باوميستير Baumeister أنه عند الاستسلام لدوافع لا تقاوم فإننا «نختار أن نخسر» بطريقة ما، وأن نتجاهل التحفظات العادية أو ننحيها جانبًا، أو أن نضع أنفسنا في موضع سنكون مجبرين فيه على فقدان السيطرة. بالتأكيد كلما كانت تلك التحفظات أضعف، كان تجاهلها أسهل. كيف تطبق هذه التحفظات في الدماغ؟ كيف يمكن تقويتها؟ وهل لدينا سلطة الاختيار؟ ستكون موضوعات مهمة في الفصلين القادمين من هذا الكتاب؛ قبل ذلك يكفي القول إنه على الرغم من أننا لا نستطيع في كثير من الأحيان السيطرة على عواطفنا، فإنه قد يكون لدينا سيطرة أكثر مما نعتقد على تصرفاتنا التي تميل إلى التدفق من هذه العواطف، لكن ممارسة مثل هذه السيطرة تتطلب تفكيرًا معقدًا بعيد المدى، وتخطيطًا إلى الأمام، وتجنبًا للمواقف التي يمكن أن تقود إلى العواطف القوية، وأخذ العواقب بالحسبان؛ جميع القدرات التي تضعف عندما تصر عواطفنا القوية على أنه يجب التركيز في هنا والآن. يمكن خلق هذا التضييق في التركيز في الحاضر الآني بوساطة التحريض المتعمد

للعواطف، وهي إستراتيجية جذابة لفنيي التأثير؛ لأنها تكبت كثيرًا من الأفكار الثانية التي قد تكون لدى الضحايا.

إغراق الدماغ

ما الذي يحدث في الدماغ عندما نشعر بعاطفة؟ مما سبق قوله، يبدو أن العواطف تُشتق من الأحداث الجسدية؛ لذا نتوقع مشاركة المناطق تحت القشرية من دماغنا في مد جسر على الفجوة بين الجسم والقشرة، ناقلة معلومات عن الجسم إلى القشرة. يتطلب هذا أولًا منطقة أو مناطق تحت قشرية ترتبط بكل من المناطق القشرية ومناطق السيطرة على الإشارات الصادرة في أخفض مستويات الدماغ؛ في جذع الدماغ، ويمكن أن تمثل هذه المناطق على وجه التحديد المعلومات المرتبطة بالعواطف؛ لذا سوف أشير إليها بمناطق التمثيل العاطفي (انظر الشكل 1-9)[10].

تستقبل مناطق التمثيل العاطفي معلومات من العالم تخبرها عن المثيرات المكتشفة، مثل المفترسين الذين يقتربون؛ فتصل إشارة أولية فجة بسرعة عالية من المهاد، وتأتي إشارات أخرى أبطأ معالجة بصورة كبيرة من المناطق الحسية القشرية، وكذلك فإن مناطق التمثيل العاطفي تستقبل وتمثل الإشارات الواردة من الجسم التي تخبرها عن معدل ضربات القلب، والضغط الدموي، ومستويات الهرمونات، وغير ذلك. بعض هذه الإشارات الواردة عصبية، بمعنى أنها تأتي بوساطة أعصاب تربط الأعضاء الداخلية بالدماغ، وبعضها من الغدد الصماء (هرمونية)؛ فبعض الخلايا العصبية لديها مستقبلات يمكن تنشيطها بوساطة الهرمونات، وهو ما يتيح لتلك الخلايا مراقبة مستويات الهرمونات. ترسِل مناطق التمثيل العاطفي إشارات صادرة إلى جذع الدماغ، وهو ما يتيح لها تنظيم معدل ضربات القلب، والتنفس، ووظائف الجهاز الهضمي (من ثم التأثيرات البائسة التي يمكن أن تنجم عن الخوف الشديد)، ووظائف أخرى في الجسم لا نفكر فيها كثيرًا عادة، لكننا نحتاج أن نوليها انتباهًا كاملًا عند وجود حالة طارئة نتعامل معها، وترسل مناطق التمثيل العاطفي أيضًا إشارات إلى الغدة النخامية؛ وهي انتفاخ صغير في قاعدة الدماغ تنظم مستويات الهرمونات، ترسل كذلك معلومات إلى مناطق أخرى من الدماغ أيضًا، خاصة إلى الفصوص الجبهية من القشرة، ومن ثم تقدم الأساس لتجربة واعية تمامًا ومفسَّرة لعاطفة ما.



الشكل 1-9 رسم تخطيطي للإشارات الواردة التي تستقبلها مناطق التمثيل العاطفي والإشارات الصادرة التي ترسِل لها مناطق التمثيل العاطفي المعلومات. تشير الأسهم إلى اتجاه تدفق المعلومات، على الرغم من التبسيط الزائد فيها؛ عمليًّا، الاتصالات العصبية ثنائية الاتجاه بصورة كبيرة.

الشعور بما نعتقد أننا يجب أن نشعر به

لماذا أُؤكد تلك النقطةَ الأخيرة؟ لأن البحوث قد أظهرت أن الكيفية التي نفسر بها أجسامنا لا تعتمد على ما تخبرنا به فحسب، وإنما أيضًا على ما كنا نفكر به في ذلك الوقت. في عام 1962م نشر عالما النفس ستانلي شاشتر Stanley Schachter وجيروم سنجر Jerome Singer نتائج تجربة، أصبحت- على الرغم من كونها خلافية جدًّا (انظر أدناه)- نموذجًا كلاسيكيًّا في الأدب العلمي[11]؛ وفيها أُخبر المشاركون أنهم سيختبرون تأثيرات مؤقتة لمركب فيتاميني، ولكنهم أُعطوا في الحقيقة حقنات إما من الأدرينالين أو من دواء وهمي (مادة ليس لها تأثير في وظائف

الأعضـاء)، وأُخبـر بعضُهم أن الحقنة سـتجعلهم أكثر يقظة (كما يفعـل الأدرينالين في الواقع)، وأخبر آخرون أنها ستجعلهم أكثر تعبًا (وهو حتمًا ما لا يفعله الأدرينالين)، وبعضهم لم يخبر عن التأثيرات الجانبية المحتملة.

مـا الذي حدث؟ شـعر المشـاركون الذيـن تلقوا الأدرينالـين وأُخبروا بأن الدواء سـينبههم، باليقظـة، فلـم يكونـوا بحاجـة إلى البحث فـي مكان آخر لتفسـير انتباههـم: «لقد فعلهـا الدواء»، والأمر مجرد ذلك، ولكن الذين لم يُخبروا بأي شـيء، أو من أخبروا (كذبًا) أن الدواء سـيجعلهم متعبين، لم يتمكنوا من إلقاء المسؤولية على الدواء، وكان عليهم البحث عن تفسير آخر لما كانت تخبرهم به أجسامهم.

قدَّم شاشـتر Schachter وسـنجر Singer بذكاء تفسيرات بديلة بالاعتماد على قدرة الإنسان علـى التقـاط العواطـف مـن الأشـخاص الآخريـن، كان هنـاك متحالف ضمـن المشـاركين، وهو شـخص لم يعرف المشـاركون أنـه كان في الواقع يعمل في التجربة، وقـد تظاهر هذا الحليف أنه إمـا سـعيد جـدًّا أو غاضب جـدًّا. توقع شاشـتر Schachter وسـنجر Singer أن وجود شـخص يبدو سعيدًا أو يبدو غاضبًا (الذي يعتقد المشاركون أنه أُعطي الدواء مثلما أعطوه) سيتيح للمشاركين تفسـير أحاسيسـهم الخاصـة؛ «لقد أخذ الدواء، وهو سـعيد، أنـا أخذت الدواء لذلك ما أشـعر به يجب أن يكون سعادة»، ونجح الأمر. تداخلت تفسيرات المشاركين لسلوك المتحالف مع الإشارات الداخلية من أجسـامهم (الناتجة من حقن الدواء)، بحيث فسَّـر المشـاركون هذه الإشارات على أنها إما سعادة أو غضب، ومن ثم يؤثر ما نفكر به في ما نشعر به، والعكس صحيح.

كانت نتائج تجارب شاشـتر Schachter وسـنجر Singer مشكوكًا بها أخلاقيًّا وعلميًّا، وفق ما بيَّن ذلك كثير من علماء علم النفس الاجتماعي[12]، ومع ذلك تظل دراسـتهم رئيسـة في كتب علم النفـس الاجتمـاعي. قد يكون أحد أسـباب هذه الشـعبية المسـتمرة ربطها لمجاليـن ينظر إليهما تقليديًّـا علـى أنهمـا منفصـلان: المعرفـة والعاطفة. عندما نشـعر بعاطفـة ما، فـإن المثير الذي يحرض تلك العاطفة والاستجابات التي تثيرها في أدمغتنا وأجسامنا تتفاعل مع (تاريخ إشاراتنا الواردة) المختزن لإنتاج آلية مسـتمرة من التقييم والتفسـير. نستخدم هذا التفسير العاطفي في تقرير كيف نصنف أحاسيسـنا. يتفاعل علم وظائف الأعضاء وعلم النفس ويؤثران كل منهما في الآخر لإنتاج الشعور العام الذي نحس به.

أنظمة العاطفة

إذا كان الشعور بعاطفة ما ناتجًا عن تفاعل تغيرات جسمية مع تفسيرات معرفية، ولأننا نعرف أن التفكير بعاطفة ما يمكنه استحضارها، فإننا نتوقع أن يكون الاتصال بين مناطق التأثير العاطفي والمناطق القشرية التي تشترك في معالجة العاطفة ثنائي الاتجاه. لأننا نعرف أن لدينا على الأقل بعض السيطرة على عواطفنا، فإننا نتوقع أن تكون المناطق القشرية المشاركة في معالجة العاطفة قادرة على كبح جماح نشاط المناطق المنخفضة، تحت القشرة، وعلاوة على ذلك فالاستجابات العاطفية معقدة وتتضمن سلوكات مختلفة عديدة، وتحصل في أوقات مختلفة؛ بدءًا من تغيرات أولية في معدل ضربات القلب، إلى التعديلات البطيئة لعضلات الوجه الذي يؤدي إما إلى زمجرة أو إلى ابتسامة، وهذا يستدعي مجموعة معقدة ومتداخلة من الضوابط: لا توجد دائرة إشارات واردة- إشارات صادرة بسيطة يمكن أن تكون مرنة بما يكفي لتغطية جميع هذه الخيارات. في الحقيقة هذا ما وجده علماء الأعصاب: تفاعلات متعددة بين مناطق مختلفة من الدماغ من القشرة إلى جذع الدماغ، تساعد جميعها على وضع نظام دقيق متناغم من التعبير. تطورت الدارات البسيطة في المخلوقات البسيطة لمساعدتها على معرفة المفترس من الفريسة، ويمكن أن تتعلم المخلوقات الأكثر تعقيدًا أن المفترس يكون أحيانًا خارج المجال، أو أن الفريسة لا يمكن الوصول إليها، أما نحن البشر فلا نستطيع فقط تمييز التهديد من الوعد فحسب، وإنما يمكننا أن نلتقط ألف ظل خفي من الرغبة والرهبة، والأمل والخداع، والحب والغيظ، لقد أصبحنا قارئي عقل مدهشين؛ ليس بمعنى التخاطر عن بعد، بل بمعنى أننا قادرون على معرفة الفرق بين الابتسامة التي تعني (أنا أحبك) والابتسامة التي تعني (أنا أحبك، ولكن...)، ولتعلُّم المزيد عن ذلك يتعين علينا الانتقال إلى مناطق التأثير العاطفي نفسها.

الأدمغة ذات الشعور

يقع عميقًا في كل نصف من نصفي الدماغ، متوضِّعًا تحت الفص الصدغي، تجمُّعٌ من الخلايا يشبه تقريبًا حبة اللوز، يسمى اللوزة. تحدث أشياء غريبة عندما تحصل تلف للوزة، بسبب حادث عند قليل من الناس سيئي الحظ، أو عمدًا في تجارب على القردة، فيفقد الضحايا شعور الخوف بصورة غريبة، وقد ينخرطون أيضًا في مزيد من السلوك الاجتماعي؛ فالقرد الذي

تـأذت لوزتـه لطيـف جـدًّا، وشـجاع جدًّا بحيـث إنه يمد يـده من دون اكتـراث فوق أفعـى مطاطية ليلتقط عنقودًا من العنب ويعود مرة أخرى لاستكشـاف الأفعى، في حين سـيكون من العسـير على القـردة الذيـن لم تتـأذَّ لوزاتهم أن يلتقطـوا العنب، ولن يلمسـوا أبدًا الأفعى، يبـدو أن تلف اللوزة تمنع القردة (والبشر) من ربط الأشياء بالعواطف؛ قد يكون نظرهم طبيعيًّا، لكن يبدو أنهم غير قادرين على إدراك الأهمية العاطفية لما يتعرَّفونه.

يعطينا السيرك المأساوي لعلم الأعصاب عرضًا آخر عن سبب اكتساب اللوزة هذه الأهمية؛ فمتلازمة كابجراس Capgras Syndrome حالة نادرة مروعة يعتقد المصاب بها أن أقرب النـاس إليـه وأعزهـم عليه لم يعودوا حقيقيين، وأنهم قد اسـتبدل بهم رجـال آليون ومنتحلون[13]، يبدو أن ما يحدث في متلازمة كابجراس هو أن التلف يؤثر في الروابط بين اللوزة وقشر الفص الصدغي (الـذي يعالـج الصـور البصرية، ومنها الوجـوه). يسـتطيع المصاب بمتلازمة كابجراس تعرف الأشـخاص بصـورة طبيعية، ولكن عندما يظهر شـخص محبب إليه، يغيب وهـج المحبة المعتاد؛ أي المعنى الذي يجعل من ذلك الوجه شيئًا مميزًا، فلا تصل الإشارة العاطفية أبدًا إلى القشرة، ويرى المريض شخصًا يبدو مألوفًا، لكنه لا يشعر نحوه شعورًا مألوفًا. مثل المشاركين في تجارب الأدرينالين لشاشـتر Schachter وسـنجر Singer الذين فسـروا مشاعرهم بناءً على تعبيرات وجوه الناس الآخرين، يفسر المصاب بمتلازمة كابجراس أحاسيسه الغريبة بالرجوع إلى شيء مألوف؛ فكرة الممثل، أو المنتحل، أو الرجل الآلي.

يسـتخدم مرضـى الفصـام أيضًـا التفسـيرات الثقافيـة لتعليـل الأعـراض المحيِّـرة، مثـل الأحاسيس بـأن أفعالهـم ليسـت أفعالهـم هـم، أو أن أجسـامهم يسـيطر عليهـا مصـدر خارجـي (أوهـام السـيطرة). كان الإلـه والشـيطان فـي الأزمنـة السـابقة همـا من يشـير إليهما الفصاميـون بممارسـة تلـك السـيطرة، ولكنهمـا يواجهـان فـي العالـم الغربـي الحديث منافسـة شـديدة على قائمة المسـيطرين في عقـول الفصاميين لا سـيما من وكالة المخابـرات المركزية والمخلوقات الفضائية.

ترتبـط اللـوزة مـع تحـت المهاد الـذي يرتبط بـدوره بغدة فـي قاعـدة الدماغ تسـمى الغدة النخاميـة التـي تفـرز، محفـزة مـن قبـل تحـت المهـاد، مجموعة مـن الإشـارات الهرمونيـة التي تنظـم، ضمـن أشـياء أخـرى، النمـو والتطـور، والجـوع والعطش، وإفـراز الأدرينالـين مـن الغدة الكظريـة، وتعمـل الغـدة النخاميـة -مثـل العصـب الـذي يعطـي الإشـارة للعضلـة- علـى إصـدار

إشـارات مـن الدمـاغ، تحملهـا جزيئـات الهرمـون بـدلًا مـن محـور الخلية العصبيـة. ويمكـن أن يـؤدي تلـف تحـت المهـاد إلى اضطـراب كبير في تنظيـم الأنظمـة الهرمونية في الجسـم، ويمكن أن يـؤدي إلـى مجموعـة واسـعة مـن التأثيـرات المزعزعـة للاسـتقرار، من تغيـرات الشـهية إلى الغضب العارم.

ترتبـط كل مـن اللوزة وتحت المهاد بمسـمى جذاب هو المنطقـة الرمادية المحيطة بالقناة المخية (periaqueductal grey (PAG التي ترسل إشارات مباشرة إلى دارات في جذع الدماغ الذي يسيطر على كثير من وظائف الجسم؛ إنه محطة الإشارات الصادرة للمعلومات العصبية الذاهبة إلى الجسم. يؤدي تنبيه المنطقة الرمادية المحيطة بالقناة المخية في المرضى من البشر الذين يخضعـون لعمليـة جراحيـة على الدماغ (التي كثيرًا ما تجرى على مريض واع) إلى مشـاعر خوف شـديد وقلـق ورهبـة من موت وشـيك، وهي عواطـف لا تعزى ببسـاطة إلى تجربـة الخضوع لعملية جراحيـة على الدماغ. ترتبط اللوزة، وتحت المهـاد، والمنطقة الرمادية المحيطة بالقناة المخية بتجمعات خلوية تقع قريبًا من وسـط المهاد. ترسـل هذه الخلايا معلومات إلى القشرة التي ترسل بدورهـا إشـارات عائدة إلى المهاد، وتحت المهاد، واللـوزة، والمنطقة الرمادية المحيطة بالقناة المخية (انظر الشكل 2-9).

لا تذهـب الإشـارات مـن مناطـق التأثيـر العاطفـي فـي الدمـاغ المتوسـط مثـل اللـوزة إلـى الدوائر الحركية في جذع الدماغ فحسـب، بل يمكنها أيضًا أن تنظم نشـاط نويات معينة في جذع الدمـاغ تتدخـل في الاسـتيقاظ والنـوم، والمـزاج، واليقظة العامة، والحذر. ترسـل هـذه النويات امتـدادات لجميـع مناطـق الدمـاغ باسـتخدام النواقـل العصبيـة الدوباميـن، والنـور أدرينالين، والسـيراتونين، والأسـتيل كوليـن (يرتبط كثير مـن العقاقير التي تغيِّر العقـل أو تغير المزاج بهذه النواقـل العصبيـة، وتؤثـر فـي هذه المسـارات واسـعة النطاق). هذا أحد أسـباب كـون العواطف منتشـرة جدًّا ويصعـب تجاهلهـا، ومـن ثـم سـبب كونهـا أدوات مفيـدة لفنيـي التأثيـر، وعندمـا يحرض شـيء مـا ردة فعـل عاطفيـة، فقد يُجنِّـد معظـم الدمـاغ للتعامل معها، تـاركًا مـوارد أقل للأفكار الثانية.

كثيـرًا مـا يوفر التصويـر العصبي الذي يمكن أن ينظر داخل دماغ الإنسـان الحي وهو ينفذ عملًا ما، صورًا للدماغ تظهر فيه بقع مضيئة قليلة تتوهج على خلفية داكنة، مثل أضواء المصابين بالأرق في بلدة ما في وقت متأخر من الليل. في الواقع، تتغير أنماط النشـاط العصبي في معظم

المهام -حتى أبسطها- في جميع أنحاء الدماغ، ولفهم هذا التعقيد، وضع العلماء عتبة تمنع أخذ معظم التغيرات بالحسبان عدا أكثرها إثارة للانتباه، وإرسال أي شيء آخر إلى الظلام. الحديث عن (مناطق الدماغ التي تشترك في...) هو حديث عن انتباه، ووضع خطة عمل، وتنظيم التحفيز، وحل التضاربات بين مناطق الدماغ الأخرى، وقد تساعد على حل مشكلة الرغبات غير المتلائمة بحيث لا تتوقف العملية توقفًا كاملًا، فتتركنا نجوع حتى الموت لأننا لا نستطيع الاختيار بين الكورمة ودجاج تيكا مسالا tikka masala.

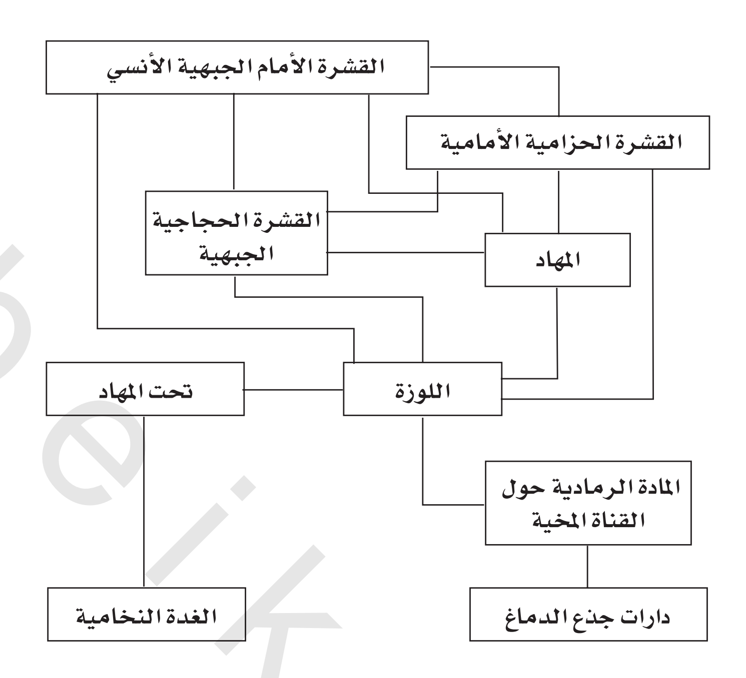
تقع القشرة الأمام جبهية (prefrontal cortex (PFC أمام المنطقة الحزامية الأمامية، وهذا القشرة مكان مفضل لعلماء الأعصاب بصفته مقرًّا لقدرات دماغية لم يحدد مكانها بعد في أي مكان آخر من الدماغ. يقع بالقرب من منتصف القشرة الأمام جبهية ما يسمى القشرة الأمام جبهية الأنسي الذي يبدو أنه يتدخل بصورة خاصة في معالجة العواطف، وقد تنظم القشرة الأمام جبهية الأنسية -مثل مناطق كثيرة في القشرة الأمام جبهية- نشاط المناطق السفلية مثل اللوزة، ويعتقد أنه متخصص في تعلم الارتباطات بين التصرفات والنتائج، فتجعل الجرذان ذات الخبرة -على سبيل المثال- تعرف أن الجرس يعني صدمة كهربائية قادمة لا محالة وتركز في محاولة الابتعاد. منطقة القشرة الأمام جبهية الأنسي مهمة خاصة عندما تتغير المواقف؛ فعندما تتعرض للأذى تواجه الجرذان مشكلة في تعلم أن الجرس الذي كان يعني سابقًا صدمة كهربائية أصبح يعني الآن تقديم الطعام، ويكون توسط الاستجابات السريعة الأساسية على مستوى تحت القشرة؛ حيث يتحقق السلوك الأكثر مرونة عندما تزاد طبقات إضافية من الدارات الدماغية.

توجد أيضًا في القشرة الأمام جبهية (مباشرة فوق جوفي الحجاج، أو الوقبين اللذين تسكن فيهما العينان) منطقة تسمى القشرة الحجاجية الجبهية (orbitofrontal cortex (OFC، وهي مرتبطة بصورة وثيقة أيضًا باللوزة، وقد أصيبت هذه المنطقة بتلف عندما اخترق قضيب معدني رأس فينياس غيغ Phineas Gage، وهذا التلف حولته من عامل دؤوب موضع ثقة إلى أطلال متهالكة، أظهر نفسه كشخص مهووس بالسيرك. (انظر الملاحظة 16، حول خزع الفص الجبهي، في الفصل الأول). أشار جوزيف لادو في Joseph LeDoux كتابه **الدماغ العاطفي** إلى أن تلف القشرة الحجاجية الجبهية يؤثر فيما يبدو في «الذاكرة قصيرة الأمد المتعلقة بمعلومات المكافأة، بما هو جيد وما هو سيئ في لحظة معينة، وتكون الخلايا في هذه المنطقة حساسة

لما إذا كان المثير قد أدى لتوه إلى ثواب أو عقاب. يصبح الأشخاص الذين يعانون تلفًا حجاجيًا جبهيًا غير واعين للدلالات الاجتماعية والعاطفية، ويبدي بعضهم سلوكًا اجتماعيًا مريضًا»[14]، بعبارة أخرى، يبدو أن القشرة الحجاجية الجبهية تمثل قيمة المثير من حيث الثواب والعقاب، ويسهل الاختيارات المعقدة بين الأنواع المختلفة من الثواب (أو العقاب). لا يستطيع الأطفال الصغار جدًّا الانتظار إذا خيروا بين قطعة صغيرة من الشوكولاتة تعطى الآن، وبين قطعة أكبر تعطى بعد دقائق عدة، ويظهر الكهول المصابون بتلف القشرة الحجاجية الجبهية عدم القدرة نفسها في تأجيل الإشباع: يريدون كل شيء، لكن الأهم أنهم يريدونه الآن.

المنطقة الحزامية الأمامية، والقشرة الأمام جبهية الأنسية، والقشرة الحجاجية الجبهية مرتبطة بصورة كبيرة بمناطق تحت القشرة تسيطر على التغيرات العاطفية في الجسم (يبيِّن الشكل 3-9 بعض الروابط الرئيسة بين المناطق القشرية وتحت القشرية). يؤثر تلف المناطق تحت القشرية أو تنبيهها في الاستجابات السريعة، العاطفية الآلية، ويؤدي التدخل في تلك المناطق إلى تأثيرات أكثر خفاء في تفسير العاطفة، المظاهر الأبطأ الأكثر عمدًا من التعبير العاطفي، والمرونة التي تغير الاستجابات عندما تتغير الظروف. كما ذكر كارل ماركس Karl Marx، فالعواطف مثل المجتمعات؛ تتضمن قوة من القاعدة (من الدماغ) وسيطرة من البنية الفائقة، ووفق ما لاحظنا سابقًا فالمناطق التي ناقشتها ليست هي الوحيدة التي لها دور في معالجة العاطفة، فلمناطق أخرى (مثل فص الجزيرة الذي يعتقد أنه -من بين أشياء أخرى- يعالج المثيرات المؤلمة) دور، لكن ماهية هذا الدور لا تزال غير مفهومة تمامًا.

ولكن ما هو واضح أن العواطف تتضمن تفاعلًا بين القشرة وتحت القشرة، بين الجسم والدماغ، في عديد من المستويات المترابطة. تجعلك دارات المثير-الاستجابة البسيطة تتجمد مكانك دون أن تعرف لماذا؛ والشبكات المعرفية الأكثر تعقيدًا تتعرف الشارع المضاء بصورة سيئة أو وقع الخطوات؛ الارتباطات الأشد تعقيدًا تربط الظلام بمخاوف الطفولة، ووقع خطوات قادمة بأفلام الرعب أو الأعمال الدرامية عن الجرائم. الدماغ غير التالف تتغلغل فيه المعلومات العاطفية تمامًا كما يتغلغل الليمون في طبق السوفيلي المحضر جيدًا.



الشكل 3ـ9 المناطق الرئيسة في الدماغ التي تشارك في معالجة العاطفة، والروابط بينها، لا تزال وظائفها غير مفهومة تمامًا، ولكن يعتقد أنها تسير وفق الخطوط الآتية: تشكل القشرة الأمام جبهية الأنسي (mPFC) روابط بين التصرفات ونتائجها؛ وتشارك القشرة الحزامية الأمامية (ACC) في التحفيز والرغبات المتضاربة؛ وتمثل القشرة الحجاجية الجبهية (OFC) المثيرات من حيث قيمتها عقابًا أو ثوابًا، وتتعلم اللوزة المعنى العاطفي للمنبهات، أو تسترجعها عندما تكون المثيرات مألوفة. تستقبل اللوزة معلومات عن المثير من المهاد والقشرة، وترسل إشارات صادرة إلى تحت المهاد والمنطقة الرمادية حول القناة المخية (PAG). ويحفز تحت المهاد بدوره الغدة النخامية، مغيرًا مستويات الهرمونات، في حين ترسل المنطقة الرمادية حول القناة المخية إشارات إلى أعضاء الجسم الداخلية مثل الجهاز الهضمي والأوعية الدموية.

بعبارات أنطونيو داماسيو Antonio Damasio: «تشكل مشاعر الألم أو السرور أو أي خصلة بينهما حجر الأساس لعقولنا، الطنين الذي لا يمكن إيقافه لأكثر الألحان شمولية»[15].

الدماغ المليء بالعواطف

«الناس أكثر عرضة لقبول الدعاية عندما يكونون أصلًا بحالة توتر عالية».

إدوارد هنتر Edward Hunter، **غسيل الدماغ في الصين الحمراء.**

Edward Hunter, Brain-washing in Red China

العواطف -خاصة السلبية منها- واسعة الانتشار جدًّا؛ يبدو أن المناطق المختلفة في الدماغ ترتبط بمظاهر مختلفة؛ فترتبط القشرة الحجاجية الجبهية بالثواب والعقاب، والقشرة الأمامي جبهية الأنسي بربط الأفعال بالنتائج، واللوزة بربط الأشياء بمعناها العاطفي على سبيل المثال، ولكن الشبكات المعقدة التي تجمع هذه المناطق (ومناطق أخرى) تضمن عادة تجربة موحدة: غضب مشتعل، أو هدوء بارد، أو حزن قاتم، أو سعادة لا تقارن؛ فحالما يربط شيء ما أو فكرة ما بمثل هذه التجربة، يصبح لديه قدرة على التأثير في كل من الدماغ والجسم، ويضغط مطالبًا بفعل لا يمكن المدارك الأقل شدة أن تجاريه. قد يثير التفكير في النظرية النسبية بعض مناطق قشرة الدماغ، لكنه لا يمكن أن يجاري أثر رؤية المرء لابنه في خطر، ولكن العواطف أيضًا لا تُميِّز، يمكن تفسير التغيرات الجسدية بصور مختلفة، اعتمادًا على الوضع والشخص؛ ولأن التغيرات العاطفية يمكن أن تأخذ وقتًا أطول من الأفكار في مدها وجزرها، فإن الرابط بين الفكرة وقيمتها العاطفية يمكن أن تكون مبهمة، حيث تصبح القيمة العاطفية نفسها مرتبطة أيضًا بشبكة معرفية (أفكار) أخرى.

هنا يكمن التهديد؛ طور البشر أساليب مذهلة ليتواصل بعضهم مع بعض، فتسمح لنا تعابير الوجوه، والإيماءات، وبالطبع اللغة، بتحريض الشبكات المعرفية لبعضنا الآخر بدقة شديدة. نستطيع أن نحرض عاطفة ما، ونطوِّف الدماغ، ونحن نتأكد من أن شبكات معرفية مشفَّرة معينة تنشط في الوقت نفسه؛ يُحدِث ذلك رابطًا بين الاثنين، فتستطيع الجرذان أن تتعلم بسهولة أن تربط بين صوت جرس وصدمة كهربائية. يمكن أن يعلِّم التلاعبُ بروابط العواطف مع الكلمات، والعزف على شبكات الدماغ المعرفية كالعزف على قيثارة، البشرَ علاقات أكثر تعقيدًا: أن النساء أدنى من الرجال، أو اليهود قذرون، أو السود أغبياء، أو طالبي اللجوء قمامة. عواطف الخوف أو القرف غير دقيقة، ولا تبقى مقتصرة على الكلمات التي حرضتها في البداية، بل تتسرب، ملوثة كلمات أخرى، وبالفعل يمكننا أن نذهب أكثر من ذلك، كما فعل شاشتر Schachter وسنجر Singer، إذ استعملا كلمات أو مواقف لإحداث تغيرات في جسم الشخص ومن ثم تقديم تفسيرات جاهزة للشخص بما تعنيه هذه التغيرات، وقد يكون (أو لا يكون) للتفسيرات أي صلة بما هو عليه العالم في الواقع.

الخلاصة والاستنتاجات

هذه الصفات للعواطف- ميلها لأن تتوانى، وغموضها، والضغط الذي تسببه، هي ما تعطيها قوتها في التلاعب، بالتأكيد لا يريد غاسل الدماغ الكفيُّ أن يتخلى عنها. بارتباطها بالأفكار المقدسة التي تحميها طبيعتها المجردة والمبهمة من التناقض المزعج مع العالم خارج الدماغ، يمكن أن تكون العواطف مدمرة، مبطلة لجميع الأفكار المخالفة، متجاهلة أو قامعة لأي دليل لا يتطابق معها، مشوهة الحقيقة لتلائم الشكل العام للشبكات المعرفية التي قوتها بشدة الطاقات التي تجري من خلالها. نحن نحتاج إلى العواطف، ما فائدة كعكة الليمون من دون أي ليمون؟ لكننا يجب أن نتجنب الشياطين المستحضرة بسوء استخدام العواطف. يقدم ضبط النفس الذي تكلمنا عليه باكرًا في هذا الفصل، والذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بقصة العواطف، الآليةَ التقليدية للتخلص من هذه الشياطين، وسوف أنظر في الفصل القادم، في المنطقة من الدماغ التي يبدو أنها مسؤولة أكثر ما يكون عن ضبط النفس (القشرة الأمام جبهية)، سائلين: ما الذي يمكن أن نتعلمه من لغز الألغاز ذاك عن طريقة تشكيل البشر سلوكهم الخاص؟ وكيف يغيرونه؟

الفصل العاشر

قفْ وفكِّر

«أعلى مرحلة ممكنة للثقافة الأخلاقية هي عندما ندرك أنه يجب علينا أن نضبط أفكارنا».

تشارلز دارون، Charles Darwin، **أصل الإنسان**.

Charles Darwin, Descent of Man

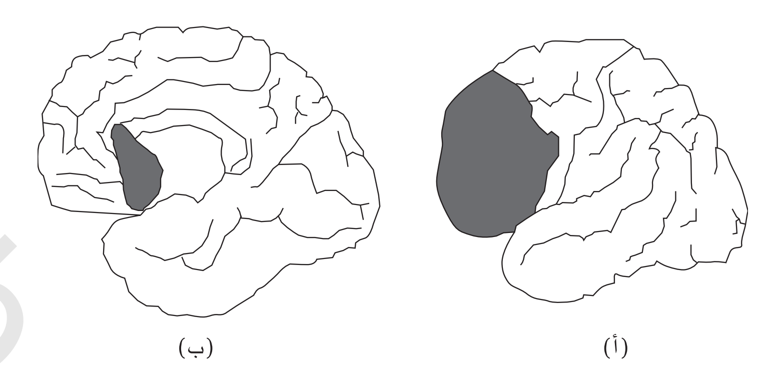
وفق ما تقترح الفصول السابقة، فإن محاولات التأثير تحصل بأساليب عديدة، ولا تنجح على الدوام. يمكن أن يتوقف شخص محفَّزٌ تحفيزًا كافيًا في كثير من الأحيان ويفكر قبل الإذعان، متذكرًا أسبابه لعدم الشراء، عدم الإيمان، ومن ثم مقاومًا محاولة التأثير، ولكن الضغط في حالة غسيل الدماغ يكون غامرًا؛ يجب على غاسل الدماغ بشكل ما أن يتجاوز ضبط ضحيته لنفسها حتى لا تعود قادرة على الوقوف والتفكير، ولفهم كيف يمكن أن يحدث ذلك، يجب علينا أن نفهم كيف تطبق الأدمغة قدرات (توقف وفكِّر).

إن المنطقة القشرية الأكثر مشاركة في آلية (توقف وفكِّر) هي الانتفاخ الذي يوجد مباشرة تحت جباهنا: الفص الأمامي الجبهي prefrontal cortex، واختصارًا PFC.

إدارة الدماغ

كثيرًا ما يقارن الباحثون الذين يدرسون القشرة الجبهية الأمامية بوظيفة المدير التنفيذي لشركة كبيرة، يقصد التشبيه ما يتعلق بالقيادة (وسوف أتابع مثال الإدارة لاحقًا في هذا الفصل)، لكنني أعتقد أنه يمكن مده أكثر. لكل من القشرة الأمام جبهية ومنصف المدير التنفيذي لمسة من التألق، والإثارة، والقوة، ويستهلك كل منهما نسبة كبيرة من الموارد (الاستقلابية أو المالية) بالمقارنة بالمناطق الدماغية/ موظفي الشركة الآخرين، وفي كل من الحالتين ليس لدى معظمنا أدنى فكرة عما يقومون به في الواقع.

يقع الفصَّان أمام الجبهيين في مقدم الدماغ[1]. متوِّجان قشرَة أوسع كثيرًا في الكائنات البشرية مقارنة بأقرب أقربائنا من الثدييات، وهما يُعدّان أكثر مناطق الدماغ غموضًا وتعقيدًا، وهناك ميل لنسب أي شيء يقوم به



الشكل 1-10 الدماغ البشري، رسم تخطيطي. (أ) منظر وحشي (خارجي)، يظهر المنطقة التقريبية للقشر أمام الجبهي. (ب) منظر أنسي (داخلي)، يظهر الموقع التقريبي لقشر الحزام الأمامي.

البشر ولا يفهمه علماء العلوم العصبية، أي وظيفة أو قدرة لا تربطها الآفات أو الإبر أو التصاوير بمكان آخر في بقية الدماغ، إلى القشرة الأمام جبهية أو المنطقة التشريحية وثيقة الارتباط بها؛ قشر الحزام الأمامي (كثيرًا ما يصنف الاثنان معًا). الوعي، والدافع، والإرادة الحرة، والذات، واتخاذ القرار، والأفكار والعواطف المعقدة، وضبط النفس، والتفكير الأخلاقي؛ هي بعض من كل من هذه الوظائف المثيرة.

تستقبل منطقة تلفيف الحزام الأمامي إشارات واردة، وترسل إشارات، من وإلى مناطق تحت قشرية تعالج العاطفة بُحثت في الفصل التاسع، مثل اللوزة، والمادة الرمادية حول القناة المخية، وتحت المهاد. بذلك هناك سلسلة قصيرة من انتقال الأوامر تربط منطقة الحزام بالأعصاب والهرمونات التي تعطي الجسم قوته في الاستجابة والتعبير، وهذه القوى -بينما تنتظم أحيانًا بالسيطرة الواعية- كثيرًا ما تبدو قادرة بصورة مقلقة على الهروب من هذه السيطرة، كما يشهد بذلك كل من عانى نوبة هلع. يمكن أن تكون الأعراض الجسمية أيضًا عوامل تحفيز قوية -الألم مثال بديهي- معطية دفعًا قويًّا للفعل. يبدو أن منطقة الحزام تشكل جسرًا بين المناطق تحت القشرة التي تعالج هذا الدافع والقشرة الأمام جبهية. باستعمال التشبيه الماركسي Marxist من الفصل التاسع، فإنها تمرر القوة من القاعدة إلى البنى الفائقة والسيطرة من البنى الفائقة إلى القاعدة.

وُصفت القشرة الأمام جبهية بطرائق عدة؛ إذ يبدو أنه يدخل في إصدار الأوامر، وتشكيل البنى، وتوجيه السلوك، خاصة في الحالات التي فيها تحدٍّ أو في الحالات الجديدة، ويعتقد أنه

يتوسط الاختيار بين الخيارات البديلة، وتفسير الاحتمالات، ووضع نماذج للإمكانات المستقبلية. قد يكون إلحاح ضرب رئيسك في العمل مغريًا جدًّا من آن لآخر، لكنك تريد أيضًا أن تبقى في وظيفتك، إن القشرة الأمام جبهية المدرَّبة جيدًا سوف تنقذ حياتك المهنية، مجبرًا إياك على التوقف والتفكير قبل أن توجه تلك اللكمة؛ يبدو أن هذه القدرة على التوقف والتفكير ضرورية جدًّا للوجود المتحضر؛ إذ إنها تتطلب سلامة الفص أمام الجبهي، وتسمح عملية (توقف وفكر) لنا أيضًا بمقاومة محاولات التأثير؛ يجب على كل غاسل للدماغ يحاول ممارسة التلاعب بالعقل، أن يتجاوز أولًا القشرة الأمام جبهية الحارس لدماغ الضحية.

تظهر أهمية القشرة الأمام جبهية بما يحدث عندما يخفق في القيام بعمله بشكل صحيح، مع أن تلف مناطق القشرة الأمام جبهية لا يؤدي إلى مشكلات يمكن ملاحظتها بوضوح كما يحدث عندما يؤدي تلف الفص القذالي إلى العمى، ففينياس غيغ Phineas Gage الذي أصيب جزء من القشرة الأمام جبهية لديه في أثناء حادث في مكان العمل (انظر الملاحظة 16، على خزع الفص الجبهي، في الفصل الأول)، بقي واعيًا ومنطقيًّا، وكان الطبيب الذي فحصه أولًا قادرًا على سؤاله عما حدث، ولكن -وفق ما لاحظ طبيبه لاحقًا- «غيغ Gage لم يعد غيغ». كما وصف أنطونيو داماسيو Antonio Damasio في كتابه **خطأ ديكارت** Descartes، قبل إصابته كان لدى غيغ Gage «إحساس بالمسؤولية الشخصية والاجتماعية، وكان متأقلمًا جيدًا مع الأعراف الاجتماعية، ويبدو أنه كان أخلاقيًّا في تعامله. بعد الحادث، لم يعد يظهر أي احترام للأعراف الاجتماعية؛ انتهكت الأخلاقيات، بمفهومها العام؛ ولم تعد قراراته تأخذ بالحسبان مصالحه الفضلى، وأصبح يختلق القصص، ولم يكن هناك أي دليل على اكتراثه بالمستقبل، ولا مؤشر على التفكير المسبق».

كما في غسيل الدماغ، يغير تلف القشرة الأمام جبهية الشخصية نحو الأسوأ عادة، ومن دون إدراك الضحية، ويمكن أن تكون التأثيرات متفاوتة جدًّا وذلك بحسب المنطقة المتتلف؛ فقد عانى فينياس غيغ Phineas Gage تلف للقشرة الحجاجية الجبهية (الوجه السفلي من القشرة الأمام جبهية، مباشرة فوق العينين)، في حين قد يظهر المرضى المصابون بتلف في مناطق أخرى من القشرة الأمام جبهية مشكلات في الذاكرة الفاعلة، التخطيط إلى الأمام، أو التأقلم مع تغير الظروف، ولا يستطيعون -أحيانًا- التوقف والتفكير قبل التصرف (الاندفاع)؛ وأحيانًا حالما يبدؤون بالعمل، لا يستطيعون الوقوف (التكرارية). توفِّر القدرة على التوقف والتفكير المرونة، وتجعلنا فاعلين بدلًا من مجرد مرتكسين منقادين للمثير، قد لا تكون المرونة ضرورية

فـي عالـم معقد ومتغير باسـتمرار (لا تبـدي العناكب كثيرًا من المرونة، ولا تـزال موجودة)، لكن لا شـك أن الدمـاغ المرن يسـهِّل النجاة على المدى الطويل، وتلك الإلزاميـة التي تنتقل من خلال المورثات؛ البشر مسؤولون عن كوكب الأرض؛ والعناكب -حمدًا لله- ليست مسؤولة.

لا تتواصـل القشـرة الأمـام جبهيـة مباشـرة مـع العالـم الخارجـي، وإنما تسـتقبل إشـارات واردة مـن جميـع أنحـاء الدمـاغ، فكأنهـا تعمـل نقطـةَ التقـاء أو عامـل توحيـد؛ وفـق مـا يعبر عن ذلـك عالـم علم الأعصـاب إلكهونن غولدبيـرغ Elkhonon Goldberg، «الجـزء الوحيد من الدماغ الـذي تجتمـع فيـه الإشـارات الـواردة مـن العالم الخارجـي مـع الإشـارات القادمة مـن العضوية نفسـها. مثـل البنـى الفوقيـة التـي تحـدث عنهـا ماركـس Marx، فهـو يرتبط بالسـيطرة، بـإدارة القـوى القويـة؛ فمثلما تجسـد البنى الفوقية المذهب الفكري على مسـتوى المجتمع، فإن القشـرة الأمـام جبهيـة تتضمـن الفكـر المذهبـي للدمـاغ، ويتخذ القـرارات المهمـة، ويوازن بيـن الدوافع والرغبات المتنافسة».

لفهـم مـا تقوم بـه المناطق الأمـام جبهية، من الضروري فهـم كيف تؤثر أفعالهـا المتبادلة مـع مناطـق الدمـاغ الأخرى في السـبل العصبيـة التي تحول التصورات إلى سـلوك. سـوف أصف في الفقرة التالية هذه الأفعال المتبادلة، مسـتعملًا مثالًا أبسـط حركات الجسـم: حركة العينين[2] (تنطبق الحجج نفسـها على السـلوك الأكثر تعقيدًا؛ مثل تحريك الذراع أو تغيير حركات عضلات الوجه)، سـوف يشـمل تتبع المسـارات من الإشـارات الواردة إلى الإشـارات الصادرة تفصيلات كثيـرة، لكـن اصبروا معي. عندما نضع القشـرة الأمام جبهية في سـياقه العصبي فقط نسـتطيع فهـم مـا الـذي تعنيـه الصفة القياديـة للدماغ؛ سـوف نـرى أن النمـوذج الديكارتي مـن (الأدمغة الألماسـية) يضللنا، وبدلًا من بسـاطة الألماس نجد عالمًا من التعقيد، والتغيير، والجمال الذي يثير الدهشـة. بالتركيز في ملخص نموذج حركات العينين، أرجو أن أتمكن من إيصال بعض من نكهة هذا اللغز.

العيون الراقصة: كيف تقوم الأدمغة بالتفويض في السيطرة على العين

يعتمـد البشـر من غيـر العميان بكثافة علـى القدرة على الرؤيـة، ويُعتَقد أن القسـم الخلفي مـن قشـر أدمغتنـا يحتوي على أكثر من ثلاثيـن منطقة مختلفة مخصصـة للتعامل مع المعلومات

البصرية، بعضها متخصص في الرؤية الملونة، وبعضها في الإحساس بالعمق، وهكذا. وينظم عملية التعامل الحسي هذه نظام يتحكم في الطريقة التي نحرك بها أعيننا، ولأننا لا نستطيع عادة أن نتعرف الأشياء إلا إذا كنا ننظر إليها مباشرة، فإننا نحتاج إلى القيام بكثير من حركات العينين[3]، ونحن فعلًا نقوم بذلك؛ أكثر من عشرة آلاف مرة في الساعة عندما نكون مستيقظين. الشخص الذي يفاجأ بضوء ساطع سوف ينظر تلقائيًّا نحوه، مستعملًا حركة عينين سريعة جدًّا تسمى الحركة الاهتزازية saccade (من اللغة الفرنسية القديمة فعل saquer، أن يهتز أو يشد)؛ لكن إذا كنت تنظر أنت نفسك من نافذة مركبة إلى الخارج، فلن تدرك هذه الحركات في عينيك: سوف يبدو لك مشهد الريف العابر سلسًا ومستمرًّا.

بعبارة أخرى، نحن لا ندرك عادة كثيرًا من حركات العينين الاهتزازية التي نقوم بها، ولكن ذلك لا يعني أننا لا نستطيع السيطرة على حركات أعيننا، فالبشر خبراء في اللعبة الاهتزازية؛ فنستطيع أن نحرك أعيننا لأي مكان نريد، حينما نريد[4]. كيف يستطيع الدماغ البشري تحقيق مثل هذه البراعة؟ كما في منظمة ذات إدارة جيدة، فإن السر هو التفويض الفاعل.

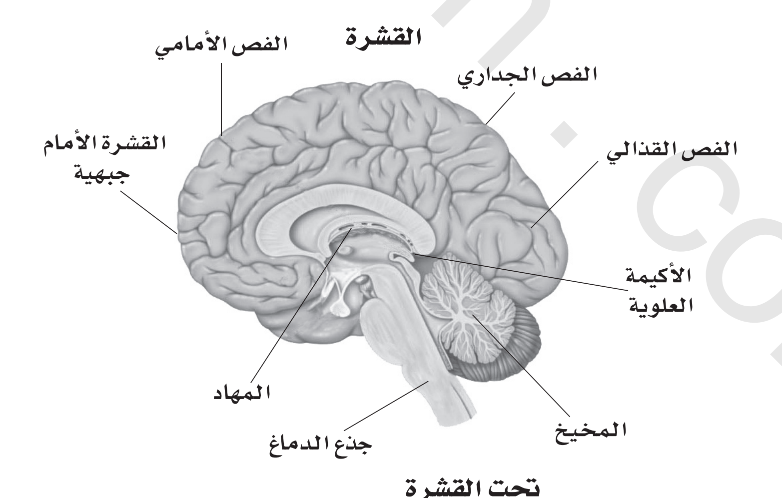
انظر في دماغ إنسان بالغ (مع بقية جسم الإنسان البالغ متصل به بالطريقة العادية) في مختبر علوم عصبية. يقدم المثير البصري على شاشة حاسوب وتسجل حركات العينين الناتجة، ومن الممكن أن يحرض المثير البسيط، مثل بقعة مضيئة، حركة اهتزازية سريعة جدًّا، في حين تؤدي المثيرات الأكثر تعقيدًا، مثل المناظر الطبيعية أو الوجوه، إلى استجابات أبطأ. ما الذي يحدث داخليًّا لإحداث هذه الاختلافات؟

الموقف الأول: التلة الصغيرة

عندما تسجل الشبكية الموجودة في القسم الخلفي من العين منبهات ما، فإن المعلومات تنقل بوساطة العصبين البصريين إلى المنطقة التي تتعامل مع البصر في المهاد، ومن هناك إلى الفص القذالي، وكما رأينا في الفصول السابقة، ففي الوقت الذي تصل فيه المعلومات إلى الفص القذالي، يكون قد حدث قدر كبير من المعالجة. تقارن الإشارات الواردة إلى المهاد بالنظريات المفترضة (التي تتولد على المستوى القشري) عما يتوقع الدماغ أن يراه بعد ذلك، ويعدل كل من الإشارات الواردة والنظريات المفترضة حسب

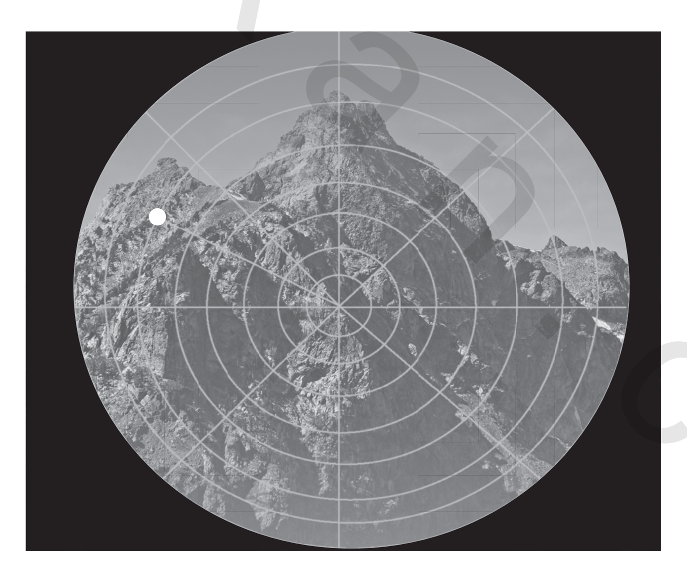
مقدار التناقض بينهما، وإذا لم يكن هناك أي تناقض فلا توجد أي مشكلة، ولكن المهاد ليس هو المستقبل الوحيد للمعلومات القادمة من العينين. تصل الإشارات الواردة أيضًا إلى منطقة أخرى تحت القشرة، الأكيمة العلوية (التي اشتق اسمها من الكلمة اللاتينية التي تعني (التلة الصغيرة)).

يمثل العالم البصري في الأكيمتين العلويتين في بعدين اثنين، مثلما تفعل صورة منظر طبيعي. ولكن، بينما يمثِّل راسم المنظر الطبيعي كل موضع في العالم باستعمال لون ما (السماء = الأزرق، العشب = الأخضر، وهكذا)، فإن الأكمتين العلويتين تستعملان مداخلة مختلفة. تُمثَّل المواقع في الصورة بحركات العينين اللازمة لوصول الموقع إليها. يؤدي تنبيه الأكيمة العلوية بأقطاب كهربائية إلى حركات اهتزازية تتغير سعتها واتجاهها بسلاسة مع تحرك القطب الكهربائي المثير على طول الأكيمة العلوية، وهكذا فإن كل نقطة من الأكيمة العلوية تشفَّر لحركة اهتزازية مختلفة، وبحيث تشفَّر النقاط المتجاورة إلى حركات اهتزازية متشابهة. الأكيمتان العلويتان هما مركز إصدار أوامر حركات العينين الأساسية في الدماغ، وتذهب الإشارات منهما إلى جذع الدماغ الذي يسيطر مباشرة على العضلات المحيطة بالعينين.



الشكل 2-10 منظر للدماغ البشري، يظهر المواقع التقريبية لمناطق الدماغ الأساسية التي تدخل في حركة العينين السريعة (الاهتزازية).

عندما يفعِّل المثير الشبكية، ومن ثم الأكيمة العلوية، فإن الخلايا العصبية في الأكيمة العلوية سوف تُفعَّل، وهي مسؤولة عن الحركات الاهتزازية اللازمة لتحريك العينين تجاه المثير؛ فإذا كان المثير بسيطًا جدًّا، مثل بقعة لامعة على خلفية قاتمة، عندئذٍ يكون نشاط الأكيمة العلوية العصبي كبيرًا في أحد الأمكنة (المكان الذي يمثِّل حركة العينين اللازمة لتوجيه العينين إلى تلك البقعة) وضئيلًا جدًّا في أي مكان آخر، وهذا سهل؛ إذ ليس عليها سوى توجيه العينين إلى تلك البقعة. تتحرض حركة اهتزازية سريعة، وتقفز الحدقتان إلى الوضع الجديد، يتم الترتيب لكل شيء حتى قبل أن يلاحظ الشخص البقعة بصورة واعية، وبعبارة أخرى تعالَج المعلومات البسيطة بصورة أسرع. هذا هو السبب الذي يجعل الزعماء السياسيين الذين يعتمدون على تلبية الغرائز بدل المنطق، وقادة الطوائف الدينية، ومصممي الإعلانات، وغاسلي الدماغ، يحاولون جعل رسائلهم أقصر وأبسط ما يمكن؛ فعندما يقومون بذلك فإنهم يزيدون فرص تحريض استجابة سريعة آلية قبل أن يتاح الوقت للمستهدف أن يقف ويفكر.



الشكل 3-10 تمثِّل الخلايا العصبية في الأكيمة العلوية حركات العينين من حيث سعتها واتجاهها. يظهر الشكل تمثيلًا تخطيطيًّا لهذه الخريطة مركبة فوق صورة، كما لو كان الشخص ينظر مباشرة إلى مركز الصورة (حيث تتقاطع الخطوط الطولية والعرضية). تشير الدائرة البيضاء الممتلئة إلى المكان المستهدف الذي ستتجه إليه حركة العينين القادمة، ويشير الخط العريض الأبيض إلى حركة العين اللازمة للوصول إلى الهدف. يكون النشاط العصبي في الأكيمة العلوية الأقوى في الخلايا العصبية التي تمثل الحركة الاهتزازية في الموقع المستهدف أو حوله.

ولكن، يمثل المثير المعقد مشكلة؛ فتخيل أن يقدَّم للشخص في مختبر العلوم العصبية البصري صورة لمنظر من النافذة: جدار حديقة الجيران، مع شجيرة ورد وشجيرة ليلك كاليفورنيا تتسلقان عليه، ومن خلفهما شجيرة ورد ومن ثم أشجار، وإحدى قطط الجيران تترصد الطيور (انظر الشكل 4-10 (ب) للتمثيل بالرسم). سوف تتفعَّل خريطة الأكيمة العلوية في جميع أرجائها بما يتناسب مع جميع المواقع المختلفة التي يمكن أن يُنظر إليها، مباشرة إلى الأمام إلى شجيرة الليلك الكاليفورني، إلى الأيمن نحو القطة، إلى الأعلى قليلًا نحو الورود، وإلى الأعلى أكثر قليلًا إلى الشجر. لكن العينين لا يمكن أن تتحركا لأكثر من مكان واحد في الوقت نفسه، والنتيجة هي حدوث تناقض يسبب الشلل؛ إذ تتنافس جميع الخلايا العصبية للأكيمة العلوية للسيطرة على عضلات العينين، لكن لا توجد سيطرة لأي منها. إذًا، ونظرًا إلى أن عالمنا يتضمن أكثر من مجرد بقع لامعة على خلفية قاتمة، فكيف نستطيع أن نحرك أعيننا على الإطلاق؟ لنصف الأمر بصورة أخرى: إذا كان كل ما نملكه من وسائط التفكير هو الأكيمة العلوية، فقد يستغرق منا وقتًا طويلًا جدًّا اتخاذ أي قرار مثير للاهتمام، بحيث إن أكثر فنيي التأثير صبرًا سيتخلى عن المهمة وهو يشعر بالقرف.

التثبيط الجانبي

الطريق للخروج من هذا المأزق هو التفاوض العصبي؛ إذ تستخدم الأكيمة العلوية آلية تسمى التثبيط الجانبي لحل التناقض بين الخلايا العصبية المشاركة، محددة من يقوم بتحريك العينين. ترسل كل خلية عصبية في الأكيمة العلوية إشارة تثبيط لكل خلية عصبية أخرى، وكلما كانت الخلية العصبية أكثر نشاطًا، زاد مقدار تثبيطها للخلايا العصبية الأخرى، وعندما ينتج مثير بسيط ذروة وحيدة حادة في خريطة نشاط الأكيمة العلوية (انظر الشكل 4-10 (أ))، فإن الخلايا العصبية الناشطة تغلق عمليًّا جميع العصبونات الأخرى التي تريد تحريك العينين إلى مواقع بعيدة عن المثير، وتفوز بسرعة في المنافسة على السيطرة على حركة عضلات العينين.

إذا كان هناك ذُروات عدة (كما في حالة المثيرات المعقدة التي تبدو في الشكل 4-10 (ب))، فإن الذروة الكبرى (التي توافق أكثر جزء متميز من المثير) تميل مع مرور الوقت لتثبيط ما يتنافس معها أكثر مما تثبطها، مقنعة إياها بالواقع بسحب اعتراضها على حركة العينين التي

تشـفّر لهـا. تمامًـا كما يقمع قـادة الطوائف الدينية وجهـات النظر المعارضة، كذلـك فإن الذروة الكبـرى سـوف تهيمـن في النهاية على مشـهد الأكيمة العلويـة، لكن عملية القيـام بحركة العينين تسـتلزم وقتًـا أطول. للتلخيص، تصل المعلومات عن المثيرات بسـرعة إلـى الأكيمة العلوية، فإذا كان المثير بسيطًا تنتج حركة اهتزازية سريعة، وإذا كانت المثيرات أكثر تعقيدًا، لا تحدث حركة فـي العينيـن، وبـدلًا من ذلـك تبدأ الأكيمـة العلوية عملية تشـاور للتثبيط الجانبـي، تاركة الخلايا العصبية المشاركة تتعارك إلى أن يبرز الرابح الواضح.



الشـكل 4-10 (أ) بقعة لامعة على خلفية قاتمة، منبه بصري بسـيط إلى أقصى حد يحرض على الأغلب حركة اهتزازية سريعة. (ب) منبه بصري أكثر تعقيدًا: تمثيل بالرسم لقطة على جدار حديقة.

من رحمة الله أننا لا نضطر إلى الانتظار إلى أن تحل الأكيمة العلوية التناقضات قبل أن ننظر حولنا، وإلا لكنا خسرنا منذ زمن بعيد معركة التطور للبقاء. تستغرق الحركة الاهتزازية النموذجية، حتى لمشهد بصري مشوش جدًّا، جزءًا فقط من الثانية للبرمجة والتنفيذ؛ ذلك لأنه في الوقت الذي تجتمع فيه لجنة الأكيمة العلوية يكون المثير البصري الذي جعلها تجتمع يخضع للمعالجة في أماكن أخرى؛ اللون، والعمق، والخطوط العريضة، والحجم، والحركة...، تشبه المعالجة الحسية المبكرة في المهاد والفص القذالي مجموعة من اللجان، تركز جميعها في مظاهر مختلفة قليلًا من المعلومات القادمة. تصب هذه اللجان نتائجها في تيَّاري معالجة عملاقين، سماهما علماء علم الأعصاب تقليديًّا سبل (ماذا) و(أين)[5]، وسوف نركز في سبل (أين) الذي يُعنى أكثر بحركة العينين، ولكن -أولًا- سنتحدث قليلًا عن سبيل (ماذا).

التحديد الدقيق

يرسل مسار التحديد الدقيق معلومات من الفص القذالي إلى الفصين الصدغيين، وتخضع المعلومات هنا لمزيد من التحليل من قبل لجان أخرى من الخلايا العصبية. إذا بسطنا الموضوع كثيرًا، فإن مهمتها الأساسية هي مهمة تعرُّف: تحديد وتصنيف ما الذي تنظر إليه العينان. مع انتشار الإشارة العصبية على طول الفص الصدغي، فإنها تضع افتراضات متزايدة التعقيد عن طبيعة المثير البصري، وفي كل مرحلة من المراحل، تعطى هذه الافتراضات لمناطق أخرى من الدماغ وتتأثر بتقارير قادمة منها.

عندما يكون هناك شيء غير صحيح في شركة ما؛ من كفاءة ضعيفة، أو أخلاقية منخفضة، أو ما يشبه ذلك- فكثيرًا ما يضع الناس اللوم على التواصل الداخلي، وبالمثل فإن الاستجابات الدماغية ذات الكفاءة المدهشة تعود جزئيًّا إلى التواصل الداخلي الذي يتصف بالامتياز. لا تحتاج اللوزة، وهي مستقبل أساسي لمعلومات الفص الصدغي، إلى انتظار التقرير النهائي الذي يؤكد أن الشيء الموجود على أيسر المنظر هو في الواقع سيارة قادمة (اللون، الطراز، رقم اللوحة متوافر)، فأول مؤشر إلى أنها قد تكون سيارة، مهما كان الدليل هزيلًا، يحرض فعل اجتناب (وإحساس غامر بالخوف). لم تتوافر السيارات في وقت طويل من تاريخنا التطوري، لكن الحيوانات المفترسة الخطرة التي تملك القدرة على إخفاء نفسها حتى لحظة الهجوم، لاحقت أسلافنا إلى وقت قريب نسبيًّا (لا تزال تفعل ذلك في بعض مناطق العالم النائية). كان

هنـاك خطـر بـأن الأدمغة التي يمكن أن تحرض رد فعل سـريعًا على أساس دلائـل قليلة جدًّا، قد تجعـل أصحابهـا يتخبطـون من غير سـبب مـن آن إلى آخر؛ لكن هـذه الأدمغة قد اكتشـفت وجود الخطـر فـي وقـت أبكر، وهو ما منحهـا فرص البقاء. أمـا التحديد الدقيق فقد كان نشـاط ترف، يمكن القيام به حين توافر الأمان.

الموقف الثاني: الجدار

يكفـي الـكلام عن (مـاذا)؛ ماذا عن (أين)؟ من الفص القذالي، الموقف الثاني في سـبيل (أين) هو الفص الجداري (الجداري Parietal من اللغة اللاتينية paries الجدار الفاصل)، الذي يحتـوي علـى مناطـق متخصصة للتحكـم في حركة العينين السـريعة. مثـل الأكيمـة العلوية، فإن الفص الجداري تشـفِّر للعالم المرئي: خلاياه العصبية مسـؤولة عن مواقع في الفضاء، من حيث كيفيـة الوصـول إليهـا بتحريك العينيـن، لكن على خـلاف الأكيمـة العلوية، فإن الفصـ الجداري تسـتقبل معلومـات قد عولجت معالجة عالية، ليس فقط من قبل الفصـ القذالي، ولكن أيضًا من مناطق عديدة أخرى من الدماغ؛ إنها لجنة لها برنامج عمل مكثف.

على سبيل المثال تأتي معلومات من الفصين الجبهيين عن معظم حركات العينين السريعة التـي حدثـت حديثًا، وتقدم مناطـق اللغة في الفصيـن الصدغيين معلومات عـن الأوامر اللفظية (مثـلًا توجيهـات القائـم بالتجربة بتحريـك العينين إلى الأيسـر). يصـل أول افتراض عما تنظر إليه العينان من المناطق البصرية في الفصين الصدغيين وتبدأ بإثارة التمثيلات المختزنة عن الأشياء وما علاقة الشخص بها (تلك اللطخة السوداء في أيمن الصورة يمكن أن تكون قطة؛ أنا أحـب القطط)، وفي الوقت نفسـه، ترسـل مناطـق معالجة العواطف (انظر الفصـل 9) عن حالة شـعور الشـخص في ذلك الوقت (وجودي في مختبر العلوم العصبية البصرية هذا يجعلني فعلًا أحس بالتوتر؛ أتمنى لو كنت أستطيع الاسترخاء). تؤثر هذه الإشارات الواردة وغيرها في خريطة نشاط الفص الجداري. بعضها (مثل الشعور بالتوتر) له تأثير مشابه في جميع الخلايا العصبية للقشـر الجـداري الخلفـي، في حين يزيد غيرها (مثـل أمر القائم بالتجربة المشـاركين بتحريك أعينهم إلى الأيسر) نشاط الخلايا العصبية التي تشفِّر الخطة بالحركة إلى الأيسر، وسوف تثبط نشاط الخلايا العصبية التي تشفِّر خطط الحركة إلى الأعلى، أو إلى الأسفل، أو إلى اليمين.

تذكروا -كما بحثنا في الفصل الثامن- أن الخلايا العصبية في المهاد تختبر الفرضية، حيث تقارن الإشارات الواردة من العينين بالإشارات من القشرة التي تشفِّر ما يتوقع الدماغ أن يراه. تحدث عملية المطابقة نفسها في الفص الجداري، حيث تقارن الإشارات الواردة من الفص القذالي (هناك شيء على الجهة اليسرى) بالإشارات القادمة من الأقسام الأخرى للدماغ (اذهب إلى اليمين. لم لا، استفز المهوَّس بالعلم الذي يلبس الرداء الأبيض)، وترسل تقارير راجعة إلى كل منها عن الفروق بينها حتى يستطيعوا أن يعدلوا أنشطتهم بصورة توافقية. تمامًا كما في المهاد، النتيجة هي زيادة التشابه بين أنماط النشاط في الفص الجداري، والفص القذالي، ومناطق الدماغ الأخرى المفعَّلة بالمثير.

قد تشير الإشارة المبدئية التي تصل إلى الأكيمة العلوية إلى عدة أمكنة تستحق النظر إليها، ولكن الأهداف المتعددة تربك الأكيمة العلوية، والنتيجة هي عدم حصول حركة اهتزازية مباشرة، ولكن في الوقت الذي تصل فيه الإشارة البصرية إلى الفص الجداري تكون آلية اختبار الافتراض قد استبعدت بعض هذه الأهداف وعززت جاذبية غيرها (أنا أود أن أمسح على رأس القطة وليس الورد المتسلق). يجعل التثبيط الجانبي بين خلايا الفص الجداري العصبية خريطة نشاط الفص الجداري أكثر وضوحًا. في الوقت نفسه ترسل الفص الجداري إشارات إلى الأكيمة العلوية، مضيفة مساهمتها الأكثر تشذيبًا إلى المداولات التي تجري في الأكيمة العلوية. مرة أخرى، فإن التثبيط مهم. تزيد خلايا الفص الجداري التي حرضها المثير القادم من الأيسر نشاط الخلايا العصبية في الأكيمة العلوية التي تشفِّر الحركة الاهتزازية نحو الأيسر، وتنقص نشاط الخلايا العصبية في الأكيمة العلوية التي تشفِّر الحركات في الاتجاهات الأخرى. يمكن أن يكون هذا التغيير أحيانًا حاسمًا، مسببًا حصول حركة اهتزازية.

تشبه الأكيمة العلوية فريقًا من مندوبي المبيعات في شركة كبيرة، مهمتهم تحديد أي طيف من المنتجات الجديدة (أي حركة اهتزازية) يجب أن يبيعوا، اعتمادًا على دراسة السوق، وما لم تكن دراسة السوق تفضل أحد المنتجات من دون جميع المنتجات الأخرى، فإن الأعضاء قد لا يستطيعون الاختيار بين المنتجات. الخطوة التالية هي تقديم اقتراحات إلى رؤسائهم المباشرين، قائد المجموعة (الفص الجداري). إذا قال قائد المجموعة: «المنتج جيم هو الذي ستختارونه»، يكون المختار هو المنتج جيم. إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن قائد المجموعة سوف يستشير رئيسه، وستستمر المعلومات في تسلق الهرم الإداري حتى التوصل إلى قرار.

الموقف الثالث: الأوامر الصادرة

يصح الشيء نفسه ضمن أدمغة البشر، فإذا لم تكن مساهمة الفص الجداري كافية لإحداث حركة العينين، فإن الإشارة تعبر قدمًا إلى منطقة في الفصين الجبهيين وتسمى حقول العين الجبهية، وهنا تساعد مرة أخرى آليات المطابقة والتثبيط الجانبي في تشذيب الإشارة، مقللة أكثر من عدد الأهداف، وسوف تكون في هذه الأثناء التقارير القادمة من الفصين الصدغيين قد نقحت أكثر (أعتقد أنها يمكن أن تكون قطة حقًّا). سيكون من بين المترافقات المُحرَّضة بهذه التقارير الشبكات المعرفية التي تشفِّر للمعتقدات المناسبة للشيء وخطط التنفيذ. (المسح على القطة مريح)؛ (مد يدك وامسح عليها)؛ (انظر إليها أولًا للتأكد أنها قطة)؛ (انظر إليها بحذر، تأكد أنها تريد أن يُمسح عليها). تبدأ هذه الشبكات المعرفية المفعَّلة بالمشاركة بأصواتها في الأدلة التي تنظر فيها لجنة حقول العين الجبهية (إضافة إلى المساهمة في المداولات الجارية في القشرة الجبهية الخلفية والأكيمة العلوية). إذا كانت الشبكة المعرفية المتعلقة بالقطة أكثر نشاطًا من الشبكات المعرفية الأخرى (أي إذا كانت تجارب الشخص السابقة قد أعطته دماغًا يجد القطط أكثر إثارة للأهمية من الجدران، أو الورود، أو الأشجار)، فإن تصويت حقول العين الجبهية سيكون على الأغلب لتحريك العينين نحو القطة. مرة أخرى، سيكون للتثبيط الجانبي دور، وستؤثر الإشارات الصادرة عن حقول العين الجبهية في الأكيمة العلوية مثلما أثرت فيها الإشارات الصادرة عن الفص الجداري، وهو ما يدفعها لإحداث حركة اهتزازية نحو القطة.

في كل مرحلة من آلية السيطرة على حركة العينين، من الأكيمة العلوية إلى الفص الجداري إلى حقول العين الجبهية، إما أن تقوم الأكيمة العلوية بإنشاء حركة أو لا، ويعتمد كونها ستنشئ حركة على نشاط الخلايا العصبية وتأثيرات التثبيط الجانبي، كما وصفنا أعلاه. ولكن، يحدث التثبيط الجانبي بين الفص الجداري، وحقول العين الجبهية، والأكيمة العلوية، وكذلك ضمنها. تمامًا كما تثبط الخلايا العصبية التي تشفِّر للحركات الاهتزازية نحو الأيسر جميع الخلايا العصبية في الأكيمة العلوية، فإن الخلايا العصبية المعنية بالحركة نحو الأيسر في القشرة الجبهية الخلفية تثبط جميع الخلايا العصبية المشفِّرة للاتجاهات الأخرى في الفص الجداري؛ وهي حقول العين الجبهية، والأكيمة العلوية، وتنبه الخلايا العصبية المعنية بالحركة للأيسر في حقول العين الجبهية والأكيمة العلوية. والعكس بالعكس. وإذا كانت أنماط النشاط في الفص الجداري وحقول العين الجبهية متماثلة (بعبارة أخرى، إذا كانت الإشارات الواردة تتطابق كثيرًا مع ما يتوقع الدماغ أن يراه)، فإن الإشارات التي ترسلها هذه المناطق إلى الأكيمة العلوية ستكون

غيـر غامضـة، وتنتج حركة اهتزازة سـريعة، أما إذا لـم تكن الأنماط متماثلة بمـا يكفي، فعندها تبـدأ المفاوضات بين الفص الجداري، وحقـول العين الجبهية، والأكيمة العلوية، ومناطق أخرى، باستعمال التثبيط الجانبي، مع قيام كل منطقة بتغيير نشاطها كي يوافق كثيرًا نشاط الأنماط في المناطق الأخرى، وكلما استغرق ذلك زمنًا أطول، كانت الحركة الاهتزازية أبطأ.

الموقف الأخير: القشرة الأمام جبهية المركزية

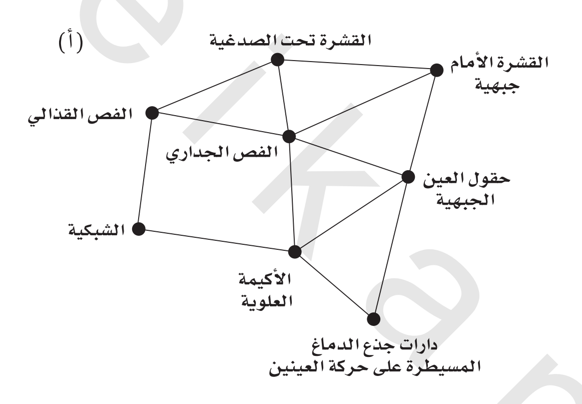
إذا تدفقـت المعلومـات البصريـة عبر الفصـ القذالي إلـى الفص الجـداري وحقول العين الجبهية ولم تتأتَّ أي حركة، عندها يكون الوقت قد حان لاستشارة الإدارة العليا. في الوقت الذي تكون فيه القشـرة الأمام جبهية قد تنبهت، فإن المعلومات من الفص الصدغي سـتكون قد فعَّلت شبكات معرفية عديدة جدًّا تشفِّر للمعلومات المختزنة. وتتعلق هذه المعلومات بالأشياء الموجودة في المشهد البصري الحالي، لكنها تتضمن أيضًا أشياء أكثر بكثير، كثير منها لا يصل إلى الوعي أبـدًا. كيـف تتصرف فـي مختبر العلوم العصبية؛ كيف ترتكس عندما يقـول القائم على التجربة (انظر إلى الأيسـر)؛ لماذا تجب إطاعة الأوامر الصادرة من العلماء؛ لماذا لا يمكن المسـح على صور القطط؛ الموقف من القطط؛ كل هذه المعلومات، وأكثر، تصبح متوفرة مع تفعيل الشـبكات المعرفيـة المعنيـة. حضَّرت الخبرة السـابقة العلاقات التي تربط المعلومـات المختزنة (واردات تاريخنا الشخصي) مع الوارد الحالي. تعمل القشرة الأمام جبهية عمل مصفاة، تسمح لما نعرفه مسـبقًا أن يؤثـر مـا نحن على وشـك القيام به. إن الأشـخاص المصابين بتلف فـي المنطقة أمام الجبهية يمكنهم أن يستقبلوا في كثير من الأحيان معلومات عن كيفية التصرف اللازمة في حالة معينة، لكنهم لا يسـتطيعون أن يطبقوها؛ فقد انقطعت الرابطة بين المعلومات والسـلوك[6]، ووفق ما يعلِّق عالم أعصاب يعمل مع أمثال هؤلاء المرضى:

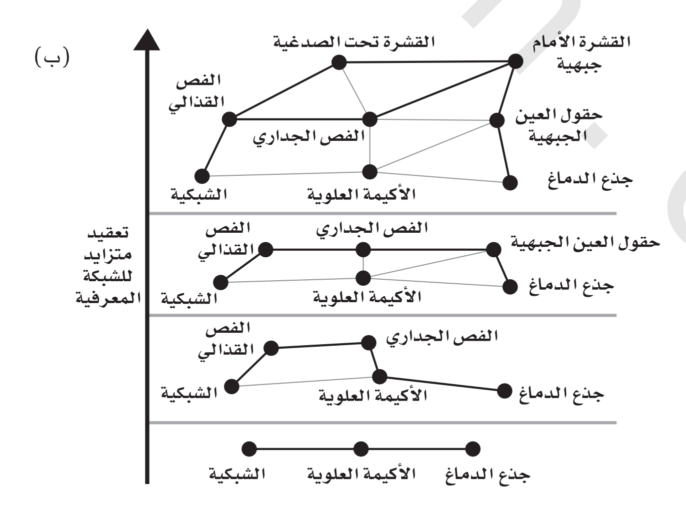
> **«من المقلق جدًّا سماع أحد هؤلاء المرضى يفكر بذكاء ويحل بنجاح مشكلات اجتماعية معينة عندما تقدم له المشكلة في المختبر على هيئة امتحان، على صورة حالة افتراضية. قد تكون المشكلة تمامًا من النوع نفسه لمشكلة عجز المريض عن حلها في الحياة الحقيقية والواقع. يبدي المرضى معرفة واسعة عن الحالات الاجتماعية التي أساؤوا الإدارة فيها بصورة فاضحة في الواقع، إنهم يعرفون المقدمات المنطقية للمشكلة، واختيارات التصرف، والعواقب المحتملة لهذه الأفعال المباشرة وعلى المدى الطويل، وكيف يستعملون هذه المعلومات بصورة منطقية، لكن كل هذا ليس له جدوى عندما تكون الحاجة ملحة إليه في الحياة الحقيقية».**

داماسيو Damasio، **البحث عن سبينوزا** Spinoza، الصفحات 143–144.

Damasio, Looking for Spinoza, pp. 143–4

مـرة أخرى، يسـتبعد التثبيط بعض أهداف حركة العيـن المحتملة ويشـجع أخرى، وتقارن عملية المطابقة فرضيات الدماغ، والتوقعات، والمواقف، والذكريات (واردات التاريخ) بالإشارات القادمة من الفص الجداري وحقول العين الجبهية. إذا كانت واردات التاريخ ترسل إشاراتها بقوة -مثلًا إذا تذكـر الشـخص الذي ينظـر إلى الصـورة أن القائم على التجربة أخبرهـم أن ينظروا إلى الأيسـر- عندها ستسـهل إشارة القشرة الأمام جبهية لممثلات الاتجاه نحو الأيسر في الفص الجـداري، حقـول العيـن الجبهية، والأكيمـة العلوية، مثبطـة الخلايا العصبية الأخـرى. ولكن إذا كان الشخص يشعر بالتمرد، أو قد نسي، أو كان يحب فعلًا القطط، فإن المعلومات الواردة سوف تهيمن وتشجع حركة العين الاهتزازية نحو الأيمن (نحو القطة).





الشـكل 5ـ10 (أ) مخطـط مرسـوم للمناطـق الأساسـية التي تشـترك في المعلومـات عن حركة العينين. تنشـأ الحركات الاهتزازية عبر سلسـلة من السـبل الواردة-الصادرة المتداخلة. (ب) يظهر السـبل منفصلة (يظهر

السهم إلى الأيسر اتجاه تزايد تعقيد الشبكة المعرفية، وزيادة الوقت لمعالجة المثير البصري والاستجابة له بحركة اهتزازية). تنشأ أسرع حركة اهتزازية عندما يصل المثير البصري إلى الأكيمة العلوية وينشئ حركة عينين. يمكن أن يحدث ذلك عندما يكون المثير بسيطًا جدًّا (كما في الشكل 10-4 (أ)). يمكن أن يحدث ذلك أيضًا عندما يتوقع الشخص المثير ويعرف مسبقًا أين سينظر. تحصل الحركات الاهتزازية الأكثر بطئًا عندما لا تثير الإشارات القادمة من الشبكية الأكيمة العلوية مباشرة، يوجد وقت عندها للوصول إلى المناطق القشرية-الفص القذالي والفص الجداري، وحقول العين الجبهية، والقشرة الصدغية السفلية، والقشرة الأمام جبهية. يعتمد أي من هذه المناطق سوف يُفعَّل على المثير البصري: تعقيده، وكونه يوافق ما يتوقع الدماغ أن يراه.



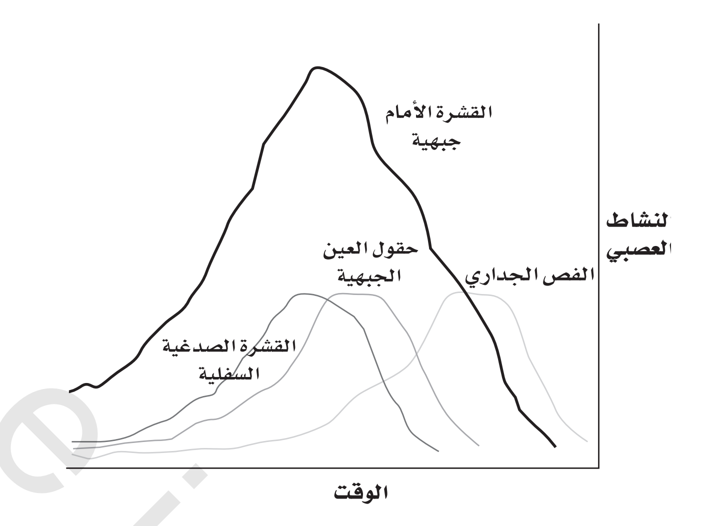
الشكل 10-6 يظهر الدور المهم الذي يمكن أن تؤديه التجارب السابقة في تحديد أين تنظر. تظهر الصورة العلوية اليسرى أبًا يحضن طفله الوليد. الشكل شكل معقد، يحتوي عدة أهداف لتحرك العينين إليها. تظهر الصورة التالية (العلوية اليمنى) كيف يمكن أن تُمثِّل الصورة البصرية في الأكيمة العلوية، التي تستجيب خلاياها العصبية بقوة للضوء الساطع. تظهر مناطق خريطة الأكيمة العلوية التي تنشط فيها الخلايا العصبية بشدة باللون الأبيض؛ والمناطق التي خلاياها العصبية غير نشطة باللون الأسود. أكثر المناطق ضياء في الصورة الأصل هي ذراع الأب وجزء من وجهه، والضوء فوق رأسه، وثياب الوليد، و(إلى حد أقل) بقية وجه الأب والستارة إلى يمين الصورة. من الواضح أنه لا يمكن أن تصل أي حركة اهتزازية إلى جميع هذه الأهداف معًا.

تظهر الصورة السفلية اليسرى مناطق من الصورة الأصلية التي تهمالخلايا العصبية في القشرة الصدغية السفلية وتمثلها أكثر بقوة. تستجيب القشرة الصدغية السفلية بشدة لوجوه البشر، ويهتم خاصة بمنطقة العينين، وهو تأكيد يعكس حقيقة أننا (ما لم نكن متوحدين) نستعمل عيون الآخرين مصدرًا أساسيًّا للمعلومات الاجتماعية، لذلك فإن النشاط العصبي يميل إلى أن يكون على أشده، بسبب ذلك، في المناطق التي تعالج الوجه، وخاصة العينين، في وجه الأب (ملامح الوليد مرئية بشكل أقل). لذلك، سوف تختار إشارة القشرة الصدغية السفلية حركة عينين تركزهما على وجه الأب، وهو ما يسمح بمعالجة أكثر تفصيلًا لتعابيره. يغلب أن يؤدي هذا الاختيار إلى قلب ميزان نشاط الخلايا العصبية للأكيمة العلوية لمصلحة الحركة تجاه عيني الأب، كما يظهر في الصورة السفلية اليمنى (الذي يمثل فيه موقع الهدف دائرة بيضاء ممتلئة والحركة الاهتزازية القادمة بخط أبيض سميك).

تختلف التوقعات والذكريات حسب ذلك: «أريد أن أنظر إلى القطة»؛ «الأيسر ممل»؛ «حان وقت إخبار هذا المهوَّس بالعلم من هو المسيطر هنا». في النهاية، سوف تحقق المفاوضات (التي صار يشارك فيها الآن معظم الدماغ) إجماعًا كافيًا لإنشاء حركة عينين، لكن حالات قليلة فقط في حياتنا اليومية تسبب لنا هذا المقدار من المشكلات. تتخذ القرارات في معظم الوقت على مستوى الأكيمة العلوية، أو القشرة الجدارية الخلفية، أو حقول العين الجبهية.

(توقف وفكِّر): الوظيفة العامة

كثيرًا ما يوصف القشرة الأمام جبهية بأنه هو من يحقق قدرة الدماغ على الوقوف والتفكير: مثبطًا الحركة للسماح بوقت يسمح بأخذ المعلومات الأخرى بالحسبان؛ فهو يتوسط الاسترجاع النشط للمعلومات المختزنة وتطبيقها، في حين يهدئ الرغبة في التصرف. ولكن ما يقوم به القشرة الأمام جبهية هو ذروة جبل جليدي من أفعال مماثلة تقوم بها مناطق الدماغ الأخرى كالفص الجداري وحقول العين الجبهية. يمكن أن تستجلب المناطق أمام الجبهية معلومات أكثر من تاريخنا الشخصي؛ إنها تستجيب لاحقًا، ويميل تفعيلها بالمثيرات -بسبب المناطق العديدة التي تستقبل منها الوارد- لأن يكون طويلًا بالخاصة (انظر الشكل 7-10).



الشكل 7–10 تمثيل تقريبي للنشاط العصبي (المحور العمودي) بالنسبة إلى الوقت (المحور الأفقي) في أربع مناطق قشرية (الفص الجداري، وحقول العين الجبهية، والقشرة الصدغية السفلية، والقشرة الأمام جبهية) تشترك في حركة العينين. الفص الجداري هي أول المناطق الأربع تفعيلًا بالمعلومات البصرية، وينتج من التفعيل ازدياد سريع في النشاط العصبي، يتبعه عودة أبطأ إلى المستويات الأساسية. تشاهد أنماط مماثلة من النشاط العصبي في حقول العين الجبهية والقشرة الصدغية السفلية، لكن هذه تفعَّل لاحقًا، ولكن كلًّا من هذه المناطق الثلاث ترسل إشارات إلى القشرة الأمام جبهية منذ لحظة التفعيل. لأنها ترتكس بأزمنة مختلفة، فإن نشاط القشرة الأمام جبهية الناتج، الذي يساهم فيه الجميع، طويل الزمن.

هذا النشاط مديد الزمن هو الذي يشكل أساس الذاكرة قصيرة الأمد، وهو ما يسمح للدماغ بإبقاء سجل واع للمعلومات البارزة (مثلًا رقم هاتف) حتى يصبح بالإمكان إجراء الفعل (مثلًا إيجاد دفتر أرقام الهواتف، أو الاتصال بالرقم).

ولكن لا يوجد فارق في النوع (فقط في التوقيت والواردات) بين ما يقوم به القشرة الأمام جبهية وما تقوم به حقول العين الجبهية أو الفص الجداري؛ إذ تفعِّل المناطق الثلاث كلها الخلايا العصبية الموافقة في الأكيمة العلوية (عبر تشابكات عصبية شحذتها الخبرة)، في حين تثبط نشاط الخلايا العصبية المشفِّرة لمناطق أخرى في المشهد البصري (الخلايا العصبية في الفص الجداري) أو الحركات إلى تلك المناطق (الخلايا العصبية في حقول العين الجبهية). تمنع الأكيمة العلوية حركة العين من أن تثار ببساطة من قبل أكثر الخلايا العصبية نشاطًا، وبدلًا من ذلك يجب أن تقنع الخلايا العصبية الأخرى بأن تصمت (أي تتوقف عن النشاط).

هـذه الحاجـة إلى الاستشـارة، التي تمنع عيوننا مـن التنقل الآلي من نقطـة إلى أخرى، هي صـورة أساسـية مـن آليـة (توقف وفكّـر)، وتعتمد أساسًـا علـى نوعية الـوارد البصري المباشـر؛ فأحيانًا يكون الوارد كافيًا لأن يُنشِئَ حركة عينين، إذا كان طاغيًا (بقعة لامعة على خلفية سوداء على سبيل المثال)، فإن يكن كذلك، يحدث مزيد من المعالجة (كما يسميها علماء الأعصاب) أو التفكير (كما يسميها بقية الناس). يصل الوارد إلى القشرة البصرية، ثم يتدفق عبر الدماغ جيئة وذهابًا في نهرين كبيرين، سبيل (أين) الأسرع، الذي يحدد حركة العين التالية، وسبيل (ماذا) الأبطأ، الذي يتوسـط تعرُّف الشـيء. تنتهي هذه السـبل في الفص أمام الجبهي، لكنها تتصل مع كل تشـابك عصبي على الطريق، حيث تشاركها الافتراضات المشذبة عن كيف ستتحرك العينان (أيـن) ومـا الـذي سـتنظران إليه (ماذا). يمكـن أن تركّز الفص الجداري الإشـارة القادمة بما يجعـل إصدارهـا إلـى الأكيمـة العلوية يُنشِـئ حركـة. إن لم يكن ذلك، سـوف تسـتمر آلية (توقف وفكِّر) مدة كافية من الزمن لأن نلاحظها، مع وصول النشـاط العصبي إلى حقول العين الجبهية ثم القشرة الأمام جبهية.

الجهد والتأقلم

وصفتُ آلية السيطرة على حركة العينين بهذا التفصيل كي أوضح أنه لا يوجد شيء سحري في طريقة عمل القشرة الأمام جبهية؛ إنه يفعل ما تفعله مناطق الدماغ الأخرى، وإنما فقط ببطء أكثـر وبمزيـد مـن المعلومـات، وهو ما يسـمح لخبرتنا السـابقة أن تـؤدي دورًا في تحديد سـلوكنا الحالي أكبر مما لو كان ممكنًا في حال كان الفص أمام الجبهي أقل تطورًا. قد يكون هذا التأثير المسـتمر للماضي على الحاضر، بزيادة اسـتمرارية الإدراك مع الزمن، أحد أسـباب كون شـعور الإنسـان بذاته متينًا جدًّا. ولكن، في معظم سـلوكنا في الحياة اليومية لا ضرورة للتفعيل الشـديد للقشر أمام الجبهي؛ إذ نعتمد على الرتابة الآلية أكثر بكثير مما نحب أن نقر به[7]. توجه الشبكات المعرفيـة المطـوَّرة جـدًّا فـي المناطق الأخـرى من الدمـاغ، التي تقويهـا التجربة العمليـة، تدفقَ النشـاط العصبـي مـن الوارد إلـى الصادر، ولا حاجـة إلى إزعاج السـلطات العليـا بالأمور الفنية الدنيـا مثل التنفس، والمشـي، والقيـادة؛ فبالإمكان تفويضها إلـى اللجان الفرعية من الشـبكات المعرفية المتخصصة.

دور القشرة الأمام جبهية مهم في التعامل مع الأمور الجديدة والتحديات، وتظهر الدراسات أنه يكون أشد نشاطًا عند تعلم مهمة جديدة. مع تحول العمل إلى عمل آلي، مسهِّلًا المهمة، يقل تفعيل القشرة الأمام جبهية؛ ذلك لأن الشبكات المعرفية في المستويات الدنيا (التي تصل الفص الجداري بالأكيمة العلوية مثلًا) تتقوى بمعدل أكبر من الشبكات المعرفية في المستويات الأعلى. تذكروا الفصل 8: تتقوى الشبكات المعرفية الأكثر بساطة أكثر من الشبكات الأكثر تعقيدًا، كما تتقوى الشبكات المعرفية الأكثر استعمالًا من الشبكات الأقل استعمالًا. الشبكات المعرفية في المستوى الأدنى أكثر بساطة من تلك التي يتضمنها القشرة الأمام جبهية (حيث إن عددًا أقل من مناطق الدماغ يتدخل)، وهي تتفعَّل مرات أكثر، لأن كثيرًا من المهام الرتيبة تفعِّل الفص الجداري لا القشرة الأمام جبهية؛ فلذلك تصبح القشرة الأمام جبهية مع مرور الوقت أقل فأقل اشتراكًا في تدفق النشاط الذي تولده المهام التي أصبحت مألوفة أكثر فأكثر.

كما بحثنا سابقًا، عندما يجري تفعيل القشرة الأمام جبهية فإنها ترسل إشارات إلى مناطق أخرى من الدماغ، وتسهِّل هذه الإشارات النشاط في الإشارات المعرفية الموافقة (أي تلك المرتبطة معًا بالخبرات السابقة)، في حين تثبط النشاط في الشبكات المعرفية الأخرى. بالعودة إلى مثال تدفق الماء من الفصل الثامن، نجد أن هذا التثبيط يقلل التسرب، وبدلًا من تشتت النشاط في عدد لا يحصى من الاتصالات، فإنها تتركز في مجموعة صغيرة من الشبكات المعرفية، وهو ما يسمح لهذه أن تتقوى أسرع. وهكذا، كما بحثنا في الفصل الثامن، فإن القشرة الأمام جبهية يعمل كمن يضع إبهامه على فتحة الخرطوم، بحيث يقوي بصورة مؤقتة التدفق عبر شبكات معرفية مختارة حتى تتقوى بصورة أسرع. بهذا المعنى فالقشرة الأمام جبهية يحدد ذاته: هدفه هو تقليل نشاطه الخاص. ويصح ذلك أيضًا في مناطق الدماغ الأخرى، بعبارة أخرى، تتصرف أدمغة البشر كما لو أنها كانت مصممة لتقليل العمل الذي تقوم به إلى أدنى حد.

نشاط القشرة الأمام جبهية عمل مضن؛ إنه يستهلك كثيرًا من موارد الدماغ. يفهم فنيو التأثير هذا غريزيًا، فهذا هو السبب في أن إحدى تقنيات البيع المفضلة هي استعمال الجديد لإشغال القشرة الأمام جبهية قبل إغراقه بكمية ضخمة من التنبيهات بحيث يوافق المستهدف المتعب على الشراء فقط ليخفف هذا الضغط. استُعمل المبدأ نفسه استعمالًا فاعلًا من قبل المحققين في الصين الشيوعية، كما رأينا في الفصل الأول. يصف روبرت ليفتون Robert Lifton تجربة ليست شاذة لأحد المشاركين في دراسته، تشارلز فينسنت Charles Vincent الذي بدأت

إقامته في (مركز إعادة التعليم) بالسلاسل وبأسبوع دون نوم. كانت التحقيقات التي تستمر ساعات تجرى ليلًا في معظم الأحيان؛ خلال اليوم كان فينسنت Vincent (يعاني) بسبب ثمانية سجناء آخرين كانوا معه، في استفزاز تضمن الشتم المستمر والإهانة الجسدية. في النهاية، «بعد أن طغى عليه الإنهاك، والارتباك، والعجز، أوقف كامل المقاومة»[8]، وأعلن أول سلسلة من الاعترافات الكاذبة.

الإدراك

إضافة إلى تفعُّلها في أثناء الجهد العقلي، فإنه يعتقد كثير من علماء علم الأعصاب أن لتفعيل القشرة الأمام جبهية دورًا حيويًّا في التفكير المدرك. يثير ذلك طبعًا التساؤل عن كيفية تعريف الإدراك، وهي مشكلة حيَّرت المفكرين لآلاف السنين. بدلًا من الخوض في مستنقع تعريف الإدراك (الذي تفاصيله، وإن كانت رائعة، ليست ضرورية لغرضي هنا) سوف أتبنى موقفًا مبسطًا ربما لا يكون بعيدًا جدًّا عن الذي يتخذه كثير من الباحثين في علوم الدماغ[9]، يقسم هذا الموقف الإدراك إلى جزأين اثنين، سوف أطلق عليهما الوعي والمراقبة.

يحدث الوعي نتيجة لنشاط الدماغ، وهو مستمر، ويميِّز عددًا من الأنواع الحيوانية غيرنا[10]، وهو لا يشمل شعورًا محددًا بالذات، بل يشمل محو الذات، ولذلك تذكيه الديانات التقليدية، مثل البوذية التي تعدُّ الوعي الزائد للذات مشكلة، وكذلك يذكيه كثيرًا فنيو التأثير: تذكروا حالة الضبط الذاتي التي وصفها ستانلي ميلغرام Stanley Milgram (انظر الفصل الرابع) التي تسمح للشخص بأن يستغرق في التفاصيل على حساب التفكير في المضامين الأكثر وسعًا لأفعالهم. يبدو أن منبهات معينة، خاصة إذا كانت مألوفة أو متكررة جدًّا، جيدة خاصة في إنشاء حالة وعي. يلتقط وصف تي. إس. إليوت T. S. Eliot جوهر هذه الحالة حين يقول: «موسيقى تُسمع عميقًا جدًّا/ لا تُسمع على الإطلاق، لكن أنت هي الموسيقى/بينما تستمر الموسيقى»[11].

المراقبة آلية أكثر تخصصًا، ترتبط بنشاط الفص أمام الجبهي، وهي متقطعة وليست مستمرة، تغمس وتأخذ عينة من أكثر الأجزاء نشاطًا في تيار من الوعي عندما يدفعها للقيام بذلك حالة جديدة أو حالة تحد. والمثير المعقد جدًّا، بحيث يتوافر لديه الوقت لتنشيط واردات تاريخ الدماغ، يغلُب أن يفعِّل عملية مراقبة، أما المثيرات الأكثر بساطة أو المألوفة جدًّا فأقل

احتمالًا للقيام بهذا التفعيل. إن الإدراك بهذا المعنى من المراقبة هو الذي يترافق مع تفعيل القشرة الأمام جبهية، مثيرًا الفكرة المحيِّرة بأن فعل الإدراك قد يكون تقليل وجوده الخاص إلى أدنى حد[12]. تسمح المراقبة لنا بتقسيم الأفكار في قطع يمكن معالجتها وإعادة تجميعها، وهو ما يوفر نمطًا يمكن أن يكون غير محدود يميِّز الأنظمة الرمزية مثل اللغة والرياضيات.

إن القدرة على أخذ العينات مفيد جدًّا للذاكرة، والوعي، وتدفق النشاط العصبي خلال الدماغ، والتغيرات في الشبكات المعرفية التي تتدفق بها من غير الحاجة إلى التدخل الواعي، تاركة بذلك سجلًا متغيرًا باستمرار لوجودها. هذا هو أساس الذاكرة الضمنية، التي نتعلم من خلالها مهارة جديدة، أو التأقلم مع الوزن المتغير لزجاجة عصير التوت البري، من غير حتى أن نلاحظ ذلك، ولكن لدينا أيضًا ذاكرة صريحة، لتعلُّم الحقائق، أو تذكر الكلمات، أو تذكر مواقف معينة؛ فعندما تحاول الفتاة التي تشارك في السكن في شقة تحسين لغتها الإيطالية، فإنها تريد تذكر الكلمات، وفقط الكلمات. لا تريد وصفًا مفصلًا للأريكة التي تجلس عليها، أو رائحة الأقحوان في المزهرية القريبة، أو صوت قصاصة عشب الجيران؛ إنها تريد أن تركز انتباهها في مكوِّن واحد للوعي، مغلقة كل شيء آخر. إذا كانت محفَّزة بما يكفي، عندها سيقوم الوارد التاريخي الذي يرتبط بمهمة تعلم اللغة الإيطالية بإرسال إشارات قوية إلى القشرة الأمام جبهية لديها، وسيكون اهتمامها مركزًا جدًّا بحيث إنها قد لا تسمعني حتى وأنا أسألها هل تريد شرابًا، وإن لم تكن كذلك فقد تجد أن وعيها يأخذ عينات من مشهد حديقة الجيران أكثر مما يأخذ من أفعال اللغة الإيطالية.

الدماغ الشخصي

إذا كانت المراقبة تترافق مع نشاط الفص أمام الجبهي، فإن الدرجة التي تحدث فيها المراقبة يجب أن تختلف كثيرًا من دماغ إلى آخر، فبعض الناس قد يكونون أكثر وعيًا، وأكثر بديهة، من غيرهم، حتى لو كانت أنماط نومهم متشابهة. ونمو الفص أمام الجبهي يكتمل في المراهقة المتأخرة، ومثله مثل العضلات؛ فإنه يعمل بصورة أفضل كلما استعمل أكثر، وهو كذلك -مثل العضلات- يمكن أن يمرَّن كي يعمل بصورة أكثر كِفاية، حيث يزداد التركيز والذاكرة قصيرة الأمد، ويسهِّل التعليم والحياة العقلية النشطة المستمرة نموَّه، وكذلك يسهله خوض تجارب جديدة والتعرض لبيئات معقدة. يكدس العمر طبقات متراكمة من المعلومات المختزنة،

ويعطـي القشـرة الأمـام جبهية واردًا تاريخيًّا أكبر يسـتمد منـه. وكما يشـحذ التمرين العضلات، ويحسـن الصحة، ويحمي من الأمراض، فكذلك يشـحذ اسـتعمال القشرة الأمام جبهية الشبكات المعرفية، ويحسن المرونة العقلية، ويحمي من تقنيات التأثير.

هناك بعض الأدلة على وجود فوارق بين الجنسـين في قدرات القشـرة الأمام جبهية، حيث تتطـور وظيفة القشـرة الأمـام جبهية أبكر عند الإنـاث منها عند الذكور، وهنـاك دليل أيضًا على وجود فوارق شـخصية؛ فعلى سـبيل المثال يختلف تركيز النـاقل العصبي الدوبامين، الذي له دور حيوي في القشـرة الأمام جبهية، اختلافًا كبيرًا حسـب أي نمط من أنماط مورثة معينة توجد في الشخص[13]. يستخدم البشر أصلًا أدوية مثل الأمفيتامينات، تعزز مستويات الدوبامين في القشرة الأمـام جبهية، لتحسـين المزاج ومسـاعدتهم علـى التفكير، ربما مع تعلمنا لعلـوم الوراثة والعلوم العصبية بصورة أفضل، سوف تتطور مقويات أكثر انتقاء وفاعلية للشبكات المعرفية؛ ربما تطلب شركات التأمين في المستقبل صورًا للدماغ لتقييم وظيفة القشرة الأمام جبهية قبل إعطاء وثائق تأمين، في حين سيسـتعمل فنيو التأثير تلقائيًّا البحوث العصبية العلمية عندما يقومون بحملتهم (بـدأت مسـبقًا صياغـة مصطلح التسـويق العصبي، مع أن البحوث في هـذا المجال لا تزال قليلة جدًّا)، ولكن حتى ذلك الوقت فإن دراسة كيف يختلف القشرة الأمام جبهية من شخص إلى آخر لا تزال في بداياتها.

الخلاصة والاستنتاجات

كيفيـة عمـل القشـرة الأمام جبهية ذات أهمية حيوية لدراسـة غسـيل الدمـاغ، وقد قلت في بدايـة هـذا الفصـل إن هـذه المنطقة الأكثر روعة من المناطق القشـرية هي التـي تنجز المذهب الفكري للدماغ، فهي تفعل ذلك بالتواسـط بين الماضي والحاضر، فتسـمح بتطوير سـلوك معقد ليس مجرد سلوك مدفوع بالمثيرات، ولكن سلوك يعكس أيضًا تأثير المعلومات المتراكمة. يساعد تأثير الخبرات السـابقة على خلق انطباع من الاسـتمرارية مع مضي الزمن، مسـاهمًا في إحداث شـعور بالثبـات بحثناه في الفصل السـابع. يسـمح القشـرة الأمام جبهية السـليم، الغنـي بالتعليم والخبـرة الواسـعة، بالتفكيـر للأمـام، لمقاومة الإغـواء (أحيانًا)، واختراق المسـرات المباشـرة للنظـر فـي العواقـب طويلـة الأمد. هـذه جميعًا قـدرات لا تلائـم من ينـوي أن يكـون متلاعبًا. في الحالة المثالية، تتجاوز تقنيات غسيل الدماغ القشرة الأمام جبهية أو تغتصب دور القشرة الأمام

جبهية، موجهة النشاط العصبي إلى شبكات معرفية تحقق المعتقدات المرغوبة في حين تضعف أو تمحو قناعات الضحية المتقدمة. هل يمكن أن تحاكي مثلُ هذه التقنية مطلقًا الآلةَ العجيبة التي تتوضع تلافيفها في القسم الأمامي من رأس الإنسان؟ سوف أبحث هذه الاحتمالية في الفصل الرابع عشر.

ولكن، سنبحث أولًا في مشكلة ضخمة جدًّا بحيث إنها حفزت التفكير لأكثر من ألفي سنة، ولا تزال مثابرة كثقب أسود في اللب الفكري لكل من العلوم العصبية وعلم النفس. لقد وصفت في هذا الفصل، وفي الفصول السابقة، الدماغ بمصطلحات سببية محضة؛ يتدفق الوارد، محدثًا تأثيرات (في القشرة الأمام جبهية ومناطق أخرى) تُحدِث بدورها استجابات. لم تفهم تمامًا حتى الآن الآليات التي تحدث في التشابكات العصبية والتي تكمن وراء النشاط العصبي، ولكن لا توجد أي إشارة لوجود مكان للسحر. مع ذلك نشعر نحن البشر أن هناك شيئًا سحريًّا متعلقًا بنا، نحن نسميه الحرية، ويعظمها بعضنا جدًّا حتى إننا نموت في سبيلها. يكمن في لب الحرية شعور بضبط النفس، بحثناه في الفصل الأول، نسميه حرية الإرادة؛ هو اعتقادنا أننا بشكل ما -مهما كان غير مثالي- أسياد مصيرنا، ويكمن هذا الشعور بالسيادة في لب غسيل الدماغ، ولولاه لم نكن لنجد أي شيء مدهشًا أو مرعبًا في حلم التحكم في العقل، حيث إن المحاولات للتلاعب بنا كانت ستجري تحت غطاء من الأسباب، ولكن إذا كان كل شيء نفعله له سبب، فكيف نكون أحرارًا؟ سوف أحاول الإجابة عن هذا السؤال في الفصل القادم.

.....

أمر الحرية ذاك

«**أتمنى لو كنت أعرف كيف سيكون شعور أن أكون حرًا**».

نينا سيمون، Nina Simone، **عنوان أغنية**.

Nina Simone, song title

في نهاية الفصل السادس بحثت ست أفكار أساسية في غسيل الدماغ: القوة، والتغيير، والسببية، والمسؤولية، والذات، والإرادة الحرة؛ يتضمن غسيل الدماغ تطبيق القوة على الضحية أو الضحايا، مسببة تغييرات في كل من التفكير والسلوك، قد تكون عميقة جدًا بحيث تؤثر في أقوى معتقدات الضحية، لب ذاتها؛ لا يعود المغسولون دماغيًا يملكون إرادة حرة؛ إذ يجب عليهم أن يتصرفوا حسب أوامر غاسلي الدماغ، ولكن غسيل الدماغ الناجح يترك الضحايا غير مدركين لعبوديتهم الجديدة؛ أي إنهم لا يزالون يعدون أنفسهم أشخاصًا أحرارًا ومسؤولين، وما لم يصبح غسيل دماغهم قضية رأي عام، فسيعطي المجتمع الحكم نفسه. هذا هو جوهر غسيل الدماغ: فكرة أن حركاتنا وأفكارنا كلها يمكن أن يتحكم فيها شخص (أو شيء) آخر، من دون حتى أن ندرك ذلك، عندها فإن القوة وحرية الفعل اللذين نفترض أننا نملكهما هما مجرد وهم، وشعورنا بالسيطرة بناء فكري جميل لكنه في الحصيلة فارغ.

مشكلة الإرادة الحرة

قد يبدو غسيل الدماغ إرهابًا غير محتمل؛ وقد نشعر بأنه يُتلاعَب بنا بالإعلانات ووسائل الإعلان، لكننا نعرف ماذا يجري عندما نشاهد إعلانًا تجاريًا؛ يمكننا أن نذهب ونشتري كتبًا كتبها علماء علم النفس الاجتماعي التي تخبرنا عن الخدع التي يجب أن نتنبه لها، وحتى لو وجدنا أنفسنا نشتري منتجات لا نحتاج إليها فعلًا، فنحن لا نزال أحرارًا من حيث المبدأ، أليس كذلك؟

قد يظن المرء أنه لا شك في أن الإجابة عن هذا السؤال هي بلى، في نهاية المطاف نحن نلقي كثيرًا على الحرية! حتى الأفعال في لغتنا تبدو أنها تتضمن القدرة على العمل، أو على الامتناع عن العمل. كلمة (أستطيع) هي من بين أكثر كلمات الأطفال تفضيلًا، وجاذبيتها لا

تنتهي مع نهاية الطفولة. نحن نتعلم باكرًا أن نتحكم في أجسادنا، في حين تبادر هي بالخضوع لسحر التجنيد، فنحن نرى لعبة جديدة، ونرغب فيها، ومن ثم نجد يدنا هناك، خادمًا مطيعًا، تمتد لتأخذ ذلك الشيء. منذ ذلك الوقت والقوة هي ما نفترضه أساسًا، في حين أن الحياة سلسلة طويلة من الإحباطات؛ فنحن نعتقد أننا نستطيع إلى أن نجد أننا لا نستطيع، ومع توسع معلوماتنا عن العالم، تتوسع قائمة القيود على حريتنا. معظمنا، في معظم الوقت، يوافق على أغلب هذه القيود، بنيَّة حسنة أو سيئة، ثم نطوِّر قيمًا أخرى؛ من الأمن إلى المكانة، ومن الشرعية إلى الحب، ونقلص حريتنا كي نحقق هذه الرغبات الأخرى، بل إننا نستطيع أن ندرب أنفسنا على ازدراء ما تخلينا عنه، ومع ذلك تبقى الحرية إحدى أقوى الأفكار المقدسة في العالم، تخفق راياتها الملطخة بالدماء فوق جثث عدد لا يحصى من الرجال والنساء الذين كانوا يعتقدون أنها تستحق الموت من أجلها.

هناك أيضًا موضوع المسؤولية؛ فإذا كانت الحرية وهمًا، فكيف يحكم علينا بأننا مسؤولون عن أفعالنا؟ كما لاحظنا في الفصل السادس، فإن مفاهيم الحرية والمسؤولية مكونات جوهرية في نظامنا القضائي؛ وهذا هو السبب في أن ادعاءات غسيل الدماغ التي استعملها باتي هيرست Patty Hearst ضد تابعي تشارلز مانسون Charles Manson أثارت كثيرًا من الاهتمام والتعليقات في ذلك الوقت؛ العجوز التي سلبها مراهق بعنف تعتقد أن مهاجمها كان يتصرف بكامل حريته، وكان يمكنه أن يختار ألا يؤذيها، فالقاضي الذي يقضي بأن يخدم الشاب في الخدمات الاجتماعية يقضي بعقوبة، وهي فعل قد يبدو بلا معنى، بل مجحفًا، إذا لم يكن الشاب يتصرف ملء حريته.

الحرية تلهمنا، إننا نعتمد عليها عندما نخصص المسؤولية، ومع ذلك فإن فكرة أن الحرية وهم لها تاريخ قديم ومميز، ولكي نفهم لماذا يطلق الناس هذا الادعاء يجب أن نعود إلى فرع معرفي أعطى كثيرًا من الاهتمام والجهد لاستكشافها: الفلسفة.

الحرية والحتمية

«الأصبع المتحرك يكتب، وفور أن يكتب

ويمضي في طريقه لن يستطيع كل الورع أو الذكاء الذي تتمتع به

أن يستعيده لكي يحذف نصف سطر

ولن تستطيع كل دموعك أن تغسل كلمة واحدة مما كتبت

هذه الكأس المقلوبة التي يسمونها السماء

حيث نحيا ونموت تحتها زاحفين في رقعة ضيقة

لا ترفع يديك إليها طلبًا للمساعدة

لأنها تتحرك حركة عميقة مثلنا أنا وأنت».

رباعيات عمر الخيام

The Rubaiyat of Omar Khayyam, trans. Fitzgerald

في التفكير الديني، تظهر فكرة أن الحرية وهم بصورة الأقدار التي تعزو السيطرة على مصير البشر إلى إله أو آلهة، ويشار إليها في الفلسفة (بالضرورة) أو (الحتمية)؛ وفي الثقافة الشعبية (القذارة تحدث) أو (هكذا تجري الأمور)، إلى أن ظهر قانون الكميات ليزعزع استقرارنا جميعًا، كانت الحتمية حجر الأساس للعلوم. في العالم ذي الأبعاد الواسعة الذي يهتم به معظم العلماء (والغالبية العظمى من الكائنات البشرية)، لا تزال الحتمية أساسًا، معززة الافتراض بأن العالم ثابت وهو من ثم قابل للفهم.

تنص الحتمية على أن الكون يعمل ضمن قوانين، قوانين يمكن أن تُفهم من قبل البشر وتُستعمل في تنبؤ المستقبل، وإذا كان كل قانون معروفًا، فإن التنبؤ سيكون دقيقًا مئة في المئة؛ لأن كل شيء يحدث في الكون يُسبب حدوثه بأحداث سابقة، ويصف الفيلسوف بيتر فان إنواغن Peter van Inwagen الحتمية بأنها فكرة أنه «يوجد بالضبط في أي لحظة احتمال فيزيائي واحد»[1]، يتحدد هذا المستقبل سببيًّا بكل ما حدث قبله، ومن ثم لا يمكن أن يكون بخلاف ما يظهر عليه في الواقع.

إذا كانت الحال كذلك، فما الذي يحدث لشعورنا بأننا أحرار، بأنه كان من الممكن أن نفعل غير ما فعلناه؟ يميل المعلقون على حرية الإرادة إلى الجواب عن هذا السؤال بإحدى طرائق ثلاث؛ فيجيب الحتميون أن الإرادة الحرة وهم، سواء أحببنا ذلك أم لا، وينكر المتحررون الحتمية، ويجادلون أن بعض أفعالنا ليست جزءًا من الشبكة السببية، والتوافقيون يحاولون أن يظهروا أن كلًّا من الإرادة الحرة والحتمية يمكن أن يكونا حقًّا في آن معًا.

هناك أسباب وجيهة للإيمان بالحتمية، راجعها جيدًا مؤخرًا عدد من المؤلفين، لكن لا يسعنا المجال للدخول في التفاصيل هنا[2]، لكن يكفي القول إن فكرة الحتمية السببية فكرة يصعب إلقاؤها بعيدًا. حتى في نطاق التفكير والفعل، نحن نتوقع، ونشرح، ونخمن، باستعمال افتراض أن

الأسـباب متبوعة بالضرورة بتأثيراتها. في نهاية المطاف، لا نريد ألا يكون لأفعالنا أسـباب؛ فإذا بدأت رجلي بالتحرك من غير أن أعرف السبب، فإنني لا أفرح بأنني حر من شبكة الضرورة، وقد أثبتُّ أخيـرًا أن الحتمية غير صحيحة، بل أنتظـر أن تحدث مرة أخرى، حتى أتأكـد أنني لم أكن أتخيل حركتها، ثم أبحث بحثًا مضنيًا عن السـبب، وإذا لم أسـتطع أن أجد سببًا أذهب لاستشارة طبيبي، وليس لاستشارة فيلسوف.

لا تكمـن الحريـة فـي الأفعـال التي ليس لها سـبب -هذا هو السـبب في أن نظريـة الكميات ليسـت هـي المنقذ لـلإرادة الحرة الذي يحـب المدافعون عن الحرية أن يكـون- وإنما في الأفعال التي أسببها أنا[3]؛ فعندما تتحرك رجلي، أحب أن أكون على علم أنها تفعل ذلك لسبب؛ وبالتحديد لأننـي أردت أن أحركهـا. أنـا كانـت عنـدي الرغبة، أنا كانت لـدي القوة، ثم أصبحـت حركة. كون المـرء حـرًّا يعنـي قدرته على تحقيق رغباته، لاتباع (أسـتطيع) بأنا (أفعل). يكـون فعلي حرًّا إذا اسـتطعت اختيـار أن أقـوم به. «آه»، يقول ذلـك الحتمي المزعج: «ولكن خياراتـك، ورغباتك، هي نفسـها محددة بمجموعة من الأسـباب التي لو تتبعتها بما يكفي إلى الوراء، فسـتأخذك إلى بداية الكـون. كنت سـتقوم دائمًـا باتخاذ خيار أن تتصرف». في هذه الحالة، أيـن يمكن أن نجد الإرادة الحـرة؟ لمـاذا -إذا كانـت وهمًا- نجدها قابلة جـدًّا للتصديق؟ وماذا عن المسـؤولية الأخلاقية، وكل شيء تابع لها؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، ومن ثم فهم كيف يؤثر غسيل الدماغ في الحرية، يجب علينا أولًا أن ننظر في فكرة الحرية نفسها.

تاريخ مختصر للحرية

بينمـا كانـت الحريـة موضـع اهتمـام البشـر عبر تاريخهـم، فقـد كان النظر إليهـا بطرائق مختلفة جدًّا؛ إذ حاجج الكتَّاب الرواقيون في العالم القديم -على سبيل المثال- أن المواطن حر إذا كان (لم تُعدَّ النسـاء مواطنات كاملات) جيدًا ومسـؤولًا، حتى لو كان يعيش في العبودية، هذا لأن الحرية كانت تعد القدرة على إرادة ما هو جيد ومعقول، أي ألا يكون مسـتعبدًا برغبات سـيئة وغير معقولة.

ولكن رأى بعضُ الكتاب التقليديين ذلك طريقًا ملائمًا لتبرير الوضع الحالي الذي كانوا يرون أنـه ظالـم جدًّا، وكانوا يصرون على أن الحريـة تتطلب بالحد الأدنى انعدام الإكراه، وذهب بعضهم أكثـر مـن ذلك؛ مجادلين أن الحرية ليسـت فقط غياب الإكراه، وإنمـا غياب الاعتماد على الآخرين أيضًا، فإذا كان شخص معتمدًا على الإرادة الحرة لسيد، حتى لو كان عمليًّا قادرًا على فعل ما يشاء، فإنه ليس حرًّا في الحقيقة، إذ ليس لديه أي سيطرة على سيده، الذي قد يغير رأيه في أي لحظة. تكمـن الحريـة الحقيقيـة فـي الاكتفاء الذاتي، وهي لا تسـتلزم انعـدام القانون، وإنما العيش ضمن قانون سـاعد المرء نفسـه على وضعه. يحتاج ذلك إلى حالة من الديموقراطية أكثر عمقًا ومباشـرة من أي شيء يوجد لدينا اليوم، حيث يسهم كل مواطن حر مباشرة في سن القانون الجديد.

ووفق ما يرى كوينتن سـكينر Quentin Skinner المختص بتاريخ التفكير السياسـي للإقناع، فـإن هـذه النظريـة (الرومانية-الجديدة) للحرية اعتنقت مرة أخرى فـي عصر النهضة، خاصة من قبل المفكر الإيطالي ذي النفوذ الهائل نيكولو ماتشـيافيلي Niccolo Machiavelli[4]، واكتسـبت شـعبية خاصـة فـي بريطانيا، حيث اسـتعملها كتاب مثل جـون ميلتون John Milton لانتقاد سـلوك الملـك تشـارلز Charles الأول[5]، ولكـن فقـدت الأفـكار الرومانيـة الجديـدة شـعبيتها مع اسـتعادة خصمهـم العتيـد توماس هوبـز Thomas Hobbes لمكانته، وصعـوده التدريجي فـي عالم التفكير السياسـي؛ فقـد جـادل هوبـز Hobbes فـي أن الحرية هي مجرد غيـاب الإكراه، وليس الاعتماد[6]، والأكثـر مـن ذلك أنه جعل تغير الظروف الاقتصادية والاكتفاء الذاتي غير عملي بصورة متزايدة حيـث أصبـح المجتمـع أكثر تعقيـدًا مع زيادة الاعتمـاد المتبادل، ومـع أن الرومانيـة الجديدة قد شكلت موقفًا لا يزال مستمرًّا في التفكير السياسي -أعمال الفيلسوف السياسي من القرن الثامن عشـر جـان جـاك روسـو Jean-Jacques Rousseau مثـال علـى ذلك- فـإن تأثيرها قـد تضاءل في العصر الراهن.

مع تقلص تعريف الحرية، من غياب الإكراه المحتمل (من قبل السـيد المتقلب مثلًا)، إلى غياب الإكراه الفعلي في نظريات هوبز Hobbes، توسـع الطيف الذي تشـمله. في العالم التقليدي، ينطبق القانون وسـلطة الدولة من ناحية المبدأ على جميع مظاهر السـلوك. لا يزال بعض واضعي النظريـات والحـكام الديكتاتوريون يطابقون هـذا النموذج. ولكن كثيرًا مـن الحكومات قبل فكرة (المحيط الخاص)، منطقة من التفكير والسلوك ليس للحكومة فيها سلطة قضائية، ما لم تنتهك حقوق الآخرين. تؤدي هذه الفكرة إلى الاعتراض الحديث على التحررية التقليدية على السلطوية

(التي في حالاتها المتطرفة تصبح شمولية). تميل التحررية إلى توسيع المحيط الخاص، حيث تبقي الحكومة خارج كل ما هو ممكن ما لم يهدد سلوكُ مواطنٍ ما المواطنين الآخرين. تجادل السلطوية في أن المؤسسات البشرية تمثل المظاهر الأكثر حكمة والأعظم اهتمامًا للضبط الذاتي للأفراد (تشبه الحكومة القشرة الأمام جبهية للمجتمع)[7]، لذلك قد يعرفون ما الأفضل لنا أكثر مما نعرف نحن، تميل هذه النظرة إلى تقليص المحيط الخاص (في النظم الشمولية إلى الصفر).

من الأفضل تصوُّر ثنائية التحررية - السلطوية طيفًا من العلاقات بين الأفراد والمجموعة، التي تراوح بين أنظمة سياسية (أو مفكرين) تمجِّد التحرر الفردي (مثل نظام جون ملتون John Milton) وأولئك الذين يؤكدون سلطة المؤسسات الاجتماعية (مثل نظام توماس هوبز Thomas Hobbes). يعتمد موقع مجتمع ما على هذا الطيف على النظرة السائدة فيه للطبيعة البشرية؛ فتتبنى الأنظمة الشمولية أولوية صدارة العقيدة على الفرد (انظر الجدول 1، صفحة 35)؛ ويرون الفرد غير مهم بالمقارنة باستقرار (المجتمع)، وهذه فكرة غيبية مقدسة يصبح الحفاظ عليها هدفًا طاغيًا، ويصبح ضبط النفس تابعًا لنظام خارج عن الشخص في المواقف السياسية؛ لأنه لا يمكن الوثوق بالأفراد للعمل للمصلحة العامة، من ثم تتقلص الذات الشخصية إلى كائن هزيل لا وجود لخصوصيته، وتتطلب عقيدة الاعتراف. مثاليًّا، تجهَّز كل شبكة معرفية في عقل كل مواطن من قبل عملاء للدولة، مستعملين مبدأ السيطرة على المحيط، والتلاعب الغيبي، وتحميل اللغة، والطرائق الشمولية الأخرى، وكل منبه يفعِّل هذه الشبكات المعرفية يخضع بصورة مماثلة لسيطرة الدولة. يساعد إبقاء المواطنين مشغولين على إبقائهم مدفوعين بالمثير، وهو ما يقلل إلى أدنى حد فرصة أن يشكلوا شبكات معرفية جديدة، يمكن أن تكون مخرِّبة. والترفيه (من قبل الآخرين) غير الخاضع للرقابة غير مفضَّل عمومًا في الأنظمة الشمولية، لكن الحاجة إلى التحكم المركزي تجعل كثيرًا من الأنظمة الشمولية بيروقراطية وغير مرنة، وهو ما يخنق النمو الاقتصادي وينقص من جودة حياة المواطن.

تتوقع الأنظمة التحررية أكثرَ من مواطنيها، وفكرتهم المقدسة في الحكم هي الحرية الشخصية، وتُضخَّم الذات، مع إعطاء قيمة كبيرة للخيال، والإبداع، والخصوصية. وتفوض القيود داخليًّا إلى الفرد الذي يملك شبكته المعرفية الخاصة، ما دام أن الأشخاص الآخرين

غير مهددين، ومقابل هذه الحرية يُتوقع من المواطنين أن يكونوا قادرين على السيطرة على سلوكهم الخاص.

أي من النظرتين هي الصحيحة؟ أنحن كائنات مستقلة أم آلات قابلة للتلاعب؟ عبيد أقوياء أم أشباح؟ بالنسبة إلى التوافقيين الذين يرون أن الإرادة الحرة يمكنها أن تتعايش مع عالم سببي، وهي برأيهم تفعل، لا يزال الموقف التحرري متوافرًا، أما الحتميون الذين يعدون الإرادة الحرة وهمًا، فليس من المعقول أن يرفعوا فكرة الحرية المقدسة إلى رتبة عالية، شيئًا لا يعتقدون أننا نملكه.

نتوقع إذًا أن تترافق الحتمية مع موقف سياسي أكثر سلطوية، ويبدو أن هذا هو الواقع، فمع تثبيت العلم لأرضيته في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، زاد تأثير التفكير الحتمي في السياسة، وأدت نظرية كارل ماركس Karl Marx الحتمية للقوى التاريخية إلى كابوس الشيوعية الشمولية، في حين أضافت الحتمية البيولوجية، التي أصرت على أن العرق الذي ينتمي له الإنسان يحدد صفاته، سُمًّا إضافيًّا أسهم في حصول محارق اليهود[8].

ولكن لا يعني مجرد أن الحتمية يمكن أن تسهِّل حدوث الجرائم ضد الإنسانية أنها تفعل ذلك على الدوام، أو أنه يجب نبذها بصفتها موقفًا فلسفيًّا؛ إذا كانت الإرادة الحرة وهمًا فقد يكون علينا ببساطة أن نعيد تنظيم سياساتنا لتجنب الإفراط الرهيب، إذا ما كان ذلك ممكنًا. على كل حال، ذلك الاستنتاج هو شيء من استعمال الملاذ الأخير، حيث إنه يعتمد على عدِّ التوافقية مخطئة، لذلك فإن الخطوة التالية هي أن ننظر: هل تستطيع الإرادة الحرة حقًّا أن تنجو في عالم سببي؟

الإرادة الحرة والحتمية: أمل الجمع

ظهر دفاع حديث معروف جيدًا يدافع عن موقف التوافقيين من الإرادة الحرة هو كتاب **الحرية تتطور** لدانيال دينيت Daniel Dennett، ووفق ما يوحي العنوان، يجادل دينيت Dennett في أن الحرية ليس أمرًا مطلقًا على مبدأ الكل أو لا شيء، وإنما قدرة متدرجة من الحياة العضوية على كوكب الأرض، قدرة تطورت من بدايات متواضعة تمامًا مثلما فعل الإنسان، وهو يعترف بأهميتها لحياتنا، ولكنه يقول إنها لا تحتاج إلى أن تكون صفة أخلاقية مطلقة كي تقدَّر تقديرًا

عاليًا، وفي الواقع يجادل دينيت Dennett في أن هذه النظرة الشمولية بالأسود والأبيض التي تؤلّب أفكارًا مجردة على أفكار مجردة هي سبب الإشكال، وإذا نظرنا للحرية بدلًا من ذلك على أنها نتيجة التطور، فإن الجدال القديم العقيم بين الإرادة الحرة والحتمية سيقطع إلى مجموعة من الأسئلة الأصغر الأسهل إجابة:

«كيف إذًا يمكن أن تكون اختراعاتنا، وقراراتنا، وذنوبنا وأمجادنا مختلفة عن الشبكات المعرفية الجميلة، ولكنها فاقدة للحس الأخلاقي للعنكبوت؟ كيف يمكن أن تكون فطيرة التفاح ـ التي صنعت بمحبة هديةً للتصالح ـ مختلفةً، أخلاقيًا، عن تفاحة مصممة (بذكاء) من قبل التطور لجذب الحيوانات الآكلة للفواكه للمساومة على نشر بذورها مقابل بعض من سكر الفواكه؟ إذا تعاملنا مع هذه الأسئلة على أنها فقط بلاغية، وهو ما يتضمن أن معجزة فقط هي التي تستطيع أن تميز خلقنا عن الصنع الأعمى عديم الهدف للآليات المادية، فإننا سنستمر في الدوران حول المشكلات التقليدية للإرادة الحرة والحتمية، في دوامة لغز لا يمكن فهمه. إن أفعال البشر ـ أفعال الحب والعبقرية، وكذلك أفعال الجرائم والذنوب ـ بعيدة حقًا جدًا عما يحدث على مستوى الذرات، سواء أكانت تنحرف عشوائيًا أم لا، لأن نكون قادرين على أن نرى في لمحة كيف يمكن أن نضعها جميعًا في إطار مفهوم. حاول الفلاسفة على مدى آلاف السنين أن يبنوا جسرًا فوق الهوة بضربة ريشة أو اثنتين، إما واضعين العلم مكانها أو واضعين العزة البشرية مكانها ـ أو معلنين (بصورة صحيحة، ولكن غير مقنعة) أن التوافقية تظهر فقط من دون الدخول في التفاصيل. بمحاولة الإجابة عن الأسئلة، برسم الطرق غير الإعجازية التي تأخذنا كامل الطريق من الذرات غير العاقلة إلى الأفعال المختارة بحرية، نستطيع أن نفتح مقابض التخيل».

دينيت Dennett، **الحرية تتطور**، الصفحات 305-306.

Dennett, Freedom Evolves, pp. 305–6

حسب دينيت Dennett، تكمن الحرية في القدرة على التنبؤ بالمستقبل، وهذه القدرة للعضوية تسمح بأن ترى ما سيأتي، فإذا كان خطرًا يهددها تجنبته، والتجنب ممكن لأن العضويات مثل البشر قد طوَّرت القدرة على «تغيير طبيعتها استجابة للتفاعلات المتبادلة مع بقية العالم»، وتكمن هذه القدرة على التغير في لب الحرية.

يجب أن توضع التوقعات على أساس المعرفة، وتعطينا القدرةُ على اختزان واسترجاع محتويات ذكرياتنا الفسيحة غنى في المعلومات التي نبني عليها أحكامنا عما سيحدث،

وتمتد الذاكرة أيضًا في المنطقة الزمنية التي يمكن فيها أن تؤثر الأسباب فينا امتدادًا بعيدًا في الماضي. تتكسر الكأس لأنني أسقطها، لكن أسباب سلوك الإنسان يمكن أن تكون أحداثًا حدثت قبل سنوات عديدة (أذى الطفولة، على سبيل المثال). مع كل هذا الماضي، يمكن أن تكون التأثيرات في سلوكنا مخصبة جدًا، فلم نعد ببساطة ننجرف منحدرين على خيط من الأسباب، مدفوعة بالمثيرات، يتحدد كل فعل بحادث يسبقه مباشرة. بالطبع، هناك سبب لأن نصرخ عندما يداس على أقدامنا؛ ولكن ليس هناك سبب منفرد يجعلنا نتناول شرابًا، أو نكذب على صديق، أو نقع في الحب.

تعني القدرة على تخزين المعلومات أننا نستطيع تغيير أنفسنا استجابة لتوقعات معقدة، طويلة الأمد للمستقبل، بالذات لأن العالم حتمي -منظم، ومتوقع- نحن قادرون على أن نلاحظ الأمور المنتظمة فيه واستخدامها لتوقع ما هو محتمل الحدوث. تطورت هذه القدرة على التنبؤ؛ كانت العضويات التي طورتها أكثر احتمالًا للنجاة والتكاثر من العضويات التي لم تطورها، لم تعد العضويات القادرة على التنبؤ بالمستقبل مدفوعة كاملًا بالمثير؛ لأنه مع تطور نماذجها الداخلية لمعرفة المستقبل (التنبؤات) أكثر، فإن الشبكات المعرفية التي تتكون منها هذه النماذج تصبح أكثر احتمالًا للتأثير في السلوك (من خلال روابطها مع مناطق مثل الفص الجداري والقشرة الأمام جبهية، كما وصفنا في الفصل العاشر). بعبارة أخرى، فإن التنبؤات نفسها تصبح أسبابًا تؤثر في السلوك، ولا تعود هذه العضوية تعيش في حالة من المفاجآت المستمرة، ولكنها تعمل جزئيًا على الأقل على أساس تنبؤاتها، وهكذا تولد القدرة على الوقوف والتفكير، لب مقاومتنا لتقنيات **غسيل الدماغ**.

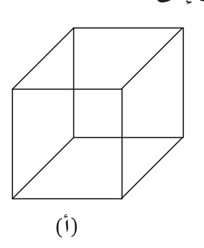
يشير عالم النفس جورج آينسلاي George Ainslie، في كتابه الآسر **تحكم الإرادة** إلى الفعل المتبادل بين الماضي والحاضر على أنه (مساومة بين زمنية). يجري هذا الفعل المتبادل ضمن الذات التي هي ليست وحدوية، ولكنها تشبه (سوقًا داخلية) لمصالح كثيرًا ما تكون متنافسة[9]. تذكروا مناقشتي للعبيد الفاعلين والهاجعين في الفصل الثامن. إن الذات النشيطة في أي لحظة من الزمن هي مجموعة من الشبكات المعرفية تفعَّلت خلاياها العصبية في ذلك الوقت، ولكن في أي لحظة، فإن الشبكات المعرفية الأخرى -حتى المناقضة- قد تصبح نشيطة. يقدم مكعب نيكر Necker مثالًا على التحوُّل بين الشبكات المعرفية، وهو خداع بصري تتفعَّل فيه شبكتان معرفيتان متناقضتان في تعاقب سريع (انظر الشكل 11-1 (أ))، فيمكن رؤية المكعب مائلًا إلى الأعلى

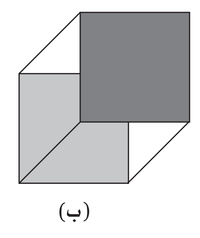
والأيمن (الشكل 1-11 (ب)) أو للأسفل والأيسر (انظر الشكل 1-11 (ج))، ولكن لا يمكن رؤية الاثنين في آن واحد.

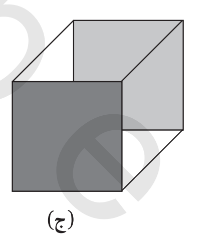
تحقق الشبكات المعرفية النشطة والهاجعة (مصالح) آينسلاي Ainslie، وتتضافر هذه المصالح أحيانًا في سعيها إلى أهداف مشتركة (مثل النجاة)، وأحيانًا تتنافس؛ فيكون أحدها نشطًا في نقطة ما (سوف أتخلى عن الشوكولا لأنها تضر بصحتي)، فقط ليحل محله آخر (إنها تقدم لي قطعة حلوى، سيكون من سوء الأدب أن أقول لا). ولأن المصالح ترتبط بالمكافآت المتوقعة (مثلًا الصحة على المدى الطويل أو الاستمتاع على المدى القصير)، فإنه يمكن التفكير فيها وكأنها عملاء هدفهم التأكد من أن السلوك يحقق المكافأة المرجوة، تتطلب المصالح الصحية بعيدة الأمد الامتناع عن الشوكولا، في حين تريد المصالح قصيرة الأمد الشوكولا الآن. خلال المدة التي تكون فيها المصالح طويلة الأمد نشيطة، يجب عليها، للحصول على مكافأتها المرجوة (الصحة طويلة الأمد)، أن تكون قادرة على التأثير في السلوك بطريقة تمكنها من تقليل فرص الردة (عن المصلحة طويلة الأمد إلى المصلحة قصيرة الأمد) كلما لاحت الشوكولا أمام ناظريها. ويوضح آينسلاي Ainslie الأمر: «يجب في ترتيب آوليسس للصفارات أن يُعَد أن آوليسس يسمعها بصفته شخصًا واحدًا، حتى يتأثر إن أمكن أو يحبط إن لم يمكن». في الواقع الذات الفاعلة الآن (التي تجسد المصالح طويلة الأمد) توقع عقدًا مع الذوات المستقبلية بألا تنشق، ومن دون القدرة على توقع المستقبل تصبح المساومة بين الزمنية مستحيلة؛ لأن المصالح طويلة الأمد لن تدخل المنافسة أبدًا (لا يمكنك الاهتمام بالصحة طويلة الأمد إذا لم تكن لديك فكرة عن طول الأمد). تسمح القدرة على الوقوف والتفكر لمصالحنا طويلة الأمد ليس فقط بالدخول، وإنما بالنجاح.

بالتأكيد، هي لا تفوز في كل مرة، وإخفاق الإرادة يحدث عندما تخفق عملية التفاوض هذه بين الماضي والحاضر في منع المصالح قصيرة الأمد من الإمساك بزمام السلوك، ومع ذلك يمكن مقاومة التوق في بعض الأحيان؛ نحن مدفوعون معظم الأحيان بالمثيرات، مستجيبون لبيئتنا من دون ملاحظة ما الذي نفعله، ولكن أحيانًا يصبح ما أشرت إليه في الفصل السابق بالوارد التاريخي نشطًا، ومهيمنًا على التصرف، ويحدد ما الذي سنقوم به. إن هذه الشبكات المعرفية التي تبنى لا على أساس الحالة الراهنة وإنما على أساس الماضي (الذي يكون أحيانًا بعيدًا جدًّا)، هي التي تحقق التوافقات بين الزمنية لآينسلاي Ainslie؛ فإذا كانت شبكة معرفية نشطة في الوقت الحالي تستطيع، باستعمال قوة التركيز للقشر أمام الجبهي، أن تقوي الشبكة

المعرفية التي ترمِّز بصورة كافية مصالح حِمية معينة، عندها يمكن تفعيل هذه الشبكة المعرفية بسهولة جدًّا، وبقوة، في المستقبل؛ فعندما تظهر الشوكولا في المشهد، فإن الشبكة المعرفية النشطة والمقواة ستذكر بالاتفاق المعقود مع الذات السابقة، فإذا ما كانت التقوية فاعلة، فلن تستطيع حتى الشوكولا اللذيذة جدًّا تنشيط الشبكات المعرفية المنافسة بصورة كافية للتغلب على التوق إلى الصحة.


(أ)


(ب)


(ج)

الشكل 1-11 (أ) وهم مكعب نيكر .Necker (ب، ج) المنظران الممكنان لهذا الخداع، اللذان لا يمكن رؤيتهما في آن واحد.

يمكن إذًا للشخص في لحظة ما -إذا كانت لديه قوة التنبؤ- أن يتوقع الكيفية التي يحتمل فيها للذوات المستقبلية أن تتصرف، فإذا كانت محفزة بصورة كافية، فإنها تستطيع تحقيق الاتفاقات بين الزمنية التي تهدف لربط تلك الذوات المستقبلية بأفعال معينة. يعتقد دينيت Dennett وآينسلاي Ainslie أنه في هذه القوة لتغيير ذواتنا المستقبلية يجب أن نبحث عن الحرية، وبالتأكيد لا يوجد ضمان بأن الاتفاقات سوف تصمد (قد لا نستطيع مقاومة الشوكولا أبدًا). مع الحرية يأتي عدم التأكد: ليست تنبؤاتنا دقيقة مئة في المئة.

هل هذا النوع من الحرية متوافق مع الحتمية؟ نعم. تُدفَع الذات الحالية لإبرام اتفاق بين زمني، مثلما تُدفَع الذوات المستقبلية لأخذ هذا الاتفاق بالحسبان عند تقرير سلوكها. تشمل الدوافع المعنية شبكات معرفية منشطة بصورة مباشرة بمنبه بيئي (يمثل -على سبيل المثال- حجم الشوكولا، وشكلها، ورائحتها)، وشبكات معرفية لوارد تاريخي ينشطها منبه بصورة غير مباشرة (مثلًا صور لشوكولا سابقة، ومعرفة عواقب الضرر الصحي للشوكولا)، وشبكات معرفية تصوِّر كيف يشعر الجسم (مثلًا جائع، وشبعان).

تسهم جميع هذه الطرائق العصبية وأكثر، كما شرحنا في الفصل السابق، في إتمام السلوك النهائي. السبب الواضح -صديقك يلوح بالشوكولا تحت أنفك- يسبب عددًا ضخمًا من

الحوادث داخل دماغك، الذي سيقوم بدوره بالتصرف، ولكن العدد الهائل لمثل هذه الأحداث يعطينا طيفًا ضخمًا من الاحتمالات، كلها مطوية ضمن عظم القحف بطريقة تذكرنا بالوقت والأبعاد النسبية في الفضاء في مسلسل الدكتور هو Doctor Who. تقدم آليات مثل المطابقة وحل التناقضات الوسائل التي ينهار فيها هذا البحر الهائج من الاحتمالات، كما في فعل موجة شرودنغر Schrödinger، لتشكيل نتيجة مفردة حتمية.

كثيرًا ما تكون النتيجة قابلة للتوقع (قد يعرف صديقك تمامًا أنك لا تستطيع مقاومة الشوكولا)، ولكن بسبب كون المساهمات العصبية المعنية معقدة، فإنها ليست دائمًا قابلة للتوقع (هذا هو السبب لماذا المذهب السلوكي -العقيدة التي تقول بأنك إذا أردت أن تفهم العقول عندها يكون الوارد والصادر، والمثير والاستجابات، هي كل ما تعلم وكل ما تحتاج أن تعلمه- نموذج نظري كافٍ للمنبه البسيط ولكنه غير كاف أبدًا في الحالات المعقدة). يسبب المثير أحيانًا السلوك المتوقع (تأخذ قطعة الشوكولا)، ولكن أحيانًا لا يكون كذلك (بعد الرؤية المحزنة بالأمس لوزنك على ميزان الحمَّام، وعدت نفسك ألا تلمس قطعة حلوى بعد اليوم). في بعض الأحيان، لا تعرف أنت ولا أي شخص آخر أنك أخذت -أو لم تأخذ- قطعة الحلوى، هذا لا يعني أن سلوكك لم يحدث بسبب؛ ولكنه يعني فقط أن الأسباب كانت معقدة ولم تكن كلها متوافرة للوعي. كما ذكرت سابقًا، لا نريد أن تكون أفعالنا الحرة بلا سبب، نحن نريدها أن تكون مسببة بأسباب داخلية بالنسبة إلينا. إذا قلت: «أخذت الشوكولا لأنني أردت ذلك»، أو حتى «لأنني لم أستطع أن أقاومها»، فإنك تقر بأن رغبتك في الشوكولا جعلتك تأخذها، فهل يعني هذا أنك لم تتصرف بحرية؟ إذا كان كذلك، فإنك تتصرف بحرية فقط عندما لا يكون لديك أسباب للتصرف، أي رغبات أو ميول بطريقة أو أخرى. إذا قلت بدلًا من ذلك: إن (أنا أردت الشوكولا) يتوافق بالكامل مع (أنا أخذت الشوكولا بملء حريتي)، عندها فإن الأفعال تكون قد سُببت برغباتك، لكنها بقيت مع ذلك حرة. تنشأ رغباتك بالمثل من التركيبات المعقدة للحوادث التي تجري في دماغك، التي سببتها بدورها أنماط هائلة من العوامل، من الرائحة التي تصل إلى أنفك إلى تاريخ لقاءاتك مع الشوكولا بأشكالها المختلفة. هل تريد أن يكون الأمر غير ذلك، وتجد نفسك تتصرف عشوائيًّا، كدمية محتارة؟ إعادة وصف الرغبات، أو المعتقدات، أو أي أسباب أخرى على أنها حوادث دماغية لا يجعلها أقل اقترانًا بك، أو أن الأفعال التي تتلو منها أقل اتسامًا بالحرية.

لكن ألا يجب أن تكون هذه الأسباب واعية؟ أبدًا، ما لم تحدد الذات بأنها ذات واعية وتعتقد أنك ستنتهي عن الوجود عندما تذهب للنوم ليلًا. لا يزال ممكنًا أن تتحكم الشبكة الواعية التي لا تصل للوعي في السلوك، وأحيانًا (على سبيل المثال في أوهام السيطرة التي تشاهد في الفصام) يمكن أن تفسَّر الشبكات المعرفية الواعية على أنها ليست لك، لذلك فإن الوعي ليس ضمانًا للأصالة، ولكن في الأدمغة الحرة يكون الافتراض الأساسي هو أن الأفعال أفعالك إلى أن يثبت العكس. مجرد أنني لم أكن واعيًا لأخذ ملعقة من درج أدوات الطاولة لا يعني أن شخصًا آخر وضعها في يدي، إنه يعني فقط أن عقلي الواعي كان لديه أشياء أخرى يفكر بها.

كيف تنسجم هذه الفكرة عن الحرية مع الفكرة اليومية للأفعال الحرة: «مع تساوي جميع الأشياء، هل كان يمكن أن أتصرف بشكل آخر؟»، ينكر الحتميون المتشددون هذا، حيث إنهم يدعون أنه «يوجد في أي لحظة مستقبل واحد حصرًا ممكن فيزيائيًا»[10]، فإذا قدم لك صديق قطعة شوكولا، وأخذتها، عندها لو تكررت تلك الحالة نفسها تمامًا، فإن استجابتك ستكون نفسها؛ أي إنك لا يمكن أن تكون متصرفًا بشكل آخر.

تجعل حالة (مع تساوي جميع الأشياء، كان يمكن أن أتصرف بشكل آخر) مفهوم الحرية غير قابل للاستعمال في العالم الحقيقي، وذلك يعود إلى السبب البسيط أنه لا يوجد أبدًا حالتان متماثلتان تمامًا، حتى لو أمكن أن تكرر الظروف الخارجية نفسها، فإنك نفسك تكون قد تغيرت مع مرور الوقت. لديك ذاكرة عن أول مرة، وقدرتك على التنبؤ سمحت لك بالتعلم من تجربتك. إن توقعك لضعفك أمام الشوكولا، ربما يكون قد عزز لديك شبكات معرفية معينة- تلك التي نفذت الاتفاق بين الزمني الذي هو حلُّك لأن تأكل بصورة أكثر صحية. إذا وجدت نفسك يومًا في نمط شوكولاتي مشابه لفلم يوم جرذ الأرض Groundhog Day (الذي يعيد فيه البطل بيل موراي أحداث اليوم نفسه مرارًا وتكرارًا إلى أن يقوم بالشيء الصحيح)، مواجهًا إغراء الحلويات نفسه مرة بعد أخرى، فإنك ستتعلم من تجربتك، كما فعل بيل موراي في الفلم. «كان من الممكن أن أتصرف بطريقة أخرى»، تعني حقًّا «كان من الممكن أن أتصرف بطريقة أخرى لو أردت ذلك»، لكن هذا ينتهك متطلبات «مع تساوي جميع الأشياء» (لم ترد أن تتصرف بطريقة أخرى عندها؛ أنت تعرف ذلك)، لذلك قد يكون من الأفضل أن يُستبدَل بـ«كان من الممكن أن أتصرف بطريقة أخرى» عبارة «في المرة القادمة يمكن أن أتصرف بطريقة أخرى» (لأنني تغيرت في أثناء هذا

الوقت، وقد يكون للتغيير عواقب حتى أنا لا أستطيع أن أتوقعها). لا تعطينا العبارة الأولى أي شيء مفيد؛ وتعطينا الثانية الحرية.

تكمن الحرية، بعبارة أخرى، في قابلية التنبؤ وقابلية التغيير، تأخذ الشوكولا بملء حريتك لو استطعت (في الماضي) تغيير الشبكة المعرفية في دماغك بحيث إنك (الآن) ترفض بأدب. لو كان بإمكانك (لكنك لم تفعل) إحداث التغييرات التي كانت ستمنع ذاتك الحالية من أخذ الشوكولا الآن، عندها فإن فعل أخذها قابل للتغيير. بصورة مماثلة، قد تكون أو لا تكون قادرًا على القيام الآن بالتغييرات التي سوف تمنعك من أخذ الشوكولا المرة القادمة التي تعرض عليك بها. الرغبة في القيام بهذه التغييرات هي نفسها مسببة بعدد لا يحصى من الشبكات المعرفية المتشابكة في رأسك، وبعض هذه الشبكات قد يكون نشطًا، لكنه غير معني به (تلك التي تساعدك على إبقاء سيارتك على المسار الصحيح وأنت تفكر في شيء آخر)، لكن شبكات أخرى تذكرك بما رأيته في المرآة هذا الصباح، أو الأرقام التي قفزت تصرخ من الميزان بسببها في الحمَّام، أو رغبتك في نيل إعجاب شريك حياة محتمل، وهكذا؛ هذه هي جميع الأسباب -أسبابك scales- للتخلي عن الشوكولا، فهل ستقرر هذه الأسباب أفعالك؟ فقط الوقت، ودماغك، والعالم الأوسع سيظهرون ما سيقع. إذا أشهرَ الشخص الذي يعرض عليك الشوكولا مسدسًا فجأة وأمرك بأن تأكل أو تموت، عندها حتى أشد الاتفاقات بين الزمنية قد تطغى عليها الاعتبارات الأخرى (ما لم تكن بالطبع مستعدًّا للشهادة في سبيل مبادئك).

تفسر قدرة الذات الحالية على التأثير في الذوات المستقبلية أيضًا الحقيقة المتعلقة بضبط النفس التي لاحظها عالم النفس روي باوميستر Roy Baumeister (التي اقتبست في الفصل العاشر): بأننا (نختار أن نخسر)، واضعين أنفسنا في مواقف نتوقع فيها أن نجد أنفسنا مدفوعين بالمثير لنقول بعدها، عندما تتجسد المواقف في حينها، «لم أستطع فعلًا أن أقاوم!». وكما نستطيع أن نعقد اتفاقًا (بين زمني) نأمل بأن يؤثر في ذواتنا المستقبلية، كذلك فإننا نستطيع أن نرتب ظروفنا بحيث إن اتفاقنا بين الزمني سوف ينهار على الأغلب (مثلًا نختار طريقًا إلى العمل نعرف أنه يمر أمام متجر الشوكولا المفضل لدينا). يمكن إبرام العقود بين الزمنية حسب المصالح طويلة الأمد أو المصالح قصيرة الأمد، المفيدة للعضوية، أو -كما هو الحال في الإدمان- المضرة بالفعل.

إن قدرتنا على إبرامها، التي تعتمد كثيرًا على كيفية عمل القشرة الأمام جبهية لدينا، سوف تتغير هي نفسها، من بين أشياء أخرى، مع العمر والخبرة وكمية المواد الكيميائية الترفيهية التي نتناولها.

تأتـي الأسـباب متلونة بألوان كثيـرة مختلفة؛ بعضها من الواضح أنـه خارجي، ومن الواضح إلى حد مشـابه أنها قيود على حريتنا بأن نتصرف كما نختار: التعذيب، التسـلط، قوانين القمع، وبعضهـا داخلي، ولكننا مـع ذلك نعدها خارجة عن ذاتنا، مثل أمراض الدماغ أو آثار المخدرات، ومع ذلك فالأسـباب الخاصة بنا هي الأسـباب التي تجعلنا نختار التصرف بالشـكل الذي نختاره به. إنها لا تقيد حريتنا؛ حريتنا من غيرها بلا معنى، وهذا هو السبب في أن غسيل الدماغ مخيف جـدًّا؛ فهـو يخدعنا لنظـن أن المعتقدات الجديدة هي فعلًا معتقداتنا. بالطبع، تعريفنا لما هو لنا يمكن أن يختلف. «إذا جعلت نفسك صغيرًا فعلًا فإنك تستطيع أن تعتبر حقًّا كل شيء خارجيًّا»[11]، بذلـك حتـى رغباتك تصبـح خارجية، ولا تعود ملـكك، وتصبح بدلًا من ذلك قيـودًا على حريتك. كثيرًا ما ينظر إلى الإدمان وبعض الأمراض مثل فقدان الشهية–+ بهذه الطريقة: تتقلص الذات، متنازلـة عـن الحريـة، ومن ثم متجنبة للمسـؤولية. خطر الإفراط في عمليـة التقليص هذه هو أن الذات تتقلص إلى بقعة ديكارتية، شـيء بلا أهمية، تتقاذفه رياح القدر ويسـهم بالقليل أو حتى لا شـيء، لكن يجب ألَّا يكون الأمر على هذا الحال: لا يوجد شـيء في عقيدة الحتمية يجبرنا على أن نكون ثنائيات ديكارتية (من جسم وعقل، العقل لا يوجد خارج الجسم والجسم لا يفكر).

الحرية والمسؤولية

ما العواقب من الناحية الأخلاقية لهذا النظر إلى للحرية؟ لا شيء كارثي. يفترض الأعضاء البالغـون فـي المجتمـع الافتراض المبدئي بـأن البالغين الآخريـن قد عقدوا اتفاقـات بين زمنية معينـة (مبـادئ) تؤثـر في تصرفاتهـم. يختلف المبـدأ المفترض أنه ثابت من شـخص إلى آخر، لكـن مبـادئ معينـة تقع ضمـن المنطق العام، فنحن السـائقين –على سـبيل المثـال– نفترض أن السـائق فـي السـيارة خلفنـا قد حرص على ألَّا يكـون ثملًا؛ وهذا يعنـي أن لديه مبـدأ الحفاظ على النفـس الـذي يمنعه من تناول المسـكرات بكمية كبيـرة عندما يعلم أن عليه أن يقود سـيارة. هذه الافتراضـات المجمـع عليهـا –بعضهـا جعل له رسـميًّا صفـة قانونيـة– تجعل الأفعـال الاجتماعية المتبادلة ممكنة وتشـكل جزءًا أساسـيًّا من كثير من نواحي حياتنـا اليومية، فنحن نتوقع أن يكون كل بالـغ مـدركًا لهـذه المبـادئ، وأن يكون قد ثبت الاتفاقـات بين الزمنية المعنية، سـواء بالتعليم الرسـمي، أو بالتربية، أو بالتجارب الأخرى، ومن ثم نتنبأ على أساس هذه التوقعات، أن البالغين سـيتصرفون وفق المبادئ المجمع عليها، وفي معظم الحالات تكون توقعاتنـا صحيحة، وعندما لا تكـون صحيحة، يكون السـبب عادة واضحًا، فيمكن أن يسـبب مرض دماغـي أو الإكراه الخارجي،

على سبيل المثال، خرقًا للاتفاق بين الزمني، خرقًا لا يستطيع الشخص المعني أن يفعل أي شيء لتفاديه، ولا يُعد الشخص قد تصرف بملء حريته، لذلك فهو لا يعد مسؤولًا عن أفعاله. عندما لا يكون السبب واضحًا، نفترض أن أسبابًا داخلية قد دفعت إلى الفعل، وهذا يعني أن الشخص كان قادرًا على توقع عواقب أفعاله، عواقب تدفع (أي شخص مسؤول) (حسب هذه العبارة القانونية الشهيرة) إلى تغيير سلوكه بحيث لا يرتكب الفعل. فإذا كان باستطاعتهم التغيير ولم يفعلوا، نحمِّلهم المسؤولية ما لم يأتوا بشرح مقنع لماذا لم يكونوا قادرين على التغيير الملائم.

تتضمن المسؤولية إصدار حكم اجتماعي، وهي عرضة مثل الأحكام الاجتماعية الأخرى للتحيز، فقد أظهر علم النفس الاجتماعي أن ميلنا لعزو المسؤولية (في الحالة التي لا يوجد فيها سبب واضح للتصرف) يعتمد على الشخص وعلى الفعل المرتكب، إذا كنا نحب الشخص فسوف نحكم أنه أكثر مسؤوليةً عنه إذا كان الفعل يستحق الثناء، وأقل مسؤولية عنه إذا كان الفعل يستحق اللوم، والأمر معكوس بالنسبة إلى الشخص الذي لا نحبه[12]. يفترض- بالتأكيد- أن يكون القانون محايدًا في التعامل مع الذين يُقدَّمون إليه للدفاع عن أنفسهم. ولكن، لما كان أحد العوامل التي تحدد مدى محبتنا لشخص ما هي مشابهته لنا، فإن المرء يتساءل هل يمكن تحقيق هذه الحيادية دائمًا (مثلًا عندما يكون القاضي كهلًا محافظًا من العرق الأبيض والمتهمة شابة سوداء متحررة). لذلك يُرحَّب بالمحاولات لجعل المحلفين أكثر تمثيلًا للأشخاص الذين يواجهون الأحكام.

الشعور بالحرية

قد تعطي محاولة فهم عروض دينيت Dennet وآينسلي Ainslie القارئ شعورًا بعدم الارتياح. المجادلات جذابة، الهدف مقنع، ومع ذلك، ومع ذلك...... كل هذا الكلام عن التنبؤ، وعن المساومات بين الزمنية والاتفاقات بين الذوات في الأوقات المختلفة، كله جاف إلى حد ما، وذهني. «أنا لا أظن أنني حر، أنا أشعر بأنني حر - أو غير حر»، إذا كان حدس القارئ صحيحًا، عندها لدى البشر شعور بالحرية؛ هو في الحقيقة عاطفة. كما رأينا في الفصل التاسع، يمكن أن يكون للعاطفة مكوِّن ذهني، لكن لها أيضًا مكون شعوري، هو الشعور الذي يعطي الدافع المحفِّز؛ ما الذي يمكن أن يؤدي إلى مثل هذا الشعور في الدماغ البشري؟ هل من المنطقي أن ننظر إلى شعورنا بالحرية بهذه الطريقة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الهدف الذي يخدمه وجود مثل هذا

الشعور؟ يجب أن أتجرأ هنا فأنتقل أبعد من مصادري إلى عالم فكري أكثر؛ أعتقد أنه يمكن حقًّا أن ننظر بصورة مفيدة لشعورنا بالحرية على أنه عاطفة؛ أعتقد أن علماء العلوم العصبية في المستقبل غير البعيد جدًّا سوف يكونون قادرين على تحديد الظروف الفيزيولوجية التي ترافق الشعور بالحرية، مثلما بدؤوا فعلًا بتحديدها بالنسبة إلى الخوف، وأتوقع أن هذه الظروف قد تشمل حالة من الارتخاء مرضية بطبيعتها، تتداخل بقوة مع عواطف إيجابية مثل السعادة، وقد تتوسطها الآليات الدماغية نفسها (ربما يُفسر نشاط هذه الآليات بأنه (شعور بالسعادة) في مناسبة، و(شعور بالحرية) في أخرى، حسب ما يجري في الوقت نفسه)، وهذا يعني، ضمن أشياء أخرى، أن الحرية يمكن أن تسبب الإدمان، ويبدأ بتفسير لماذا يحارب الناس المعتادون على الحرية في كثير من الأحيان بهذه الشدة للحفاظ عليها، في حين قد لا يحارب الذين لم يعرفوا الحرية أبدًا في سبيلها على الإطلاق.

الحرية مُرْضية لأنها تعني السيطرة، ونحن نشعر بقلق شديد عند تهديد شعورنا بالسيطرة؛ وعلى هذا تتضمن الحرية غياب القلق، ومن الضروري هنا التمييز بين الحرية الذاتية والموضوعية. كما لاحظنا سابقًا، افتراضنا الأساسي منذ وقت باكر في الحياة هو أننا أحرار؛ أي إننا نستطيع أن نسيطر، ولأن عالمنا كان في ذلك الوقت صغيرًا جدًّا فكنا نستطيع موضوعيًّا أن نفعل أشياء قليلة جدًّا؛ لكننا لم نكن عندها قد بدأنا بفعل كثير من الأمور، ومن ثم لم نكن نعرف جميع الأمور التي لا نستطيع فعلها، لذلك يكون شعورنا الذاتي بالحرية قويًّا. أحد أعظم إنجازات الحضارة هي حيلة تعليمنا تبني قيم أخرى، مثل المكانة الاجتماعية، ومن ثم تقليل شعورنا بالحرية حتى نتقبل بسهولة فقدانها، ولكن بالتأكيد لا يتخلى كل الناس عن الرغبة في السيطرة بهذه السهولة.

مثل المكافآت الأخرى، تميل الحرية إلى تشجيع تزايدها الخاص، لأن الدماغ يعتاد على مستوى معين من الحرية مثلما يعتاد على مستوى معين من مخدر الكوكائين، لكن الإلحاح على زيادة الحرية ليس بقوة الإلحاح على الدفاع ضد فقدانها، إلحاح يعرف بالمفاعلة (انظر الفصل الخامس)[13]. يرتكس الناس سلبًا لفقدان الحرية، تمامًا مثلما يرتكسون إذا منعت عنهم المخدرات، في كل من الحالتين، كثيرًا ما يتضمن ارتكاسهم البحث عن موارد بديلة للرضى؛ فقد يقوم الموظف الذي أُخبر فجأة أنه لم يعد قادرًا على التدخين في العمل بتعزيز شعوره بالحرية بإرسال رسائل إلكترونية شخصية خلال ساعات العمل. إن تمرد الموظف في الحقيقة

يجعله يشعر بالحرية؛ لقد أعاق مصالح رئيسه في العمل مثلما أعيقت مصالحه، ومن ثم تسكين المفاعلة التي حرضها إملاء رئيسه في العمل.

لماذا إذًا الشعور بالحرية؟ هل هناك فضل لمن يملكها على من لا يملكها؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما طبيعة الفضل؟ مفترضًا مرة أخرى، أعتقد أن الجواب هو أن الشعور بالحرية يفيد كإشارة أمان، تخبرنا أن كل شيء تحت السيطرة، أو إن لم يكن كل شيء، فعلى الأقل ما يكفي لأن نشعر بأننا قادرون على الاسترخاء في تلك اللحظة؛ لأننا إذا كنا نستطيع أن نسيطر على بيئتنا فإننا نستطيع أن نغيرها، إذ يشير الشعور بالحرية إلى قابلية التغيير. إذا كنا نشعر أننا نستطيع أن نتصرف بحرية، فإن الشعور بالحرية يخبر عقولنا بأنه من الممكن لها أن تتغير بحيث تمنع، أو تشجع، أفعالًا مماثلة في المستقبل (يعتمد نوع التغيير الذي سيحدث على كون الفعل قد أدى إلى مكافأة أو إلى عقاب). بدلًا من عناء بذل جهد من الحساب الواعي لبعض وسائل التغيير، تسجل أدمغتنا نتائج كل مرة حاولنا فيها القيام بفعل معين، كلما زاد عدد المحاولات الناجحة، يكون الاحتمال أكبر أن نعتقد أن هذا النوع من الفعل هو فعل يمكن القيام به بحرية.

يتوازن الشعور بالحرية بشعور بالمفاعلة (هناك إشارة تهديد: هناك شيء خارج عن السيطرة)، ينشأ عندما لا تتحقق تنبؤاتنا؛ على سبيل المثال عندما يتعارض توقع الموظف أنه يستطيع أن يدخن مع الحقيقة البيروقراطية الجديدة. عندما نتصرف، تكوِّن عقولنا تنبؤًا بأننا على وشك التصرف، ويكوِّن هذا التنبؤ فرضية تختبر حينئذ مقابل المعلومات القادمة، فإذا لم يتوافق التنبؤ معها، تصدر إشارة خلل، تستدعي مناطق أخرى من الدماغ لتعرف الخلل الذي جرى.

إشارة الخطأ هذه هي شعور المفاعلة[14]، وهي تعطي شعورًا بالإكراه، مثلما يعطي الشعور بالحرية إحساسًا بالرضى. وإذا جرى كل شيء على ما يرام (إذا لم يكن هناك إشارة خطأ)، فإننا لا ننزعج بالمفاعلة ونعد أنفسنا أحرارًا، وهذا هو السبب بأنني أستطيع الاعتقاد بأنني كنت أتصرف بحرية عندما أخذت الملعقة من درج أدوات المطبخ عند الفطور، مع أنني في ذلك الوقت كنت واعيًا فقط لخططي في ذلك اليوم. إذا صادف -كما حدث فعلًا مرة أو مرتين في السابق- أن خرجت يدي من الدرج وهي تحمل شوكة، فإن دماغي سيعطي إشارة بحدوث خلل؛ فالوارد البصري المتوقع لم يتوافق مع ما أنظر إليه فعلًا. في هذه اللحظة، سيتدخل قشري أمام الجبهي (الذي لا يزال يشعر ببعض النعاس)، مستدعيًا الجزء من واردي التاريخي الذي يحتفظ بمعلومات عن سبب كون الشوكة غير مناسبة لتناول رقائق القمح المغموسة بالحليب، ومنشئًا

حركة بديلة تعيد يدي إلى الدرج مرة أخرى، وفي الوقت نفسه يعمل دماغي على تقديم شرح مطمئن عن سبب أخذي الشوكة في الأصل، مشتتًا شعور عدم الارتياح (المفاعلة) الذي نشأ عن اكتشافي بأن العالم (على الأقل عالم الملاعق والشوك في درج أدواتي المنزلية) لم يكن كما توقعته أن يكون.

من الواضح أن الشعور بالحرية، والشعور المكمِّل له؛ أي المفاعلة، مرشحان جيدان لتعمل عليهما آلية التطور. العضوية التي تظن بعناد أنها مسيطرة عندما لا تكون كذلك، والعكس بالعكس، احتمال بقائها أقل من العضوية التي تدرك إدراكًا دقيقًا ما الذي تستطيع تغييره في العالم حولها وما لا تستطيع تغييره. من الأفضل وجود إشارة قابلية تغيير يمكن الوصول إليها بسرعة، قد تشكلت بناء على الخبرة، أو بدقة أكثر، إشارة مفاعلة تحذيرية لاحتمال عدم القدرة على التغيير (فقْد سيطرةٍ غير متوقع).

إن سرعة القدرة على الوصولِ تفيد أدمغتَنا في عدم إضاعة الوقت والجهد في التذكُّر الواعي للتجارب المنفردة. وإذا كان بالإمكان تصور الحرية على أنها عاطفة، فإنها تسرع اتخاذ القرارات مثلما تفعل العواطف الأخرى، فإذا وجدت نفسك- على سبيل المثال- في مسار سيارة قادمة، فإن شعورك بالخوف سوف يوفر عليك الحاجة إلى تذكر التصرف الذي قمت به آخر مرة حدث لك ذلك، أو الأفلام التي رأيت فيها أشخاصًا آخرين يرتكسون لسيارات قادمة وهكذا، وبصورة مماثلة يخبرك شعورك بالحرية بأنك استطعت في آخر مرة تلقيت فيها مكالمة من مندوب مبيعات أن تضع سماعة الهاتف على الفور، في حين يخبرك شعور المفاعلة بأنه في آخر مرة كلَّمك رئيسك في العمل على الهاتف شعرت بالتوتر والإرهاق، ومن ثَم لا تحتاج إلى تذكر جلي لأي من التجربتين لأن تشعر بهبوط في المزاج عندما تتلقى مكالمتك التالية من رئيسك في العمل.

تقدم الإشارة الدقيقة فائدتين اثنتين؛ فهي توفر الوقت الضائع في محاولة تغيير ما ليس قابلًا للتغيير (كان سيحدث ذلك لو كانت إشارة المفاعلة ضعيفة جدًّا، بحيث تظن العضوية بالخطأ أنها مسيطرة)، وتسمح الدقة للعضوية بانتهاز فرص كانت ستضيع لولا الدقة (لو كانت إشارة المفاعلة قوية جدًّا، فسيحكم على الوضع الذي كان في الواقع قابلًا للسيطرة عليه بأنه غير قابل للتغيير)، بعبارة أخرى؛ يساعد الشعور الدقيق بالحرية من يحوزه على زيادة الفرص إلى أقصى حد، ويقلل ضياع الجهود إلى أدنى حد.

إذا كان شعورنا بالحرية هو فعلًا عاطفة متأصلة في الدماغ، فسيقتضي ذلك استنتاجات عدة؛ سيختلف الشعور بالحرية (ومعاكسه، المفاعلة) من شخص إلى آخر، مثلما أن بعض الأشخاص أكثر مرحًا، أو أشد عرضة لفورات الغضب من أشخاص آخرين، وربما كان هذا هو السبب في أن ستانلي ميلغرام Stanley Milgram وجد أنه في حين أطاع معظم المتطوعين لإجراء التجارب الأوامرَ بإعطاء ما كانوا يظنون أنه صدمات كهربائية شديدة، فإنه كان هناك على الدوام أشخاص رفضوا ذلك.

من البديهي أن الشعور بالحرية سوف يترافق، بناء على الخبرات، مع بعض المواقف ولكن ليس مع أخرى، فقد يشعر الشخص نفسه بأنه حر في المنزل وأسير في العمل، والعكس بالعكس. الحرية -مثل العواطف الأخرى- تجربة تتصف بأنها متدرجة وليست إحساسًا على مبدأ الكل أو لا شيء؛ إذ ينبع مفهومنا عن مدى إحساسنا عامة بالحرية من مجموع كامل تجاربنا في الحرية (أو المفاعلة)، مثلما أن مفهومنا عن مدى سعادتنا يعتمد عامة على عدد التجارب السعيدة والحزينة التي مررنا بها وطبيعتها. يذكرنا عَدُّ الحرية عاطفة أيضًا بموجودات تجارب سنجر Singer وشاشتر Schachter التي بحثناها في الفصل التاسع، والتي أعطيت فيها مشاعر عاطفية واحدة (بسبب حقن الأدرينالين) تفسيرات ذهنية مختلفة حسب الوضع الاجتماعي. بالطريقة نفسها، قد نفسر عاطفة واحدة بأنها ارتياح على سبيل المثال (إذا خرجنا للتو من فحص طبي عام وقد أخبرنا أن كل شيء على ما يرام) أو أنها حرية (إذا خرجنا للتو من السجن).

تسمح لنا قدرتنا على تغيير أنفسنا أيضًا بتفضيل بعض الحريات أكثر من غيرها، مثل الموظف الذي منع من التدخين الذي يقرر أنه كان على وشك أن يبطله على كل حال. كلما اعتدنا أكثر أن نكون مسيطرين على الموقف، أو كلما زاد تقديرنا للحرية، كبر شعورنا بالمفاعلة عندما تتهدد تلك السيطرة أو تتهدد الحرية، وزاد احتمال أن يكون ارتكاسنا عنيفًا. إن العوامل الاجتماعية ذات تأثير كبير جدًّا في تحديد مستويات الحرية التي يشعر بها الشخص، وهناك بعض الأدلة على أن هذه العوامل مهمة خاصة في مرحلة الطفولة؛ حين تكون الأدمغة لا تزال تمر بتغير سريع. قد تحدد الخبرة الاجتماعية المستوى الأساسي ومدى العديد من المتغيرات الشخصية، وقد تسبب الصدمة الباكرة الخوف (أساس خوف عال) مثلًا،

وبصورة مماثلة، قد تنتج القيود الباكرة على السلوك بتوقعات عامة أقل من الحرية، ومن ثم مفاعلة أقل.

أحد العواقب الأخرى لتأسيس الحرية في الدماغ أن التغيرات التي تطرأ على الدماغ يمكن أن تؤثر في قدرتنا على الشعور بالحرية. وقد ربط بعض الباحثين بالفعل بين الخلل في وظيفة الدماغ وبعض اضطرابات الإرادة الحرة، مثل أوهام السيطرة من الفضاء الخارجي (أو وكالة المخابرات الأمريكية أو الجن) التي يعانيها بعض الأشخاص المصابون بالفصام، وبين متلازمة اليد الغريبة النادرة. وفي هذه المتلازمة تقوم يد المريض، وأحيانًا أطراف أخرى، بحركات يشعر المريض أنها هادفة ولكنها خارج سيطرته، فقد تمسك اليد مثلًا قبضة باب ولا يمكن رفعها عنها إلا بالقوة، أو تجر الثياب، أو حتى تحاول خنق صاحبها[15]. تثير المتلازمات من نمط متلازمة اليد الغريبة الفضائي وأوهام السيطرة الاحتمال، المشار إليه ضمنيًا في هذا الفصل، بأن الأذى المتعمد، أو التلاعب بطريقة أخرى، بدماغ الشخص قد يؤثر في شعوره بالحرية، وبخاصة إذا أمكن تحديد مناطق في الدماغ تسهم في الشعور بالمقاومة، فإن إنقاص نشاط هذه المناطق قد يزيد من القدرة على إيحاء الشخص، حيث إن الإشارات التي تحذره عادة من التهديدات التي تواجهها الحرية لم تعد متوافرة.

بدأ بعض العلماء فعلًا بدراسة مواضيع الحرية والوكالة باستعمال تقنيات التصوير العصبي. فاستعملت إحدى مجموعات البحث على سبيل المثال التنويم المغناطيسي لمعرفة ماذا يحدث في الدماغ في أثناء تجربة سيطرة الكائنات الفضائية؛ أي عندما يشعر الأشخاص أن الحركات التي فعلوها ليست حركاتهم[16]. عمد العلماء إلى تنويم أفراد أصحاء مغناطيسيًا وتحريضهم على عزو حركة يد فعلوها هم أنفسهم إلى مصدر خارجي (بكرة كانت يدهم مربوطة بها)، فأظهرت تصاوير الدماغ أن مناطق من الفص الجبهي، والمخيخ، والقشرة الأمام جبهية، تكون أكثر نشاطًا عندما يعتقد الأشخاص ضلالًا أن الحركة كانت بسبب البكرة، منها عندما اعتقدوا أنهم هم من فعلوا الحركة. بعبارة أخرى، يبدو أن ربط مظاهر من الوظيفة الدماغية بتجربة سيطرة الكائن الفضائي ممكن بطريقة ثابتة ويمكن تكرارها؛ هذه خطوة في الطريق لفهم كيف تزودنا أدمغتنا بشعورنا بأننا وكلاء أحرار، ولكنها خطوة فقط، فقد يكون هناك مشكلات فنية وعقلية يجب حلها، ويبدو أن الطريق سيكون طريقًا طويلًا[17].

الخلاصة والاستنتاجات

«يا رب امنحني الشجاعة على تغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها

والسكينة لقبول الأشياء التي لا أستطيع تغييرها

والحكمة بأن أعرف الفارق».

آنون Anon، **دعاء السكون**

Anon, The Serenity Prayer

إذا كان كل شيء في العالم محددًا سببيًّا، فهل يمكن أن نكون أحرارًا؟ يقول مفكرون مثل دانيال دينيت Daniel Dennett وجورج آينسلي George Ainslie إننا نستطيع، إذا تصورنا الحرية من حيث قدرتنا على تغيير ذواتنا المستقبلية إضافة إلى العالم من حولنا، وهي قدرة تعتمد على تنبؤ المستقبل، لكن الحرية هي أكثر من مفهوم معرفي (التنبؤات، المحددات بين الأزمان)؛ إنها عاطفة، تنشأ من أنماط من النشاط الدماغي. دعاء السكون -على الرغم من أنه نمطي- في محله: شعورنا بالحرية إشارة عاطفية تعطينا الحكمة بأن نعرف أن الأشياء يمكن أو لا يمكن أن تتغير. هذه القوة العاطفية هي التي تعطي فكرة الحرية الغيبية المقدسة قدرتها على قلب نظام الديكتاتورية، وإلهام الثورات، وإرسال البشر إلى حتفهم.

ها نحن نعود إلى غسيل الدماغ، إلى حلم التحكم في العقل؛ لأنه إذا كانت الحرية عاطفة فإنه يمكن التلاعب بها مثل العواطف الأخرى، وإذا كان شعورنا بالحرية -كما اقترحت- متلطخًا بوجود إشارة تهديد (مفاعلة)، عندها فإن إنقاص تلك الإشارة بصورة مصطنعة يمكن أن يجعلنا نشعر بأننا أحرار في أننا لسنا كذلك، وعلى العكس من ذلك يمكن أن يحفز تعزيز المفاعلة الشخص للتصرف بطرائق لا يتصرف بها عادة، وذلك للدفاع عن حريته ضد الخطر المنظور، وهي حيلة معروفة جيدًا لكل غوغائي يستحق ذلك الاسم. إن الأحكام على الحرية تمامًا مثل الحكم على كونك سعيدًا أو لا، ليس موضوع نعم/لا مطلقة، فهي تعتمد بدلًا من ذلك على الظروف، وعلى مزاجنا العام، وعلى من يطلب منا أن نصدر الحكم، وهكذا.

قد يكون التلاعب (سواء كان بزيادة المفاعلة أو تثبيطها) اجتماعيًّا، كما هي الحال في امرأة تشتري حبوبًا لعلاج الصداع شاهدت إعلانًا دعائيًّا عنها، أو الطلب الصريح للموافقة

علـى مكالمـة أخرى من مندوب المبيعات (التـي لا تفيد فقط بتلطيف المفاعلة ولكنها تعمل أيضًا لفـخ التـزام). كمـا تبين فـي الفصول السـابقة، هناك أسـاليب عدة يمكـن أن يؤثر بهـا التلاعب الاجتماعي، بدءًا بالعناوين الرئيسـة الزاهية للصحف إلى الإكراه الوحشـي للتعذيب، وبعض هذه التقنيـات قـوي جـدًّا، لكنها تطورت عن طريق التجربة والخطأ على مـدى قرون، بدلًا من أن تكون فهمًـا مفصـلًا لكيفيـة عمل الدماغ. اشـتق كثير من التقنيات المسـتعملة في غسـيل الدماغ -على سبيل المثال- من الطرائق المستعملة في التعذيب.

بدأنا في السنوات الأخيرة بالابتعاد عن الاعتماد على التجربة والخطأ، إذ سمحت التقنيات الحديثة لعلماء العلوم العصبية بمسـتوى غير مسـبوق من المعرفة البصيرة بكيفية عمل الدماغ. بالطبع، هناك كمية هائلة من العمل الواجب إنجازه، لكن يمكن ضمان شيء واحد؛ الأشخاص منا الذين يتوقون -لأي سبب كان- للحصول على قوى التحكم في العقل لن ينتظروا الفهم الكامل قبل أن يحاولوا اسـتعمال الموجودات العلمية للتلاعب بأقرانهم من البشـر؛ لن تختفي أخطار غسـيل الدماغ، كما سنرى في الفصل الرابع عشر، وقد تكون حقًّا متجهة نحو الزيادة.

سـوف أنظـر فـي الجـزء الثالث فيما يمكـن أن نفعلـه، أشـخاصًا ومجتمعـات، لإنقاص هذه الأخطار إلى الحد الأدنى.

الجزء الثالث

الحرية والسيطرة

الفصل الثاني عشر

الضحايا والمفترسات

«ذلك الذي يريد أن يحكم الآخرين، أولًا يجب أن يكون سيد نفسه».

فيليبب ماسينجر Philip Massinger، **رجل العهد**

آن أوان التلخيص؛ لقد نظرنا حتى الآن في تاريخ استعمال مصطلح (غسيل الدماغ) منذ أن وضعه إدوارد هنتر Edward Hunter عام 1950م، ولما كان غسيل الدماغ يشمل بالضرورة الأدمغة، فقد نقَّبنا أيضًا في العلوم العصبية، وعلم النفس، والفلسفة، مستبدلين بـ(العقل الألماسي) الديكارتي القديم بنيةً أكثر مرونة بكثير وأعقد تركيبًا، وتعلمنا كيف يمكن أن تتغير الأدمغة ومعتقداتها فجأة أو ببطء مع مرور الوقت، ويمكن أن يحدث التغيير نفسه عندما تتدفق الطاقة من العواطف القوية في الشبكات المعرفية التي ترمِّز لمفهوم، مقوية ذلك المفهوم من مجرد فكرة إلى إقناع عميق. يحدث التغيير البطيء بدرجات ضئيلة، مثل تعلم عادة ما. لقد رأينا أيضًا أن الأدمغة تحفظ سجلًا عما تستطيع أو لا تستطيع تغييره في العالم حولها، وأن إشارة القابلية للتغيير هذه يمكن أن تشكل أساس شعورنا بالحرية ونظيرها السلبي، المفاعلة. المفاعلة، التي تحذر من تهديد وشيك للحرية، هي أعظم تحد يواجه تقنيات التأثير. كلما شعرنا أننا نتعرض للتلاعب، تحرض المفاعلة آلية (توقف وفكِّر)، وهي الأساس الذي يعتمد عليه القشرة الأمام جبهية لمقاومتنا لمحاولات التأثير. تطغى التغييرات المفاجئة القوية قوة كافية، مثل الهجوم العاطفي الحاصل بغسيل الدماغ الجبري، على هذه المقاومة بالإكراه، في حين تقوم التغييرات البطيئة لغسيل الدماغ بالتسلل باستعمال وسائل أكثر مكرًا لتجاوز إدراكنا بأنه قد جرى التأثير فينا.

سوف يطبق الجزء الثالث ما توصلنا إليه حتى الآن في الجواب عن خمسة أسئلة مهمة ومترابطة حول غسيل الدماغ؛ يتعلق السؤال الأول بضحايا غسيل الدماغ: ما الذي يجعل بعض الناس معرضين بالخاصة في حين يبدو أشخاص آخرين أكثر قدرة على المقاومة؟ ويتعلق

السؤال الثاني بطرائق غسيل الدماغ: ما الذي نستطيع أن نتعلمه من العلوم العصبية وعلم النفس عن أي من التقنيات- والأفراد- يحتمل أن يكونوا أكثر فاعلية؟ وسوف نبحث في هذه الأسئلة في هذا الفصل. ويهتم السؤال الثالث (موضوع الفصل الثالث عشر) باحتمال السيطرة على عقول الجموع، وسوف أنظر في الفصل الرابع عشر في مستقبل غسيل الدماغ والتأثير المحتمل للتقنيات الحديثة، سائلين السؤال الرابع: هل يمكن تجاوز الفجوة الحالية بين الحلم والواقع في غسيل الدماغ؟ وأخيرًا، في الفصل الخامس عشر، سوف أنظر في السؤال الخامس: كيف يمكن أن يقاوَم غسيل الدماغ وأن تقلل أخطاره إلى الحد الأدنى؟

نحن جميعًا أفراد

كانت إحدى الأفكار الأساسية في هذا الكتاب هي الاختلافات الفردية؛ إذ تختلف الأدمغة، مثل الذوات التي تولدها هذه الأدمغة، اختلافًا كبيرًا في الحجم، وكذلك في أعداد التشابكات العصبية والشبكات المعرفية وأنواعها[1]، فلا يوجد دماغان متطابقان، سواء في البنية أو في أنماط النشاط.

بداية، يأتي هذا التنوع بسبب وجود مورثات مختلفة، وكذلك فإن تأثيرات المورثات تتضخم جدًّا بحقيقة أن المورثات تعمل وتقف عن العمل في الأوقات المختلفة والمناطق المختلفة من الدماغ. تحتوي خليتان من خلايا الجنين على التسلسل الوراثي نفسه، مع ذلك تعطي واحدة منها خلايا الجلد التي ينتج منها القشرة في الشعر، في حين تكون سلالة الأخرى خلايا عصبية، تطلق الاستجابة العصبية.

يعود المصير المختلف لهذه الخلايا إلى الطريقة التي تعمل فيها مورثاتها، إذ تصنع المورثة الناشطة بروتينًا قد يكون له عدد من التأثيرات في الدماغ، منها تفعيل عمل مورثات أخرى أو إيقافه، ويمكن أن تعمل المورثات أو تتوقف عن العمل أيضًا بتأثير البيئة: المواد الكيميائية، والمثيرات الكهرمغناطيسية، أو التنبيه الآتي من حواسنا بما يستلزمه العيش في عالم مليء بالأشياء والأشخاص والأفكار. قد تدخل المواد الكيميائية إلى الدماغ، على سبيل المثال، عن طريق تناول الطعام أو الشراب، أو تناول الأدوية، أو التغيرات الهرمونية في الجسم، أو الإنتانات، وقد يكون لهذه المواد الكيميائية تأثيرات متفاوتة في الدماغ والجسم[2]. ولما كانت الخلايا العصبية تعتمد على الكهرباء، فقد تتأثر هي والمورثات المحتواة فيها بالإشعاعات الكهرمغناطيسية[3].

هذا هو المنطق في استعمال العلاج بالاختلاج الكهربائي الذي يعطي صدمات كهربائية للمريض لعلاج حالات الاكتئاب الشديدة جدًّا. أخيرًا، تستقبل أدمغتنا منبهات لا تنشط الخلايا العصبية فحسب، وإنما تغير المورثات المحتواة ضمنها. تتشابك البنية الطبيعية مع النشأة تشابكًا غير قابل للانفصام[4]، ومع هذا التنوع الشديد، ليس من المدهش أبدًا أن دماغ الإنسان ليس عبوة موحدة.

السذج والساخرون

ينطبق التنوع على الخصال النفسية مثلما ينطبق على البنية الجسدية، ومن ضمن ذلك الخصال التي تفسح المجال لقابلية التعرض للتأثير أو تحمي منها؛ قد يخرج بعض الناس من دون أن يتحطموا من التعذيب أو أن يسلبوا من قبل محتال ماكر، لديهم القدرة على قول لا يحسدهم عليها أصدقاؤهم، وتجعل مندوبي المبيعات والجمعيات الخيرية يائسين منهم. لو قابل أمثال هؤلاء الأشخاص ستانلي ميلغرام Stanley Milgram، لأحجموا عن متابعة عمليته باكرًا في التجربة (كما فعل حقًّا عدد ضئيل من الأشخاص الخاضعين للتجربة)، إذ إن لديهم قوة داخلية، وإيمانًا ذاتيًّا، تعزلهم عن هذه الأشكال من الضغط الاجتماعي.

يفتقر معظمنا إلى الحماية، ومع أننا نعتقد بأننا نتمتع بالمناعة، فإن الواقع يثبت على الدوام أننا مخطئون، فنقع ضحايا للمحتالين، ونقدِم على عروض مبهمة، ونشتري أشياء لا نريدها أو لا نحتاج إليها، ونعطي المال لجمعيات خيرية لا نكترث لها أبدًا. إذا كنا صادقين، فإن قابليتنا للإيحاء ستجعلنا نتفق مع الخبير على تقنيات المطاوعة روبرت شيالديني Robert Cialdini، الذي تبدأ مقدمة كتابه **التأثير** Influence (واسع النفوذ) بالقول:

> **«أستطيع أن أعترف بحرية الآن أني كنت في كامل عمري عجينة؛ لأنه على مدى عمري الذي أذكره، كنت هدفًا سهلًا لتلاعب الباعة المتجولين، وجامعي التبرعات، والدجالين من نوع أو آخر. صحيح أن بعضًا فقط من هؤلاء الأشخاص كان لديهم دوافع غير شريفة، لكن الآخرين ـ ممثلي وكالات خيرية معينة، مثلًا ـ يضمرون أفضل النيات. مهما كانت النيات، والنتيجة هي أنني أجد نفسي دائمًا وبروية مقلقة أشترك في مجلات لا أرغب فيها، أو أشتري بطاقات لحفل عمال التنظيفات».**

شيالديني Cialdini، **التأثير**، الصفحة ix.

Cialdini, Influence, p. ix

محاولات التأثير قديمة قدم العقول التي تستهدفها، لذلك ليس من المدهش أن تقنيات اليوم قد طورت تلاؤمًا ممتازًا مع الأدمغة التي تستهدفها، ويمكن القول إن التأثير ومحاولات مقاومته خصمان في سباق تسلح تطوري، وآخر خطوة في سباق التسلح قد تكون نزوعنا لشراء وقراءة كتب لعلماء علم النفس الاجتماعي مثل روبرت شيالديني Robert Cialdini، لكن حتى هذا ليس ضمانًا للحماية من أسلحة التأثير. لا نتذكر دائمًا أننا أشخاص مستقلون لدينا عقولنا الخاصة، أحيانًا نكون متعبين جدًّا، أو مشغولين جدًّا، أو كسولين جدًّا، أو ضعفاء جدًّا، لكننا في كثير من الأحيان نتذكر، وهذا لا يهم على أي حال في كثير من محاولات التأثير. لا يهمني ما نوع سائل جلي الصحون الذي ينتهي به المطاف في حوض مطبخي ما دام أنه يؤدي الغرض؛ لذلك أتناول من الرف النوع الذي شاهدت أكبر عدد من الإعلانات عنه، بفرض أنه ليس أغلى بصورة ملحوظة من غيره. التدقيق المفصل للمزايا النسبية لكل سوائل جلي الصحون المتوافرة قد يكون فعلًا ضمن قدراتي البحثية، لكنه مضيعة للوقت، فمن يهتم، ما دمنا نحصل في النهاية على صحون نظيفة؟

تغيير المعتقدات

لكن قد يكون الأمر مهمًّا أحيانًا؛ إذ يُتلاعب بنا أحيانًا كي نتصرف خلاف أفضل مصالحنا، سواء كان ذلك يعني الغرق في الدَّيْن لشراء شيء لا نحتاج إليه في الواقع، أو ربط حزام ناسف على خصرنا طلبًا للشهادة. هدف غسيل الدماغ هو السيطرة على كل من تفكيرنا وأعمالنا، وفي الحالة المثالية، الدخول إلى رأس المستهدف، وسنرى في الفصل الرابع كيف يمكن أن يجعل علم الأعصاب الحديث ذلك ممكنًا، ولكن الأغلبية العظمى لتقنيات التأثير لا يمكن أن تغير الأدمغة مباشرة، لذلك تعمد بدلًا من ذلك إلى تغيير البيئة التي غمرت فيها تلك الأدمغة.

تضع هذه الحاجة إلى العمل عن بعد عائقين في طريق فنيي التأثير؛ الأول هو الوقت والجهد اللازمان لتغيير الاعتقاد، خاصة إذا كان يجب أن يكون التغيير مهمًّا وطويل الأمد. يمكن أن تساعد إثارة المشاعر، لكن لا يزال يجب تعزيز المعتقدات الجديدة مرة بعد أخرى إلى أن تصبح اعتيادية -أي آلية- بحيث تنقص فرصة تحديها كثيرًا، وإلى أن تصبح هذه الشبكات المعرفية الجديدة أقل بما يكفي من عتبة الوعي، فإنها لن تتناسب بارتياح مع بقية المشهد المعرفي للمستهدف، وإلى أن يتوقفوا عن البروز وجذب الانتباه، فهناك دائمًا خطر أن المستهدف قد يُحفَّز على التشكيك بهم.

هـذا هـو السـبب في أن الطوائـف الدينية -على سـبيل المثـال- كثيرًا ما تعـزل تابعيها عن حياتهـم السـابقة، ذلـك أنـه بالتقليص إلـى أدنى حدٍّ احتمـالُ أن يقـوم الأصدقـاء، أو العائلة، أو الظـروف السـابقة بتنشـيط شـبكات معرفية لا تتوافق مـع الإدارة الجديدة، فإنهـا تقلل من قدرة الأفـكار السـابقة علـى تحـدي الأفكار الجديـدة. تذكروا أنه عنـد اتخاذ القـرارات بخصوص أين سـتحرك عينيـك على سـبيل المثال، تتفاوض مناطق الدماغ بعضها مع بعض بحيث تميل أنماط نشـاطها المختلفة إلى التكامل. ولتبسـيط أكثر؛ إذا كانت المنطقة أ تصوِّت لتحريك العينين إلى الأيسر، وكانت المنطقة ب تصوِّت للتحريك إلى الأسفل، فإن اتفاقهما سيؤدي على الأغلب للحركة على محور مائل باتجاه الأسـفل والأيسـر. تملك الشـبكات المعرفية الأكثر قوة حق تصويت أقوى فـي هـذه العمليـة من التعديل؛ فإذا كان النشـاط في المنطقـة ب أقوى من نشـاط المنطقة أ فإن حركة العينين سـتكون إلى الأسـفل أكثر منها إلى الأيسـر، وهكذا عندما تفرض مجموعة جديدة من المعتقدات (المرتبطة بطائفة دينية) على نموذج موجود مسـبقًا (أحيانًا مختلف جدًّا)، فإن نجاح غسيل الدماغ سوف يعتمد اعتمادًا حيويًّا على كم الشبكات المعرفية الجديدة الأكثر قوة من الشبكات المعرفية القديمة. يقلل العزل قوة تصويت الشبكات المعرفية القديمة، ويسمح للتلاعب العاطفي والنفسي القويين لبيئة الطائفة الدينية للعمل بأقصى تأثير.

العائـق الثانـي الـذي يواجهـه فنِّيو التأثير هـي أنهم ما دامـوا لا يعرفون المسـتهدف معرفة جيـدة، فإنهـم يعملـون فـي العماء، فهدفهم هـو أن يتقبل المسـتهدف معتقداتهـم المفضلة، وهي مهمة أسـهل بكثير إذا كانت المعتقدات لا تتناقض مع ما يؤمن به المسـتهدف أصلًا، فالشـبكات المعرفية الأكثر ملاءمة أكثر قبولًا؛ لأنها تحرض تفكيرًا أقل، ومن ثم تكون أقل استهلاكًا للجهد، فكلمـا كانـت شـبكتي المعرفيـة أقرب إلى شـبكتك، زاد ما نشـترك فيه وزادت فرصـة أن نتوافق، وكلمـا عرفتنـي أكثر، وتطابقت أفكارنـا، يزيد التأثير الذي يمكنك أن تطبقـه. هنـاك تعليق يتكرر كثيـرًا علـى لسـان المعتنقيـن لديانـة جديـدة أو حركة سياسـية جديدة؛ وهـو أن ما يقولـه القائد يتطابق تمامًا مع ما يفكرون فيه، يمكن أن يكون مفهوم انسجام العقول هذا هو نفسه مصدرًا قويًّا للابتهـاج المشـترك، مضيفًا إلـى اللاصق العاطفي الذي يربط الحـركات بعضها ببعض ويجعلها كيانًا متماسكًا مثل مجموعة، أو قبيلة، أو طائفة دينية وليس مجرد عدد من الأشخاص.

لكن فنيي التأثير لا يعرفون في كثير من الأحيان حالة الشبكة المعرفية للمستهدف مقدمًا، ومن ثم يخمن بعضهم على أساس خلفيتهم المعرفية (المتصل الذي عرض عليَّ سـعرًا مقطوعًا

لمطبخ جديد ليس محظوظًا: معظم جيراني يمتلكون بيوتهم ولا يريدون مطابخ جديدة)، ويحاول بعضهم الآخر سبر الهدف بأسئلة موجهة جيدًا، لكن ذلك يحمل خطر أن ينتبه المستهدف، وهو ما يثير ارتكاس المفاعلة، أو أن يمل، وهو ما يدفع لارتكاس الانسحاب.

في المواجهات الفردية بعددها الهائل التي تشكل بمجموعها سباق التسلح يحرز كل من الطرفين انتصاراتهم، ولكن في الحالات المتطرفة قد تطغى القوى التي تستعمل غسيل الدماغ على المقاومة، وكذلك فإن التدريج الذي يميز غسيل الدماغ عن طريق التسلل قد يتجاوز حتى أكثر حراس القشرة الأمام جبهية يقظة، وحتى مع ذلك، من الواضح أن بعض الناس أكثر يقظة أو أكثر مقاومة من غيرهم. ما الملامح التي تجعل بعض العقول أكثر عرضة للتأثير وآخرين قدرة على الدفاع عن أنفسهم ضده؟ يوحي ما عرضناه في الجزء الثاني أن مقاومة الدماغ لتلقي معتقدات جديدة تأتي من ثلاثة مصادر متداخلة: عدد الشبكات المعرفية الموجودة سابقًا، وقوة هذه الشبكات المعرفية، والقدرة على التوقف والتفكير. دعونا ننظر في كل منها بدوره.

تغيير الشبكة المعرفية

عدد الشبكات المعرفية

يجعل المشهد المعرفي الغني، المليء بالمشاهد المعرفية والقادر على التعامل مع المثير بطرائق متنوعة ومرنة، من الصعب على غاسل الدماغ أن يفرض معتقداته الجديدة، ويمكن باستعمال مثال تدفق الماء من الفصل الثامن، أن نرى لماذا الأمر كذلك؛ فإذا كان للماء قنوات قليلة فقط يعبر فيها، فسيكون التدفق في كل قناة قويًا، وستكون آثار التآكل -الذي يزيد حجم القناة- كبيرة، وإذا توافرت قنوات أكثر، فسوف يصبح التدفق في كل قناة أقل، وسيزيد حجم القناة ببطء أكبر؛ فكذلك في الشبكات المعرفية؛ كلما توفر عدد أكبر من القنوات البديلة لتدفق النشاط العصبي من الوارد إلى استجابة الصادر، كان كل تشابك عصبي فردي أضعف.

هذا هو السبب في أن العمر، والتعليم، والإبداع، وتجارب الحياة التي تُغني المشهد المعرفي، تميل إلى الحماية من تقنيات التأثير. عدد الاتصالات بين الخلايا العصبية في دماغ الإنسان ليس ثابتًا؛ ويمكن أن يشكِّل استعمال الدماغ في التفكير تشابكات عصبية جديدة، وهذا هو السبب في أن مبدأ (استعمله أو افقده) ينطبق على الدماغ كما ينطبق على العضلات. في الأدمغة اليافعة،

الأقـل تعلمًـا، والأقـل إبداعًـا، أو الأقل خبـرة، يعطي التوازن بيـن المعلومات القادمـة والمعلومات المختزنة في الذاكرة -الواردات التاريخية الموصوفة في الفصل العاشر- أهمية أكبر للمعلومات القادمـة، حيـث يتوافـر للشـخص آنـذاك تاريخ شـخصي أقل، لذلك يكـون أكثر قابليـة لأن تقوده المثيرات، مرتكسًـا للبيئة المباشـرة عوضًا عـن التوقف والتفكير بها. تملك الأدمغة الأكبر سـنًّا، المتعلمـة أكثـر، أو الأكثـر خبـرة، واردات تاريخية أكثر، تتنافـس مع إلحاح الأمـور التي تجري في لحظـة مـا علـى القيام بفعـل. يمكن أن تكـون العواطف أيضًـا أقل إيلامًـا، والطلبات أقـل إلحاحًا -فقط إذا كانت هذه العواطف قد قوبلت سـابقًا- في دماغ الشـخص الأكبر سـنًّا، وربما كان هذا هو السبب في أنه يعتقد بأن السفر يوسع مدارك العقل، ليس المهم هو عملية السفر نفسها، وإنما تنـوع الخبـرات الجديدة التي يكتسـبها المـرء في أثنـاء ترحالـه. إن الدماغ الـذي أغنته التجارب المتنوعة التي يكون فيها للواردات التاريخية دور بارز، أكثر حذاقة وتميُّزًا، وأصعب قابلية للضغط عليه من قبل المثير الوارد، ومن ثم أصعب قابلية لأن يسيطر عليه التلاعب بالعقول.

يمكن أن يساعد توافر شبكات معرفية أكبر الشخصَ المستهدف على مقاومة حتى أشد أنواع التلاعب بالعقل. كثيرًا ما يرتكس ضحايا التعذيب للإكراه المطبق عليهم بتفعيل شـبكات معرفية غنية بالخاصة -معتقدات دينية، أو صورة حبيب- متمسـكين بها للتشـبث بحياة عزيزة، ومتخذين الدعم منها، وهذا هو السبب في أن أساليب الإكراه المعقدة تناوب بين العنف واللطف. الحب هو أعظم مصل مضاد للتعذيب، كما هو مصل مضاد لأنواع عديدة من الأذى، ويمكن أن يكسر التظاهر بالشـفقة مقاومة الضحية بكفاءة أكبر من كفاءة الألم، من ذلك أن أحد السـجناء الأمريكيين في كوريا يصف كيف كان يؤخذ باستمرار إلى (باب الموت) قبل أن يعفى عنه، وعلى الرغم من حقيقة أن معتقليـه كانـوا علـى وشـك أن يكونوا مسـؤولين عـن قتله، فإنـه كان يقول بعد مـدة إنك «تصبح شـاكرًا لهم لأنهم أنقذوا حياتك عندما كنت على وشـك الموت.. كانوا يفعلون ذلك مرارًا وتكرارًا بمـا كان يكفـي لأن تسـتحوذ علـى كامل عملية تفكيرك، إلـى أن تصبح مدينًا بما يكفـي للقيام بأي شيء يريدونه»[5]، ومع مرور الوقت، أصبح الإنقاذ من الموت أكثر كفاءة في التأثير من التهديد به.

قوة الشبكة المعرفية

مـن المتناقضـات أن الدمـاغ الأقل امتلاكًا للشـبكات المعرفية يمكن أن يكـون أيضًا أصعب مطاوعة لغسـيل الدماغ من الدماغ الوسـطي؛ يحدث ذلك عندما تكون الشبكات المعرفية متمكنة جيـدًا: توفر معتقدات الشـخص الخاصـة المتينة بعض الحماية على الأقل مـن تجار المعتقدات،

وهنا أيضًا يختلف الأفراد بعضهم عن بعض؛ فيكون لدى بعضهم معتقدات قوية، لكن مستوى ما يسميه علماء النفس (الحاجة إلى التحكم) يكون منخفضًا لديهم. يكونون واثقين بأنفسهم بما يكفي بحيث إنهم لا يشعرون بأن معتقداتهم الخاصة مهددة عندما يقابلون أشخاصًا لديهم وجهات نظر أخرى؛ سوف يستمعون بتسامح، لكنه من غير المحتمل أن يغيروا معتقداتهم الخاصة. يبدو بعض الأشخاص متشككين وغير مقتنعين حتى بالمعتقدات السائدة في مجتمعاتهم؛ ولا يلتزمون بقوة بأي مذهب فكري، وآخرون يجمعون بين ميلهم إلى الإيمان بمعتقدات متينة مع الحاجة إلى فرض أفكارهم على الآخرين. لدى مثل هؤلاء الأفراد احترام قوي للذات -يؤمنون بمعتقداتهم بقوة- لكن حاجتهم إلى التحكم قوية أيضًا. ووفق ما يحاجج روي بامستر Roy Baumeister (النظر الفصل الخامس) فإن ثقتهم العالية بالذات وسهلة المطاوعة للتأثير في الوقت نفسه، يمكن أن تجعل هؤلاء الأشخاص العقائديين أميل للارتكاس بعنف لأي تحد لوجهات نظرهم، ولكن أساليب التأثير القوية قوة كافية يمكنها أن تفرض عليهم اعتقادًا جديدًا، سيدافعون عن بعد ذلك بشراسة.

إساءة استخدام القشرة الأمام جبهية: تجاوز آلية (توقف وفكِّر)

«.... لكنها مؤسفة حالة الارتباك
للوفيات المقلقة والمحزنة،
في أنها تمهد الطريق للولادة القبيحة
لآلامهم الخاصة، وتبقى مع ذلك تضفي
فتنة على الحماقة».

صموئيل دانيال Samuel Daniel، رسائل خاصة، (للسيدة مارغاريت، كونتيسة كامبرلاند)

Samuel Daniel, Certain Epistles, 'To the Lady Margaret, Countess of Cumberland'

القدرة على التوقف والتفكير

تعتمد كفاءتنا في اكتشاف وتحدي محاولات التأثير، كما شرحنا سابقًا، على غنى مشهدنا المعرفي، وتعتمد كذلك على مدى قوة تفعيل شبكاتنا المعرفية؛ فعندما تتدفق من خلال هذه الشبكات طاقة من منبهات شديدة وبسيطة، من عواطف جياشة، فإنها قد تحفِّز قبل أن نستطيع إيقاف أنفسنا. ووفق ما أظهر الجزء الثاني من الكتاب بوضوح، فأحد المبادئ التي تنطبق على

الأدمغة البشرية هو أنها ليست آلة حساب منطقية بصورة مثالية تدرك أفضل مصالحها وتختار وفقًا لذلك، حتى سكان كوكب فولكان في مسلسل الرحلة عبر النجوم، الذي يعدون النموذج المثالي للمنطق، يمرون بمراحل عاطفية، والبشر أقل مهارة بكثير من الفولكانيين في التحكم في مشاعرهم، وربما تعود حقيقة أن عجزهم هذا كثيرًا ما يخدم مصالحهم إلى حقيقة أن كاتب مسلسل الرحلة عبر النجوم هو من سكان الأرض وليس فولكانيًّا، لكنها تعكس مع ذلك فهمنا المتزايد لكيف ولماذا تهمنا العواطف[6]. وحسبما يقترح الفصل التاسع، فإنها عنصر ضروري لنجاح الفعل البشري، فيمكن أن تسبب المشكلات إذا كانت مفرطة (وخير الأمور الوسط كما يقول المثل)، ولكن من دونها يمكن أن يتوقف اتخاذ القرارات نهائيًا.

مع ذلك، فقد يضللنا الاعتماد على العواطف؛ فيمكن لعملها بوصفها طرقًا مختصرة لأداء الفعل أن يرجح القرارات بأفضلية للملذات بدلًا من فائدة أعظم لكنها تتحقق على المدى الأبعد. كذلك فإن العواطف لا تميز إلى حد ما بين الأشياء، وتتمثل قدرتها بغمر الدماغ، مسببة تغيرات في مناطق عديدة متداخلة بمقياسها الزمني البطيء نسبيًّا. والعواطف تتلكأ في حين أن الأفكار لا تتلكأ (ونحن نضرب مثلًا بعقل الجرادة، يقفز من فكرة لأخرى كالجرادة، ولكن ليس بقلبها). ووفق ما بحثنا في الفصل التاسع، فإن عدم التوافق هذا بين زمن الشعور بالعاطفة ودقة وسرعة التفكير واللغة، كما يمثلها البطل (الفضي السريع) في قصص الأبطال المتحولين، يسمح للمشاعر التي تثيرها فكرة ما (كلمة، أو عبارة، أو صورة) أن تترافق مع مفهوم آخر، ربما ليس له علاقة أبدًا بالأول، وعدم التوافق هذا يُستغل كثيرًا من قبل فنيي التأثير.

لذلك فإن للفوارق الشخصية أهمية في كيفية تعامل الأدمغة مع العواطف. يبدي الناس أنواعًا مختلفة من العواطف، ومن الخطوط العاطفية المبدئية؛ فبعض الأشخاص أكثر حساسية أو أقل، أكثر هدوءًا أو أكثر عرضة للغضب، أكثر استرخاء أو أسهل استفزازًا، أشجع أو أكثر خوفًا من جيرانهم. وأحد تحديات إقامة علاقة جديدة هي معرفة نقاط ارتكاز شريكك. يعود بعض هذه الفروق إلى الاختلافات الوراثية، مثل مستويات النواقل العصبية مثل السيروتونين الذي يعتقد أنه يعدِّل المزاج، ولكن هناك أيضًا أدلة على أن التجربة الباكرة في العمر يمكن أن تؤثر في تحديد الخط المبدئي لكثير من العواطف[7].

أحد الأمثلة المدروسة جيدًا هو الحساسية للتوتر التي من المعروف -وفق ما ذكرنا سابقًا- أنها تختلف كثيرًا من شخص إلى آخر، وكثيرًا ما يستخدم فنيو التأثير التوتر؛ بإثارة نوع ما

من الشعور السلبي لدى المستهدف -الشعور بالذنب، أو الخوف، أو عدم الانسجام الفكري من نوع ما- يستطيعون عندها أن يقدموا السلوك الذي يريدون تحريضه على أنه الطريق للتخلص من كامل هذا الضغط العاطفي. إنهم يعلمون أن احتمال أن يتصرف الشخص المتوتر تصرفًا ارتكاسيًّا، مستعملًا التفكير النمطي، أكبر مما لو أعطي الوقت والسعة للتفكر في حالته.

يمكن أن نجد الفروق الشخصية أيضًا في شعورنا بالحرية، ونقيضها، المفاعلة، اللذين يعملان كما تعمل العواطف، وفق ما حاججت في الفصل الحادي. قد توضع الخطوط الأساسية عندما يكون الطفل في عمر سنتين تقريبًا، وهو العمر الذي يكتشف فيه الإنسان الحيوان شعوره بالحرية، ويصبح عادة نمرودًا، كما لاحظ شيالديني Cialdini: «يشهد كثير من الآباء على رؤية سلوك أكثر رفضًا من قبل أطفالهم في هذه المرحلة، ويبدو أطفال عمر السنتين سادة في فن مقاومة الضغط الخارجي، خاصة من قبل آبائهم؛ فقل لهم شيئًا وسيقومون بعكسه، أو أعطهم لعبة وسيطلبون أخرى»[8]. يؤذن عمر (الفظيعتين) ببداية الفردية والاستقلال الذاتي، مع بدء الطفل بفهم نفسه على أنه كيان مستقل عن العالم من حوله، ويطَور سيادة على جسمه الخاص، مع كل ما يتضمن ذلك من الشعور بالوكالة على النفس. يتطلب جزء من عملية تعريف الذات فهمًا مفصلًا للبيئة الاجتماعية، ويكون الحصول على كثير من المعلومات الضرورية عن طريق التجربة والخطأ؛ اختبار حدود تسامح المقدمين للعناية لتعلُّم ما هو مقبول أو لا (هذا هو السبب في أنه كثيرًا ما ينصح بالسلوك الثابت في دروس الأبوة والأمومة، إذ يتعلم الطفل الذي يحاول فهم القواعد الاجتماعية فهمًا أسهل إذا كانت الأمثلة التي تقدمها تتبع نمطًا واضحًا)، ويشمل اختبار الحدود في كثير من الأحيان درجة مثيرة للغيظ من المفاعلة، حين يحاول الطفل تعديل افتراضه المبدئي الإنكاري بأن كل شيء مسموح به إلى مطابقة أكثر واقعية مع الواقع الذي عليه العالم[9].

يقبل بعض الأطفال، مثل بعض البالغين، القيود بخنوع، وبعضهم الآخر أبطأ في تخليه عن حلم التحكم، على الرغم من أن جميع الأطفال (الذين لا يمكن إدارتهم) يستقرون في النهاية، إذا أعطوا الفرصة، ولتصرُّف الأقران ومقدمي العناية أهمية كبيرة في تحديد كون الطفل سيتابع حلمه إلى أن يصبح بالغًا، وهو يعدُّ بقية العرق البشري جاهزين للاستغلال، أو إذا كانت الحريات الأخرى ستقوم بالمعاوضة.

يمكن أن يزيد التلاعب بشعورنا بالحرية من قابليتنا لتقنيات التأثير، وهذا هو السبب في أن المقاربات التي تؤكد الخيار الشخصي يمكن أن تجاوز ما هو في الأصل دفاعات متينة، ولا

يبدو أن الحصول على حرية جديدة يؤثر فينا كما يؤثر التهديد بفقدان حرياتنا الحالية؛ فنحن نفضل عادة أن نُتَملَّق، وأن يداهَن شعورنا بالسيطرة بخفاء، على أن يُتنمَّر علينا لتغيير سلوكنا، وليس هذا التفضيل نزعة من النوع الخفيف، مثل أي عاطفة، لا يوجد ثنائي الحرية/ المفاعلة في عزلة إما عن الدماغ أو الجسد. الشعور بالسيطرة الذي يميِّز الحرية والذي يحرِّض فقدانه على حصول المفاعلة يترافق، مثل العواطف الإيجابية، مع صحة جسدية وعقلية أفضل.

يمكن أن تؤدي المفاعلة التي يحرضها فقدان السيطرة، مثل العواطف السلبية الأخرى، إلى حصول الأمراض وحتى الموت المفاجئ لدى البشر والحيوانات[10].

يستطيع فني التأثير الماهر أن يعرف مباشرة أن المفاعلة قد حُرِّضت، وأن المستهدف جاهز للمعارضة، وأن السيطرة عليه أصعب بكثير، لذلك فقد يحاول أن يجعل الضحية تشعر بأنها مسيطِرة، مثلًا بطلب الموافقة: «هل أستطيع أن آخذ لحظة من وقتك؟»، أو إضافة عبارات مثل (قرارك)، (اختر أنت)، و(حسبما تريد) لإعلان البيع. وكثيرًا ما تعكس درجة إعلاء شأن الحرية مدى تقييدها في الواقع. يسهل العثور على الحديث على الحرية في خطابات الحكام الشموليين[11]، والمثال الأقل تطرفًا هو حرية الاختيار المتبجَّح بها كثيرًا في وسائل الإعلام في بريطانيا وأمريكا، فمن ناحية المبدأ، يستطيع من يريد أن يعرف آخر الأخبار أن يختار من مجموعة مثيرة من الجرائد، أو محطات التلفزة، أو المذياع، أو مواقع الشبكة، وهكذا، عمليًّا، يُظهِر أي حدث خبري كبير التشابه الأساسي لهذه المصادر التي هي في الظاهر مختلفة. يمكننا بالتأكيد أن نختار كيفية تلون معلوماتنا–تحررية أم محافظة، قطرية أم عالمية، رفيع الثقافة أم سطحي، ولكن الذي لا نستطيع عادة أن نفعله هو وضع البرنامج الذي يحدد ما الذي سيذاع خبرًا، ومن ثم توفر خيارات ننتقي منها اختيارنا.

تتعلق قابليتك للتعرض لغسيل الدماغ (والأشكال الأخرى من التأثير) بحالة دماغك، تعتمد الحالة جزئيًّا على مورثاتك، إذ تدل البحوث على أن وظيفة القشرة الأمام جبهية تتأثر كثيرًا بالبنية الوراثية[12]، ويشجع المستوى التعليمي المتدني، والتصلب العقائدي، والعوامل الأخرى التي تؤثر في وظيفة القشرة الأمام جبهية، التفكير البسيط، على نمط أسود–أبيض؛ فإذا كنت قد أهملت خلاياك العصبية، أو أخفقت في تنبيه تشابكاتك العصبية، أو رفضت بعناد خوض تجارب جديدة، أو سببت الأذى لقشرك أمام الجبهي بالأدوية (ومن ضمن ذلك الكحول)، أو قلة النوم، أو العواطف المتأرجحة، أو التوتر المزمن، فقد تكون فعلًا عرضة للمفاتن الشمولية للشخص

نافذ الشخصية الذي ستقابله لاحقًا، وهذا هو السبب في أن الأشخاص اليافعين يحيِّرون الكهول الأكثر بـرودًا بانضمامهـم للطوائـف الدينيـة، وإظهـار الهوس بالألبسـة الرائجة والمشـهورين، وتشكيل روابط شديدة مع قدوة كثيرًا ما تكون غير ملائمة.

لكـن الإسـاءة للقشـر أمـام الجبهـي لا تنحصـر باليافعين، فالنضـج، والمناعـة التي يمكن أن يمنحهـا ضـد أسـلحة التأثيـر، هـي فـي متنـاول يـد معظمنـا، لكـن يجب علينـا أن نختـار بذل الجهـد لتحقيقهـا، وبتوسـيع مفهوم المشـهد المعرفي نسـتطيع القـول إن الدماغ يشـبه كثيرًا زرع حديقـة؛ فالهـدف -ابتـداء- مـن منطقـة بريـة هـو تكوين نمـوذج يسـرنا، ممتـع لنـا وللآخرين، وفـي السـنوات الأولـى يمثل المزارعون الأشـخاص المحيطيـن بنا، والمقدمين للعنايـة، والإخوة، والأصدقـاء الذيـن نأخـذ منهـم أبكر سـماتنا، ومع مـرور الوقت نسـتطيع بصورة متزايدة تسـلم الزمـام، لنتخيـل بأننـا -منفرديـن ضمن الأنـواع الحية على كوب الأرض حسـب علمنـا- مزارعو ذواتنـا. نبحـث عـن الأشـخاص والتجـارب التـي ستسـاعدنا علـى أن نصبـح مـا نحـن عليـه؛ نتجنـب الإغـراءات، الإلهـاءات، والانحرافـات بتعلُّـم الأسـباب التي تجعلنـا نرى أنها ليسـت حقًّا مثيـرة للاهتمـام بذلـك القـدر، والتقـدم فـي العمـر عامـل مسـاعد؛ إذ يغلـب أن تحظى الأشـياء باهتمام أقل.

بالطبع، فإن الاسـتيقاظ الذي يعيد رسـم مفاهيمنا على أننا كائنات متغيرة ذاتيًّا لا يحدث في جميع الحالات، فبعض المزارعين نيام طيلة حياتهم، ويمكن أن يشـكلوا عبئًا ضخمًا على من حولهم، لكن ليس الجميع، ومن الأسـهل لمزارع آخر إذا حاول الاسـتيلاء على فنائك الرحب، أن يفرض نموذجه المفضل على الأرض المليئة بالأعشـاب البرية من أن يفرضه على حديقة معتنى بهـا جيـدًا سـابقًا، وكما هي الحال فـي الحدائق والمزارعيـن، فكذلك الأمر في الأدمغة وغاسـلي الدمـاغ، مـع أنـه تجـدر إضافـة أن الأدمغة أعقـد بصورة لا يمكـن تخيلها في أي حديقـة، حتى إن الدمـاغ الأكثـر انتظامًا لن يرضى بالمقارنة أبدًا بالترتيب المزدحم ولو لأكثر مسـاعينا الزراعية إتقانًا/ تنظيمًا.

لقـد بحثنـا في أهميـة العواطف في محـاولات التأثير، ورأينـا كيف أن العالـم الأغنى عقليًّا يمكـن عـادة أن يكـون حاميًا لنا، لكن هنـاك عامل ثالث أيضًا هو: معرفة الـذات، وإدراك أننا من طين وليس من ألماس، فإذا كنا نعرف أننا نستطيع تغيير أنفسنا، فعندها نعرف أننا نستطيع أن نـزرع شـبكاتنا المعرفية، ونشـذبها مثلما نشـذب حديقتنا. إن فهم أن الأدمغـة يمكن أن تتغير هو

الخطـوة الأولـى في مقاومـة التغيير المفروض على الآخرين، وهذا بالمناسـبة هو السـبب في أنه يمكـن تنويـم الدجاج مغناطيسـيًّا بخط مرسـوم على الأرض أمامها أو بتلويح الإصبـع إلى الأمام والخلـف أمام وجوهها، في حين لا يمكن عادة تنويم البشـر بهـذه الطريقة[13]. وعلى الرغم من أن أي شخص يرى أشخاصًا مسحورين بمنظر جميل قد يشكك في مصداقية هذه الفجوة التطورية، فـإن معظـم البشـر أصعب تنويمًا من الطيور، فنحن نعلم مسـبقًا أننا يمكـن أن نتغير، في حين لا يعلم الدجاج ذلك.

صيادو القوة

بعـد أن نظرنـا فـي العوامـل التي تجعلنا عرضة لغسـيل الدماغ، نسـتطيع أن نسـأل السـؤال التكميلي: ما عوامل صنع فنيٍّ تأثير جيد؟ الأول، أكثر الأجوبة وضوحًا هو الدافع؛ أي أن يريد فنيو التأثيـر تغييـر عقول الآخرين، وهنا تكون الحاجة إلى التحكم -موضع الخط الأساسـي لإحسـاس الشـخص بالحرية- ذات أهمية، فكلما كان موضع الخط أعلى، كان الشـعور بالمفاعلة أكبر عند التعـدي علـى الحرية، ومن ثـم كانت الحاجة أكبر إلى السـيطرة على المحيـط، وخاصة المحيط البشـري، ولربما يقطع هذا شـوطًا في تفسير سبب تحول الأشـخاص الذين يحاربون بضراوة من أجل الحرية، بسهولة جدًّا، حالما تنجح ثورتهم، إلى حكام شموليين قُساة.

ولأنه من الأسهل الشعور بالسيطرة على الأشياء البسيطة (قارن قيادة طفل بقيادة حكومة)، فـإن المسـتويات العاليـة للحاجة إلـى التحكم تميل إلى أن تتماشـى مع التبسـيط الفكري؛ وهو ما يشير إليه روبرت ليفتون Robert Lifton (بالتفكير الشمولي). البساطة جذابة جدًّا لأولئك الذين هم أنفسـهم مضطربون، وهناك كثير منهم، حيث إن إطلاق رسـالة بسيطة أسهل عادة بكثير من الخوض في جدالات معقدة، بالنسبة إلى الأفراد، كما هو بالنسبة إلى المجتمعات، يكون تأثيرهم الكلـي فـي الآخرين أكبر بكثيـر إذا كان بالإمكان صف جميع مصالحهم المتنافسـة خلف رسـالة واضحـة يمكـن تحديدهـا. عمليًّا، معظـم الأفراد، مثل معظـم المجتمعات، مهيَّـؤون إلى حدٍّ كبير لفرض رسالة واحدة بسيطة عليهم، ومن ثم يستعمل أولئك الذين يحكموننا إستراتيجيات أخرى: تصريحات بالمهام، ولوائح، وبالطبع اللجوء إلى الأفكار الأثيرية التي تُحسب درجة إبهامها لزيادة قبولهـا العـام، لكن فـي الحالات التي تكون فيهـا الفوضى- الشـخصية أو السياسـية- هي المبدأ الحاكـم، فـإن وضوح الرؤية الذي يتماشـى مع التفكير الشـمولي يمكن أن يبـدو وكأنه حبل النجاة من الهاوية.

قوة الشخصية

كما رأينا في الفصول السابقة؛ يدين القادة في تأثيرهم في كثير من الأحيان للرؤى الواضحة البسيطة، ويمكن زيادة نفوذ الشخصية - (موهبة أو قوة في القيادة أو السلطة؛ أيّ هالة، ومن ثم القدرة على إلهام الإخلاص أو الحماس)- بالقوة الواعية، وكان ذلك أقصى مثير لوزير الخارجية الأسبق هنري كسنجر Henry Kissinger [14]، ويتعزز نفوذ الشخصية أيضًا بالشعور القوي بالذات، والانطباع بوحدة الأفق والهدف، وإذا تذكرنا وصف جورج آينسلي George Ainslie لكل دماغ بشري بأنه مسرح لمصالح متنافسة، الذي بحثناه في الفصل الحادي عشر، نستطيع أن نرى ملاءمة مصطلح (وحدة الأفق). مع أن المصالح تتنافس - (خذ قطعة الشوكولا) ضد (التزم بالحمية)- فإنها تجبر في بعض الأحيان على العمل المشترك بسبب تحدد الموارد؛ إذ لدينا نحن البشر مجموعة واحدة فقط من الأطراف (هل دماغ الأخطبوط الذي لديه أطراف أكثر يلعب بها أقل تشاركًا من أدمغتنا؟). كلما زادت درجة العمل المشترك -كلما زاد عدد المصالح التي تستهدف الهدف ذاته- زادت وحدة الأفق عند الشخص، وزادت درجة رؤية الناس الآخرين لهم بأنهم مفروضون عليهم. قد يحسد الأشخاص ذوو العقول الأكثر تجزُّؤًا في الشعور بوجود هدف، والغياب الظاهري للتشاحن الداخلي المضني، البادي لدى الأشخاص الذين لديهم إحساس قوي بالذات.

ولكن وضوحَ الرؤية ليس كافيًا لتكوين نفوذ الشخصية؛ إذ يحتاج المرء أيضًا إلى مهارات اجتماعية كافية، وإيمان بالذات، لإلهام التابعين بالإخلاص والحماس، وستكون النتيجة من غير هذه الطلاقة بين الأشخاص هاجسًا بالوحدة، كما يمكن أن تشهد أي كلية في جامعة أكسفورد، وحتى هذا قد لا يكون كافيًا؛ ذلك أن قيادة ذوي الشخصية الكارزمية -وفق ما لاحظنا سابقًا- لا تعتمد فقط على الشخصية وإنما أيضًا على الأوضاع؛ فيجب على القائد أن يركب موجة العصر، وللحظ والتوقيت دور كبير في تحديد أن المطاف سينتهي بأن يكون -على سبيل المثال- مانسون Manson (في الطائفة الدينية عائلة مانسون Manson) أو موسى قائدًا لطائفة دينية. وحسبما يجادل أنتوني ستيفنز Anthony Stevens وجون برايس John Price في كتابهما **الأنبياء، الطوائف الدينية والجنون** Prophets, Cults and Madness، فإن ما تتطلبه الأحوال أحيانًا هو منظور محدَّث؛ أي طريقة جديدة في النظر في حالة أو مشكلة منهكة، وهذه القدرة على أخذ معلومات جديدة وإدراكها بطريقة جديدة جزء مما يجعلنا بشرًا، لكن بعض الأفراد المبدعين جيدون خاصة فيما يسميه أنتوني ف. سي. والاس Anthony F.C. Wallace: «إعادة تركيب طريق

المتاهة»، حيث يعيدون تركيب عناصر أفكارهم الحالية عن ثقافتهم (طريق المتاهة) بشكل جديد وباهر يبدو أنه يعِد بحلول لمشكلات كانت سابقًا غير قابلة للحل[15]؛ قد يكون هؤلاء الأشخاص معرضين أيضًا للإحساس بوسواس الاضطهاد، أو لحالات روحانية قوية، أو الاعتقاد بالخارج عن الطبيعي، وتجارب بصرية وسمعية غير عادية (مثل سماع الأصوات مع عدم وجود أي شخص حولهم في الواقع)، هذه صور خفيفة من الأعراض المشاهدة في الفصام، وفي الحقيقة فإن ثمة ربطًا بين الإبداع العالي وزيادة خطر النفاس (مثل الفصام) وربما الاضطراب ثنائي القطب (كآبة-هَوَس)[16].

يبدو الأشخاص المبدعون جدًّا وكأنهم يفكرون بصورة مختلفة، معتمدين اعتمادًا أقل على المنطق التقليدي وأكثر على الحدس، ويرون روابط لا يراها الآخرون، وتضعهم هذه المرونة في موضع أفضل للقيام بعملية نفض داخلي هي إعادة تركيب طريق المتاهة المذكورة أعلاه. من الناحية العلمية العصبية، رُبط الإبداع العالي بتقلقل عالٍ في الفص الصدغي (خلايا عصبية ناشطة بصورة غير طبيعية في تلك المنطقة من الدماغ، انظر الفصل السابع)، وقد يكون أيضًا لدى الأشخاص ذوي الإبداع العالي أدمغة ذات روابط أكثر، وإن لم تكن بالضرورة أكبر حجمًا؛ أي تحتوي على تشابكات عصبية أكثر تربط الخلايا العصبية بعضها ببعض، وهو ما يسهل قدرتها على ربط الأفكار بطرائق أصيلة غير معتادة، لكن الإبداع غير كافٍ لنفوذ الشخصية؛ فكثير من الأشخاص المبدعين جدًّا لا يتمتعون بشخصية نافذة. حالما يتشكل طريق المتاهة الجديد، يجب أن يكون لدى صانعها الشغف لتبني أفكاره الجديدة ومتابعتها بقوة -بأفق واحد- والقدرة على فهم حاجات الآخرين وتلبيتها (ومن ثم استجذاب التابعين).

مع أنه يبدو أن الواقع سيفرض على المفكرين الشموليين -على المدى البعيد- وجوده غير المرغوب فيه عدا أشدهم عنادًا؛ فعلى المدى القصير يمكن أن يكون هؤلاء المفكرون مقنعين بطريقة مدمِّرة. يحرص أفضل مثيري الشغب على البقاء مسيطرًا من دون أن ينسى الأهداف النهائية التي يهدف إليها، مخوِّفًا أو ملهمًا بالمظهر الواثق للهدف، بهالة القوة. إذا كان لدى مثل هؤلاء الأشخاص وازع أقل مما لدينا، وكانوا ينظرون إلينا فقط على أننا وسيلة لغاياتهم، فإنهم ربما كانوا شديدي الخطورة؛ يعلم غاسل الدماغ الكفيُّ كيف يطبق الضغط للتخلص من التوتر والتعب، أو الألم أو الوحدة، ويطبق قوة المجموعة والضغط للإذعان، للتغلب على مواردنا في الوقوف والتفكير وإرسالنا راجعين إلى أسسنا الغرائزية.

الخلاصة والاستنتاجات

كيف تتطور أدمغتنا؟ ما الأفكار التي تستوعبها؟ ما البدع التي تتبعها؟ وما الأحلام التي تزدريها؟ كل هذا شخصي بعمق لك ولك وحدك، ويمكن أن تنتفخ الاختلافات البسيطة في قابليتنا للتوتر، أو المفاهيم التي تواجهنا، أو الطريقة التي عوملنا بها على يد الآخرين في وقت باكر في الحياة -مع مرور الوقت- إلى فوارق عميقة في الشخصية لدى البالغ، وتتكون الفروق بين البالغين من تراثنا الوراثي، ومن تجاربنا السابقة، ومن الشبكات المعرفية التي تسكن أدمغتنا.

لكن كثيرًا من الأفكار التي تؤثر فينا ليست شخصية فقط، بل إننا نميل إلى حد بعيد إلى إدراك أنها -وأننا- تأخذ شكلها بالأفعال الاجتماعية المتبادلة بيننا، وبالسياق الثقافي، والمجموعات والاجتماعات التي نمضي فيها عمرنا، وبحر الأفكار الذي نسبح فيه منذ الولادة[17]. سوف أنظر في الفصل القادم إلى هذه التأثيرات المجتمعية الأوسع، متسائلًا كيف تشجع، أو لا تشجع، محاولات السيطرة العامة على العقول؟

الفصل الثالث عشر

مصانع العقل

«تمامًا كما أن مصلحة العِرق أهم من مصلحة الفرد، كذلك فإن مصلحة الكون أولى من مصلحة أي مخلوق معين».

مطرقة الساحرات Malleus Maleficarum

Malleus Maleficarum

اقرأ (المجتمع) بدل (الكون) في الكتابة المنقوشة أعلاه، تتكونْ لديك عبارة مقتضبة عن الشمولية، تعود إلى القرن الخامس عشر في أوروبا. الادعاء بأن بقاء العرق أو النوع يسوغ أي مقدار من المعاناة الفردية هو نمط اجتماعي من العواقبية، يقوم على مبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة. من المشهور أن هذه الفكرة ترتبط بمفكر عصر النهضة نيكولو ماكيافيلي Niccolo Machiavelli (1469–1527م)، ولكن على الرغم من أنه قد اُستنكِر بشدة بسببها، فإنه لم يكن أول المروجين لها[1]. كلمة (الشمولية)، بالمقابل، زيَّنت اللغة الإنكليزية فقط منذ عام 1926م (حسب قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية)، ومع ذلك فإن العواقبية وجدت أقسى تعبير عنها لدى أنصار التفكير الشمولي؛ وهم أعظم الحكام شمولية في القرن العشرين هتلر Hitler وستالين Stalin وماو Mao. ◆

أعطانا ذلك القرن مصطلح (غسيل الدماغ)، وهو همسة أمل للحكام الشموليين في كل مكان، إذ حمل وعدًا بأنه يمكن إيجاد الأساليب الموثوقة العلمية لتعزيز السيطرة الكاملة على عقول البشر، ولكن قبل أن تتوافر التكنولوجيا الحديثة بكثير، فإن كبار كهنة السيطرة كانوا يستخدمون طيفًا من التقنيات؛ من البلاغة إلى التعذيب، لفرض مذاهبهم الفكرية المختلفة على الآخرين. لثقتهم بأنهم وحدهم لديهم مفتاح الخير المطلق الذي كان مطلوبًا من الناس اتباعه –سواء من الله، أو أرسطو Aristotle، أو قوى التاريخ، أو بعض رموز السيطرة الأخرى– رسمت شخصيات التأثير هذه شكل مناخ الأفكار التي يعيشون فيها، وكما حاججت من قبل؛ فإن محاولاتهم لتغيير المعتقد ما يزال صداها إلى اليوم.

ركَّز معظم بحثنا حتى الآن فيما أشرت إليه بغسيل الدماغ بالقوة؛ أي النوع الذي يتوقع المرء أن يجده في الطوائف الدينية ومعسكرات الاعتقال، ولكن ناقشت أيضًا شكلًا أكثر تدرُّجًا من التلاعب؛ وهو غسيل الدماغ بالتسلل الذي تستخدمه الحكومات عادة لنشر أفكارها التي تأمل بها أن تتحكم في المواطنين. ولفهم غسيل الدماغ بالتسلل، يتعين علينا أن نفهم سبب كون الأفكار مهمة بالنسبة إلى أولئك الذين يهيمنون على المجتمعات، وكيف تنتشر الأفكار، ولماذا هي فاعلة جدًّا. تشكل هذه الأسئلة نقطة تركيز هذا الفصل.

أفكار معدية

«كلما عظمت الكذبة، كبرت فرصتها في أن تُصدَّق».

أدولف هتلر Adolf Hitler، **كفاحي**

Adolf Hitler, Mein Kampf

يقارن مبدأ التطور الثقافي الذي بحثناه في الفصل الثالث الأفكار بالفيروسات، ويؤكد قابلية البشر للعدوى الفكرية، وهذا العلم هو تعبير جديد عن تشبيه قديم للأفكار بالأمراض، وهو يكمِّل التشبيه، الذي بحثناه في الفصل الرابع، لغسيل الدماغ بالشفاء. يصف القرآن الكريم على سبيل المثال الكافرين بأن في قلوبهم مرضًا ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10]. من المؤكد أن الجنس البشري كان يخاف دائمًا من المرض[2]، ولا تزال المجتمعات الحديثة تخشى الأمراض الإنتانية خاصة، حتى إن الجائحات التي تقتل عددًا قليلًا نسبيًّا من الناس يمكن أن تصبح عناوين إخبارية رئيسة في جميع أرجاء العالم[3]. مع أن التطور يقدم أمثلة على التعايش المفيد بين البشر والعضويات المجهرية، فإن الجراثيم المفيدة في أمعائنا لا تحظى بالشعبية الإعلامية التي ينالها أقرباؤها من الجراثيم القاتلة، لذلك فإن مفهوم العدوى يبقى –بصورة عامة– مفهوم سلبي. وعليه؛ فإن تشبيه (الفكرة مثل العدوى)، حتى في شكلها الحيادي في علم التطور الثقافي، يبقى حاملًا لإيحاءات انتقاصية. تكون الميميات التي تصيبنا بالعدوى (ذكرنا سابقًا الاستعارة الجينية للانتقال الثقافي التي تظهر الأفكار بوصفها وحدات (ميميات) memes يمكنها مضاعفة نفسها والانتقال عن طريق التقليد من دماغ إلى آخر، صفحة 57)، والمرض في قلوبنا، في كثير من الأحيان أفكارًا لا يتفق معها الأشخاص الذين يبحثون فيها، والدين مثال رئيس على الميميات، حسب الإلحاديين الذين جاؤوا بمصطلح علم

التطـور الثقافـي، وعدم الإيمان مرض في القلب، حسـب النص المقدس لواحـد من أعظم أديان العالم. هذا مدهش!

يعطي تشـبيه (الفكرة مثل العدوى) بعض السلطات العلمية طريقة لتمويه المذهب الفكري علـى صـورة علم، وبعض السـلطات الدينيـة طريقة لتمويه الديـن على صورة حقيقـة، ولكنه يفيد أيضًا في تأكيد أهمية الأفكار في الثقافة البشـرية. ليسـت المفاهيم التي توجد في رؤوسنا مجرد رسوم عابثة تصنعها خلايانا العصبية المصابة بالملل؛ فهي تؤثر في طريقة تصرفنا، وتصرفاتنا المتبادلة[4]. ومعظم الشبكات المعرفية التي تسكن في عقولنا أفكار مشتركة، صحيح أن تصريفها في الدماغ الذي تسكن فيه فريد، مثلما أنه لا توجد قطة مماثلة تمامًا لقطة أخرى، لكنها تشترك من دماغ إلى آخر بمظاهر كافية لتجعل النـاس أعضاء في نوع حيواني واحد.

إحـدى الصفـات المتنوعة جدًّا في الشـبكة المعرفية هي قدرتها على الأمر بالالتزام؛ يمكن أن تصنـف بعض المعتقـدات علـى أنها (معتقـدات باهتة) وفق مـا وصفها جـون بيتجيمان John Betjeman في شعره الذي يعترض فيه على المادية التي تقدم أفكارًا جاهزة مثل الطعام الجاهز[5]، لكـن بعضهـا الآخـر قد يكون قاتلًا لمن تصيبه بالإنتان مثل أي فيروس، إن لـم يكن أكثر إذا كان حظك سيئًا بأن تشارك مصابًا بفيروس الإيبولا الرحلة الجوية على سبيل المثال، فقد لا تتعرض للعـدوى بالضـرورة؛ وحتى لـو أصبت بالعدوى فإن معدل النجاة هو نحو عشـرة فـي المئة[6]، أما لو شاركك رحلتك الجوية انتحاري يريد القيام بالتفجير نصرة لعقيدته، فإن معدل النجاة ينخفض إلى الصفر.

الأفكار تهم

«أنا أفكر إذًا أنا موجود».

رينيه ديكارت، René Descartes مقال عن المنهج

René Descartes, Discourse on the Method

الأفـكار التـي نأخذهـا من العالـم حولنـا، أو نبنيها عندما تكوِّن الارتباطات بين الشـبكات المعرفيـة المنفصلـة سـابقًا عقـدًا فـي نسيج غنـي حبكـه ذلـك (النـول السـحري)؛ هـو الدماغ البشـري[7]. هـذا هو النسـيج الذي قُصِصنـا منه؛ فالأفكار التـي نحملها هي جزء ممـا نحن عليه. المعتقـدات ليسـت آثارًا جانبية، ليسـت مجـرد مرافقات لعمليـة الغناء في التشـابكات العصبية؛

بل إنها في عدد ضخم من الأحيان هي التي تأخذ المبادرة، وهذا صحيح وخاصة في الأفكار الأثيرية، بقدرتها على النهل من طاقاتنا العاطفية. كما رأينا في الفصل التاسع، يمكن أن تفيد العواطف بصفتها طرقًا مختصرة، أو خطط عمل إسعافي تطغى على وظائف قوة (توقف وفكِّر) (حتى أعلى المديرين يستجيبون لإنذار الحريق). يوفر ربط عاطفة قوية بفكرة أثيرية بالفعل إنذارًا غير صحيح، فيرتكس الدماغ المتلاعب به كأنه يرتكس إلى حالة إسعافية، ليس بالتوقف والتفكير، مختارًا ببساطة أكثر أساليب الفعل وضوحًا.

كثيرًا ما يكون أسلوب الفعل ذاك هو الأسلوب الصحيح في الأحوال الراهنة؛ حين نتراجع عن النار ونهرب من الحيوانات المفترسة، لكن أسلوب الفعل قد يكون في بعض الأحيان واضحًا لأنه جُعِل واضحًا بمتلاعب أطلق الإنذار الكاذب في الأصل. يطلق فنيو التأثير إنذارات كاذبة كي يضغطوا على ضحاياهم للتصرف بطريقة معينة (قد تكون أو لا تكون في مصلحة الضحية). قبل عهد أدولف هتلر Adolf Hitler بكثير، لم يكن الناس المصابون بعدوى الفكرة الأثيرية يحاجُّون من مبدأ البساطة أن اليهود قذرون، لقد اقترحوا -وفي حالات عديدة نفَّذوا- حلولًا (للمشكلة)، كما يظهر التاريخ لمعاملة اليهود في أوروبا (ومن ضمنها إنكلترا). الادعاءات المعادية للسامية التي ألهمت النازية ادعاءاتٍ سخيفةً، مليئة بعيوب في منطقها، أو تفتقر للأدلة، أو كليهما، وقد أشارت إلى ذلك بضعة أصوات جريئة فقط في ذلك الوقت، غير أن معظم الألمان كانوا يعتقدون ما يريدون أن يعتقدوه، كانت عواطفهم معبأة مقدمًا، وكانوا متلبسين إلى حد بعيد بالشعور المعادي للسامية واسع الانتشار في مجتمعهم، بحيث إن فكرة التهود الأثيرية كانت بالنسبة إليهم ملوثة بصورة لا رجعة فيها (أكثر ما يكون بالخوف والاشمئزاز). إن بذور الدعاية النازية سقطت على أرض خصبة[8]، حتى الحجج المنطقية التي قُدِّمت بأشد قوة كانت تصارع لمقاومة التيار.

تحتاج المجتمعات دائمًا -مثل الأفراد- إلى بعض عوامل التحفيز (سواء كانت مُدرَكة أم لا) للتوقف والتفكير. إذا كان توازن التحفيز يتجه نحو عدم التوقف للتفكير، كما في ألمانيا النازية،

عندها يمكن أن تقود الفكرة الأثيرية فعلًا قويًّا حتى لو كانت الفكرة نفسها متناقضة قطعيًّا مع التجربة الشخصية؛ إذ لم يكن اليهود الألمان مخفيين، كان كثير منهم مهنيين محترمين كثيرًا؛ نظيفين، وشرفاء، وجديرين بالثقة، لكن النماذج النمطية لليهودي القذر، المريض، الجشع بمكر، كانت مترسخة بشدة، وجزءًا من الثقافة، بحيث كانت قادرة على تجاوز الأمثلة

الفرديـة المعاكسـة. ومـن ثـم فإما أن يرسـلوا إلـى مناطق أخرى من المشـهد المعرفـي (صدقي دانيال Daniel ليسـ يهوديًّا عاديًّا)، أو أن يُتَجاهلوا ويُقلَّل الاحتكاك بهم إلى أدنى حد (باسـتعمال أحيـاء خاصة باليهود على سـبيل المثال)، ومن ثـم تجنب اللقاءات التي يمكن أن تتحدى الصورة النمطيـة. ذهـب الناشـطون النازيون أبعد من ذلك بكثير، خافضين مسـتوى الحياة إلى درجة أن اليهـود لـم يعـودوا قادرين عل الحفاظ حتى على أقـل مظاهر الاحترام، وعندمـا أجبروا أن يكون مظهرهـم قـذرًا، وقـد مات كثير منهم مـن الأمراض، تعززت نظـرة النازية إلى اليهـود، وهذا ما قـوى اعتقاداتهـم الاضطهادية، وأدى هذا إلى حلقة مفرغة من التشـديد على عدم بشـرية اليهود انتهى بجرائم القتل الجماعي، وليس فقط القتل، وإنما أيضًـا البحث عن النقاء الذي تطلب المحو الكامل للملوِّث باستعمال الدفن والنار.

عندمـا تتوافـر حوافز قوية للاعتقاد بفكرة أثيرية، يمكن أن تصبح شـبكاتها المعرفية قوية حتى إنها تشـوه المشـهد المعرفي، بتأثير انجراري يماثل ما يحصل حول الثقب الأسود في مركب الفضاء ـ الزمن. وحيث إن للشـبكات المعرفية المتأصلة دورًا في ترشـيح المثيرات القادمة، فإنه يحـدث ميل لتفسـير المعلومات الجديدة تفسـيرًا داعمًا للفكـرة الأثيرية؛ كلما زادت قوة الشـبكة المعرفية، زاد تأثيرها في الكيفية التي يدرك بها العالم. قد تتخذ حتى إجراءات لتوليد ـ أو تثبيط مـا يعاكسـ ـ دليـل داعـم، كالرجـل الموصوف في أغنيـة فريق الخنافس Beatles رجـل بلا مكان Nowhere Man الـذي «هـو رجل حقًّا بلا مكان يجلس في أرضه التـي دون مكان» والذي لا يرى إلا ما يريد أن يراه.

المجتمعات والأفكار المشتركة

«لا أريد أن أكون، أريد أن أكون نحن».

ميخائيل باكونين Mikhail Bakunin، رسالة

Mikhail Bakunin, letter

الأفكار الأثيرية جوهرية لنظرة المجتمع الذاتية مثلما هي جوهرية لنظرة الفرد إلى الذات، وربما أكثر؛ لأن الفرد يمتلك موارد بديلة أكثر يستطيع أن يستقي منها المعتقدات، ذلك أنه محدود جسـديًّا ولديه أنماط محددة جيدًا من التصرف، أما المجتمعات التي هي أقل وثوقًا بتسـجيدها، فتميل إلى النزوع بسهولة أكبر من الأفراد للبساطة الظاهرية الجذابة للأفكار الأثيرية: الحرية،

والعدالـة، والمسـاواة، وأقرانهـا مـن الأفكار المغموسـة بالدم. تكـون المجتمعات التـي حكوماتها ومؤسساتها الأخرى أقل تأصلًا عرضة خاصة للخطر، في حين لا تضطر المجتمعات الأكثر قدمًا أو الأكثر أمنًا للاعتماد على الحشـود المسـاقة تحت نير العواطف الجياشـة، وسـبب ذلك جزئيًّا يعـود إلـى أن الأمان يسـهم كثيرًا في تحسـين مسـتوى الحياة، ومع تحسُّـن مسـتوى الحياة يصبح النـاس أقـل تطلعًـا إلى تغييـر أنماط حياتهـم. ليسـت المفاعلة والعواطـف السـلبية الأخرى بهذه الشـدة؛ لذلك يجب على فنيي التأثير العمل بجهد أكبر لحشـد النـاس. يسهِّل الأمان الأكبر أيضًا، سـواء على المسـتوى الفردي أو الاجتماعي، التسامح مع البدائل، وهو ما يؤدي إلى تنوع أعظم في الأفكار التي تغني المشهد المعرفي (الشخصي أو الاجتماعي).

قـد تسـاعد زيادة التعرض للاحتمالات البديلة على شـرح الوقائع المحيِّـرة حول الإرهاب، وهي ظاهرة ارتبطت بغسـيل الدماغ؛ فكثيرًا ما يندد السياسـيون الغربيـون بالإرهابيين بصفتهم غير منطقيين، وذوي مسـتوى علمي متدنٍ، وجهلة، لكن البحوث التي أجريت في الشـرق الأوسـط تدل على أن التعليم، إن كان بشـيء فهو يتناسـب طردًا مع دعم الإرهاب[9]؛ إذ يبدي التعليم للناس بدائـل عـن ظروفهم الحاليـة؛ فكلٌّ من التعليـم العلماني والتعليم الدينـي -بطرقهما التي نعترف باختلافها- يؤكدان الأنماط المرغوبة جدًّا من عالم أفضل. قد تكون الرؤى مختلفة في تفاصيلها، لكـن كثيـرًا مـن الأفـكار الأثيريـة المعنية هـي نفسـها (يمجِّد الإسـلام مثـلًا العدالـة، والرحمة، والصدقة، وكلها عزيزة على قلوب الديموقراطيات الغربية المتحررة). وعندما توفَّر هذه الأفكار الأثيرية، فإن التباين مع الحياة اليومية يمكن أن يكون أوضح بصورة مؤلمة مما كان عليه سابقًا، خاصـة إذا كانـت تلك الحياة تمضي في مجتمع يخضع للسـيطرة ومليء بالفسـاد. يمكن أن تكون المفاعلـة التـي هـي إشـارة الدماغ إلـى أن هناك عدم توافق بيـن الفكرة والواقع، دافعًـا قويًّا جدًّا للتصرف. مكوَّنة ومستهدفةً من الشبكات المعرفية الموجودة أصلًا، أو بتأثير فنيي التأثير (سواء كانـوا متدينيـن أم علمانيين)، تجتمع الأحلام والرغبات معًا مؤديـة إلى نتائج التهابية، ومن غير الحلـم قـد تبقـى الرغبة غير مركـزة؛ ومن غيـر الرغبة لا يمكـن أن تحلم بالسـموم (يعبر الحلم بالسم على الإخفاق والإحباط).

إن إعطاء النـاس أهدافًا من دون إعطائهم وسـائل تحقيق هذه الأهداف يعد وصفة جاهزة للاعتراض؛ والمعارضـة المحبطـة وصفـة للعنف، والسـيطرة علـى العنف تتطلب منـك أن تجعل نفسـك تبـدو أقـل إنسـانية أمام من تحاول السـيطرة عليهم، وهـو ما يجعل من الأسـهل عليهم أن ينظـروا إليـك على أنك أدنى إنسـانية ويزيدوا من حدة عنفهـم تجاهك. عدم عرض أهداف على

الناس في المقام الأول، بتقييد الحرية وقدرة الوصول إلى الإعلام العالمي هو أحد الارتكاسات الممكنة، ولكن في عالمنا المتقلص والمترابط تتزايد احتمالية عدم نجاح هذه الطرق، وهي تتعارض أيضًا وجهًا لوجه مع أكثر الأفكار اعتزازًا في كل من الديموقراطيات المتحررة وأعظم أديان العالم (مع أن هذا لا يستدعي أن يكون مشكلة: كما رأينا، فإن إحدى مزايا الأفكار الأثيرية هي مرونتها).

تنتقل أفكار مجتمعية عدة مباشرة من شخص إلى شخص، أحيانًا صراحة وأحيانًا بشكل ضمني؛ فعلى سبيل المثال إذا ناقش الأستاذ والطلاب عقوبة الإعدام، فسيتعلم التلاميذ عددًا من الحقائق المعلنة بوضوح (مثلًا: آخر امرأة شنقت في بريطانيا كانت روث إيليس Ruth Ellis عام 1955م)، لكن المناقشة ستعزز أيضًا عددًا من الافتراضات المنتشرة: أن الجريمة يجب أن يعاقب عليها (سواء بالموت أم لا)، وأن الحكومة يمكنها أن تؤذي شخصًا ما بصورة قانونية (سواء كان ذلك إلى درجة قتله أم لا)، وهكذا. قد يكون هناك صراحة معلنة -وهي طريقة جيدة لجعل الأطفال يتساءلون عن الأفكار- لكنها قد تترك من دون ذكر في كثير من الأحيان. هذه الشبكات المعرفية المجتمعية هي أفكار يحملها عدد كبير من أعضاء المجتمع، إن لم يكن جميعهم (يعتمد مدى كون الفكرة مجتمعية على عدد أدمغة الناس قد اخترقتها)، وقد تكون موضوعة بصراحة في الدستور، أو لا يعبر عنها إلا نادرًا أو على الإطلاق؛ وفي كل من الحالتين ما يجعلها قوية هي درجة قبولها، ويشجَّع القبول بمؤسسات مثل العائلة، التي تنقل المذاهب الفكرية من جيل إلى آخر (ناقشنا ذلك في الفصل الخامس).

وسائل الإعلام

«عمليًا فإن المعتقدات، محقة أو غير محقة، مدعومة بالمنطق أو بالتحيز، يمكن أن تطبع في الأذهان وتقبل على نطاق واسع بأنها منطقية بوساطة التلاعب المقصود أو الاستغلال غير المقصود للمؤسسات السائدة».

موراي إيدلمان Murray Edelman، **سياسات التضليل**

Murray Edelman, The Politics of Misinformation

تبث الشبكات المعرفية في المجتمعات الحديثة أيضًا بشبكات عالمية معقدة من الاتصال العام: الإعلام المطبوع، المذياع، (الصور المتحركة)، والشبكة، ويحتاج فني التأثير الذي يسعى

إلى غسيل دماغ العموم أن يكون قادرًا على السيطرة على وسائل الإعلام هذه، وتخصص الحكومات الشمولية كثيرًا من جهدها لهذه المهمة (شاهد الضغوط المطبقة على المؤسسات الإعلامية ذات الملكية الخاصة في صربيا أيام الحكم الشمولي لسلوبودان ميلوزيفيتش Slobodan Milosevic)، ولكن عندما تصبح المجتمعات أكثر تعقيدًا فإنها تميل -مثل الخلايا- إلى أن تصبح أكثر استجابة للمؤثرات الخارجية، ومن ثم أكثر نفوذية للأفكار الجديدة. يجعل هذا التأثير للعولمة (التي هي نفسها أثر للتعقيد المتزايد) السيطرة أكثر صعوبة، حتى لو كان فقط بسبب وجود مصادر أكثر من الأفكار يجب رصدها، ومراقبتها، أو منعها. الطاقات المخصصة لنظام المناعة المجتمعي، هي طاقات محولة من وظائفها الاستقلابية الأساسية، وتميل الاقتصادات الشمولية إلى الركود الذي يمكن أن يؤدي إلى تسريع الامتعاض أكثر من أي قدر من الدعاية المعادية[10].

هذا لا يعني أن سهولة الوصول إلى المعلومات لا تساعد على زعزعة الدولة الشمولية؛ لكن الحوادث السياسية يغلب أن يكون لها أكثر من سبب واحد. تستطيع وسائل الإعلام -مثل التعليم- أن تقدم للناس أفكارًا جديدة، وتقدم رؤى بديلة (مثلًا للحياة في الغرب الباهر)، وتزيد المعرفة، أو تتحدى الحكمة الموروثة للسلطة. يعتمد هل سيحدث هذا فعلًا على الدوافع التي تقع وراء تزويد المعلومات السخية. سيميل الوسط الإعلامي المملوك للدولة- بفجاجة- إلى عكس مواقف الحكومة ورغبتها في السيطرة، في حين تعكس وسائل الإعلام الخاصة مواقف مالكيها ورغبتهم في الربح.

أسطورة الحيادية -فكرة أن هناك شيئًا يمكن أن يكون حقيقة عارية غير مفسرة- هدف مفضل لمرحلة بعد الحداثة. على الأقل منذ الأيام المجيدة لهايديغر Heidegger وويتغينستاين Wittgenstein، اصطف المفكرون للهجوم على الفكرة التي عبر عنها تيري إيغلتون Eagleton، «الحقائق عامة ولا يرقى إليها الشك، في حين أن القيم خاصة وغير مسوَّغة»[11]، ويصوغ إيغلتون تحديه كما يأتي:

> **«هناك فارق واضح بين سرد حقيقة، مثل (بنيت هذه الكاتدرائية عام 1612م)، وتسجيل أحكام على القيمة، مثل (هذه الكاتدرائية قطعة رائعة من هندسة العمارة الباروكية)، لكن افترضوا أنني قلت النوع الأول من العبارات وأنا أجول بزائرة أجنبية في أرجاء بريطانيا، ووجدت أن ذلك قد حيرها كثيرًا. قد تسأل: لماذا تستمر بإخباري بتواريخ تأسيس هذه الأبنية كلها؟ لماذا هذا الهوس بالأصول؟ قد تضيف أنه في المجتمع الذي تعيش فيه، لا نبقي بتاتًا سجلات لمثل هذه الأحداث؛ وعوضًا عن ذلك نحن نصف أبنيتنا على حسب واجهتها؛ شمالية غربية**

أم جنوبية شرقية. ما يقدمه هذا هو إظهار جزء من النظام غير الواعي للأحكام على القيمة الذي يكمن وراء عباراتي الوصفية الخاصة. مثل هذه الأحكام على القيمة ليست بالضرورة من نفس نوع عبارات مثل: «هذه الكاتدرائية قطعة رائعة من هندسة العمارة الباروكية»، لكنها مع ذلك أحكام على القيمة، ولا يمكن أن يتجنبها أي إعلان وقائعي أطرحه».

إيغلتون Eagleton، **النظرية الأدبية**، الصفحة 13.

Eagleton, Literary Theory, p. 13

لا يمكن أخذ العبارات بانعزال؛ إذ إن هناك دائمًا سياقًا اجتماعيًّا، وأحيانًا يكون السياق الفعلي للعبارة أقل أهمية بصورة جلية من اتصالاتها من المعلومات غير اللفظية، ونحن عندما نحلل عبارات صديق -أو قارئ للأخبار- فإننا نعتمد على مؤشرات عديدة غير لفظية، تقوِّم بعبارات تقويمية. وحتى عندما نقرأ فإننا نقرأ بين السطور (كما أظهرت مناقشة البيان الرسمي للحزب القومي البريطاني في الفصل التاسع). المعلومات التي تصل إلى أعيننا، أو آذاننا، أو (إذا كنا نقرأ لغة بريل Braille للعميان) رؤوس أصابعنا، مصيرها المرور عبر حقل ألغام من أدوات الترشيح التجريبية التي فحصت بالتوقعات السابقة؛ بحيث إنها قد لا تصل إلى المواقع المرتفعة للوعي. مهما كانت المعلومات التي تصل إلى القشرة فإنها ستستعمل لتوليد سلسلة من التخمينات المعقدة، وفرضيات قد تتأثر من دون وعي بجميع أنواع العوامل؛ من وضع كلمات عاطفية، إلى الفيروسات المزدهرة في تيارنا الدموي التي هي على وشك أن تصيبنا بتسمم طعامي. لا تستعرض الحقائق العارية بوساطة مشاهدنا المعرفية من غير طبقة من التفسيرات التي تحافظ على حشمتها، أحيانًا نجعل تلك الطبقة شفافة زيادةً، والرياضيات مثال على ذلك، لكن سواء كانت رقيقة أو ثخينة، فهي دائمًا موجودة، وهي تقويمية من غير شك. الفلاسفة مغرمون بقول إنك لا تستطيع أن تحصل على (يجب) من (يكون)، لكن التجريد يمكن أن ينتقل بالطريق المعاكس؛ إلى (يكون) من (يجب). بتجاهل جميع أحوال الخلفيات، وبمقارنة عديد من الأمثلة واستخلاص المظاهر المشتركة منها، نستطيع الوصول إلى رمز جاف، (حقيقة). بعبارة أخرى، ربما كانت كلمة (يكون) هي ببساطة (يجب) مع (تقريبًا) شفط كامل العصير العاطفي.

لا مهرب لأحد، ولا حتى أكثر المحررين تدقيقًا، من وجهة نظره، فهل يجب أن نستنتج إذًا أن موارد الأخبار كلها متحيزة، وأنه ما دمنا ندرك وجود تحيزها فإنه يمكننا بشكل أو آخر أن نأخذها بالحسبان، ومن ثم التعويض عنها؟ حسنًا؛ الجواب هو لا، حسب مُنظري الدراسات

الإعلاميـة، لأن هنـاك اهتمامًـا أكثر بالتفسـيرات الانتقائية مـن التحيزات البسـيطة. يميِّز جون ستريت John Street –على سبيل المثال– فكرة التحيز من فكرة (الإطار)[12]، فالتحيز هو ميل منظم للإبراز الانتقائي، أو حتى التقديم غير الصحيح، للمعلومات، إذ تنشر صحيفة جناح اليمين –على سبيل المثال– بتكرار قصص عن الفقر بعبارات سلبية كي تدعم المذهب الفكري الذي يلوم الفقير على سوء طالعه. ولأن التحيز منهجي جدًّا بالخصوص، فإنه أسهل كشفًا: أي من الصحف التي يقرؤها شخص ما تخبر المراقب أكثر عن الفقراء مما يخبرهم عن الثياب التي يلبسها هؤلاء الفقراء.

التحيز أسهل معالجة إذا كان بإمكان المرء الوصول إلى موارد بديلة لوسائل الإعلام، كما في المجتمعات التي تملك وسائل إعلام محلية وطنية، خاصة، متنوعة ومتنافسة، يملك أصحابها طيفًا واسعًا من الخلفيات، ومع ذلك فإن الضغوط لتبسيط معايير، وتوحيدها، والاتفاق مع الرأي الشائع (أو رأي مالك الوسيلة الإعلامية)، قوى قوية تعمل لإنقاص التنوع، كما بحثنا في الفصل الثالث، ومن ثم فالتفكير الشمولي ليس المحافظ الوحيد على الحكومات المغرورة. أحد الأسباب لوجوب عدم ترك تنظيم وسائل الإعلام، كما حاجج بعضهم، في الأيدي الخفية للسوق، هو عدد العوامل التي تنقص فرصة أن يكون السوق سوقًا حرة. ربما لم يكن آدم سميث Adam Smith، الذي يختار الرأسماليون الحديثون من تحفته **ثروة الأمم** كثيرًا من مسوغاتهم، ليوافق على وسائل الإعلانات الحديثة، أو شبكة الصحفيين الحميمين (بعضهم مع بعض ومع السياسيين) التي تصل علاقتهم إلى حد تشبيهها بسفاح القربى، أو مدى القوة الموجودة في أيدي أقطاب قليلة من وسائل الإعلام العالمية، أو ملامح أخرى عديدة من وسائل الإعلام البريطانية المعاصرة[13].

الأطر أحذق وأكثر صعوبة في كشفها من التحيز، فضلًا عن أنها كثيرًا ما تكون أكثر ثباتًا بين موارد وسائل الإعلام. ويرى ستريت Street أنه «على الرغم من أن الأطر أجهزة لرؤية العالم بطريقة محددة، فإنها تختلف عن فكرة التحيز من حيث أنها لا تتخذ موقفًا مذهبيًّا فكريًّا منفردًا»[14]، وبدلًا من ذلك، تؤكد دراسات وسائل الإعلام أن (قصص الأخبار) هي تمامًا كذلك؛ قصص. ولديها مثل القصص الأخرى بنى سردية انتقائية تبنى على افتراضات ثابتة بعمق (مثلًا: حول السبب والتأثير، والأخلاقية، والعلاقات الاجتماعية)، وتنبذ المعلومات غير الثابتة أو غير المهمة. يملك رواة القصص، ومن بينها تقارير الأخبار، عددًا من النماذج المتوافرة لهم، وسوف يستعملون أي شيء يلائم أفضل ما يكون لتنظيم القصة التي يروونها: (بطل شجاع)،

(عـدم كفاءة بيروقراطيـة)، (صراع ملحٌّ)، وهكذا. كل نموذج- أو إطار- لديه لغة خاصة تترافق معه، فإذا مات طفل من المرض على سبيل المثال، فإنه من المحتمل أن يشار إليه على أنه شجاع، وأنها مأسـاة، وفـوق كل شـيء كان فاضـلًا أخلاقيًّا، ومـورد سـعادة لأبويه اللذين همـا الآن أبوان مفجوعـان. لا شـك أن ذلـك الطفل قد صرخ في يـوم من الأيام أو حرد أو ضـرب أخته الصغيرة، والأطفال يفعلون ذلك، ولكن هذه الملاحظة الشائعة لا تناسب الإطار، ومن ثم فإنها لا تظهر في التقارير الإخبارية. وإذا كان الطفل قد قتل من قبل شخص غريب، فإن عوامل المأساة والفضيلة الأخلاقية ستكون حاضرة، لكن بدلًا من الشجاعة سيكون لدينا براءة، وما يناسبها من نفي صفة الإنسانية عن القاتل.

الأطـر والتحيـزات امتـدادات مجتمعية مشـتركة للطرائق الفرديـة للنظر إلـى العالم. وفي الحقيقة، فإن وجهات النظر الشخصية والاجتماعية تتفاعل ويؤثر بعضها في بعض. تدعي وسائل الإعلام أنها تعكس وجهات نظر الجماهير: يضمن الربح في الشركات الخاصة التي تواجه كثيرًا من المنافسة على الأقل بعض التوافق بين المصدر والجماهير، وحتى في وسائل الإعلام الخاضعة للدولة لا بد من وجود بعض التوافق، وإلا أصبحت مدعاة للسخرية، كما حدث في كثير من الدول الأوروبية الشرقية تحت الحكم الشيوعي. ولكن وسائل الإعلام أيضًا -كما بحثنا في الفصل الثالث- ترسـم شـكل الآراء الجماهيرية: يمكن أن تعطي المشاهدة المتمايزة للتلفاز -على سبيل المثال- فوارق مهمة في مواقف الأشخاص حسب نوع البرامج التي يشاهدها.

يقترح ستريت Street أن الأخبار، بالصورة التي تقدمها وسائل الإعلام، «هي منتج الحاجة إلـى التجـارة»[15]، والتجـارة مظهـر تاريخـي قديـم للأفعـال المتبادلة بيـن البشـر، ويحاجج عالم الاقتصـاد هيـم أوفـك Haim Ofek بأنه «يمكن تتبـع أقدمية التبادلات البشـرية إلى مرحلة زمنية باكـرة منـذ 1.5–2 مليـون سـنة»[16]، لكن تعقيد إجـراءات التجارة الحديثة، يتناسـب مـع تعقيدات إدارة المعلومـات. ويفترض أن التبـادل بدأ بالتعامـل وجهًا لوجه ضمن وحـدة اجتماعية صغيرة كان كل فـرد فيهـا يعتمد على المجموعـة في الحماية وحتى البقاء. وكانت أي محاولة للغش تُعاق بعـدم القـدرة على تجنـب المرء لضحيتـه وانتقامها في المسـتقبل، إضافة إلـى التهديد بالعقاب من أعضاء المجموعة الآخرين، وإضافة إلى ذلك فإن المسـاهمين في التبادل كانوا يسـتخدمون إشارات غير لفظية لتقويم إمكانية وثوق بعضهم ببعض. وعلى الرغم من أن تقاليد التعامل وجهًا لوجـه قد اسـتمرت حتى يومنا هذا (اجتماعات القمة السياسـية مثال علـى ذلك)، فإن كثيرًا من

التبادلات إما غير مباشرة؛ لا تحتاج إلى أي اتصال بشري، أو تتضمن لقاءات مع أشخاص قد لا نجتمع معهم مرة أخرى طيلة حياتنا. أضعفَ العيشُ في مجتمعات أكبر بكثير، كما يعيش معظم سكان الغرب اليوم، قبضةَ المجموعة على الفرد، وهو ما جعل الغش خيارًا أكثر إثارة للاهتمام، وزاد اعتمادنا على أولئك الذين يحققون التبادلات.

إن الاعتمادَ غير الناقد للمصادر الإعلامية بات ضرورة، وببساطة نحن لا نملك الموارد للتأكد من كل عبارة بأنفسنا، لذلك فإما أن نثق بها، أو نرتكس، إذا كان هناك تحد للثقة، ببسط بساط من السخرية لا يتجاوز في كثير من الأحيان (سطح الجلد) (لأنه عمليًا إذا كذَّبنا كلَّ شيء فإن ذلك بالتأكيد سوف يشل قدراتنا). ولما كانت المؤسسات الجديدة تعرف أهمية الثقة، فهي تبذل الجهود بعناء لتقديم نفسها على أنها سلطات موثوقة وغير متحيزة، وتشير في الوقت نفسه إلى تحيز خصومها[17]، ولكن وفق ما يقترح ستريت Street، فإن «تقديم التقارير هو نوع من البلاغة، جوهره إقناعنا -نحن القراء والمشاهدين- أن شيئًا ما قد حدث»[18]، وعلى هذا النحو، فإن المعلومات التي نتلقاها من وسائل الإعلام ملخصة مسبقًا، مثل الماء في صنابير البيوت الذي مر مقدمًا عبر نظام شخص آخر ما، وربما أشخاص آخرين عدة. قد نختار بتحيز الصحيفة التي نقرؤها، لكننا لا نختار الإطار لفقرة معينة، وربما لا نلاحظ حتى أن المعلومات قد شُكِّلت وحُرِّفت كي ترضي أفكارنا السابقة، وفي الحقيقة، ليس في النية أن يجعلونا نلاحظ؛ لأن الملاحظة قد تثير المفاعلة ومن ثم يكون لها مردود عكسي.

قوة شخصية المجموعات

«قد ترضي عضوية العصابة حاجات لا يمكن إرضاؤها في أماكن أخرى، مثل الحاجة إلى الأمان، والاتصالات الإيجابية مع الآخرين، والشعور الإيجابي بالذات، أو الشعور بالكفاءة».

إرفين ستوب Ervin Staub، **علم نفس الخير والشر.**

Ervin Staub, The Psychology of Good and Evil

بحثت في الفصل السابق فكرة أن الشخصية الكارزمية قد تتعلق جزئيًا بمفهوم الأفق الواحد المُدرك لدى الشخص. قد يُعجَبُ بالأشخاص المخلصين لهدف واضح جلي أو يُذمون حسب طبيعة الهدف، لكن بساطتهم ووضوح هدفهم يحسدهم عليها أولئك الذين لديهم عقول متعددة الهدف ومشتتة. قد تبدو الحياة بلوني الأبيض والأسود سهلة جدًا للمشاهد

الذي ترهقه درجات اللون الرمادي، فلماذا لا تتبنى هذا المبدأ وتعطي قشر دماغك الذي يعاني منذ زمن بعيد فرصة الراحة التي يستحقها فعلًا؟ «لكونك لست ذا دماغ كسول كسلًا نهائيًا، منغمسًا في الملذات، أو غبيًّا إلى حد مقرف»، هو جزء من الجواب، لكنه فقط جزء، إذ يُدفَع بعض الناس إلى البساطة ليس فقط بسبب الكسل أو الأنانية أو الغباء، وإنما أيضًا بالخوف، أو الغضب، أو الإحباط، وغيرها من مشاعر سلبية يثيرها العالم الذي يشكل تهديدًا، فيمكن أن تكون الكوارث الطبيعية أو الاجتماعية، مفيدة في زيادة الحضور للكنسية؛ ويمكن أن يفسح ضعف الدولة المجال للثورة الشعبية؛ وتحشد المشكلات الاقتصادية الدعم للمتطرفين. وعليه؛ فعندما لا تكون البيئة مستقرة، سواء سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو جسديًّا، يتعزز إغواء البساطة.

يمكن أن تثير العقيدة البسيطة، المدعومة بالإقناع، إعجاب الآخرين، وكثيرًا ما تستجذب كثيرًا من التابعين، خاصة إذا لم يكن لدى هؤلاء التابعين قناعات قوية خاصة بهم. ربما كان لدى القائد نافذِ الشخصية الذي يبدو بأنه يؤمن إيمانًا صادقًا بهذه العقائد، فرصة لإقناع الآخرين أفضل من القائد الذي يفكر في كل تفصيل، ويسهب في تحليل العقبات والاختلاطات، والشيء نفسه صحيح بالنسبة إلى المجتمعات؛ تعطي الأفكار التي حظيت بتغطية إعلامية جيدة الانطباع بالوحدة، ومن ثم قوة الهدف، والأفكار الأثيرية، مثل الحقيقة والعدالة والتسامح والحرية، مفيدة بالخاصة في تعزيز الشخصية الكارزمية للمجتمع: يزيد إبهامها الخفي في جاذبيتها، ويمكن أن يذاع في كلمات قليلة مقنعة.

تشكل وسائل الإعلام آلية أساسية يعزز فيها المجتمع صورته الذاتية، ومن ثم فيمكن لمظهر الإجماع، خاصة في وسائل الإعلام الخاصة حيث يكون وجود كمية معينة من التنوع هو المعتاد، أن يكون له تأثير كبير في المواطنين الذين يستهلكون منتجات وسائل الإعلام، مسهِّلين الوحدة الاجتماعية مع زيادة قدرة الحكومة على التحكم في شعبها، ويمكن أيضًا أن تكون جبهة موحدة مفيدة في المسرح الدولي (الوحدة والولاء، هي فضائل المجموعة المفضلة). في معظم الأحيان قد لا تسبب معظم السخافات التي يجري الحديث عنها في وسائل الإعلام عن الأفكار الأثيرية ضررًا بوضوح شديد، والمكان الذي تكون فيه مهمة جدًّا هو عندما تعكس الانقسام الاجتماعي المرير. الحديث بالأنماط النمطية نادرًا ما يكون مفيدًا عندما يتعلق الأمر بحل المشكلات السياسية المعقدة.

انظر في العبارات الآتية: (الإسلام حق)، (الرجال قوامون على النساء)؛ (الولايات المتحدة هي أرض الأحرار)؛ و(الشيوعية عقيدة نبيلة)؛ جميع هذه العبارات، إن قبلت، تعزز الصورة الإيجابية لمؤسساتها المعنية، ويمكن أن تقابل كلها بدعاوى نظرية بالقدر نفسه: (فقط المسيح يرينا الطريق للحقيقة)، (النساء أكثر حنانًا من الرجال)؛ (بنيت الولايات المتحدة الأمريكية بعمل العبيد)؛ (الرأسمالية هي الفُضلى). إذا كان اهتمامك الوحيد هو جعل المنتخبين يشعرون بالرضى عن أنفسهم (ويصدف من ثم أن يصبحوا أكثر التزامًا بك)، عندها يمكن أن تفيد عبارات كهذه كثيرًا، ولكن إذا كنت تحاول أن تصالح الشيوعيين والرأسماليين مثلًا، فعليك أن تبتعد عن الأفكار الأثيرية؛ فلا تعرض الحرية، بل التحسين الملحوظ في الحريات الشخصية؛ ولا تعرض الحقيقة التي لا جدل فيها، بل معرفة أن الحقيقة تأتي في ألوان عدة، وأن كلًّا من الطرفين قد أساء أحيانًا لحقوق الإنسان وأساؤوا لقيمهم المثالية الخاصة بهم.

حتى في الدماغ البشري الواحد الذي تجبر فيه محدودية جسم الإنسان المفرد، بقوة، المصالح المتنافسة على التعاون، فإنه يمكن أن يحتوي على أفكار غير متلائمة، كما رأينا. والمجتمعات حتى لو كانت مستقطبة بسنوات من الصراع، أقل تكلفًا بكثير؛ ففي الشرق الأوسط -على سبيل المثال- من الممكن العثور على إسرائيليين يكرهون ما تقوم به حكومتهم تجاه الفلسطينيين، وفلسطينيين يحزنون لموت مدنيين إسرائيليين في حادث تفجير، وأعضاء من كل من المجتمعين يعملون معًا في المصالحة ومشاريع التعليم. يمكن رؤية مثل هذا التنوع من الآراء في مسارح أخرى للصراع مثل إيرلندا الشمالية، أو سريلانكا، أو السودان، لكن هذه الأصوات المتناغمة لا تسمع كثيرًا، إنها لا تطابق إطار (الصراع المستعصي) الذي تعلق فيه قصص هذا الصراع عادة.

غسيل الدماغ والجماهير

بدأ الفصل الأول بالتعريف المعجمي لغسيل الدماغ: «الإلغاء الممنهج وغالبًا القسري لأكثر الأفكار رسوخًا في عقل الشخص، خاصة السياسية منها، حتى تحل محلها مجموعة أخرى من الأفكار». لقد ذكرت في هذا الكتاب الطبيعة السياسية لمفهوم غسيل الدماغ، في أكثر الجوانب الأساسية للسياسة التي تتعامل مع العلاقات بين الأفراد والمجموعات التي يشكلونها. هناك،

فيما يتعلق بتقنيات التأثير، أربعة تراكيب نظرية محتملة: أفراد يؤثرون في أفراد آخرين، أفراد يؤثرون في مجموعات، مجموعات تؤثر في مجموعات أخرى، ومجموعات تؤثر في الأفراد.

يترافق غسيل الدماغ تقليديًّا مع الإكراه، لكن استعمال القوة له مشكلاته الخاصة؛ فتطبيق القوة على شخص ما يحرِّض مفاعلة قوية، وهو ما يفعِّل غرائز الضحية العاطفية الخاصة للدفاع عن الحرية المهددة، وعلى الرغم من أنه قد يكون قادرًا على تطبيق قوة كافية للتغلب على هذه المقاومة، فإن الضحية يصبح متأذيًا جدًّا فيصير عاجزًا، والأهم من ذلك -من وجهة نظر غاسل الدماغ- أنه لا يمكن الاعتماد عليه؛ فقد كان هناك نسبة عالية من الأمراض النفسية في السجناء الأمريكيين الذين عادوا من كوريا. قد يحدث تغيير واسع النطاق في المعتقدات بسبب القوة، لكن لا يمكن الوثوق بأن يبقى مستقرًّا على المدى الطويل من دون الإشراف الدقيق -واستمرار الإكراه- على الضحية. يتطلب هذا بالنسبة إلى الأفراد مقدارًا ضخمًا من الوقت والجهد من قبل غاسل الدماغ، وعلى الرغم من أن الضحية قد يخمد آراءه السابقة فإنه لا يوجد ضمان بأنها لن تظهر مرة أخرى إذا رفع الإكراه (يختلف الإكراه في هذه الناحية عن سلفه التعذيب الذي يتطلب عنفًا لمدة قصيرة فقط، وكثيرًا ما ينتهي بالموت، ويهدف إلى تحريض أنواع معينة من السلوك وليس تغيير المعتقد). يحدث مثل هذا النوع من التفاعل -ويمكن أن يقدم العنف الأسري مثالًا على ذلك- لكن مقدار الجهد المبذول في الوقت الحالي كبير جدًّا بحيث يصبح رادعًا كبيرًا بذاته، وحتى لو وزعت المشاركة في مهمة الإكراه بين أعضاء مجموعة ما فإنه لا يزال يلزم موارد ذات قدر للتحكم في شخص واحد ومراقبته، فضلًا عن التحكم في أشخاص عدة. أما فيما يتعلق برابع التراكيب؛ وهو تأثير الأفراد في المجموعات، فإن التأثير الجبري غير محتمل، ببساطة على أساس عدم توافر الموارد لفعل ذلك.

ولكن هناك خيار آخر: التسلل؛ وأشمل تحت هذا العنوان الواسع عناوين فرعية هي الإعلانات ووسائل الإعلام، والمثالية الزائفة التي ينسجها القادة ذوو الشخصيات النافذة، والتقنيات المقترحة للتلاعب بالعقل (التي سأتحدث المزيد عنها في الفصل القادم). للتسلل -إن كان ناجحًا- مزايا على القوة؛ إنه يتجنب مشكلة المفاعلة. الخطر -وبالتأكيد أنه مما لا يلائم- هو أن الضحية قد تلاحظ الخداع، وتحرض على رد فعل عكسي غاضب، وكثيرًا ما يقامر فنيو التأثير التسللي بأنه إلى أن يحدث هذا فإنهم يكونون قد حققوا أهدافهم وذهبوا إلى مراعٍ

جديدة وخرفان أخرى يجزون صوفها. هدفهم إذًا هو التأكد بأن الضحايا لن ينظروا إلى سلوكهم على أنه محاولة تأثير.

التسلل خيار أسهل من القوة، خاصة عندما تكون الحاجة إلى تغيير المعتقد مؤقتة فقط، ولا حاجة إلى أن يكون التسلل واعيًا؛ بل إن النجاح مضمون أكثر إذا كان الخادع يصدِّق ما يقوله، أو يمكنه أن يبدو كذلك بصورة مقنعة، وهذا ليس ثنائية فجة كما يبدو عليه الأمر؛ فهناك متحدثون يشعرون عندما يحاجُّون في قضية باعتقاد جازم بالذي يقولونه، وقد تستمر أو لا تستمر قناعاتهم لوقت أبعد من انتهاء المناظرة، عندما تكون نار العاطفة قد خمدت؛ لكن حين يكونون ضمن اللهب فإنهم صادقون تمامًا؛ طوَّر البشر مرافق لكشف الكذب، لكنها ليست معصومة بأي حال من الأحوال؛ فقد يكون كشف كذب من يصدِّق، ولو للحظة، الكذبة التي على شفتيه أبعد بكثير من قدرات ضحاياهم على الكشف.

ولكن يواجه غاسل الدماغ الذي ينوي التحكم في عامة الجماهير صعوبات خاصةٍ بالتسلل، إذ يتضخم خطر أن يكتشف في جمهور له خلفيات، أو عقائد، أو رغبات مختلفة، ويتضخم أكثر إذا كان الجمهور قادرًا على الوصول إلى مصادر بديلة للمعلومات، إذ يندر حتى في أكثر المجتمعات انغلاقًا اليوم وجود ينبوع واحد للحقيقة. في الحالة المثالية، يفضل غاسل الدماغ (سواء الدولة أو الفرد) أن يكون الجمهور المستهدف منعزلًا، وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فقد لا يزال ممكنًا أن يجعلهم يشعرون بأنهم منعزلون، بتضخيم خطر التهديد الخارجي (أي تحديد مفهوم مجموعات خارجية أو تعزيزه). هناك دائمًا عدو يسهل تسميته (مثلًا الشيوعية، القاعدة)، خاصة إذا لم يكن بالإمكان تعريف عناصر العدو أنفسهم بوضوح: يمكن عندها اقتراح وجودهم ضمن المجموعة المستهدفة، وهو ما يثير مزيدًا من عدم الارتياح. يودُّ غاسل الدماغ أن يُبقِي الجماهير المستهدفة متوترة، أو مشغولة، أو كلا الأمرين؛ لأن ذلك سوف يقلل احتمال اعتراضات (توقف وفكِّر).

تغيير المعتقدات على المستوى الجماهيري، بالنظر إلى حجم المجتمعات الحديثة، لا يدخل حتى في نطاق التساؤل دون وجود دعم من مجموعة، وللحصول على هذا الدعم، سوف يستعمل فني التأثير أساليب بحثناها على امتداد هذا الكتاب؛ فينمق بلاغته بأفكار أثيرية، مستعملًا اللغة بذكاء لإدخال المترافقات المعنية في أدمغة ضحاياه، مع التأكد بأن عقائده بسيطة ولا تنسى، وهو مثل سقراط في الحوارات التي ذكرها أفلاطون، يسعى إلى الحصول على موافقة ضحاياه في كل مرحلة من محاولته تغيير عقولهم[19]، مع أن هدفه هو جعل الضحايا يشعرون بعدم السعادة، بحيث

يبحثون عن (المساعدة) التي هو جاهز لتقديمها، فإنه سيبذل قصارى جهده لأن يبدو محبوبًا، مازحًا، وبشوشًا، حيث يخمد تحديات وجهة نظره بالقرار وليس بالقوة، مؤكدًا ما بينه وبين جمهوره من تشابه. وقد يعطي أيضًا الانطباع بمناظرة سليمة، بل وناقدة للذات (مثلًا باستعمال مناصريه في مناقشات تمثيلية)، لكن الرسالة التي تعطى فعلًا تكون دائمًا نفسها حتى لو كان يبدو بأنه يقول العكس[20]. سوف يحرص على تجنب أي انطباع بعدم التأكد، مؤكدًا شخصيته النافذة بمظهر ثقة الأفق الواحد. إنه يأمل بكل هذه الطرق أن يكسب الشعبية لأهدافه، محققًا ظهورًا منتظمًا على وسائل الإعلام، دافعًا الناس للحديث، مقنعًا السلطات المحترمة بأن تشير إلى أفكاره على أنها ليست فقط منطقية، وإنما هي حتى أمر مفروغ منه.

الأدمغة البشرية مبرمجة على اكتشاف التغيرات، أي عدم التلاؤم بين تجاربها المختزنة والمعلومات التي تتلقاها حاليًّا، يمكن أن يستعمل فنيو التأثير هذا لجذب الانتباه بتقديم أنفسهم على أنهم جدد، وفريدون، ومختلفون. المنزلَق في هذا هو أن الهوة الواسعة كثيرًا بين الأفكار التي يطمحون إلى فرضها وتلك التي تحتل حاليًّا أدمغة المستهدفين، سوف تقلل من فرص قبول الأفكار الجديدة. ومن ناحية أخرى، فإن الخطوات الصغيرة أسهل ابتلاعًا (خذ عددًا كافيًا من الخطوات الصغيرة، وسيتحول مواطنون محترمون من الطبقة المتوسطة إلى قتلة بدم بارد) تساعد معرفة الجمهور المستهدف أيضًا على رسم طريقة التقديم. إضافة إلى استعمال استجابة الدماغ للشدة والتغير، لا بد لغاسل الدماغ أيضًا أن يستعمل الضغوطات الاجتماعية الموجودة لمصلحته؛ بربط المجموعة الخارجية التي اختارها بصفات غير مقبولة اجتماعيًّا، مهددة للمجموعة الداخلية، مثل الأنانية، والقذارة، والمرض، وعددهم الكبير بصورة وبائية، وفي آن واحد يزيد الشعور بالتهديد ويطمئن جمهوره بأنهم هم أنفسهم ليسوا أنانيين لا يمكن الثقة بهم، أو أغبياء، أو طاعون على وجه كوكب الأرض[21]. وهذا كله ينطبق على الجماعات كما ينطبق على الأفراد، وحسب الأحوال، فقد يأخذ التسلل كسوة كاملة من الأشكال.

الخلاصة والاستنتاجات

مهما كانت التقنية المعينة، فإن التسلل- شأنه شأن استعمال القوة- له محدوديته. يتسبب استعمال التسلل بحدوث آثار جانبية غير محمودة في زيادة تشكيك المرء بالآخرين (إذا كنت تغش، فلماذا يجب ألا يكونوا غشاشين؟)، لذلك قد يؤدي التسلل إلى استعمال القوة مع زيادة

التحكم؛ في محاولة للانتقال من الخداع إلى غسيل الدماغ ذي التأثير الكبير، ومن ثم ضمان الخنوع؛ لأن التسلل وحدة لا يمكنه أبدًا أن يهدئ بالكامل الشعور بالاضطهاد. المشكلة الأخرى هي أن التسلل قد ينجح لمدة محدودة، أو في تغيير منطقة ضئيلة من المشهد المعرفي، لكن يبدو أنه غير قادر على تحقيق التحول الممنهج بالقوة الذي كان تقليديًّا متوافرًا موضوعًا على أبواب غاسلي الدماغ في المدة الزمنية المماثلة القصيرة. وكما رأينا على امتداد هذا الكتاب، حتى هذه التحولات -على الرغم من أنها قد تكون مثيرة للدهشة في بعض الأحيان- يمكن تفسيرها بمصطلحات علم النفس الاجتماعي. يمكن بالتأكيد أن يحدث غسيل الدماغ على صورة تغيير معتقد؛ لكن ما لم نجده هو الدليل على أن غسيل الدماغ طلقة سحرية.

لكن غسيل الدماغ بصفته طلقة سحرية هو تمامًا ما يلزم لتحويل حلم التحكم، خاصة السيطرة الجماهيرية، إلى حقيقة. على الرغم من أن بعض العلماء والفنيين قد تورطوا من دون شك في أسوأ فظائع العالم الحديث (ليست هذه نزعة جديدة؛ عمل كل من آرخميدس Archimedes وليوناردو Leonardo دافينتشي da Vinci على أسلحة الحرب)، فإن جميع مهاراتهم أخفقت في ضمان تقنية للسيطرة على العقل، فضلًا عن الإبادة الجسدية، وهي طريقة مفهومة منذ أن قتل قابيل هابيل، ومع ذلك هناك أمل لمن قد يصبح غاسلًا للأدمغة. بدأ العلم لتوه فقط بحل ألغاز الأدمغة البشرية؛ والمعرفة قوة، على الأقل من ناحية الإمكانية. ربما لا يزال من الممكن العثور على الطلقة السحرية.

سوف أنظر في الفصل القادم فيما يمكن أن تقدمه علوم الدماغ، ربما حتى في المستقبل غير البعيد، لأولئك الذين يحلمون بالتحكم بالعقل.

العلم والكوابيس

«**التلاعب بالناس حاصل، أنا فقط أريد أن يكون التلاعب بهم بكفاءة أكثر**».

ب. ف. سكينر Skinner، **مقابلة**.

B.F. Skinner, interview

في كتاب **البحث عن (المرشح المنشوري)**، الذي نشر أول مرة عام 1977م، يصف المراسل الباحث جون ماركس John Marks كيف أمضت وكالة الاستخبارات المركزية التابعة للحكومة الأمريكية سنوات، وصرفت مقدارًا هائلًا من أموال دافعي الضرائب، بحثًا عن طريقة لا خلل فيها لغسل أدمغة البشر. على الرغم من الإقرار بأن بحوث وكالة الاستخبارات المركزية في التحكم في العقل كانت متقدمة أكثر بكثير عن نظيرها الأكاديمي علمِ السلوك، فإن ماركس Marks استخلص أن البحوث -حسب علمه- قد أخفقت حتى الآن. «بتحفيز من القلق واسع الانتشار من تكتيكات الشيوعيين، بحث موظفو الوكالة في هذا الحقل، وبدؤوا مشاريعهم الخاصة، ونظروا في أحدث التقنيات للتحسين. بعد عشر سنوات من البحوث التي كانت نتائج بعضها مروِّعة إلى حد ما، لم يصل موظفو وكالة الاستخبارات المركزية إلى أي تقنية شعروا أنه يمكنهم الاعتماد عليها»[1].

أثبتت قدرة الولايات المتحدة على تجنيد الباحثين المهرة على مستوى عالمي، وإعطائهم الحيز للازدهار، جدواها في الحرب العالمية الثانية بمشروع مانهاتن Manhattan الذي حقق ما ظن كثيرون أنه مستحيل؛ وهو صنع قنبلة نووية قابلة للاستعمال[2]، لكن جميع المواهب والطاقات التي ركزتها وكالة الاستخبارات المركزية على مدى زمن أطول بكثير، لم تستطع أن تكسر تحدي السيطرة على التفكير. ربما كان التحدي لا يقهر بعد كل شيء، وفي هذه الحالة كان يمكن طرح المخاوف التي أثارها غسيل الدماغ جانبًا بأمان، لكن في عام 1977م لم يكن جون ماركس John Marks جاهزًا للاسترخاء. «أفضل دفاع للمجتمع الحر ضد التعديلات السلوكية غير الأخلاقية هي الإفشاء العام والإدراك، لقد فات الوقت لحجر التقنيات السلوكية في علبة. يغلب على الباحثين أن يستمروا بتحقيق التقدم»[3].

على الرغم من أن باحثي وكالة الاستخبارات المركزية قد أخفقوا في هدفهم النهائي -تحقيق السيطرة الكاملة على أفكار الكائنات البشرية وأفعالهم- فقد درست الوكالة وطبقت تقنيات عدة على طول أيام الدراسة؛ مواد مغيرة للعقل مثل الأدوية المخدرة كحمض LSD Lysergsäure–diethylamid، والتنويم المغناطيسي، والحرمان الحسي، حتى تجارب (نزع القالب) التي تتضمن (صدمات كهربائية عنيفة، تترافق عادة مع نوم مطوَّل بتأثير الأدوية)، وكان الهدف هو تحويل عقل الذي يخضع للتجربة إلى لوح فارغ يمكن أن تفرض عليه معتقدات جديدة، وفي النهاية هُجرت بعض أساليب التعذيب هذه؛ ربما لأسباب أخلاقية، والأكيد لأنها أخفقت في إثبات قابلية الاعتماد عليها. يمكن لنزع القالب -على سبيل المثال- أن يمحو الذكريات ويدع الضحية مضطربًا وغير فاعل، لكن ثبت أن فرض معتقدات جديدة كان أصعب من المتوقع. لا تزال التقنيات الأخرى مثل الأدوية، والتنويم المغناطيسي، والحرمان الحسي (مثل وضع كيس على رأس المريض)، موجودة معنا. الأكثر من ذلك، منذ كتابة ماركس Marks لكتابه، ازداد الفهم العلمي للأدمغة البشرية ازديادًا عظيمًا، فهل يمكن أن تزود البحوث المستقبلية، أو حتى الحالية، في العلوم العصبية فنيي التأثير بالأدوات اللازمة لتحويل علم السيطرة على الدماغ إلى حقيقة؟ هذا السؤال هو موضوع هذا الفصل.

عودة للأدمغة

كما رأينا في الفصل السابع، الوحدة الأساسية لأي دماغ هي خلاياه العصبية، وهذه الخلايا الصغيرة جدًّا، التي تسبح باستمرار في سائل الوسط خارج الخلوي، تتلقى، وتجمع، وتنقل الإشارات العصبية. تتواصل الخلايا العصبية بطرح حزم من المواد الكيميائية (نواقل عصبية) عبر المسافات الفاصلة (التشابكات العصبية) بينها. تتفاعل هذه المواد الكيميائية مع جزيئات متخصصة (مستقبلات) على سطح الخلية العصبية المستقبلة، وتؤثر بذلك في سلوكها.

بعبارة أخرى فإن الخلايا العصبية -ومن ثم الأدمغة- هي كيانات كهربائية كيميائية، يمكن أن يتأثر كل منهما بأنواع كثيرة من الجزيئات والمثيرات الكهربائية (ومن ثم الحقول المغناطيسية، حيث إن الكهرباء والمغناطيسية -وفق ما أظهر مايكل فاراداي Michael Faraday وجيمس كليرك ماكسويل James Clerk Maxwell في القرن التاسع عشر- مظهران لوحدة أساسية

واحدة). عمليًّا، هناك ميل إلى تقسيم تأثيرات تغيير الدماغ إلى عدد من الأصناف التي تعكس الحدود العلمية التقليدية المرسومة. تتضمن التأثيرات الجسدية النشاط الإشعاعي، والأشعة الكهرمغناطيسية (التي تشمل الصور المرئية، والتغيرات الحرارية، والحقول المغناطيسية، وهكذا)، وفي الوقت القريب الآثار الكمياتية المفترضة. التقنيات الميكانيكية والعضوية: الجراحة، والتلف، والمرض هي تقنيًّا جزء من نظام المجموعات هذا، وإن كان ينظر إليها عادة بصورة منفصلة. لا يمكن التمييز بين التلف والمرض دائمًا بسهولة؛ إذ يمكن أن يعيث ورم الدماغ -على سبيل المثال- فسادًا بتغيير مستويات المواد الكيميائية، أو بهرس الخلايا العصبية فيزيائيًا وهو ينمو، أو بالأمرين معًا، وتتضمن التأثيرات الكيميائية النواقل العصبية، والهرمونات، والأطعمة، والأدوية (مع التحفظ بأن هذه التسميات يمكن في كثير من الأحيان أن تتداخل). تعمل بعض هذه العوامل مباشرة في الخلايا العصبية، في حين يتحول بعضها إلى أشكال فاعلة ضمن الجسم، يؤثر بعضها في توازن القوى الكهربائية بين الأجزاء الداخلية من الخلية العصبية والوسط خارج الخلوي الذي تسبح به، يؤثر بعضها الآخر في غشاء الخلية، ويمكن أن يتجاوز بعضها الغشاء الخلوي ويغيِّر عمل الأجزاء داخل الخلوية. عندما تشتمل هذه الأعمال داخل الخلوية مورثات الخلية العصبية، تصنف العوامل المسؤولة عادة على أنها ذات تأثير مورثي، أخيرًا هناك تأثيرات اجتماعية: الوصف الجامع للغة، والثقافة، والعلاقات الشخصية، وأمثالها.

يعتقد أن التأثيرات الاجتماعية، مثلما هي التأثيرات الجينية، تحدثها التغيرات في الكيمياء الكهربائية للدماغ. في كل من الحالتين، يمكن أن يكون مرهِقًا إلى درجة المستحيل (أو بأخذ حالتنا المعرفية المعاصرة بالحسبان، مجرد مستحيل) أن نشرح بالتفصيل كيف يحدث هذا التدخل. عندما يتكلم عالم علم الأحياء الخلوي عن أن المورثة قد (تفعَّلت)، فإنه يلخص آلية معقدة جدًّا اكتشفت عبر سنوات من التجارب الصبورة (ولا تزال غير مفهومة فهمًا كاملًا). وعندما يتكلم عالم الأعصاب عن (نظرية العقل) أو (تعرف الوجوه)، فإن التعليق يشمل قدرًا أكثر من افتراضات أكثر ودعمًا تجريبيًّا أقل؛ لأن علم الأعصاب الاجتماعي أكثر تعقيدًا وأقل تطورًا من علم المورثات، مع ذلك، وإلى أن يأتي أحدهم بادعاء مضاد يمكن اختباره تجريبيًّا، فإن افتراض أن جميع تأثيرات تغيير الدماغ تعمل، في مستواها الأساسي، بتغيير الكيمياء الكهربائية للدماغ سيبقى على الأغلب صامدًا.

التأثيرات الجسدية

كما لاحظنا سابقًا في هذا الكتاب، وجد نظريًّا لدى فنيّي التأثير الذين يحاولون أن يغيروا الدماغ خياران متوافران: العمليات المباشرة على الدماغ نفسه، أو العمليات غير المباشرة على بيئة الدماغ المباشرة. عمليًّا، كانت معظم الجهود المبذولة لتغيير العقول تشتمل على تغيير البيئات، فكثير من محاولات وكالة الاستخبارات المركزية في التحكم في العقل هي من النوع غير المباشر: الحرمان الحسي، وتقنيات الاستجواب المصممة على طرق الاتحاد السوفييتي، وهكذا[4].

أحد التغيرات الواضحة في بيئتنا الذي (على عكس تجارب الحرمان الحسي) له قدرة على التأثير في عدد كبير من الناس في آن واحد هو نمو وسائل الإعلام الجماهيرية مثل التلفاز وشبكة المعلومات. هذه التقنيات هي تطبيقات فيزيائية كان لها تأثير هائل في الحياة المعاصرة. تخمن عالمة الدماغ سوزان غرينفيلد Susan Greenfield في كتابها **أناس الغد** Tomorrow's People أن التطوير الأكثر لوسائل الإعلام العامة إلى عالم من واقع افتراضي معقد يمكن أن يكوِّن مستهلكين طفوليين بصورة متزايدة، مدفوعين بالمثيرات، وغير اجتماعيين، كل حاجة من حاجاتهم متوقعة ويوفرها لهم فنيو معلومات يراقبونهم دون هوادة[5]. تغيّر العالم، تحاجج غرينفيلد Greenfield، وستغير الذوات التي تعيش فيها. يمكن أن تؤثر التغيرات التي نعتزمها في العالم الغربي الغني جوهريًّا في الطبيعة البشرية.

لم تتضمن الإنجازات التقنية لوكالة الاستخبارات المركزية في القرن العشرين الصناعة الممنهجة لعوالم زائفة. أخذ أحد جهودها الأكثر إثارة للجدل، مثل نزع القالب، وجهة بديلة في التدخل المباشر. منذ أن اكتشف جراحو الأعصاب مثل ويلدر بينفيلد Wilder Penfield أن تطبيق تيارات كهربائية على أدمغة البشر يمكن أن يحفز المشاعر، أو الحركات، أو الذكريات، فقد عُدَّت فكرة السيطرة المباشرة على الكائن البشري، بزرع شيء ما في الدماغ أو الجسم على سبيل المثال، احتمالية مثيرة للاهتمام من قبل أولئك في عرقنا البشري الذين مستوى حاجتهم إلى السيطرة عال[6]. طوِّرت حديثًا طرائق للتنبيه المغناطيسي من خلال القحف، وهي تتدخل في الخلايا العصبية على نطاق واسع (مؤقتًا) بتطبيق حقول مغناطيسية مباشرة على الدماغ. وأجريت محاولات للسيطرة على سلوكات حيوانية بسيطة، مع تحقيق بعض النجاح، وقد تكون السلوكات البشرية الأكثر بساطة في متناول مثل هذه المداخلات، كما أظهر بينفيلد Penfield. لكن ثبت أن السيطرة على أي شيء أعقد -مثل الأفكار الفردية- مستحيلة، فالكائنات البشرية

ببساطة أكثر تنوعًا بكثير، وأقل قابلية للتوقع بكثير، وتقنية الأقطاب المجهرية والزروع العصبية أقل دقة بكثير؛ من أن نستطيع أن نغزو -إلى الآن- العالم الموجود في جماجمنا.

أحد أكبر العوائق لفهم الكائنات البشرية والسيطرة عليهم عائق تقني، فقد سمح التصوير العصبي للعلماء بالنظر إلى داخل أدمغة البشر الأحياء، لكن الصورة تبقى ضبابية حين يتعلق الأمر بتفاصيل التلاعب بالعقل؛ ذلك أن أساليب التصوير، مثل التصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي، تعتمد على الحقيقة المقررة بأن الجريان الدموي يزداد في مناطق الدماغ التي تبذل الجهد؛ لكن، هناك فاصل زمني مهم بين وقت تنشيط الخلايا العصبية ووقت زيادة الأوعية الدموية المحيطة بها لمعدل التوصيل، ومن ثم سيكون كثير من الشبكات المعرفية قد تلألأت ثم خمدت حتى الصمت قبل زيادة الجريان، ويقيس تخطيط الدماغ المغناطيسي تغيرات حقل الدماغ الكهرمغناطيسية؛ وهذا يفيد في تجنب مشكلة التأخر الزمني، لكن على عكس التصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي فإن تخطيط الدماغ المغناطيسي لا يستطيع أن يخترق عميقًا ضمن الدماغ. وعليه؛ فكل من التقنيتين ليس دقيقًا بما يكفي لإعطاء تفاصيل شاملة عن أي شيء أصغر من كتل كبيرة من الدماغ، لكن على ذلك المستوى الخشن من وضوح الصورة فإن كمية المعطيات المتولدة تدفع إلى الأمام حدود تقنيات المعلومات المعاصرة وحدود التحليل الإحصائي. هذه المشكلات في طرائق البحث ليست، على حد علمنا، من ناحية المبدأ، غير قابلة للحل، ولكن عمليًّا أمام التصوير العصبي طريق طويلة يقطعها قبل أن يساعد على التحكم الدقيق في العقل[7].

مع ذلك، قد تتوافر لنا يومًا دقة وقوة حاسوبية كافيتان لعزل شبكات معرفية معينة ضمن دماغ بشري حي، متابعين الدارات العصبية على انفراد في دماغ شخص معين يستجيب لإعطاء منبه، وقد تكون التقنيات الإحصائية متطورة جدًّا بحيث نستطيع أن نميِّز الإشارة من كل الضجيج المحيط بدرجة مقبولة من الدقة، وقد نستطيع حتى أن نحسِّن التقنية إلى درجة أن مسح الدماغ يمكن أن يجرى خفية، إذ يتطلب تصوير الدماغ في الوقت الحالي إدخال الدماغ والشخص الذي يحمله داخل ما يشبه آلة غسيل ضخمة، وليس من السهل إخفاء تجربة الخوف من المناطق المغلقة، في حين أن الدماغ المعني يجب أن يكون مستيقظًا، وأن يبقى ثابتًا، إذا كنا نريد الحصول على نتائج مفيدة؛ بعبارة أخرى، يجب أن يتعاون الشخص تعاونًا فاعلًا، مهما كان مكرهًا، وكذلك تتشوه نماذج نشاط الدماغ أيضًا بإدراك الشخص أنه يصوَّر؛ يتطلب المسح

والتحليل الخفيان تعويضًا أكبر بكثير لتشوه الصورة مما نملكه اليوم؛ لكن هذا لا يعني أن ذلك سيبقى مستحيلًا.

إذا وجد مثل هذا المسح الخفي يومًا ما، فإن ترسانة الفيزياء تكون قد زودت عقول أفضل علمائنا بطرائق التأثير المباشر في الشبكات المعرفية التي حُدِّدت. كان (النول الهوائي) الذي ادعى المريض النفسي جيمس تيلي ماثيوز Jmaes Tilly Matthews من القرن التاسع عشر أنه يستعمل من قبل فنيين مهرة في (الكيمياء الهوائية) لتسليط أشعة حقل مغناطيسي يوقف تدفق الدم في رأسه، هو أول فكرة حديثة معروفة عن آلة تأثير، تشمل أشعة قوية تركِّز في دماغ الضحية[8]. قد تستعمل آلات النول الهوائي في المستقبل الأشعة الكهرمغناطيسية لتؤثر، أو حتى تدمر حرقًا الخلايا العصبية التي تدخل في تورط شبكات معرفية معينة. الآلات المتناهية الصغر التي تَعِد بها تقنيات مقياس النانو (واحد على مليون من الميلي متر) قد تُدخل إلى الجسم عن طريق الحقن، أو التماس الجلدي، أو الطعام، أو حتى التنفس، وتكون مصممة للبحث عن الأهداف العصبية وتخريبها، أو تعديل التشابكات العصبية بينها، وقد يتوافر تنبيه مغناطيسي دقيق من خلال القحف لصعق الشبكات المعرفية الفاعلة وجعلها تخمد، أو تتوافر أقطاب بمقياس النانو لتحكم حساس محكم على تدفق الشوارد، أو تقنيات لم تكتشف حتى الآن من عالم الكميات. من يدري؟ ما يبدو واضحًا هو أنه مع وجود نظام معقد بهذا الشكل كالدماغ، فإن براعة البشر ستعطي فنيي التأثير في المستقبل كثيرًا من الخيارات.

التأثيرات الميكانيكية والعضوية

ربما سيبقى استهداف الشبكات المعرفية الفردية، في جراحة المستقبل، يشمل التداخل اليدوي على الأدمغة الحية، وفي حين أن التقنيات الفيزيائية الموصوفة أعلاه تلائم العمليات الخفية -حيث يكون المريض نسبيًّا غير مقيَّد ويجب أن يكون التدخل- مثاليًّا -غير ملاحظ- فإن التقنيات الجراحية تطلق عنان قوة السلطات (الأطباء مدعومين بالدولة) ضد الفرد الذي يحكم عليه بأنه مريض أو مضاد للمجتمع (قد تصبح هذه المعاني تعني الشيء نفسه). ستعتمد الحاجة إلى موافقة على العمل الجراحي أو لا اعتمادًا كبيرًا على كيفية نظر مجتمعاتنا المستقبلية لأنفسها، وأي من الأفكار الأثيرية سوف تعدها عزيزة جدًّا.

مع موافقة أو من دونها، ربما سيكون لدى (جراح العصبية-الطبيب النفسي) في تلك المجتمعات أدوات أكثر خفاء في حوزتهم، وقد يستعملون هم أيضًا رجالًا آليين متناهين في الصغر، وأشعة ليزر دقيقة، وقدرة حاسوبية هائلة للتخلص من شبكة معرفية مزعجة، أو المعتقدات التي تثير المشكلات، التي أدت إلى سلوك مريضهم العاطل وظيفيًّا. قد تحذر المواد المزروعة العصبية -التي أصبحت ممكنة الآن- من سلوك معين قبل أن يحدث، مثل محطات للمناخ الداخلي، حيث تتنبأ بزيادة الضغط في المنطقة المحيطة بالقناة المخية أو بوجود عواصف في القشرة الصدغية، أو ربما يطلق المسح المورثي عند الولادة إشارات إنذار ويدعو لجراحة استباقية لتخفيض فرص حول الإدمان على الأدوية، أو المرض العقلي، أو أي حالة مرضية تعد غير مقبولة اجتماعيًّا، ويمكن أن تُدخل الزروع العصبية لتعديل مستويات النواقل العصبية أو تعزيز الخمائر الموجودة، أو تعديل أعضاء الجسم لإنتاج كمية أكثر أو أقل من بعض الهرمونات، أو تلقيح الجهاز المناعي ضد الأدوية الممنوعة قانونيًّا، أو تنظيم الحمية. بالنظر إلى ميل الغرب المعاصر إلى تشويه سمعة النضج الاجتماعي وتمجيد السحر التقني، فإنه يبدو من المحتمل أن تفضيلنا للسهل على المرهق، والإصلاح السريع على الحل بعيد الأمد، سوف يستمر في جعل المشكلات حتى تلك التي هي في معظمها اجتماعية، مشكلات طبية، بدلًا من محاولة تغيير المجتمعات نفسها.

التأثيرات الكيميائية

يأتي خط ثانٍ من المداخلات من فهمنا المتزايد للمرض؛ فحالما أمكن تحديد تشابكات عصبية تسبب مشكلة -تلك التي ترتبط بشبكات معرفية إشكالية- فإنها يمكن تمييزها عن قريناتها واستهدافها، فقد نستطيع أن نؤثر فيها بإصابة الخلايا العصبية بالمرض. الإمراض بفيروسات تنقل إلى الوسط داخل الخلية؛ محدثة خللًا في التوازن الكهرمغناطيسي بإضافة جزيئات مشحونة كهربائيًّا؛ متدخلة بآليات الخلية الداخلية أو حتى محرضة على موت الخلية: قد تستعمل جميع هذه الأساليب ضد الخلايا العصبية المنفردة إذا أمكن جعل تحديد الخلايا، وتطبيق الطريقة، والإزالة المحكمة للخلايا، بالكفاءة اللازمة.

على نطاق أوسع، حين نعرف أكثر عن التعلم فقد نكون قادرين على تحديد المواد الكيميائية التي لها دور حيوي في تغيير التشابك العصبي. وربما يكون نزع القالب الكيميائي -أي القدرة

على محو الدماغ وظيفيًّا بإعادة ضبط التشابكات العصبية إلى المستوى الأساسي- ممكنًا في يوم من الأيام. المشكلة الأساسية هنا أيضًا هي مشكلة النوعية، حيث إن الكائن البشري الذي غسل دماغه وعاد نظيفًا بهذه الطريقة لن يكون على الأغلب مفيدًا لأحد. ويمكن تحسين النوعية بإعطاء الدواء فقط في محيط الخلايا العصبية التي تنشط خاصة في أثناء ورود أفكار معينة والسماح للدواء بالعمل فقط على التشابكات العصبية النشطة (وهذا تحد فني مخيف آخر؛ حيث إن مثل هذه الخلايا العصبية قد تكون موزعة في جميع أنحاء الدماغ). يمكن أن يسمح لتأثير الدواء أن يعمل فقط خلال نافذة قصيرة من الفرص -على سبيل المثال- بنقله إلى الخلايا العصبية المستهدفة بشكل غير فاعل، على صورة طليعة غير ضارة لمادة أو مواد كيميائية ومن ثم تطبيق خمائر، لتحويلها أولًا إلى الصورة الفاعلة ومن ثم إبطال فاعليتها بعد أن يكون التلف قد حدث. يمكن تحريض الضحية على تنشيط الشبكات المعرفية المسيئة (حسنًا سيد جونز Jones، ما الذي يعجبك في الاعتداء على الأطفال؟) في أثناء عمل الدواء، ثم إزالتها من المشهد المعرفي. سيكون هناك بالطبع تلف جانبي لشبكات معرفية أخرى مع سرحان عقل الضحية في أثناء فاعلية الدواء، لكن أي مجتمع مستعد لاستعمال مثل هذه التقنيات على مواطنيه سيجد غالبًا في التلف الجانبي ثمنًا مقبولًا يدفع، ففي نهاية المطاف سينال التلف فقط الذين هم أصلًا خارج الحد الأخلاقي، بل إنه قد يفضل بعض الأشخاص الذين يمارسون الاعتداء على الأطفال مثل هذا التنظيف الذهني على البديل المعاصر؛ سجن مزدحم جدًّا، معادٍ، وخطر.

التأثيرات الجينية

بتوسيع فهمنا للكيمياء الحيوية وبيولوجيا الخلية، سوف ينظر علماء الدماغ في المستقبل بلا شك في السبيل الغني لإمكانات التأثير التي تقدمها البحوث الوراثية. وضعت كميات ضخمة من البحوث في هذا الموضوع؛ ومن رحمة الله أن الجدل العام يتجه بعيدًا عن الأسطورة المؤذية التي تقول: «إن المورثات تشكل المصير»، ونحو اعتراف بترابط حتمي بين المورثات والبيئة[9]. من المثير للاهتمام خاصة الآفاق المأمولة لعلم الأعصاب مع زيادة مهارتنا في التلاعب بالمورثات؛ فبدلًا من هدر الوقت في البحث عن مورثة الجريمة، أو مورثة العبقرية، يحاول عدد من العلماء فهم كيف تستطيع الجينات التي تشرع بالعمل وتتوقف عن العمل أن تنمو وتتغير وتؤذي الأدمغة الحية.

رأينا سابقًا كيف يمكن أن تتوافر تقنيات لاستهداف الخلايا العصبية التي تعيش في الأدمغة البشرية الحية من دون الحاجة إلى جراحة فوضوية معقدة، ولكن لما كانت أي خلية عصبية تشارك على الأغلب في شبكات معرفية متعددة، فإننا لا بد أن نحافظ على الخلية العصبية نفسها، ونعدِّل فقط تشابكات عصبية معينة. يحقق علماء الأعصاب أصلًا تقدمًا في المهمة الصعبة لفهم كيف تتشكل وتتغير التشابكات العصبية، وقد نتمكن في يوم من الأيام أن نعرف أو حتى نفصل عن العمل شبكاتنا المعرفية على مستوى فائق من التفصيل بالتلاعب بالتشابكات العصبية منفردة في أدمغة منفردة.

يتوقع معظم العلماء اليوم أن مصباح البحث العلمي المستقبلي الباهر سوف يبدد آخر الضباب المتلاشي لما وصفه الفيلسوف غيلبرت رايل Gilbert Ryle (الشبح في الآلة)[10]، تاركًا الأرواح رفاتًا من التاريخ، ومغلقًا العقول بإحكام داخل شبكات من السببية، وسوف تكون قدرتنا على التحكم في المواد الجينية بالتأكيد مساهمًا مهمًّا في هذه العملية. قد يساعدنا التلاعب بالجينات في الدماغ ليس فقط على مجابهة الأمراض الشائعة، وإنما أيضًا على زيادة الإدراك الذي يمكن فيه أن تغيِّر الشبكات المعرفية أو تفرض. عندما نعرف أي من المورثات يضبط مطاوعة التشابكات العصبية -مشروع بدأ سلفًا- فقد نكون قادرين على التحكم في المعتقدات التي نؤمن بها، وشدة الاعتقاد، والذكريات التي نبقيها والتي ننساها، وأي أفعال ندركها وأيها تبقى أبعد من التخيل، وربما نستطيع أيضًا أن نعرف كيف نحرض المورثات عن بعد، دون أي آثار جانبية سامة وبدقة متناهية في التوقيت والمكان.

إذا استطعنا أن نحقق معرفة الشبكات المعرفية والتلاعب بها، فإن المضامين ستكون أبعد من أن نستطيع وضع صورة عامة لها هنا، إذ قد لا نكون قادرين على تكوين معتقد معين فحسب، وإنما أيضًا أن (نثبته) بحيث لا يحدث فيه أي تعديل جديد، مكوِّنين أقصى الفكر المتحجر مناعة. تخيلوا أن جين Jane ودان Dan مسيحيان ملتزمان، ترعرعا في عائلتين ثريتين لهما التقاليد الدينية نفسها. إذا أمكن تتبع بعض الاختلافات التي تجعل من جين Jane أصولية ومن دان Dan تحرريًّا إلى فوارق وراثية، عندها قد تشمل برامج المسح (عند الولادة أو حتى أبكر) واسمات جينية للاعتقاد القوي. ربما نكون في النهاية قادرين على تغيير الإيحاءات الفطرية باستعمال العلاج المورثي الدقيق، متخلصين من الأحلام الخيالية المستقبلية أو مطورين إياها. وعلى العكس، يمكننا أن نصهر ونعيد قولبة المناطق في مشاهدنا المعرفية لتأخذ الخواص التي نفضلها، مكوِّنين عقولًا حسب التصميم لأنفسنا وأولادنا. كم سيكون أجمل لدان Dan وشريكته

الجديدة أن يظهر كل منهما التزامًا للآخر بجعل أفكارهما (تندمج)، وكم سيكون مفيدًا أن يُزال خـوف جيـن Jane من المرتفعات، وكم هو مقلق أن تصبح هذه التقنيات متوافرة قبل أن تكتشـف، تاركـة النـاس تحت رحمـة مدمنين عديمي الضمير يسـتطيعون أن يحذفوا الأفـكار دون أن يدرك معتقدوها ذلك.

ربما سيشتمل الدواء في المستقبل على مجموعة ترتيب للدماغ تسمح للمريض بالتخلص من الشبكات المعرفية غير المرغوبة؛ أولًا: هذيان الفصام، وأفكار الكآبة شديدة القسوة على الذات، وصـور الذكريـات المؤلمـة لمتلازمة قلـق ما بعد الصدمـة؛ ولاحقًا: عناد الأطفـال، والضغوطات الاجتماعية، والربط الرهابي بين الخوف ومستهدف غير ضار؛ ولاحقًا أبعد: الأغنية التي سُمِعَت وكُرِهت ولا تتوقف عن الطنين حول الفصين الصدغيين للمرء، وأشـد تعليقات الزوجة السـابقة كراهـة، وذكريـات إهانة الرئيـس فـي العمل. بـدأت أدمغتنا بفقـدان الخصوصية منـذ أن تعلمنا قـراءة الوجـوه والإيماءات، وخلعت حجبها، وتسـارع ذلك عندما بدأت اللغة. اسـتمر خلع الحجب مـع الزمـن، وقد يتسـارع مرة أخرى في العقـود القادمة حين تظهر خفايانا الجسـدية -بدايةً لغة وسياق الجسد، ثم نصوص الدماغ- أمام الجماهير. قد تتضمن قوانين المستقبل أحكامًا بتعديل الدمـاغ الإجبـاري، نازعـة الأفكار غيـر الملائمة لمنع السـلوكات غير الملائمة، وحتـى قبل توافر هذه التسهيلات فائقة التخصص، فقد يمكن مراقبة الأشخاص المعرضين لخطر كبير والتحكم فيهـم عـن بعـد، باسـتخدام زروع عصبيـة. إذا اسـتطاع العلماء -على سـبيل المثـال- أن يربطوا بجـدارة بيـن التغيـرات في نشـاط اللوزة أو القشـرة الحجاجيـة الجبهية، بفقدان السـيطرة على الـذات والعنـف النـاتج من ذلك (حتى ضمن شـخص واحد)، عندهـا يمكن كشـف هذه التغيرات، واتخاذ وسـائل معاكسـة ملائمة لمنع العنف من أن يحدث فعلًا. والاحتمال الآخر هو (الهندسـة الإدمانيـة)؛ باسـتعمال نباتـات -على سـبيل المثال- كما تسـتعمل اليـوم الأدويـة الممنوعة لجعل الشخص يعتمد على مادة كيمائية ما نادرة، ومن ثم يصبح خاضعًا لمن يوفر له هذه المادة.

يمكـن أن يكون لمورثات الإدمـان تطبيقات أخرى؛ فمثلًا: لماذا القيام بحملة طويلة ومكلفة ضد خصم سياسـي عندما تسـتطيع اسـتعمال ناقل فيروسـي (فيروس يحمل حمضًا نوويًّا ريبيًّا منقوص الأكسـجين إضافيًّا مدخلًا إلى شـفرته الجينية الخاصة) لجعل دماغه هو يشـوه سمعته؟ دع النـاقل الفيروسي يحمل التوجيهات الجينية كي يفعِّل مورثات هي في الأحوال العادية هاجعة في القشرة الأمام جبهية لعدوك، وقد يكون لورم الدماغ الخبيث تأثيرات كارثية في سلوكه بحيث تحل مشـكلتك ببذل أدنى جهد من قبلك. ويمكن اسـتعمال داء الزهـايمر، وداء باركنسـون Parkinson

والكوابيس العصبية الأخرى (التي تتضمن أمراضًا لم تكتشف بعد) أسلحةً، ويمكن أيضًا أن نتصور أن الإدخال المتعمد للمرض يمكن أن يستعمل من قبل الدولة لمعاقبة جرائم معينة.

من المؤكد أن استعمال تقنية المورثات لإصابة المجرمين المدانين، أو أعداء الدولة، أو أي مجموعة مارقة بالمرض، سواء كان سرطانًا أو داء كروتسفيلد Creutzfeldt ـجاكوب Jakob، قمهًا اصطناعيًّا أو التهاب مفاصل موجعًا بشدة، يجب أن يعد عقابًا غير إنساني ومذلًّا، لكن: هل الفكرة مختلفة كثيرًا، من الناحية الأخلاقية، عن سلوكات بشرية أخرى والتي لو كانت التقنيات متوافرة لم تكن لتستعمل أبدًا؟ ربما. لكن التاريخ يذكرنا بالتجارب التي قامت بها الحكومة الأمريكية على الفقراء السود في توسكيجي Tuskegee بين عام 1932-1972م بإعطائهم الطعام والضمان الصحي مقابل دراسة تطور داء الزهري إذا لم يقدم له العلاج، وبالقنبلة النووية، والحرب البيولوجيَّة والكيميائية، وجر الخونة بالخيل ثم تقطيعهم إلى أربعة أجزاء وعرضهم على جسر لندن في القرن الرابع عشر، وحرق (الساحرات) أحياء؛ وكثير من الأمثلة الرهيبة بالمثل[11]. لا يتجاوز الحكم على الناس بالموت عن طريق الإصابة المتعمدة بمرض، مثل الافتراضات الأخرى في هذا الفصل، أي خط أخلاقي لم يُتجاوَز من قبل. في الحقيقة، على الرغم من أن السيطرة على المورثات سوف تشذب من دون شك هذه التقنيات، فنحن لسنا بحاجة إليها لتنفيذ الشكل العام. لقد حدث ذلك منذ زمن طويل.

التأثيرات الاجتماعية

استخدم كثير من الفلاسفة والمفكرين الدينيين فكرة (حجب الإحساس) بين عقولنا وبين الواقع (الحقيقي)؛ وهو حاجز غير قابل للاختراق يمنعنا أن نعرف أبدًا ما هو عليه العالم (حقًا). كما رأينا سابقًا، فإن العالم الذي تتصوره سوزان غرينفيلد Susan Greenfield هو عالم يعزز فيه الواقع الافتراضي حجاب الإدراك، مقدمًا لكل واحد منا عالمًا مغلقًا خاصًّا به مطبق بطبقات من أوهام ثابتة، متسامحة، ومريحة[12]. يلبي مثل هذا العالم حلم السيطرة بمنحنا سيطرة ظاهرية ليس فقط على بيئاتنا، وإنما أيضًا على الأشخاص حولنا. من كبير خدم افتراضي، إلى رجال آليين مفيدين، إلى أصدقاء إلكترونيين لا يتذمرون ولا ينتقدون، لا نحتاج أبدًا إلى التسوية مع ذواتنا المدللة، ولا نحتاج أبدًا إلى التخلي عن أحلام طفولتنا الخيالية الهنيئة بأننا أشخاص مميزون؛ أمير أو أميرة، شخص مختار، على الأقل في عقولنا (المركز الثابت

لعالـم يـدور)[13]. ربمـا يجب أن تبقى بعض القيود على سـلوكنا، على الأقل فـي الحالات المحدودة التي تتطلب التفاعل الاجتماعي، لكن في معظم الأوقات يمكن أن يكون كل منا سيد عالمه الخاص الصغيـر الزائـف. هذه وصفة المثالية لعرق بشـري طفولي يعتقد أن الـذات هي الحقيقة الوحيدة الموجودة؛ لكن إذا كانت الآلات من حولنا تستطيع أن تديرنا إدارة ا ناجحة فمن سيلاحظ، فضلًا عن أن يهتم؟

كما ذكرنا في الفصل الحادي عشر، فإن الحريتين الموضوعية والذاتية ليستا متطابقتين؛» أحيانًا (كما وصف روبرت براوننغ Robert Browning رسامه في قصيدته أندريا ديل سارتو Andrea del Sarto) نلاحظ هذا -«جدًّا نبدو أحرارًا، جدًّا نحن مكبَّلون!»- لكننا في كثير من الأحيان نكون ملتهيـن جـدًّا، أو متعبين جدًّا، أو مشـغولين جدًّا، أو كسـولين جدًّا لأن نلاحـظ حياتنا المقيدة[14]. دارات مراقبـة تلفازيـة في كل مـكان؛ خطط حكومية لقراءة بريدنا الإلكتروني؛ متاجر تسـجِّل ما نشـتري، لكـن يجـب أن يكـون المـرء آمنًا، وإذا لـم يكن لدى المـرء ما يخفيه... وكيـف يمكن لولا هذا أن يقدم لنا البائعون الخدمة حسـب الطلب التي نسـتحقها؟ إضافة إلى ذلك، فالحياة حلوة، ونستطيع أن نقوم بأشياء لم يكن أسلافنا ليتخيلوها. إذًا نتخلى عن حرياتنا الموضوعية مفضلين بدائلهـا الافتراضيـة: محـاورة مع مجهول على الشبكة بدلًا من الحديث مـع الأصدقاء، والفرصة للقراءة عن الشخصيات المشهورة بدلًا من الحرية من ضغوط أقراننا، وخيار المستهلك (ثلاثون نوعًـا مـن ورق الحمَّـام، رائـع!) بدلًا من حريـة أن نكون شـيئًا أكثر من مجرد مسـتهلك. مع كوننا نصبـح ملتزميـن أكثر فأكثر، وأكثر قابلية للتوقع من قِبَـل أنماط كثيرة من فنيي التأثير، فإننا مع ذلك نعتقد بالرسالة الفردية: أن كل واحد منا حر كما لم يحدث بتاتًا من قبل.

القلق الآخر للمستقبليين هو أن التعقيد يؤدي إلى الانحلال. وتحاجج هذه العقيدة المتشائمة -إذا وضعنـا الأمـر بفجاجـة- في أن الأشـخاص الآخريـن مزعجون جدًّا بحيث إنه لـو أتيحت لنا الفرصـة فإننـا نفضـل أن نحصـل علـى بدائل افتراضية، ونسـتطيع بالانسـحاب إلـى عالم مملوء بأصدقاء مزيفين مبرمجين على أن يحبونا، أن نتخلص من القيود التي تشكِّل حاليًّا الشخصيات البشرية في أشكال مثيرة للاهتمام (وأحيانًا حتى على شكل بالغين وسطيًّا).

أشد هذه القيود تأتي من الحاجة إلى العيش مع أشخاص آخرين، فكما في الحجارة الملساء علـى الشـاطئ، يـؤدي القرب والاحتكاك إلـى زوال الحواف الحادة، وكذلك يقلل العيش في عالم

كاذب، أو يلغـي بالكلية، حاجتنا إلى تمليس مشـاهدنا المعرفية عنـد الاحتكاك بالآخرين؛ بعبارة أخرى أن نكون كائنات اجتماعية.

لدى كثير من الناس، تعد فكرة فقدان الروابط الاجتماعية الأصلية أمرًا بغيضًا؛ فهم يجْنُون الرضى من الشعور بالمجموعة، ومن الصداقات ومن الحب، وينظرون إلى هذه الأشياء السعيدة علـى أنهـا أفضـل ما يجعل الحياة تسـتحق العيش، ويعـدون التزاماتهـم الاجتماعية جـزءًا حيويًّا مما هم عليه؛ واسـتبدال روابط إلكترونية بهذه الالتزامات سـوف يجعل قسـمًا كبيرًا من وجودهم بـلا طائـل. ولكن بالنسـبة إلى آخرين، يبدو مـن الأفضل أن تحكم في الجحيم مـن أن تكون عبدًا فـي عالـم حقيقـي لا يبدو كثيرًا مثل الجنـة، خاصة إذا كان الجحيم محشـوًّا بما يريح المخلوقات (وإذا لم يوفقوا بحظ كبير في الحب والصداقة). وبالطبع، فإن العلم يسـتمر في كشـف منسـوج النول السـحري، سـوف تتحسـن قدرتنا على تصميم أصحاب غير حقيقيين. إذا استطاع النحات بيغماليـون Pygmalion أن يقـع فـي حب التمثال الذي صنعه، فلربمـا إذًا يمكن إرضاء حاجتنا إلى الروابـط العاطفيـة بنسـخ مماثلـة منحوتـة من المعلومـات. في بعض الحالات يكون حـب صديق إلكترونـي أفضـل بكثير من البديـل الحقيقي (يمثل الأطفـال الذين يقتلون بالعنف الأسـري فقط ذروة الجبـل الجليدي للإسـاءة للأطفال من قبل بشـر حقيقيين جـدًّا (يقدمون الرعاية)). وفي نهايـة المطـاف، نحن نحلم ونتخيل، ونقـرأ الروايات، ونذهب إلى صـالات عرض الأفلام، ونتخذ خطوات -بعبارة أخرى- كي نعزل أنفسنا عن الواقع. سوف يكون الانتقال إلى عالم زائف ببساطة اتخاذًا للخطوة الأخيرة عبر الزجاج المواجه.

حتـى فـي يومنا هذا، من الممكن الانسـحاب إلى عالم المـرء الخاص. ومع ذلك فإن معظم الكائنات البشرية تتراجع عن تخطي الزجاج المقابل، ويشفقون أو يزدرون أولئك الذين ينسحبون. تحفظنـا أحـلام اليقظة من تسـفيه الوظائف؛ قد نهرب عن طريق الروايـات أو الأفلام أو الأدوية مدة من الزمن، لكننا في النهاية نعود إلى حياتنا اليومية، إذ إننا متمركزون في سـياق اجتماعي نستقي منه الرزق، فإن مجرد فكرة الزيف الشامل تجعلنا نشعر بالانزعاج. عواطفنا في فلم بيتر وير Peter Weir عرض ترومان Truman هي مع ترومان Truman الذي تربى منذ الولادة في مسرح تلفازي معقد جميع من فيه ممثلون، والذي أصر على النظر وراء ما يريدون منه أن يعتقده من أنه فـي عالـم حقيقـي، ومن ثم خرج للعالم الخارجي. نحن مفتونون برواية **أربع وثمانون وتسـع مئة وألـف** وروايـة **عالم جديد شجاع**، وبكهف أفلاطون الذي لا يرى فيه السـجناء سـوى حائط واحد

وخلفهم النار تشتعل، وبشيطان ديكارت Descartes الشرير الذكي والماكر الذي هدفه التضليل، لكننا ننظر إليهم على أنهم صور للرعب، وليس للجنة[15]. يغضب شعورنا بالمفاعلة -الذي يحذرنا عند وجود عدم توافق بين ما هو متوقع وبين النتيجة، ويبقينا بذلك مرتبطين بالحقيقة- بشدة عندما يفكر في مثل هذه الهوة الهائلة بين ما هو عليه الواقع وما يبدو فقط عليه.

الدرس بالنسبة إلى من سيكون غاسلًا للدماغ درس واضح؛ يمكن إقناع الناس بالتخلي عن الحريات الموضوعية، وأن يسلِّموا التحكم في حياتهم إلى الآخرين مقابل حريات ظاهرة؛ بعبارة أخرى ما دام أنهم يدركون الحريات التي يكتسبونها ويزدرون، أو لا يدركون أبدًا، الحريات التي يتخلون عنها. قد يكون إحساسنا بالحرية ارتكاسًا عاطفيًّا أساسيًّا، لكن ارتباطاته بقدرات خاصة (الإفصاح عما في عقولنا، والذهاب حيث نريد، وهكذا) ارتباطات متعلمة. وتكمن الخدعة في تعطيل إشارة إنذار الدماغ بكسر ارتباطاته (أو منعها من التشكل في المقام الأول) بحيث لا تعود المفاعلة تُحرَّض عندما، على سبيل المثال، تنتهك حرية الحديث الحر، وعندها لن يكون هناك ارتكاس عاطفي، ولن يكون هناك نار تخمد، أو تمحى بالقوة. وسائلنا في الوقت الحالي بطيئة وغير دقيقة: تكرار التقليل من قيمة الحرية المعنية؛ وتأكيد الأخطار الممكنة التي تجعل الحرية غير قابلة للاستمرار، وتقديم ملهيات ممتعة، وهكذا. قد نملك في المستقبل طرائق بديلة تعطينا -أو تعطي من يتحكم فينا- القوة لتحديد المصدر العصبي المقترن بدقة شديدة ونحذفه بأناقة من أدمغتنا.

كما أكدت في هذا الكتاب، تتكامل الفروق البسيطة في الحمض الوراثي (الحمض الريبي النووي منقوص الأكسجين) في جميع الأنواع الحيوانية مع الفروق في الأدمغة، بنيويًّا ووظيفيًّا معًا. يختلف حجم وأماكن الانثناءات القشرية والشقوق الدماغية من شخص إلى آخر؛ يملك بعضنا مناطق لغوية في النصف الأيمن من الدماغ بدل الأيسر، وكما رأينا في الفصل الثاني عشر يمكن أن يتفاوت حجم الأدمغة تفاوتًا هائلًا. هذه الفروق وفورق فردية أخرى، مثلما كانت الفروق الفردية دومًا وأبدًا، كابوس لفنيي التأثير: كلما زادت دقة محاولة السيطرة على الدماغ، وجب أن تكون شخصية أكثر. تحديد مجموعة من الخلايا العصبية، أو مجموعات عصبية، أو مناطق دماغية تنشط في دماغ بيتر Peter عندما يفكر في ضرب شريكته، قد يمكِّن صانعي العقول في المستقبل أن يغيروا عادات بيتر Peter السيئة، لكن: ماذا عن بول Paul وباتريك Patrick، وجميع الرجال الآخرين الذين يسيئون لشريكاتهم؟ قد ينشط لدى بول Paul وباتريك Patrick المناطق الدماغية نفسها مثل بيتر Peter عندما يفكرون في الإساءة؛ لكن قد لا يحدث ذلك، وحتى لو حدث

فإن احتمالية أن تكون أنماط أنشطتهم مماثلة بما يكفي لأنماط بيتر Peter على مستوى الخلايا العصبية أو مجموعات الخلايا العصبية، ضئيلة جدًّا بحيث أن الدروس المتعلمة من بيتر Peter قد تكون عديمة الفائدة عند محاولة تغيير بول Paul.

من المؤكد أن بعض الأشخاص، وفق ما كانت وكالة الاستخبارات المركزية تدرك جيدًا، لهم تأثير استثنائي جدًّا بحيث إن صنع العقول الهادف يستحق العناء، ولكن في السيطرة الجماهيرية، يجب أن تكون الراشحات ذات ثقوب أكبر: التأثير في مناطق كاملة في الدماغ وليس في شبكات معرفية فردية، على سبيل المثال. حتى هذا النمط الفج من التأثير قد يكون مفيدًا، مع ذلك، خاصة في إحداث عواطف مصطنعة يمكن أن تربط بمنبه محدد (صدمة كهربائية سريعة للوزة، وبذلك......). هذا التركيب من التلاعب الدماغي المباشر مع التلاعب غير المباشر بالإشارات الواردة للدماغ يمكن أن يكون تحسينًا مفيدًا لتقنيات يومنا هذا، كتلك التي استخدمتها الأحزاب السياسية المتطرفة (انظر الفصل التاسع).

مواجهة المستقبل

هل ستكون الكائنات البشرية في المستقبل قادرة على مقاومة النهب من قبل أقرانهم الأكثر افتراسًا؟ هل ستنال الكيانات الجماعية أبدًا (الدول، أو القبائل، أو الجماعات، أو أيًّا كان اسمها) فهمًا عميقًا من قبل علم الأعصاب وعلم النفس الاجتماعي بحيث إنها يمكن أن تتلاعب بأعضائها من قبل الولادة إلى الوقت المحدد للقتل الرحيم من دون ألم؟ هل نستطيع أن نهرب من الرؤى البائسة التي رُسِمت في أدب القرن العشرين (من قبل أورويل Orwell، هكسلي Huxley، جيه. جي. بولارد J. G. Ballard، فيليب ك. ديك Philip K. Dick، وكثيرون غيرهم) والسينما (ميتروبوليس Metropolis، الماتركس Matrix، الراكض الطائش، عدس الصويا الأخضر، وهكذا)؟ فقط الزمن هو الذي سيُخبِر.

مع ذلك فإنني أجد من الصعب أن أكون متشائمًا مثل اليائسين، فلا يزال على علوم الدماغ كثير لتفعله قبل أن تدعي حتى إنها بدأت جديًّا بحل المسائل التي أثارتها الفروق الفردية في النوع البشري الإنسان العاقل. نحن روائع غير طبيعية، نحن الكائنات الحية القذرة، العاطلة، الصعبة، وألغازنا مع ذلك سوف تغلب أفضل سادة صنع العقول لمدة طويلة من الزمن. هناك أيضًا كثيرٌ يمكن أن نحتفل به في الحضارات الغربية الحديثة التي قد تواجه فيها أولًا الأسئلة التي

تثيرها التقنية الحديثة. المشكلات هائلة، بالتأكيد، لكنها ليست بالضرورة مستعصية على الحل، والسؤال بدلًا من ذلك هو: كيف ستحل: إراديًّا من قبلنا، أم تحت إكراه خارجي؟

تميل الأنظمة البشرية، مثل الأدمغة البشرية، إلى عدم محبة الأمور المتطرفة، وأن تكون ذاتية التصحيح عند الوصول إلى الحدود القصوى. إذا نقص الطلب هبط السعر، وإذا فقد الحب يُبحَث عن الحب في مكان آخر، وإذا عاداك شخص ما، فإن دوافعك هي أن تقابله الكراهية بالكراهية، والمثال السياسي هو أنانية الغرب المغرورة التي شكَّلت سابقًا وغذَّت القوى المضادة للإسلام المناضل والحركة المضادة للعولمة. يبدو أن اهتمام الغرب بالنمو الاقتصادي والرأسمالية الاستهلاكية، الذي حصر الناس في مدن ضخمة مع اعتبار قليل للروابط الاجتماعية القديمة، قد ربى مواطنين غير سعداء نسبيًّا؛ فإذا وصلنا إلى معرفة سبب كون الناس تعساء، فقد نستطيع أن نغير التوقعات التي تسهم في تعاستهم، كدعم احترام أفكار الجماعات والمسؤوليات المتبادلة، وإخماد الوهم بأن صرف المزيد من الأموال سوف يحل المشكلات. على المسرح العالمي نستطيع أن نصلح ضرائب التجارة، وندعم نظام القانون الدولي، نعض عليه بالنواجذ، ونتوقف عامة عن التصرف على أننا أكبر نمرود في باحة اللعب. الأفكار المجتمعية- كيف ينظر الناس والأمم إلى أنفسهم وإلى الآخرين- جزء كبير من المشكلة؛ ويمكنها أيضًا أن تساعدنا على إيجاد حل قابل للحياة. نستطيع أن نتحدى أفكارًا مثل التحكم في العقل قبل أن تعطيهم التقنية الحديثة حتى مزيدًا من القوة؛ يمكننا أن نلمِّع أفكارنا، مثل العدالة والحرية، بمعاملة الآخرين بمزيد من العدل، ومن ثم ننزع واحدًا من أعظم حوافزهم لبغض الغرب، وكل ما يقف من أجله، نظرًا إلى أن علم الأعصاب ليس المصدر الوحيد للتقدم التقني، وأن البغض قد يعبر عنه قريبًا بقنابل نووية أو أسلحة بيولوجية. ليس هذا منظورًا سعيدًا، وهو محاججة تدعونا للتصرف الآن.

في غضون ذلك، وصل كثير من المفكرين العظام إلى الاستنتاج بأن الناس سوف يجدون في النهاية الجواب لكل شيء؛ شجع هؤلاء المفكرون المواطنين الغربيين على رؤية أنفسهم على أنهم على الخط الأمامي ضد دولة زاحفة ومتزايدة القوة، لها قدرة على الوصول إلى جميع الموارد التي يمكن أن يقدمها العلم. تاريخيًّا، كان بعض العلماء راضيًا بالعمل مع القوي، والعلمُ، بتأكيده الجديد، قد لا يعطي دائمًا الوزن المناسب للدروس التي يمكن تعلمها من التاريخ. إذا طوِّرَت تقنيات جديدة للسيطرة على العقل، فهل ستبقى خارج منال الحكومات؟ أو: هل سيتعاون

العلماء لمساعدة المريض، ومنع الجريمة، وبناء أسلحة أفضل، أو مهما كان؟ (تذكروا الخط الرفيع بين المريض والمختلف الذي بحثناه في الفصل الرابع، والسهولة التي يمكن بها وسم المعارضة السياسية بالمجرمة)، إذًا ومتى حدث ذلك فإن نسلنا يجب أن ينظر في حرياته، إذا كانوا لا يزالون قادرين على فعل ذلك، وربما يجب أن نبدأ بالنظر نيابة عنهم، وبالنظر إلى كيفية تسارع العلم، نيابة عن أنفسنا أيضًا.

الخلاصة والاستنتاجات

لدى هؤلاء العلماء الذين يسبرون العقول البشرية الآن مدخل مباشر للداخل، يستطيعون أن ينظروا داخل الجمجمة الحية، ذلك الصندوق العظمي المتوازن على برج من الفقرات، ويرسموا التغيرات التي تحدث فيه بتفاصيل مدهشة. صندوق باندورا الذي يحتوي جميع شرور العالم، أو صندوق جون ماسفيلد John Masefield للمسرات، مهما سيظهر الأمر عليه، الغطاء نصف مفتوح[16]. قد نصل في المستقبل إلى تحقيق حلم التحكم في العقل، على الأقل إلى درجة السيطرة على العقول المفردة. كم سيستغرق صقل التقنيات المعنية؟ وهل ستكون قابلة أبدًا للممارسة؟ لا أحد يعلم.

من ناحية ما لا يهم؛ ليست التقنية هي المشكلة الأساسية؛ قد تجلب عوائق وتطورات غير منظورة، لكن إمكاناتها الكاملة متورطة مسبقًا في حلم التحكم في العقل؛ قد يتبدل الحلم مع تداخله مع الواقع، لكن التغيير سيكون على الأغلب حصرًا في النطاق، مع إدراكنا بأن هناك أشياء معينة فعلًا مستحيلة. الحلم نفسه حتى الآن هو الهيمنة الكاملة، قوة قادرة على ضمان أنه «يجب ألا توجد أفكار غير صحيحة في أي مكان في العالم، مهما كانت سرية وعاجزة»[17]، كيف يمكن أن يتعزز مثل هذا المفهوم الطاغي أكثر؟

ما يهم -كما هي الحال دائمًا- ليس التقنية الحديثة، وإنما ما نستطيع أن نفعل بها، ويعتمد ذلك على الأفكار التي نحملها، والأفكار المقبولة عامة في بيئتنا، ومن يقرر ما الخطأ. إذا كنا لا نزال نرتكس للاختلاف بالخوف والعدوانية، وإذا تخلينا عن الحرية لحساب الأمن وقبلنا أن الدول تسيطر والمواطنين يستهلكون، عندها ستطبق تقنيات صنع العقول على الخارجين عن

المجتمع، وإذا لم يحتج المواطنون الأكثر أمانًا في ذلك الوقت، عندها فإن الذين يتحكمون في العقل سوف يسعون لمد العريشة على المجتمع الأوسع.

أين يجب أن نبحث؟ هل هناك احتياطات يمكن أن نتخذها لزيادة فرص أننا وأبناءنا، بكامل فرديتنا الغريبة، سوف نعبر سالمين القرن الحادي والعشرين، محافظين على حريتنا بالتفكير؟ سوف يبحث الفصل القادم في وسائل الدفاع التي يمكن أن نستخدمها أفرادًا ومواطنين.

اتخاذ موقف

«معالجاتنا داخل أنفسنا كثيرًا ما تكذب،

ونحن نعزوها للسماء».

وليام شكسبير William Shakespeare، **كله حسن، ما ينتهي حسنًا**

William Shakespeare, All's Well That Ends Well

إن محاولات التأثير؛ من ألطف إقناع إلى أكثر طرائق غسيل الدماغ إكراهًا، هي جزء من الوجود البشري مثلما هو الضوء والاضمحلال. كي نعيش معًا يجب أن نغير بعضنا؛ يقدِّم البشر وثقافاتهم من التربية الاجتماعية للأطفال حتى عقاب المجرمين مصادر عديدة جدًّا لا مفر منها من التأثير: أفكار تبدل الشبكات المعرفية المنسوجة في الجماجم. بعضها غير مؤذ، وبعضها مزعج، وبعضها مفيد؛ بعضها ملهم بروعة، كان وراء تكوين أعاجيب باهرة، من موسيقى باخ Bach إلى نظرية النسبية العامة، وبعضها مثل حلم التحكم في العقل، يمكن أن يكون مؤذيًا قاتلًا.

سوف أنظر في هذا الفصل في أساليب سحب أنياب هذا الحلم والأحلام الأخرى المماثلة؛ سوف نبدأ بالنظر في كيف يمكن أن يدعم الأفراد مقاومتهم لتقنيات غسيل الدماغ، قبل الانتقال للسؤال كيف يمكن أن تحمي المجتمعات نفسها ومواطنيها؟

التأثير المتواصل

حتى لو أردنا أن نتجنب جميع محاولات التأثير، فإننا ببساطة لا نملك الموارد الذهنية لكشف ومعاكسة كل واحد منها جميعًا. لقد قدِّر منذ سنوات عديدة أن «الأمريكي العادي يتعرض الآن إلى 254 رسالة تجارية كل يوم»[1]؛ والرقم لا يزال في ارتفاع، وهذا فقط في الإعلانات التجارية، أضف إليها الأخبار، وشبكة المعلومات، والكتب والمجلات، والأصدقاء والعائلة، والرسائل الواضحة والمبطنة التي وضعت في ساعات من البرامج التلفازية، وسنبدأ بإدراك حجم المعلومات التي تقصف بها أدمغتنا– معلومات موجهة إلينا بهدف تغيير عقولنا. لتخفيض القصف إلى مستوى

يمكننـا فيـه مراقبـة محـاولات التأثير الفردية، يجـب علينا أولًا أن نحقق مسـتوى من الانسـحاب الاجتماعي (لا اتصال بشـري، لا حاسـوب، لا تلفاز، لا مذياع، أو وسائل إعلام مطبوعة) يستحيل على الجميع عدا أشد الباحثين عن الانعزال عزمًا.

يختار عدد قليل جدًّا من النـاس أن يعيش وحده بالكامل، وبالنسبة إلى معظمهم، تقع أغلب محـاولات التأثيـر في النهاية الدنيا من الطيف، مسـتلزمة طاقة قليلة لتوليدهـا؛ إنها خفيفة جدًّا -أو واضحـة جـدًّا- بحيـث إنهـا تبـدو فقط مـن آن لآخر جديـرة بـأن نتحداها. في أكثـر الأحيان نذهـب مـع التيـار، مقتنعين أننا لا نملك الوقـت، أو الطاقة، أو الحافز للتصـرف بغير ذلك. عدم الاهتمـام هـذا مفيـد ومُشـكِل في آن واحـد لفنيي التأثيـر؛ إنه مفيـد لأولئك الذين يريـدون تغيير العقـول من دون أن يبدو أنهم يفعلون ذلك، باسـتعمال التكرار قطـرة فقطرة لتعزيز الافتراضات المعنية ((الاستهلاك جيد)، (أنت ما تملك)، وهكذا)، وهو مشكل عندما يكون الهدف هو تمييز رسـالة واضحـة مـن بين جميـع الرسـائل، لتحريض قدرة المسـتهدف علـى المراقبة والارتكاس بحيـث تسـتوعب الرسـالة، وينظر بها، وتُشـمَل في المشـهد المعرفي للمسـتهدف. فـي الإعلانات -على سبيل المثال- قد يجمع الإعلان التجاري بين المداخلتين؛ فيجذب السطح الجذاب الانتباه (باسـتخدام السـرد قوي، أو المزاح، أو موسـيقى أو ألوان مميزة،... إلخ)، في حين يقوي البنيان الأعمق المعتقدات المجتمعية ((سيدة في المنزل) يشجع (القيم العائلية) التقليدية؛ (رجل في المكتب) يؤكد أهمية التوظيف براتب؛ وهكذا)، حتى لو لم ينجح الجذب السـطحي، فإن الجذب الأعمق، عادة رسالة أو رسائل محافظة، سوف يتعزز.

يحمينـا عـدم المبـالاة، والجهـل، وأن نكون مشـغولين، من محـاولات كثيرة لتغييـر عقولنا، إضافـة إلـى ذلـك لا يعمـل فنيو التأثير في فـراغ مجتمعي. دفعنا مبدأ تقسـيم العمـل الذي وصفَ أهميتَـه للمجتمعـات الرأسـمالية آدم سـميث Adam Smith قبـل أكثـر مـن مئتـي عـام فـي كتابـه **ثـروة الأمـم**، إلـى تحويـل معظـم مراقبتنـا للتأثيـر إلـى المختصين، فنتوقـع مـن الصحفيين أن يرفعـوا علـم الإنـذار لتنبيهنا إلـى التلاعب الحكومـي، ونتوقع من أخبـار التلفاز أن تنشـر تقارير عـن أخطـاء محـرري الجرائـد (والعكـس بالعكـس)؛ ولدينـا وكالات مهمتهـا تنظيم ما نـراه على التلفـاز، وهكـذا. تشـكل التوقعـات التي لدينـا عـن الاختصاصييـن المتنوعين الثقة التـي نضعها بهـم، ومـا دمنـا مسـتمرين فـي الثقـة بهـم فإننـا لا نشـعر بالحاجـة إلـى تكـرار جهودهـم علـى المستوى الفردي[2].

ولكن، في حالات عديدة، يمكن أن تخدع محاولات التأثر كلًّا من سيسيلا (الأنثى الوحش التي تلتهم البحارين أمام كهفها) والمختصين، وكاريبدس (الدوامة أمام باب الكهف) والأدمغة المشغولة أو غير المكترثة، يستخدم بعضها التسلل لتجاوز دفاعاتنا، ويستخدم آخرون القوة. وفي المستقبل -كما رأينا في الفصل السابق- قد توفر التقنية الحديثة سلاحًا إضافيًّا للتأثير: التفاعل المباشر مع الدماغ المستهدف. من المؤكد أننا قد لا نرغب في مقاومة كل أشكال صنع العقول، لا أحد كامل جدًّا بحيث لا يمكن أن يستفيد من أفكار جديدة، ولا كل فنيي التأثير يقصدون (أو يسببون) لنا الأذى، لكن بعضهم يفعل؛ كيف نستطيع إذًا أن نحمي أنفسنا؟

اللقاحات ضد الميميات

«ذلك أن المعرفة نفسها قوة».

فرانسيس بيكون Francis Bacon، **تأملات دينية**، (من البدع)

Francis Bacon, Religious Meditations, 'Of Heresies'

إحدى وسائل إلغاء تأثير بنادق فنيي التأثير هو اتخاذ وسائل وقائية؛ فإذا كانت جين Jane المسيحية الملتزمة تعتقد أن أغاني روك معينة رسالة من الشيطان، فإن رغبتها في تجنب أن تتأثر (بأمير الظلام) قد تدفعها لإطفاء المذياع عندما تعزف الأغنية، أو لإتلاف تسجيلاتها، أو حتى شن حملة لمنع عزفها للعموم، وبدلًا من ذلك قد تستمع لأغاني الروك وتحللها بدقة، على أساس أنه من الأفضل أن تعرف العدو. قد تولي مزيدًا من الاهتمام لطقوسها الدينية آملة أن يكسبها الالتزام المخلص رضى الله وحمايته. وقد تبحث عن آخرين لديهم وجهات النظر نفسها، وقد تكون لديهم نصائح في كيفية الحماية من التأثيرات الشريرة (في أغاني الروك أو في أي مكان آخر)، وقد تشكل حتى فرقة روك مسيحية خاصة بها.

بعبارة أخرى، يمكن أن تتخذ جين خطوات عدة لتقليل خطر ما تتصور أنه سلاح مؤذ للتأثير؛ فتستطيع أن تتجنب المواقف التي تتعرض فيها للتأثير؛ ويمكنها أن تبحث عن معلومات تغني فيها المناطق المعينة من مشهدها المعرفي، محولة نفسها إلى خبيرة متحمسة جدًّا وماهرة في اكتشاف مثل هذه المحاولات، أو تستطيع أن تزيد التزامها بالمعتقدات التي تعلم أنها لا تتناسب مع الرسالة التي تزوِّدها محاولة التأثير. بتغيير سلوكها الخاص؛ بالبحث عن أفكار جديدة أو دعم اجتماعي للعقائد التي تحملها سابقًا، تصبح جين قادرة على استعمال تنبؤاتها

المبنيـة علـى المعلومات عن أسـاليب الشـيطان لمنـع ألبوم الواحد الشـرير Evil one مـن التأثير فيهـا؛ إنها تحارب الأفكار بالأفكار، مسـتخدمة معتقدات لتلقيـح دماغها (أو ربما أدمغة الآخرين المعرضيـن للتأثيـر) ضـد ميميات يمكن أن تكـون غازية وترى أنها مؤذية (كمـا رأينا في الفصل الثالـث، الأفـكار بوصفها وحدات (ميميات) memes يمكنها مضاعفة نفسـها والانتقال عن طريق التقليد من دماغ إلى آخر).

إذا كانت جين محفزة بقوة للحفاظ على عقيدتها المسيحية وطرد الشيطان، فإن شبكاتها المعرفية (المتعلقة بالشر) و(المتعلقة بالعقيدة) سوف ترتبط بعواطف قوية تحرض الاستجابة الآلية لمنبهات معينة، وسوف تتحكم معتقداتها القوية كثيرًا في سلوكها، مثلما تدور أفكار وأفعال مـن يعانـي القمـه العصبي حول الطعام. سـيصعب على الأفـكار الجديدة، خاصـة المناقضة، أن تتجـذر فـي هذا المشـهد المعرفي المعـادي، حيث إن الطاقة التـي يجب أن تقويها تتسـرب بعيدًا بسـبب الشـبكات المعرفيـة القويـة التي تؤمـن (دفاعًا متعصبًـا). على الرغم مـن مخاوفها، فإن جين ربما تكون آمنة من أغاني الروك؛ قد يكون قلقها متعلقًا أكثر بالأشخاص الآخرين وليس بها؛ سيتطلب الأمر صانع عقول ماهرًا -أو جهدًا حازمًا حقًّا من جانب الشيطان- لكسر عقيدتها، وهو ما يحميها من محاولات التأثير عندما تحدث، ووفق ما رأينا في حالة الأسـقف هانز باركر Hans Barker، فإن المعتقدات القوية كثيرًا ما تثبت أنها دفاع جيد ضد غسيل الدماغ.

لكن لسـنا كلنا أقوياء مثل جين في معتقداتنا، ولا نسـتطيع أن نسـتعمل دفاع التعصب؛ لكن ذلك لا يمنعنا من اتخاذ وسـائل أخرى؛ فمثل جين، نسـتطيع أن نتوقع سـلوكنا وسـلوك الآخرين، وهـذا يعني أننا نسـتطيع اسـتعمال المعرفـة، و/أو الدعم الاجتماعي، للتخفيـف من أثر محاولات التأثير قبل أن تحدث، أو لحماية أنفسنا ضدها عندما تحدث. إذا كانت ميري تعرف من تجارب مريـرة أنه بعد تناولها أدوية عدة، فإنها سـتدمن عليها، فـإن رغبتها في تجنب العواقب المحتملة (الكارثيـة) قـد تدفعهـا للتوقف عن تناول هذه الأدوية. إنها تتوقع سـلوكها فـي حالة معينة، وتغير نفسها بحيث تتجنب هذا النوع من المواقف، على عكس سلوك (نختار أن نخسر) الذي بحثناه في الفصل التاسـع. لقد اسـتطاعت إدارة الرابط بين الإشارات الاجتماعية التي حرضت في السابق سـلوك تنـاول الأدويـة وشـبكة معرفيـة جديدة، شـبكة تسـتدعي ذكريات الحـرج السـابق لتطبيق استجابة (توقف وفكِّر). بشكل مماثل، إدراك احتمال أن صنع العقول أساسًا هو أول خطوة لتنبؤ استجابتك، وتغيير دماغك وسلوكك حسب ذلك.

(توقف وفكّر): ترياق التأثير

يشمل كثير من الأساليب التي تقاوم محاولات التأثير تحريض آلية (توقف وفكّر) (انظر الفصل العاشر)، والتفكير الناقد، والتشكيك، والفكاهة، أمثلة على ارتكاسات (توقف وفكّر). يحلل التفكير الناقد والتشكيك الرسالة، فاحصين منطق حججها، واستعمال اللغة العاطفية، ودقة العبارات الواقعية، وهما كذلك يسائلان سلطة وحافز مصدر الرسالة؛ تتحدى الفكاهة أيضًا السلطة، وإن يكن عن طريق تأكيد العاطفة بدلًا من المحاججة.

تعتمد استجابة (توقف وفكّر) على (واقعنا)؛ على حقيقة أن كلًّا منا، طوال عمرنا، ضحية سياق ذاكراتنا وفي الوقت نفسه منغمس بالتجربة المستمرة لما يسميه جورج ستاينر George Steiner «العالم اليومي الواقعي، الحرفي، الفعلي»[3]. تختلف طريقة اندماج هذين العاملين معًا مع مرور الوقت. في السينما، إذا كان الفلم مثيرًا للاهتمام بأي طريقة، فإنك ستكون على الأغلب منغمسًا في الأحداث، وقشرك البصري يعمل بكامل طاقته، والتنبيه يأخذ أولوية على التفكير، أما في عصر يوم جمعة حار في المكتب، وأنت عالق في اجتماع ممل، فقد تجد أن التوازن يميل في الاتجاه الآخر وأنت تنجرف في أحلام اليقظة. إذا لم يكن هناك مورد كاف لإبقاء دماغك مشغولًا، فإنه سيرجع إلى موارده الداخلية الخاصة من الذاكرة والتفكير. إذا كانت ذكرياتك سعيدة، حسنة وجيدة، لكنك في موقف أنت فيه غير واثق وغير مسرور، مثل زنزانة سجن، فإن التفكير بمآسيك لن يفيد أبدًا في رفع معنوياتك، وأحد الحلول هو دعم مستويات الإشارات القادمة؛ تقوم الأدمغة بذلك آليًّا، وهذا هو السبب في أن الأشخاص المشغولين لا يلاحظون حركة الساعة، إلا عندما يكونون عالقين في اجتماع ممل، لكن إيجاد شيء مثير للاهتمام في بيئتك يمكن أيضًا أن يكون إستراتيجية بيِّنة.

في كتابه **غسيل الدماغ**، شرح إدوارد هنتر Edward Hunter كيف استعمل سجناء الحرب الأمريكيون في كوريا جميع هذه الطرق لمقاومة غاسلي الدماغ الشيوعيين، وبعض السجناء الذين عزلوا مدة أشهر من الزمن وحرموا أي وسيلة لإبقاء أنفسهم مشغولين، ابتدعوا وتذكروا الأشعار -التي كثيرًا ما كانت مرحة- عن أحوالهم، محللين لماذا يعاملون بهذه الطريقة، وما الذي يأمل آسروهم أن يحققوه؛ استخدم بعضهم خياله للحلم بكذبات يمكن تصديقها يخبرون المحققين بها، جاعلين لعبة من هذه السياسة (مرتفعة الخطر) في خداع العدو من دون أن يقبض عليهم

وهـم يفعلـون ذلك، معززين ثقتهم الخاصة ووضوح الهدف في كل مرة تُصدَّق فيها كذبة، ودرس بعضهم حتى فن طيران الذباب العابر؛ في محاولة للتخلص من الملل.

الإدراك والمقاومة

«ما احتمال أن مجتمعات المستقبل سوف تشمل علم التحكم في سياسات الحكم؟ الجواب ـكما نعتقدـ يعتمد كثيرًا على الخيارات التي يقوم بها الناس الآن».

شيفلن وأوبتون Scheflin and Opton، **التلاعب بالعقل**.

Scheflin and Opton, The Mind Manipulators

القـوة، والتسـلل، والتقنيـة الحديثـة؛ ثـلاث طرائق قـد يجربها فنـي التأثير لتغييـر العقول. بالنسـبة إلى المسـتهدف، أول تحد هو إدراك أن هنـاك محاولة يمكن على الأقل أن تحمل إمكانية الأذى للمسـتهدف قـد أجريت؛ يحرض ذلـك مفاعلـة كافيـة لإحـداث ارتكاس من نـوع (توقف وفكـر). وبالنسـبة إلى التقنيات التي تسـتعمل القوة، وبالنسـبة إلى التقنيـات الحديثة، إدراك أن هناك محاولة ليس عادة مشكلة. وبالنسبة إلى طرائق التسلل، الوصول إلى الأفكار الحامية ـمثل العقائد البديلة قوية الإيمان، أو المواقف المتشككة أو الناقدة، أو التجارب السابقة عن محاولات تأثيـر مماثلـةـ يمكـن أن يثبت محرضـات ملائمة لحماية دماغ المسـتهدف، كما وصفنا سـابقًا، ولكـن قدرتنـا على اكتشـاف الخداع بعيدة عـن أن تكون مثالية[4]، وما يسـبب مشـكلة بالخاصة هو محاولات التأثير التي تحدث بالتدريج على امتداد وقت طويل، كما في مثال العنف الأسـري الذي بحثنـاه في الفصل الخامس؛ فقد يكون من الصعب إدراك محاولـة التأثير بهذه الصورة، خاصة إذا كانـت الضحيـة محفـزة بقوة على عـدم الإقرار بها، لكننا نسـتطيع أن نعـزز مناعتنا الخاصة بطرائـق متنوعـة: بالإعـلان عن الحـالات التي يحدث بهـا تأثير مخـادع وعقابهـا؛ أو التمرُّن على التفكيـر الناقد؛ أو المشـاركة فـي المناظرات العامـة؛ أو التعلم من تجارب الأشـخاص الآخرين. بالتأكـد مـن أننـا واضحـون فـي معتقداتنـا، فإننـا نقلـل مـن فرص أنهـا يمكـن أن تعـدل بعلمنـا أو من دونه.

الدرس الـذي تعلمنـاه فـي الفصل الحادي عشـر هو أنه لا يوجد أي شـيء، حتـى في عقيدة الحتمية العلمية، يمنعنا من الخروج وفعل أيٍّ من وسائل الحماية هذه، أو كلها، حالما تخطر فكرة فعل بذلك على بالنا. نحن عناصر فاعلة، ولسـنا مسـتقبلين منفعلين، ونسـتطيع بالتأكيد أن نغير

أدمغتنا إذا كنا نفضل ذلك على أن يغيرها أشخاص آخرون. نستطيع أن نتعلم أيضًا عن سلوكنا الخاص، ومن ثم تحسين مهارتنا في تقرير المصير؛ فَهمنا لقابليتنا للتأثر بالعوامل الاجتماعية، وإغراء تصنيف المجموعة الداخلية/المجموعة الخارجية، والتأثيرات المعززة للأنماط في التوتر، وغيرها، قد تجعلنا أكثر إدراكًا لما يفعله التأثير بنا.

حالما يتنبه الإدراك، فالتحدي الثاني هو مقاومة محاولة التأثير؛ صنع العقل بالتسلل الذي يعتمد لنجاحه على كونه خفيًّا، لا يمكن أن يخفق فحسب، وإنما أن يؤدي إلى رد فعل معاكس خطر إذا أُدرِك؛ فقد تُخبر جين Jane التي تتابع بحذر ألبوم الروك الجديد، من قبل صديقتها بألا تقلق؛ لأن البحث أظهر أن الأغاني المشبوهة خالية من الرسائل الشيطانية، وبالاعتماد على رأيها أو رأي صديقتها، قد تقبل ببساطة هذه الحقيقة، ولكن إذا توقفت لتفكر فقد تقرر أن صديقتها تحاول فقط طمأنتها، فتسأل عن مصدر الخبر، أو مَنْ بحثَ؛ فإذا كانت السلطة موثوقة (كالخوري في منطقة جين Jane)، فإن محاولة التأثير قد تكون أثبتت في النهاية أنها ناجحة، ولكن إذا تبين أن المصدر هو -مثلًا- عالم معروف بوجهات نظره الإلحادية، فإن جين لن ترفض الرسالة فحسب: عدم اعتبارها للمصدر يعني أنه قد ينتهي بها المطاف أكثر اقتناعًا بأخطار موسيقى الروك.

كما بحثنا سابقًا، يتضمن كثير من حالات غسيل الدماغ التقليدي الإكراه أو حتى التعذيب الشنيع. تحرض القوى التي لا تحاول تجنب إدراكها، المفاعلة والمقاومة التي يجب عندها التغلب عليها؛ قد تستطيع الضحية المحفزة تحفيزًا كافيًا أن تقاوم حتى التعذيب، سواء بالانسحاب النفسي من الموقف (الانفصال) أو بالتمسك بفكرة قوية أو صورة قوية (كالشهيد الديني الذي يتفكر في الله ليتحمل الألم). الخطة البديلة قد تكون المطاوعة قصيرة الأمد، كما أبدى السجناء الأمريكيون في حرب كوريا الذين تحولوا ظاهريًّا للشيوعية، ليعاودوا اتخاذ مواقفهم السابقة حالما أطلق سراحهم. في الحقيقة، كثيرًا ما كان تمييز المطاوعة من التحول مشكلة لأصحاب المذاهب الفكرية الذين يستعملون طرائق الإكراه.

لقد خمنت في الفصل السابق في الإمكانات المحتملة للتقنيات الحديثة لجعل حلم التحكم في العقل يتحقق، ولكن كثيرًا ما يمكن استعمال التقنية في أكثر من طريقة واحدة؛ وليس جميع مستعملي التقنيات الحديثة أو مصمميها تواقين للهيمنة على الآخرين. تتبع كثير من التطورات في التقنيات البشرية للصراع نمط سباق التسلح، المشاهد بصورة شائعة في التطور الذي عندما

تطوَّر فيه أسلحة (أو دفاعات) جديدة من قبل أحد الطرفين سرعان ما يجاريه تطور سريع لدفاعات (أو أسلحة) ينتجها الطرف الآخر. قد يستمر صنع العقول الذي هو في الأساس صراع بين المستهدفين والمعتدين على هذا المنوال؛ ربما سيستمر كل من الطرفين بالتنافس إلى أن تنفد الموارد، أو ربما تتغير الأحوال السياسية مع تخلي الكائنات البشرية عن حلم غسيل الدماغ (نحن -على كل حال- نكبر بمشقة على أحلامنا، مثل أفكار التفوق العرقي الذي كان مستعملًا لتسويغ مؤسسات العبودية). في غضون هذا، قد ينتج حقل الدفاع الدماغي محصولًا رائعًا من العجائب، من الأدوية المضادة للعقائد أو درع كهرومغناطيسي لحماية أدمغتنا من التداخل الكهرومغناطيسي.

اعوجاج الأفكار

نتنقل الآن من حماية النفس إلى موضوع متعلق به؛ هو كيفية نزع فتيل آثار غسيل الدماغ في الآخرين؛ مثل الفيروسات، كثيرًا ما يوجد سلالات عديدة ذات قدرات مختلفة، والسلالات الأشد قوة -أفكار أثيرية معينة- خطرة جدًّا بحيث إنها يمكن أن تهيمن على الدماغ المصاب بالإنتان، أو تدمره، مثل فيروس الإيبولا يمكنها أن تسبب معاناة هائلة لضحاياها؛ كل من المصابين أنفسهم والأبرياء الذين يؤذونهم. على عكس معظم الفيروسات، فإن الأفكار الأثيرية قد تلقى ترحاب المستهدفين الذين قد يقاومون بشدة محاولات تطهير الإنتان، ويستخف كثير من الارتكاسات العدائية للطوائف الدينية بدرجة تلبيتها فعلًا لحاجات أعضائها، مستهوين التزامًا جماعيًّا حقيقيًّا.

يصبح الشخص المصاب بإنتان فكرة أثيرية -في الحالات المتطرفة- أشد التشوهات البشرية إثارة للرعب، وهو المتعصب لموضوع واحد؛ حيث تمتص الشبكة المعرفية المهيمنة الطاقة من المعتقدات المتنافسة، مغلقة بالتدريج أفق الشخص، فيتشوه المشهد الفكري ويضيق نطاقه، ويصبح تفسير كل شيء منسوبًا إلى الفكرة المهيمنة، وهو ما ينتج منه «شخصية قاتمة منكمشة»[5]. تعتقد المراهقة المصابة بالقمه (نقص الشهية) العصبي، أنه من المستحسن أن يكون المرء نحيلًا، ويؤمن كثير منا في الغرب المعاصر هذا الاعتقاد بدرجات متفاوتة من القناعة، لكن المصابة بالقمه العصبي مؤمنة إيمانًا شديدًا بذلك حتى إن الجهد اللازم للسيطرة على جسمها يمكن أن يصبح أكثر أهمية من الصحة، أو حتى الحياة، ويقود هذا إلى التركيز في الطعام والتحكم فيه، ليصبح مع مرور الوقت جهدًا آليًّا من الهوس المجهد إلى عادة متأصلة جدًّا تصبح

فعليًّا من أسس الشخصية. القول إنها تفكر في الطعام معظم الوقت هو أقل ما يقال عن مركزية السيطرة على الطعام في عقل المصاب بالقمه المزمن، وكما في بعض اضطرابات الشخصية، يصبح من الصعب فالأصعب تخيل كيف سيكون شكل الشخص لو لم توجد هذه المشكلة.

إحدى أكثر الأفكار الأثيرية سمية في تاريخ البشرية هو مفهوم السلطة المطلقة التي تلغي جميع الاعتبارات الأخرى الأخلاقية أو القانونية؛ فقد استعملت هذه الفكرة الأثيرية الخاصة، ولا تزال تستعمل اليوم، لتسويغ بعض الفظائع المثيرة حقًّا للاشمئزاز. بالتعامل مع الكائنات الحية بوصفها وسيلة بدلًا من أن تكون غاية في حد ذاتها، فإنها تضع حياة الإنسان، وجودة الحياة، في مرمى هدف مجرد ما، سواء كانت مترافقة أم لا مع نظام شمولية صريحة، فإنها مثال واضح على التفكير الشمولي.

كما أن المريض المصاب بفيروس نقص المناعة البشري قد يموت بسبب الإصابة بالتهاب رئوي ليس مميتًا في العادة، كذلك فإن الأفكار الأثيرة خطرة خاصة عندما تكون مجتمعة؛ السلطة نفسها هي فكرة نستعملها طوال الوقت من دون آثار جانبية، لكن قوِّها إلى سلطة مطلقة، وضعها مع نظرة شمولية ما لعالم أفضل، ويمكن أن تكون النتيجة مميتة: الشخص الذي يعتقد أن لديه مهمة لجعل الرؤية تتحقق، الذي لا يفكر عمليًّا في أي شيء آخر، والذي تغلب فيه دوافعه المرتبطة بالرؤية حتى على غرائزه بحماية النفس، وليذهب كل من يقف في الطريق إلى الجحيم (حرفيًّا بالنسبة إلى السلطات الدينية). هذا في أفضل الحالات هو المتطرف الصاخب المثير للغضب الذي لا يمكن التفاهم معه، الذي يقول إننا يجب أن نقتل عالمًا لإنقاذ جرو، أن نقتل كاتبًا للدفاع عن معتقدنا، أو أن نقتل الملايين لنضع نظامًا عالميًّا جديدًا. في أسوأ الحالات، هي الفدائي، أو المتشدد، أو المفجر الانتحاري، الذي لا يبدد غضبه وإحباطه بالضجيج، لكنه يستعملهما وقودًا للعنف الإرهابي.

كيف نستطيع أن نقلل تهديد هذه العقول المشوهة؟ لا يوجد جواب شاف؛ لأن الأفكار الأثيرية تتفاوت في درجة تسببها في القتل، وتستمد (دماء حياتها) من مصادر متنوعة، لكن هذا لا يعني أننا بلا عون. تستمد الأفكار الأثيرية طاقتها جزئيًّا من كونها مجردة، وغير قابلة للتحدي، وبسيطة، وجزئيًّا لأنها تتوافق مع معتقدات موجودة سابقًا، وجزئيًّا لأنها ترتبط بعواطف قوية، ولنزع فتيلها (على الأقل إلى أن تقدم لنا التقنيات الحديثة أساليب أكثر مباشرة لتغيير الدماغ)، يمكننا إما أن نتحداها مباشرة فنحاول أن نقلل المعتقدات المرافقة التي تعطيها الدعم أو العواطف التي تعطيها القوة، وإما أن نحاول منعها من الترسخ بالأساس في المقام الأول.

فك القبضة الخانقة

دعونا نتخيل رجلًا شابًّا اسمه سام Sam، تمتلكه فكرة أن قتل أعضاء القبيلة المجاورة هي أفضل طريقة لتحقيق الحرية لشعبه، وهو مخلص للحرية ومستعد للموت من أجلها، والصراع بين الجماعتين صراع قديم ومرير. نذهب إلى سام Sam (أو إذا كنا حذرين نرسل له ممثلين عنا) ونتحدث معه عن أفكاره، نستمع إليه وهو يصرح بموقفه، ثم نشير إلى بعض صعوبات الموقف، ما الذي يعنيه تمامًا بمفهوم الحرية؟ كم شخصًا يتوقع أن يقتل؟ وهل هذا ممكن عمليًّا؟ هل يدرك أن القتل فقط سيجعل القبيلة الأخرى أكثر عنادًا وأكثر ظلمًا، وهو ما سيدخل كلا الطرفين في دائرة من العنف؟ هل يظن أن التفاوض المنطقي أفضل؟ وهل نستطيع أن نعرض عليه أن نكون وسطاء؟ إن استماع سام Sam لنا بأدب ومن ثم تجاهلنا، أو تعبيره عن رأيه بصورة مباشرة أكثر، قد يكون معتمدًا على تقديره لأهميتنا. أقل ما سيقوله احتمالًا هو: «حسنًا، نعم، إنكم على حق، لم أفكر بهذا؛ يجدر بكم أن تسرعوا إلى جيراننا حاملين اعتذاري، وسوف نبدأ بالتفاوض الآن مباشرة».

بالطبع، نحن لسنا أعضاء في مجموعة سام Sam الداخلية، ونحن بالتأكيد لسنا القادة الذين خططوا لحملة العنف التي يشترك بها سام Sam، لذلك دعونا نتخيل أننا بصورة ما نستطيع أن نقنع أحد هؤلاء القادة، السيد س، وهو مفكر ذو تأثير كبير يحبه سام Sam جدًّا، لنرى الأخطاء في طريقته، ونخبر سام Sam بها. هل سيتوب سام Sam عندها، ويبتعد عن العنف؟

ربما لا. الأفكار التي جعلت من سام قاتلًا هي أفكار أثيرية، مترسخة في تفكير شمولي، وكي يكون السيد س قد وضعها في المقام الأول يجب عليه أن يؤكد بساطتها وسلطتها المطلقة على الصورة التي انحدرت منه. لا يستطيع الآن أن يبدو وكأنه غير رأيه بالكامل دون أن يقوض من سلطته، مجبرًا سام Sam على الاختيار بين ترك معتقداته العزيزة التي وضع فيها كثيرًا من الجهد والطاقة، وبين تقرير أن السيد س قد ضعف، أو جن، أو أصبح خائنًا؛ قد يكون سام Sam استثمر كثيرًا في مبادئه بحيث لن يتخلى عنها بسبب تعقيد الحياة الواقعية، وتغيرها، وعدم كمالها، ولعل هذه هي الأسباب التي دفعته لتبني هذه المبادئ؛ أحد مسرات الأفكار الأثيرية هي قدرتها الظاهرة على التفسير، وعلى جعل كل شيء يبدو بسيطًا. يضع تقسيم العالم إلى قسمين واضحي الحدود مجموعتي (نحن) و(هم) عبئًا أقل بكثير على المصادر المعرفية للمرء من الإقرار بتفاصيل الاختلافات البشرية.

التحدي المباشر، سواء من أعضاء المجموعة الخارجية أو المجموعة الداخلية، قد لا يكون أفضل طريقة لنزع فتيل الأفكار الأثيرية. مثل القوة، يصطدم التحدي مباشرة بمشكلة المفاعلة، فلا بد من عمل خفي، على مدة طويلة من الزمن، وأحد الأساليب هو التعامل مع أفكار سام Sam الأثيرية على أنها مجموعة متداخلة من الشبكات المعرفية، تكتسب فيها مبادئ أساسية مركزية قوتها جزئيًّا من كونها مدعومة بمعتقدات أخرى، وقد يكون بالإمكان إضعاف هذا الدعم؛ فقد لا يكون سام اجتمع بعدد كبير من أعضاء القبيلة المعادية، وهنا قد يفيد نشر فكرة إنسانيتهم، وقد يكون من المفيد أيضًا إعادة توجيه عدوانيته إلى مخارج أقل إلحاحًا (في بريطانيا استخدام كرة القدم طريقة شائعة). قد تكون المبادرات التعليمية والسياسية قادرة على توسيع آفاقه المعرفية، مقدمةً بدائل لعالمه الحالي المحصور، ويمكن أن تُوفِّر له الدوافع لاتباع طريقة أكثر سلامًا في التصرف.

ليس من المحتمل أن تنجح طريقة التقطيع هذه وحدها، وكي تنجح تحتاج إلى المساعدة من مداخلة أخرى؛ هي محاولة خفض العواطف التي تعطي أفكار سام Sam الأثيرية قوتها، ولعل هذه أكثر الطرائق نبذًا؛ لأنها أقساها؛ فهي تتطلب مناظرة عامة مفتوحة لتحليل المشكلات (وهو ما يعني الاستماع فعلًا لسام وأعدائه)، متبوعة بتداخلات سياسية مفصلة، طويلة الأمد في كثير من الأحيان، ولا شك أنها باهظة التكاليف لمعالجة المواضيع. لا يستيقظ الناس صباح يوم ما ويفكرون في أنفسهم «حسنًا، سأكون اليوم متعصبًا متعطشًا للدماء»، بل يتبنون أفكارًا أثيرية لأنهم يدفعون إلى ذلك؛ لأن القوى الخارجة عن سيطرتهم تحرض الشدة والعواطف القوية لديهم، وهو ما يتطلب استجابة مبسطة. الأفكار متوفرة، مسوَّق لها، وتستغل وكأنها دواء شاف لجميع الأمراض (لو أننا نستطيع فقط أن ننال حريتنا، كل شيء سيكون حسنًا). يريد سام Sam حياة أفضل له ولأولاده، يتوق لذلك بشدة حتى إنه مستعد للقتال من أجل ذلك، تمامًا لأن حياته الحالية تعيسة.

تحسين حياته -لجم القبيلة المجاورة المعتدية، والإصرار على أن حقوق سام يجب أن تحترم، إجراء (وقبول نتائج) انتخابات محلية، ووجود إعلام حر، والإصلاح والحقوق، وزيادة حريات سام Sam الفردية عامة- تعزز احتمال أن يضعف قناعاته أكثر بكثير من محاولة التنمر عليه أو إقناعه بتركها.

ماذا عن الوقاية؟ إحدى طرائق تقليل تأثير الأفكار الأثيرية هي تقديم منافسة كافية، وإجراء مناظرات عامة على نطاق واسع؛ ذلك أن أحد المظاهر الشائعة لغسيل الدماغ؛ من

معسكرات تدريب الإرهابيين، إلى الطوائف الدينية، إلى العنف الأسري، ليست ببساطة أنها تغرس عددًا (قليلًا عادة) من المعتقدات التي يكون الإيمان بها قويًّا، وإنما تضييق الأفق الذي يرافق العملية. رأينا في الفصل الثامن أن توافر عدد أكبر من الشبكات المعرفية يميل إلى إضعاف أي شبكة معرفية منفردة. بتشجيع التشتيت ومناقشة الأفكار الجديدة؛ وبتوفير التعليم وحرية الوصول إلى الإعلام المستقل لكل مواطن؛ وبتعليم التاريخ، والتفكير الناقد، وعلم النفس الاجتماعي بطريقة ليست فقط سردًا للوقائع؛ وبتثقيف أنفسنا عن الثقافات الأخرى؛ وبتشجيع التهكم والتعليق والنقد؛ نستطيع -إضافة إلى طرائق عديدة أخرى- أن نقدم بيئة أغنى معرفيًّا تساعد على إضعاف جاذبية النماذج الشمولية.

كانت المناقشة حتى الآن ضمن إطار كيف يمكن أن يقاوم الأفراد الأفكار المؤذية وأولئك الذين يقفون وراءها، وقد أكدت أننا نستطيع القيام بأشياء كثيرة لحماية أنفسنا. القول بأن فكرة أو سلوكًا يتسمان بالعاطفية لا يعني أنه لا يمكن التحكم فيهما؛ إذا كانت المعرفة البشرية -كما حاججنا في الفصل التاسع- مخضبة بالعاطفة، فإن العكس أيضًا صحيح؛ نستطيع أن نغير كلًّا من دوافعنا وأهدافنا التي حُفِّزنا للسعي وراءها.

المقاومة على نطاق واسع: من الأفراد إلى الجماعات

الفردية لها حدود، فيمكن -على سبيل المثال- أن يتبنى الأفراد ويتمسكوا بمعتقدات سيئة بالنسبة إليهم، ولكنهم لا يستطيعون التخلص منها وحدهم؛ فالمعتقدات بالنسبة إليهم قيم إيجابية (شبكاتهم المعرفية مرتبطة بعواطف إيجابية، مثل الشعور بالصداقة أو الاطمئنان). بعبارة أخرى، لا يلزم أن تعكس العواطف المترافقة مع الاعتقاد مصالح حاملها طويلة الأمد، وقد ذكرنا مثالًا سابقًا في القمه العصبي؛ إذ يمكن أن تنظر (وبحالات أقل ينظر) المراهقة التي تعاني القمه العصبي لاعتقادها بالنحافة على أنها إيجابية؛ ينظر المراقبون إليها على أنها إيجابية خطرة. من ناحية أن المرضى بالقمه العصبي يموتون عادة في عمر أبكر، ويعانون مشكلات صحية شديدة، ويعيشون حياة مقيدة، كثيرًا ما تكون تعيسة، فإن المراقبين على حق، والمصابة بالقمه -أيًّا قالت- على خطأ؛ واعتقادها مضر لها. هذا جزء مما نقوله عندما نصف القمه العصبي على أنه مرض عقلي: لا يعود الناس المصابون بالقمه العصبي قادرين على متابعة مصالحهم الموضوعية الخاصة (الصحة، الحرية، السعادة، إلخ)؛ لأن الأهداف الذاتية

(النحافة والتحكم في الطعام) تهيمن بشدة على المشهد المعرفي بحيث إن هذه الأهداف تملك مفاتيح التفكير والسلوك.

بعبارة أخرى، كما رأينا في الفصل الرابع، وسم شخص بأنه مريض عقليًّا هو -جزئيًّا- حكم اجتماعي. عندما يصل الأمر إلى المحك، فإن نظرة الأغلبية الموضوعية لما هو جيد أو سيئ بالنسبة إلى الناس يهيمن على إحساس الفرد الذاتي بما هو جيد أو سيئ بالنسبة إليه أو إليها، ويتزامن هذان الحُكمان في معظم الأحيان (للمصالح الموضوعية والذاتية، على التوالي). نحن ننتخب السعادة، أو الحرية، أو إرضاء الذات، ونتوقع من جيراننا أن يقوموا بالشيء نفسه.

النسبية

«أضاف أن أسلافه السيثينيين كانوا الناس الصادقين الوحيدين الذين وجدوا أبدًا على الأرض، وصحيح أنهم قد أكلوا البشر، لكن ذلك لم يمنع أن يكون لأمتهم احترام عظيم».

فولتير Voltaire. كتاب **القدر**.

Voltaire, Zadig

لكن من يستطيع أن يقول إن رأي الأغلبية هو الصحيح؟ هذه مجادلة نسبية لأننا لا نستطيع أن نقارن الثقافات، لأن ما قد يكون جيدًا لبيتر Peter قد لا يكون جيدًا لبول، ولأنه لا يوجد مجتمع من باتريكات (جمع باتريك) يراقب ويستطيع القول إن بول Paul محق وبيتر Peter مخطئ. طبقت النسبية بصورة واسعة على الأخلاقية لتقويض فكرة السلطة الأخلاقية المطلقة (التي كثيرًا ما تكون دينية)، ووسَّع هذا أيضًا للادعاء بعدم التكافؤ الأخلاقي، هذا يعني إذا كانت الثقافة أ تحرق تقليديًّا الأطفال غير المرغوب فيهم مساء السبت، فإن اعتراض الثقافة ب سيعد ساريًا لأعضاء المجموعة ب ولكن ليس لأعضاء المجموعة أ، وفي المجتمع متعدد الثقافات حيث تعيش الثقافتان أ وب جنبًا إلى جنب يجب ألا ينتهك احتشام المجموعة ب تقاليد المجموعة أ[6]. من الواضح، إذا كانت النسبية صحيحة، أن هدف المصابة بالقمه العصبي بالنحافة صحيح تمامًا كما مثل أحقية رغبة جارتها لها بأن تبقى على قيد الحياة، لذلك لا يحق لهم أن يجبروها على وجهة نظرهم.

النسبية عقيدة تبدو لأول وهلة معقولة تمامًا: احترام آراء الأشخاص الآخرين هدف جدير تمامًا بالثناء، وفي الحقيقة أن بعض عواقبها خبيثة إلى درجة أن كل من سيكون غاسلًا للدماغ

يجب أن يتبناها بشغف. بتطبيقها على مسرح السياسة الدولية، فإنها كانت أساس إصرار الغرب على أنه يجب أن يقف جانبًا حين تخوض دول مثل كوريا الشمالية، وأوغندا، والكونغو، طرقها في إهلاك رعاياها، واضطهادهم، وتعذيبهم، وفي بعض الحالات غسيل دماغهم (فكر في الأطفال الجنود المروَّعين لجيش الرب للمقاومة في أوغندا، على سبيل المثال).

وبتطبيقها على الأفراد الذين يعانون القمه العصبي أو المشكلات العصبية الأخرى، تؤدي النسبية إلى موقف -كما وصفنا أعلاه- يجب فيه احترام الخيار الشخصي حتى عندما تكون فيه الخيارات المتخذة مؤذية بوضوح، لكن عمليًّا نميل إلى الشعور أن ذلك خطأ، وأن لدينا التزامًا أخلاقيًّا للتدخل، ونحن نحل هذه المعضلة فعليًّا باستثناء أفراد معينين من المطالبات التي ينادي بها النسبيون، بأن كل وجهة نظر لها مصداقيتها الخاصة. يكون ذلك بوسمهم بأنهم مرضى عقليون، وتجريدهم من جميع المسؤوليات الشخصية؛ إذا لم يستطيعوا اتخاذ قراراتهم الخاصة عندها يصبح مقبولًا أخلاقيًّا للآخرين أن يتحكموا فيهم. كما رأينا في الفصل الرابع، فإن هذه حجة مستعملة لتسويغ غسيل الدماغ: هذا المنطق مشبوه جدًّا: قد يقوم المريض عقليًّا بخيار سيئ في ناحية واحدة من حياته، لكن ذلك لا يعني أنه غير قادر على القيام بأي خيار، فضلًا عن أنه أيضًا خطر جدًّا؛ حيث إنه يشجع على المداخلات الجبرية للتعامل مع المرض العقلي، أخيرًا فهي تعزل المريض عقليًّا عن المجتمع، فتجعلهم مجموعة خارجية، بكل ما يتبع ذلك من العواقب السلبية، ليس أقلها على صحتهم العقلية والجسدية التي يتضمنها.

> **ليست العواقب البغيضة المشكلات الوحيدة مع حجج النسبيين كما يشير المنظِّر السياسي ستيفن لوكس** Steven Lukes**، فهناك أيضًا مزيد من الاعتراضات النظرية عليها، أحدها هي أنها تعتمد على فهم خطأ للثقافة وغير قابل للتطبيق على أرض الواقع. إن الثقافات ليست صناديق لا نوافذ لها، كما يقول الفيلسوف والمؤرخ البريطاني برلين؛ إنها دائمًا أنظمة مفتوحة وساحات للنزاع والتباين والتهجين والتلاقح البيني، وهي ساحات حدودها غامضة بكل تأكيد، وعلينا أن لا ننسى أبدًا أن التصور التبسيطي للتماسك الداخلي للثقافة وتمايزها عن أي ثقافة أخرى تروجه دائمًا جهات مصلحية.**
>
> لوكس، **المتحررون وآكلو لحوم البشر**، الصفحة 19–20.
> Lukes, Liberals and Cannibals, pp. 19–20

الأشخاص الذين يسعون لتمايز الثقافات لهم جدول أعمال للقيام بذلك، والأكثر من ذلك، النسبية «لا يمكنها أن تفسر ممارسة النقد الأخلاقي ضمن الثقافات ومن خلالها»[7]، وقول (جميع الثقافات متساوية) لا يحل مشكلات الصراع الأخلاقي بينها (إلا إذ أضاف المرء (لكن بعضها

أكثر تساويًا من الآخرين)). لا نزال أمام أعضاء المجتمع (ب)، البؤساء المجبرين على تحمل رائحة الرضع المشويين.

تستخف النسبية بأهمية الحقيقة البديهية بأن كلًّا من الثقافتين أ وب مصنوع من البشر، والبشر يمكن أن يتصرفوا بعدد غريب من الطرائق، لكن ذلك لا يعني أن قوى العقل الأساسية تختلف في تكساس عن طهران. قد يختلف الأفراد طبعًا في كيفية ترتيب أهدافهم الأساسية، لكن درجة التوافق على ما هي هذه الأهداف كبيرة على الأغلب. يدافع جون ميلتون John Milton في كتابه **مجمع الحكماء** عن حرية النشر، في حين يفضل توماس هوبز Thomas Hobbes الذي هزته الحرب الأهلية البريطانية، الأمن على الحرية في كتابه الملتف **وحش بحري في التوراة**، لكن كلًّا من الكاتبين متمسك بكل من هاتين القيمتين بشدة. لأدمغة وأجسام البشر تشابه عام في كل من التكوين والأداء، وهذا هو السبب في أننا نستطيع ترجمة اللغات أو (إذا أخذنا المثال المستعمل في الفصل التاسع) نفهم وصف الخوف لدى كل من إسخيلوس Aeschylus وبو Poe. يقدِّر البشر في جميع أنحاء العالم المتعة، والسعادة، والحرية، ويكرهون الألم، والأسى، والتحكم في الآخرين، ويعاملون الأقارب عادة أفضل من الغرباء، ويبتسمون لأصدقائهم، ويحزنون لموتاهم. والقتل، والتعذيب، والتشويه، محرمة عادة إلا في أحوال منضبطة بدقة (مثلًا في الطقوس)، ومعظم الضحايا ليسوا أعضاء في المجموعة الداخلية. مثل المحرمات، فإن الأهداف المجتمعية واسعة الانتشار مثل الحرية والسعادة قد تطورت على مدى قرون من عيش البشر معًا. تأقلمت الأفكار مع البيئة الاجتماعية -بما يفيد البشر- أو تلاشت؛ لذلك فالمتوقع منها أن تعكس بدقة جيدة ما يريده معظم الناس.

لاحظوا استعمالي للنعوت (معظم الناس)، (عادة)؛ ذلك لأن الفروق الفردية لها علاقة بالأمر، لأن الأشخاص المختلفين سيكون لديهم (لمحة عن القيم) (مثل ملتون Milton وهوبز Hobbes)، وحتى لو كانت ملامح شخصين متماثلة فإنه قد يوجد تضارب في القيم بينهما، كأن يكون كل منهما يحترم حقوق الحياة والملكية، لكن يجب أن يسرق واحد منهما من الآخر ليتمكن من العيش. على مستوى الأفراد فإن أفكار القيم مثل الحرية تستقى من أمثلة محددة: الحرية في إيجاد عمل، أو لزيارة الأصدقاء، أو لتغيير العالم بطرائق مختلفة، ومع الانتقال من الأفراد إلى المجموعات، من العائلات إلى الجيران إلى الأمم، تصبح الأفكار أكثر تجريدًا، أكثر أثيرية، تفقد النوعية والتعريف، لكنها يمكن أن تُرجع إلى التجارب الفردية (أحيانًا انفعالية جدًّا)، وهذه التجارب هي التي تعطي الأفكار الأثيرية قوتها على تجنيد الأتباع.

كما بحثنا في الفصل التاسع، الكائنات البشرية مخلوقات يقوِّمون الأشياء بطبعهم، وعندما يطلب من الفرد أن يقوِّم، جيدًا أو سيئًا، فكرة معينة (مثلًا العيش حرًّا من التعذيب، أو أن تُغَش) فإنه سيجد المهمة عادة غير مثيرة للإشكال، ولكن آلية تلخيص جميع الكائنات البشرية في مجموعة لتوليد فكرة أثيرية تتجاهل كثيرًا جدًّا من الفروق الشخصية بحيث تنشأ عواقب سيئة الحظ: لا يمكن ببساطة تقويم الأفكار الأثيرية بجيدة وسيئة. (التحكم في التفكير جيد إذا كنت تحاول تعليم طفل، وليست جيدة كثيرًا عندما تشعر بأنك أسوأ حالًا عندما تتلقى مكالمة من مندوب مبيعات). بدلًا من التورط في محاولات لا طائل منها لفرض نظام تقويمي على حالة أميبية لا شكل محدد لها من الأفكار الأثيرية، الخطة البديلة هي محاولة تقليل، ليس انتشار الأفكار الأثيرية نفسها، وإنما آثارها المؤذية. كيف نستطيع أن نحقق ذلك؟ باستعمال طرائق قد استعملها الإنسان على الدوام؛ طرائق السياسة.

التماسك الاجتماعي

«لا أحد جزيرة كاملة لذاته».

دون Donne، **العبادة في الحالات الطارئة**، (التأمل السادس عشر).
Donne, Devotions upon Emergent Occasions, 'XVII Meditation'

مهما كانت خلفيات البشر الثقافية، فإن الغالبية العظمى منهم تمضي سنين حياتها الأولى وهي تتعلم كيف تكون اجتماعية. ويتعلمون ما يجب أن يتوقعوه من الأشخاص الآخرين، وما الذي يجب أن يفعلوه، وما الذي يجب ألا يفعلوه، من يمكن أن يصنِّف بأنه (نحن) ومن بأنه (هم). أحد الآثار المهمة للحياة الاجتماعية هو بناء شبكات معرفية مثبِّطة ترتبط بسلوكات اجتماعية غير مقبولة. على سبيل المثال، كما يلاحظ وليام ميلر William Miller: «أي والدة تعرف أن الأطفال بعمر سنة أو سنتين لا يبدون أي اشمئزاز من الغائط وانبعاثات الجسم، ويمكنهم أن يبقوا منيعين بسعادة من الاشمئزاز الذي يتوق الأهل جدًّا لأن يغرسوه فيهم»[8]، يجادل ميلر Miller بأن «الشعور بالاشمئزاز إنساني، ويضفي طابعًا إنسانيًّا»؛ ومع ذلك «يحتاج الاشمئزاز حيزًا للحركة». والشيء نفسه يصح بالنسبة إلى المحرمات الاجتماعية، مثل القتل، والتعذيب والأشكال الشديدة الأخرى من الأذى.

تكون الشبكات المعرفية لدى معظم الأشخاص، المتشكلة في التعليم الاجتماعي الباكر، حواجز قوية لمنع القيام بأذى كبير[9]، إنها توفر عتبة لا يمكن تجاوزها إلا من قبل عواطف قوية

جدًّا. ولكن -كما رأينا في الفصل الثاني- يمكن أن تضعف عضوية مجموعة ما، خاصة مجموعة متماسكة بإحكام (مثل عائلة مانسون Manson)، القيود المثبِّطة وتعطي طاقة عاطفية إضافية لخرق الحواجز. تنقص استقلالية الأفراد الأعضاء مع زيادة عملها فيما يسميه ستانلي ميلغرام Stanley Milgram الحالة العاملية (انظر الفصل الرابع). لتقليل فرص حدوث ذلك، يجب تقوية الشبكات المعرفية المثبِّطة وإضعاف تماسك المجموعة. ومن الأساليب لذلك إنقاص التكلفة التي يتحملها عضو المجموعة عندما يتركها، والتي قد تراوح بين الإزعاج والنفي والتهديد بالقتل، بالإصرار على أن تعمل جميع المجموعات ضمن إطار قانوني يدعم حقوق الإنسان الفردية. طريقة أخرى هي التأكد أن أعضاء المجموعة هم أيضًا أعضاء في مجموعات أخرى؛ مثلًا في نظام التعليم العام أو في مكان عمل، وهو ما يعرضِّهم لوجهات نظر أخرى. أما أسوأ اختيار، كما اكتشفت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في جونزتاون Jonestown -ثم تعلمته مرة أخرى كاملًا من جديد في واكو، تكساس- فهو الإصرار على مواجهة المجموعة والتسلط عليها؛ إن تحويل نفسك لعدو واضح القوة طريقة ممتازة لدعم تماسك المجموعة.

المشكلة الثانية في مهاجمة المجموعات مباشرة هي خطر (تصريف الرضيع مع ماء حوض الحمَّام). ليست الأفكار الأثيرية جميعها سامة، فيمكنها أن تفيد المجتمع أحيانًا إذا استطاعت الحصول على اعتراف كاف، والمطلوب هو إنقاص العواقب المؤذية لأدنى حد مع إبقاء المجال لازدهار الأفكار المفيدة. تثير المحاججة في النسبية التي بحثناها سابقًا نقطة مهمة: كثيرًا ما تضطهد مجموعات من قبل مجموعات أخرى، لكن طريقة إنصاف هذه المظالم ليست بالتخلي عن حقوق معينة لمصلحة مجموعات أخرى (حماية حق المجموعة أ في شوي الأطفال من اعتراض المجموعة ب)؛ لأن ذلك يؤدي حتمًا إلى مزيد من الظلم على أعضاء كل من المجموعتين الداخلية والخارجية، إضافة إلى تكاثر المجموعات المتنافسة على المزايا. إذا سمح لك عضو من المجموعة أ بأن تنجو بفعلتك في القتل أو الإساءات الأخرى، فإن الذين ليسوا أعضاء في المجموعة سوف يريدون تشكيل مجموعات خاصة بهم، ولو كان فقط لحماية أنفسهم. في الوقت نفسه، حين يرى أعضاء المجموعة أ أن مزاياهم قد تآكلت، فإنهم سيتصرفون بطريقة دفاعية، فيزيدون من تماسك مجموعتهم الخاصة وينظرون إلى أعضاء المجموعات الأخرى بنظرة سلبية ونمطية، والأمر كذلك. تنافس مجموعات أكثر على موارد محدودة، ومع إغناء التفكير الشمولي أكثر فأكثر، فسيصبح عدم الثقة بين المجموعات أسوأ على الأغلب، وليس أحسن.

أظهر الفيلسـوف السياسـي برايان باري Brian Barry بلباقة، في انتقاده للتعددية الثقافية، فـي كتابـه **الثقافة والمساواة** Culture and Equality، أن تقديـم الحوافز لعضوية مجموعة (وهي حركـة لن تنقص بالطبع تماسـك المجموعة) ليسـت أفضـل طريقة لإيقاف الإسـاءات على نمط (ارتكاب المجموعة) الذي وصفناه في هذا الكتاب. بدلًا من ذلك يجب أن نسعى إلى أن إضعاف قبضـة التفكيـر الشـمولي؛ بتقوية الحقوق الأساسـية للأفـراد، بحيث لا يكـون لأي مجموعة مزايا خاصة[10]، ويجب أن نسـعى للتأكد بأن المجموعات تبقى خاضعة للقانون، سـواء كان الفرد عضوًا فـي المجموعـة أم لا، ويجـب أن نطالب أن يكون أي من أمثال هذه العقائد مفتوحًا للنقاش العام، وأن صوت كل مواطن له قيمته بالتساوي، وأن تكاليف ترك المجموعة ليست طائلة، وأنه لا يسمح لأي مجموعـة بـأن تفرض إرادتها علـى الذين لم يعطوا -ويبقـوا- موافقة عن علـم. أخيرًا، لأننا نعـرف أننـا نسـتطيع تغييـر أنفسـنا وتغييـر الآخريـن بتغييـر المعتقـدات، ولأننا نعـرف أن أفضل طريقـة لمهاجمـة الأفكار هي بأفكار أخرى، فإننا يجب أن نجري مناظرات عامة، ونعلِّم، ونحتفي بفضائـل الأفكار المضادة للشـمولية، إضافـة إلى التحذير من أولئك الذيـن يمكن إظهار أذاهم. يجـب أن نمجـد الحريـة وقـوة القدرة البشـرية، وفكرة أن البشـر هم غايات في أنفسـهم وليسـوا أبـدًا مجـرد وسـائل، وقيمـة تعلُّـم التفكيـر وتحليـل المعلومـات بكفـاءة، والتعقيـد الـذي لا يمكـن إنقاصـه ولا قمعـه لكل من التجربة البشـرية والأفـكار التي نقدِّرها. الحريـة Freedom، والقدرات Agency، غايات لا وسـائل Ends–not–means، والتفكير Thinking، والتعقيد Complexity. دعوني للتسـهيل، وللتذكيـر بتشـبيه العقـول بالماس الذي اسـتخدمته نقد النظريـة الديكارتيـة الثنائية (الجوهـر الروحـي السـرمدي والجوهـر المـادي (الفانـي)، أعيد ترتيـب الكلمـات بالانجليزية (Freedom , Agency ,Complexity, Ends, thinking) ذلـك طريقـة الأسـلوب FACET اختصـارًا. لمعرفة لماذا يفيدنا مثل هذا الأسلوب ضد رعب غسيل الدماغ، علينا أن نتذكر الدرس من الفصل الأول، بأن غسيل الدماغ يبدأ بالتفكير الشمولي.

تغيير سياساتنا

«للحرية ألف سحر تبديه،

والعبيد، مهما كانوا رضين، لا يعرفونها أبدًا».

ويليام كاوبر William Cowper، **حديث الطاولة**.

هـا نحن نعـود للمرة الأخيرة لما وضعه روبرت ليفتـون Robert Lifton من العناوين الثمانية التـي تميز المذاهب الفكرية الشـمولية: السـيطرة على المحيط، والتلاعـب الغيبي، والحاجة إلى النقـاء، وعقيـدة الاعتـراف، والعلم المقدس، وتحميل اللغـة، وأصالة العقيدة على الفرد، وسـلب الوجـود (انظـر الجـدول 1، صفحـة 35). دعونا ننظر فـي كل من هذه العناوين بـدوره لنرى كيف يمكن أن يساعدنا أسلوب FACET.

السيطرة على المحيط

يؤكد أسلوب FACET (مقاييس الاتجاهات وهي طريقة تستخدم في العلوم السلوكية لترتيب الملاحظـات وتصنيفها وتحليلها تجريبيًا) ليس فقط على أفضليـة حقوق الفرد على المجموعة، وإنمـا علـى القدرات الفردية، بتشـجيع تطوير التفكير الناقـد، وبالنظر إلى الثقافـات، مثلها مثل المجموعـات الأخـرى، علـى أنها غير متجانسـة ومثقبـة بدلًا مـن أن تكون مغلقة ومتماسـكة، فإن هذا الأسلوب يميل إلى إضعاف تماسك المجموعة بدلًا من تقويته، ومن ثم يقلل احتمال أن تكون المجموعة قادرة على ممارسـة السـيطرة على المحيط. تشـجيع النـاس على النظر إلى أنفسـهم علـى أنهـم قـادرون مع امتلاك الحريـة والقوة لتغيير حياتهـم يجعلهم أيضًا أكثـر احتمالًا لتحدي نمط التفكير الشمولي الذي لا ينظر إليهم على أنهم غايات، وإنما وسائل لتحقيق هدف، ولتحدي التعدي على حريتهم الشخصية.

التلاعب الغيبي

مرة أخرى، الشـعور المقوَّى بالحرية مفيد هنا، فمن الصعب على غاسـل الدماغ أن يحرض عواطف قوية عندما تسـتجيب الضحية المحتملة بارتكاس سريع بمفاعلة قوية، الأصعب حتى هو خداعهـم بالتفكيـر أن تلك العواطف عفوية، كما يتطلب التلاعب الغيبـي. مهارات التفكير النـاقد مفيدة أيضًا، حيث إنها تسمح للأشخاص أن يفهموا معتقداتهم الخاصة وحوافزهم فهمًا أفضل، ومـن ثـم يعرفـون أي منهـا معتقداتهـم، وأي منها مدفوعة من قبل غاسـل الدماغ. تذكروا تشـبيه الأدمغة بالحدائق في الفصل الثاني عشر، حيث تكون الحدائق المعتنى بها جيدًا أصعب لأن يعاد تصميمهـا. إذا كان الدمـاغ واضحًـا فيمـا يؤمن ولا يؤمـن به، فإن فرض أفـكار جديدة عليه يكون أكثر صعوبة.

الحاجة إلى النقاء

يحتفي أسلوب FACET بالتعقيد كفضيلة، وليس العكس، أو بأقل الأحوال يقبله كواقع في الطبيعة. النقاء ممتاز إذا كنت في مهنة بيع الألماس، لكن لا يوجد شيء اسمه كائن بشري نقي، أو مواطن مثالي، أو عضو مجموعة مثالي. الكائنات البشرية ببساطة أعقد جدًّا، ومتغيرة أكثر، من أن توضع -أو تبقى- في التصانيف المبسطة التي تبتكرها الشمولية، وهذا يجعل نظرة الحاجة إلى النقاء التي تنظر في تصانيف مثل المجموعة الداخلية والمجموعة الخارجية وكأن لها شيئًا من الحقيقة المطلقة، نظرة سخيفة. ليس لها مثل هذه القوة؛ إنها أفكار، وليست حقائق. إذًا، كيف يمكنها بأي شكل من الأشكال، كما يتطلب السعي للنقاء، أن تبرر هدر أي نفس بشرية؟ تتعطش الحاجة إلى النقاء إلى أفكار أثيرية بسيطة، في حين يذكرنا أسلوب FACET بمخاطر التبسيط المفرط.

عقيدة الاعتراف

بإقراره بتعقيد الإنسان يقر أسلوب FACET بعمق الشخصيات الفردية والفروق بينها، كما أنه يحتفي أيضًا بالحريات؛ ومن بينها حرية عدم كشف أفكارك كلها إذا كان ذلك خيارك. بتأكيد القدرات ومهارات التفكير الناقد، فإنه يحث المواطنين أيضًا على النظر من خلال كره الشمولية، وتحدي هذا الكره، للعقول الخاصة المستقلة الذي يقف وراء مبدأ عقيدة الاعتراف.

العلم المقدس

أسلوب FACET عملية، يوجهها مبدأ (المحاولة والخطأ)، مثل العلم، فإنه يفحص نفسه مقابل ما ينجح، مستعملًا الواقع لرسم شكل مبادئه على أساس حالة ثم حالة. التفكير الشمولي، على العكس من ذلك، يجعل الحقيقة خاضعة للمبدأ، ومبدأ حالة ثم حالة العملي خاضعًا للسلطة المطلقة، والفرد خاضعًا للمجموعة. النسبية، من حيث إنها تجادل بأن الفروق الثقافية تقرع تشابهات أساسية، تعتمد على أفكار شمولية مثل قوة المجموعة، وهذا يعني أنها تفترض افتراضًا، يتحداه ستيفن لوكس Steven Lukes، بأن (الثقافات) متجانسة كمجموعات متماسكة جدًّا، لكنها ليست كذلك، كما يتضح بمقارنتها بالمجموعات المتماسكة حقًّا مثل عائلة مانسون Manson.

الشموليون مولعون بالأشياء المطلقة، فالسلطة -على سبيل المثال- يجب أن تكون مطلقة إذا كنا نريدها صحيحة. يعد العثور على ثقافة واحدة تمارس وأد الأطفال قاتلًا للادعاء بأن هذه الممارسات

غير صحيحة أخلاقيًّا (في أي وقت، أي مكان)، لأن هذا الادعاء يعتمد على شيء من السلطة الأخلاقية التي يفترض أنها تسري على كامل البشرية (القتل خطأ لأن إلهنا قال ذلك، أو التربية، أو المنطق، أو أحيانًا حتى العلم). من دون وجود بعض من أمثال هذه السلطة الأخلاقية، كما يحاجج المفكرون الشموليون، فإنه لا يوجد لدينا سبب لأن نفضل ادعاء ثقافيًّا على آخر، لكن هل هذا صحيح؟

ليس بالضرورة. إذا لم يعد بالإمكان الاعتماد على السلطة المطلقة، فقد نكون قادرين على استبدال نقائها شبه القانوني بمداخلة إحصائية أكثر فوضوية وأكثر عملية؛ يمكن أن تكون التنبؤات الإحصائية مفيدة مثل التنبؤات المشتقة من المعادلات أو أكثر منها، والنماذج الرياضية مدعومة بقوة المنطق؛ والحقائق التي تجزم بها صحيحة في جميع الأحوال حالما تقبل بديهياتها الأساسية، ولكن في الحالات المعقدة لا يستطيعون وضع جميع المتغيرات بصورة كافية في نموذج. القانون (الإحصائي) الذي يقول إن التدخين المزمن يصيب الأشخاص بالمرض صحيح من حيث إن الأشخاص الذين يدخنون لسنوات أكثر احتمالًا بكثير للإصابة بمرض من غير المدخنين. ملاحظة أن هناك أشخاصًا يدخنون لسنوات دون أن يمرضوا لا يعني أن التدخين لا يسبب الأمراض، إنه يعني فقط أن قابلية الإصابة بالمرض أقل في بعض الأفراد المحظوظين.

كما في الرياضيات، كذلك الأمر في الأخلاق؛ تبدو بعض المبادئ الأخلاقية متمسَّكًا بها بصورة واسعة جدًّا في المجتمعات البشرية. حقيقة أن بعض المجانين يستمتعون بموجة من القتل المتسلسل، لا يقدح بمصداقية الملاحظة بأن الناس لا يوافقون عادة على القتل أو سفاح الأقارب. بعبارة أخرى، يجب ألا نطالب بنقاوة مطلقة، ودقة في كل حالة منفردة، كي تكون الملاحظة مفيدة. تشابه حاجات الإنسان الأساسية يعني أن ما ينجح مع معظمنا سوف ينجح غالبًا معك (والعكس بالعكس)، ولذلك يمكن تقويم المعتقدات (مهما كانت ثقافة منشئها) حسب كونها تؤذي أو لا تؤذي إما الأفراد الذين يؤمنون بها أو الأشخاص الآخرين؛ وهذا عمليًّا ما نميل إلى القيام به.

تحميل اللغة

يساعد أسلوب المظهر بتقديره للتفكير النقدي المواطنين على أن يصبحوا أكثر إدراكًا لكيفية تلاعب فنيي التأثير باللغة، بتأكيد الحرية والقدرات، فإنه يعطيهم الثقة لتحدي التفسيرات المبسطة والأفكار الشمولية، ومن ثم يجعل السيطرة على التفكير أكثر صعوبة.

أصالة العقيدة على الفرد

يشجع أسلوب المظهر المواطنين على ممارسة ما يحبون، ما دام أنهم يتقيدون بقيود معينة، ويحدد هذه القيود إلى أقل قدر ممكن، هادفًا إلى تقليص كرة سيطرة الدولة (أو المجموعات الأخرى)، وتعظيم حريات الفرد (وليس الجماعة). لا يدعي أسلوب المظهر أننا جميعًا شيء واحد؛ بل إنه يقول فقط إننا يجب أن نعامل بالطريقة نفسها (مواطنين) بصرف النظر عن أي من المجموعات يصدف أننا ننتمي إليها؛ لذلك فإنه يعارض بشدة أي عقيدة تدعي أن أفكارًا معينة أو المجموعات التي تحمل هذه الأفكار يجب أن يكون لها أفضلية على الكائنات البشرية الرافضة لها. غسيل الدماغ الذي يفرض الأفكار سواء بالقوة، أو التقنية، أو التسلل، غير مرضي عنه أبدًا في أسلوب FACET.

بالإصرار على أن الأفكار تأخذ مرتبة ثانية بعد التجربة البشرية الفردية فإن أسلوب FACET يجعل الأفكار خاضعة للواقع، ولذلك فإنه يعكس الخطة الفردية الأكثر احتمالًا لأن تحقق بقاء الدماغ: المراقبة الدقيقة للبيئة، وتقبلها، متوازنة بشبكة معرفية معرَّفة جيدًا لكنها مرنة. يشبه التفكير الشمولي الذي يعكس الترتيب ليمجد الأفكار الأثيرية، الدماغ العاطل الذي يكون تجاهله المتزايد للعالم الخارجي قاتلًا في كثير من الأحيان. حتى في الغرب المرفه، المفترض أنه موطن الديموقراطية التحررية، رأينا مجتمعات كاملة تصبح مهوَّسة بالتفكير الشمولي، بنتائج كارثية. نعترف أن أسلوب FACET، لأنه معقد وعملي، أصعب تطبيقًا من النماذج الشمولية، لكنه حتى الآن أفضل بالنسبة إلينا، على الأقل لأنه يعكس بدقة أكثر الحال الذي العالم عليه[11].

سلب الوجود

كما ذكرت سابقًا، الأشخاص الذين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أحرار أقل احتمالًا لأن يخضعوا لمداخلة سلطوية. إذا لم يكونوا مقتنعين بفكرة أن الغاية تبرر الوسيلة، وإذا كان لديهم المهارات لكشف العيوب في المحاجحات الشمولية، فإنهم أقل احتمالًا لأن يتخلوا عن السلطة بالمقام الأول. حتى أكثر الحكام الشموليين قساوة يحتاج إلى الدعم الشعبي لتحقيق مستوى التحكم الذي يؤدي إلى الإعدامات الجماعية. لن يزيل أسلوب FACET الدعم بالكامل، لكنه سوف يضعفه.

لِمَ يُتبنَّى أسلوب FACET؟

ركز بحثنا لأسلوب FACET حتى الآن على الأفكار، ولكن الأفكار -كما أظهر هذا الكتاب مرارًا وتكرارًا- تتطلب حافزًا لتعطيها القوة. الأفكار الأثيرية، أقوى الأفكار على الإطلاق، تغذيها عواطف قوية إلى درجة أنها يمكن أن تحفز شخصًا ما على القتل. أين يقع أسلوب FACET إذًا على معايير التحفيز؟ الجواب هو أنه ناجح هنا أيضًا؛ إنه يعطي الأفراد حريات أكثر، ومن ثم كما جادل الاقتصادي أمارتيا سين (Amartya sen) يدعم تطورهم وجودة حياتهم، وهو ما يجعلهم أكثر سعادة[12]. إنه يعزز القدرات البشرية، وهو ما يجعل المواطنين يشعرون بأنهم يتحكمون في أحوالهم. ويقبل التعقيد على أنه فرصة طبيعية بدلًا من النظر إليه على أنه تهديد للعقائد المفرطة التبسيط. ويعامل الأشخاص على أنهم غايات، وليسوا مجرد وسائل، ومن ثم يزيد من شعورهم بقيمة الذات، وما يأتي معه من زيادة القدرة على التوقف والتفكير بطريقة أكثر مرحًا، وتسامحًا، ويعطيهم شعورًا بالتمكين. أخيرًا فإن أسلوب FACET هو حل أفضل على المدى الطويل للكوكب المتزايد الازدحام من الأفكار الشمولية، التي تعتمد في كثير من الأحيان على القتل، وغسيل الدماغ، أو على الإساءة للناس. قد يكون للإساءة مزايا للذين يفكرون على المدى القصير من ذوي العقول ضعيفة الصيانة، لكن هذه المزايا تتضاءل مع الوقت في عالم يجعل فيه الاتصال المشترك المتزايد العدالة، والتدخل الدولي، أو (على المستوى الشخصي) الأقارب الراغبين بالانتقام، أصعب فأصعب تجنبًا.

تحقيق الأمر: تطبيق أسلوب FACET

يتطلب تطبيق أسلوب FACET نقاشًا مفتوحًا، ثقة شعبية بالمختصين والسلطات، وآليات -مثل صحافة وقضاء حرين ومستقلين- للحفاظ على الثقة، وتعزيز الانفتاح، ولجم الانجراف نحو السلطة الشمولية المغرية جدًّا لكثير من الحكومات؛ إنه يتطلب تعليمًا أفضل وتعزيزًا قويًّا للقوانين الداعمة للحريات الفردية. يتطلب منا قبول أن الكائنات البشرية لها عقول من طين، وليس من ألماس، وأننا راسخون في الوجود، عالقون في تشابكات معقدة من السببية، لكننا لسنا عالقين إلى درجة أننا عاجزون بالكليَّة، يجب أن نقبل ما يعلِّمه لنا علم السيطرة على التفكير؛ من أن البشر يمكنهم أن يتغيروا -ويستطيعون تغيير أنفسهم- إذا أعطوا الحوافز، والأفكار، والفرص الصحيحة. أحيانًا تكون المهمة صعبة إلى درجة المستحيل، لكن ذلك لا يعني أن نهدم فكرة أننا

قابلـون للإصـلاح، وينطبق ذلك علـى المجموعات الخارجيـة إضافة إلى المجموعـات الداخلية، للمرضى النفسيين والمفجرين الانتحاريين، إضافة إلى الطبقات المتوسطة المحترمة.

لا شـيء من هذا ثوري؛ أسـلوب FACET متأصل جيدًا في تقاليد الديموقراطيات المتحررة؛ لا يوجد شيء جديد فيها من تلك الناحية، لكن الديموقراطيات المتحررة طرحت جانبًا قبل اليوم بالدول الشمولية، ويمكن أن تطرح مرة أخرى. لن تكون أبدًا التقاليد التي تؤكد الحرية والتسامح آمنة جدًّا في مكانها بحيث يسمح لنا ذلك أن نعد رفاهيتها مضمونة. حتى في أفضل حالاتها، فإن الديموقراطيات المتحررة قاصرة كثيرًا عما يتطلبه أسلوب FACET.

يقول السـاخرون إن هذا (فطيرة في السـماء)، ويقول النسبيون إننا نفرض معتقداتنا على الأشـخاص الآخريـن، ويقـول جنـاح اليمين إنها سـخافة تحررية ضعيفة. مع أننـي أحترم فولتير Voltaire فـي حديثـه عـن حريـة الـرأي، فـلا بد أنه قـد أصبـح واضحًـا الآن أن هذه الاسـتجابات مضللة[13]. يمكن أن يسمى أسلوب FACET أي شيء سوى (فطيرة في السماء)، إنه يبتعد باستحياء عـن التفكيـر الشـمولي، بنظرتـه المتعالية قياس واحد يناسـب الجميـع، ويتجه إلى إقـرار التنوع البشري الذي يعدل شكل الأفكار لتلائم الوضع. الأكثر من ذلك، لدينا دليل واضح أن زيادة حرية البشر تزيد جودة الحياة (لقراءة مفصلة عن هذه الحجة، اقرأ كتاب أمارتيا سين Amartya Sen، التطوير كحرية، أو قارن مسرات العيش في التسعينيات بين بريطانيا وبوسنيا، أو النرويج وكوريا الشـمالية). يبدو القول بأن النـاس لا يريدون الحقوق والمسـرات التي نتمتع بها في الغرب مهينًا وأنانيًّا في آن واحد. مع كوني متفائلة ساذجة وتحررية ضعيفة، أعتقد أننا إما أوجدنا مقدمًا حلًّا قابلًا للتطبيق لبعض أسـوأ مشـكلات العالم، أو نسـتطيع أن نوجد. هل لدينا الشـجاعة السياسية لتطبيـق هـذه الأجوبة؟ ذلـك أمر آخر، لكني أعتقد مع ذلك أنه سـتجرب حلول سـتنجح في نهاية المطـاف، ليس نجاحًا مثاليًّا بالطبع، إذ إن الكمال يتجاوزنـا، ولكن بما يكفي لقلب التوازن بعيدًا عن الإرهاب بجميع أشـكاله. يعود عدد الأشـخاص الذين سـيموتون بالعنف، قبل أن نجد الإرادة لفرض تلك الحلول، جزئيًّا إلينا.

كمـا أن تطبيـق أسـلوب FACET لا يعنـي فرض خبث الرأسـمالية الاسـتهلاكية الغربية على جماهيـر غيـر راغبة بها. ومعاملة الكائنات البشـرية على أنهم غايات بحـد ذاتهم يتضمن إظهار الاحتـرام لهـم، وإعطاءهـم مزيـدًا من الحرية، وعدم الإصـرار على أن يفعلوا مـا نفعله. ولا تعنـي حقـوق الإنسـان الهامبرغـر الأمريكي. يتوافـق أسـلوب FACET أيضًا مع تفسـيرات معينة لمعظم

ديانـات العالم، إذا كان ذلك موقفك. يجب إعادة تفسـير التفسـيرات غيـر المتوافقة، أو إزالتها. كون الشـيء دينًا، أو ثقافة، أو فكرة، لا يكفي وحده لتسـويغ السلوك الضغين. هناك أفكار تستحق أن تمحى مباشـرة من الذخيرة البشـرية، وكلما كان ذلك أسـرع كان أفضل. عندما يصر دين، أو ثقافـة، أو تقليـد (ومنهـا التقاليد العلمية) علـى حقه في الإيذاء، وعلى حقه فـي معاملة الكائنات البشـرية على أنها وسـائل لغاية مذهبية فكرية ما، فإن المسـؤولية تقع علينا –بأقل الأحوال– بأن نأتـي بمسـوغ أكثـر قبولًا من العقيـدة، أو السـلطة الدينية، أو التقاليـد[14]. كثيرًا ما اُسـتعملت هذه الكلمات كموقفات للحوار، أفكار مبتذلة لإنهاء التفكير (حسب تعبير روبرت ليفتون)؛ لكن سلطتها للقضاء على جميع الحجج تصح فقط إذا لم نتجرأ على مسـاءلتها. إذا كانت هنـاك أفكار سـيئة للبشـر، فدعوها تظهر على الملأ، وتناقش علنًا، ويسـخر منها حتى تمحى، مهما كان مصدرها. تغيير المناخ السياسـي للتقليل من حوافز التفكير بأفكار سـيئة– التغطرس الذي يأتي من حتمية (مقدسة)؛ الظلم الذي يجعل المؤمنين يائسين– ليس سهلًا أبدًا، لكنه ليس مستحيلًا.

أمـا عـن اتهامـه بأنـه سـخافة تحرريـة ضعيفـة، فـإن أسـلوب FACET أبعـد بكثيـر عـن أن يكـون كذلـك. العقيـدة التـي تسـتبدل بالسـلطة التصرف العملـي، لها بعض المضاميـن القوية. بدايـة، تتوقـع مـن مواطنيهـا النضـج، ومـن ثـم تتطلـب منهـم مقـدارًا معينًـا مـن الجهـد، إنهـا تتحـدى المصالـح المُلتمَسـة والمكتسـبة؛ إنهـا تتطلـب أن تخضـع الاعتبـارات الثقافيـة والدينية للحقوق الفردية.

الحفاظ على أجهزة مسـاءلة مثل وسـائل الإعلام المتنوعة والمسـتقلة، يعني أن الحكومات يمكـن أن تـودع الشـكر، فضلًا عن التملق. دورهـا هو أن ترتكب الأخطاء ثم توبَّخ بسـببها من قبل جماهيـر قـد تكون هي نفسـها كسـولة، وغير مباليـة، وغير منظمـة بصورة ما، لكنهـا لا تدع هذه الصفات تحول بينها وبين الانتقاد. إذا كان لأسلوب FACET أن يغني عروضه العالمية، فإن الدول التـي تتبنـاه يجـب أن تـوازن أيضًا بين الاهتمامـات المحلية وسياسـة خارجية ثابتـة، تقود العالم بإعطاء مثال لا بالإملاء.

الخلاصة والاستنتاجات

«بعض الأوضاع تعطي قوة كبيرة، وتجعل كثيرًا من الناس يتصرفون بالطريقة نفسها، ولكن حتى في أقسى الظروف، فإن ماهية الأشخاص، شخصياتهم وقيمهم (وفي حالة المجموعات،

ثقافتهم)، تؤثر في استجابتهم. بعض الناس لن يدخل إلى منزل يحترق لإنقاذ حياة، لكن بعضهم يدخل».

إرفين ستوب Ervin Staub، **علم نفس الخير والشر.**
Ervin Staub, The Psychology of Good and Evil

يتصرف الناس بدرجة كبيرة بالصورة التي يُتوقع منهم أن يتصرفوا عليها، الدولة التي تتوقع من مواطنيها أن يكونوا أفرادًا متطورين سياسيًّا، وناضجين إلى حد معقول، ومسؤولين اجتماعيًّا، لديها فرصة أكبر لرعاية هؤلاء المواطنين أكثر من الدول التي تعامل شعبها على أنهم عبيد أو أطفال. التعليم، والإصلاحات الاقتصادية والسياسية، ونشر المعلومات بسخاء عن الناس الآخرين، يمكن أن يساعد على تكوين مواطنين يرون بسرور أن حريتهم مضمونة، وهم مستعدون للتشارك في مزاياهم على نطاق واسع. ليست المداخلات التحررية كأسلوب FACET خالية من المشكلات، لكنها أفضل من الأنظمة المنافسة في تشجيع الجريان الحر للمعلومات، وتعزيز جودة الحياة، وتقليل الآثار المؤذية للأفكار الأثيرية المتمسَّك بها بقوة -وهي المشكلة التي يعنى بها هذا الكتاب أساسًا- بحيث تصبح الإساءات مثل غسيل الدماغ أقل حصولًا؛ لقد أخفق التفكير الشمولي مرة تلو مرة في جني المكافآت التي يعد بها أتباعه. محاولة إنقاص جاذبية الأفكار الشمولية تعني توجيه الناس بعيدًا عن الأفكار المضرة مثل حلم التحكم في العقل، والتأكيد بدلًا من ذلك على الحريات الشخصية، وتحدي أولئك الذين يُغرَون بتحقيق الحلم.

ليس هناك جديد في أي من هذا. لدينا أو نستطيع القول بسهولة اكتسبنا المهارات، والمعرفة -على الأقل- أكثر مشكلاتنا الاجتماعية إلحاحًا حتى ضمن الموارد الحالية المحدودة (خاصة في العالم النامي). بوجود التحفيز الكافي، والإرادة السياسية الكافية، نستطيع أن نحسن -وإن لم يكن لدرجة الكمال- مجتمعاتنا الخاصة. نستطيع بالتأكيد على الأقل أن نخلص العالم من فظائع مثل معسكرات السجون الكورية، أو جونزتاون Jonestown. إحدى الخطوات تجاه ذلك الهدف هو فهم المعتقدات التي نؤمن ونتمسك بها: قدرتها، أخطارها، وكيف نستطيع أن نبدأ بتغييرها.

كان أحد أهدافي في هذا الكتاب هو محاولة إقناعكم بأن غسيل الدماغ هو أكثر من مجرد رفات لشعور بالاضطهاد حدث في الخمسينيات، ومصطلح للإساءة نتراشق به عندما نشعر بأننا مهددون بمعتقدات الآخرين. تستمر الطوائف الدينية الملتزمة بشدة، والإرهابيون المتشددون،

ببلائنا، والتفكير بهم بعبارات نمطية يزيد فقط في المشكلة. لا يمكن أن ننبذهم ببساطة ككائنات فضائية؛ لأن الأذى الذي يمكن أن يقوموا به، كما أظهرت أحداث 11/9، لا يتناسب مطلقًا مع حجمهم. للسبب نفسه يجب أن نفهم أن غسيل الدماغ ليس مزحة ولا لغزًا. كان يمكن في السابق فعلًا إقناع الأشخاص الملتزمين بالقانون بملاحقة حلم التحكم بالعقل، حتى إلى درجة ارتكاب الانتحار والقتل. لكن -كما حاولت أن أُظهِر- إدراكنا المتزايد لكيفية عمل الدماغ، وكيف يتفاعل مع الأدمغة الأخرى، يمكن أن يساعدنا على فهم كيف يمكن أن يحقق غسيل الدماغ مثل هذه النتائج المريعة. مع الفهم تأتي القوة، مهما كانت غير مثالية: القدرة على تغيير عقولنا، وأفعالنا، وسياساتنا بحيث تصبح الأفكار الأثيرية أقل جاذبية وأقل فتكًا. لدينا القوة، ويجب أن نستفيد منها إلى أقصى حد.

ملاحظات

الفصل الأول: ولادة كلمة

1. Hutchinson, *Order and Disorder*, p. 3.

2. Lifton, *Thought Reform and the Psychology of Totalism*, p. 15.

3. عندما أصبح غسيل الدماغ أكثر شيوعًا أصبح أكاديميًّا سيئ السمعة، ربما -جزئيًّا- بسبب أصوله المفعمة بالسياسة، لكن في أوائل الخمسينيات كان علماء النفس الأكاديميون والأطباء النفسيون لا يزالون مستعدين لربط أنفسهم ببحوث غسيل الدماغ، وهو ما نتج منه هبَّة من الدراسات على سجناء الحرب لدى الكوريين. أحد أكثر المشهورين كان روبرت ليفتون Robert Lifton، أستاذ الطب النفسي في جامعة ييل، وهو باحث لديه خبرة واسعة في الشرق الأقصى، وكان قد درس سابقًا التأثيرات النفسية اللاحقة للقنبلة النووية في هيروشيما Hiroshima. يصف ليفتون Lifton بالتفصيل الآليات التاريخية، والثقافية، والنفسية التي تكمن وراء البرنامج الصيني الشيوعي الرسم لإعادة لإصلاح التفكير.

4. المثال على الاستخدام الرخو يأتي من صحيفة الغارديان: «في تلك الأيام التي عززها القرنبيط القاتم كان من الرائج في بعض المواضع أن لاعب كرة القدم الحديث لا يمكنه أن يعد نفسه بعد الآن الشيء الحقيقي إلى أن يغسل دماغه بالغذائيات، حتى إنه كان يذهب إلى سريره وهو يفكر بالخضار» (تيلر Taylor، فرغسون Ferguson لديه دافع، لكن ليس لديه شراب). هل كان لاعب الكرة يعذب على مدى أيام ويتعرض للتهديد، والانتقاد الشديد، وعدم الثقة، وانعدام الخصوصية، مثل بعض الأشخاص الذين أجرى ليفتون Lifton مقابلات معهم؟ بالتأكيد لا.

5. في النهاية، بالتأكيد، أصبح هذا الخوف مرادفًا لإدراكنا لتعرضنا نحن أنفسنا للموت؛ يحرمنا الموت كلًّا من حريتنا وكياننا. أخذت نظرية إدارة الخوف هذه الحجة إلى أبعد من ذلك، شارحة ظواهر كثيرة في علم النفس الاجتماعي، مثل احترام الذات والإيمان الديني، من حيث استجابة الإنسان للخوف والموت. يمكن قراءة مقدمة مفصلة للنظرية في:

Greenberg and colleagues, 'Terror management theory of self-esteem and cultural worldviews'.

6. Arthur Miller's *The Crucible* سبر كلاسيكي لوسواس الاضطهاد المضاد للشيوعية في الولايات المتحدة، منظور من خلال عدسات سالم.

7. أصبح عمل بافلوف مشهورًا في الغرب عندما نشر في عام 1941م كتابه Lectures on Conditioned Reflexes الذي ركز الجزء الثاني منه *Conditioned Reflexes and Psy_chiatry* في عمله في الفعل الشرطي.

8. Schein and colleagues, *Coercive Persuasion*. والكتاب الأكثر إثارة هو كتاب Joost Meerloo's 'menticide' لكنه لم يستعمل على نطاق واسع.

9. أصبح فيلم عام 1962م، المرشح المنشوري، بطولة فرانك سيناترا Frank Sinatra المبني على رواية عام 1959م لروبرت كودن Robert Condon، فلمًا كلاسيكيًّا عن الطوائف الدينية. وهو يروي قصة جندي أمريكي اختطف وغسل دماغه من قبل الشيوعيين الصينيين، وأصبح قاتلًا مأجورًا مبرمجًا لخدمتهم.

10. تم التنبؤ بالرابطة الحديثة بين (غسيل الدماغ) و(الآلة) عام 1790م من قبل James Tilly Matthews، وهو تاجر تورط في الأحداث السياسية العنيفة التي هزت فرنسا، وروَّعت بريطانيا في ذلك الوقت. نشبت الحرب بين البلدين عقب الثورة الفرنسية وإعدام الملك الفرنسي لويس Louis السادس عشر عام 1793م. كان ماثيوز Matthews مقتنعًا بوجود عصابة من الإرهابيين هدفها تأجيج الحرب وإطالة أمدها، وكانت طرقهم تعتمد على المنول الهوائي، وهي آلة تأثير تستطيع تركيز أشعتها القوية على دماغ الضحية ومن ثم تتحكم في أفكاره. سجن ماثيوز- الذي كان سيشخص مريضًا بالفصام لو كان ذلك التشخيص موجودًا آنذاك- في مشفى بيثلم، المشهور باسم بيدلام، عقب محاولته الخائبة لتحذير السياسيين من الخطر. خلال وجوده في بيثلم، وصف أعضاء العصابة، وآلية عمل المنول الهوائي نفسه، بتفاصيل مدهشة. كتاب Jay, *The Air Loom Gang*، وصف رائع لأفكار ماثيوز Matthews، تورطه في الثورة الفرنسية، وكيف عومل من قبل الطب النفسي الموجود في عصره.

11. يمكن أن يطمس هذا في الأول، المظهر السياسي، على سبيل المثال عندما يرفض أن يأخذ بالحسبان التفسيرات المتوافرة، ومثال على ذلك المفاعلة المعاصرة للولايات المتحدة وإسرائيل لسبر حجج أن الخوف، والفقر، والاضطهاد قد ساهمت مساهمة كبيرة جدًّا في النشاط العنيف للانتفاضة الفلسطينية.

12. يعتمد وصفي لحالة باتي هيرست Patty Hearst كثيرًا على الوصف المقدم في Scheflin and Opton, *The Mind Manipulators*.

13. خفف الحكم عليها عام 1979م من قبل الرئيس جيمي كارتر Jimmy Carter، وعفا عنها بيل كلينتون Bill Clinton أخيرًا في نهاية رئاسته.

14. أنا أدين لكتاب Diarmaid MacCulloch's *Thomas Cranmer* في وصف الأيام الأخيرة لكرنمر Cranmer.

15. Hunter, *Brain-washing in Red China,* p. 192.

16. خزع الفص الجبهي نوع من الجراحة النفسية التي تقص الاتصالات بين القسم الأمامي من الدماغ وبقية أجزائه. كانت شائعة في الأربعينيات والخمسينيات لكنها لا تستعمل بصورة شائعة اليوم (لقراءة تاريخ الجراحة النفسية، انظر: Pressman, *Last Resort*. تكون النتيجة أحيانًا تفكيرًا متصلبًا قصير الأمد جدًّا، وعدم القدرة على التركيز، أعراضًا مثل التي أظهرها فينياس غاغ Phineas Gage، وهو مهندس من القرن التاسع عشر نجا بأعجوبة عندما دخل عمود معدني في رأسه. كان فينياس غيغ Phineas Gage عاقلًا ويعمل بجد قبل الحادث؛ بعده أصبح شخصًا مختلفًا؛ مهملًا وغير مكترث، غير قادر على البقاء في وظيفة. نوقشت قصة فينياس غيغ Phineas Gage، مع موازياتها ومضامينها الحديثة من قبل عالم الأعصاب أنطونيو داماسيو في كتابه **خطأ ديكارت** Descartes.

17. Lifton, *Thought Reform*, pp. 420-35.

18. تميل كلمة المذهب الفكري -مثل كلمة لعبة- إلى أن تكون سهلة الاستعمال لكن صعبة التعريف. تعرف هانا Hannah أرندت المذاهب الفكرية بأنها «مذاهب يمكنها بإرضاء الملتزمين بها أن تشرح كل شيء وكل حادثة باستنتاجها من فرضية واحدة». (Arendt, *Totalitarianism*, p. 166). يتحدث إرفين ستوب عن «نظرة في الحجج الاجتماعية المثالية» (Staub, *The Psychology of Good and Evil*, p. 17). لمقدمة عن موضوع المذاهب الفكرية انظر Freeden, *Ideology*:

19. Goldhagen, *Hitler's Willing Executioners*.

20. See Lifton, *Thought Reform*, pp. 207-21.

21. Orwell, *Nineteen Eighty-Four*, p. 171.

22. Hunter, *Brain-washing in Red China*, p. 132.

الفصل الثاني: الرب أم المجموعة؟

1. المبدأ شيء، والممارسة شيء آخر. انظر: King, 'Secularism in France' لمناقشة حول سياسة الحكومة الفرنسية التي تشير أيضًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. لمزيد عن دور الدين، خاصة الأصولية البروتستانتية، في السياسات الأمريكية انظر: Lieven, 'Demon in the cellar' (في عدد مجلة *Prospect* نفسه الذي كتب فيه كنغ King)؛ أيضًا: Armstrong, *The Battle for God*.

2. لمناقشة عن مفهوم (التنافس) انظر: Freeden, *Ideology*، خاصة الصفحات 4-52، الإبهام بالطبع ليس محصورًا بالأفكار الأثيرية، لكنه «واضح خاصة في اللغة السياسية لأن السياسة بالتعريف تهتم بتضارب

المصالح» (Edelman, *The Politics of Misinformation*, p. 80).. يحذر موراي إيدلمان من أن «المعنى طيَّار أكثر مما نفترضه عادة، وكذلك تصوراتنا، ومعتقداتنا، وافتراضاتنا عن العالم الذي نعيش فيه» (صفحة 82).

3. يأتي مصطلح (تعميمات براقة) من كتيب تحليل الدعاية الذي نشر عام 1938م، من قبل مؤسسة التحليل الدعائي التي أسست لإخبار العامة بتقنيات الدعاية وكيف يقاومونها. يمكن الحصول على مزيد من المعلومات من موقع المنظمة: http://www.propagandacritic.com

4. لمقدمة عن التفكير الفلسفي في الغايات والوسائل انظر: Raphael, Moral Philosophy, especially pp. 55_66.

5. هناك أدب أكاديمي غزير عن الطوائف الدينية وجدال مطول عن مدى مشابهة الطوائف الدينية للأديان. باستعمال المداخلة التطورية (انظر: Stevens and Price, *Prophets, Cults and Madness*)، يمكن أن يفكر المرء في الطوائف الدينية بأنها تظهر أنماطًا من التطور تشبه تطور الأنواع، مع النمو السكاني، بالاستقرار (أو الركود)، وعدم الاستقرار، والانحدار، أو الانقراض الكارثي، حسب الظروف. مثل كثير من الأنواع فإن كثيرًا من الطوائف الدينية تثبت أنها غير قادرة على التلاؤم بصورة كافية مع بيئتها وتختفي، وأحيانًا يكون الانقراض تدريجيًّا، كما في الطائفة من الكائنات الفضائية التي وصفها ليون فستنغر وزملاؤه (انظر الملاحظة 11 أدناه). يكون الانقراض أحيانًا، كما في جونزتاون Jonestown، كارثيًا. في حين أظهرت ديانات العالم تأقلمًا كافيًا للبقاء حتى الآن، على الرغم من أنه يمكن الجدال بأن المنافسة من الأفكار البديلة أعظم على الإطلاق اليوم مما كان عليه في السابق. كانت المداخلات القانونية للطوائف الدينية تميل إلى افتراض التماثل مع الجماعات الدينية والأديان؛ في أوروبا مثلًا معظم الدول لا تعطي الطوائف الدينية حالة قانونية خاصة، لكنها تسمح بها تحت ظل القوانين التي تضمن حرية الضمير والأديان.

6. قادة الطوائف الدينية من النساء ليست غير معروفة، لكن معظمهم من الرجال. لمناقشة لماذا الحال كذلك انظر: Stevens and Price, *Prophets, Cults and Madness*

7. تبنى مجلس الاجتماع البرلماني الأوربي توصية عن كيفية تعامل الدول الأوربية الأعضاء مع الجماعات الدينية في 22 حزيران 1999م. يمكن قراءة البيان الصحفي المعين على موقع <http://press.coe.int/cp/99/351a(99).htm>. أخذ الاقتباس من Cultic Studies Journal, *The Council of Europe's Report on Sects and New Religious Movements. 7. Case_law on sects*, available from <http://www.csj.org> (under *Publications*).

8. لمناقشة عميقة لوسواس الاضطهاد في السياسة، ومن ضمن ذلك سياسات الطوائف الدينية واستجابة المجتمعات لها، انظر: Robins and Post, *Political Paranoia*.

9. على سبيل المثال، Ungerleider and Wellisch, 'Coercive persuasion (brainwashing), religious cults, and deprogramming'.

10. Naipaul, *Black and White*, pp. 226-7.

11. عندما تخفق التنبؤات لعالم علم النفس الاجتماعي ليون فستنغر Leon Festinger، هو الآن التحليل الأسطوري لماذا يحصل في الطوائف الدينية عندما يحدد يوم لحصول شيء ويمر دون حصوله. بعد صدمة الخيبة، يستجيب أعضاء الطائفة الدينية بموجة من التبشير تتناقض مع سريتهم وانعزالهم السابقين، لكن على المدى الطويل يتلاشى هذا الحماس الجديد وتتفكك الطائفة بالتدريج.

12. لدراسة تاريخية معمقة لمدى الخطورة التي يمكن أن يكون عليها هذا التفكير المستقبلي المنحرف انظر: Weitz، A Century of Genocide الذي يشرح أن الطوباوية كانت عاملًا مهمًّا في بعض أكثر حركات المذاهب الفكرية تدميرًا في القرن العشرين، ومن ضمنها النازية، والستالينية، والخمير الحمر.

13. Arendt, *Totalitarianism*, p. 44.

14. لكتاب مرجعي شامل عن علم النفس الاجتماعي انظر: Hewstone and Stroebe, *Introduction to Social Psychology*.

15. أخذت الاقتباسات من: Wittgenstein, *Philosophical Investigations*, S. 258.

16. Wittgenstein, *Philosophical Investigations*, S. 246 ff.

17. (نموذج المجموعة الدنيا) التي يوزع فيها المشاركون على مجموعات محددة عشوائيًّا لا يعرفون عنها شيئًا (مثلًا، من ينتمي إليها أيضًا)، كانت قد وصفت في مقالة مهمة: 'Social categorization and intergroup behaviour'، by Henri Tajfel and colleagues in 1971. لمزيد عن كم يمكن أن تكون معايير المجموعة سطحية، انظر: Brown, 'Inter-group relations'; Pratkanis and Aronson, *Age of Propaganda*, pp. 216-23.

18. Aronson and Linder, 'Gain and loss of esteem as determinants of interpersonal attractiveness'.

19. Parks and Sanna, *Group Performance and Interaction*, pp. 11-12.

20. Zajonc, 'Attitudinal effects of mere exposure'.

21. Hatfield and colleagues, *Emotional Contagion*.

22. لمزيد من المعلومات انظر: See Cialdini, Influence, pp. 74-80 for more details.

23. يمكن قراءة تأملات ديكارت Descartes ذات النفوذ القوي عن النفس في كتابه كتابات فلسفية مختارة، خاصة في: *Discourse on the Method* and the *Meditations on First Philosophy*.

24. انظر مثلًا: Galanter, *Cults*, p. 15.

25. انظر: Parks and Sanna, *Group Performance and Interaction*, p. 15.

26. يقدم مخترع هذا المصلح، آرفنغ جانيز Irving Janis مناقشة مفصلة لتفكير المجموعة في: Janis, *Groupthink*

27. يصف كتاب Galanter, *Cults*، في الفصل الثاني بعض الأدلة للفوائد الصحية التي يمكن أن تقدمها الطوائف الدينية.

28. اقتبست كلمات أوبنهايمر في: Giovannitti and Freed, *The Decision to Drop the Bomb*, p. 197.

29. في الكاثوليكية -على سبيل المثال- قارن اختصار الوصايا العشر (Exodus 20:3–17; 297 كلمة بالإنكليزية) أو تصريح الكنيسة العقائدي عام 325 م، عقيدة نيس (229 كلمة) للأب بولس مثل (سر الحكمة الإلهية) (8000 كلمة) التي تناقش مظهرًا صغيرًا فقط من الحياة المسيحية: العلاقة بين الزواج، الكنيسة، والدولة.

30. Dunbar, *Grooming, Gossip and the Evolution of Language*, p. 76.

31. على سبيل المثال لموقف (الملحد المتعصب) من الدين، انظر: *The Selfish Gene*, pp. 330–1; also Dawkins, *A Devil's Chaplain*.

32. يبقى دور المسيحية في المذهب الفكري النازي موضوع نقاش. يجادل دانييل غولدهاغن Daniel Goldhagen بأن محارق اليهود، التي قتلت نحو ستة ملايين يهودي، كانت مدفوعة بمذهب فكري كانت أنبياؤه «معادية للمسيحية بعمق وكانوا سيحطمون المسيحية بعد الحرب» (Goldhagen, *Hitler's Willing Executioners*, pp. 447–8). لوجهة نظر معاكسة انظر: Steigmann-Gall, *The Holy Reich*.

33. Weitz, *A Century of Genocide* discusses the ideas behind some of these ideologies.

الفصل الثالث: قوة الإقناع

1. لمعلومات عن تاريخ وتقنيات الإعلان، انظر كتاب ستيفن فوكس Stephen Fox's عن تاريخ الإعلان الأمريكي، *The Mirror Makers*، وكتاب أنتوني براتكانيس Anthony Pratkanis، وإيليوت آرونسون Elliot Aronson's، أو كتاب روبرت شيالديني Robert Cialdini التأثير.

2. التغطية الإعلامية المكثفة لحوادث معينة تزيد من عدد الحوادث المقلدة في الأيام التي تتلو خروجها في الإعلام. انظر كتاب أنتوني براتكانيس وآرونسون *Age of Propaganda*، الصفحة 8ـ147، حيث يناقش الكاتبان عمل ديفيد فيليبس David Phillips الذي يظهر أن معدلات القتل تزداد مباشرة بعد مباريات الملاكمة التي تبث وطنيًّا، ويتوقع فيليب أنه «خلال أربعة أيام من مباراة البطولة التالية التي ستبث وطنيًّا، سوف يقتل 11 مواطنًا أمريكيًّا بريئًا بدم بارد لم يكونوا ليموتوا لولا ذلك» (براتكانيس Pratkanis وآرونسون Aronson، Age of Propaganda، الصفحة 147). انظر أيضًا: 'Effect of 11 September 2001 on suicide and homicide in England and Wales'.

3. كتاب جون رونسون Jon Ronson's، هم، الذي يفصل ملاحظاته عن أنواع من الإرهابيين، فيه مجموعة مختارة رائعة من نظريات المؤامرة للاختيار منها.

4. المصدر من: Juvenal's *Satire X* (line 81)، probably written between AD 100 and AD 128.

5. Milton, *Paradise Lost*, 1:263.

6. يجب أن أشير إلى أنه حيث إن بعض منظري المؤامرة يستطيعون تصديق أن العالم في الواقع يدار من قبل ضَبٍّ طوله سبعة أقدام، فقد يكون ارتكاس (بعيد المنال) هو ارتكاس خيالي الضيق. مع ذلك، حتى ضِباب ديفيد David آيك تصطاد في جماعات، من ثم فهي قاصرة عن أن تكون عقلًا مسيطرًا واحدًا. انظر كتاب جون رونسون Jon Ronson، هم، لمزيد من التفصيل.

7. وصف دوكينز الميميات أول مرة في كتابه، **المورثة الأنانية**. يمكن قراءة وصف أعم في: Susan Blackmore's *The Meme Machine*

8. Aaronovitch, 'Sins of the mother'.

9. هل التحكم المركزي في التعليم أمر جيد أو سيئ، وهل سيؤدي إعطاء حرية أكبر للتطور إلى نظام تعليمي أفضل، مواضيع خارج نطاق هذا الكتاب.

10. شعار (توفير الفرص، وإطلاق الإمكانات، وتحقيق الامتياز) أخذ من موقع قسم التعليم والمهارات (</http://www.dfes.gov.uk>) في كانون الثاني 2004م.

11. يعبر كتاب Foucault's book *Discipline and Punish* والمقالة التي تعد مقالة استدلال 'Ideology and ide_ological state apparatuses'، وجهتي نظريهما بالترتيب.

12. أُخذت عبارة «خدمته حرية مثالية» من:
the 1662 version of *The Book of Common Prayer* ('The Second Collect, for Peace', p. 80), instituted in the sixteenth century by Thomas Cranmer.

13. أخـذت الاقتباسـات من المناهج الوطنيـة في المملكة المتحدة، المتوافرة على موقـع http://www. nc.uk. net/index.html.

14. Glover, *Humanity*, p. 363.

الفصل الرابع: أمل تحقيق الشفاء

1. Foucault, *Discipline and Punish*, p. 228.

2. لينج Laing وزاز Szasz، هما نفسهما طبيبان، كانا ذوَي تأثير هائل في الحركة (المضادة للطب النفسي) (جزء من تمرد أوسع ترافق في الولايات المتحدة الأمريكية في الستينيات) حاججا بأن الطب النفسي في المصحات يتعلق بالشفاء والمعالجة أقل من تعلقه بالمطابقة والإكراه الاجتماعي.

3. Laing, *The Politics of Experience*, p. 95.

4. *Macbeth*, 5:3, lines 43_4، هـذا تشـبيه آخـر لتغييـر الدمـاغ: الأفـكار مثـل الـورم. لقطـع الدماغ وليس لغسـيل الدماغ. الاقتباسات من مسـرحيات شكسبير مأخوذة كلها من Wells and Taylor, *The Oxford Shakespeare*).

5. لكل من المعسكرين مثاله المفضل الخاص من ماضي الطب النفسي؛ فيستشهد داعمو النموذج الأحيائي/ الطبـي بحـالات أدى فيهـا تلـف الدماغ إلى أعراض نفسـية، كما في متلازمة كورسـاكوف- التي يؤدي فيها عـوز فيتامـين الثيامـين إلـى آفات عصبية يمكن كشـفها، وضعف عقلي، ومشـكلات كبـيرة في الذاكرة، أو الهذيـان النـاتج مـن إنتانات مثل التهاب السـحايا. يستشـهد مؤيدو القـوة الاجتماعيـة بتصويت الجمعية الأمريكية للأطباء النفسـيين التي لم تعد ترى المثلية مرضًا، ويلاحظون أيضًا بتشـكك الزيادة الانفجارية في الأعراض في الأعـداد المتلاحقـة، وهو ما يعد إنجيل أطباء النفـس الأمريكيين، الـذي هو بذاته موضع خـلاف، *Diagnostic and Statistical Manual* (*DSM*)، مـن أول طبعة له عام 1952م إلى الطبعة الحالية in 2000، *DSM_IV_TR* (fourth edition, text revision). انظر أيضًا الكتاب الأسـهل منالًا *Synopsis of Psychiatry*, by Kaplan and Sadock.

6. يصنف الدليل التشـخيصي والإحصائي، الطبعة الرابعة، الأمراض العقلية في سـتة عشـر صنفًا أساسيًّا، بمـا في ذلـك «حـالات أخـرى قد تكون محـلًا لتركيـز الاهتمام السـريري» (مثلًا الحـالات التي تنشـأ من استعمال الأدوية) و(رموز إضافية) (رطانة (للا أعلم)).

7. Hare, *Without Conscience*, p. 25.

8. انظر: Bentall, *Madness Explained*.

9. تاريخ الطب النفسي مليء بمعالجات مثل المعالجة بالأنسولين والجراحة النفسية التي سببت أذيات شديدة للمرضى. في مراجعته المرجعية لتقنيات التداخل المباشر على الدماغ، يحذر عالم علم وظائف الأعضاء Eliot Valenstein من النهم لحل سريع للمشكلات الاجتماعية مثل ارتفاع معدلات الجريمة الذي يجعل «من الممكن لبعض صانعي القرار أن يُغووا إلى الاعتقاد بأن المداخلات الجراحية أو الكيميائية الحيوية يمكن أن تسهم كثيرًا في حل المشكلات». (Valenstein, *Brain Control*, p. 353).

10. ربما لم نتمكن حتى الآن من اكتشاف دواء لكل مرض، لكن المعالجة بالأدوية هي البرنامج المختار لكثير من الحالات، من الفصام إلى الحياء. ولكن، ليس كل شيء مثاليًّا في جنة عدن الدوائية. يحذر روبن دوز Robin Dawes من أننا «ببساطة لا نعرف الآثار بعيدة الأمد لكثير من الأدوية، على الرغم من أننا نعرف أن بعضها قد يكون كارثيًّا». (Dawes, *House of Cards*, p. 292)، ديفيد هيلي David Healy، وهو يكتب عن تاريخ الأدوية المضادة للنفاس والقلق لأن «من مجموعة من البراهين التي تشير إلى أن نجاح ونسبة المنطقية العلاجية لكل طبيب من الأطباء قبل خمسين عامًا كانت أعلى من النسب والمعدلات لكثير من الممارسات الحالية» (Healy, *The Creation of Psychopharmacology*, p. 4). وتوماس زاز Thomas Szasz الحاد بطبيعته، يحاجج بأن إيماننا بالعلاجات المعاصرة للأعراض غير المرغوب بها كان موجودًا في كل الأجيال حتى التاريخ المدروس وقبله، وربما ليس هو الآن أقوى مما كان عليه في السابق.

11. في مجال العلاج النفسي، يعد كتاب روبن دوز Robin Dawes **بيت من البطاقات** هدمًا شاملًا لفكرة العلاج النفسي المبني على (الحكم السريري) يستحق الأجر الذي يتقاضاه من يقدمه. يجادل دوز Dawes ضد (الميل المعاصر) للإلصاق النفسي (لجميع المشكلات بجعلها كلها مرتبطة بالشعور)، سواء نظر إلى الشعور من عدسة فرويدية على أنه دافع بلا وعي، أو نظر إليه باستعمال مصطلح دوز Dawes الازدرائي (علم نفس العصر الجديد)، كمحدد مهم للوجود الغربي الحديث على نمط كن-كل شيء، وأنهِ- كل-شيء، أي احترام الذات. يجادل بأن هذه المحاولة لتصنيف كل مظهر من مظاهر الحياة البشرية في أحضان الصحة العقلية لم تشجع فحسب حصول درجة من الثقة في المهنيين التي هي ليست مسوغة بالدليل العلمي، وإنما أدت «أيضًا إلى هوس خبيث وغير مبرر: هوس باحترام الذات، مع التحقيق السريع للأهداف المرغوبة، وبشعور غير واقعي بالأمان والتفوق على الأشخاص الآخرين. هذا الهوس لا يحمل عواقب محمودة للمجتمع» (الصفحة 228). ليس لدينا حق في سعادة مستمرة، ليس كل شيء نريده متوافر في هذه اللحظة، ليس كل مشكلة لها حل بحبوب أو معالجة، ويجب ألا نحاول أن نحوِّل مسؤولياتنا إلى مكان آخر (أهل مسيئون، مدرسة سيئة، عالم غير ملائم)، في حين نلوم الأشخاص الآخرين على سلوكهم. يجب ألا نفعل ذلك، لكننا نفعله.

12. لخص أدورنو Adorno وزملاؤه بحوثهم عن السلطوية في: *The Authoritarian Personality*. لنقد مختصر وواضح يتساءل ماذا يقيس مقياس الفاشية بالضبط. انظر: Krosnick, 'Maximizing questionnaire quality'.

13. Rokeach, *The Open and Closed Mind*.
14. Brown, 'Intergroup relations', p. 484.
15. Milgram, *Obedience to Authority*, p. 48.
16. Hobbes, *Leviathan*, p. 89.

الفصل الخامس: أنا أقترح، أنت تقنع، وهو يغسل الدماغ

1. Canetti, *Crowds and Power*, p. 547.
2. Bourke, *An Intimate History of Killing*, p. 158.
3. Buchan, *Mr Standfast*, p. 209.
4. Baumeister, *Evil*, p. 268.
5. المقتبسات التي تتحدث عن أرخميدس Archimedes مأخوذة من:

Hamilton, *Metaphysics*, Lecture xiv, quoted in James, *The Principles of Psychology*, p. 396.

6. Wegner, *The Illusion of Conscious Will*, p. 159.
7. Davenport-Hines, *The Pursuit of Oblivion*, p. 397.
8. Foucault, *Discipline and Punish*, p. 227.
9. Brehm and Brehm, *Psychological Reactance*.
10. Mill, 'The Subjection of Women', p. 160.
11. لمقدمة عن الموضوع المتعلق بالعنف الأسري، انظر في موقع التحالف الوطني ضد العنف الأسري، <http://www.ncadv.org/problem/what.htm>.
12. لقد استخدمت ضمير المؤنث لضحايا الحالات (التقليدية) للعنف الخطير تجاه البالغين. بالطبع يمكن أن يكون الرجال ضحايا أيضًا؛ وتظهر البحوث أن كلًّا من الجنسين يمكن أن يكون مسيئًا عنيفًا، لكن المرأة هي التي تتعرض للعنف أكثر في المنزل: يظهر مسح الحكومة البريطانية للجرائم عامي 2001/2002م

أن 44% من الجرائم تجاه المرأة كانت منزلية. الرقم بالنسبي للرجال 7%. الدراسة موجودة على موقع وزارة الداخلي <Office website: <http://www.homeoffice.gov.uk/rds/pdfs2/hosb702.pdf> (see especially pp. 56_7).

13. حسب الجمعية الوطنية لمنع العنف ضد الأطفال، تظهر أرقام حكومية لم تنشر عام 2001/2002م أن الأهل كانوا هم المشتبه الأول في 78 في المئة من قتل الأطفال. لم يتغير عدد الأطفال الذين يقتلون كل يوم كثيرًا على مدى العقود الثلاثة الماضية، وهي المرحلة التي وجد فيها علم الإحصاء المقارن. انظر: *Child Killings in England and Wales*.، وهي ورقة إعلامية للجمعية موجودة على موقع:<http://www.nspcc.org.uk/inform/Statistics/ childkillingsenglandwales.doc>.

14. يمكن قراءة مقدمة في اختصاصات متعددة على العنف في: Manfred Steger and Nancy Lind's edited collection *Violence and its Alternatives*.لقراءة ما يتعلق بعلم النفس الاجتماعي عن الموضوع كتاب روي باومستر Roy Baumeister الشر سهل القراءة. كتاب *Wickedness*، Mary Midgley، مقدمة مفيدة أيضًا. يقدم كتاب *Violence*، نظرة مركزة على العنف السياسي، في حين يمكن قراءة منظور زمني لجرائم العنف في Adrian Raine's *The Psychopathology of Crime* and Jonathan Pincus' *Base Instincts*.

15. التقرير الكامل على موقع الأمم المتحدة: <http://193.194.138.190/pdf/report.pdf>.

16. لنشرة صحفية لمنظمة العفو الدولية انظر: http://web.amnesty.org/web/ar2002.nsf/media/media?OpenDocument

17. Hinkle and Wolff, 'Communist interrogation and indoctrination of "Enemies of the States" ', p. 134.

18. Conroy, *Unspeakable Acts, Ordinary People*, p. 26.

19. Staub, 'The psychology and culture of torture and torturers', p. 51.

الفصل السادس: غسيل الدماغ والتأثير

1. Frieze and Boneva, 'Power motivation and motivation to help others', p. 76. The reference cited is McClelland, *Power*.

2. Hume, *Enquiries Concerning Human Understanding and Concerning the Principles of Morals*, p. 33.

3. Dennett, *Freedom Evolves*, pp. 71-2.

4. Herring, *Criminal Law*, p. 40.

الفصل السابع: أدمغتنا المتغيرة باستمرار

1. هـذه العبارة تبسيطية. كما يشير جون هورغان John Horgan في نقده لعلم الأعصاب، في كتابه العقل غير المكتشف *Undiscovered Mind*، عد الدماغ كرسي الدماغي من قبل مفكرين سابقين، وكذلك فإن فكرة أنه لا يوجد شيء خارج حدود العلم ليست أصيلة في حركة التنوير، ولكن تطور كل من الفكرتين كان أكبر بكثير بعد حركة التنوير.

2. أخذ اسم التشابكات العصبية بالإنكليزية Synapses من اليونانية (sun: مع، معًا) و(hapsis: وصل).

3. أيضًا مثل الدول، من يتحكم في حدود الخلية ليس مثاليًّا؛ فيمكن في بعض الأحيان أن تتجاوز المواد غير المرغوب فيها الغشاء الشحمي الفوسفوري، ولكن على عكس المهاجرين غير الشرعيين، يمكن أن يسيطر الفيروس فعلًا على الخلية، مختطفًا كامل الخلية لإنتاج مزيد من الفيروسات، وأحيانًا قتل ليس فقط الخلية بل كامل العضوية.

4. كثيرًا ما تستخدم مصطلحات (المنطقة، المناطق)، (الناحية، النواحي)، و(الفص، الفصوص)، بالمصطلح (القشرة). في الفصل العاشر على سبيل المثال، سوف أناقش القشرة الأمام جبهية، الفصين الجبهيين، والمناطق أمام الجبهي؛ تشير جميع المصطلحات إلى المنطقة نفسها من الدماغ.

5. يصف في. إس. راماشاندران V.S. Ramachandran الذي أجرى بحوثا تنور البصيرة عن الأطراف الشبح موجوداته في: Blakeslee and Ramachandran، Phantoms in the Brain.

6. Locke, *An Essay Concerning Human Understanding*, p. 148.

7. Conway, *Principles*, pp. xvi-xvi.

8. مثال من القرن التاسع عشر حالة فينياس غيغ Phineas Gage التي نوقشت في الفصل الرابع، الذي تغيرت شخصيته بالكامل عقب حادث صناعي. المثال الأحدث هو حالة القمه العصبي، الذي يعد عادة مرضًا (نفسيًّا)، لكنه ينتج أحيانًا من تلف (جسدي) للدماغ. انظر: (Trummer and colleagues, 'Right hemispheric frontal lesions as a cause for anorexia nervosa").

9. إذا كنت تجد زيت السمك مقززًا فهناك إضافات غذائية بدلًا عنه.

10. لنظرة أكاديمية للأدب العلمي عن الشحوم الفوسفورية، والحموض الدسمة، ووظائف الدماغ، ومعالجة اضطرابات الدماغ، انظر: Peet, Glen, and Horrobin, *Phospholipid Spectrum Disorders in Psychiatry and Neurology*. لوصف أقل تقنية انظر: Taylor, 'A recipe for healthy brain growth'.

11. Koletzko and colleagues, 'Long chain polyunsaturated fatty acids (LC-PUFA) and perinatal development' يراجع فوائد الشحوم غير المشبعة في التطور المبكر في العمر.

12. Gesch and colleagues, 'Influence of supplementary vitamins, minerals and essential fatty acids on the antisocial behaviour of young adult prisoners. Randomised, placebo-controlled trial.' استعمل هذا البحث معايير البحث نفسها التي تستعمل لاختبار أدوية طبية جديدة: وزع المشاركون لأخذ إما إضافات غذائية أو حبوب وهمية. لم يكن المشاركون ولا الباحثون الذين يقدمون الحبوب يعرفون أيًّا من الحبوب قد أعطي، وفقط المساهمون الذين أخذوا حبوب الإضافات الحقيقية أظهروا انخفاضًا في سلوك العنف. للأسف، لم يكن لهذا الإظهار القوي لكيفية تأثير الحمية في السلوك أي تأثير في سياسة الحكومة حتى الآن، ولا يزال هناك عدد كبير من الناس يتشبثون ببقايا الثنائية الديكارتية، فكرة أن تأثير الطعام في الجسم يتوقف عند حدود الجمجمة.

13. لمزيد عن صرع الفص الصدغي انظر: Eve LaPlante's book *Seized*.

14. لوصف باكر لنظرية بيرسنجر Persinger، انظر: 'Religious and mystical experiences as artifacts of temporal lobe function'. للعمل على تأثيرات الحقول المغناطيسية، انظر: Cook and Persinger, 'Geophysical variables and behavior: XCII'; also De Sano and Persinger, 'Geophysical variables and behavior: XXXIX'.

15. يتحدث القديس بولس، في رسالة إلى الرومان، عن عقيدته. يقول بولس إن الذين لم يكونوا محظوظين بالاختيار «كانوا عميانًا (حسب ما هو مكتوب، فإن الله قد أعطاهم روح الهجوع، عيونًا يجب ألا ترى، وآذانًا يجب ألا تسمع) حتى هذا اليوم» (الرومان 11: 7-8). ربما تنتج روح الهجوع من فص صدغي جامد.

16. مثال على هذا Joseph LeDoux's book *Synaptic Self*.

17. المقالة الأصلية عام 1991م كتبها Markus and Kitayama، وأعيد طبعها في المجموعة التي حررت في Roy Baumeister's edited collection *The Self in Social Psychology* والتي أخذت منها المقتبسات التي أعطيت هنا.

18. Baumeister, 'How the self became a problem'. تغيير الأفكار عن الذات من العصور الوسطى إلى العصر الحديث قد يكون جزئيًّا بسبب التغيرات في تقنيات المعلومات (مثلًا انتشار الطباعة)، وممارسة

القـراءة (مـن القراءة الجماعية بصوت عال إلى القراءة المنفـردة الصامتة). لمزيد من التفاصيل انظر: .Deibert, *Parchment, Printing, and Hypermedia*, especially pp. 98-101

19. Schacter, *The Seven Sins of Memory*, p. 4.

20. La Rochefoucauld, *Maxims*, 89.

21. *As You Like It*: 2:7, line 142.

22. درس تغيير الذات المرسومة كثيرًا من قبل منظري الإدراك الاجتماعي، عامة بعلاقتها مع الصور النمطية. لمقدمة عن الإدراك الاجتماعي، انظر: .social cognition, see Fiedler and Bless, 'Social cognition'

23. Bleuler, *Dementia Praecox or The Group of Schizophrenias*, p. 26.

الفصل الثامن: الشبكات وعوالم جديدة

1. Festinger, *A Theory Of Cognitive Dissonance*.

2. وجد استطلاع للرأي العام أجري في حزيران عام 2003م أن 47 في المئة من الأمريكيين أبدوا مواقف غير ثابتة تجاه هذه المواضيع، أي إنهم دعموا أحدها دون الآخر.

3. Bodenhausen, 'Stereotypes as judgmental heuristics. Evidence of circadian variations in discrimination'.

4. لبحث موضح بصور جميلة لتأثير الماء في الكوكب، انظر: .Zevenhuizen, *Erosion and Weathering*

5. Pratkanis and Aronson, *Age of Propaganda*, p. 33: 'Ads that contain the words *new*, *quick*, *easy*, *improved*, *now*, *suddenly*, *amazing*, and *introducing* sell more products.'

6. لمراجعـة لنظريـات الأفعال المشـتركة بـين المهـاد والقشـرة، انظـر: Hillenbrand and van Hemmen, .'Adaptation in the corticothalamic loop'

7. Sacks, 'A matter of identity'.

8. أخذ الاقتباس من .Dretske, 'Belief'، p. 83

9. الاقتباس مـن Tertullian's *De Carne Christi* (Of the Body of Christ) كثـيرًا مـا يفسـر خطـأ (أنـا أعتقـد (بـدلًا مـن (من المؤكـد)) لأنه مـن المسـتحيل). لمزيد مـن المعلومـات انظـر: Evans, *Tertullian's* .*Treatise on the Incarnation*; the quotation itself is on pp. 18-19

10. نقد مفصل لادعاء دوكنز وغيره Bowker, *Is God a Virus?*

11. Russell, *Religion and Science*, p. 7.

12. نشرت قصة جيمس القصيرة الغامضة جدًّا أول مرة عام 1898م. لمقدمة عن علم النفس للفنون البصرية، انظر: Gombrich, *Art and Illusion*.

13. ذكرت قصة تجربة الأسقف باركر مع إصلاح التفكير في كتاب ليفتون إصلاح التفكير، الصفحات 134-45. أظهر الأسقف باركر إيمانًا قويًّا من عمر باكر. على الرغم من إعطاء بعض التنازلات خلال مدة سجنه التي استمرت ثلاث سنوات، فإنه تمسك بقوة بالموضوع الرئيس لمبادئه الدينية، حيث كتب اعترافًا ولكنه رفض إدخال اتهامات غير صحيحة عن الكنسية الكاثوليكية

14. Yeats, 'The Second Coming', lines 7-8.

15. يبحث ديفيد أبيرباخ قيادة ونستون تشرشل النافذة في: *Charisma in Politics, Religion and the Media*

الفصل التاسع: جُرف بعيدًا

1. نشر إيكمان وزملاؤه معارفهم في مقالة: 'Pan-cultural elements in facial displays of emotion'، in the journal *Science* in 1969.

2. James, *The Principles of Psychology*, p. 1067.

3. لمزيد من المناقشة عما يأتي أولًا، العواطف أم التعابير، انظر: Damasio, *Looking for Spinoza*, especially pp. 65-73.

4. نشر هذا التقرير في: Wong and Root, 'Dynamic variations in affective priming'.

5. لمزيد من المعلومات عن الإدراك العاطفي ودور العواطف في التواصل الاجتماعي، انظر: Hatfield and colleagues, *Emotional Contagion*; Hewstone and Stroebe, *Introduction to Social Psychology*; and Ekman, *Emotions Revealed*.

6. Bain, *The Emotions and the Will*, p. 20.

7. Mormède and colleagues, 'Molecular genetic approaches to investigate individual variations in behavioral and neuroendocrine stress responses'.

8. لمراجعة للأدب العلمي عن النماذج الحيوانية لاستجابات الشدة للقشر أمام الجبهي، انظر: Sullivan and Brake, 'What the rodent prefrontal cortex can teach us about attention-deficit/hyperactivity disorder'. ولمراجعة ربط هذا الأدب بكيف تُبرمج الحساسية للتوتر في البشر باكرًا في الحياة، انظر: Matthews, 'Early programming of the hypothalamo-pituitary-adrenal axis'.

9. لتفصيل محدد لهذا البحث انظر: 'Reduced prefrontal gray matter volume and reduced autonomic activity in antisocial personality disorder'. لمقدمة أعم للمواضيع المعنية، انظر: Adrian Raine's 1993 book *The Psycho-pathology of Crime*.

10. شغل موضوع التمثيل المفكرين لقرون عديدة. أخذت وجهة النظر بأنه إذا نبهت منطقة من الدماغ بظهور الشيء س، فإنها تتعامل مع معلومات عن الشيء س، عندها يمكن القول إنه يحتوي على تمثيل لبعض مظاهر س.

11. Schachter and Singer, 'Cognitive, social, and physiological determinants of emotional state'

12. إحصائيًّا، لم يكن الدليل الداعم لنظرية شاشتر Schachter وسنجر Singer طاغيًا، لكن ذلك لم يمنعه من تحقيق تأثير هائل. لمراجعة للتجربة ومكانتها التي لا تزال مرموقة انظر: Scherer, 'Emotion'.

13. لمزيد من التفاصيل عن متلازمة كابجراس Capgras/ انظر: Feinberg, *Altered Egos*, pp. 32-41; Tamam and colleagues, 'The prevalence of Capgras syndrome in a university hospital setting'.

14. Joseph LeDoux (*The Emotional Brain*) and Antonio Damasio (*Descartes' Error*, *The Feeling of What Happens*, *Looking for Spinoza*) يقدم معرفة محدودة كم تبدو القصة الكاملة معقدة (نعرف حتى اليوم).

15. Damasio, *Looking for Spinoza*, p. 3.

الفصل العاشر: توقف وفكِّر

1. لمعرفة المزيد عن علم الأعصاب في الفصين أمام الجبهيين، انظر: Fuster, *Memory in the Cerebral Cortex*; Deacon, *The Symbolic Species*; or Goldberg, *The Executive Brain*.

2. لنظرة عامة للبحوث الحالية ووصف أكثر تفصيلًا للدليل التجريبي الذي يدعم فهمنا الحالي للتحكم في حركة العينين، انظر المقالة التي تراجع الموضوع: Paul Glimcher's review article 'The neurobiology of visual-saccadic decision making'.

3. شبكية العين البشرية التي تحول الضوء إلى إشارات يمكن أن يتعامل معها الدماغ، تحتوي على منطقة صغيرة مركزية، هي البقعة الصفراء، تستطيع أن تتعامل مع تفاصيل البصر الدقيقة. تحتوي بقية الشبكية على مستقبلات ضوئية يمكنها أن تكتشف التغيرات (مثلًا الحركة) إضافة إلى المظاهر العامة للبيئة البصرية. ينبه هذا النظام المكتشف للتغيير بسرعة الدماغ للمناطق المستهدفة (مثل البصيص الذي تراه من طرف عينك)، والذي يمكن عندها أن يُبحث بالتفصيل بتحريك العينين بحيث يتوضع الضوء من المنطقة الهدف على البقعة الصفراء. حتى الدماغ البشري ليس لديه موارد كافية كي يستطيع أن يتعامل مع كل شيء يراه في الوقت نفسه بالمستوى اللازم لتحديد الشيء. حل التطور هذه المشكلة بتقديم البقعة الصفراء، بقعة ضوئية تجول دون هوادة من نقطة إلى أخرى لتحبك العالم الذي نراه.

4. ليس فقط أننا نختار النظر إلى شيء، ثم نقوم بذلك بدقة وسرعة (حركة اهتزازية)، لكننا نستطيع أن نتابع مسار حركة الجسم بالأبعاد الثلاثة باستعمال الدوران (فوق/تحت، أيسر/أيمن) ومطابقة (أمام/خلف). نستطيع أن نقرر النظر إلى جسم فيما بعد (حركة اهتزازية متأخرة)، ثم نحرك أعيننا لتصحيح الموقع إذا اختفى الجسم (حركة اهتزازية موجهة بالذاكرة). ونستطيع أن ننظر بعيدًا عن الجسم (حركة اهتزازية معاكسة)، وهي مهمة يجدها أقرباؤنا من الثدييات أمرًا يصعب تعلمه. نستطيع أن نحرك أعيننا إلى أي مكان نريده، عندما نريد، سواء كان هناك شيء ننظر إليه (حركة اهتزازية مولدة داخليًا) أم لا، وهذا فقط هو كيف نرتكس لجسم، والأشخاص أكثر تعقيدًا من ذلك. دون حتى أن ندرك، تعدِّل أدمغتنا أعيننا لتشير إلى طيف واسع من العواطف، من الرعب (أعين مدورة شاخصة) إلى الحرج (الأعين للأسفل)، نستطيع حتى أن نتحكم في عروض خفية (مباشر، نظرة مفتوحة للقول (أنا صادق، ثق بي))، نزيِّف عواطفنا لنحاول التلاعب بالآخرين، مسدلين الستائر على نافذة أرواحنا؛ كل ذلك من كرتين مملوءتين بالهلام.

5. يبدو أن مناطق الفص الصدغي تستجيب أكثر للمعلومات عن موقع الجسم، ولكن التقسيم إلى (ماذا) و(أين)، هو إفراط في التبسيط؛ لأن الآلية البصرية تشمل في الواقع عدة قنوات، تعمل في آن واحد ومترابطة بقوة في كل مرحلة. لقد حاولت عرض بعض التعقيدات من دون أن أخنق القارئ بالتفاصيل.

6. لقراءة المزيد عن دور القشرة الأمام جبهية في إدارة المعلومات السياقية، انظر: Braver and Barch, 'A theory of cognitive control, aging cognition, and neuromodulation'.

7. الجدل بأن الروتينات الأوتوماتيكية أهم بكثير مما ندركه في كثير من الأحيان كان مظهرًا ملحوظًا لعلم النفس الاجتماعي، الذي يؤكد الطرائق التي يمكن أن تؤثر العوامل الاجتماعية من خلالها فينا من غير علمنا. أحد المؤيدين البارزين لهذه النظرة هو بلا شك جون بارغ John Bargh. لمناقشة بحثه انظر:

والمساهمات الأخرى في كتاب: Bargh, 'The automaticity of every-day life' Wyer, *The Automaticity of Everyday Life*، الذي كتب فيه بارغ المقالة الافتتاحية.

8. Lifton, *Thought Reform*, p. 23.

9. انظر على سبيل المثال: Block, 'On a confusion about a function of consciousness'.

10. الادعاء بأن التيقظ مستمر يتجاهل التغيرات التي تحصل في أثناء النوم، ليس أساسيًّا في مجادلتي، ووضع هنا للتبسيط. هناك دليل على أن بعض المثيرات البيئية يمكن أن يسجلها الدماغ حتى في أثناء النوم العميق، وهو ما يقترح أن تغيرات الصحو-النوم يمكن أن تكون جزءًا من التيقظ المستمر، وليس فارقًا في النوعية، لكن الدراسات على النوم، وحالات تغير الوعي الأخرى، هي خارج نطاق هذا الكتاب. لمزيد من المعلومات انظر: Dement and Vaughan, *The Promise of Sleep*; also Dietrich, 'Functional neuroanatomy of altered states of consciousness'.

11. Eliot, *Four Quartets* ('The Dry Salvages'، V, lines 27-9) مع أن هذه الحالة من الاستغراق تترافق بنشوة جمالية، فإن انغماس المرء في نشاطه يمكن أيضًا أن يكون طريقة لتجنب مواجهة عواقب هذا النشاط (انظر الفصل الخامس).

12. لمزيد عن هذه المجادلة، انظر: Taylor, 'Applying continuous modelling to consciousness'.

13. Mattay and colleagues, 'Catechol *O*-methyltransferase val[158]-met genotype and indi-vidual variation in the brain response to amphetamine'.

الفصل الحادي عشر: أمر الحرية ذاك

1. van Inwagen, *An Essay on Free Will*, p. 3.

2. تتضمن كتابات حديثة مهمة عن الحرية والحتمية: *Freedom Evolves* and *The Illusion of Conscious Will*, by Daniels Dennett and Wegner, respectively; Benjamin Libet and colleagues (*The Volitional Brain*); and Robert Kane (in *Free Will*, his edition of classic philosophical essays on the subject).

3. لمزيد من ميكانيك الكميات، والتحررية، والإرادة الحرة، انظر تعليقات دانيال دينيت Daniel Dennett في الفصل الرابع عن *Freedom Evolves*.

4. Skinner, 'A third concept of liberty (the Isaiah Berlin lecture)'. أشكر الأستاذ الجامعي سكينر Skinner على إعطائي نسخة عن المقالة.

5. انظر على سبيل المثال: Milton's *Areopagitica* and *The Tenure of Kings and Magistrates*.

6. انظر على سبيل المثال: Hobbes' *Leviathan*.

7. لمناقشة دور المناطق أمام الجبهية في السلوك الإرادي، انظر: "The will of the brain".

8. نوقش دور الحتمية البيولوجية في التفكير المعادي للسامية والتفكير النازي في كتاب Daniel Goldhagen's book *Hitler's Willing Executioners*.

9. يلاحظ آينسلي Ainslie أن «ما ينسق المصالح المختلفة في الأشخاص منفصلين هو محدودية الموارد» (Ainslie, *Breakdown of Will*, p. 41). إذا كنت أنا معاديًا للمجتمع، وكان صديقي ودود جدًّا، فإننا سنجبر على استيعاب مصالحي بصمت وعزلة، وكذلك مصلحة صديقي في التفاعل الاجتماعي. يجادل آينسلي Ainslie أن التنسيق نفسه يفرض على المصالح ضمن الدماغ البشري من حقيقة أن ذلك الدماغ لديه جسد واحد فقط تحت السيطرة المباشرة، وأن هذا التنسيق ينشئ إحساسنا بذات موحدة. كلما زاد تناسق مصالحنا، زاد مظهرنا بأننا ذوو أفق واحد.

10. van Inwagen, *An Essay on Free Will*, p. 3.

11. Dennett, *Freedom Evolves*, p. 180.

12. تدرس نظرية العزو الطرائق التي يشرح بها الناس الأسباب ويحددون بها المسؤولية على سلوك كل منهم تجاه الآخر. لمراجعة لهذا الحقل من علم النفس الاجتماعي انظر، Fincham and Hewstone, 'Attribution theory and research'.

13. Brehm and Brehm, *Psychological Reactance*.

14. كما لاحظنا في الفصل التاسع، فإن أسس إطلاق الإشارات التقويمية (من ضمنها المفاعلة) ليست مفهومة بصورة كاملة بعد. المناطق المرشحة هي قشر الحزام الأمامي، قشر المنطقة أمام الجبهي الأمامية الأنسية، والنوى القاعدية، وهي مجموعة من النويات تحت القشرية يعتقد أنها مهمة في اختيار الفعل. لمزيد عن دور النوى القاعدية في إعطاء إشارات عن قيمة المثير انظر، Glimcher, 'The neurobiology of visual_saccadic decision making'.

15. لدراسة أكثر تفصيلًا عن متلازمة يد الكائن الفضائي والاضطرابات الأخرى للإرادة الحرة انظر 'Free will in the light of neuropsychiatry'، وكذلك التعقيبات، ورد شين سبنسر Sean Spence في العدد نفسه.

16. لمزيد من التفاصيل انظر Blakemore and colleagues, ‘Delusions of alien control in the normal brain’

17. لمناقشة بعض مواضيع المفاهيمية التي تحيط بتجارب سيطرة الكائنات الفضائية انظر: de Vignemonta and Fourneret, ‘The sense of agency’.

الفصل الثاني عشر: الضحايا والمفترسات

1. تدل البحوث على حجم الجمجمة (قياس تقريبي لحجم الدماغ) أن أدمغة البشر يمكن أن تتفاوت بمقدار 500 سم[3] (الحجم الوسطي هو نحو 1400 سم[3]) لمزيد من المعلومات انظر موقع: <http://www.talkorigins.org/faqs/homs/a_brains.html>.

2. المثال على مادة كيميائية لها أفعال متعددة هو العامل المنشط للصفيحات؛ فإضافة إلى تأثيره في الصفيحات الدموية، فإن له دورًا في مكافحة الإنتان، وفي التكاثر، وفي تطور الدماغ وعمله. لمزيد من التفاصيل انظر: Taylor, ‘The possible role of abnormal platelet-activating factor metabolism in psychiatric disorders’

3. يراجع Persinger, ‘The neuropsychiatry of paranormal experiences’ الأعمال التي تدعم هذا الادعاء.

4. لمزيد عن هذا الموضوع انظر: Ridley, *Nature via Nurture*.

5. Hunter, *Brainwashing*, p. 118.

6. الفصل الثاني من Sekuler and Blake’s *Star Trek on the Brain* يسبر العواطف.

7. انظر على سبيل المثال: Hariri and Weinberger, ‘Functional neuroimaging of genetic variation in serotonergic neurotransmission’; Mormède and colleagues, ‘Molecular genetic approaches to investigate individual variations in behavioral and neuroendocrine stress responses’.

8. Cialdini, *Influence*, p. 210.

9. تعزى مقولة (لا شيء حق، كل شيء مسموح) مع الشك، لحساني صباح (1034-1124م)، أحد زعماء الطائفة الإسماعيلية وهي جزء من الإسلام الشيعي. انظر موقع DIS-INFO، لا شيء حق، كل شيء مسموح (<www.disinfo.com/archive/pages/article/id1562/pg1/index.html>). لما كان الوجدان المعبر عنه يتوافق مع العدمية (التي تدعي أن جميع القيود الأخلاقية يجب أن تلغى)، فقد أشرت إلى العدمية بدل المقولة.

10. يراجع Lefcourt, 'The function of the illusions of control and freedom' البحوث على عدد من الأنواع الحيوانية التي تدعم الرابطة بين فقدان السيطرة والاعتلال الصحي. لمراجعة أكثر تفصيلًا انظر: Schedlowski and Tewes, *Psychoneuroimmunology*، خاصة الصفحات 96-111.

11. تظهر المقارنة بين نص كتاب أدولف هتلر Adolf Hitler (المترجم) كفاحي وبين المجموعة المعيارية-الذهبية من الكتابات والكلام الإنكليزي، المجموعة الوطنية البريطانية، للتفاصيل انظر: <www. natcorp.ox.ac.uk>) أن التكرار النسبي للصفة (حرية) متشابه في النصين، ولكن يستعمل كتاب كفاحي فعل (حرر) والحال (بحرية) أكثر بمقدار الضعف، والمصدر (الحرية) أكثر من ثلاثة أضعاف ونصف، بالمقارنة بالمجموعة الوطنية البريطانية. استعمل هتلر Hitler الأفكار الأثيرية استعمالًا فاعلًا.

12. انظر على سبيل المثال: Winterer and Goldman, 'Genetics of human prefrontal function'.

13. من كان يريد أن يعرف المزيد عن هذا الشكل غير الاعتيادي من التعامل مع الدواجن فلينظر كتيب ثلاثة طرق لتنويم الدجاجة من تقويم الفلاح القديم، الموجود على موقع: <www.almanac.com/ preview2000/hypnotize.html>.

14. تعريف الشخصية الكارزميةالكارزمية (الساحرة) مأخوذ من *Oxford English Dictionary* التعريف الثاني هو)هدية أو معروف حر ممنوح خاصة من قبل الله؛ نعمة ، موهبة).

15. يعرِّف والاس، Wallace, 'Mazeway resynthesis'، طريق المتاهة بأنه جميع «البقايا المعرفية للمفاهيم السابقة» (الصفحة 170). انظر أيضًا: Stevens and Price, *Prophets, Cults and Madness*.

16. يغلب على الفصام والاضطراب ثنائي القطب (الذي يسمى أيضًا الهوس الاكتئابي) أن يحدثا في العائلات (Potash and colleagues, 'The familial aggregation of psychotic symptoms in bipolar disorder pedigrees')، وكثيرًا ما يكون أعضاء من مثل هذه العائلات مبدعًا بشدة. يناقش دانيال نيتل Daniel Nettle العلاقة بين الإبداع والجنون في الخيال القوي. بصورة خاصة أكثر يلاحظ Kay Redfield Jamison's *An Unquiet Mind*, Eve LaPlante's *Seized*، والسيرة الذاتية لعالم الرياضيات جون ناش John Nash التي كتبتها سيلفيا نصار، العقل الجميل، العلاقة بين الإبداع والاضطراب ثنائي القطب، وصرع الفص الصدغي، والفصام على الترتيب. لمزيد من التشابه بين الأعراض التي يبديها الأشخاص المبدعون الأصحاء عقليًّا والأعراض التي تشاهد في الفصام انظر: Claridge, *Schizotypy*.

17. تصنف استطلاعات الرأي -على سبيل المثال- الجريمة على أنها اهتمام بالغ، ومع ذلك فإن الجمعيات الخيرية التي تعمل مع المجرمين كثيرًا ما تواجه مشكلة في جمع التبرعات من الجمعيات العامة. إذا كنا نخبر المُستَطلعين بأننا فعلًا نتأثر كثيرًا بالجريمة ونخاف من الجريمة، فلماذا لا تعكس تبرعاتنا ذلك؟

يجب أن يتضمن أي جواب بالتأكيد أفكارًا عن الجريمة والمجرمين سائدة في التاريخ البريطاني الحديث؛ أفكارًا عن حرية التصرف، والمسؤولية الشخصية، وهل بالإمكان إصلاح المجرمين.

الفصل الثالث عشر: مصانع العقل

1. Machiavelli's *Il Principe* (الأمير)، الذي طبع عام 1532م أثار انتقادًا خاصًّا من الإنسانيين مثل Innocent Gentillet، الذي نشر كتابه ذا التأثير الهائل *The Anti_Machiavel* نشر في عام 1576م. لمزيد عن هذا الموضوع انظر التغير من العصور الوسطى إلى العصر الحديث (المبكر) واضح عند مقارنة العقول التي ألفت كتابًا مثل *Malleus Maleficarum* («هاكم الطريقة التي تتزاوج بها الساحرات مع تلك الشياطين المسماة إنكوبي»، الصفحة 243) بالتنظير السياسي المعقد لماكيافيلي Machiavelli بعد أقل من نصف قرن.

2. حسب كتاب Cruden's *Concordance* فإن (الوباء) مذكور بكثرة ذكر (الطعام) في الإنجيل.

3. جائحة المتلازمة الرئوي الحاد الشديد (SARS) عام 2003م مثال على ذلك.

4. عندما يجتمع شخصان لأول مرة، فإن تشابه العقائد بينهما يمكن أن يكون له تأثير كبير في كونهما سيتوافقان أو لا، أكثر من العوامل (البديهية) مثل الخلفية العرقية (Walker and Campbell, "Similarity of values and interpersonal attraction of Whites toward Blacks' ؛ انظر أيضًا: Rokeach, *The Open and Closed Mind*). يعدِّل الطرفان في علاقة مواقفهم الخاصة، وهذا أفضل للتوافق مع الشريك (Davis and Rusbult, 'Attitude alignment in close relationships').

5. مصطلح (معتقدات باهتة) مأخوذ من شعر بيتجيمان 'Huxley Hall' (*John Betjeman Collected Works*, p. 160).

6. Preston, *The Hot Zone*, p. 29.

7. هذا التشبيه الشعري مأخوذ من عالم علم وظائف الأعضاء Charles Sherrington. «الدماغ يستيقظ ويعود معه العقل. كأن درب التبان قد دخل في رقصة فلكية. بسرعة تصبح كتلة الرأس نولًا سحريًّا حيث تنسج ملايين من المكوكات البراقة نموذجًا متحللًا، هو دائمًا نموذج ذو معنى ولكنه نموذج ثابت أبدًا؛ انسجام متنقل لنماذج تحتية» (Sherrington, *Man on His Nature*, p. 178).

8. يناقش Daniel Goldhagen هذا الموضوع أكثر في *Hitler's Willing Executioners*.

9. انظر: Atran, 'Genesis of suicide terrorism'; Townshend, *Terrorism*.

10. يسبر عالم الاقتصاد الحائز جائزة نوبل Amartya Sen العلاقة بين الاقتصاد والحريات السياسية في كتابه *Development as Freedom*.

11. الاقتباس مأخوذ من Eagleton, *Literary Theory*, pp. 12-13. مقدمة ممتازة، وإن كانت متحدية لعمل Martin Heidegger هو كتاب George Steiner's *Heidegger*. الإشارة لويتغينستاين هي لأعماله المتأخرة، خاصة الذي نشر بعد موته *Philosophical Investigations*.

12. Street, *Mass Media, Politics and Democracy*, pp. 36-8.

13. Smith, *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations*.

14. Street, *Mass Media*, p. 37.

15. Street, *Mass Media*, p. 41.

16. Ofek, *Second Nature*, p. 120.

17. مثال: يظهر بحث على الشبكة لصحيفة الغارديان البريطانية (<http://www.guardian.co.uk/Archive/>)، التي هي صحيفة أكثر يسارية وتحررًا من الصحف البريطانية الأساسية الأخرى، أن مصطلح (جناح اليمين) المعبر عن المجموعة الخارجية قد استعمل (وسطيًّا، بين عامي 1999-2002م) ضعف ما استعمل المصطلح المعبر عن المجموعة الداخلية (جناح اليسار). هذا يعني أن صحيفة الغارديان تؤكد سياسات خصومها أكثر من وجهة نظرها الخاصة. بالمناسبة، يعد مصطلح (جناح اليسار) في السياسة، الذي يعود إلى زمن الثورة الفرنسية، من قبل بعض المعلقين، على أنه غير صحيح وعفا عليه الزمن (مثلًا، انظر: Freeden, *Ideology*, p. 79). مع ذلك، فحسب هذا البحث في الشبكة لا يزال هذا المصطلح واسع الاستعمال.

18. Street, *Mass Media*, p. 38.

19. يعطي مثالٌ من الحوار السقراطي، من نهاية كتاب أفلاطون *Euthyphro*، النكهة:

سقراط: «تتذكر بالتأكيد أنه باكرًا في النقاش المقدس و(المقبول إلهيًّا) لم يبدوا لنا شيئًا واحدًا».

يوثيفروا: «أتذكر».

سقراط: «حسنًا، ألا تدرك أنك تقول الآن أن المقدس هو ما توافق عليه الآلهة؟ بالتأكيد هذا ما هو (المقبول إلهيًّا)، أليس كذلك؟».

يوثيفروا: «بالتأكيد».

سقراط: «حسنًا، إما أن استنتاجنا كان غير صحيح إذًا، أو أن موقفنا الحالي -إن كان صحيحًا- غير صحيح».

20. مثال: القول «بالطبع لا أعتقد أن الدين سخافة بالكامل؛ لا بد أن هناك شيئًا فيه يجعله يستمر منذ أيامنا في الكهوف»، يمكن أن يفسر بسهولة على أنه يعني «الدين سخيف وكان يجب أن يختفي منذ زمن طويل».

21. كتاب Canetti's *Crowds and Power* الذي أدين له بكثير هنا، غني بالنقاش الرائع لتشبيهات الجموع (مثل: المجموعة الخارجية).

الفصل الرابع عشر: العلم والكوابيس

1. Marks, *The Search for the 'Manchurian Candidate'*, pp. 155-6.

2. لقراءة (سيرة) مشروع مانهاتن Manhattan، انظر: Richard Rhodes, *The Making of the Atomic Bomb*.

3. Marks, *The Search for the 'Manchurian Candidate'*, p. 228.

4. نشرت نسخة رفعت عنها السرية للبحث في وسائل الاستجواب الشيوعية عام 1956م. انظر: Hinkle and Wolff, 'Communist interrogation' (الذي نوقش في الفصل الخامس).

5. سيعتمد المستقبل كالذي تعرضه سوزان غرينفيلد على تقنيات التأثير مثلما نعتمد عليه اليوم. حتى لو أصبح أشخاص الغد بازدياد مغلفين آليًّا- منفعلين، ومستقبلين مشتتين لرعاية تقنية متزايدة التعقيد- فإن صناعة الدماغ ستحافظ على دورها الأساسي؛ سوف تصبح ببساطة مباشرة أكثر. إنزال التأثير في الأجهزة الآلية (من الورق إلى الحواسيب) يضعف إدراكنا لمصدرها، لكنه لا يضعف التأثير نفسه، بل قد يقويه. سوف نكون أكثر تقبلًا لأن نطيع حاسوبًا، أو نصًّا، من أن نطيع إنسانًا آخر. تملك الحواسيب إلى جانبها السلطة الظاهرية للمنطق، في حين تحمل النصوص، مثل الإلهامات، في كثير من الأحيان معتقدات مبنية فيها وهو ما يجعلنا نعتقد أنها صحيحة. نميل إلى نسيان أن الأجهزة هي فقط امتدادات سلكونية (أو انعكاسات ورقية) لمكوِّنها، تُملي، وتُقنع، أو تضع حججًا أخلاقية لخدمة بعض البرامج البشرية الخاصة. إذا طلب حاسوب طبيب من مريض المستقبل أن يغير حميته أو يخاطر بالسقوط ميتًا من ذبحة قلبية، فهذا ليس أقل من محاولة تأثير جرت من خلال آلة.

6. يصف بينفيلد بحوثه في: Penfield and Rasmussen, *The Cerebral Cortex of Man*.

7. أثبتت مراقبة النشاط العصبي على مستوى الخلايا العصبية القشرية أنها أصبحت ممكنة في الحيوانات باستعمال طرف التصوير البصرية. يحتاج التصوير البصري الحالي -للأسف- تعريض الدماغ لأصباغ سامة، لذلك فإن توسيعها إلى البشر لا يزال غير ممكن أخلاقيًّا.

8. *Jay, The Air Loom Gang* وصف رائع لأفكار ماثيوز، تطوره في الثورة الفرنسية، وكيف عامله الطب النفسي في عصره. انظر أيضًا ملاحظات الفصل الأول (الملاحظة 10).

9. مثالان ملحوظان من بين أمثلة كثيرة: Peter Little's *Genetic Destinies* and Matt Ridley's *Nature via Nurture*

10. Ryle, *The Concept of Mind*, pp. 15-16.

11. استعمل العلماء النازيون، وأكثرهم شهرة Josef Mengele في Auschwitz، أسرى اليهود عناصرَ لتجارب (كثيرًا ما كانت مميتة)، وهي ممارسات أدانتها مدونة نورمبرغ التي وضعها الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية. القول بأن موقف المنتصرين من حقوق الإنسان، على أقل تقدير، كانت مرنة، يظهر بوضوح في أمريكا، من بين أشياء عدة، في تجارب داء الزهري في توسكيجي التي منعت العلاج عمدًا عن 399 رجلًا أمريكيًّا من السود حتى تمكن مراقبة سير المرض الطبيعي. لمزيد عن تجارب الحكومة هذه وغيرها على الكائنات البشرية الذين لم يعترضوا، انظر موقع هيئة The Tuskegee Syphilis Study Legacy Committee website (<http://hsc.virginia.edu/hs_library/historical/apology/report.html>); Cornwell, *Hitler's Scientists* (especially pp. 356-66); Blum, *Rogue State*; and Marks, *The Search for the 'Manchurian Candidate'*.

12. الانسحاب من الواقع إلى الأوهام هي بالتأكيد العلامة المميزة للمتلازمات النفاسية مثل الفصام، لكننا جميعًا نستخدم الأحلام وسادة. «لا يستطيع البشر أن يتحملوا كثيرًا من الحقيقة»، كما تلاحظ T.S. Eliot في *Four Quartets* ('Burnt Norton'، I, lines 45-6). يجادل عالم النفس السريري أن حياة الغرب الحديثة لديها مقدمًا ملامح مشابهة للنفاس (Sass, *Madness and Modernism*)، وفي هذه الحالة فإن بناء الحقائق الافتراضية التي تتصورها غرينفيلد Greenfield سيكون امتدادًا للاتجاه وليس تغيرًا جذريًّا.

13. الاقتباس من: Eliot, *Four Quartets* ('Burnt Norton'، II, line 16).

14. الاقتباس من Browning, 'Andrea del Sarto'، line 51.

15. يقارن تشبيه أفلاطون الشهير للكهف (*The Republic*, VII, pp. 255-64) الوجود البشري بسجناء في كهف، يستطيعون أن يعرفوا العالم الخارجي بالنظر إلى ظلال على جدار الكهف. أما شيطان ديكارت Descartes الشرير الذي قد يكون خلق كونًا زائفًا لخداع الفيلسوف ليؤمن بمعتقدات غير صحيحة، وصف

في ثـاني تأمـل *Meditations on First Philosophy*؛ انظـر: Descartes, *Selected Philosophical Writings*, pp. 79_83.

16. Masefield, *The Box of Delights*.

17. Orwell, *Nineteen Eighty-Four*, p. 205.

الفصل الخامس عشر: اتخاذ موقف

1. Gladwell, *The Tipping Point*, p. 98.

2. تتطلب المواضيع المتعلقة بالثقة العامة بالاختصاصيين مزيدًا من الشرح، لكن ذلك لا يمكن أن يأخذ بي بعيدًا عن موضوع هذا الكتاب. لقراءة مقدمة حادة على موضوع الثقة وصعوبتها انظر: O'Neill, *A Question of Trust*

3. وصفت سابقًا النموذج الديكارتي للعقل الذي يرى العقول على أنها مواد متميزة فصلها الله عن المادة التي تصنع باقي العالم. وفي بواكير القرن العشرين، وقع تحدي مداخلة ثنائيات ديكارت Descartes خاصة من قبل مارتن هايدغر الذي وضع مصطلح (الكينونية) وهو المصطلح الذي يلمع في اقتباسات ستاينر (Steiner, *Heidegger*, p. 83). كتابات هايدغر صعبة الترجمة جدًّا، لكن الكينونية (حرفيًّا: (أن تكون هناك)) تعبر عن شعوره بأن الكائنات البشرية، كما يقول ستاينر Steiner، مغلفة في الواقع. أن تكون بشرًا أصلًا يعني بالضرورة أن تكون في العالم. حسب هايدغر Heidegger، لا يمكن أن يكون للبشر وجود على الإطلاق منفصلًا عن وجودهم في العالم. وهكذا تختفي الروح الخالدة، على الأقل بمفهومها التقليدي. هذا المعنى من أن يكون المرء محصورًا في الحياة الواقعية دون مهرب، هو ما يحاول المصطلح (التوضعية) أن يعبر عنه.

4. كتابان يذكّران بالقصور في اكتشاف الخداع هما: Paul Ekman's *Telling Lies* and Robert Hare's *Without Conscience*.

5. Philips, 'On Controversies in Religion', p. 131.

6. قد يبدو مثال شوي الأطفال متطرفًا، لكن يجدر تذكر أن الثقافات البشرية مارست ـ وفي بعض الأحيان لا تزال تمارس ـ القرابين في الطقوس، كالموت حرقًا، ووأد البنات.

7. Lukes, *Liberals and Cannibals*, p. 8.

8. Miller, *The Anatomy of Disgust*, p. 12.

9. عندما يحصل خطأ في عملية التعليم الاجتماعي تكون النتيجة مؤذية جدًّا لقدرة الطفل على التفاعل مع أقرانه. اقترح بعض الباحثين أن إهمال الطفل أو الإساءة إليه يمكن أن تكون عامل خطر كبيرًا للسلوك النفسي المرضي لاحقًا، انظر على سبيل المثال: Jonathan Pincus' *Base Instincts*.

10. أفكار التحرر المذكورة هنا متأثرة كثيرًا بمداخلة باري Barry، ولا أستطيع فعل شيء أفضل من أن أنصح بقراءة كتاب *Culture and Equality*. لقراءة تعليق انتقادي لأفكار باري Barry، انظر: Kelly, *Multiculturalism Reconsidered*.

11. هل من المجدي أن أذكر النقطة البديهية بأنني لا أساوي بين التفكير التحرري والثقافة الغربية، وبالتأكيد لا أربط التفكير الشمولي حصرًا بالثقافات الأخرى. يلاحق Jacob Talmon في كتاب *The Origins of Totalitarian Democracy* جذور الشمولية الحديثة إلى مصادر في القرن الثامن عشر الغربي مثل روسو Rousseau. على الرغم من أن وباء الشمولية سبق روسو Rousseau بكثير، فإنه ليس خاصًّا بثقافة محددة، ولقد ازدهر وباء الشمولية في ثقافات متباعدة كأوروبا والصين، والتحررية ليست حصرًا على العالم الغربي. الإسلام -على سبيل المثال- كثيرًا ما ينظر إليه في الغرب على أنه دين غير تحرري، مع ذلك فإن الإسلام تميز بتقاليد تسامح، وعلماء، وتفكير حر، واحترام للثقافات الأخرى. قدمت إسبانيا الإسلامية في العصور الوسطى -على سبيل المثال- ملاذًا لليهود الذين فروا من الاضطهاد في الدول الأوروبية، وهذا الكرم لم يجاره في كثير من الأحيان مسيحيو أوروبا. عندما احتل الزوجان فيرديناند وإيزابيلا حاكما أراغون وكاستيل غرناطة عام 1492م، ووحدوا إسبانيا تحت الحكم الكاثوليكي، طرد الإسبان اليهود أو أجبروا على التحول للمسيحية. لمزيد من التفاصيل انظر: Armstrong, *The Battle for God*, pp. 3-8

12. تشمل زيادة الحرية المجال الاقتصادي: توفير الأمن الأساسي لامتلاك العقار، وتخفيض تكاليف المعاملات التي تجري في التبادلات الاقتصادية (والتبادلات الاجتماعية الأخرى). يناقش الاقتصادي Hernando de Soto في كتاب *The Mystery of Capital* أهمية مثل هذه الإجراءات في النمو الاقتصادي.

13. «أنا لا أوافق على ما تقول، لكنني سأدافع حتى الموت على حقك في قوله». يشك في أن فولتير Voltaire قد قال فعلًا ما يكافئ هذا باللغة الفرنسية، لكن العبارة ملخص مناسب للموقف المعبر عنه؛ على سبيل المثال في كتاب *Treatise on Tolerance*

14. انظر على سبيل المثال: 'Dawkins, 'Good and bad reasons for believing'

◆◆◆◆◆

المراجع

الأفلام والموسيقى

Adams, J. (1988), 'News has a kind of mystery'. In *Nixon in China: highlights*. Recording number: 7559-794369. Nonesuch.

Blade Runner (1982), dir. R. Scott. Columbia TriStar Pictures.

A Clockwork Orange (1971), dir. S. Kubrick. Warner Brothers.

Groundhog Day (1993), dir. H. Ramis. Columbia.

Lehrer, T. (1965), 'The Folk Song Army'. In *That Was The Year That Was*. Recording number: R/RS 6179. Reprise Records.

Lehrer, T. (1965), 'Wernher von Braun'. In *That Was The Year That Was*. Recordingnumber: R/RS 6179. Reprise Records.

The Manchurian Candidate (1962), dir. J. Frankenheimer. United Artists.

The Matrix (1999), dir. A. Wachowski and L. Wachowski. Warner Brothers.

Memento (2001), dir. C. Nolan. Newmarket Films.

Metropolis (1927), dir. F. Lang. Paramount Pictures.

Pink Floyd—The Wall (1982), dir. A. Parker. Sony/Columbia.

Soylent Green (1973), dir. R. Fleischer. MGM.

The Truman Show (1998), dir. P. Weir. Paramount Pictures.

الكتب، والمجلات، والنشرات، والمواقع على الشبكة

'Belarus leader orders teachers of "ideology"'. *Irish Times*. 14 August 2003.

The Holy Bible: Authorized King James version (1611/1957). Glasgow: Collins World.

Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders 4th Edition Text Revision: DSM-IV-TR (2000). Washington, DC: American Psychiatric Association.

International Statistical Classification of Diseases and Related Health Problems. Tenth Revision: ICD-10 (1992). Geneva: World Health Organisation.

Malleus Maleficarum: the classic study of witchcraft (*c.*1486/1986), trans. M. Summers. London: Arrow.

'The Nicene Creed'. In *The Book of Common Prayer* (1662/1999). London: David Campbell, pp. 470-1.

Oxford English Dictionary (2002), CD-ROM v. 3.0; 2nd edition. Oxford: Oxford University Press.

The Qur'an: text, translation and commentary (*c.*632/2001), trans. A. Yusuf Ali, US edition. Elmhurst, NY: Tahrike Tarsile Qur'an.

'The Second Collect, for Peace'. In *The Book of Common Prayer* (1662/1999). London: David Campbell, p. 80.

Aaronovitch, D., 'Sins of the mother'. *The Observer*. 21 September 2003.

Aberbach, D. (1996), *Charisma in Politics, Religion and the Media: private trauma, public ideals*. Houndmills, Basingstoke: Macmillan.

Adorno, T.W., Frenkel-Brunswik, E., Levinson, D.J., *et al.* (1950), *The Authoritarian Personality*. New York: Harper and Brothers.

Aeschylus (*c.*458 BC/1999), *The Oresteia: a new version by Ted Hughes*, trans. T. Hughes. London: Faber and Faber.

Ainslie, G. (2001), *Breakdown of Will*. New York: Cambridge University Press.

Althusser, L. (1971), 'Ideology and ideological state apparatuses'. In *Lenin and Philosophy and Other Essays*, trans. B. Brewster. London: New Left Books, pp. 121-73.

Amnesty International, *Amnesty International Report 2002: no trade off between human rights and security*. <http://web.amnesty.org/web/ar2002.nsf/media/media?OpenDocument>.

Arendt, H. (1951), *Totalitarianism*. New York: Harcourt, Brace and World.

Armstrong, K. (2001), *The Battle for God: fundamentalism in Judaism, Christianity and Islam*. London: HarperCollins.

Arnold, M. (1853/1950), 'The Scholar-Gypsy'. In *The Poetical Works of Matthew Arnold*, eds. C.B. Tinker and H.F. Lowry. London: Oxford University Press, pp. 255-62.

Aronson, E. and Linder, D. (1965), 'Gain and loss of esteem as determinants of interpersonal attractiveness', *Journal of Experimental Social Psychology*, 1, pp. 156-71.

Atran, S. (2003), 'Genesis of suicide terrorism', *Science*, 299, pp. 1534-9.

Bain, A. (1899), *The Emotions and the Will*, 4th edition. London: Longmans, Green, and Co.

Bargh, J.A. (1997), 'The automaticity of everyday life'. In *The Automaticity of Everyday Life. Advances in Social Cognition. Volume X*, ed. R.S. Wyer. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum, pp. 1-61.

Barker, E. (1984), *The Making of a Moonie: choice or brainwashing?* Oxford: Basil Blackwell.

Barry, B. (2001), *Culture and Equality: an egalitarian critique of multiculturalism*. Cambridge: Polity.

Baumeister, R.F. (1987), 'How the self became a problem: a psychological review of historical research', *Journal of Personality and Social Psychology*, 52, pp. 163-76.

Baumeister, R.F., ed. (1999), *The Self in Social Psychology*. Philadelphia, PA: Psychology Press.

Baumeister, R.F. (2001), *Evil: inside human violence and cruelty*. New York: Owl Books.

Bentall, R.P. (2003), *Madness Explained: psychosis and human nature*. London: Allen Lane.

Berlin, I. (1958/1969), 'Two concepts of liberty'. In *Four Essays on Liberty*. New York: Oxford University Press, pp. 118-72.

Besteman, C., ed. (2002), *Violence: a reader*. Houndmills, Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Betjeman, J. (1954/2001), 'Huxley Hall'. In *John Betjeman Collected Works (New Edition)*. London: John Murray, p. 160.

Blackmore, S. (2000), *The Meme Machine*. New York: Oxford University Press.

Blakemore, S.-J., Oakley, D.A., and Frith, C.D. (2003), 'Delusions of alien control in the normal brain', *Neuropsychologia*, 41, pp. 1058-67.

Blakeslee, S. and Ramachandran, V.S. (1998), *Phantoms in the Brain: human nature and the architecture of the mind*. London: Fourth Estate.

Bleuler, E. (1950), *Dementia Praecox or The Group of Schizophrenias*, trans. J. Zinkin. New York: International Universities Press.

Block, N. (1995), 'On a confusion about a function of consciousness', *Behavioral and Brain Sciences*, 18, pp. 227-87.

Blum, W. (2003), *Rogue State: a guide to the world's only superpower*, 2nd edition. London: Zed Books.

Bodenhausen, G.V. (1990), 'Stereotypes as judgmental heuristics: evidence of circadian variations in discrimination', *Psychological Science*, 1, pp. 319-22.

Bourke, J. (2000), *An Intimate History of Killing: face-to-face killing in twentieth-century warfare*. London: Granta.

Bowker, J. (1995), *Is God a Virus? Genes, culture and religion*. London: SPCK.

Braver, T.S. and Barch, D.M. (2002), 'A theory of cognitive control, aging cognition, and neuromodulation', *Neuroscience and Biobehavioral Reviews*, 26, pp. 809-17.

Brehm, S.S. and Brehm, J.W. (1981), *Psychological Reactance: a theory of freedom and control*. New York: Academic Press.

British National Corpus, *British National Corpus (BNC)*. <www.natcorp.ox.ac.uk>.

British National Party, *Manifesto for the UK Council Elections, May 2003*. <www.bnp.org.uk>.

Brown, R. (2001), 'Intergroup relations'. In *Introduction to Social Psychology*, eds. M. Hewstone and W. Stroebe, 3rd edition. Oxford: Blackwell, pp. 479-515.

Browning, R. (1855/1983), 'Andrea del Sarto'. In *The Norton Anthology of Poetry*, eds. A.W. Allison, H. Barrows, C.R. Blake, *et al.*, 3rd edition. New York: W.W. Norton, pp. 737-42.

Browning, R. (1855/1983), '"Childe Roland to the Dark Tower Came"'. In *The Norton Anthology of Poetry*, eds. A.W. Allison, H. Barrows, C.R. Blake, *et al.*, 3rd edition. New York: W.W. Norton, pp. 732-6.

Buchan, J. (1919/1956), *Mr Standfast*. London: Penguin.

Burgess, A. (1962/1972), *A Clockwork Orange*. London: Penguin.

Cacioppo, J.T., Berntson, G.G., Adolphs, R., *et al.*, eds. (2002), *Foundations in Social Neuroscience*.

Cambridge, MA: MIT Press.

Canetti, E. (1960/1973), *Crowds and Power*. London: Penguin.

Carter, R. (2000), *Mapping the Mind*. London: Phoenix.

Catholic Church (1880/1981), 'Arcanum: Encyclical of Pope Leo XIII on Christian marriage, February 10, 1880'. In *The Papal Encyclicals. Volume 2: 1878-1903*, ed. C. Carlen. Wilmington, NC: McGrath, pp. 29-40.

Cialdini, R.B. (2002), *Influence: science and practice*, 4th edition. Needham Heights, MA: Allyn and Bacon.

Claridge, G. (1997), *Schizotypy: implications for illness and health*. Oxford: Oxford University Press.

Condon, R. (1959/1973), *The Manchurian Candidate*. Harmondsworth: Penguin.

Conroy, J. (2001), *Unspeakable Acts, Ordinary People: the dynamics of torture*. London: Vision.

Conway, A. (1690/1996), *The Principles of the Most Ancient and Modern Philosophy*, eds. A.P.

Coudert and T. Corse. Cambridge: Cambridge University Press.

Cook, C.M. and Persinger, M.A. (2001), 'Geophysical variables and behavior: XCII. Experimental elicitation of the experience of a sentient being by right hemispheric, weak magnetic fields: interaction with temporal lobe sensitivity', *Perceptual and Motor Skills*, 92, pp. 447-8.

Cornwell, J. (2003), *Hitler's Scientists: science, war and the Devil's pact*. London: Viking.

Council of Europe Committee on Legal Affairs and Human Rights, *Report: illegal activities of sects* (Doc. 8373: 13 April 1999). <http://press.coe.int/cp/99/351a(99).htm>.

Cruden, A. (1977), *Cruden's Complete Concordance to the Bible*, revised edition. Cambridge:Lutterworth Press.

Cultic Studies Journal, *The Council of Europe's Report on Sects and New Religious Movements*. 7. Case-law on sects. <http://www.csj.org/>.

Damasio, A. (1996), *Descartes' Error: emotion, reason and the human brain*. London: Papermac.

Damasio, A. (2000), *The Feeling of What Happens: body, emotion and the making of consciousness*. London: Heinemann.

Damasio, A. (2003), *Looking for Spinoza: joy, sorrow and the feeling brain*. London: Heinemann.

Darwin, C. (1872/1999), *The Expression of the Emotions in Man and Animals*, ed. P. Ekman, 3rd edition. London: HarperCollins.

Davenport-Hines, R. (2001), *The Pursuit of Oblivion: a global history of narcotics 1500-2000*. London: Weidenfeld and Nicolson.

Davis, J.L. and Rusbult, C.E. (2001), 'Attitude alignment in close relationships', *Journal of Personality and Social Psychology*, 81, pp. 65-84.

Dawes, R.M. (1996), *House of Cards: psychology and psychotherapy built on myth*. New York: Free Press.

Dawkins, R. (1976/1989), *The Selfish Gene*, new edition. Oxford: Oxford University Press.

Dawkins, R. (2003), *A Devil's Chaplain*. London: Weidenfeld and Nicolson.

Dawkins, R. (2003), 'Good and bad reasons for believing'. In *A Devil's Chaplain*. London: Weidenfeld and Nicolson, pp. 242-8.

De Sano, C.F. and Persinger, M.A. (1987), 'Geophysical variables and behavior: XXXIX. Alterations in imaginings and suggestibility during brief magnetic field exposures', *Perceptual and Motor Skills*, 64, pp. 968-70.

de Soto, H. (2001), *The Mystery of Capital: why capitalism triumphs in the West and fails everywhere else*. London: Black Swan.

de Vignemonta, F. and Fourneret, P. (2004), 'The sense of agency: a philosophical and empirical review of the "Who" system', *Consciousness and Cognition*, 13, pp. 1-19.

Deacon, T.W. (1997), *The Symbolic Species: the co-evolution of language and the human brain*. London: Allen Lane.

Deibert, R.J. (1997), *Parchment, Printing, and Hypermedia: communication in world order transformation*. New York: Columbia University Press.

Dement, W.C. and Vaughan, C. (2001), *The Promise of Sleep: the scientific connection between health, happiness, and a good night's sleep*. London: Pan.

Dennett, D.C. (2003), *Freedom Evolves*. London: Allen Lane.

Department of Education and Skills, *Department of Education and Skills: creating opportunity, releasing potential, achieving excellence*. <http://www.dfes.gov.uk/>.

Descartes, R. (1988), *Selected Philosophical Writings*, trans. J. Cottingham, R. Stoothoff and

D. Murdoch. Cambridge: Cambridge University Press.

Dietrich, A. (2003), 'Functional neuroanatomy of altered states of consciousness: the transient hypofrontality hypothesis', *Consciousness and Cognition*, 12, pp. 231-56.

DISINFO, *Nothing is True, Everything is Permitted: a deconstruction of the last words of Hassan-I Sabbah*, by Brian D. Hodges. <www.disinfo.com/archive/pages/article/id1562/pg1/index.html>.

Dretske, F. (1995), 'Belief'. In *The Oxford Companion to Philosophy*, ed. T. Honderich. New York: Oxford University Press, pp. 82-3.

Dunbar, R. (1997), *Grooming, Gossip and the Evolution of Language*. London: Faber and Faber.

Eagleton, T. (1983), *Literary Theory: an introduction*. Oxford: Basil Blackwell.

Edelman, M. (2001), *The Politics of Misinformation*. New York: Cambridge University Press.

Ekman, P. (1985), *Telling Lies: clues to deceit in the marketplace, politics, and marriage*. New York: W.W. Norton.

Ekman, P. (2003), *Emotions Revealed: understanding faces and feelings*. London: Weidenfeld and Nicolson.

Ekman, P., Sorenson, E.R., and Friesen, W.V. (1969), 'Pan-cultural elements in facial displays of emotion', *Science*, 164, pp. 86-8.

Eliot, T.S. (1935/1974), 'Burnt Norton'. In *Collected Poems 1909-1962*. London: Faber and Faber, pp. 189-95.

Eliot, T.S. (1941/1974), 'The Dry Salvages'. In *Collected Poems 1909-1962*. London: Faber and Faber, pp. 205-13.

Evans, E. (1956), *Tertullian's Treatise on the Incarnation*. London: SPCK.

Feinberg, T.E. (2002), *Altered Egos: how the brain creates the self*. New York: Oxford University Press.

Festinger, L. (1957), *A Theory of Cognitive Dissonance*. New York: Row, Peterson and Co.

Festinger, L., Riecken, H.W., and Schacter, S. (1964), *When Prophecy Fails: a social and psychological study of a modern group that predicted the destruction of the world*. New York: Harper and Row.

Fiedler, K. and Bless, H. (2001), ‘Social cognition’. In *Introduction to Social Psychology*, eds. M. Hewstone and W. Stroebe, 3rd edition. Oxford: Blackwell, pp. 115-49.

Fincham, F. and Hewstone, M. (2001), ‘Attribution theory and research: from basic to applied’. In *Introduction to Social Psychology*, eds. M. Hewstone and W. Stroebe, 3rd edition. Oxford: Blackwell, pp. 197-238.

Foucault, M. (1977/1991), *Discipline and Punish: the birth of the prison*. London: Penguin.

Fox, S. (1984), *The Mirror Makers: a history of American advertising*. New York: Morrow.

Freeden, M. (2003), *Ideology: a very short introduction*. Oxford: Oxford University Press.

Frieze, I.H. and Boneva, B.S. (2001), ‘Power motivation and motivation to help others’. In *The Use and Abuse of Power*, eds. A.Y. Lee-Chai and J.A. Bargh. Philadelphia, PA: Psychology Press, pp. 75-89.

Fromm, E. (1941/2001), *The Fear of Freedom*. London: Routledge.

Fuster, J.M. (1995), *Memory in the Cerebral Cortex: an empirical approach to neural networks in the human and nonhuman primate*. Cambridge, MA: MIT Press.

Galanter, M. (1999), *Cults: faith, healing, and coercion*, 2nd edition. New York: Oxford University Press. The Guardian, *Archive*. <http://www.guardian.co.uk/Archive/>.

Gesch, C.B., Hammond, S.M., Hampson, S.E., *et al.* (2002), ‘Influence of supplementary vitamins, minerals and essential fatty acids on the antisocial behaviour of young adult prisoners. Randomised, placebo-controlled trial.’ *British Journal of Psychiatry*, 181, pp. 22-8.

Giovannitti, L. and Freed, F. (1967), *The Decision to Drop the Bomb*. London: Methuen.

Gladwell, M. (2000), *The Tipping Point: how little things can make a big difference*. London: Little, Brown and Company.

Glimcher, P.W. (2003), ‘The neurobiology of visual-saccadic decision making’, *Annual Reviews of Neuroscience*, 26, pp. 133-79.

Glover, J. (2001), *Humanity: a moral history of the twentieth century*. London: Pimlico.

Goldberg, E. (2001), *The Executive Brain: frontal lobes and the civilized mind*. Oxford: Oxford University Press.

Goldhagen, D.J. (1997), *Hitler's Willing Executioners: ordinary Germans and the Holocaust*. London: Abacus.

Golding, W. (1958), *Lord of the Flies*. London: Faber and Faber.

Gombrich, E.H. (1977), *Art and Illusion: a study in the psychology of pictorial representation*, 5th edition. London: Phaidon.

Greenberg, J., Solomon, S., and Pyszczynski, T. (1997), 'Terror management theory of self-esteem and cultural worldviews: empirical assessments and conceptual refinements'. In *Advances in Experimental Social Psychology*. Volume 29, ed. M.P. Zanna. New York: Academic Press, pp. 61-139.

Greenfield, S. (2000), *Brain Story: unlocking our inner world of emotions, memories, ideas and desires*. London: BBC Worldwide.

Greenfield, S. (2003), *Tomorrow's People: how 21st century technology is changing the waywe think and feel*. London: Allen Lane.

Hamilton, W. (1870-74), *Lectures on Metaphysics and Logic*, 5th edition. Edinburgh: Blackwood.

Hare, R.D. (1999), *Without Conscience: the disturbing world of the psychopaths among us*. London: Guilford Press.

Hariri, A.R. and Weinberger, D.R. (2003), 'Functional neuroimaging of genetic variation in serotonergic neurotransmission', *Genes, Brain and Behavior*, 2, pp. 341-9.

Hatfield, E., Cacioppo, J.T., and Rapson, R.L. (1994), *Emotional Contagion*. Cambridge: Cambridge University Press.

Healy, D. (2002), *The Creation of Psychopharmacology*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Heinlein, R. (1961), *Stranger in a Strange Land*. New York: G. P. Putnam's Sons.

Henley, W.E. (1875/1982), 'Invictus'. In *The Rattle Bag*, eds. S. Heaney and T. Hughes. London: Faber and Faber, pp. 215-16.

Herring, J. (2002), *Criminal Law*, 3rd edition. Houndmills, Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Hewstone, M. and Stroebe, W. (2001), *Introduction to Social Psychology*, 3rd edition. Oxford: Blackwell.

Hillenbrand, U. and van Hemmen, J.L. (2002), 'Adaptation in the corticothalamic loop: computational prospects of tuning the senses', *Philosophical Transactions of the Royal Society: Biological Sciences*, 357, pp. 1859-67.

Hinkle, L.E. and Wolff, H.G. (1956), 'Communist interrogation and indoctrination of "Enemies of the States"', *American Medical Association Archives of Neurology and Psychiatry*, 76, pp. 115-74.

Hitler, A. (1939), *Mein Kampf*, trans. J. Murphy, unexpurgated edition. London:

Hutchinson and Co. in association with Hurst and Blackett.

HMSO, *National Curriculum*. <http://www.nc.uk.net/index.html>.

Hobbes, T. (1651/1996), *Leviathan*, ed. R. Tuck, revised student edition. Cambridge: Cambridge University Press. Home Office, *British Crime Survey (BCS) for 2001/2002*. <http://www.homeoffice. gov.uk/rds/pdfs2/hosb702.pdf>.

Horgan, J. (2000), *The Undiscovered Mind: how the brain defies explanation*. London: Phoenix.

Hume, D. (1777/1975), *Enquiries Concerning Human Understanding and Concerning the Principles of Morals*, eds. L.A. Selby-Bigge and P.H. Nidditch, 3rd edition. Oxford: Oxford University Press.

Hunter, E. (1951), *Brain-washing in Red China: the calculated destruction of men's minds*. New York: Vanguard Press.

Hunter, E. (1956/1959), *Brainwashing: the story of men who defied it*. London: World Distributors (Manchester).

Hutchinson, L. (1679/2001), *Order and Disorder*, ed. D. Norbrook. Oxford: Blackwell.

Huxley, A. (1932/1994), *Brave New World*. London: Flamingo.

Ingvar, D.H. (1994), 'The will of the brain: cerebral correlates of willful acts', *Journal of Theoretical Biology*, 171, pp. 7-12.

Institute for Propaganda Analysis (1938), *Propaganda Analysis*. New York: Columbia University Press. See <http://www.propagandacritic.com>.

James, H. (1898/1992), 'The Turn of the Screw'. In *The Turn of the Screw and Other Stories*. Oxford: Oxford University Press.

James, W. (1890/1983), *The Principles of Psychology*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Janis, I.L. (1982), *Groupthink: psychological studies of policy decisions and fiascos*, 2nd edition. Boston: Houghton Mifflin.

Jay, M. (2003), *The Air Loom Gang: the strange and true story of James Tilly Matthews and his visionary madness*. London: Bantam Press.

Juvenal (*c.*100-128/1940), 'Satire X'. In *Juvenal and Persius*, trans. G.G. Ramsay, Loeb Classical Library edition. London: Heinemann, pp. 192-221.

Kandel, E.R., Schwartz, J.H., and Jessell, T.M., eds. (2000), *Principles of Neural Science*, 4th edition. London: McGraw-Hill.

Kane, R., ed. (2002), *Free Will*. Oxford: Blackwell.

Kaplan, H.I. and Sadock, B.J. (1998), *Kaplan and Sadock's Synopsis of Psychiatry: behavioral sciences/clinical psychiatry*, 8th edition. Baltimore, MD: Williams and Wilkins.

Kelly, P., ed. (2002), *Multiculturalism Reconsidered: 'Culture and Equality' and its critics*. Cambridge: Polity.

King, T. (2004), 'Secularism in France', *Prospect*, 96, pp. 64-8.

Koestler, A. (1940/1994), *Darkness at Noon*. London: Vintage.

Koletzko, B., Agostoni, C., Carlson, S.E., *et al.* (2001), 'Long chain polyunsaturated fatty acids (LC-PUFA) and perinatal development', *Acta Paediatrica*, 90, pp. 460-4.

Krosnick, J.A. (1999), 'Maximizing questionnaire quality'. In *Measures of Political Attitudes*, eds. J.P. Robinson, P.R. Shaver, and L.S. Wrightsman. San Diego: Academic Press, pp. 37-57.

La Rochefoucauld, F. (1665/1959), *Maxims*, trans. L.W. Tancock. Harmondsworth: Penguin.

Laing, R.D. (1967), *The Politics of Experience; and, The Bird of Paradise*. Harmondsworth: Penguin.

LaPlante, E. (2000), *Seized: temporal lobe epilepsy as a medical, historical, and artistic phenomenon*. Lincoln, NE: iUniverse.com.

LeDoux, J. (1998), *The Emotional Brain: the mysterious underpinnings of emotional life*.

London: Weidenfeld and Nicolson.

LeDoux, J. (2002), *Synaptic Self: how our brains become who we are*. London: Macmillan.

Lefcourt, H.M. (1973), 'The function of the illusions of control and freedom', *American Psychologist*, 28, pp. 417-25.

Libet, B., Freeman, A., and Sutherland, K., eds. (1999), *The Volitional Brain: towards a neuroscience of free will*. Thorverton: Imprint Academic.

Lieven, A. (2004), 'Demon in the cellar', *Prospect*, 96, pp. 28-33.

Lifton, R.J. (1961), *Thought Reform and the Psychology of Totalism: a study of 'brainwashing' in China*. London: Victor Gollancz.

Little, P. (2002), *Genetic Destinies*. Oxford: Oxford University Press.

Locke, J. (1689/1997), *An Essay Concerning Human Understanding*, ed. R. Woolhouse.

London: Penguin.

Lukes, S. (2003), *Liberals and Cannibals: the implications of diversity*. London: Verso.

MacCulloch, D. (1996), *Thomas Cranmer: a life*. London: Yale University Press.

Marks, J. (1977/1991), *The Search for the 'Manchurian Candidate'*. New York: W.W. Norton.

Markus, H.R. and Kitayama, S. (1991/1999), 'Culture and the self: implications for cognition, emotion, and motivation'. In *The Self in Social Psychology*, ed. R.F. Baumeister. Philadelphia, PA: Psychology Press, pp. 339-67.

Masefield, J. (1935/1984), *The Box of Delights*. London: Fontana Lions.

Mattay, V.S., Goldberg, T.E., Fera, F., *et al.* (2003), 'Catechol *O*-methyltransferase val158-*met* genotype and individual variation in the brain response to amphetamine', *Proceedings of the National Academy of Sciences USA*, 100, pp. 6186-91.

Matthews, S.G. (2002), 'Early programming of the hypothalamo-pituitary-adrenal axis', *Trends in Endocrinology and Metabolism*, 13, pp. 373-80.

McClelland, D. (1975), *Power: the inner experience*. New York: Wiley.

Meerloo, J.A.M. (1951), 'The crime of menticide', *American Journal of Psychiatry*, 107, pp. 594-8.

Merriam-Webster, *Merriam Webster Online Dictionary. 2002.* <http://www.merriamwebster.com>.

Midgley, M. (1984/2001), *Wickedness*. London: Routledge.

Milgram, S. (1974/1997), *Obedience to Authority*. London: Pinter and Martin.

Mill, J.S. (1869/1989), 'The Subjection of Women'. In *On Liberty and Other Writings*, ed. S. Collini. Cambridge: Cambridge University Press, pp. 119-217.

Miller, A. (1953/1968), *The Crucible*. London: Penguin.

Miller, W.I. (1997), *The Anatomy of Disgust*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Milton, J. (1644/1991), 'Areopagitica'. In *John Milton: a critical edition of the major works*, eds. S. Orgel and J. Goldberg. Oxford: Oxford University Press, pp. 236-73.

Milton, J. (1649/1991), 'The Tenure of Kings and Magistrates'. In *John Milton: a critical edition of the major works*, eds. S. Orgel and J. Goldberg. Oxford: Oxford University Press, pp. 273-307.

Milton, J. (1674/1991), 'Paradise Lost'. In *John Milton: a critical edition of the major works*, eds. S. Orgel and J. Goldberg. Oxford: Oxford University Press, pp. 355-618.

Mormède, P., Courvoisier, H., Ramos, A., *et al.* (2002), 'Molecular genetic approaches to investigate individual variations in behavioral and neuroendocrine stress responses', *Psychoneuroendocrinology*, 27, pp. 563-83.

Nabokov, V. (1955/1997), *Lolita*. London: Weidenfeld and Nicolson.

Naipaul, S. (1981), *Black and White*. London: Sphere Books.

Nasar, S. (2001), *A Beautiful Mind*. London: Faber and Faber.

National Coalition Against Domestic Violence, *The Problem*. <http://www.ncadv.org/problem/what.htm>.

National Society for the Prevention of Cruelty to Children, *Child Killings in England and Wales*. <http://www.nspcc.org.uk/inform/Statistics/childkillingsenglandwales.doc>.

Nettle, D. (2002), *Strong Imagination: madness, creativity, and human nature*. New York: Oxford University Press.

Nietzsche, F.W. (1883-92/1958), *Thus Spake Zarathustra*, trans. A. Tille, eds. M.M. Bozman and R. Pascal. London: Dent; Dutton.

Ofek, H. (2001), *Second Nature: economic origins of human evolution*. Cambridge: Cambridge University Press.

Old Farmer's Almanac, *Three Ways To Hypnotize a Chicken*. <www.almanac.com/ preview2000/hypnotize.html>.

O'Neill, O. (2002), *A Question of Trust: the BBC Reith Lectures 2002*. Cambridge: Cambridge University Press.

Orwell, G. (1945/1951), *Animal Farm: a fairy story*. Harmondsworth: Penguin.

Orwell, G. (1949/1954), *Nineteen Eighty-Four: a novel*. Harmondsworth: Penguin. Parks, C.D. and Sanna, L.J. (1999), *Group Performance and Interaction*. Boulder, CO: Westview Press.

Pavlov, I.P. (1941), *Lectures on Conditioned Reflexes. Volume Two. Conditioned Reflexes and Psychiatry*, trans. W.H. Gantt. London: Lawrence and Wishart.

Peet, M., Glen, I., and Horrobin, D.F., eds. (2003), *Phospholipid Spectrum Disorders in Psychiatry and Neurology*, 2nd edition. Carnforth: Marius Press.

Penfield, W. and Rasmussen, T. (1950), *The Cerebral Cortex of Man: a clinical study of localization of function*. New York: Macmillan.

Persinger, M.A. (1983), 'Religious and mystical experiences as artifacts of temporal lobe function: a general hypothesis', *Perceptual and Motor Skills*, 57, pp. 1255-62.

Persinger, M.A. (2001), 'The neuropsychiatry of paranormal experiences', *Journal of Neuropsychiatry and Clinical Neurosciences*, 13, pp. 515-23.

Philips, K. (1664/1990), 'On Controversies in Religion'. In *The Collected Works of Katherine Philips: the matchless Orinda. Volume I: The Poems*, ed. P. Thomas. Stump Cross, Essex: Stump Cross Books, pp. 130-2.

Pincus, J.H. (2001), *Base Instincts: what makes killers kill?* New York: W.W. Norton.

Plato (*c.*360 BC/1987), *The Republic*, trans. D. Lee, 2nd (revised) edition. London: Penguin.

Plato (*c.*380 BC/1993). 'Euthyphro'. In *The Last Days of Socrates*, trans. H. Tredinnick and H. Tarrant, revised edition. London: Penguin, pp. 1-27.

Poe, E.A. (1835/1982), 'Berenice'. In *The Complete Tales and Poems of Edgar Allan Poe*, Modern Library edition. London: Penguin, pp. 642-8.

Poe, E.A. (1839/1982), 'The Fall of the House of Usher'. In *The Complete Tales and Poems of Edgar Allan Poe*, Modern Library edition. London: Penguin, pp. 231-45.

Poe, E.A. (1842/1982), 'The Pit and the Pendulum'. In *The Complete Tales and Poems of Edgar Allan Poe*, Modern Library edition. London: Penguin, pp. 246-57.

Poe, E.A. (1844/1982), 'The Premature Burial'. In *The Complete Tales and Poems of Edgar Allan Poe*, Modern Library edition. London: Penguin, pp. 258-68.

Potash, J.B., Willour, V.L., Chiu, Y., *et al.* (2001), 'The familial aggregation of psychotic symptoms in bipolar disorder pedigrees', *American Journal of Psychiatry*, 158, pp. 1258-64.

Pratkanis, A.R. and Aronson, E. (2001), *Age of Propaganda: the everyday use and abuse of persuasion*, revised edition. New York: W.H. Freeman.

Pressman, J.D. (1998), *Last Resort: psychosurgery and the limits of medicine*. New York: Cambridge University Press.

Preston, R. (1994), *The Hot Zone*. London: Doubleday.

Pullman, P. (1995), *Northern Lights*. London: Scholastic.

Pullman, P. (1997), *The Subtle Knife*. London: Scholastic.

Pullman, P. (2000), *The Amber Spyglass*. London: Scholastic.

Raine, A. (1993), *The Psychopathology of Crime: criminal behavior as a clinical disorder*. San Diego: Academic Press.

Raine, A., Lencz, T., Bihrle, S., *et al.* (2002), 'Reduced prefrontal gray matter volume and reduced autonomic activity in antisocial personality disorder'. In *Foundations in Social Neuroscience*, eds. J.T. Cacioppo, G.G. Berntson, R. Adolphs, *et al.* Cambridge, MA: MIT Press, pp. 1023-36.

Raphael, D.D. (1994), *Moral Philosophy*, 2nd edition. Oxford: Oxford University Press.

Raven, B.H. (2001), 'Power/interaction and interpersonal influence: experimental investigations and case studies'. In *The Use and Abuse of Power*, eds. A.Y. Lee-Chai and J.A. Bargh. Philadelphia, PA: Psychology Press, pp. 217-40.

Redfield Jamison, K. (1996), *An Unquiet Mind: a memoir of moods and madness*. London: Picador.

Rhodes, R. (1988), *The Making of the Atomic Bomb*. London: Penguin.

Ridley, M. (2003), *Nature via Nurture: genes, experience and what makes us human*. London: Fourth Estate.

Robins, R.S. and Post, J.M. (1997), *Political Paranoia: the psychopolitics of hatred*. New Haven, CT: Yale University Press.

Rokeach, M. (1960), *The Open and Closed Mind: investigations into the nature of belief systems and personality systems*. New York: Basic Books.

Ronson, J. (2002), *Them: adventures with extremists*. London: Picador.

Rushdie, S. (1996), *The Moor's Last Sigh*. London: Vintage.

Russell, B. (1935), *Religion and Science*. London: Thornton Butterworth.

Ryle, G. (1949), *The Concept of Mind*. London: Hutchinson's University Library.

Sacks, O. (1986), 'A matter of identity'. In *The Man who Mistook his Wife for a Hat*. London: Picador, pp. 103-10.

Salib, E. (2003), 'Effect of 11 September 2001 on suicide and homicide in England and Wales', *British Journal of Psychiatry*, 183, pp. 207-12.

Sargant, W. (1957), *Battle for the Mind: a physiology of conversion and brain-washing*. London: Heinemann.

Sass, L.A. (1994), *Madness and Modernism: insanity in the light of modern art, literature, and thought*. London: Harvard University Press.

Schachter, S. and Singer, J.E. (1962), 'Cognitive, social, and physiological determinants of emotional state', *Psychological Review*, 69, pp. 379-99.

Schacter, D.L. (2001), *The Seven Sins of Memory: how the mind forgets and remembers*. New York: Houghton Mifflin.

Schedlowski, M. and Tewes, U. (1999), *Psychoneuroimmunology: an interdisciplinary introduction*. New York: Kluwer Academic/Plenum.

Scheflin, A.W. and Opton, E.M. (1978), *The Mind Manipulators: a non-fiction account*. New York: Paddington Press.

Schein, E.H., Schneier, I., and Barker, C.H. (1961), *Coercive Persuasion: a socio psychological analysis of the 'brainwashing' of American civilian prisoners by the Chinese Communists*. New York: W.W. Norton.

Scherer, K.R. (2001), 'Emotion'. In *Introduction to Social Psychology*, eds. M. Hewstone and W. Stroebe, 3rd edition. Oxford: Blackwell, pp. 151-95.

Sekuler, R. and Blake, R. (1999), *Star Trek on the Brain: alien minds, human minds*. New York: W.H. Freeman.

Sen, A. (1999), *Development as Freedom*. Oxford: Oxford University Press.

Sherrington, C. (1940/1963), *Man on His Nature*. London: Cambridge University Press.

Skinner, Q. (1978), *The Foundations of Modern Political Thought. Volume One: th Renaissance*. Cambridge: Cambridge University Press.

Skinner, Q. (2002), 'A third concept of liberty (the Isaiah Berlin lecture)', *Proceedings of the British Academy*, 117, pp. 237-68.

Smith, A. (1776/1998), *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations: a selected edition*, ed. K. Sutherland. Oxford: Oxford University Press.

Spence, S.A. (1996), 'Free will in the light of neuropsychiatry', *Philosophy, Psychiatry, and Psychology*, 3, pp. 75-90.

Staub, E. (1990), 'The psychology and culture of torture and torturers'. In *Psychology and Torture*, ed. P. Suedfeld. Washington, DC: Hemisphere Publishing, pp. 49-76.

Staub, E. (2003), *The Psychology of Good and Evil: why children, adults, and groups help and harm others*. New York: Cambridge University Press.

Steger, M.B. and Lind, N., eds. (1999), *Violence and its Alternatives: an interdisciplinary reader*. Houndmills, Basingstoke: Macmillan.

Steigmann-Gall, R. (2003), *The Holy Reich: Nazi conceptions of Christianity, 1919-1945*. Cambridge: Cambridge University Press.

Steiner, G. (1992), *Heidegger*, 2nd edition. London: Fontana Press.

Stevens, A. and Price, J. (2000), *Prophets, Cults and Madness*. London: Duckworth.

Street, J. (2001), *Mass Media, Politics and Democracy*. Houndmills, Basingstoke: Palgrave.

Suedfeld, P. (1990), 'Torture: a brief overview'. In *Psychology and Torture*, ed. P. Suedfeld. Washington, DC: Hemisphere Publishing, pp. 1-11.

Sullivan, R.M. and Brake, W.G. (2003), 'What the rodent prefrontal cortex can teach us about attention-deficit/hyperactivity disorder: the critical role of early developmental events on prefrontal function', *Behavioural Brain Research*, 146, pp. 43-55.

Szasz, T.S. (1970/1997), *The Manufacture of Madness: a comparative study of the Inquisition and the mental health movement*. Syracuse, NY: Syracuse University Press.

Tajfel, H., Flament, C., Billig, M.G., *et al.* (1971), 'Social categorization and intergroup behaviour', *European Journal of Social Psychology*, 1, pp. 149-78. talk.origins, *Creationist Arguments: brain sizes*. <http://www.talkorigins.org/faqs/ homs/a_brains.html>.

Talmon, J.L. (1961), *The Origins of Totalitarian Democracy*. London: Mercury Books.

Tamam, L., Karatas, G., Zeren, T., *et al.* (2003), 'The prevalence of Capgras syndrome in a university hospital setting', *Acta Neuropsychiatrica*, 15, pp. 290-5.

Taylor, D., 'Ferguson has drive but not drink'. *The Guardian*, 22 January 2001.

Taylor, K. (2001), 'Applying continuous modelling to consciousness', *Journal of Consciousness Studies*, 8, pp. 45-60.

Taylor, K., 'A recipe for healthy brain growth: start with fish oil'. *Times Higher Education Supplement*, 29 March 2002.

Taylor, K. (2003), 'The possible role of abnormal platelet-activating factor metabolism in psychiatric disorders'. In *Phospholipid Spectrum Disorders in Psychiatry and Neurology*, eds. M. Peet, I. Glen and D.F. Horrobin, 2nd edition. Carnforth: Marius Press, pp. 93 110.

Townshend, C. (2002), *Terrorism: a very short introduction*. New York: Oxford University Press.

The Tuskegee Syphilis Study Legacy Committee, *A Request for Redress of the Wrongs of Tuskegee*. <http://hsc.virginia.edu/hs-library/historical/apology/report.html>.

Trummer, M., Eustacchio, S., Unger, F., *et al.* (2002), 'Right hemispheric frontal lesions as a cause for anorexia nervosa: report of three cases', *Acta Neurochirurgica*, 144, pp. 797-801.

Ungerleider, J.T. and Wellisch, D.K. (1979), 'Coercive persuasion (brainwashing), religious cults, and deprogramming', *American Journal of Psychiatry*, 136, pp. 279-82.

United Nations, *Status of Ratifications of the Principal International Human Rights Treaties, as of 09 December 2002*. <http://193.194.138.190/pdf/report.pdf>.

Valenstein, E.S. (1973), *Brain Control: a critical examination of brain stimulation and psychosurgery*. New York: John Wiley and Sons.

van Inwagen, P. (1983), *An Essay on Free Will*. Oxford: Clarendon Press.

Voltaire (1763/2000), *Treatise on Tolerance and Other Writings*, trans. B. Masters and S. Harvey, ed. S. Harvey. Cambridge: Cambridge University Press.

Walker, W.V. and Campbell, J.B. (1982), 'Similarity of values and interpersonal attraction of Whites toward Blacks', *Psychological Reports*, 50, pp. 1199-1205.

Wallace, A.F.C. (1956/2003), 'Mazeway resynthesis: a biocultural theory of religious inspiration'. In *Revitalizations and Mazeways: essays on culture change, volume 1*, ed. R.S. Grumet. Lincoln, NE: University of Nebraska Press, pp. 164-77.

Wegner, D.M. (2002), *The Illusion of Conscious Will*. London: MIT Press.

Weitz, E.D. (2003), *A Century of Genocide: utopias of race and nation*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Wells, H.G. (1895/1946), *The Time Machine and Other Stories*. Harmondsworth: Penguin.

Wells, S. and Taylor, G., eds. (1986), *The Oxford Shakespeare*. Oxford: Oxford University Press.

Whitman, W. (1855/1975), 'Song of Myself'. In *Walt Whitman: the complete poems*, ed. F. Murphy. Harmondsworth: Penguin, pp. 63-124.

Winterer, G. and Goldman, D. (2003), 'Genetics of human prefrontal function', *Brain Research Reviews*, 43, pp. 134-63.

Wittgenstein, L. (1953/1974), *Philosophical Investigations*, trans. G.E.M. Anscombe, 3rd edition. Oxford: Blackwell.

Wong, P.S. and Root, J.C. (2003), 'Dynamic variations in affective priming', *Consciousness and Cognition*, 12, pp. 147-68.

Wyer, R.S., ed. (1997), *The Automaticity of Everyday Life: advances in social cognition*. Volume X. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum.

Yeats, W.B. (1921/1983), 'The Second Coming'. In *The Norton Anthology of Poetry*, eds. A.W. Allison, H. Barrows, C.R. Blake, *et al.*, 3rd edition. New York: W.W. Norton, p. 883.

Zajonc, R.B. (1968), 'Attitudinal effects of mere exposure', *Journal of Personality and Social Psychology Monograph Supplement*, 9, pp. 1-29.

Zevenhuizen, A. (1998), *Erosion and Weathering*, trans. K.M.M. Hudson-Brazenall.London: New Holland.

قراءات إضافية

غسيل الدماغ

هنـاك ثلاثـة أعمـال رائدة عن غسـيل الدماغ هـي كتابان صحفيـان لإدوارد هنتـر Edward Hunter ، **غسـيل الدمـاغ وغسـيل الدمـاغ فـي الصيـن الالشـيوعية** and Brain–washing in Red China Brainwashing. وكتاب روبرت ليفتون Robert Lifton المدرسي **إصلاح التفكير وعلم نفس الشـمولية** Thought Reform and the Psychology of Totalism. يصـف كتـاب هنتـر Hunter الجو الوسواسـي لأمريـكا المعادية للشـيوعية في الخمسـينيات. وكتاب ليفتـون Lifton، على الرغم من عنوانه غير اللطيف، وصف رائع للبرامج الشيوعية الصينية لإصلاح التفكير. يصف كتاب أحدث، John Marks، The Search for the 'Manchurian Candidate' بحوث وكالة المخابرات الأمريكية في مجال التحكم في العقل.

الطوائف الدينية وعلم النفس الاجتماعي

كتاب **الطوائف الدينية** Cults لمارك غالانتر Marc Galanter تحليل نفسي لسلوك الطوائف الدينية، أما كتاب جون رونسـون John Ronson **هم** Them فهو كتاب أخف عن المتطرفين بصور مختلفة. لبحث علم نفس لسـلوك المجموعة انظر: Ervin Staub، The Psychology of Good and Evil. لعلم النفس الاجتماعي عامة فإن كتاب هيوسـتون، Hewstone وسـتروب Stroebe مقدمة في علم النفس الاجتماعي Introduction to Social Psychology كتاب جيد للابتداء.

علم الأعصاب

كتابـا سـوزان غريفيلـد Susan Greenfield **قصـة الدمـاغ** Brain Story، وريتـا كارتـر Rita Carter **رسـم خريطـة الدمـاغ** Mapping the Mind مقدمتـان فـي هذا الحقـل. لتفاصيل أكاديمية انظر: Cacioppo and colleagues' Foundations in Social Neuroscience أو Kandel and colleagues' Principles of Neural Science.

الإرادة الحرة

كتـاب دانيال دينيت Daniel Dennett **الحرية تتطور** Freedom Evolves كتاب جيد، ولو كان تقنيًّا إلى حد ما، بوصفه مقدمة للتفكير الفلسـفي الحديث عن الإرادة الحرة. يقدم كتاب **الإرادة الحـرة** Free Will الـذي يحـرره روبرت كيـن Robert Kane خيارًا مفيدًا من المقالات الكلاسـيكية عن الموضوع. تحليل الفعل النفسي بعبارات اقتصادية يمثله كتاب جورج آينسلي George Ainslie **تحطم الإرادة** Breakdown of Will، وهو أيضًا تقني في بعض أجزائه، لكنه يستحق عناء القراءة. يبحـث كتـاب **الدماغ الاختيـاري** Volitional Brain لبنجاميـن ليبـت Benjamin Libet وزملائه في العلوم العصبية للإرادة الحرة.

وسائل الإعلام والسياسة

كتاب موراي إيدلمان Murray Edelman **سياسات التضليل** The Politics of Misinformation وكتاب جون ستريت John Street **الإعلام الجماهيري، السياسة والديموقراطية** ،Mass Media Politics and Democracy مصـادر جيـدة لمزيـد مـن المعلومـات عـن الأثـر المشـوه للاتصالات العامـة. كتـاب أيزيبيا برلين Isaiah Berlin مفهومان في التحررية، مقالة رائدة عن التحررية، وهو موضـوع يبحـث فيـه برايان باري Brian Barry في كتابه الثقافة والمسـاواة Culture and Equality. لقـراءة الطـرف الآخر من الطيف السياسـي، كتاب هانا آرندت Hannah Arendt الشـمولية كتاب كلاسيكي في هذا الحقل.

مسرد المصطلحات

الاتفاقات بين الزمنية Intertemporal contract محاولة الشخص في وقت محدد (الزمن أ) للتأكد أنه في زمن مستقبلي ما (الزمن ب) سوف يتصرف بناء على رغبته كما هي في ذلك الوقت. المثال هو عقد العزم على التزام حمية.

الأتمتة Automatization: عملية يصبح بها الدماغ أكثر تأقلمًا أو أكثر معرفة بالفكرة.

أسلحة التأثير Weapons of influence: اسم آخر لتقنيات التأثير، يرتبط خاصة بعالم علم النفس الاجتماعي روبرت شيالديني Robert Cialdini، الذي يصف في كتابه **التأثير** ستة أسلحة للتأثير: التبادلية، والالتزام والثبات، والدليل الاجتماعي، والمحبوبية، والسلطة، والندرة.

إصلاح التفكير Thought reform: ترجمة اصطلاح استعمله الصينيون الشيوعيون لوصف وسائلهم في (إعادة التعليم) (تغيير السلوك و/أو المعتقدات) للأشخاص الذين لم يتفقوا معهم.

اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع APD antisocial personality disorder: وصف (رطانة حديثة طبية نفسية لشخص غير لطيف فعلًا). يشمل المتلازمة العدوانية، والقسوة، والخداع، وسلوكًا مستمرًّا مضادًّا للمجتمع وإجراميًّا. انظر أيضًا **الاعتلال النفسي**.

الاضطراب ثنائي القطب (الهوس الاكتئابي) (Bipolar disorder (manic depression: صورة من صور الاكتئاب، كثيرًا ما يترافق مع إبداع شديد، قد يتضمن أعراضًا نفاسية مثل الهلوسة. تتناوب أوقات من الاكتئاب الشديد التي قد تجعل الشخص انتحاريًّا، مرهقًّا بالشعور بالذنب، أو هامدًا لدرجة أنه لا يستطيع العمل، مع أوقات (هوسية) بنشاط عال إلى درجة أن كل شيء يبدو ممكنًا، والذي تحصل فيه الأفكار والخطط والأنشطة بمعدل مدهش.

الاعتلال النفسي Psychopathy: متلازمة يتميز بتمحور شديد للذات واستغلال دون رحمة للكائنات البشرية الأخرى، كثيرًا ما يترافق مع طلاوة وذكاء متقد. شخَّص لكثير من أكثر المجرمين عنفًا وتدميرًا في الغرب بأنهم معتلون نفسيًّا. في حين يشخص اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع عادة على أساس السلوك، فإن تشخيص الاعتلال النفسي يشير إلى خصال في الشخصية أيضًا. تدل بعض البحوث على أن الأشخاص المعتلين نفسيًّا ربما يتعاملون مع المعلومات العاطفية بصورة غير صحيحة، لكن سبب الحالة غير مفهوم بشكل كامل.

آفة Lesion: تلف لمنطقة من الدماغ، قد يسببها المرض (مثل السكتة الدماغية أو الورم)، أو حادث (مثلًا الحادث الصناعي الذي قذف فيه عمود معدني في مقدمة جمجمة فينياس غاغ Phineas Gage)، أو عمدًا (خزع الفص الجبهي).

الأفكار الأثيرية Ethereal ideas: أفكار مثل: الجمال، والعدالة، والحرية، محمَّلة بالقيم، ويمكن أن تثير عواطف قوية. هذه الأفكار تجريدية ومبهمة جدًّا، بحيث يمكن أن يكون لها معان مختلفة، وحتى متناقضة، بالنسبة إلى الأشخاص المختلفين. يختلف التأكيد المعطى للأفكار الأثيرية إلى حد ما عبر الثقافات، لكن الأفكار نفسها يعبر عنها كثيرًا، ومقدَّرة، وتناقش في المجتمعات البشرية.

الأكيمة العلوية (SC (superior colliculus: نواة صغيرة مدفونة عميقًا في الدماغ، سميت من اللاتينية (التلة الصغيرة)، تتدخل بصورة مهمة في التحكم في حركة العينين.

تحت القشرة Stimulus_driven: لب الدماغ، مصنوع من المادة البيضاء (ألياف واصلة تربط الخلايا العصبية معًا) تتوضع فيها نويات (تجمع خلايا عصبية) مثل اللوزة.

التحررية :Libertarianism العقيدة بأن الإرادة الحرة للإنسان مستقلة عن قوانين السبب والأثر؛ أي إن بعض الأفعال البشرية حرة على الأقل، بمعنى أنها لا تتسبب بأي شيء سوى الشخص المعني.

تخطيط الدماغ المغناطيسي (MEG (magnetoencephalography: شكل من أشكال التصوير العصبي الذي يقيس التغيرات الصغيرة في الحقل المغناطيسي للدماغ.

التصوير العصبي Neuroimaging: اسم جامع لتقنيات علمية حديثة تنظر داخل الدماغ البشري بمراقبة، وتحليل، وعرض مستويات ظاهرة تختلف حسب النشاط الدماغي، مثل الحقول الكهربائية أو المغناطيسية (التي تتأثر بالإشارات الكهربائية التي تطلقها الخلايا العصبية النشيطة). انظر أيضًا **تخطيط الدماغ المغناطيسي**، **التصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي**.

التصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي fMRI (functional magnetic resonance imaging): شكل من أشكال التصوير العصبي الذي يقيس التغيرات في التروية الدموية لمناطق الدماغ.

التعود Habituation: ظاهرة تتعب فيها الخلايا العصبية عندما تتعرض للتنبيه المستمر، حيث تستجيب أقل فأقل للإشارات الواردة المتتالية.

تفكير العالم العادل Just_world thinking : الافتراض (الذي كثيرًا ما يكون غير واع) بأن العالم أساسًا مكان عادل وجيد، وساكنوه (خاصة أولئك الذين في موقع السلطة) يعملون بصورة منطقية، ويقومون بالأذى فقط لسبب وجيه. يمكن أن يؤدي ذلك إلى الاستنتاج بأنه إذا كان الشخص يعاني بصورة واضحة أو تأذى، فلا بد أنه قد فعل شيئًا يستحق عليه ذلك.

التقلقل Lability: مصطلح جديد في العلوم العصبية يصف مدى سهولة تنشيط الخلايا العصبية. تحتاج بعض الخلايا العصبية إلى تنبيه شديد قبل أن تستجيب بأي حماس؛ في حين أن الخلايا الأكثر تقلقلًا تطلق إشاراتها بسهولة أكبر بكثير. يترافق التقلقل في الفصين الصدغيين بالروحانية، والنمط الفصامي، والإبداع. انظر أيضًا **صرع الفص الصدغي**.

متلازمة كابجراس Capgras syndrome: حالة نادرة ربما تنشأ عندما تتأذى الاتصالات بين **اللوزة والقشرة**. يتمتع المصابون برؤية طبيعية، ويمكنهم أن يتعرفوا وجوه الأشخاص، لكن المشاعر التي تترافق عادة مع رؤية الأشخاص المألوفين تبدو غائبة، وهو ما يؤدي بالمريض إلى الإصرار على أن الشخص المألوف قد استبدل به في الحقيقة رجل آلي أو شخص دجال.

متلازمة كوتارد Cotard syndrome: متلازمة عصبي نادر يعتقد فيه المصاب بأنه ميت.

التنافر المعرفي Cognitive dissonance: مصطلح من علم النفس الاجتماعي يشير إلى الشدة الناتجة من إدراك وجود تناقض. قد ينشأ التنافر عندما يصبح عدم التوافق بين معتقدين ظاهرًا للمُعتَقِد أو عندما تنشأ عواطف سلبية مثل الشعور بالذنب من قبل فني التأثير: الشعور بالتوتر يحفز الجهود لحل النزاع.

التحفيز المغناطيسي للدماغ (TMS (transcranial magnetic stimulation: تقنية لتغيير نشاط عدد كبير من **الخلايا العصبية** في وقت واحد بتطبيق حقل مغناطيسي على منطقة من الدماغ.

التوافقية Compatibilism: الادعاء أن الإرادة الحرة والسببية يمكن أن يتعايشا؛ أي إن مفهومًا ذا معنى ومتماسك للإرادة الحرة غير مستبعد بعقيدة **الحتمية**.

الوعي **Awareness**: صورة من صور الوعي مستمرة، ولا يشمل شعورًا محددًا بالذات. يحصل عندما ينغمس شخص بتفكير، أو تأمل، أو فعل، لكنه لا يبدي اهتمامًا بالذات أو يتذكر بوضوح بما يُفكر فيه أو يُفعل. عندما تخرج من قراءة كتاب أو مشاهدة فلم تتذكر منه فقط عناوين رئيسة (والجو) العام، وعندما تنظر إلى الخلف تتساءل: «أين كانت ذاتي» في كل هذا؟ أنت تنظر للخلف لحالة تيقظ. انظر أيضًا **المراقبة**.

الجراحة النفسية Psychosurgery: اسم جامع لتقنيات طبية تحاول أن تغير الملامح النفسية (مثل الشخصية أو المرض العقلي) باستعمال الجراحة الدماغية، من الأساليب الشائعة قطع الاتصالات بين مناطق الدماغ وقطع أو حرق مناطق مختارة من الدماغ. انظر أيضًا **خزع الفص الجبهي**.

الحتمية Determinism: فكرة أن الأحداث المستقبلية تتحدد بحوادث سابقة (أي لا يمكن أن تكون إلا كذلك). كثيرًا ما يعد ذلك بأن الفكرة تتضمن الإرادة الحرة لا يمكن أن توجد، وهذا موقف يعرف (بالحتمية القاسية).

الحركة الاهتزازية Saccade: حركة قافزة سريعة للعينين.

الحزام (القشرة الحزامية، التلفيف الحزامي) Cingulate (cingulate cortex, cingulate gyrus): منطقة من القشرة ملتوية في الوجه الداخلي لكل من نصفي الكرة المخية، يأتي اسمها من اللاتينية للحزام. وظائفها كثيرة جدًّا لكنها غير مفهومة إلا قليلًا، لكنه يظن أن لها دورًا مهمًّا في ربط مناطق القشرة وتحت القشرة وبإدخال المعلومات عن العالم في المعلومات المخزنة، وإدراك الحالة الراهنة للجسم. انظر أيضًا **الحزام الأمامي**.

الحزام الأمامي Anterior cingulate: قسم أمامي من القشرة الحزامية. انظر أيضًا الحزام.

حقول العين الجبهية (FEF (frontal eye fields: منطقة من **القشرة** توجد في القسم الأمامي من الدماغ والتي تتدخل في توليد **الحركات الاهتزازية** وحركات العينين الأخرى.

الحمض الريبي النووي منقوص الأكسجين (DNA (deoxyribonucleic acid:الجزيء الذي تتكون منه المورثات.

خزع الفص الجبهي :Lobotomy شكل من الجراحة النفسية التي تقطع فيها الاتصالات بين الفص الجبهي وبقية الدماغ. كانت تستعمل مجموعة متنوعة من حالات نفسية، لكنها لم تعد رائجة بعد بروز قلق أخلاقي.

السائل الدماغي الشوكي (CSF (cerebrospinal fluid: السائل المغموس فيه الدماغ الحي باستمرار (الأدمغة الميتة تغمس في الفورمول). الوسط خارج الخلوي هو الوسط الذي تنقل فيه الخلايا العصبية رسائلها من واحدة إلى الأخرى.

الستيروئيدات القشرية Glucocorticoid hormones: الهرمونات عامة، مثل التستسترون والأدرينالين، جزيئات تصنعها أعضاء الجسم التي تعمل عن بعد من موقع تصنيعها. الستيروئيدات القشرية، التي الكورتيزون أهمها، تنتجها غدتا الكظر، وتنظم استجابة الشدة للجسم تجاه التهديدات المدركة.

الشبكة المعرفية (Cogweb (cognitive web: مصطلح عام لأشياء عقلية تتضمن شبكات معرفية ومشاريع، وأفكارًا، ومفاهيم، ومعتقدات، وآمالًا، ورغبات، وخطط عمل، وهكذا. يمكن أن تكون الشبكات المعرفية ناشطة أو غير ناشطة.

الشحوم الفوسفورية Phospholipids: وحدات البناء الأساسية للأغشية الخلوية، المكافئ الخلوي للجلد. يحتوي كل جزيء من الشحوم الفوسفورية على جزيء من الشحم. نوع الشحم (غير مشبع أو مشبع) يحدد شكل الجزيء الشحمي الفوسفوري (مجعد أو مستقيم)، ومن ثم كم يمكن أن ترتص بعضها إلى بعض. يؤدي الارتصاص الشديد إلى نقص في مرونة الأغشية الخلوية، وهو ما يقلل من الكفاءة التي تستطيع فيها **العصبونات (الخلايا العصبية)** أن ترسل الإشارات بعضها إلى بعض.

الشمولية Totalism: ميل إلى التفكير بالأبيض والأسود، وبغض وتحقير من يفضل أطياف الرمادي. مع أن الشمولية المتطرفة تميز الأنظمة الشمولية، فمن الصعب إيجاد كائن بشري لم يخضع في وقت ما لإغواء التحيز والتفكير بشكل نمطي. يمجد مفكرو الشمولية على المستوى العالي قيمًا مثل البساطة، والنقاء، والإخلاص، والسلطة، على حساب أفكار أكثر تحررية مثل الحرية والتنوع.

صرع الفص الصدغي (TLE (temporal lobe epilepsy: صورة من صور الصرع تصيب الفص الصدغي. الصرع حالة تبدأ فيها بعض الخلايا العصبية ((بؤرة) الصرع بإطلاق إشارات أكثر من العادة، وهو ما يحرض موجة من إطلاق الإشارات تجتاح كامل الدماغ، وتعيق جدًّا الوظيفة الطبيعية. يمكن أن يترافق صرع الفص الصدغي مع إبداع شديد، أو هلوسات دينية أو هلوسات أخرى شديدة، ومع نمط فصامي. انظر أيضًا **التقلقل**.

صنع العقل Mindcraft: اسم جامع لآليات يغير فيها الناس عقول أناس آخرين.

ضد الأطباء النفسيين Anti-psychiatrists: مجموعة صغيرة (أمريكية في معظمها) من أطباء الطب النفسي الذين يجادلون بأن الطب النفسي المؤسساتي آلية لتحكم الدولة والإكراه

الاجتماعي. في أقصى أشكاله، تدعي الحركة المضادة للأطباء النفسيين أن الأمراض العقلية مثل الفصام حالات تنشأ كليًّا من الضغوط الاجتماعية.

طريق المتاهة Mazeway: مصطلح وضعه عالم البشريات أنتوني إف. سي. والاس للإشارة إلى مجموع كامل (البقايا المعرفية للمفاهيم السابقة) (Wallace, 'Mazeway resynthesis', p. 170). يضمَّن طريق المتاهة مفاهيم الفرد لثقافته. عندما تتغير البيئة، كما يحدث بعد كارثة طبيعية على سبيل المثال، لا يعود طريق المتاهة السابق يتلاءم مع المفاهيم الجديدة، وهو ما يؤدي إلى شدة داخلية عظيمة قد تسبب انهيار طريق المتاهة أو إصلاحها أو تشكيل طريق متاهة جديد. انظر أيضًا **الواردات التاريخية**.

العصبون (الخلية العصبية) (Neuron (nerve cell: الخلية الدماغية، الوحدة الأساسية في جميع الأدمغة.

علم الأدوية النفسي Psychopharmacology: دراسة آثار المواد الكيميائية على الظواهر النفسية مثل القلق والنفاس.

علم التطور الثقافي Memetics: تشبيه بين المورثات والأفكار، يفترض أن الأفكار ميميات، أي كيانات قادرة على التضاعف (الانتشار من دماغ لآخر)، والإصابة بطفرة، والتنافس على الموارد (الجماهير)، تمامًا مثل المورثات.

العواقبية Consequentialism: الادعاء بأن الأفعال يحكم بأنها صحيحة أو غير صحيحة بنتائجها، معروفة أكثر بأن (الغاية تبرر الوسائل).

غسيل الدماغ Brainwashing: مصطلح وضعه صحفي عامل في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إدوارد هنتر عام 1950م يصف آلية أو آليات أحدث فيها الصينيون الشيوعيون على ما يبدو تغييرًا جذريًّا في معتقدات الأسرى الأمريكيين، ويستعمل بصورة شائعة منذ ذلك الوقت لوصف طيف من الحالات تشمل محاولات متعمدة لتغيير عقول الناس دون إذنهم. لقد قسمت هذه المحاولات في صنفين (مع أنهما في الحقيقة مظهران لوحدة ضمنية، وأي حالة سوف

تحتوي ربما على شيء من الاثنين). الصنف الأول هو غسيل الدماغ بالقوة، أسرع وأشد، وقد يستخدم الإكراه أو حتى التعذيب للتغلب على **مفاعلة** الضحية. والثاني هو غسيل الدماغ بالتسلل، وهو أبطأ، وأقل شدة، ويعتمد على كون جهوده بمعظمها دون أن تلاحظ، بحيث لا تنشط المفاعلة في المقام الأول.

الفص الجبهي Frontal lobe: أحد الأقسام الأربعة الرئيسة لكل من نصفي الكرة الدماغية (أيسر وأيمن). يحتل الفص الجبهي في البشر معظم النصف الأمامي من القشرة، وهو يتدخل، من بين أمور عدة، في تخطيط الحركة والتحكم فيها، واتخاذ القرار، والذاكرة قصيرة الأمد.

الفص الجداري Parietal lobe: أحد الأقسام الأربعة الرئيسة في كل من نصفي الكرة المخيين (أيسر وأيمن). يتوضع في القسم العلوي من الدماغ. يعتقد أن للفص الجداري دورًا مهمًّا في تنسيق الحركات مع أهدافها، إضافة إلى إدراك الذات وتمثيل وضعية الجسم في الدماغ، وإدخال هذه المعلومات مع معلومات من الحواس الخارجية مثل البصر والسمع واللمس.

الفص الصدغي Temporal lobe: أحد الأقسام الأربعة الرئيسة في كل من نصفي الكرة المخيين (أيسر وأيمن). يتوضع في القسم الجانبي من كل من نصفي الدماغ. يتدخل الفص الصدغي، من بين أمور أخرى، في تعرف الأشياء والأماكن والأشخاص وتذكرها، ويتدخل في آلية الكلام. يسمى القسم السفلي من الفص الصدغي الذي يبدو أنه مسؤول خاصة على تعرف الأشياء، بالقشرة الصدغية السفلية.

الفص القذالي Occipital lobe: أحد الأقسام الأربعة الرئيسية في كل من نصفي الكرة المخيين (أيسر وأيمن). يتوضع في القسم الخلفي من الدماغ. الفص القذالي مسؤول بشكل أساسي عن آلية البصر.

فني التأثير Influence technician: شخص يطبق عمدًا وسائل التلاعب بمعتقدات الآخرين.

القشرة (المادة الرمادية) Cortex (grey matter): الطبقة الخارجية من الدماغ تتألف في معظمها من خلايا عصبية متجمعة (عصبونات) وخلايا داعمة (خلايا دبقية). يتكون الدماغ من نصفين

(نصفي كرة مخية)، أيمن وأيسر. تقسم المناطق القشرية في كل من الأيمن والأيسر بدورها إلى أربعة فصوص. انظر أيضًا: الفص الجبهي، الفص القذالي، الفص الجداري، الفص الصدغي.

الفص الجداري (PPC (posterior parietal cortex: منطقة من القشرة باتجاه أعلى الدماغ تتدخل في ربط الإدراك بحركات العينين.

القشرة الحجاجية الجبهية (OFC (orbitofrontal cortex, orbital frontal cortex: منطقة من الدماغ تتوضع فوق جوفي الحجاج، تتدخل في آلية العاطفة وتفسير وتطبيق القواعد الأخلاقية.

القشرة الصدغية السفلية (ITC (inferotemporal cortex: انظر: **الفص الصدغي**.

القشرة الأمام جبهية (PFC (prefrontal cortex: يقع في مقدم الفص الجبهي في الدماغ البشري. يعتقد أنه مسؤول عن الوظائف العليا مثل اتخاذ القرارات وإدراك الذات.

القشرة الأمام جبهية الأنسي (mPFC (medial prefrontal cortex: منطقة من القشرة قريبًا من منتصف الدماغ، يعتقد أنها تتدخل في عواطف معقدة وعمليات التقييم.

اللوزة Amygdala: نوية صغيرة تحت قشرية (مجموعة من الخلايا) مدفونة عميقًا في الفص الصدغي في الدماغ (أي يوجد لوزة واحدة في كل من طرفي الدماغ). أخذ الاسم من اليونانية لأنه يقال إن شكلها يماثل اللوزة، وهي تتدخل بصورة صميمة في التعامل مع العواطف. انظر أيضًا: **تحت القشرة**.

المجموعة الخارجية Outgroup: مصطلح من علم النفس الاجتماعي، يشير إلى الميل البشري العام لوضع الناس الآخرين في مجموعات نحن (قبيلتي، قومي، أو أي كيان مجتمع) وهم (خارجون، أعضاء مجموعات أخرى، أعداء). المجموعة الخارجية هي هم. هناك ميل إلى النظر إلى أعضاء المجموعة الخارجية بأن لها مكانة من الدرجة الثانية. في الحالات المتطرفة (مثلًا معاملة النازيين لليهود) يمكن أن يحتقروا وكأنهم دون البشر، ومن ثم يستبعدون من نطاق القيم الأخلاقية العادية. انظر أيضًا: **المجموعة الداخلية**.

المجموعة الداخلية Ingroup: مصطلح من علم النفس الاجتماعي، يشير إلى الميل البشري العام لوضع الناس الآخرين في مجموعات نحن (قبيلتي، قومي، أو أي كيان مجتمع) وهم (خارجون، أعضاء مجموعات أخرى، أعداء). المجموعة الداخلية هو نحن. يعامل أعضاء المجموعة الداخلية معاملة مميزة عن الآخرين. انظر أيضًا: **المجموعة الخارجية**.

مدفوع بالمثير Stimulus_driven: حالة عدم القدرة على التوقف والتفكير قبل الارتكاس للمنبه (الاندفاعية).

المراقبة Monitoring: شكل مخصص متقطع من الوعي يترافق مع الشعور بامتلاك ذات. تأخذ المراقبة عينات من أكثر مناطق الدماغ نشاطًا (أي تغمس ضمن التيقظ) عندما تُحرض للقيام بذلك بحالة تحدٍّ جديدة. يسمح ذلك للعينات بأن تختزن على أنها ذكريات محددة. انظر أيضًا **التيقظ**.

المستقبلات Receptors: جزيئات متخصصة تتوضع على الخلايا العصبية أو ضمنها، تغير صورتها عندما يفعِّلها جزيء الناقل العصبي، لتخبر الخلية العصبية أن خلية أخرى ترسل إليها إشارة.

المعالجة الدوائية Pharmacotherapy: العلاج باستعمال المواد الكيميائية (الأدوية).

المفاعلة Reactance: حالة عاطفية سلبية يفعِّلها إدراك وجود تهديد للحرية الشخصية، الذي قد يحرض ارتكاسًا دفاعيًّا عنيفًا جدًّا.

المنطقة الرمادية المحيطة بالقناة المخية PAG (periaqueductal grey): منطقة **تحت قشرية** تتدخل في توليد الإحساسات العاطفية.

المهاد Thalamus: مجموعة كبيرة من الخلايا العصبية (تجمعات عصبية) في مركز الدماغ، تنقل المعلومات بين القشرة والجسم.

النمط الفصامي Schizotypy: صفة من صفات الشخصية تتميز بالإبداع وأنماط غير عادية من التفكير والتجربة. الأهلاس القصيرة الأمد، مثل سماع صوت عندما لا يكون شخص آخر موجودًا، شائعة. يترافق النمط الفصامي المتقدم مع الاعتقاد بما وراء الطبيعي و/أو ظواهر روحية. انظر أيضًا **التقلقل**.

النواقل العصبية Neurotransmitters: الجزيئات التي تستعملها العصبونات (الخلايا العصبية) لإرسال إشارات بعضها إلى بعض.

الواردات التاريخية History inputs: معلومات الدماغ المختزنة بصورة شخصية فردية، تستعمل بالقشرة الأمام جبهية ومناطق الدماغ الأخرى لترشيح وتعديل المعلومات الواردة، والتفكير الجاري، والنشاط المخطط. انظر أيضًا **طريق المتاهة**.

الحرية، القدرات، التعقيد، الغاية وليس الوسائل، التفكير FACET (Freedom, Agency, Complexity, Ends-not-means, Thinking) اختصار من الحروف الأولى بالإنكليزية، يلخص الأفكار الأساسية التي ربما يكون تبنيها وتقويتها أفضل وسيلة لحماية الأفراد والمجتمعات من التفكير الشمولي.